أهم رواية كتبتها جودي بيكو على الإطلاق... الواشنطن بوست

جـودي بيـــكو

ترجمة: خالد الجبيلي

الرواية الأكثر مبيعا حسب نيويورك تايمز

أشياء صغيرة عظيمة



أَشْيَاءٌ صَغِيرَةٌ عَظِيْمَة

عنوان الكتــاب: أشْيَاءٌ صَغيرةٌ عَظيمَة

اســم المؤلــف: جودي بيكو

اســم المترجـم: خالد الجبيلي

الموضـــــوع: روايـــة

عدد الصفحات: 576 ص

القيـــــــاس: 14.5 × 21.5 سم

الطبعـة الأولى: 1000 /كانون الثاني 2023 م - 1444 هـ

رقم الإصدار	روايـة
1292	297

ISBN: 978-9933-38-504-0



سورية . دمشق . ص ب 4650

تلفاكس: 2314511 11 963+

هاتــف: 2326985 11 963+

الإمارات العربية المتحدة - الشارقة

- المنطقة الحرة - مدينة الإعلام للنشر

هاتــف: 506844076 971+

E-mail: info@ninawa.org
ninawa@scs-net.org

web: www.ninawa.org

دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

@House Ninawa



Ninawa house

ninawa_publishing_house

العمليات الفنية:

التنضيد والتدقيق والتحرير والتحقيق والإخراج والطباعة - القسم الفني:
دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

جودي بيكو

أَشْيَاءٌ صَغِيرةٌ عَظِيْمَة

ترجمة: خالد الجبيلي

Jodi Picoult

Small Great Things

Published in the United States by Ballantine Books, an imprint of Random House, a division of Penguin Random House LLC, New York.

عن المؤلّفة

كتبت جودي بيكو سبعاً وعشرين رواية، بيع منها أربعون مليون نسخة حول العالم. واحتلَّت آخر اثنتي عشرة رواية لها المرتبة الأولى في قائمة أفضل الكتب مبيعاً في صحيفة نيويورك تايمز، بما في ذلك آخر كتاب صدر لها، وهو (كتاب الطريقين). وقد حُوِّلت خمس روايات من رواياتها إلى أفلام، واقتُبست رواية (بين السطور) - التي كتبتها بالاشتراك مع ابنتها سامانثا فان لير - وحُوّلت إلى مسرحيَّة موسيقيَّة، وحصلت جودي بيكولت على العديد من الجوائز، بما فيها جائزة New England Bookseller Award for Fiction، وجائزة Alex Award الأدبيَّة عن الاستحقاق الأدبيِّ المتميِّز، وشاركت أيضاً في كتابة المسرحيَّة الموسيقيَّة (تنفُّس)، والمسرحيَّة الموسيقيَّة القادمة (سارقة الكتب). تعيش مع زوجها في نيو هامبشاير.

إلى كيفين فيريرا،

ذاك الذي تجعل أفكاره وأفعاله العالم مكاناً أفضل،

والذي علَّمني أنَّنا جميعاً مشاريع قيد الإنجاز.

أهلاً بك في الأُسرة.

مقدمة للرواية

في نهاية روايتها «أشياء صغيرة عظيمة» تقول المؤلفة جودي بيكو إنها طالما أرادت أن تكتب رواية عن العنصرية في الولايات المتحدة، ومنذ البداية، أكدت على أنها «نشأت امرأة بيضاء تتمتع بامتياز طبقي في المجتمع»، وأجرت لسنوات عديدة أبحاثاً، ومقابلات شخصية كثيرة لكي تتمكن من التعبير عن أصوات الأشخاص الذين ليست مثلهم: رجال، ومراهقون، وأشخاص ذوي ميول انتحارية، وزوجات معنّفات يتعرضن لسوء المعاملة، وضحايا اغتصاب. وتقول إن ما دفعها إلى كتابة تلك القصص شعورها بالغضب ورغبتها في منحها صوتاً ليزداد وعي أولئك الناس بالعنصرية. وقالت: «بدأت أُجري بحثي بالجلوس مع نساء ملونات. ومع أنني كنت أعرف أن إمطار الأشخاص الملونين بالأسئلة ليست أفضل طريقة لتثقيف الذات، أملت بأن أدعو تلك النسوة للمشاركة بطريقة ما، يقدّمن لي في المقابل هدية: فقد شاطرنني تجاربهن حول كيف يشعر الشخص الأسود في حياته، ولا أزال أشعر بالامتنان لتلك النسوة - لا لتحمّلهن جهلي فقط، وإنما لأنني كنت عازمة على أن أتعلّم منهن».

من المؤكد أنه لدى الكاتبة أفضل النوايا الحسنة، لكن السؤال هو: هل يمكن أن تُترجم النوايا الحسنة إلى رواية جيدة. في معظم النواحي، فإن رواية جودي بيكو رواية كلاسيكية - تتناول قضايا اجتماعية معاصرة، وتخلق شخصيات مثيرة للاهتمام موجودة في المجتمع الأمريكي، وتروي بأسلوب آسر الإجراءات المتبعة في المحاكم الأمريكية.

كانت روث جيفرسون وهي امرأة سوداء لديها ابن مراهق تعمل ممرضة في قسم المخاض والولادة في أحد المستشفيات لأكثر من عشرين سنة عندما جاء تورك وبريتاني باور إلى جناح الولادة الذي تعمل فيه لإنجاب طفلهما الأول، صبي يدعى ديفيس، لكن الأب، تورك، طلب ألاّ

تلمس روث الطفل الوليد لأنها سوداء البشرة – وبما أن جناح التوليد في المستشفى يعاني من نقص في الممرضات في ذلك الوقت، وجدت روث نفسها وحدها مع ديفيس الذي بدأ تنفّسه يتوقف. وكان على روث أن تقرر في تلك اللحظة إن كان عليها أن تراعي إنسانيتها والقسم الذي أدته عندما أصبحت ممرضة، أو أن تتبع الأوامر التي صدرت لها بألاّ تلمس ابن باور لأنها سوداء. في النهاية، فعلت روث كلا الأمرين، لكنها لم تستطع أن تمنع العواقب الوخيمة من الحدوث. فقد كان الوالدان اللذان ينتميان إلى جماعة «البيض المتفوقين العنصريين» يبحثان عن شخص يوجّهان إليه اللوم. وفي فترة قصيرة، عُلِّقت رخصة التمريض لدى روث، وأُوقفت عن العمل، ووجهت إليها تهمة ارتكاب جرائم جنائية، وأصبح مصيرها معلقاً في يد المحامية العامة كينيدي ماكواري، وهي امرأة بيضاء.

تتألق «أشياء صغيرة عظيمة» على نحو خاص عندما تكتب جودي بيكو من وجهة نظر تورك باور. فهي تجعل هذا الرجل الذي يعتنق أفكاراً بغيضة إنساناً أيضاً. فهو رجل عنصري يؤمن بتفوق البيض على الملونين، لكنه أيضاً زوج وأب. نرى غضبه وعجزه، وعندما تتكشف القصة، نرى كيف تعلّم الكراهية، وكيف تعرّف على بريتاني وأحبّها، وكيف أصبح الانتقام لابنه دافعه الوحيد في الحياة. وتبدو قصة تورك أحياناً كأنها تاريخ حركة تفوّق المتعصبين البيض الحديثة، لكن إذا نظرنا إلى المناخ السياسي الحالي، فهي رواية تنبؤية، بعيدة البصر، على درجة كبيرة من الأهمية.

ثم تأتي كينيدي، المحامية التي تدافع عن روث، متزوجة من جراح، لديهما طفلة. وكينيدي امرأة قلقة، طموحة وزوجة وأمّ محبّة، تتحدّث في نهاية الرواية باسم البيض الذين لا يدركون عنصريتهم إلاّ بعد مواجهتها. ففي مرافعاتها الختامية تقول كينيدي: «عندما بدأت العمل في هذه القضية لم أكن أرى نفسي عنصرية، أما الآن، فقد أدركت أنني كذلك، لا لأنني أكره الناس الذين ينتمون إلى أعراق مختلفة، وإنما لأنني - عن قصد أو غير قصد - حصلت على

جرعة تقوية بسبب لون بشرتي، تماماً كما تعرضت روث جيفرسون إلى مشكلة بسبب لون بشرتها».

تتناول الرواية مسألة لون البشرة، والتمييز المهني، والفصل العنصري، وتحديات طموح ذوي البشرة السوداء، والاعتداءات التي تحصل للسود، وبالطبع مسألة العرق ونظام العدالة، في الولايات المتحدة.

حبكة الرواية مشوِّقة، وبنيتها قوية، تمضي في وتيرة جيدة وأسلوب سلس. لقد استفادت جودي بيكو من جميع الصور النمطية للسود: فهنا الأم السوداء الأرملة، والمرأة السوداء الغاضبة، والأمّ، والخادمة، والمراهق، والواعظ المتميز. إن التناوب في فصول الرواية يظهر بوضوح الاختلاف في وجهات نظر روث، الأب الأبيض العنصري، تورك باور، ومحامية روث، كينيدي ماكوارى. وقد نجحت الكاتبة عندما تركت الرواية تزداد رسوخاً في سرد كينيدي، حكاية امرأة بيضاء تظن أنها ليبرالية أكثر مما هي في الواقع. إنها رحلة كينيدي للتصالح مع أقاربها العنصريين والامتياز الذي يتمتع به البيض، عندما تدرك لأول مرة، انتشار العنصرية الأمريكية. هذه هي القصة الحقيقية هنا.

المرحلة الأولى
المخاض المبكر

لن تتحقَّق العدالة إلى أن يغضب الذين لم يُظلموا
كما يغضب الذين ظُلموا.

بنجامين فرانكلين

روث

حدثت المعجزة في الشارع الرابع والسبعين - ويست، في المنزل الذي تعمل فيه أمّي. ثمَّة بيت كبير مشيَّد من الحجر البنيّ، محاط بسياج من الحديد المطاوع، وإلى جانبَي الباب المزخرف ينتصب تمثال وجه حجريّ نُحت من كوابيسي، يثير الرعب في نفسي، فكنَّا نستخدم دائماً الباب الجانبيَّ، الأقلَّ جمالاً، الذي تربط أمّي مفاتيحه بشريط في حقيبتها.

كانت أمّي تعمل لدى سام هالويل وأسرته من قبل أن أولد أنا وأختي. لعلَّك لن تعرفه من اسمه، لكنَّك ستعرفه عندما يقول لك «مرحباً»، لأنَّك لا تستطيع ألَّا تمييز صوته عندما يعلن قبل بدء كلِّ برنامج منذ منتصف ستينيات القرن العشرين: «يُقدَّم إليكم البرنامج التالي بألوان حيَّة عبر قناة إن بي سي». كان ذلك عام 1976، عندما حدثت المعجزة، وكان رئيس البرامج في شبكة إن بي سي. كان ما يميِّز جرس الباب أسفل تماثيل الوجوه البشعة النغمة الشهيرة ذات الرنَّات الثلاث، التي تذكِّر الجميع بشبكة إن بي سي. لَمَّا كنت آتي مع أمّي، كنت أتسلَّل في بعض الأحيان إلى خارج المنزل وأضغط على زرِّ الجرس، وأدندن مع صوته.

أخذتنا معها أمِّي في ذلك اليوم لأنَّ الثلج كان يتساقط بكثافة، فأُغلقت المدرسة، وبما أنَّنا كنَّا لا نزال فتاتين صغيرتين، كانت أمّي لا تستطيع أن تبقينا وحدنا في الشقَّة وتذهب إلى عملها - هذا ما كانت تفعله عندما يتساقط الثلج ويشتدّ البرد، وربَّما إذا ما حدثت زلازل أو قامت معركة هرمجدون يوم القيامة. تمتمت وهي تحشرنا في ثيابنا السميكة وأحذيتنا الطويلة، بأنَّها لا تهتمّ، حتَّى لو كان عليها أن تجتاز عاصفة ثلجيَّة، لكنَّها لا يمكن أن تترك السيِّدة مينا وحدها. في الواقع، كانت المرَّة الوحيدة التي

أذكر فيها أنَّ أمّي أخذت إجازة من عملها بعد خمس وعشرين سنةً، عندما أجرت عمليَّة استبدال مفصل الورك، العمليَّة التي سدَّدت أسرة آل هالويل تكاليفها بسخاء. مكثت في البيت أسبوعاً، حتَّى عندما لم تتماثل للشفاء تماماً أصرَّت على أن تعود إلى عملها. لكن، لَمَّا كنت صغيرة، إبَّان العطل المدرسيَّة ونوبات الحمَّى والأيَّام الثلجيَّة مثل اليوم، كانت أمّي تأخذنا معها بالقطار B إلى وسط مدينة نيويورك.

في ذلك الأسبوع، كان السيّد هالويل قد سافر إلى كاليفورنيا، وكان ذلك يحدث في أحيان كثيرة، وهذا يعني أنَّ حاجة السيّدة مينا وابنتها كريستينا إلى ماما تزداد، كما نحتاج إليها أنا وراشيل، لكن كان علينا أن نعتني بأنفسنا.

لَمَّا وصلنا أخيراً إلى الشارع الثاني والسبعين، كان العالم كلّه يكتسي حلَّة بيضاء، ولم تكن حديقة سنترال بارك الوحيدة التي تحوَّلت إلى كرة ثلجيَّة، ولم تكن وجوه الرجال والنساء الذين يرتجفون في العاصفة في طريقهم إلى عملهم تشبه وجهي أو وجوه أبناء أعمامي أو الجيران.

لم أزر أيَّ بيت في حيٍّ مانهاتن إلَّا بيت أسرة هالويل، إذ لم أكن أعرف كيف يمكن أن تعيش أسرة واحدة في هذا المنزل الضخم، لكنِّي أذكر أنَّني قلت في نفسي إنَّ ليس من المعقول أن نضع، أنا وأختي راشيل، ثيابنا السميكة وأحذيتنا في الخزانة الصغيرة الضيقة التي تقبع في المطبخ، في حين توجد مشاجب فارغة كثيرة ومساحات واسعة عند المدخل الرئيس حيث تعلّق كريستينا والسيّدة مينا معطفيهما، وحيث تضع أمّي أيضاً معطفها ووشاحها الذي يجلب لها الحظّ – الوشاح الناعم الذي تفوح منه رائحتها، والذي كنَّا نحاول، أنا وراشيل، كثيراً أن نضعه في منزلنا ونشعر أنَّنا نلمس تحت أصابعنا خنزير غينيا أو أرنباً. انتظرت حتَّى تتنقَّل أمّي عبر الغرف المعتمة مثل تينكر بيل وهو يهبط فوق مفتاح أو مقبض أو أكرة باب حتَّى يعود الوحش النائم في المنزل إلى الحياة شيئاً فشيئاً. قالت لنا أمّي محذِّرة: «اصمتا، وسأصنع لكما كوباً من الكاكاو كالتي أعدّها للسيّدة مينا».

كانت هذه الكاكاو، لذيذة الطعم، مستوردة من باريس. بعد أن ارتدت أمّي مئزرها الأبيض، أخذتُ ورقة من درج المطبخ وعلبة أقلام التلوين، التي أحضرتها من بيتنا، وبدأت أرسم بصمت. رسمت بيتاً كبيراً يشبه هذا البيت، وفيه أسرة: أنا وأمّي وأختي راشيل. حاولت أن أرسم الثلج، لكنّي لم أستطع. رسمتُ ندف الثلج بقلم تلوين أبيض، لكنَّها لم تظهر على الورقة. كانت الطريقة الوحيدة لرؤيتها هي أن أميل الورقة إلى أحد الجانبين نحو ضوء الثريا لأميِّز لمعان قلم التلوين.

«هل نستطيع أن نلعب مع كريستينا؟» سألت راشيل. كانت كريستينا في السادسة من عمرها، يقع عمرها بدقَّة بين عمري وعمر راشيل. كان لدى كريستينا أكبر غرفة نوم رأيتها في حياتي، ولديها ألعاب أكثر ممَّا لدى أيِّ شخص أعرفه. عندما تكون في المنزل ونأتي مع أمّي، كنَّا نلعب معها لعبة المدرسة، ونلعب بدمى الدببة التي لديها، ونشرب الماء بفناجين شاي خزفيَّة صغيرة حقيقيَّة، ونضفر شعر الدُّمى التي لديها، المصنوع من شعر الذرة، أمَّا إذا كانت صديقتها عندها، نبقى أنا وأختي في المطبخ نرسم ونلوّن.

لكن، قبل أن تجيبها أمّي، سمعنا صوت صرخة قوية ثاقبة أحسست أنَّها طعنتني في صدري. كنت متأكِّدة من أنَّها فعلت الشيء نفسه لأمّي لأنَّ قِدر الماء التي كانت تحملها كادت تقع منها. قالت لي: «لا تتحرّكي من هنا»، صوتها يتبعها وهي تصعد الدرج إلى الطابق العلويِّ.

كانت راشيل أول من تركت كرسيّها. لم تكن من اللاتي ينفّذن التعليمات بحذافيرها. جريت وراءها، وثمَّة بالون مربوط بخيط إلى معصمها. كانت يدي فوق درابزين الدرج المنحني، أمَّا هي فلم تلمسه.

كان باب غرفة نوم السيّدة مينا مفتوحاً على مصراعيه، وكانت السيّدة مينا تتلوَّى على السرير في حفرة غائرة من ملاءات الساتان، وقد برز بطنها المستدير كأنَّه قمر. ذكَّرني بياض عينيها الناصع بدوّامة الخيول في مدينة

الملاهي وقد تجمَّدت في الهواء وهي تطير. «لا يزال الوقت مبكراً جداً يا لو»، سمعتها تقول وهي تلهث.

«قولي ذلك لهذا الطفل»، ردَّت عليها أمّي، تمسك الهاتف بيد، والسيّدة مينا باليد الأخرى بقبضة قويَّة، ثمَّ قالت: «توقَّفي عن الضغط الآن، ستصل سيَّارة الإسعاف في أيِّ لحظة». تساءلت متى يمكن أن تصل سيَّارة الإسعاف وسط كلِّ هذا الثلج.

«ماما؟»

لم أدرك أنَّ الجلبة قد أيقظتها إلَّا بعد أن سمعت صوت كريستينا التي وقفت بيني وبين راشيل. «أنتنَّ، ثلاثتكنَّ، اذهبن إلى غرفة الآنسة كريستينا»، قالت أمّي بصوتها الواثق، «الآن».

لكنَّنا لم نبرح مكاننا، وسرعان ما نسيت أمّي أمرنا عندما غرقت في عالم صنع من ألم السيّدة مينا وخوفها، محاولة أن تكون الخريطة التي توجهها. رأيت حبالاً تبرز في رقبة السيّدة مينا وهي تئنّ، ورأيت أمّي تجثو على السرير بين ساقيها، وقد دفعت ثوبها فوق ركبتيها. رأيت الشفاه الورديَّة بين ساقَي السيّدة مينا وهي تنتفخ وتتباعد، ثمَّ رأيت قبضة رأس مستدير، ثمَّ عقدة الكتف، ودفق من الدم والسوائل، وفجأة، رأيت أمّي تحمل طفلاً بين ذراعيها.

«انظر إلى نفسك»، قالت بحبّ مكتوب على وجهها، «ألم تستعجل في المجيء إلى هذا العالم؟»

شيئان اثنان حدثا في آن معاً: فقد بدأت كريستينا تبكي عندما قُرع جرس الباب، وهدلت لها السيّدة مينا التي لم تعد خائفة الآن، لكنها ظلَّت تتفصَّد عرقاً، ووجهها لا يزال أحمر: «أوه يا حبيبتي»، ومدَّت لها يدها، لكنَّ كريستينا خافت ممَّا رأته والتصقت بي. ذهبت راشيل، الفتاة العمليَّة دائماً، لترى مَن في الباب، ثمَّ عادت يسير وراءها مسعفان طبِّيان انحنيا على الفور

وتولَّيا المهمَّة، فأصبح ما فعلته أمّي للسيّدة مينا مثل أيِّ شيء آخر تفعله في خدمة أسرة هالويل: مستمرّ وغير مرئيّ.

أطلقت أسرة هالويل على الطفل اسم لويس تيمُّناً باسم ماما. كان جميلاً، مع أنه ولد قبل أوانه بشهر تقريباً، ضحيَّة انخفاض الضغط الجويّ وهبوب عاصفة أدَّت إلى تمزُّق الأغشية قبل موعدها. بالطبع، لم أكن أعرف هذا في ذلك الوقت. كنت أعرف فقط أنَّه في ذلك اليوم الذي تساقط فيه الثلج في حي مانهاتن رأيت بداية شخص، وكنت مع ذاك الطفل قبل أن يتمكَّن أيُّ شخص أو أيُّ شيء في هذا العالم من أن يخيِّب أمله.

إنَّ رؤية ولادة لويس أمام أعيننا أثَّرت فينا جميعاً بطرائق مختلفة: فقد أنجبت كريستينا طفلها بوساطة أمٍّ بديلة، وأنجبت أختي راشيل خمسة أطفال، وأصبحت أنا ممرّضة أعمل في جناح المخاض والولادة.

عندما أروي هذه القصَّة للآخرين، يظنون أنَّ المعجزة التي أشير إليها في أثناء تلك العاصفة الثلجيَّة التي حدثت منذ زمن بعيد كانت مجرَّد ولادة طفل. صحيح، كان ذلك شيئاً عظيماً، لكنّي رأيت في ذلك اليوم أعجوبة أكبر؛ فعندما أمسكت كريستينا بيدي، وأمسكت السيّدة مينا بيد أمّي، كانت هناك لحظة - نبضة قلب، نَفَس واحد - حيث تبخَّرت خلالها كلُّ الاختلافات في مستوى التعليم والمال ولون البشرة، كما يتبخّر سراب في الصحراء. أصبح الجميع متساوين، وكانت هناك امرأة واحدة، تساعد امرأة أخرى.

أمضيت تسعاً وثلاثين سنة وأنا أنتظر تلك المعجزة مرَّة أخرى.

المرحلة الأولى

دور الولادة النشط

لا يمكن تغيير كلّ شيء يصادفنا،

لكن لا يمكن تغيير شيء إذا لم يصادفنا.

روث

كان أجمل طفل رأيته في حياتي، صبي ولد بلا وجه.

كان كاملاً من الرقبة حتَّى الأسفل: عشرة أصابع في يديه، عشرة أصـابع في قدميـه، بطن مكوَّر، لكن في المكان الذي يجب أن تكون فيه أذنه، توجد التِوَاءة في شفتيه، وفي فمه سنّ واحدة. وبدلاً من الوجه، توجد دوَّامة من الجلد من دون ملامح.

كانت أمُّه - مريضتي – في الثلاثين من عمرها، أوّل حمـل لهـا، وكانـت قـد تلقّـت رعاية ما قبل الـولادة شـملت فحصاً بالموجـات فـوق الصـوتية، لكـنَّ الطفـل كـان في وضعيّة لم يظهر فيها تشوّه الوجـه، وبـدا العمـود الفقـريّ والقلـب والأعضـاء الأخـرى سـليمة، لـذلك لم يتوقَّـع أحـد ذلـك. ربمَّـا لهـذا السـبب بالـذات، اختـارت أن تلـد في مستشفى الرحمـة - ويسـت هـافن، المستشـفى الصغير، ولـيس في مستشـفى ييـل - ويست هافن المجهَّز بمعدَّات أفضل بكثير لحالات الطوارئ. دخلت المستشفى بعد أن اكتملت فترة حملها، واستمرَّ المخاض لديها ستّ عشرة ساعة قبـل أن تضـع مولودهـا. لَمَّا حمل الطبيب الطفل، لم يُسمع صوت سوى الصمت. صمت أبيض طنَّان.

«هل هو على ما يرام»، سألته الأمّ مذعورة، «لماذا لا يبكي».

كانت تساعدني طالبة تمريض، وصرخت.

«اخرجي»، قلت لها بصرامة، ودفعتها خارج الغرفة، ثـمَّ أخـذتُ الطفـل من يد الطبيب ووضعته على جهاز التدفئـة، ومسـحت إفـرازات الهيـاليني من أطرافه، ثمَّ أجرى الطبيب اختباراً سريعاً، والتقت عيناه عينيَّ بصـمت، ثمَّ التفتَ إلى الوالدين اللذين عرفـا الآن أنَّ هنـاك خطـأً فظيعـاً. بعبـارات

لطيفة، قال لهما الطبيب إنَّ طفلهما يعـاني مـن عيـوب خلقيَّـة شـديدة لا يمكنهـا أن تتوافق مع الحياة.

يعدُّ الموت في جناح الولادة مرضاً شائعاً أكثر مـما يخيَّـل لـك. عنـدما تكـون لـدينا حالة انعدام الدماغ أو وفيات جنينيّة، فإنَّنا نعرف أنَّه لا يزال عـلى الوالـدين أن يضـمّا طفلهما ويحزنا لأنَّ هذا الرضيع – الذي لا يزال في قيد الحياة، مهما طالت مدّة ذلك - ابنهما.

نظَّفته وقمَّطته، كما أفعل لأيّ مولود آخر، في حين توقَّف الحـديث الـدائر خلفـي بين الوالدين والطبيب، وبدأ مثل سـيّارة تختنـق طـوال الشـتاء. لمـاذا؟ وكيـف؟ ومـاذا لو...؟ وكم من الوقت حتَّى...؟ أسئلة لا يريد أحد أن يسألها، ولا يريد أحـد أن يجيـب عنها.

كانت الأمُّ لا تزال تبكي عنـدما وضـعت الطفـل في ثنيـة مرفقهـا. يـداه الصـغيرتان تتحركان في شكل دائريّ. ابتسمتْ له، وقلبها في عينيها. همست: «إيـان. إيـان مايكـل بارنز».

بدت على وجهها قسمات لم أرها إلَّا في لوحات في المتاحف، تعبِّر عن حـبّ وحـزن شديدين، إلى درجة أنَّهما يكوّنان معاً بعض المشاعر الجديدة القاسية.

التفتُّ إلى الأب وقلت له: «ألا تريد أن تحتضن ابنك؟»

بدا كما لو كان مريضاً، وتمتم: «لا أستطيع»، واندفع إلى خارج الغرفة.

تبعته، لكنَّ الممرّضة المتدربة اعترضت طريقي، وقالـت بنـبرة اعتذاريَّـة، منزعجـة: «أنا آسفة. إنَّه فقط... إنَّه وحش».

فقلت لها مصحّحة: «إنَّه طفل رضيع»، ودفعتها جانباً، وخرجت.

عندما رأيت الأب في غرفة الآباء، قلت له: «زوجتك وابنك في حاجة إليك».

قال: «هذا ليس ابني. ذلك... الشيء...»

«لن يبقى على هذه الأرض فترة طويلة، وهذا يعني أنَّ من الأفضل أن تمنحه الآن كلَّ الحبِّ الذي خزَّنته طوال حياته». انتظرتُ حتَّى رفع بصره ونظر في عينيَّ، ثمَّ استدرت وخرجت. لم أنظر إلى الوراء لأعرف إن كان يتبعني.

لَمَّا دخلنا غرفة المستشفى، كانت زوجته لا تزال تحتضن الرضيع، تضغط شفتيها فوق قماش جبينه الناعم. أخذت الصرَّة الصغيرة من بين ذراعيها وأعطيت الطفل إلى زوجها. أخذ نفساً عميقاً، ثمَّ سحب البطانية من المكان الذي كان يجب أن يكون فيه وجه الطفل.

فكَّرت في تصرُّفاتي. إن كنت قد فعلت الصواب وجعلت الأب يواجه طفله الذي سيموت بعد فترة وجيزة، وهل يحقُّ لي أن أفعل ذلك كممرّضة! لو سألتني المشرفة عليَّ حينذاك، لقلت لها إنَّني تدرَّبت على مواساة الآباء المفجوعين. فإذا لم يعترف هذا الرجل بأنَّ شيئاً فظيعاً قد حدث حقّاً - أو الأسوأ من ذلك، لو ظلَّ يتظاهر طوال حياته بأنَّه لم يحدث قطّ – فإنَّ فجوة في داخله ستُفتح، صغيرة جداً في البداية، ثمَّ تكبر وتكبر، حتَّى يأتي يوم يدرك، من دون أن يتوقَّع ذلك، أنَّه أصبح خاوياً تماماً.

لَمَّا بدأ الأب يبكي، كانت الشهقات تهزُّ جسده مثل إعصار يحني شجرة. غاص إلى جانب زوجته على سرير المستشفى، فوضعت يداً على ظهر زوجها، واليد الأخرى على رأس الطفل.

تناوبا على حمل ابنهما طوال عشر ساعات. حتَّى إنَّ الأمَّ حاولت أن ترضعه. لم أتمالك نفسي عن عدم التحديق - لا لأنَّه كان قبيحاً أو مشوَّهاً، وإنَّما لأنَّه كان أروع شيء رأيته في حياتي. شعرت أنَّني أنظر إلى وجه الشمس: ولَمَّا أشحت بوجهي، لم أعد أرى أيَّ شيء آخر.

في لحظة ما، أخذتُ طالبة التمريض الغبيَّة معي إلى الغرفة، مدَّعية أنَّ عليها أن تفحص سجلِّ الأمّ، لكنّي أحضرتها لأريها بأمّ عينيها أن لا علاقة للحبِّ بالشيء الذي تنظر إليه، وإنَّما يتعلَّق كلُّ شيء بالشخص الذي ينظر.

لَمَّا مات الرضيع، ساد الهدوء. صنعنا قوالب ليدِ المولود وقدمِه كي يحتفظ بها الوالدان اللذان سمعت أنَّهما عادا بعد سنتين فأنجبا ابنة تنعم بصحَّة جيّدة، مع أنَّني لم أكن في الخدمة في ذلك الوقت.

هذا يريك أنَّ كلَّ طفل يولد جميلاً. إنَّ ما نُسقطه عليهم هو ما يجعلهم قبيحين.

بعد أن أنجبتُ إديسون قبل سبعة عشر عاماً في المستشفى عينه، لم أكن قلقة على صحَّة ابني، ولم أفكّر كيف سأتصرَّف لأنَّني سأصبح أمّاً، في حين كان زوجي خارج البلد، أو كيف ستتغيّر حياتي الآن بعد أن أصبحت أمّاً.

وإنَّما تركَّز قلقي حول شعري.

إنَّ آخر شيء تفكِّرين فيه عندما تكونين في مرحلة المخاض هو كيف يبدو مظهرك، وإذا كنتِ مثلي، فإنَّ ذلك أول شيء يخطر في بالك عندما تلدين طفلك. إذ يجعل العرق الذي يلصق شعر جميع مريضاتي من ذوات البشرة البيضاء على جباههنَّ جذور شعري تتجعَّد وتبتعد عن فروة رأسي. إنَّ تسريح شعري ولفّه حول رأسي مثل كوز بوظة بوشاح كلَّ ليلة هو ما يجعله مستوياً في اليوم التالي. لكنَّ الممرّضة البيضاء لم تكن تعرف أنَّ قارورة الشامبو المجانيَّة الصغيرة، التي يقدّمها المستشفى، ستزيد شعري تجعيداً. كنت متيقِّنة من أنَّه عندما ستأتي زميلاتي لتهنئتي بولادة إديسون، سيصبن بالذهول حين يرينَ الفوضى التي تعلو رأسي.

لذلك لففته بمنشفة، وأصبحت أقول للزائرات إنَّني أخذت حمَّاماً سريعاً منذ قليل.

حكت لي بعض الممرّضات اللاتي يعملن في أقسام الجراحة عن رجال كانوا يصرُّون على تمشيط شعرهم بعد أن يجروا عمليّات جراحيَّة قبل أن تأتي زوجاتهم ويرينَهم في غرفة الإنعاش. ولا يمكنني أن أخبركم عن عدد المرَّات التي أمضت فيها مريضة الليل بطوله وهي تصرخ وتتألَّم وتدفع وليدها،

وزوجها إلى جانبها، لكن ما إن تلد وليدها حتَّى تطلب إلى زوجها أن يغادر الغرفة كي أساعدها في ارتداء ثوب نوم جميل، وتعيد ترتيب نفسها.

أتفهَّم حاجة الناس إلى وضع وجه معيَّن أمام الآخرين، لذلك عندما وصلت إلى مناوبتي في الساعة 6:40 صباحاً - لم أذهب إلى غرفة الممرّضات حيث نتلقَّى التعليمات والمستجدات التي حدثت في الليلة الماضية من الممرّضة المناوبة، وإنَّما توجَّهت مباشرة إلى المريضة التي كنت أقوم على رعايتها البارحة. اسمها جيسي، ضئيلة الحجم، دخلت جناح التوليد كأنَّها السيّدة الأولى تقوم بحملة لانتخاب زوجها، أكثر من امرأة تمرُّ في مرحلة مخاض قويّ: كان شعرها مرتَّباً، وعلى وجهها مسحة من المكياج، ترتدي ثوباً في غاية الأناقة. لَمَّا نظرت إلى جدولها البياني، وقرأت أنَّ هذا أوّل حمل لها، ابتسمت. كان آخر شيء قلته لجيسي قبل أن أنقل رعايتها إلى ممرِّضة أخرى وعدت إلى البيت، إنَّني عندما أراها في صباح اليوم التالي ستكون قد أنجبت طفلها، ومن المؤكَّد أنَّ مريضة جديدة ستكون في انتظاري. أنجبت جيسي فتاة سليمة يبلغ وزنها سبعة أرطال وستّ أونصات.

لَمَّا فتحت باب الغرفة كانت جيسي نائمة، وطفلها يرقد في مهد نقَّال إلى جانب سريرها، وزوجها ممدّداً على كرسيّ، يشخر. لَمَّا دخلت الغرفة تحرَّكت جيسي، وضعت على الفور إصبعي على شفتي، بأن تصمت.

أخرجت من حقيبتي مرآة صغيرة وقلمَ أحمر شفاه.

إنَّ التحدُّث مع المريضة يعدُّ جزءاً من المخاض للتخفيف من ألمها، ويعدُّ الغراء الذي يربط الممرّضة بمريضتها. ما الذي يخطر في بالك عندما تمضي ممرّضة قرابة اثنتي عشرة ساعة وهي تقوم على رعاية شخص واحد؟ لذلك، يصبح التواصل الذي ينشأ بيننا وبين أولئك النسوة قوياً وسريعاً. وفي غضون ساعات قليلة، أعرف عنهنَّ أشياء لا تعرفها حتَّى صديقاتهنَّ: كيف التقت شريكها، وكيف أنَّ أباها لم يعش طويلاً ليرى حفيده هذا، وكيف أنَّها تخشى أن تصبح أمّاً لأنَّها كانت تكره أن تصبح

جليسة أطفال عندما كانت مراهقة. في الليلة الماضية، عندما اشتدَّ الطلق لدى جيسي، وبدأت تبكي، وراحت تكلِّم زوجها بعصبيَّة، أشرت إليه أن يذهب إلى الكافتيريا ويتناول قليلاً من القهوة. لَمَّا غادر الغرفة، أصبح الهواء في الغرفة أسهل للتنفُّس، قالت: «ماذا لو غيَّر هذا الطفل كلَّ شيء؟»، وهي تبكي. ثمَّ قالت إنَّها لم تغادر البيت قطّ من دون أن تضع مكياجاً، وإنَّ زوجها لم يرها قطّ حتّى من دون مسكرا على عينيها، وها هو ذا الآن يرى جسدها يتشنَّج، وتساءلت كيف سينظر إليها كما كان يراها.

الشيء الغريب في الأمر أنَّني عندما أقول للناس إنَّني أعمل ممرّضة في جناح المخاض والتوليد منذ أكثر من عشرين عاماً، يبدون إعجابهم بأنّني ساعدت في إجراء عمليّات قيصريَّة، وأنّني أستطيع أن أعطي حقناً في الوريد وأنا نائمة، وأنَّ في مقدوري أن أميّز بين تباطؤ معدّل ضربات قلب الجنين الطبيعيّة وتلك التي تحتاج إلى تدخّل طبيّ. وهذا يعني أنَّني أعرف مريضتي جيّداً وكلّ ما تحتاج إليه: تدليك على الظهر، تخدير فوق الجافية، وبعض مستحضرات مايبيلين التجميليَّة.

نظرت جيسي إلى زوجها وهي لا تزال ميتة، غير واعية لما يجري من حولها، ثمَّ أخذت قلم أحمر الشفاه من يدي، وهمست: «شكراً»، وتلاقت أعيننا. وضعت المرآة أمامها حتَّى تعيد اختراع نفسها من جديد.

تكون مناوبتي عادة يوم الخميس من الساعة السابعة صباحاً حتَّى السابعة مساء، في مستشفى الرحمة - ويست هافن. في فترة النهار توجد عادة ممرِّضتان في جناح التوليد - ثلاث ممرِّضات إذا كان لدينا عدد وافر من الممرِّضات في ذلك اليوم. وعندما أسير في الجناح، ألاحظ بهدوء عدد غرف التوليد - ثلاث الآن، بداية طيبة وبطيئة لهذا اليوم. لَمَّا دخلت الغرفة كانت ماري، الممرّضة المسؤولة، لا تزال في الغرفة التي نعقد فيها اجتماعنا الصباحيّ، أمّا كورين - الممرّضة الثانية معي في المناوبة – فلم تكن موجودة. «ماذا يوجد لدينا اليوم؟» سألت ماري وهي تقلِّب صفحات جريدة الصباح.

«ثُقب إطار سيّارتها»، أجبتها. كانت لعبة التخمين بما حدث لها شيئاً روتينياً: ما العذر الذي ستلجأ إليه كورين اليوم لسبب تأخّرها، فاليوم يوم خريف جميل، لذلك لا يمكنها أن تلقي اللوم على الطقس.

«كان ذلك في الأسبوع الماضي، أمَّا الآن فهي مصابة بالزكام».

قلت: «بالمناسبة، كيف حال إيلا»، ابنة ماري ذات السنوات الثماني، التي أصيبت بجرثومة المعدة المنتشرة هذه الأيام.

ردَّت ماري: «الحمد لله، عادت إلى المدرسة اليوم»، وأضافت، «لقد انتقلت العدوى الآن إلى دايف. أظنّ أنَّ أمامي أربعاً وعشرين ساعة حتَّى يأتيني الدور»، ورفعت عينيها من قسم الأخبار الإقليميَّة في الصحيفة، وقالت: «رأيت اسم إديسون هنا مرَّة أخرى».

لقد أحرز ابني مرتبة الشرف طوال فترة دراسته في المدرسة الثانويَّة، لكنّي أقول له دائماً إنَّ ذلك ليس سبباً للمباهاة، «فهناك تلاميذ أذكياء كثيرون في هذه البلدة».

قالت ماري: «على الرَّغم من ذلك، فأن يكون فتى مثل إديسون ناجحاً ومتفوّقاً... يتطلَّب أن تكوني فخورة به، هذا كلّ ما في الأمر. أتمنّى أن تصبح إيلا طالبة متفوّقة مثله».

فتى مثل إديسون. أعرف ما الذي تقصده، حتَّى لو أنَّها حرصت على ألَّا تقول ذلك. فلا يوجد طلاب سود كثيرون في المدرسة الثانوية، وأعرف أنَّ إديسون الطالب الوحيد الذي يتصدَّر قائمة الشرف. إنَّ ذلك أشبه بحافة ورقة حادَّة، ومع أنّي أعمل مع ماري منذ أكثر من عشر سنوات، فإنّي أحاول أن أتجاهل لسعة حافة تلك الورقة. أعرف أنَّها لا تقصد شيئاً بقولها ذلك، فهي صديقتي، وكانت قد زارتني في بيتي مع أسرتها، وتناولنا العشاء في عيد الفصح، السنة الماضية، مع ممرّضات أخريات، ونخرج معاً لنتناول الكوكتيل، أو نذهب إلى السينما أحياناً في الليل، وذهبنا ذات مرة إلى

منتجع صحيّ في عطلة نهاية الأسبوع. لكن، على الرَّغم من ذلـك، لا تعـرف مـاري كـم مرّة اضطررت إلى أن آخذ نفساً عميقاً وأواصل طريقـي. فالأشـخاص مـن ذوي الـبشرة البيضاء لا يقصدون نصف العبارات المسيئة التي يقولونها، لذلك فإنّي أحـاول ألّا أفكّـر في الأمر.

لَمَّا أجبتها: «يجب أن تأملي في أن تنجح إيلا في أن تنهي اليوم من دون أن تذهب إلى مكتب الممرّضة في المدرسة مرّة أخرى». ضـحكت مـاري، وقالـت: «صـحيح. الأهـمّ فالمهمّ».

اندفعت كورين إلى الغرفـة، وقالـت: «آسـفة لأننـي تـأخّرت». تبادلنـا أنـا ومـاري النظرات. تصغرني كورين بخمـس عشرة سـنة، ولـديها دائمـاً أعـذار بحـدوث حـوادث طارئة في أثنـاء قـدومها إلى العمـل – توقّـف الكـاربوراتير عـن العمـل، تشـاجرت مـع صديقها، كان هناك حادث على الطريق السريع. كورين من أولئك الناس الـذين يـرون أنَّ الحياة ممتلئة بالأزمات. خلعت معطفها، وارتطمـت وهـي مندفعـة بأصـيص نبتـة ميتة منذ أشهر عدَّة، لم يكترث أحد لاستبدالها. «اللعنـة»، تمتمـت، وعـدَّلت الأصـيص، وأعادت التراب إلى داخله، ومسحت كفّيها بثيابها، ثمّ جلسـت وثنـت يـديها، وقالـت: «أنا آسفة جداً يا ماري. الإطار الغبيّ الذي استبدلته الأسبوع الماضي بدأ الهواء يتسرَّب منه، أو ربَّما حدث شيء من هذا القبيل فاضطررت إلى أن أقود السيّارة ببطء».

مـدَّت مـاري يـدها إلى جيبهـا وأخرجـت دولاراً ودفعتـه عـلى الطاولـة نحـوي. فضحكت.

قالت ماري: «حسناً. ها هو ذا تقريـر الجنـاح. توجـد في الغرفـة الثانيـة جيسـيكا مايرز، عدد حالات الحمل: واحدة، عدد الولادات القابلة للحيـاة: واحـدة، في أسـبوعها الأربعين ويـومين، ولـدت ولادة مهبليـة في السـاعة الثالثـة صـباح اليـوم، الـولادة غـير معقَّدة، من دون مسكنات ألم. والطفلة ترضع على نحو جيّد. تبوَّلت لكنَّهـا لم تتغـوَّط بعد».

«سأعتني بها»، قلت أنا وكورين معاً.

جميع الممرّضات يردن أن يأخذن المريضة التي ولدت، لأنَّه عمل أسهل. قلت: «كنت أشرف عليها في مرحلة الولادة النشطة».

فقالت ماري: «صحيح، روث، إنَّها مريضتك»، ورفعت نظارة القراءة فوق أرنبة أنفها، ومضت تقول: «توجد في الغرفة رقم ثلاثة، ثيا ماكفون، عدد حالات الحمل: واحدة، عدد الولادات القابلة للحياة: صفر، في أسبوعها الحادي والأربعين وثلاثة أيام، إنَّها في مرحلة الولادة النشطة، مقدار التوسّع أربعة سنتيمترات، والأغشية سليمة. معدّل ضربات قلب الجنين يبدو جيّداً على الشاشة، والطفل يتحرَّك بنشاط. طلبت حقنة فوق الجافية، ويجري ترشيح سائلها الوريديّ».

«هل أُبلغ قسم التخدير». سألت كورين.

«نعم».

«سأشرف عليها».

جرت العادة أن نأخذ مريضة واحدة عندما تكون في مرحلة الولادة النشطة إذا استطعنا، وهذا يعني أنَّ المريضة الثالثة - آخر مريضة هذا الصباح - ستكون مريضتي. «الغرفة رقم خمسة في الإنعاش. بريتاني باور، عدد حالات الحمل: واحدة، عدد الولادات القابلة للحياة: واحدة، في أسبوعها التاسع والثلاثين ويوم واحد. أُعطيت حقنة فوق الجافية، وولدت ولادة مهبلية عند الساعة الخامسة والنصف صباحاً. الأمّ مصابة بداء السكّري الحمليّ، ويُعطى الطفل سكّراً في الدّم لمدّة ثلاث ساعات، لمدّة أربع وعشرين ساعة. لدى الأمّ رغبة في أن تُرضع الطفل من صدرها. لا يزالان ملتصقين ببعضهما».

يوجد عمل كثير في غرفة الإنعاش – إقامة علاقة وديَّة بين الممرّضة والمريضة. صحيح أنَّ الولادة قد تمَّت، لكن لا تزال هناك ترتيبات يجب

إنجازهـا: تقيـيم جسـدي للمولـود، والمعـاملات الرسـميَّة الأخـرى. «حسـناً»، قلـت وابتعدتُ عن الطاولة لأذهب وأبحث عن لوسيل، الممرّضة الليليّة التي رافقت بريتـاني في أثناء ولادتها.

رأتني أولاً، في دورة مياه الممرّضات، أغسل يديَّ. قالـت: «هـذه أنـتِ»، وأعطتنـي ملفَّ بريتاني باور، وقالت: «عمرهـا سـتة وعشرون عامـاً، عـدد حـالات الـولادة: ولادة واحدة، ولدت ولادة مهبلية صباح اليوم عند الساعة الخامسة والنصف، العِجان سليم. زمرة الدم O إيجابي، عندها مناعة ضدّ الحصبة الألمانيّة، التهـاب الكبـد «بي» وفـيروس نقص المناعة البشرية سلبيان، متلازمة غـيلان سـلبيَّة. سـكّري الحمـل، النظـام الغـذائيّ خاضع للرقابة، غير ذلـك حالتهـا غـير معقّـدة. الحقنـة في الوريـد لا تـزال في سـاعدها الأيسر. فصلت عنها حقنة التخدير فوق الجافية، لكنَّهـا لم تغـادر السريـر بعـد، لـذلك اسأليها إن كانت تريد أن تنهض وتتبوَّل. نزيفها جيّد، وقاع مثانتها مشدود وثابت».

فتحتُ الملفَّ، وألقيت نظرة على الملاحظات، وحفظتُ التفاصيل في ذاكرتي. قرأت: «ديفيس. هل هو الطفل؟»

«نعم. العلامات الحيويَّة طبيعيَّة، لكنَّ سكَّر دمه لمـدّة سـاعة كـان أربعـين، لـذلك دفعناه ليحاول أن يرضع من ثدي أمِّه. رضع قليلاً من كلِّ جانب، لكـنَّ بصـاقه يسـيل كثيراً، ودائم النعاس، ولم يرضع كثيراً».

«هل عيناه وفخذاه سليمة؟»

«نعم، إنَّه يتبوّل، لكنَّه لم يتغوَّط. لم أحمِّم المولود، ولم أُجرِ تقييماً عليه بعد».

«لا توجد مشكلة»، قلت، «هل هذا كلّ شيء؟»

فأجابت لوسيل متردّدة: «اسم الأب تورك. ثمَّة شيء... فيه».

سألتها: «هل هو أب بصباص؟» في السنة الماضية، رأينا أباً يغازل طالبـة التمريض في الغرفة عندما كانت زوجته تلـد. وعنـدما تقـرَّر إجـراء عمليَّـة

قيصريَّة، راح يتجوّل في غرفة العمليَّات بـدلاً مـن أن يقـف خلـف السـتارة إلى جانـب رأس زوجته، وقال لطالبة التمريض: هل الجوّ حارّ هنا، أم أنتِ فقط؟

فقالت لوسيل: «لا، إنَّه ليس من هذا النوع. تصرّفـه مـع الأمِّ جيّـد. لكنَّـه فقـط... رجل مراوغ. لا يمكنني أن أعبِّر عن ذلك بدقَّة».

كنت أقول لنفسي دائماً إنَّني لو لم أكن ممرّضـة توليـد، لكنـت منجِّمـة مزيَّفـة. إذ نجيد قراءة مريضاتنا، ونعرف ما الذي يحتجن إليه قبل أن يعرفنَ ذلك، ونتمتـع أيضـاً بموهبة استشعار المشاعر الغريبة، ففي الشهر الماضي، انطلق جهـاز الـرادار في داخـلي عندما جاء شخص غريب الأطوار، متخلّف عقلياً، مع امرأة أوكرانيَّة تكبره سنّاً كان قـد تعرَّف إليها في متجر البقالة الذي كانـت تعمـل فيـه. لاحظـت شـيئاً غريبـاً في طريقـة تصرُّفاتهما، واتبعت حدسي، فاتَّصلت بالشرطة، ثمَّ اتَّضح أنَّ المرأة الأوكرانيَّة كانـت قـد أمضت وقتاً في ولاية كنتاكي لتسرق طفل امرأة مصابة بمتلازمة داون.

لَمَّا دخلت غرفة بريتاني باور، أوّل مرّة، لم أشعر بالقلق.

قرعـت البـاب برفـق وفتحتـه، قلـت: «اسـمي روث، سـأكون ممرضـتك اليـوم»، واتَّجهتُ مباشرة إلى بريتاني، وابتسمت للرضيع الذي كانت تضمّه بين ذراعيها. «يـا لـه من طفل جميل! ما اسـمه؟» سـألتها مـع أنَّنـي أعـرف اسـمه. وسـيلة لفـتح حـديث، والتواصل مع المريضة.

لم تردَّ بريتاني. نظرت إلى زوجها؛ رجل ضخم الجثة يجلس على حافة كرسيه، شعره قصير محلوق بأسلوب عسكريّ، يهزّ كعب حذائه الطويل كـما لـو أنَّـه لا يسـتطيع أن يجلس ساكناً من دون حركة. أدركتُ ما كانت قد لاحظته لوسـيل. ذكَّـرني تـورك بـاور بخطّ كهرباء قُطع في أثناء هبوب عاصـفة، ملقـى عـلى الطريـق ينتظـر أحـداً يلمسـه لتنطلق شرارات منه.

ليس مهمّاً إن كنت خجولاً أو متواضعاً - فلا يوجد أحد رُزق بطفل تـوّاً يظلّ هادئاً لفترة طويلة - لأنَّهم يريدون مشـاركة الآخـرين لحظـة الحيـاة

المتغيّرة هذه. يريدون استحضار لحظات الطلق والولادة وجمال طفلهم، أمَّا بريتاني، فبدا لي أنَّها تنتظر منه إذناً كي تتحدَّث. عنف أسريّ؟ تساءلت.

«ديفيس»، قالت متردّدة، «اسمه ديفيس».

«حسناً، مرحباً ديفيس»، دمدمت واقتربت من السرير. «هل تمانعين إذا استمعتُ إلى قلبه ورئتيه، وأقيس درجة حرارته؟»

شدَّت ذراعيها حول المولود الجديد، وضمَّته إليها بقوة.

قلت لها: «يمكنني أن أفعل ذلك هنا، يمكنك أن تبقيه معك».

يجب قطع الحبل قليلاً بين الأمّ الجديدة ووليدها، ولا سيَّما الأمّ التي قيل لها إنَّ نسبة السكّر في دم طفلها منخفضة كثيراً. وضعت ميزان الحرارة تحت إبط ديفيس، وكانت حرارته طبيعيَّة. نظرتُ إلى شعره الملتفّ على نفسه - لاحظت وجود بقعة بيضاء يمكن أن تشير إلى فقدان السمع، وقد يشير شكل الشعر المتناوب إلى وجود مشكلة في عمليَّة التمثيل الغذائيّ. ضغطتُ السمَّاعة الطبيَّة على ظهر الطفل، ورحت أنصت إلى رئتيه. سللتُ يدي بينه وبين أمِّه، ورحت أنصتُ إلى قلبه.

يا إلهي!

كان الصوت خافتاً إلى درجة كبيرة، إذ ظننت أنَّني لم أسمعه جيّداً.

أنصتُّ مرَّة أخرى لأتأكَّد من عدم وجود ثقب، لكنَّ تلك الهمهمة الطفيفة وراء إيقاع النبض الثابت.

نهض تورك ووقف ورائي. شابكاً ذراعيه. الأعصاب تبدو مختلفة عند الآباء. في بعض الأحيان، تصبح قتاليَّة كما لو كان بإمكانهم أن يبعدوا أيَّ خطأ.

«سمعت نفخة طفيفة جدّاً»، قلت برقَّة، «لكن قد لا يكون هناك شيء. لا يزال الوقت مبكراً، فهناك أجزاء من القلب لا تزال في طور النموّ. حتَّى لو كانت دمدمة، فقد تختفي بعد أيام قليلة. ومع ذلك، سأدّون ذلك في

السجلّ. سأطلب طبيبة الأطفال كي تأتي وتستمع إليها». بينما كنت أقول ذلك، محاولة أن أكون هادئة بقدر ما أستطيع، أجربت فحص سكّر دم آخر. إنَّه Accu-Chek، الذي يعني أنَّنا نستطيع أن نحصل على نتائج فوريَّة - هذه المرة، اثنان وخمسون. قلت: «الآن، هذا خبر عظيم»، محاولة أن أعطي السيّدة والسيّد باور شيئاً إيجابياً يتمسَّكان به، ثمَّ أضفت: «تحسَّن سكّره كثيراً». توجَّهت إلى المغسلة وأجريت صنبور الماء الدافئ، وملأت وعاء بلاستيكياً، ثمَّ وضعته على جهاز التدفئة، وقلت: «لا بدَّ أنَّ ديفيس ينبض بالحيويَّة، ويرجَّح أن يبدأ يرضع قريباً. لماذا لا أنظِّفه الآن، ليزداد حيويَّة، بعدها نحاول أن يرضع مرَّة أخرى؟»

انحنيتُ ومددت يديَّ، وأخذت منها الطفل. أدرت ظهري للوالدين، ووضعت ديفيس على جهاز التدفئة، وبدأت أفحصه. سمعت بريتاني وتورك يتهامسان بعنف عندما كنت منهمكة في فحص اليافوخ في رأس الطفل أبحث عن خطوط الدرز لأتأكّد من أنَّ العظام ليست متراكبة فوق بعضها. شعر الأبوان بالقلق، وهذا أمر طبيعيّ. الكثير من المرضى لا يحبُّون أخذ رأي الممرّضة في أيّ مسألة طبيَّة. عليهم أن يسمعوا ذلك من الطبيب ليصدِّقوا - مع أنَّ ممرّضات التوليد هنَّ أول من يلاحظن وجود أشياء أو أعراض غريبة على المولود في معظم الأحيان. اسم طبيبة الأطفال أتكينز. سأتصل بها بعد أن أُنهي فحص الطفل، وأطلب إليها أن تأتي وتستمع إلى قلب الطفل.

لكنَّ جلَّ اهتمامي كان منصبّاً على ديفيس الآن. رحت أبحث عن كدمات في الوجه، أو كتلة دمويَّة، أو شكل غير طبيعيّ للجمجمة. فحصتُ التجاعيد في راحتَي يديه الصغيرتين، ومستوى أذنيه بالنسبة إلى عينيه، ثمَّ قست محيط رأسه وطول جسده الذي كان يتلوَّى. فحصت إن كانت هناك شقوق في فمه وأذنيه، وتلمَّست عظام الترقوة، وأدخلت خنصري في فمه لأتحقَّق من ردَّة فعل المصِّ لديه، وفحصت صعود وهبوط قفص صدره الصغير، لأتأكد من أنَّ تنفّسه ليس متقطِّعاً، ثمَّ ضغطت على بطنه لأتأكَّد من أنَّه ليِّن،

وفحصت أصابع يديه وقدميه، وتأكَّدت من عدم وجود طفح جلديّ أو آفات أو وحمات ولادة، ثمَّ تأكَّدت من نزول خصيتيه، ووجود إحليل تحتاني، وتأكَّدت من أنَّ مجرى البول موجود في المكان المفترض أن يكون فيه، ثمَّ قلبته برفق ودقَّقت في قاعدة العمود الفقريّ بحثاً عن دمامل أو لِمَّاتٌ شَعْرِيَّة أو أيّ مؤشّر آخر يدلُّ على وجود علَّة في الأنبوب العصبيِّ.

أدركت الآن أنَّ الهمسات خلفي قد توقَّفت، لكن بدلاً من أن أشعر بالراحة، انتابني شعور بأنَّ هناك ما ينذر بالسوء. هل يظنان أنَّ ما أفعله غير صحيح؟

لَمَّا قلبت الطفل مرَّة أخرى، بدأت عينا ديفيس تغمضان. ينام الأطفال عادة بعد ولادتهم بساعتين، وهذا أحد الأسباب التي تدعو إلى تغسيله الآن – لأنَّ ذلك سيوقظه لفترة كافية، ويحاول أن يرضع مرَّة أخرى. توجد على جهاز التدفئة كومة من المناديل لتنظيف الرضيع. بحركات عملية واثقة غطست منديلاً في الماء الدافئ ونظَّفت الطفل من رأسه حتَّى قدميه، ثمَّ حفَّضته، ولففته بسرعة في بطانية مثل سندويشة بوريتو، وغسلت شعره تحت المغسلة بقليل من شامبو جونسون للأطفال. وفي النهاية، ثبَّتُّ عليه شريط تعريف يتطابق مع هوية والديه، وربطت سوارَ أمان إلكترونيّاً صغيراً حول كاحله يطلق جرس إنذار إذا ما اقترب الطفل كثيراً من أحد الأبواب.

يمكنني أن أشعر بأعين الوالدين حارَّة على ظهري. التفتُّ، وابتسمت تلك الابتسامة التي ترتسم دائماً على وجهي، وقلت: «تفضَّلي»، وأعدت الرضيع إلى بريتاني، وأضفت، «أصبح نظيفاً كصافرة. لنرَ الآن إن كان بإمكاننا أن نسلّمه إلى ممرِّضة».

لَمَّا انحنيت لأساعد في تعديل وضعيَّة الطفل، أجفلت بريتاني، وقال زوجها، تورك باور: «ابتعدي عنها. أريد أن أتحدَّث إلى رئيستك».

كانت تلك أولى الكلمات التي قالها لي بعد الدقائق العشرين التـي أمضـيتها معـه وأسرته في هذه الغرفة، والتي تحمل في طيَّاتها تيَّاراً مبطناً من الاستياء والتـذمُّر. كنـت متيقنة من أنَّه لا يريد أن يخبر ماري بالعمل الرائع الذي أنجزتـه تـوّاً، لكنَّنـي أومـأت بتوتر وخرجت من الغرفة، واسترجعت في ذاكرتي كلَّ كلمة قلتهـا، وكـلَّ حركـة فعلتهـا منذ أن قدَّمت نفسي لهما. اتَّجهت إلى مكتـب الممرّضـات ورأيـت مـاري تمـلأ جـدولاً. «لدينا مشكلة في الغرفة خمسة»، قلت لها، محاولة ألّا يرتعش صـوتي، «الأب يريـد أن يراكِ».

سألتني ماري: «ما الذي جرى؟»

«لا شيء على الإطلاق»، أجبتها، وأنا أعرف أنَّ ما قلته صحيح، فأنا ممرّضـة جيّـدة، وأحياناً، ممرّضة عظيمة، فقد اعتنيت بهذا الرضيع كما أعتني بأيِّ مولود جديد في هذا الجناح، ثمَّ أضفت: «قلت لهما إنَّني سمعت ما بدا كأنَّه نفخة قلبيَّـة، وإنَّنـي سأتصـل بطبيبة الأطفال، وغسلت الطفل وأجريت له فحصاً شاملاً».

لا بدَّ أنَّني لم أتمكن من إخفاء مشاعري على نحو جيّد، لأنَّ ماري نظـرت إليَّ نظـرة ممتلئة بالتعاطف، وقالت: «ربَّما كانا قلقين بشأن قلب طفلهما».

كنت أسير على مسافة خطوة وراءها عندما دخلنا الغرفة، ورأيت بوضوح قسمات الارتياح على وجهَي الوالدين عندما رأيا ماري التي قالت لهما: «فهمـت أنَّـك تريـد أن تكلّمني، يا سيّد باور؟»

فقال تورك: «لا أريد أن تلمس هذه الممرّضة ابني مرَّة أخرى».

شعرت بالحرارة تصعد من صدري إلى رأسي، فلا أحد يريد أن تُطرد الممرّضـة أمـام المشرفة عليها.

انتصبت ماري في وقفتها، وتصلَّب عمودها الفقريّ، وقالت: «يمكنني أن أؤكّـد لـك أنَّ روث إحدى أفضل الممرّضات لدينا يا سيّد باور. إذا كانت ثمَّة شكوى رسميَّة...»

فقاطعها الأب قائلاً: «لا أريدها هي أو أيّ شخص آخر يشـبهها أن يلمـس ابنـي»، وشبك ذراعيه على صـدره. كـان قـد شـمَّر كمّيـه عنـدما خرجـت، ورأيـت وشـم علـم الكونفدراليَّة يمتدّ من الرسغ حتَّى المرفق على إحدى ذراعيه.

لاذت ماري بالصمت.

للحظة، لم أفهم. فقد أصابني كلامـه كـأنَّني تلقَّيـت لكمـة عـلى وجهـي: لا توجـد لديهما مشكلة بما فعلته.

لكن المشكلة تكمن في مَن أكون أنا.

تورك

أول زنجيّ التقيته قتل أخي الأكبر. جلستُ بين والـديَّ في قاعـة المحكمـة في ولايـة فيرمونت، مرتدياً قميصاً ذا ياقـة عاليـة قاسـية تكـاد تخنقنـي، في حـين كـان رجـال في بدلات رسميَّة يتجادلون ويشيرون إلى رسوم بيانية عن سيَّارات وآثـار انـزلاق إطـارات. كنت في الحادية عشرة من عمري، وكان تانر في السادسة عشرة من عمره، لم يمضِ على حصوله على رخصة قيادة أكثر من شهرين. واحتفالاً بهذه المناسبة، أعدَّت أمِّـي قالـب كيك وزيَّنته بقطع فاكهة، ووضعت فوقه السيّارات الصغيرة القديمة التي كنـت ألعـب بها. كان الرجل الذي قتل أخي من ولاية ماساتشوستس، أكبر من أبي سنّاً، بشرته أغمق من خشب المنصَّة التي يجلس إليها الشـهود، وأسـنانه شـديدة البيـاض. لم أسـتطع أن أتوقَّف عن التحديق إليه.

لم تتمكَّن هيئة المحلفين من التوصُّـل إلى حكـم – لم يتوصَّـل المحلّفـون إلى قـرار - كما قالوا، فأُطلق سبيل الرجل. في تلـك اللحظـة فقـدت أمّـي صـوابها وراحـت تصرخ وتهذي وتقول عبارات عن ابنها وعن العدالة. صافح القاتل محاميه، ثمَّ اسـتدار وسـار في اتجاهنا. لم يكن يفصل بيننا سوى حاجز، وقال: «سيِّدة باور، أنـا آسـف جـداً لأنَّـك فقدتِ ابنك».

كما لو أن لا علاقة له بكلِّ ما حدث.

توقَّفت أمّي عن البكاء، وزمَّت شفتيها، وبصقت.

* * *

كنتُ أنا وبريت ننتظر هذه اللحظة منذ فترة طويلة.

كنت أقود الشاحنة الصغيرة، واضعاً يداً على المقود، ويـدي الأخـرى عـلى المقعد بيننا، تضغط عليهـا كلـما أتاهـا انقبـاض. أسـتطيع أن أقـول إنَّ ذلـك

كان مؤلماً، لكن كلَّما شعرت بانقباض ضيّقت عينيها وضغطت على فكِّها. لم يكن ذلك مفاجئاً لي - لأنَّني رأيتها تضرب شخصاً خدش سيَّارتها بعربة تسوّق كان يدفعها في سوبرماركت (ستوب أند شوب) – لكنّي لا أظنّ أنَّها كانت بالنسبة إليَّ أجمل ممَّا هي الآن، قويَّة وصامتة.

بطرف عيني كنت أنظر إلى طرف وجهها كلَّما توقَّفنا عند إشارة المرور. مضت سنتان على زواجنا الآن، لكنّي لا أزال لا أصدِّق أنَّ بريت أصبحت زوجتي، أجمل فتاة رأيتها طوال حياتي، وعندما تتحرّك، فإنَّها أقرب ما تكون إلى فرد من الأسرة المالكة. شعرها الداكن يتلوَّى في حبل معقود يتدلَّى حتَّى ظهرها، خدَّاها أحمران، تنفخ، تطلق زفرات صغيرة كأنَّها تجري في سباق ماراثون. التفتت إليَّ فجأة. كانت عيناها برَّاقتين زرقاوين مثل لهب نار، قالت: «لم يقل لي أحد إنَّها صعبة هكذا».

ضغطتُ على يدها، مع أنَّها كانت تضغط على يدي بقوَّة إلى درجة تؤلمني. قلت لها: «سيكون هذا المحارب قوياً مثل أمِّه». كانت بريت قد تعلَّمت منذ سنوات أنَّ الربَّ في حاجة إلى جنود، وأنَّنا ملائكة هذه الحرب العرقيَّة، ولولانا لأصبح العالم مرة أخرى مثل سدوم وعمورة. كان فرانسيس – والد بريت الأسطوريّ - واقفاً أمام جمهرة من الأعضاء الجدد يقول إنَّه يجب أن نزيد أعدادنا كي نتمكَّن من المقاومة. لكن، لَـمَّا وصلنا أنا وبريت إلى المستشفى لننجب طفلنا إلى هذا العالم، كانت تغمرني مشاعر متساوية من الانتصار والرعب، لأنَّني مهما حاولت، فإنَّ هذا المكان يظلّ بالوعة مجاري. ففي هذه اللحظة بالذات، لا يزال طفلي نقياً، لكنَّه ما إن يأتي إلى هذا العالم، فإنَّه سيُلوَّث.

«تورك»، صاحت بريتاني.

انعطفتُ إلى اليسار بحدَّة إذ كدت أتجاوز مدخل المستشفى. «ما رأيكِ باسم ثور»، سألتها، لأغيّر الحديث إلى اختيار اسم للطفل، محاولاً أن ألهي بريت عن شعورها بالألم. قلت لها إنَّ صديقاً عرفته عبر تويتر قد سمَّى

ابنه لوكي. في الميثولوجيا الاسكندنافيَّة كانت بعض المجموعات القديمة ضخمة لكنَّها انقسمت إلى خلايا أصغر الآن. قلت لها إنَّ العادات القديمة لا تموت بسهولة.

فقالت بريتاني غاضبة: «أو الوطواط أو الفانوس الأخضر. لن أسمِّي طفلي بأسماء شخصيَّات من قصص مصوَّرة». وفجأة انتابها تقلّص آخر، وسألتني: «وماذا لو كانت فتاة؟».

فاقترحت قائلاً: «المرأة الخارقة مثل أمّها».

بعد موت أخي، انهار كلُّ شيء. بدا كما لو أنَّ تلك المحاكمة قد سلخت الطبقة الخارجيَّة من الجلد، ولم يبقَ من أسرتي سوى الدم والأحشاء، ولم يعد هناك شيء يجمعها ويربطها معاً. فقد انفصل أبي وذهب وأقام في شقّة كل شيء فيها أخضر اللون - الجدران، والسجّادة، ودورة المياه، والموقد – وكنت كلما زرته في تلك الشقّة، انتابني شعور بالغثيان، وبدأت أمّي تشرب – بدأت بكأس نبيذ على الغداء ثمَّ أصبحت تجرع القنينة بأكملها، وفقدت وظيفتها كمساعدة مهنية في المدرسة الابتدائية عندما أُغميَ عليها في ملعب المدرسة، وسقطت طفلة مصابة بمتلازمة داون، كانت تقوم أمّي على رعايتها، من فوق قضبان الألعاب، وانكسر رسغها. بعد ذلك بأسبوع، وضعنا كلّ الأشياء التي نملكها في شاحنة وانتقلنا إلى بيت جدِّي.

كان جدّي غرامبس من المحاربين القدماء، لم يتوقَّف قطُّ عن خوض المعارك. لم أكن أعرفه معرفة جيّدة، لأنَّه لم يحبَّ أبي قطّ. لكن، بعد أن أزيحت تلك العقبة الآن، تعهَّد بتربيتي بالطريقة التي يرى أنّني يجب أن أنشأ عليها. كان يقول إنَّ والديَّ كانا يعاملانني بلطف شديد، وإنَّني أصبحت مخنَّثاً، وقال إنَّه سيجعلني قوياً وقاسياً. بدأ يوقظني عند الفجر في عطلات نهاية الأسبوع ويأخذني معه إلى الغابة ليدرّبني «التدريب الأساسيّ»، على حدّ تعبيره. علَّمني كيف أميّز بين التوت السامّ والتوت الصالح للأكل، وأصبحت أميّز براز الحيوانات لأتمكَّن من اقتفاء أثرها.

أصبحت أعرف الوقت من موقع الشمس. كان شيئاً يشبه تدريب الكشّافة، وخلال ذلك كان يحكي لي قصصاً عن الأوغاد الذين حاربهم في فيتنام، وعن الأدغال التي يمكن أن تبتلعك إذا تركتها تفعل ذلك، وعن رائحة رجل وهو يُحرق حيّاً.

في أحد الأيّام، قرّر جدّي أن يأخذني لإقامة مخيَّم مع أنَّ درجة الحرارة في الخارج كانت تحت الصفر، وكان يتوقَّع هطول الثلج. أخذني إلى حافة «المملكة الشمالية الشرقية» القريبة من الحدود الكنديَّة. ذهبت إلى دورة المياه، ولَمَّا عدت اختفى جدّي.

لم أرَ شاحنته التي كان قد ركنها إلى جانب محطة البنزين. كانت الآثار الوحيدة التي تشير إلى أنَّه كان هناك آثار مسار إطارات شاحنته في الثلج. لقد غادر وأخذ حقيبتي وكيس النوم والخيمة. عدتُ إلى محطَّة البنزين وسألتُ العاملة إن كانت تعرف ما الذي حدث للرجل الذي كان يقود الشاحنة الزرقاء، فهزَّت رأسها وقالت إنَّها لا تعرف. «لا تعليق»، قالت، متظاهرة بأنَّها لا تتكلَّم الإنكليزيَّة مع أنَّها تعيش في فيرمونت.

كنت مرتدياً معطفي، لكن لم تكن لديَّ قبَّعة أو قفَّازان - إذ تركتها في الشاحنة – ولم يكن في جيبي سوى سبعة وستين سنتاً. انتظرتُ حتى وصل زبون آخر إلى المحطة، وعندما كانت العاملة مشغولة، سرقتُ قفَّازين وقبَّعة صيد برتقاليَّة وقنينة صودا.

أمضيت خمس ساعات وأنا أتعقَّب آثار جدّي – بذلت جهداً عقلياً كبيراً لأتذكَّر ما قاله لي عن الاتجاهات في صباح ذلك اليوم وأنا نصف نائم – وسرت في الطريق السريع لعلّي أجد أثراً يدلّني عليه، مثل كيس التبغ الذي يمضغه، وفردة من قفَّازيَّ. لَمَّا رأيت شاحنته مركونة إلى جانب الطريق، تمكَّنت من تعقُّب آثار قدميه في الثلج إلى داخل الغابة، ولم أعد أرتجف. شعرت أنني ملتهب كالفرن. تبيَّن لي أنَّ الغضب مصدر متجدّد للوقود.

لَمَّا وصلت إلى بقعة خالية من الأشجار، رأيته منحنياً فوق نار أشعلها. ومن دون أن أنبس بكلمة واحدة، اتجهت نحوه ودفعته بقوة حتَّى كاد يسقط فوق الجمرات المشتعلة، وصحت: «يا بنَ القحبة، لا يمكنك أن تذهب وتتركني هكذا».

فقال: «إذا لم أصنع منك رجلاً، فمن سيفعل ذلك بحقّ الجحيم!».

مع أنَّ حجم جدّي ضعف حجمي، أمسكته من تلابيبه وأوقفته على قدميه، ولَـمَّا دفعت قبضتي إلى الخلف لأوجّه إليه لكمة، أمسك بيدي قبل أن تصل إلى وجهه.

«تريد أن تقاتل»، قال جدّي، وتراجع إلى الخلف وراح يدور حولي.

كان أبي قد علَّمني أن ألكم أحداً. ضع الإبهام خارج قبضة يدك، ولفّ الرسغ عند نهاية المرفق. كان كلّ ذلك مجرَّد كلام، إذ لم أضرب أحداً طوال حياتي.

أرجعتُ قبضتي إلى الوراء الآن، ثمَّ دفعتها إلى الأمام مثل سهم، لكنَّ جدّي أمسك ذراعي وثناها وراء ظهري. كانت أنفاسه حارَّة في أذني. «هل علَّمك أبوك الضعيف ذو المؤخّرة السمينة ذلك؟». بدأنا نتصارع، لكنَّه ثبَّتني إلى الأرض، وقال لي: «هل تريد أن تتعلَّم كيف تقاتل أو تريد أن تعرف كيف تنتصر؟»

كززت على أسناني، وقلت: «أريد... أن أنتصر».

شيئاً فشيئاً، أرخى قبضته، وأبقى يداً واحدة مثبّتة على كتفي اليسرى.

قال: «جسمك صغير، لذلك تكون في مستوى منخفض، ثمَّ تعميني بجسدك، وأتوقَّع منك أن ترفع قبضتك. وإذا أملتُ رأسي بسرعة، تكون قبضتي قد أصابت وجهك، وهذا يعني أنَّني سأبقى منتصباً، وأصبح مكشوفاً تماماً. آخر شيء أتوقّعه هو أن تأتي من فوق الكتف هكذا».

رفع قبضته اليمنى، ولفَّها إلى الأعلى في شكل قوس دائريّ أوقفت نفساً قبل أن تقبّل عظام وجنتي. ثمَّ تركني وخطا خطوة إلى الوراء، وقال: «تابع».

لم أفعل شيئاً سوى أنَّني رحت أحدِّق إليه.

هكذا تشعر عندما تضرب أحداً: مثل شريط مطاطيّ مشدود بإحكام يؤلمه ويبدأ يرتعش. وعندما ترمي تلك اللكمة، عندما تترك الشريط المطاطيَّ، تكون الضربة قويّة مثل تيّار كهربائيّ. إنّك تحترق، حتّى إنّك لم تدرك أنَّك تحترق.

سال الدّم من أنف جدّي فوق الثلج، غطّى ابتسامته، وقال: «هذا هو ابني».

كلَّما أفاقت بريت في أثناء الطَّلق، ازدادت التقلّصات والتشنّجات قوّة، فتطلب منها الممرّضة – شعرها أحمر، واسمها لوسيل - أن تستلقي على ظهرها، فتتوقّف التقلّصات، ثمَّ تطلب إليها لوسيل أن تمشي. كانت حلقة مفرغة. بعد سبع ساعات، بدأت أتساءل إن كان ابني سيصبح مراهقاً قبل أن يأتي إلى هذا العالم.

لكنِّي لم أقل ذلك لبريت.

لَمَّا أدخل طبيب التخدير حقنة فوق الجافية أمسكتها وثبَّتُّها بقوّة - شيء توسَّلت إليه بريت، وفوجئت تماماً، لأنّنا كنّا قد خطّطنا أن تكون الولادة طبيعية ومن دون أدوية، لأنَّ معظم الأشخاص في الحركة ينظرون بازدراء إلى الأشخاص الذين يتناولون مخدّراً. همست لها عندما انحنت على السرير، وراحت الطبيبة تجسّ عمودها الفقريّ، فسألتها هامساً إن كانت هذه فكرة جيّدة، فقالت: عندما تلد أنت الطفل، قرِّر بنفسك.

عليَّ أن أقرَّ بأنَّ كلَّ ما ضخّوه في عروقها ساعدها فعلاً. استلقت على السرير، ولم تعد تتلوّى من الألم، وقالت لي إنَّها لم تعد تشعر بشيء تحت بطنها، وإنَّها لو لم تتزوّجني، لتزوَّجت طبيب التخدير.

دخلت لوسيل وقرأت النسخة الورقية المطبوعة من الجهاز الموصول بجسد بريت، الذي يقيس نبضات قلب الجنين، وقالت: «إنّك تقومين

بعمل عظيم»، وأنا متأكّد من أنّها تقول ذلـك للجميـع. لم أعـد أسـتمع عنـدما كانـت تكلّم بريت - لا لأنَّني لم أعد أبدي اهتماماً بما تقوله لها، وإنّما لأنّ هناك أشياء لا تريد أن تفكّر فيها إذا أردتَ أن ترى زوجتك مثيرة مرّة أخرى – ثـمَّ سـمعت لوسـيل تقـول لبريت إنَّه قد حان الوقت كي تضغطي.

تعلّقت عينا بريت بعينيَّ، وقالت: «حبيبي»، لكنَّ الكلمة التالية علقت في حلقها، ولم تستطع أن تقول ما تريد قوله.

أدركت أنَّ بريت خائفة كثـيراً. هـذه المـرأة الشـجاعة خائفـة مـمَّا سـيأتي. خللـت أصابعي بين أصابعها، وقلت لها: «أنا هنا»، مع أنّني كنت خائفاً مثلها.

ماذا لو غيّر ذلك كلَّ شيء بيني وبين بريت؟

ماذا لو أتى هذا الطفل ولم أشعر تجاهه بأيِّ شيء؟

ماذا لو اتضح لي أنَّني قدوة سيّئة؟ أبٌ سيّئ؟

«عندما تشعرين بانقباض بعد الآن، أريـدك أن تضـغطي إلى الأسـفل»، قالـت لهـا لوسيل ونظرت إليَّ، وقالـت: «قـف وراءهـا، وعنـدما تشـعر بانقبـاض، سـاعدها في أن تعتدل في جلستها لتتمكَّن من الدفع بقوَّة».

كنت ممتناً لطلبها هذا. لَمَّا احمرَّ وجه بريت، وتقوَّس جسدها، أمسكتُ بكتفيهـا، وبدأت تصدر حشرجات من حلقها، مثل شخص يلفظ أنفاسه. بدأت لوسيل تقول لها: «خذي نفساً عميقاً. وصل الانقباض إلى ذروته الآن. قرّبي ذقنك من صـدرك واضـغطي نحو الأسفل...»

وبشهقة واحدة، استرخى جسد بريت، وأبعدت يديَّ عن كتفيها كما لو أنّها لم تعد تحتمل أن أضعهما عليها، وقالت: «ابتعد عني».

أشارت إليَّ لوسيل أن أقترب منها، وهمست قائلة: «إنَّها لا تقصد ذلك».

«لا، بحقّ الجحيم»، قالت بريت، وبدأ الانقباض يزداد حدَّة.

قوَّست لوسيل حاجبيهـا نحـوي، وقالـت: «قـف هنـا. سأمسـك بسـاق بريت اليسرى، وأمسك أنت بالساق اليمنى...» إنَّـه مـاراثون، ولـيس عـدواً

سريعاً. بعد ساعة، التصق شعر بريت بجبينها من العرق الذي تفصد منها. خرمشتني بأظافرها، وشكَّلت أقماراً صغيرة على ظاهر يدي، وبدأت تهذي. لا أعرف إلى أيّ مدى يمكنها أن تحتمل ذلك، ثمَّ قوَّست لوسيل كتفيها عندما انتابت بريت انقباضة طويلة، وتغيّرت تعابير وجهها، وقالت: «انتظري دقيقة»، واتصلت بالطبيبة، ثم قالت لها: «أريد أن تأخذي أنفاساً بطيئة يا بريت... واستعدّي لتكوني أمّاً».

بعد بضع دقائق، اندفعت طبيبة التوليد إلى الغرفة، وألبست يديها قفَّازين. كانت محاولة مساعدة بريت بألَّا تضغط أكثر كما لو كنت تطلب إليها أن تصدَّ موجة مدّ بكيس رمل واحد. قالت الطبيبة: «مرحباً سيّدة باور، لنخرج الجنين الآن»، وجلست على كرسيّ واطئ، لكنَّ بريت شعرت بالتوتر مرّة أخرى. كان مرفقي لا يزال مشدوداً حول ركبتها لتتمكّن من الضغط عليها، وعندما نظرت إلى الأسفل، بدأ جبين طفلنا يظهر مثل قمر بين وادي ساقيها.

لونه أزرق. ففي المكان الذي لم يكن فيه شيء يتنفَّس قبل لحظات، بدا الآن رأس مستدير بحجم كرة ليّنة، لونه أزرق.

مذعوراً، نظرت إلى وجه بريت، لكنَّ عينيها كانتا مغمضتين من الجهد الذي كانت تبذله. بدأ الغضب الذي يسري دائماً على نار هادئة في دمي، يغلي. إنَّهم يحاولون أن يُخرجوا طفلاً لنا. إنَّهم يكذبون. هؤلاء الملاعين -

ثمَّ بدأ الطفل يبكي. ومع اندفاع الدم والسوائل، انزلق إلى هذا العالم، يصرخ ويضرب في الهواء بقبضات صغيرة، تخبط. وضعوا طفلي - ابني - فوق صدر بريت، ومسحوا جسمه بقطعة قماش. بدأت بريت تبكي، وأنا أيضاً. كانت نظرة بريت مركّزة على الطفل، ثمَّ قالت: «انظر إلى ما صنعناه معاً يا تورك».

«إنَّه كامل»، همستُ فوق بشرتها، «إنَّه كامل». ضمَّت رأس مولودنا الجديد بين راحتَيْ يديها، كما لو كنَّا دائرة كهربائيَّة اكتملت الآن، كما لو كان في استطاعتنا أن نزوّد العالم بالكهرباء.

لَمَّا كنت في الخامسة عشرة من عمري، وقع جدّي في الحمّام ومات بسكتة قلبيـة. كانت ردة فعلي كما كانت إزاء كلّ شيء في تلك الأيـام – اخـتلاق المشـكلات. لم يكـن يبدو أنَّ أحداً يعرف كيف يتعامل معي - حتَّى أمّي التـي كـان لونهـا يشـحب، وتكـاد تحتفـي داخـل الجـدران، إلى درجـة أنّنـي عنـدما أسـير إلى جانبهـا لا أكـاد أدرك أنَّهـا موجودة في الغرفـة، ولا أبي الـذي يعـيش حالياً في براتلبـورو يبيـع سـيّارات في وكالـة هوندا.

تعرَّفت إلى رايـن تيسـكو عنـدما أقمـت في بيـت أبي لمـدّة شـهر في أثنـاء العطلـة الصيفيَّة بعد أن أنهيت السنة الأولى في المدرسة الثانويَّة. كـان صـديق أبي غريـغ يـدير مقهى بديلاً (ماذا يعني ذلك؟ هل لأنّهم يقدّمون الشاي؟) وعرض عليَّ أن أعمل عنده ساعات محدّدة في اليوم. وبما أنَّني لم أكن قد بلغت السنَّ القانونيَّة لأعمل، كان غريـغ يدفع لي أجراً خفيةً، وأقوم بأعمال مثل إعادة تنظيم المخزن، ومهام أخـرى. كـان رايـن صانع قهوة أكسبريسو محترفاً، تكسو ذراعـه أوشـام، وكـان يـدخن بشراهـة في فـترات استراحته، ولديه كلب صغير جـداً لا يزيـد وزنـه عـلى سـتّة أرطـال يطلـق عليـه اسـم «ميت»، علَّمه أن ينفث سيجارة أيضاً.

كان راين أول شـخص علَّمنـي. رأيتـه أول مـرّة عنـدما خرجـت لأضـع القمامـة في حاوية القمامة، وقدَّم لي سيجارة - مع أنَّني كنت فتى صغيراً. تظاهرت بأنّني أعرف ما الذي أفعله، وعندما بدأت أسعل بقوّة، لم يسـخر منّـي، وإنّمـا قـال: «يجـب أن تكـون أنت، يا رجل»، وأومأ برأسه، «أقصد، والدك»، ولوى وجهه، وقلَّد أبي بمهارة، ثـمَّ طلـب لي كوب قهوة بحليب الصويا الخالي من الدسم، من دون رغوة.

كلَّما ذهبت لزيارة أبي، كنت ألتقي براين. لَمَّا حدَّثته عـن الظلـم بـأن يُسجن فتى لأنه ضرب شخصاً، قـال إنَّ أمّـي سـكّيرة. قـال إنَّ المشـكلة لا تكمن فيَّ وإنّما في أساتذتي الذين لم يدركوا طاقـاتي وذكـائي، وأعطـاني كتبـاً

لأقرأها، مثل رواية «يوميات تيرنر»، ليثبت لي أنّني لست الشخص الوحيد الذي يشعر بأنّ الناس يتآمرون عليه كي يجعلوا منه شخصاً محبطاً. بدأ يعطيني أقراص سي دي لموسيقا حركة القوة البيضاء، بإيقاعاتها التي تبدو مثل مطرقة تطرب على مسامير، وكان يأخذني في جولة بسيّارته، ويذكر لي كيف أنَّ لجميع أصحاب الشبكات الإعلاميَّة الرئيسة أسماء يهوديَّة، مثل موونفز وزاكر، ويلقموننا بتلك الأخبار حتى نصدّق كلّ ما يريدون أن نصدّقه. كان يتحدَّث عن الأشياء التي قد يفكّر فيها الناس، لكنَّهم لا يمتلكون الشجاعة لأن يقولوها علناً في الأماكن العامَّة.

لم يرَ أحد غرابة في أن يرافق شابّ في العشرين من عمره فتى في الخامسة عشرة من عمره. وربما كان والدايَ يشعران بالارتياح عندما يعرفان أنّني برفقة راين، لا أضرب أحداً، أو أهرب من المدرسة، أو أورّط نفسي في مشكلات. ولَمَّا دعاني إلى حضور مهرجان مع بعض أصدقائه، وافقت على الفور. سألته: «هل توجد هناك فرق موسيقيّة؟» لأنَّني كنت أظنّه أحد تلك التجمّعات الموسيقيّة التي تنتشر في الريف، في فيرمونت، وتُقام في شهر تموز (يوليه).

أجابني راين موضّحاً: «نعم، لكنَّه يشبه معسكراً صيفياً»، وأضاف، «لقد أخبرت الجميع أنَّك ستأتي، وهم متحمّسون للتعرُّف إليك».

لم يكن هناك أحد متحمِّساً لرؤيتي طوال حياتي، فكنت متلهفاً جدّاً للذهاب. في يوم السبت ذاك، حزمت جعبتي وكيس النوم لديَّ وجلست في السيّارة، ووضعت الكلب الصغير «ميت» في حضني، وأخذ راين ثلاثة أصدقاء آخرين - عرفوني كلّهم بالاسم كما لو أنَّ راين قد حدَّثهم عنّي، وكانوا يرتدون قمصاناً سوداً كُتبت على الصدر أحرف: NADS.

سألت راين: «ماذا تعني هذه الحروف؟»

فقال: «إنها تعني فرقة الموت في أمريكا الشمالية. هذه هي مهمّتنا».

اعترتني رغبة قويّة في أن أرتدي أحد تلك القمصان، وسألته بطريقة غير مباشرة، بقدر ما أستطيع: «إذاً، كيف أصبحتم جزءاً منها؟».

ضحك أحد الشبَّان وقال: «يُطلب منك ذلك».

قرَّرت في تلك اللحظة أن أفعل كلَّ ما يمكنني ليدعوني إلى الانضمام إليها.

سارت بنا السيارة مدَّة ساعة تقريباً، ثمَّ خرج راين من أحد المنافذ، وانعطف يساراً عند لافتة كتب عليها بخط اليد IE مثبَّتة على عصا. كانت هناك لافتات أخرى مثلها تشير إلى منعطفات عبر حقول الذرة وحظائر متداعية، حتَّى في حقل ترعى فيه أبقار حلوب. لَمَّا وصلنا إلى سلسلة تلال، رأيتُ نحو مئة سيَّارة مركونة في حقل موحل.

بدا كما لو أنَّه كرنفال. كانت هناك خشبة مسرح، وفرقة تعزف بصوت مرتفع جداً، فبدأ قلبي يخفق معها في إيقاع ثابت قويّ. وكانت هناك أُسر تتجوّل في أرجاء المكان، يتناولون نقانق الذرة وفطائر مقليّة، وثمَّة أطفال يجلسون على أكتاف آبائهم، يرتدون قمصاناً كُتب عليها «أنا الطفل الأبيض الذي تحفظ العِرْق له». دار الكلب حول قدمي وراح يلتهم قطع الفشار التي سقطت من يد أحدهم. ربَّت رجل على كتف راين، ورحَّب به بحفاوة شديدة، فسرتُ بضعة أمتار نحو ميدان الرماية.

ثمَّة رجل بدين له حاجبان يزحفان مثل يرقتين فوق جبينه، ابتسم لي وقال: «هل تريد أن تجرّبها أيُّها الفتى؟»

كان هناك طفل في مثل عمري تقريباً يطلق النار على هدف ثُبّت فوق جذع شجرة. أعطى الرجل العجوز بندقيَّة البراوننغ نصف الأوتوماتيكيَّة وذهب ليثبّت الهدف الذي كان عبارة عن صورة رجل بأنف معقوف كبير جدّاً. «يبدو أنَّك قتلت ذلك اليهوديّ يا غونتر»، قال الرجل مبتسماً، ثمَّ رفع الكلب الصغير بين ذراعيه وأشار إلى طاولة، وقال لي: «سأحمل الكلب، أمَّا أنت فاذهب واختر الهدف الذي تريد».

كانت هناك كومة من الأهداف: صور بملامح يهوديَّة، وصور لأشخاص سود بشـفاه ضخمة وجباه منحدرة. كانت هناك صورة مارتن لوثر كينـغ الابـن في دريئـة كتـب في أعلاها: «لقد تحقق حلمي».

للحظة، شعرت بغثيان في معدتي. ذكَّرتني الصور بالرسوم الكاريكاتورية السياسـية التي كنّا ندرسها في فصل التاريخ في المدرسة، مبالغات شديدة أدَّت إلى نشوب حـروب عالميَّة. تساءلت ما هي تلك الشركات التي تصنع هذه الأهداف والدرايا، لأنَّهـا لا تبـاع في قسم الصيد في متجـر وول مـارت الضـخم. يبـدو أنَّـه يوجـد مجتمـع سرّيّ تماماً لا أعرفه، وقد هُمس لي الآن بكلمة السرِّ لأنضمَّ إليه.

اخترتُ دريئة، وكانت تحيط بالهدف شـجيرات أفريقيَّـة. ثبَّتهـا الرجـل عـلى حبـل غسيل، وقال ضاحكاً: «لا أستطيع حتّى أن أقول إنَّها صورة جانبيَّة». ثمَّ وضـع الكلـب على الطاولة، ووضع الهدف الذي اخترتـه عـلى حافـة جـذع الشـجرة، وسـألني: «هـل تعرف كيف تستخدم سلاحاً؟»

كنـتُ قـد أطلقـت طلقـات بمسـدَّس جـدّي، لكنّـي لم أسـتخدم شـيئاً كهـذا قـطّ. استمعت إلى الرجل عندما بدأ يشرح لي كيف تعمل البندقيّـة، ثـمَّ وضـعت سـمَّاعات الرأس والنظّارة الواقية للحماية، وثبَّتُّ أخمص البندقيَّة على كتفـي، وأغمضـت عينـي، وضغطت على الزناد.

انطلق وابل من الطلقات، مثل نوبـة سـعال. لفـت الصـوت انتبـاه رايـن، فصـفَّق معجباً عندما أروني الدريئة وفيها ثلاث طلقات نظيفة في الجبهة، وقـال: «انظـر، هـذا طبيعيّ».

طوى راين الدريئة ودسَّها في جيبه الخلفيّ ليُري أصدقاءه أنَّنـي أجيـد الرماية. أمسكت بزمام الكلب وسرنا في ساحة الاجتماع. ثمَّـة رجـل يقـف على خشبة المسرح، وجوده طاغ إلى درجة أنَّ صوته أصـبح كالمغنـاطيس، جذبني فاقتربت لأراه بوضوح. قال الرجل: «أريـد أن أحـكي لكـم جميعـاً

قصَّة قصيرة. كان هناك زنجيّ في مدينة نيويورك، مشرّد بالطبع. كـان يسـير في حديقـة سنترال بارك، وسمعه الناس يصيح بصوت عال بأنَّه سيضرب رجلاً أبيض في أثناء نومـه. لكنَّ هؤلاء الناس لا يعرفون أنَّنا نخوض حرباً، وأنَّنا نحمـي عرقنـا، فلـم يـتصرَّف أحـد منهم. تجاهلوا تلك التهديدات، وعـدُّوها صـادرة عـن شـخص أحمـق مجنـون. لكـن، حدث أنَّ هذا الوحش اقترب من رجـل أبـيض - رجـل مـثلكم، ربّمـا، أو مـثلي، يعـيش الحياة التي أراد له الربّ أن يعيشها - رجل يعتني بأمِّه البالغة من العمر تسعين سنة، ثمَّ لكمَ هذا الوحش الرجل فسقط على الأرض وارتطـم رأسـه بالرصـيف ومـات. لقـد أصيب هذا الرجل الأبيض الذي كان يتنزَّه في الحديقة إصابة قاتلة. لكنّي أسألكم – ما الذي حدث للزنجيّ؟ حسناً يا إخوتي وأخواتي... لم يحدث له شيء على الإطلاق».

تذكَّرت قاتل أخي وهو خارج من قاعة المحكمة. رأيـت النـاس مـن حـولي يهـزّون رؤوسهم ويصفّقون، وقلت في نفسي: إذاً، أنا لست وحدي.

سألت: «مَن الذي يتكلَّم؟»

«إنَّه فرانسيس ميتشوم»، دمدم راين، «واحد من الحرس القديم، لكنَّه أسطوريّ». لفظ اسم المتكلّم كما لو كان رجلاً ورعاً يتحدَّث عن الربِّ - جزء همساً، وجزء صـلاة - «أترى شبكة العنكبوت الموشومة على مرفقه، لا يمكنك أن تحصل على واحدة منهـا إلّا إذا كنت قد قتلتَ أحداً. مقابل كلّ شخص تقتله، يُرسم لك عنكبـوت إضـافي». صـمت راين قليلاً ثمَّ أضاف: «يوجد لدى ميتشوم عشر منها».

«لماذا لا يُتَّهم الزنوج دائماً بجرائم الكراهية»، سأل فرانسيس ميتشوم، «لماذا يُتساهل معهم. حتَّى إنَّه لا يمكن تدجينهم حتَّـى لمسـاعدة الرجـل الأبيض. انظروا من أين جاؤوا، مـن أفريقيـا التـي لا توجـد فيهـا حكومـة متمدّنة واحدة. إنَّهم يقتلـون بعضـهم في السـودان. قبائـل الهوتـو تقتـل

قبائل التوتسي، وها هم أولاء يفعلون ذلك في بلدنا أيضاً. العصابات تنتشر في مدننا – إنَّها حرب قبليَّة بين الزنوج، وأصبحوا الآن يطاردون الرجل الأبيض لأنَّهم يعرفون أنَّهم يستطيعون الإفلات من العقاب». ثمَّ ارتفع صوته وهو ينظر إلى الحشد أمامه، وقال: «إنَّ قتل زنجيّ يساوي قتل غزال»، صمت قليلاً، ثمَّ مضى يقول: «في الواقع، إنّي أتراجع عمَّا قلته، لأنَّكم تستطيعون أن تأكلوا لحم الغزال».

بعد بضع سنوات، أدركت أنَّني عندما ذهبت إلى معسكر «الإمبراطورية الخفية» أوَّل مرة، وسمعت فرانسيس ميتشوم يتحدَّث – كانت بريت هناك أيضاً برفقة أبيها. أحبّ أن أتذكَّر أنَّها ربما كانت واقفة إلى الجانب الآخر من المنصَّة تلك، تنصت إليه وهو يسحر الحشد بكلامه. ربَّما ارتطم أحدنا بالآخر إلى جانب كشك غزل البنات، أو ربَّما وقفنا جنباً إلى جنب عندما بدأت شرارات من ذلك الضوء المتقاطع تنطلق في سماء الليل.

ربَّما كان ذلك قدرنا لأن نكون معاً.

لمدَّة ساعة كاملة رحنا، أنا وبريت، نلقي أسماء مثل كرة بيسبول: روبرت، أجاكس، ويل، غارث، إريك، أودين. كلَّما ظننت أنَّني وجدت اسماً آرياً قوياً، تذكَّرت بريت صبياً في فصلها في المدرسة يحمل هذا الاسم كان قد تناول شيئاً مقززاً أو تقيّأ على صدريته، وكلَّما اقترحت اسماً تحبّه، تذكّرني بشخص أحمق التقيته ذات يوم.

أخيراً، وبسرعة كبيرة، لَمَّا نظرتُ إلى وجه ابني النائم، همستُ: ديفيس، اسم آخر رئيس للكونفدراليَّة.

قلَّبت بريت الكلمة في فمها، وقالت: «إنَّها مختلفة».

«المختلف جيّد».

فقالت موضّحة: «ديفيس، لكن ليس جيفرسون».

«لا، لأنّه سيصبح جيف»، وأضافت، «وجيف رجل يتعاطى المخـدّرات، ويعـيش في قبو أمِّه».

فقلت: «لكن ديفيس هو الصبيّ الذي يتطلّع إليه الصبية الآخرون».

«لا ديف، أو ديفي، أو ديفيد».

«سيضرب كلّ من يناديه بذلك الاسم إذا أخطأ، أعدك بذلك».

لمستُ حافة بطانية الطفل لأنّني لم أشأ أن أوقظه، وقلت: «ديفيس». يداه الصغيرتان متَّقدتان، كأنَّه يعرف اسمه.

«يجب أن نحتفل»، قالت بريت هامسةً.

ابتسمت، وقلت لها: «هل تظنين أنَّهم يبيعون شمبانيا في الكافتيريا».

«إنَّك تعرف جيّداً ما الذي أريده. ميلك شيك بالشوكولاتة».

«كنت أظنّ أنَّ الوحام يحدث قبل الولادة...»

ضحكت بريت، وقالت: «إنّي متأكّدة من أنّني سألعب ورقة الهرمونات لما لا يقلُّ عن ثلاثة أشهر أخرى...»

نهضت واقفاً، وتساءلت إن كانت الكافتيريا لا تزال مفتوحة حتّى الساعة الرابعة صباحاً، لكنّي لم أشأ أن أغادر الغرفة لأنَّ ديفيس وصل توّاً. سألتها: «ماذا لو فاتني شيء؟».

أجابت: «لا أظنّ أنّه سينهض ويمشي أو ينطق أوّل كلمة، وإذا فاتك شيء فسيكون أوّل براز له، وأظنّ أنَّ هذا شيء تريد أن تتجنَّبه». رفعت بصرها، ونظرت إليَّ بعينيها الزرقاوين اللتين تبدوان أحياناً غامقتين كالبحر، وأحياناً شاحبتين كالزجاج، ما يجعلني مستعدّاً دائماً لأن أفعل أيَّ شيء لأجلها. قالت: «لا تتأخّر أكثر من خمس دقائق».

«خمس دقائق». نظرت إلى الطفل مرّة أخرى، وشعرت أنَّ حذائي قد علق في زفت، فأردت أن أبقى هنا وأعدَّ أصابعه مرّة أخرى، وتلك الأظافر

الصغيرة جداً. أردت أن أرى كتفيه ترتفعان وتنخفضان وهو يتنفَّس. أردت أن أرى شفتيه مزمومتين كأنَّه يقبِّل أحداً في حلمه. كان النظر إليه ضرباً من الجنون، فهو من لحم ودم، وأعرف أنَّ في استطاعتنا، أنا وبريت، أن نبني شيئاً حقيقيّاً وصلباً من مادّة ضبابيَّة، وغير ملموسة كالحبِّ.

«كريمة مخفوقة وكرز»، أضافت بريت، قاطعة عليَّ حلمي، «إذا كان متوافراً لديهم».

متردّداً، خرجت إلى البهو، وسرت أمام غرفة الممرّضات، واتَّجهت إلى المصعد. كانت الكافتيريا لا تزال مفتوحة، تعمل فيها امرأة تضع على رأسها شبكة تغطي شعرها، وتلعب لعبة الكلمات المتقاطعة. سألتها: «هل عندكم ميلك شيك؟»

رفعت عينيها، وقالت: «لا».

«ما أنواع المثلَّجات التي لديكم؟»

«نعم، لكنَّها نفدت. شاحنة التوريد تصل في الصباح».

بدا لي أنَّها لا تريد خدمتي، وعادت إلى لعبتها.

قلت: «لقد أنجبتُ طفلاً منذ قليل».

فقالت: «واو. يا لها من معجزة طبيَّة!».

فقلت مصحِّحاً: «حسناً، زوجتي هي التي أنجبته، وهي تريد ميلك شيك بالحليب».

حدَّجتني كما لو أنَّني أضيّع وقتها، كما لو أنَّ مئة شخص ينتظرون خلفي، وأضافت: «أتريد نصيحتي، خذ لها حلوى. الجميع يحبّون الشوكولاتة»، ومدَّت يدها إلى خلفها دون أن تنظر، وسحبت علبة شوكولاتة غيرارديللي. قلبت العلبة، ونظرت إليها. «هل هذا كلّ ما عندك؟».

«يوجد تخفيض في سعر شوكولاتة غيرارديللي».

قلبتها، ورأيت رمز OU - العلامة التي تثبت أنَّها كوشر (حلال)، وهذا يعنـي أنَّـك تـدفع للمافيـا اليهوديَّـة ضريبـة. أعـدتها إلى الـرفّ، وأخـذت علبـة شـوكولا سـكيتلز الموجودة على الطاولة أمامها، ودفعت لها دولارين، وقلت لهـا: «يمكنـك أن تحتفظـي بالباقي».

بعد الساعة السابعة بقليل، فُتح الباب، شعرت بتوتّر شديد.

منذ مجيء ديفيس، دخلـت لوسـيل الغرفـة مـرّتين – لتطمـئنّ عـلى بريـت وعـلى الطفل، وترى كيف يرضع. لكن هذه - هذه ليست لوسيل.

قالت: «أنا روث، سأكون الممرّضة المشرفة عليكِ اليوم». كان كـلّ مـا اسـتطعت أن أفكِّر فيه هو: على جثَّتي.

تمالكت نفسي كي لا ألقي بها بعيداً عن زوجتي وابني، لكنَّ رجال الأمن لا يبعدون أكثر من مسافة زرّ جـرس، وإذا طـردوني مـن المستشـفى، فـما الفائـدة مـن ألّا أكـون موجوداً هنا لأحمي أسرتي. فقدتُ صوابي.

جلست على حافة الكرسيّ، كلّ عضلة في جسدي متأهِّبة لأن تردَّ.

ضمَّت بريت ديفيس إليها بقوَّة حتَّى ظننت أنَّه سيبدأ يصرخ.

«كم هو جميل!»، قالت الممرّضة السوداء، «ما اسمه؟»

نظرت زوجتي إليَّ، التساؤل يملأ عينيها. إنَّها لا تريد أن تـتكلَّم مـع هـذه الممرّضـة أكثر ممَّا تريد أن تتكلَّم مع عنـزة أو أيّ حيـوان آخـر. لكنَّهـا، مـثلي، تـدرك أنَّ البـيض أصبحوا أقليَّة في هذا البلد، وأنَّنا معرَّضون للهجـوم عـلى الـدوام، وأنَّ علينـا أن نلـتحم معاً.

تشنَّجت ذقنـي، وتسـاءلت: هـل سـترى بريـت ذلـك؟ ثـمَّ قالـت بحـدَّة: «اسـمه ديفيس».

لَمَّا اقتربت الممرِّضة منَّا، وقالت شيئاً، إنَّها تريد أن تفحص ديفيس، انكفأت بريت.

«ليس من الضروريّ أن تتركيه»، قالت الممرّضة أخيراً.

بدأت يداها تتحرَّكان فوق ابني، مثل طبيبة ساحرة مجنونة، وضغطت السماعة الطبية على ظهره، ثمّ وضعتها في الفراغ بينه وبين بريت. قالت شيئاً عن قلب ديفيس، لكنّي لم أسمعها جيّداً لأنَّ الدم بدأ يتدفَّق في أذني.

ثمَّ حملته.

صُدمت أنا وبريت عندما أبعدت طفلنا ووضعته على جهاز التدفئة لتغسله. لم يفِه أحدنا بكلمة.

خطوت خطوة نحوها. كانت منحنية فوق ابني، لكنَّ بريت أمسكت بذيل قميصي. لا تُحدث مشكلة.

هل يفترض بي أن أظلَّ واقفاً هنا؟

هل تريدها أن تعرف أنَّك غاضب وتريد أن تفرغ غضبك فيها؟

أريد أن تعود لوسيل. ما الذي حدث للوسيل؟

لا أعرف. ربَّما غادرت.

كيف يمكنها أن تفعل ذلك، ومريضتها لا تزال هنا؟

لا أعرف يا تورك، فأنا لا أدير هذا المستشفى.

راقبت الممرّضة السوداء بعينَي صقر وهي تمسح جسد ديفيس وتغسل شعره ثمَّ تلفّه في بطانية مرّة أخرى، ووضعت سواراً إلكترونياً صغيراً حول كاحله - كالذي يضعونه أحياناً للسجناء الذين يُخلى سبيلهم ولا يزالون تحت المراقبة. كما لو أنَّ النظام بدأ يعاقبه.

رحت أحدِّق إلى الممرّضة السوداء بشدّة، إلى درجة أنَّني لن أفاجأ لو أنَّ النار اشتعلت فيها. ابتسمت لي، وقالت: «أصبح الآن نظيفاً كصافرة، والآن، لنرَ إن كان في إمكاننا أن نجعله يرضع».

لَمَّا سارت لتبعد رداء المستشفى عن عنق بريت، لم أعد أحتمل، وقلت لها: «ابتعدي عنها». كان صوتي منخفضاً وصحيحاً مثل سهم، «أريد أن أكلِّم رئيستك».

بعد مضيّ عام على ذهابي إلى معسكر «الإمبراطورية الخفيَّة»، سألني راين إن كنت أريد أن أنضمَّ إلى «فرقة الموت في أمريكا الشماليَّة». لم يكن يكفي أن تؤمن بما يؤمن به راين بأنَّ البيض هم العرق السيّد، ولم يكن يكفي أن تقرأ كتاب (كفاحي) ثلاث مرّات. وكي أصبح واحداً منهم، كان عليَّ أن أثبت نفسي، وقد وعدني راين بأنَّني سأعرف أين ومتى تحين اللحظة المناسبة.

في إحدى الليالي، لَمَّا كنت لا أزال أقيم في منزل أبي، استيقظت فجأة على صوت قرع على نافذة غرفة نومي. لم أخشَ أن يستيقظ أحد آخر في المنزل، لأنَّ أبي ذهب ليحضر مأدبة عشاء عمل في بوسطن، ولن يعود إلّا بعد منتصف الليل. لَمَّا فتحت النافذة، انسلَّ راين وشابان آخران إلى الغرفة، يرتدون ثياب نينجا سوداء. فجأة، ألقى بي راين على الأرض، وضغط بساعده على عنقي، وقال: «القاعدة الأولى، لا تفتح إذا لم تكن متأكّداً من الشخص الذي سيدخل». ظلَّ كذلك حتّى بدأتُ أرى النجوم، ثمَّ تركني، وأضاف: «القاعدة الثانية: لا تأخذ أسرى».

فقلت: «لم أفهم!».

قال لي: «نحن الليلة، يا تورك، الحماة. سننظِّف فيرمونت من قذارتها».

وجدت كنزتين لونهما أسود، وقميصاً أسود أيضاً. وبما أنَّه لا توجد لديَّ قبَّعة سوداء محبوكة، أعطاني راين قبَّعته، وعقد شعره إلى الخلف في شكل ذيل حصان. انطلقنا بسيّارة راين، ورحنا نمرِّر زجاجة يغيرميستر بيننا، ورفعنا صوت موسيقا البانك إلى أعلى صوت حتَّى وصلنا إلى بلدة دوميرستون.

لم أكن قد سمعت عن (شركة قوس قزح للماشية)، لكن عندما وصلنا إلى هناك، عرفت ما هذا المكان، فقد كان هناك رجال يمسكون بأيدي

بعضهم يسيرون من باحة موقف السيّارات إلى الحانة، وكلّما فُتح باب الحانة، ظهر وميض من مسرح مضاء بأنوار ساطعة، ورأيت شاباً في ملابس نسائيَّة يغنّي بتحريك شفتيه.

«مهما فعلت، لا تنحنِ»، قال لي راين وهو يضحك.

«ماذا نفعل هنا؟»، سألته، لا أعرف لماذا جاء بنا إلى حانة للمثليين.

في تلك اللحظة، خرج شابان، يلفّ أحدهما الآخر. «هذا»، قال راين، وقفز على أحدهما، وراح يدقّ رأسه بالأرض، فأطلق رفيقه ساقيه للريح في الاتجاه الآخر، لكنَّ أحد أصدقاء راين جرى خلفه وأمسك به.

فُتح الباب مرّة أخرى، وخرج رجلان آخران يتعثَّران في عتمة الليل، رأس أحدهما لصق الآخر، يضحكان على نكتة. مدَّ أحدهما يده إلى جيبه وراح يبحث عن مفاتيح السيّارة. لَمَّا التفت نحو ساحة موقف السيّارات، أضاء وجهه وهج سيّارة عابرة.

كان عليَّ أن أجمع الأمور معاً - شفرة الحلاقة الكهربائيّة الموجودة في خزانة الأدوية عندما كان أبي يستخدم شفرة الحلاقة. كيف غيَّر أبي طريقه كي يتوقَّف عن شرب القهوة كلّ يوم وهو ذاهب إلى العمل في مخزن غريغ وعائد منه. كيف ترك أمّي طوال تلك السنوات من دون تفسير، وحقيقة أنَّ جدّي لم يكن يحبّه. خفضتُ قبَّعتي السوداء، ورفعت الياقة الصوفيَّة التي أعطاني إيّاها راين كي لا يعرفني أحد.

ركل راين ضحيَّته مرّة أخرى وهو يلهث ثمَّ ترك الرجل يجري في ظلام الليل. اعتدل في وقفته وابتسم في وجهي، ورفع رأسه ينتظرني كي أتولَّى زمام الأمر. هنا، تساءلت كيف كان راين يعرف أشياء عن أبي لا أعرفها أنا.

لَمَّا كنت في السادسة من عمري، انفجر المرجل في بيتنا عندما لم يكن ثمَّة أحد فيه. أتذكَّر أنَّني عندما سألت موظّف التأمين الذي جاء لتقييم الأضرار التي حدثت، قال شيئاً عن صمَّامات الأمان والتآكل، ثمَّ وقف

على قدميه وقال إنَّه عندما تتجمَّع كميَّة كبيرة من البخار، ولا يكون الهيكل متيناً بما يكفي لاستيعابه، فلا بدَّ أن يحدث شيء من هذا القبيل. لقد تجمَّع داخلي ذاك البخار طوال ستة عشر عاماً لأنَّني لم أكن أخي الذي مات، ولن أكون، ولأنَّني لم أتمكَّن من أن أُبقي والديَّ معاً، ولأنَّني لم أكن الحفيد الذي أراده جدّي، ولأنَّني كنت غبياً أو غاضباً أو شخصاً غريب الأطوار. أتذكَّر تلك اللحظة جيّداً: كان الجوّ حاراً جدّاً: أمسكت أبي من رقبته، ورحت أدقّ جبهته على الرصيف، ولويت ذراعه وراء ظهره، وركلته على ظهره حتَّى بدأ يبصق دماً. ثمَّ قلبت جسده المرخيّ، وقلت له إنَّه لوطيّ، وضربته بقبضتي على وجهه مرَّات عدَّة. لَمَّا سُمعت صفارات سيارات الشرطة، وملأت الأضواء الزرق والحمر ساحة انتظار السيّارات، سحبني راين إلى برِّ الأمان.

انتشرت القصَّة كما تنتشر القصص، وتضخَّمت أحداثها وتغيّرت: أحدثُ عضو في فرقة الموت في أمريكا الشماليَّة - أي أنا – ضرب ستة رجال في آن معاً، أحمل قضيباً من الرصاص بيد، وسكيناً باليد الأخرى، وقطعت أذن أحدهم بأسناني، وابتلعت شحمة أذنه.

بالطبع، لم يكن أيّ من ذلك صحيحاً. لكن هذا ما حدث: فقد ضربت أبي بشدّة حتّى نُقل إلى المستشفى، وأصبح يتناول طعامه بوساطة قشَّة لأشهر عدَّة.

وهكذا، أصبحت شخصاً أسطوريّاً.

«نريد أن تعود الممرّضة الأخرى»، قلت لماري أو مهما كان اسم الممرّضة المسؤولة، «الممرّضة التي كانت هنا الليلة الماضية».

طلبت إلى الممرّضة السوداء أن تغادر الغرفة، وبقينا وحدنا. أسدلتُ كمَّيَّ إلى الأسفل، لكنَّ عينيها ظلَّتا تحدّقان إلى ذراعي.

ثمَّ قالت: «يمكنني أن أؤكّد لكما أنَّ لدى روث أكثر من عشرين سنة من الخبرة في هذا المستشفى».

فأجبتها: «أظنّ أنّنا، أنا وأنت، نعرف أنَّني لا أعترض على خبرتها».

«لا يمكننا أن نُبعد ممرّضة من الرعاية بسبب عرقها. إنَّه تمييز عنصريّ».

«لو طلبتُ طبيبة توليد بدلاً من طبيب ذكر، فهل يعدُّ ذلك تمييزاً؟»، سألتها بريت، «أو طبيبة بدلاً من طالبة طبّ. إنَّكم تسمحون بذلك طوال الوقت».

فقالت الممرّضة: «هذا أمر مختلف».

سألتها: «كيف ذلك. ما يمكنني قوله هو أنَّك تؤدّين عملاً لخدمة الزبائن، وأنا الزبون، ويجب أن تفعلي الشيء الذي يريح الزبون». وقفت على قدميَّ وأخذتُ نَفَساً عميقاً، واقتربت منها كثيراً لإخافتها، وتابعت: «لا يمكنني أن أتخيَّل كيف سيكون الأمر مزعجاً بالنسبة إلى جميع هؤلاء الأمّهات والآباء الآخرين هنا، كما تعلمين، لو خرجت الأمور عن السيطرة. فإذا ارتفعت أصواتنا بدلاً من هذا الحديث اللطيف والهادئ الذي يدور بيننا، وإذا بدأت المريضات الأخريات يعتقدن أنَّه ربَّما يجري تجاهل حقوقهنَّ أيضاً».

زمَّت الممرّضة شفتيها، وقالت: «هل تهدِّدني يا سيّد باور».

فأجبتها: «لا أظنّ أنَّ هذا ضروريّ. هل تظنين ذلك؟».

يوجد تسلسل هرميّ للكراهية يختلف من شخص إلى آخر. أنا أكره جميع الناطقين بالإسبانيَّة، القادمين من أمريكا اللاتينيَّة، أكثر من كراهيتي للآسيويين، وأكره اليهود أكثر، وتأتي على رأس القائمة كراهيتي للسود. لكن، حتَّى أكثر من كلِّ هذه المجموعات، فإنَّ الأشخاص الذين أكرههم دائماً هم البيض الذين يناهضون العنصريَّة لأنَّهم انتهازيون.

للحظة، انتظرت لأرى إن كانت ماري واحدة منهم.

قفزت عضلة في حنجرتها، ودمدمت: «أنا متأكّدة من أنّنا نستطيع أن نجد حلّاً مقبولاً لكلا الطرفين»، وأضافت، «سأضع ملاحظة في ملفّ ديفيس، عن... رغبتك».

فأجبتها: «أظنّ أنَّ هذا شيء جيّد».

لَمَّا خرجت بسرعة من الغرفة، ضحكت بريت، وقالت: «حبيبي، تبدو شخصاً مهماً عندما تكون شرساً. لكنَّك تعلم أنَّ هذا يعني أنَّهم سوف يبصـقون في الطعـام قبـل أن يقدّموه لي».

اقتربت من المهد، وحملتُ ديفيس. كان صغيراً جداً لا يكـاد يبلـغ طـول سـاعدي، وقلت لبريت، «سأحضر لك الفطائر من البيت»، ثمَّ ألصقتُ شـفتيَّ عـلى جبـين ابنـي، وهمست في جلده سرّاً بيننا فقط: «أعدك أنَّني سأحميك طوال حياتي».

بعد بضع سنوات من مشاركتي في (حركة القوة البيضاء)، عندما كنـت أديـر فرقـة الموت في أمريكا الشماليَّة في ولاية كونيتيكت، توقَّف كبد أمّي تماماً. عـدت إلى المنـزل لأصفّي التركة وأبيع منزل جدّي. بينما كنت أفتّش في أغراضها، وجدت وثائق محاكمـة أخي. لا أعرف لماذا كانت تحتفظ بها. لا بدَّ أنَّها احتفظت بها لسبب ما. جلسـت عـلى الأرضيَّة الخشبيَّة في غرفة الجلوس محاطاً بصناديق يفترض إرسالها إلى منظمة غودويل الخيريّة، وقرأتها – صفحة فصفحة.

كانت شهادات وأدلَّة جديدة بالنسبة إليَّ، كما لو أنَّني لم أعش كلَّ دقيقة فيهـا. لا يمكننـي أن أخـبركم هـل كنـت صـغيراً جـداً فلـم أتـذكّرها، أو أنّنـي تعمَّـدت أن أنساها، لكن جميع الأدلّة كانت تركّز على الخط الـذي يقسـم الطريـق في الوسـط، وفحوص السموم. ليست التي تخصّ المتهم – وإنَّما التي تخصّ أخـي. كانـت سـيّارة تانر هي التي انحرفت نحو الطريق القادمة من الجهة الأخرى، لأنَّه كـان مخمـوراً. كان ذلك واضحاً في جميع الرسوم البيانيَّـة وصـور آثـار الإطـارات: إثبـات كيـف أنَّ رجلاً يُحاكم بتهمة قتل بسبب الإهمال كان قد بذل كلَّ ما في وسعه ليتفادى سيّارة انحرفت إلى مساره. كيف لم تتمكَّن هيئة المحلَّفـين مـن القـول إنَّ حـادث السـيّارة

نجم عن خطأ ارتكبه الْمُدَّعَى عليه فقط. جلست مدَّة طويلة أقلّب الأدلَّة في حضـني، أقرؤها، وأعيد قراءتها.

لكن، ما خلصت إليه هو أنَّه لو لم يكن ذلك الزنجيّ يقود سيّارته في تلك الليلة لَما مات أخي.

روث

طوال فترة عملي في المستشفى لمدة عشرين سنة، طردتني مريضة كنت أقوم على رعايتها، ولم يستغرق ذلك أكثر من ساعتين. لقد أثارت لغطاً، وألقت بزُهرية ممتلئة بالأزهار على رأسي وهي في خضمِّ آلام المخاض، لكنَّها اعتذرت لي عندما جلبت لها الدواء.

بعد أن طلبت إليَّ ماري أن أغادر الغرفة، وقفتُ في الردهة للحظات أهزّ رأسي. «ماذا جرى؟» سألتني كورين، ورفعت عينيها عن الجدول البياني الذي كانت تقرؤه في غرفة الممرِّضات.

«أب فائز آخر»، قلت وقد ارتسمت على وجهي تعابير جامدة.

فأجفلت كورين وقالت: «أسوأ من الرجل الذي استؤصلت قناته المنويَّة».

في أحد الأيام، كنت أرعى مريضة جاءها المخاض، وكان زوجها قد أجرى عمليّة قطع القناة المنويَّة قبل يومين، وكانت كلَّما اشتكت من الألم الذي يعتريها، كان زوجها يشتكي أيضاً. وفي إحدى المرات، دعاني إلى داخل الحمَّام وأنزل سرواله ليريني كيس الصفن الملتهب، في حين كانت زوجته تصرخ وتلهث، قلت له إنَّه يجب أن يرى الطبيب.

لكنَّ تورك باور ليس رجلاً سخيفاً وأنانياً، فبالطريقة التي كشف فيها عن وشم العلم الكونفدرالي، لا أظنّ أنَّه يحبّ الملوّنين كثيراً، «لا بل أسوأ من ذلك».

هزَّت كورين كتفيها، وقالت: «تعرف ماري كيف تهدِّئ الأشخاص الغاضبين. أنا متأكّدة من أنَّها ستتمكَّن من حلِّ أيّ مشكلة، مهما كانت».

لن تستطيع أن تفعل ذلك إلّا إذا كان بإمكانها أن تجعلني بيضاء، قلت في نفسي، ثمَّ قلت لها: «سأذهب إلى الكافتيريا لمدة خمس دقائق. خذي مكاني».

قالت كورين: «إذا أحضرتِ لي شوكولا تويزلر».

وقفت في الكافتيريا بضع دقائق أفكّر في الوشم على ذراع تورك باور. لا توجد لديَّ مشكلة مع البيض، فأنا أقيم في حيّ معظم سكانه من البيض، ولديَّ أصدقاء بيض، وأرسلت ابني إلى مدرسة معظم طلابها من البيض، وأعاملهم بالطريقة التي أريد أن يعاملوني بها – بحسب صفاتهم الفردية كبشر، لا بحسب لون بشرتهم.

لكنَّ الأشخاص البيض الذين أعمل معهم وأتناول الغداء معهم، والذين يعلّمون ابني ليسوا متحيّزين علناً.

اشتريت كيس تويزلر لكورني وكوب قهوة لي. حملتُ كوب القهوة إلى الطاولة التي يوجد عليها الحليب والسكر. كانت هناك امرأة مسنّة تحاول أن تفتح غطاء علبة الحليب، وضعت حقيبتها على المنضدة، لكن ما إن اقتربت، حتَّى أخذت حقيبتها وعلّقت الحزام على كتفها.

قلت لها: «هل يمكنني أن أساعدك في فتح غطاء علبة الحليب؟».

عندما أعدت إليها العلبة، شكرتني وابتسمت لي.

أنا متأكّدة من أنَّها لم تعِ أنَّها أزاحت حقيبتها عندما اقتربت منها.

لكنّي أدركت ذلك.

قلت في نفسي، انفضي كلَّ ذلك من رأسك يا روث، فأنا لست من ذلك النوع الذي يرى الأشياء السيئة في كلِّ شخص كما تفعل أختي أديسا. أخذتُ المصعد وعدت إلى الجناح. لمَّا وصلت رميت كيس التويزلر إلى كورين واتَّجهت نحو باب غرفة بريتاني باور حيث كان جدولها البيانيّ وجدول ديفيس الصغير معلّقين عليه من الخارج. أخذت جدول الطفل لأتأكّد من أنَّ طبيبة الأطفال قد انتبهت إلى مسألة النفخة القلبيَّة المحتملة، لكن، لَمَّا فتحت الجدول، وجدتُ قصاصة ورديَّة اللون ملصقة على الأوراق.

لا يسمح لأيِّ عامل طبيّ أمريكيّ من أصل أفريقيّ برعاية
هذه المريضة.

كست الحرارة وجهي. لم أجد ماري في مكتبها، فبحثت عنها حتّى رأيتها تتحدَّث مع طبيب الأطفال في غرفة الحضانة. «ماري»، قلت لها وألصقتُ ابتسامة على وجهي، «هل لديك دقيقة».

تبعتني إلى غرفة الممرّضات لأنَّني لم أشأ أن أكلّمها في مكان عامّ. لَـمَّا دخلنا غرفة الاستراحة، قلت لها: «هل أنتِ جادَّة؟»

لم تتظاهر بأنَّها لم تفهم قصدي، وقالت: «روث، إنَّها لا شيء. فكّري في الأمر كما تفكّرين في التفضيلات الدينيّة التي تفرضها أيّ أسرة لرعاية المريضة».

«لا يمكنكِ أن تقارني ما حدث بالتفضيلات الدينيَّة!».

ردَّت: «إنّه مجرّد إجراء شكليّ. الأب متهوّر. هذه أسهل طريقة لجعله يهدأ قبل أن يُقدم على عمل شيء عنيف».

سألتها: «أليس هذا عملاً عنيفاً؟!»

قالت ماري: «انظري. إن كنت أفعل شيئاً، فإنّي أسدي لك معروفاً. لذلك، لا تتعاملي مع هذا الرجل بعد الآن. بصراحة، الأمر لا يتعلَّق بك يا روث».

«حقّاً»، قلت لها، «كم أمريكيّ من أصل أفريقيّ موجود في هذا الجناح؟».

كلتانا نعرف الجواب عن هذا السؤال. لا يوجد أحد.

نظرتُ في عينيها مباشرة، وقلت: «إنّك لا تريدين أن ألمس ذاك الطفل، حسناً، لن ألمسه».

وصفقت الباب ورائي بقوَّة.

ذات مرَّة، تدخَّل الدين في رعايتي لمولود جديد؛ إذ جاء إلى المستشفى زوج وزوجة مسلمان، لأجل ولادة طفلهما، وقال لي الأب إنّه يريد أن يكون أوّل شخص يكلِّم المولود. فقلت له إنَّني سأفعل كلَّ ما في وسعي

لتلبية طلبه، لكن إذا حدثت مضاعفات في أثناء الولادة، فإنَّ أولويتي العمل على إنقاذ الطفل – وهذا يتطلَّب التواصل، وهو يعني أنَّ الصمت في غرفة الولادة ليس أمراً محتملاً أو ممكناً.

تركت الزوجين وحدهما ليبحثا في الأمر، ثمَّ ناداني الأب وقال: «إذا حدثت مضاعفات فأرجو أنَّ الله سيتفهَّم ذلك».

قبل فترة قصيرة من بدء الولادة، ذكّرت طبيبة الأطفال بما طلبته المريضة. أخرجت الطبيبة الرأس، ثمَّ الكتف اليمنى، ثمَّ اليسرى، كما لو كانت لعبة كرة القدم. كان بكاء الطفل الصوت الوحيد المسموع في الغرفة. أخذتُ المولود الذي كان زلقاً مثل سمكة نهريّة صغيرة، ولففته في بطانية، ووضعته بين ذراعَي والده، فانحنى الرجل فوق رأس ابنه الصغير، وراح يهمس في أذنه شيئاً باللغة العربيَّة، ثمَّ وضع الطفل بين ذراعَي زوجته، فانفجرت الغرفة بالضوضاء من جديد.

في وقت لاحق من ذلك اليوم، لَمَّا عدت لزيارة مريضتي وطفلها، كانا نائمين. كان الأب واقفاً فوق مهد الطفل يحدّق إليه كما لو أنه لم يفهم تماماً كيف حدث ذلك. نظرة رأيتها كثيراً على وجوه الآباء الذين لم يكن الحمل بالنسبة إليهم شيئاً حقيقياً حتَّى تلك اللحظة، أمَّا الأمّ فلديها تسعة أشهر حتّى تعتاد مشاركته البقعة التي يقبع فيها في قلبها، أمَّا بالنسبة إلى الأب، فإنَّ ذلك يأتي فجأةً، مثل عاصفة تغيّر المشهد إلى الأبد.

لَمَّا قلت له: «يا له من طفل جميل!»، ابتلع ريقه. تعلَّمت أنّه توجد مشاعر لم نجد لها العبارات المناسبة. تردّدتُ قليلاً، ثمّ سألته ممَّا يدور في خاطري منذ الولادة، وقلت له: «إذا لم تكن وقاحة منّي أن أسألك، فهل يمكنك أن تقول لي ما الذي همست به لابنك؟».

فقال الأب: «الأذان، وهو: الله أكبر، لا إله إلا الله، محمَّد رسول الله»، ثمَّ نظر إليَّ، ومضى يقول وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة، «في الإسلام، نريد أن تكون أولى الكلمات التي يسمعها الطفل هي الأذان».

بدا لي ذلك شيئاً رائعاً، لأنَّ كلَّ طفل معجزة. إنَّ الفرق بين طلب الأب المسلم وطلب تورك باور كالفرق بين الليل والنهار.

بين الحبِّ والكراهية.

كانت فترة ما بعد الظهر حافلة بالنشاط، فلم يتح لي الوقت لأتحدَّث إلى كورين عن المريضة الجديدة إلَّا بعد أن ارتدينا معاطفنا وسرنا في اتجاه المصعد. سألتني كورين، «ما الذي حدث؟»

لَمَّا قلت لها: «إنَّ ماري أبعدتني عن معالجتها لأنّني سوداء»، جعَّدت كورين أنفها، وقالت: «لا يمكن أن تفعل ماري ذلك».

التفتُّ إليها، ويداي لا تزالان فوق طيّة صدر معطفي، وقلت لها: «إذاً أنا كاذبة».

وضعت كورين يدها على ذراعي، وقالت: «لا، طبعاً. إنّي واثقة بأنَّ شيئاً آخر يحدث».

لم يكن من اللائق أن أُفرغ إحباطي على كورين التي عليها أن تتعامل مع تلك الأسرة الفظيعة الآن، ولم يكن من الملائم أن أغضب منها لأنني غاضبة من ماري. كانت كورين دائماً شريكة لي في الجريمة، وليست خصماً لي. لكني شعرت بأنني أستطيع أن أتكلّم وأُفرغ ما يجيش في صدري، لكنها لن تفهم سبب كلّ ذلك.

ربَّما ينبغي لي أن أتكلّم كي أنفّس عن غضبي، وربَّما أصبح بعدها مقبولة لدى أسرة باورز.

قلت: «مهما يكن، فهذا الطفل لا يعني لي شيئاً».

أمالت كورين رأسها، وقالت: «هل تريدين أن نتناول كأساً من النبيذ قبل أن نعود إلى البيت».

أرخيتُ كتفيَّ، وقلت: «لا أستطيع. إديسون ينتظرني».

رنَّ جرس المصعد، وفُتح الباب. كان ممتلئاً لأنَّنا في نهاية فترة المناوبة. بحر من الوجوه البيض الساهمة راحت تحدِّقني.

لم أكن أفكّر في ذلك عادة، لكن فجأة، كان هذا كلّ ما رأيته.

سئمت كوني الممرّضة السوداء الوحيدة في قسم الولادة.

سئمت أن أتظاهر بأنَّ هذا لا يهمّ.

تعبتُ.

«تعرفين ماذا»، قلت لكورين، «أظنُّ أنَّني سآخذ الدرج».

لَمَّا كنت في الخامسة من عمري، لم أستطع أن أندمج. فعلى الرَّغم من أنّني بدأت أقرأ مُذ كنت في الثالثة من عمري - نتيجة تعليم أمّي الدؤوب كلّ ليلة عندما تعود من عملها – وعندما أصادف كلمة tree (شجرة)، كنت ألفظها «ree»، حتّى اسم أسرتي «بروكس»، كنت ألفظه «رووكس». فذهبت أمّي إلى المكتبة وجلبت كتاباً عن الحروف الساكنة وظلّت تعلّمني لمدّة سنة كاملة، وجعلتني أشارك في اختبار برنامج الموهوبين، وبدلاً من أن أذهب إلى المدرسة في حيّ هارلم - حيث نعيش – كانت تأخذنا معها بالحافلة، أنا وأختي لمدّة ساعة ونصف صباح كلّ يوم إلى مدرسة حكوميَّة في حيّ ويست سايد، معظم تلاميذها من اليهود. كانت توصلني حتّى باب غرفة الصفّ، ثمّ تأخذ مترو الأنفاق لتعود إلى عملها في منزل أسرة هالويل.

لم تكن أختي راشيل تلميذة مجتهدة مثلي، وكانت الرحلة بالحافلة تستنزف طاقتنا جميعاً. انتقلنا في الصف الثاني إلى مدرستنا القديمة في حيّ هارلم حيث أمضيت سنة انخفضت في أثنائها درجاتي كثيراً، فدمَّر ذلك أمِّي. لَمَّا قالت ذلك للسيّدة مينا، سعت إلى نقلي إلى مدرسة دالتون الخاصَّة التي تدرس فيها ابنتها كريستينا، وكانت إدارة المدرسة تبحث عن التنوّع في التلاميذ. حصلت لي السيّدة مينا على منحة دراسيَّة كاملة، وبقيت متفوّقة في صفّي، وكنت أحصل على جوائز في كلّ مناسبة، وبذلت

كلَّ ما في وسعي لأكافئ إيمان أمّي وثقتها بي، في حين كانت راشيل تقيم صداقات مع أطفال في حيّنا لا أعرف أحداً منهم. لم تكن مدرسة دالتون ملائمة لي، وكذلك هارلم، فقد كنت طالبة متفوّقة غير قادرة على الاندماج.

كانت بعض الطالبات يدعونني إلى بيوتهنَّ - فتيات يقلن أشياء مثل: «إنَّك لا تتكلَّمين كما يتكلّم السود»، أو «إنّني لا أرى أنّك هكذا». بالطبع، لم تزرني أيّ منهنّ في حيّ هارلم، وكنت أتحجّج دائماً بأنّني ملتزمة بدرس في الرقص، أو لديَّ التزام أسريّ، أو واجبات منزليّة كثيرة. كنتُ أتخيلهنَّ أحياناً وهنَّ يسرن عند ناصية الشارع الذي أقيم فيه بشعرهنَّ الحريريّ الأشقر، ودعامات تقويم الأسنان. كان ذلك أشبه بتصوير دبّ قطبيّ في المناطق الاستوائية، ولم أكن أتساءل كثيراً كيف كنَّ يرينَني في دالتون.

لَمَّا التحقت بجامعة كورنيل، التي لم يتمكَّن العديد من الطلاب في مدرستي من الالتحاق بها، كنت أسمعهم يتهامسون: قُبلت في الجامعة لأنّها سوداء، ونسوا أنَّني حصلت على متوسّط قدره 3.87، ولم يكترثوا لأنّني حصلت على درجات عالية في اختبارات القبول في الجامعة، ولم يأبهوا لأنّني لم أكن أستطيع تحمّل تكاليف الذهاب إلى جامعة كورنيل، فذهبت إلى جامعة ولاية نيويورك في بلاتسبرغ. كانت أمّي تردّد دائماً: «حبيبتي، ليس من السهل أن تحصل فتاة سوداء على كلّ ما تريد. يجب أن تثبتي لهم أنَّكِ لست فتاة سوداء، وإنّما روث بروكس»، وتضغط على يدي، وتقول: «ستحصلين على كلّ شيء جيّد سيأتي إليك – لا لأنّك تتوسَّلين للحصول عليه، ولا بسبب لون بشرتك، وإنّما لأنّك تستحقين ذلك».

أعرف أنَّني لم أكن لأصبح ممرّضة لولا عمل أمّي الدؤوب لتضعني في منتصف طريق التعليم الجيّد، وأعرف أيضاً أنَّني كنت قد قرّرت منذ زمن أن أتغلَّب على المشكلات التي تواجهني عندما يتعلَّق الأمر بابني. لذلك، قرَّرت أنا وزوجي، عندما بلغ إديسون الثانية من عمره، أن ننتقل إلى حيّ يقيم فيه البيض، حيث توجد مدارس فضلى، على الرَّغم من أنّنا سنكون الأسرة الملوّنة

الوحيدة في ذلك الحيّ. لذا، تركنا شقتنا القريبة من خطّ السكّة الحديديّة في نيو هافن، ولَمَّا كان دَلَّال العقارات يكتشف من نحن، يختفي اسمنا من قائمة المتقدّمين لشراء البيت، حتّى وجدنا أخيراً بيتاً صغيراً في المنطقة الأكثر ثراء في إيست إند، في الجانب الشرقيّ من مدينة نيويورك، حيث سجّلت إديسون في روضة أطفال، فبدأ يندمج مع الأطفال الآخرين، كي لا يبدو غريباً عنهم، وقد أصبح واحداً منهم منذ البداية. ولَمَّا كان يريد أن يمضي أصدقاؤه الليلة في بيتنا، لم يكن أحد من والديهم يستطيع أن يقول إنَّ ذلك سيكون خطراً على ابنهم، لأنَّنا نقيم في الحيّ الذي يقيمون فيه أيضاً.

نجحت خطّتي، لا بل نجحت نجاحاً عظيماً. في البداية، كان عليَّ أن أدعمه وأحميه - وأتأكَّد من أن يلاحظ أساتذته ذكاءه لا لون بشرته - وكانت نتيجة ذلك أنَّ إديسون تبوَّأ المراكز الثلاثة الأوَّل في فصله الدراسيّ. وحصل على شهادة التفوّق الأكاديميّ الوطنيّة، وهذا يعني أنَّه سينتقل إلى الجامعة ويصبح كما يريد.

بذلت حياتي كلّها لأحقّق ذلك.

لَمَّا كنت أعود إلى البيت من المستشفى، أجد إديسون يؤدي واجباته المدرسية على طاولة المطبخ. «مرحباً حبيبي»، أقول له وأنحني فأقبِّل رأسه، أمَّا الآن فلم أعد أستطيع أن أفعل ذلك إلّا إذا كان جالساً. لا أزال أذكر اللحظة التي أدركت فيها أنّه أصبح أطول قامة منّي، وبدأت أرفع ذراعيَّ إلى الأعلى بدلاً من أن أنزلهما إلى الأسفل، وأدركت أنَّ الشخص الذي دعمته طوال حياته أصبح قادراً على أن يدعمني.

لَمَّا دخلت هذا المساء، لم يرفع عينيه ويقول: «كيف كان عملك اليوم؟».

رسمت ابتسامة على وجهي، وقلت: «إنّك تعرف، الشيء نفسه».

خلعتُ معطفي، وأخذت سترة إديسون المرمية على ظهر الأريكة، وعلّقتها في الخزانة، وقلت: «إنّي لا أقوم بأعمال تنظيف هنا...»

«إذاً اتركيها في مكانها. لماذا يجب أن يكون كلّ شيء أفعله غلطاً»، انفجر إديسون، وابتعد عن الطاولة بسرعة حتّى كاد يرتطم بكرسيه، وترك جهاز كمبيوتره وكتابه المفتوح، وخرج من المطبخ محتدماً، ثمَّ سمعتُ صوت باب غرفة نومه يصفق بقوَّة.

هذا ليس ابني. ابني الذي يحمل مواد البقالة ويصعد بها ثلاثة طوابق ليوصلها إلى السيّدة لاسكا العجوز، من دون حتّى أن تطلب منه ذلك. ابني الذي يفتح الباب دائماً لأيّ سيّدة عندما تدخل، ويقول دائماً: من فضلك، وشكراً، الذي لا يزال يضع جميع بطاقات عيد الميلاد التي أكتبها له على منضدته.

في بعض الأحيان، تأتي أمّ جديدة إليَّ، رضيعها يصرخ بين ذراعيها، وتسألني كيف يمكنها أن تعرف ما يحتاج إليه طفلها. إذا كان لديك ابن مراهق، لا يختلف الأمر كثيراً، من نواح عدَّة، عن أن تنجبي طفلاً رضيعاً. أن تتعلّمي كيف تقرئين ردود أفعاله، لأنّه غير قادر على معرفة ما الذي يسبّب له الألم بدقّة.

مع أنَّ كلَّ ما أردت فعله هو أن أذهب إلى غرفة إديسون، وأضمّه إليَّ وأهدهده، كما كنت أفعل عندما كان صغيراً يتألم، أخذتُ نفساً عميقاً ودخلت المطبخ، ولم أذهب إلى غرفته. كان إديسون قد ترك لي العشاء، صحناً مغطّى بورق الألمونيوم. يستطيع إديسون أن يعدَّ ثلاثة أطباق، وهي: المعكرونة بالجبن، البيض المقليّ، وسلوبي جو، وفي الأيام المتبقية من الأسبوع، يسخّن الطعام الذي أعدُّه له في أيام عطلتي. كان العشاء الليلة فطيرة انتشلادا، وكان إديسون قد أعدَّ أيضاً طبق بازلاء لأنّني علّمته منذ سنوات أنَّ الوجبة لا تعدّ وجبة حقيقيّة إلّا إذا كانت مؤلّفة من أكثر من لون.

صببتُ لنفسي قليلاً من النبيذ من القنينة التي كانت ماري قد جلبتها لي في عيد الميلاد. ومع أنه كان لاذعاً، أرغمتُ نفسي على أن أرشف رشفات

عدَّة كي ترتخي العقد في كتفيَّ، وأتمكن من أن أغمض عينيَّ حتى لا أرى وجه تورك باور.

بعد مضيّ عشر دقائق، طرقت على باب غرفة إديسون بهدوء، غرفته منذ أن كان في الثالثة عشرة من عمره، أمَّا أنا فأنام على الأريكة القابلة للطي في غرفة الجلوس. أدرت أكرة الباب فوجدته ملقى على سريره شابكاً ذراعيه وراء رأسه. لوهلة رأيت شبهاً كبيراً له مع أبيه، وشعرت أنَّ الزمن قد عاد بي للحظة.

جلست على السرير إلى جانبه، وسألته: «هل تريد أن نتحدَّث عنها، أو أنّنا سنتظاهر بأنَّه لا يوجد شيء؟»

لوى إديسون فمه، وقال: «هل لديَّ خيار حقاً؟».

فقلت، وابتسمت قليلاً: «لا، هل يتعلّق ذلك باختبار الحساب؟».

قطَّب حاجبيه، وقال: «اختبار الحساب؟! حصلت فيه على ستّ وتسعين درجة. لقد تشاجرتُ مع برايس اليوم».

كان برايس أكثر أصدقاء إديسون قرباً مُذ كانا في الصفّ الخامس، أمّه قاضية في إحدى محاكم الأسرة، وأبوه أستاذ الأدب الكلاسيكيّ في جامعة ييل. توجد في غرفة الجلوس في بيتهم خزانة زجاجيّة كالتي يمكن أن تراها في متحف، فيها جرَّة إغريقيَّة أصليَّة، وكانوا قد أخذوا إديسون معهم في إجازة إلى غستاد وسانتوريني.

ما أجمل الشعور بأن ينقل لي إديسون هذا العبء لأحلَّ مشكلات شخص آخر لبعض الوقت! لقد أزعجني ما حدث في المستشفى كثيراً: أنا التي أُعرف بأنّني المرأة التي تجد حلولاً باستمرار. أنا لست المشكلة، لم أكن المشكلة قطّ.

«إنّي متأكّدة من أنّك ستهدأ، وسيمرّ كلُّ شيء بسلام»، قلت لإديسون وأنا أربّت على ذراعه، «فأنتما مثل شقيقين».

استلقى على جانبه ووضع الوسادة فوق رأسه.

«هيه»، قلت له، «هيه»، وسحبت الوسادة، ولاحظت آثار دمعة جعلت لون بشرة صدغه أغمق. همهمتُ، «حبيبي. ما الذي حدث؟».

«قلت له إنَّني سأدعو ويتني إلى حفل انتهاء السنة». «ويتني...»، كـرَّرتُ، محاولـة أن أحدّد الفتاة من بين مجموعة أصدقاء إديسون.

فقال: «شقيقة برايس».

لاحت في بالي بسرعة فتاة ذات ضفائر شُقر بلون الفريز، كنت قد رأيتها منذ بضـع سنوات عندما ذهبت لأجلب إديسون من الملعب حيـث يلعـب الأولاد، «تلـك الفتـاة المكتنزة التي تضع مقوّم أسنان؟».

«نعـم. لكنَّهـا أزالـت مقـوّم الأسـنان الآن. وهـي ليسـت مكتنـزة. لـديها...»، قـال إديسون، ولانت عيناه، وتخيّلت ما الذي يراه ابني.

قلت له بسرعة: «ليس من الضروريّ أن تكمل هذه الجملة».

«حسناً، إنَّها فتاة رائعة، أصبحت في السـنة الثانيـة الآن. أقصـد أنّنـي أعرفهـا منـذ زمن، لكنّي عندما بدأت أنظر إليها مؤخّراً، لم أعد أرى أنّها شقيقة برايس الصغيرة، كما تعرفين، كنت قد خططت لكلّ ذلك. ثمّ طلبت إلى برايس أن ينقل إليهـا رسـالة دعـوة إلى الحفل في نهاية السنة، فرفض».

أخذتُ نفساً عميقاً، وقلت، أختار كلـماتي بعنايـة: «يصـعب أحيانـاً أن يـرى أخ أنَّ أخته الصغيرة صديقة محتملة لأحـد، مهـما كـان قريبـاً مـن الشـخص الـذي يريـد أن يدعوها».

زاغت عينا إديسون، وقال: «ليست هذه هي المشكلة».

«ربّما يحتاج برايس إلى بعض الوقت كي يتعوّد الفكرة. ربَّمـا فـوجئ بأنـك تفكّـر في أخته بهذه الطريقة لأنَّك مثل أحد أفراد الأسرة».

«المشكلة هي... أنَّني لست». اعتدل ابنـي في جلسـته، وتـدلَّت سـاقاه الطويلتـان على حافة السرير، وقال: «ضحك برايس وقال، أن نكون أنا وأنت صـديقين شيء، لكـنَّ أمّي وأبي سيستشيطان غضباً...»

قلت: «وماذا جرى بعد ذلك؟».

«سألته عن السبب. فقد سـافرت مـع أسرتـه إلى اليونـان، فقـال، أرجـو ألّا تشـعر بالإساءة، لكنَّ والديَّ لا يحبّان أن تواعد أختـي شـاباً أسـود. لا مـانع أن يكـون عنـدك صديق أسود يزورنا في الإجازات الأسريَّة، لكن ليس من المقبول أن تكون هنـاك علاقـة بين هذا الصديق وابنتك».

كنت أسعى طوال الوقت كي أبعد إديسون عن شعور كهذا، ولم يخطر في بالي قـط أنَّه عندما يحدث – مع أنَّني كنت أرى أنَّه سيحدث - فإنّه سيحترق أكثر لأنَّـه لم يكـن يرى أنَّه سيأتي.

أمسكت بيده وضغطت عليها، وقلت: «لن تكـون أنـت وويتنـي أول فتـى وفتـاة تجدان نفسيكما على جانبَيْ جبل. كان هنـاك قـبلكما روميـو وجولييـت، وآنـا كارنينـا وفرونسكي، وماريا وتوني، وجاك وروز».

نظر إديسون إليَّ بعينين ممتلئتين رعباً، وقال: «إنّك تعرفين أنَّ في كلّ مثـال ذكرتـه، مات أحدهما في الأقلّ».

فقلت: «ما أحاول أن أقوله هو أنّه لو رأت ويتني كم أنـك شـخص مميَّـز، لأرادت أن تكون برفقتك. وإذا لم تكن ترى ذلك، فإنّها لا تستحقّ أن تقاتل لأجلها».

لَمَّا وضعتُ ذراعي حول كتفيه، مال إديسون نحوي، وقـال: «هـذا لا يجعـل الأمـر أقلَّ سوءاً».

فقلت تلقائياً: «اللغة. لا، لا تجعلها».

ليست هذه المرة الأولى التي أتمنّى فيها لو كان ويسلي لا يزال في قيـد الحياة. كم كنت أتمنّى لو أنه لم يعد إلى أفغانستان في أثنـاء خدمتـه! كـم

أتمنّى لو أنّه لم يكن في تلك القافلة عندما انفجر لغم تحت شاحنته! كم أتمنّى لو أنّه عرف إديسون عندما أصبح مراهقاً الآن، لا عندما كان طفلاً فقط! كم أتمنّى لو كان هنا ليقول لابنه إنّه عندما تجعل فتاة الدم يتدفَّق في جسدك فإنّها تكون أول مرّة بين مرّات عدَّة!

كم أتمنَّى لو كان هنا!

لو استطعت أن ترى ما الذي صنعناه، قلت في نفسي بصمت، فهو أفضل منّا كلينا.

سألته فجأة: «ماذا حدث لتومي؟».

قال إديسون متجهّماً: «تومي فيليبس؟»، «أظنّ أنّه قُبض عليه لأنه كان يتعاطى الهيروين خلف المدرسة السنة الماضية. إنّه في سجن الأحداث الآن».

«هل تتذكّر عندما قال لك ذلك الجانح الصغير، عندما كنتما في مدرسة الحضانة، إنّك تشبه قطعة خبز محمّص محروق؟».

ارتسمت على وجه إديسون ابتسامة بطيئة، وقال: «نعم».

كانت تلك أول مرّة يذكر فيها طفل لإديسون أنّه مختلف عن التلاميذ الآخرين في صفّه - وقال ذلك بطريقة سيئة أيضاً: محروق، متفحّم، تالف.

ربّما كان إديسون قد لاحظ ذلك، وربّما لم يلاحظ، لكن كانت تلك أول مرّة أكلّم فيها ابني حول لون البشرة.

«هل تتذكَّر ما قلته لك؟»

«إنَّ لون بشرتي بنّي لأنّه يوجد لديَّ ميلانين أكثر من أيِّ شخص آخر في المدرسة؟».

«صحيح. لأنَّ الجميع يعرفون أنَّ من الأفضل أن يكون لديك شيء أكثر ممَّا هو قليل، والميلانين يحمي بشرتك من التلف الناجم عن أشعّة

الشمس، ويساعد في تحسين بصرك، وسيظلّ تومي فيبس مفتقداً ذلك دائماً. لذا، في واقع الأمر، أنت المحظوظ».

شيئاً فشيئاً، مثل ماء على رصيف جاف، تلاشت الابتسامة عن وجه إديسون، وقال: «لا أشعر أنَّني محظوظ الآن».

لَمَّا كنَّا فتاتين صغيرتين، لم يكن هناك أيّ شبه بيني وبين أختي الكبرى، فقد كان لون بشرة راشيل بلون القهوة الطازجة، مثل لون بشرة ماما تماماً، أمَّا أنا فقد سُكبت من القِدر عينها، لكن أضيفت إليَّ كميَّة كبيرة من الحليب، فلم يعد بإمكانك حتَّى أن تعرف اللون الحقيقيَّ.

كان لون بشرتي الفاتح يدفع راشيل إلى حافة الجنون لأنّه يمنحني امتيازات لم أفهمها، فقد كان العاملون في البنك يقدّمون لي قطع حلوى عدَّة، ثمَّ بعد تفكير، يعطون أختي قطعة واحدة، وكان المعلّمون في المدرسة يدعونني أخت بروكس الجميلة، أخت بروكس الطيبة. ولَمَّا كانوا يلتقطون صوراً لتلاميذ الصفّ، يضعونني في الصفّ الأماميّ، في حين تختبئ راشيل في الصفوف الخلفيَّة.

كانت راشيل تقول لي إنَّ أبي الحقيقيّ أبيض البشرة، وإنَّني لا أنتمي إلى أسرتنا. وفي أحد الأيام، تشاجرنا أنا وراشيل، وقلت لها إنَّني سأذهب وأعيش مع أبي الحقيقيّ، لكنَّ أمّي أجلستني في حضنها في تلك الليلة، وأرتني صور أبي، الذي هو والد راشيل أيضاً - بشرته بنيّة فاتحة مثل بشرتي - يحملني بين ذراعيه عندما ولدتُ، وكان التاريخ المدوَّن على الصورة قبل سنة كاملة من مغادرته لنا إلى الأبد.

نشأنا، أنا وراشيل، كما تنشأ شقيقتان. كنت قصيرة القامة، وهي طويلة مثل ملكة، وكنت طالبة مجتهدة، وكانت أذكى على نحو طبيعيّ، لكنَّها تكره المدرسة. ولَمَّا كانت في العشرينات من عمرها، غيَّرت اسمها رسميّاً إلى أديسا، استناداً إلى ما كانت تقول إنها «جذورها العرقيَّة». وعلى الرَّغم

من أنَّ الكثير من الأسماء العرقيَّة سواحيليَّة، فإنّ اسم أديسا مستمدّ من لغة اليوروبا التي ستقول لك إنّها من غرب أفريقيا - «من البلد الذي جاء منه أسلافنا عندما جُلبوا إلى هنا كعبيد»، ويعني الشخص النقي، الواضح. حتّى اسمها يحكم علينا بأننا لا نعرف الحقائق التي تعرفها هي.

تقيم أديسا حالياً في شقَّة قريبة من سكّة القطار في نيو هافن، في منطقة تباع فيها المخدّرات في وضح النهار، ويتبادل الشبّان إطلاق النار طوال الليل. لديها خمسة أطفال، وتعمل هي وزوجها في أعمال متدنية الأجر، بمشقَّة يتدبَّران أمر معيشتهما. أحبّ أختي حتّى الموت، لكنّي لا أفهم الخيارات التي تتخذها، ولا تفهم الخيارات التي أتَّخذها.

أتساءل هل كانت رغبتي في أن أصبح ممرّضة، ورغبتي في أن أحقّق الكثير لابني إديسون، لأنَّني كنت أتفوّق عليها، وطالما تساءلت إن كان السبب الذي جعل راشيل تغيّر اسمها إلى أديسا أن تزيد النار التي تضطرم في داخلها اضطراماً.

في يوم الجمعة، يوم عطلتي، ذهبت مع أديسا إلى صالون لتقليم الأظافر. جلسنا إلى جانب بعضنا، أيدينا تحت فتحات التجفيف بالأشعّة فوق البنفسجيّة. نظرت أديسا إلى زجاجة لون طلاء الأظافر الذي اخترته، وهزَّت رأسها، وقالت: «لا أصدّق أنّكِ اخترتِ طلاء أظافر *Juice Bar Hopping*، فهو أكثر الألوان بياضاً».

فقلت: «إنَّه برتقاليّ وليس أبيض».

فقالت: «أقصد الاسم يا روث، الاسم. هل رأيتِ أحداً يذهب إلى حانة ليشرب عصيراً؟ لا، لأنَّ أحداً لا يذهب إلى الحانة ليشرب العصير».

نظرت إليها، وقلت: «حقّاً؟ لقد أخبرتك توّاً أنَّهم منعوني من رعاية مريضة، وتريدين أن تحدّثيني الآن عن لون طلاء أظافري؟»

فقالت أديسا: «إنّي أتحدّث عن اللون الذي اخترته لتعيشي حياتك»، وأضافت، «إنَّ ما حدث لك يحدث لنا جميعاً كلّ يوم، كلّ ساعة. لقد تعوّدتِ اللعب وفاقاً لقواعدهم، حتّى إنَّكِ نسيتِ أنَّ لديك بشرة أخرى في تلك اللعبة»، ثمَّ ابتسمت ساخرة، «حسناً. بشرة فاتحة أكثر، لكن لا تزال داكنة في نظرهم».

«ماذا تقصدين؟»

هزَّت كتفيها وقالت: «متى كانت آخر مرّة قلت فيها للآخرين إنَّ ماما لا تزال تعمل خادمة؟»

«لم تعد تعمل الآن كثيراً. إنَّكِ تعرفين ذلك. في الأساس، إنَّها مؤسّسة خيريّة تسهم فيها مينا».

«لم تجيبي عن سؤالي».

قطّبت حاجبيَّ، وقلت: «لا أعرف متى قلت ذلك آخر مرّة. هل هذا أول شيء تتحدّثين عنه في أيّ حديث مع الآخرين؟ بالإضافة إلى أنّه لا يهمّ ما يكون عليه لوني، فأنا أؤدّي عملي على أكمل وجه، ولا أستحقّ أن أُمنع من أداء عملي».

«وأنا لا أستحقّ أن أعيش في شارع تشيرش ساوث، لكنّي أحتاج إلى أكثر من مئتي سنة من التاريخ حتّى أغيّر ذلك».

تحبّ أختي أن تلعب دور الضحية. كنا قد تبادلنا أحاديث حادّة حول هذا الأمر. إذا كنت لا تريدين أن يُنظر إليك بهذه الصورة النمطيَّة، فلا تكوني كذلك. أمَّا بالنسبة إلى أختي، فهذا يعني أن تلعب لعبة الرجل الأبيض، وأن تكون كما يريدها هو، لا كما يجب أن تكون هي نفسها. تنطق أديسا كلمة اندماج بكثير من الحقد حتّى إنَّه ليخيّل إليك أنَّ الشخص الذي يسمعها – كما أسمعها – يتجرَّع سمّاً.

وتحبّ أختي أن تتناول أيَّ مسألة وتحوّلها إلى مشكلة تتحدّث عنها وتثير حولها لغطاً كبيراً.

«إنَّ ما حدث في المستشفى ليس خطأك»، فاجأتني أختي بقولها ذلك. ظننت أنّها ستقول إنّه لا بدَّ أن يحدث لي ذلك، لأنَّني أتظاهر دائماً بأنّني لست كذلك، وأنّني في أثناء ذلك، نسيت الحقيقة. ثمّ قالت: «إنّه عالمهم يا روث، ونحن نعيش فيه فقط. تصوّري أنّك ذهبت إلى اليابان. بإمكانك أن تتجاهلي العادات السائدة هناك ولا تتعلّمي لغتهم، لكن لو فعلت ذلك، فإنّ حياتك ستصبح أكثر يسراً، الشيء نفسه ينطبق هنا. فكلَّما فتحتِ التلفاز أو المذياع، فإنّك تشاهدين وتسمعين أخباراً عن أنَّ البيض يذهبون إلى المدارس الثانوية والجامعات، ويتناولون العشاء، ويقيمون حفلات خطوبة، ويشربون نبيذ بينو نوار، فتتعلَّمين كيف يعيشون حيواتهم، وتجيدين الحديث بلغتهم لتتمكَّني من الاندماج معهم، لكن، كم شخصاً أبيض تعرفينه حاول أن يشاهد أفلام تايلر بيري ليعرف كيف يتصرَّف مع السود؟».

«ليست هذه هي الفكرة...»

«لا، الفكرة هي أنّك تستطيعين أن تفعلي كما يفعل الرومان، لكن هذا لا يعني أنَّ الإمبراطور سيدعك تدخلين قصره».

فقلت أجادلها: «لا يدير العالمَ البيضُ فقط يا أديسا، يوجد عدد كبير من الملوّنين الناجحين أيضاً»، وذكرت لها أول ثلاثة أسماء خطرت لي: «كولين باول، كوري بوكر، بيونسيه...»

فردَّت أديسا: «ليس أيّ منهم بشرته داكنة مثلي. هل تعرفين ما الذي يقولونه: كلَّما دخلت في عمق المساكن الشعبيَّة، ازداد لون الجلد قتامةً».

فقلت: «كلارنس توماس. بشرته أغمق من بشرتك، وهو قاض في المحكمة العليا».

ضحكت أختي وقالت: «روث، إنَّه محافظ جداً، إلى درجة أنَّه قد ينزف دماً أبيضَ».

لَمَّا رنَّ هاتفي أخرجته من حقيبتي بحذر كي لا أفسد طلاء أظافري.

«إديسون؟» سألتني أديسا على الفور. قل ما شئت عنها، لكنّها تحبّ إديسون كما أحبّه.

«لا. إنَّها لوسيل من المستشفى». ما إن ظهر اسمها على هاتفي، جفَّ حلقي. الممرّضة التي كانت حاضرة في أثناء ولادة ديفيس باور، لكن اتصالها بي لا علاقة له بتلك الأسرة، فقد أصيبت لوسيل بمغص في معدتها وتريد بديلاً يحلّ مكانها هذه الليلة. قالت إنَّها مستعدّة لأن تحلَّ مكاني طوال يوم السبت، وإنّ بإمكاني أن أغادر عند الساعة الحادية عشرة، وهذا يعني نوبة عمل مزدوجة. بدأت أفكّر كيف يمكنني أن أفعِّل ذلك الوقت يوم السبت. تذكّرت أنّ إديسون في حاجة إلى معطف شتويّ جديد هذه السنة - ففي أثناء الصيف ازداد طوله أربع بوصات، ويمكننا أن نتناول الغداء معاً بعد ذلك، وقد نذهب إلى السينما لنشاهد فيلماً أنا وإديسون. في الآونة الأخيرة، بدأت أدرك أنّني سأبقى وحيدة عندما يذهب إلى الجامعة.

«يريدون أن أذهب لأعمل هذه الليلة».

«مَن، النازيون؟»

«لا، ممرّضة، زميلتي متوعكة».

فقالت أديسا: «ممرّضة بيضاء أخرى».

لم أردَّ عليها.

أسندت أديسا ظهرها إلى الكرسيّ، وقالت: «يبدو لي أنّهم ليسوا في وضع يجعلهم يطلبون إليك معروفاً».

أوشكتُ أن أدافع عن لوسيل التي لا علاقة لها بقرار ماري، عندما قاطعتنا مقلّمة الأظافر، وأخذت تتفحّص أصابعنا لتعرف إن كان الطلاء قد جفَّ، وقالت: «حسناً. كلّ شيء على ما يرام».

هزَّت أديسا أصابعها، ظلال صادمة من اللون الورديّ الفاقع، وقالت بصوت منخفض: «لماذا نأتي دائماً إلى هذا الصالون. إنّي أكرهه. إنّهم لا ينظرون في عيني مباشرة، ولا يضعون باقي النقود في يدي. يبدو أنَّهم يظنّون أنَّ بشرتي السوداء ستنتقل بالعدوى إليهم».

فقلت لها: «إنَّهنَّ من كوريا. هل خطر لك يوماً أنهنَّ، بحسب ثقافتهنَّ، يفعلن ذلك من باب التهذيب».

رفعت أديسا حاجبيها، وقالت: «حسناً يا روث. إنّك لا تتوقّفين عن القول لنفسك إنَّ كلَّ ذلك لا علاقة له بك».

بعد عشر دقائق من قبولي الذهاب لأحلّ مكان زميلتي، ندمت لأنَّني وافقت. إذ هبَّت عاصفة قويّة لم يتوقّع خبراء الأرصاد الجوية حدوثها، وانخفض الضغط الجويّ إلى درجة كبيرة - الأمر الذي يؤدّي إلى تمزّق الأغشية في وقت مبكر للنساء اللاتي يأتيهنَّ مخاض مبكر، والمريضات اللاتي يتلوَّينَ من الألم في ردهات المستشفى لعدم وجود أماكن كافية لهنَّ. رحت أجري مثل دجاجة مقطوعة الرأس، وكان ذلك شيئاً جيداً لأنَّه ألهاني عن التفكير في تورك وبريتاني باور وطفلهما.

لكنَّ ذلك لم يمنعني من ألّا ألقي نظرة على الجدول عندما وصلت، لأنّني أردت أن أتأكّد من أنَّ أحداً - أبيض البشرة - قد طلب أن يرى طبيب قلب الأطفال الطفلَ قبل أن يخرج من المستشفى. نعم، كان مدوَّناً في الجدول، بالإضافة إلى إجراء سحب دم من قدم الطفل بعد ظهر يوم الجمعة للتأكّد من حالة المولود، ثمّ سمعت صوتاً يناديني، ووجدت نفسي قد جُذبت فجأة إلى فلك امرأة في مرحلة المخاض، نُقلت توّاً من قسم

الطوارئ. بدا شريكها خائفاً، إذ كان من ذلك النوع من الرجال الذين اعتادوا إصلاح أشياء، لكنّه أدرك فجأة أنّه لا يستطيع أن يصلح ذلك. «أنا روث»، قلت للمرأة التي بدت أنَّها تضغط على نفسها عند كلّ انقباضة تعتريها، «سأكون معك هنا طوال الوقت».

كانت إليزا، هذا اسمها، يأتيها انقباض كلّ أربع دقائق، كما أخبرني زوجها جورج. هذا أول حمل لها. وضعت مريضتي في آخر غرفة ولادة متوافرة لدينا، وأخذت عيّنة من البول، ثمَّ أوصلتها إلى جهاز المراقبة، وقرأت السجلَّ المطبوع، ثمَّ بدأت أسألها: ما شدّة الانقباضات التي تشعرين بها؟ وأين تشعرين بها - من الأمام أم من الخلف؟ وهل يتسرَّب منك أيّ سائل؟ هل تنزفين؟ كيف يتحرَّك الطفل؟

«إذا كنتِ مستعدَّة يا إليزا، فإنّي سأفحص عنق الرحم»، قلت لها وارتديت قفَّازين، وتحرَّكت إلى أسفل السرير، ولمست ركبتها.

لمع تعبير في وجهها، فتوقَّفت قليلاً.

تفعل معظم النساء اللاتي يأتيهنَّ الطلق أيَّ شيء كي يخرج ذلك الطفل. نعم، هناك شعور بالخوف من الولادة، لكنّه يختلف عن الخوف من أن يُلمسنَ، وهذا ما قرأته في وجه إليزا.

عشرات الأسئلة تسابقت إلى طرف لساني. كانت إليزا قد غيّرت ثيابها في الحمَّام بمساعدة زوجها، فلم أرَ إن كانت هناك كدمات يمكن أن تشير إلى وجود علاقة عنيفة. نظرت إلى جورج. بدا مثل أيّ رجل سيصبح أباً - متوتراً، قلقاً - وليس كرجل تنتابه ثورات غضب خارجة عن سيطرته.

تذكَّرت أنَّ تورك باور كان يبدو طبيعيّاً جدّاً حتَّى شمَّر عن ساعده.

هززت رأسي لأبعد ذلك عن تفكيري. التفتُّ إلى جورج وابتسمت ابتسامة متكلّفة فوق غرائزي، وقلت: «هل يمكنك أن تذهب إلى المطبخ الصغير وتجلب رقائق ثلج لإليزا لأنَّها ستساعدها كثيراً».

مع أنَّ هذه مهمّة الممرّضة – بدا الارتياح على وجه جورج لأنَّني طلبت إليه ذلك - لَمَّا خرج من الغرفة، التفتُّ إلى إليزا، وسألتها، وأنا أنظر في عينيها: «هل كلّ شيء على ما يرام؟ هل هناك شيء تريدين أن تقوليه لي لا تستطيعين أن تقوليه في وجود جورج في الغرفة؟».

هزَّت رأسها، ثمَّ أجهشت إلى البكاء.

خلعتُ قفَّازي - بإمكان فحص عنق الرحم أن ينتظر قليلاً – ومددت يدي إلى يدها، وقلت لها: «إليزا، يمكنك أن تحدِّثيني».

قالت وهي تبكي: «حبلتُ لأنَّني اغتُصبت، وجورج لا يعرف ذلك. إنَّه سعيد جداً بالطفل... لم أستطع أن أخبره أنَّه قد لا يكون طفله».

خرجت هذه القصَّة، همساً، في منتصف الليل، عندما ذهب جورج إلى الكافتيريا. الطلق بهذه الطريقة محفّز يزيد العلاقات قوَّة. ومع أنَّني غريبة عن إليزا، فقد صبَّت روحها فيَّ، كما لو أنَّها سقطت من فوق سطح سفينة في البحر، وأنا الشخص الوحيد الذي رآها في الأفق. كانت في رحلة عمل، تحتفل بإنهاء صفقة مع زبون مهمّ مراوغ، ثمّ دعاها الزبون إلى العشاء مع أشخاص آخرين، وقدَّم لها شراباً، وكان الشيء التالي الذي تتذكّره إليزا هو أنَّها استيقظت ووجدت نفسها في غرفته في الفندق، تتألَّم في كلِّ أنحاء جسمها.

لَمَّا أنهت حديثها، جلسنا وتركنا الكلمات هي التي تتحدَّث. «لم أستطع أن أخبر جورج»، قالت إليزا، يداها فوق ملاءات السرير الخشنة، «لو ذهبت واشتكيت إلى رئيسي، صدّقيني إنَّه لن يجازف في أن يخسر هذه الصفقة لمجرّد شيء حدث لي. وكان أفضل خيار أنَّني سأحصل على تعويضات نهاية الخدمة كي أُبقي فمي مغلقاً».

«حتّى لا يعرف أحد».

«إنّكِ تعرفين»، قالت إليزا، ونظرت إليَّ، وأضافت، «ماذا لو أنّني لم أستطع أن أحبَّ الطفل؟ ماذا لو أنّني كلَّما نظرتُ إليه، تذكّرت ما حدث؟»

فقلت لها: «ربّما يجب أن تجري اختبار الحمض النووي (DNA)».

«ثمَّ ماذا؟»

قلت: «ستتأكّدين».

هزَّت رأسها، وقالت: «ثمَّ ماذا؟»

يا له من سؤال جيد، شعرت أنه تغلغل إلى أعماقي. هل من الأفضل عدم معرفة الحقيقة القبيحة والتظاهر بأنها غير موجودة، أو من الأفضل مواجهتها مع أنَّ تلك المعرفة قد تصبح عبئاً تحملينه على كاهلك طوال عمرك؟

أوشكت أن أعطيها رأيي عندما شعرت بانقباض آخر، فأصبحنا كلتانا فجأة في خندق واحد، نكافح لأجل الحياة.

بعد ثلاث ساعات، دفعت إليزا ابنتها إلى العالم. بدأت إليزا تبكي كما تفعل كثير من الأمّهات الجديدات، لكنّي أعرف تماماً أنّها لم تكن تبكي للأسباب عينها. لَمَّا سلَّمتني طبيبة التوليد المولودة، رحتُ أحدّقُ إلى المحيط الغاضب في عينيها. لا يهمّ كيف حملت بها، المهمّ أنّها خرجت إلى هذا العالم.

«إليزا»، قلت، وأنا أضعها على صدرها، «ها هي ذي ابنتك».

حتّى لَمَّا مدَّ جورج يده من فوق كتف زوجته ليلمس فخذ المولودة الملطّخ، لم تنظر إليزا إلى الطفلة. رفعتُ الطفلة إلى الأعلى، وقرَّبتها من وجه إليزا، وقلت بحزم أشدّ: «إليزا. ابنتك».

وجَّهت نظرتها نحو الطفلة التي أحملها. هل رأت ما أراه: عينا زوجها الزرقاوان. شكل الأنف نفسه. الشقّ الذي يشبه الشقّ في ذقنه. ربّما كانت هذه الطفلة نسخة مصغّرة من جورج. تلاشى كلّ التشنّج من كتفَيْ إليزا. قرَّبت ذراعيها من طفلتها وضمّتها إليها بقوّة، ولم يعد هناك مكان إلّا لـ«ماذا لو؟»، وهمست في أذنها: «أهلاً حبيبتي».

ستصنع هذه الأسرة واقعها الخاصّ.

أتمنَّى لو كان الأمر بهذه السهولة لنا جميعاً.

عند الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي، بدا أنَّ كلَّ نساء نيو هافن قد جئن إلى المستشفى ليلدنَ. رحت أركض ذهاباً وإياباً بين ثلاث مريضات ولدن توّاً، ودعوت ربّي ألّا تأتي امرأة أخرى وهي في حالة طلق نشط قبل أن أغادر المستشفى في الساعة الحادية عشرة. وبالإضافة إلى توليد إليزا، كانت لديَّ مريضتان أخريان الليلة الماضية - كان بإمكان إحداهما أن تلد الطفل وحدها، وقد فعلت ذلك تقريباً – وأجريت للأخرى عمليّة قيصريّة، ويوجد وليدها حالياً في وحدة العناية الفائقة لأنَّه وُلد في الأسبوع السابع والعشرين.

لَمَّا وصلت كورين عند الساعة السابعة، كنت لا أزال في غرفة العمليَّات مع مريضة تلد ولادة قيصريَّة طارئة، ولم ترَ إحدانا الأخرى إلّا عند الساعة التاسعة صباحاً عندما كنت في حجرة الأطفال. «سمعت أنّكِ ولَّدتِ طفلين»، قالت وهي تدفع عربة مولود إلى الغرفة. «ماذا تفعلين هنا؟»

يوضع الأطفال حديثو الولادة في غرفة الحضانة كي تمضي أمَّهاتهم ليلة هانئة من النوم قبل إعادتهم إلى غرف أمَّهاتهم لمدَّة أسبوع، لكنَّ الغرفة أصبحت تُستخدم حالياً لتخزين بعض المواد والقيام بأعمال روتينية كالختان، التي لا يريد أيّ من الوالدين رؤيتها. قلت لكورين إنَّني أختبئ هنا، وأخرجت من جيبي لوح شوكولا غرانولا والتهمته في لقمتين.

ضحكت وقالت: «ماذا يجري هنا اليوم بحقّ السماء، ألم أتسلَّم الدعوة لحضور نهاية العالم أو شيئاً من هذا القبيل؟»

«حدّثيني عنه»، قلت لها، ونظرت إلى الرضيع للمرّة الأولى. سرت في جسدي قشعريرة عندما قرأت على البطاقة المعلَّقة على السرير إنّه طفل باور، حتّى من دون أن أقصد، رجعت خطوة إلى الوراء.

سألتها: «كيف حاله الآن؟ هل بدأ يأكل على نحو أفضل؟»

فأجابت كورين: «نسبة السكّر لديه عالية، لكنّه لا يزال بليداً، ثقيل الحركة، لم يرضع منذ ساعتين لأنّ الدكتورة أتكينز ستفحصه».

لا بدَّ أنَّ كورين كانت قد استدعت طبيبة الأطفال الدكتورة أتكينز التي جاءت إلى الغرفة. قالت: «كلّ شيء على ما يرام»، وهي تنظر إلى سرير الطفل، «حان الوقت ليبدأ مفعول التخدير، وقد تكلّمت مع الوالدين منذ قليل. روث، هل أعطيتِ الطفل السويتي؟»

السويتي ماء محلًّى بالسكّر، يُفرك على لثة الطفل لتهدئته. كنت سأعطي الطفل سويتي قبل الاختبار لو كنتُ الممرّضة المشرفة عليه.

قلت لها بحزم: «لم أعد أشرف على هذا المريض».

رفعت الدكتورة أتكينز حاجبيها، وفتحت ملفَّ المريض. رأت الملاحظة الملصقة على الملفّ، وبينما راحت تقرؤها، ساد صمت غير مريح امتصَّ كلَّ الهواء الذي يملأ الغرفة.

تنحنحت كورين، وقالت: «لقد أعطيته السويتي منذ خمس دقائق تقريباً».

فقالت الدكتورة أتكنز: «عظيم. لنبدأ إذاً».

وقفت للحظة أراقب كورين وهي تزيل اللفافات عن الطفل وتجهّزه لهذا الإجراء الروتيني. التفتت الدكتورة أتكينز إليَّ. كان ثمة تعاطف في عينيها، وكان هذا آخر شيء أريد أن أراه. فأنا لست في حاجة إلى الشفقة بسبب قرار غبيّ اتّخذته ماري. لست في حاجة إلى الشفقة بسبب لون بشرتي.

فقلت مازحة: «ربّما، بينما تفعلين ذلك، يمكنك أن تعقّميه».

هناك أشياء قليلة مرعبة في عمليات الولادة القيصرية الطارئة. إذ يصبح الهواء مشحوناً ويسود التوتر عندما يقول الطبيب ذلك، وتصبح الأحاديث سريعة وحيوية: هل أجريت حقنة في الوريد؟ هل يمكنك أن تجهّزي السرير؟ لتسجّل إحداكنَّ الوضع. تخبرين المريضة أن هناك شيئاً

على غير ما يرام، ويجب أن نتحرك بسرعة، ويُرسل نداء من الطبيـب في المستشـفى إلى أيٍّ شخص في الفريق موجود خارج المبنى، وتنقلين أنـتِ والممرضـة المسـؤولة المريضـة إلى غرفة العمليات. وبينما تُخرج الممرّضة المسؤولة الأدوات من كيسها الورقي المعقـم وتشغّل معدات التخدير، تضعين المريضة على الطاولة، وتجهّزين البطن والأغطية. وما إن يدخل الطبيب وطبيب التخدير الغرفة، يـتم الشـقّ ويُخـرج الوليـد. تسـتغرق كـل هذه العملية أقلّ من عشرين دقيقة. وفي المستشفيات الكبيرة، مثل ييل – نيو هـافن، تستغرق سبع دقائق.

بعد مضيّ عشرين دقيقة على ختان ديفيس باور، اندلقت ماء الرأس لـدى إحـدى مريضات كورين. عقدة من الحبل السريّ كانت ملتفّة بين ساقيها، وطلبـت كـورين أن تذهب على الفور. حالة طـوارئ. «راقبـي الطفـل عنّـي»، قالـت، وانـدفعت إلى غرفـة المريضة. بعد لحظة، رأيت ماري تدفع سرير المريضة في اتّجـاه المصـعد، وقـد جثمـت كورين على السرير بين ساقَيْ المريضة، يدها المكسوة بالقفـاز في الظـلّ، تحـاول إبقـاء الحبل السريّ في الداخل.

راقبي الطفل عنّي تعني أنَّها تريدني أن أراقب ديفيس باور. يتطلّب البروتوكول أن يُفحص الطفل المختون روتينياً للتأكّد من أنّه لا يوجـد لديـه نزيـف. وبـانهماك مـاري وكورين في تلك العملية القيصرية الطارئة، لم يبق أحد آخر يشرف على الطفل غيري.

دخلتُ غرفة الحضانة حيث كان ديفيس نائماً من صدمة الصياح.

قلت لنفسي، سأبقى هنا عشرين دقيقة حتّى تعود كورين أو ماري.

شبكتُ ذراعيَّ ورحت أحدّق إلى المولود الجديد. الأطفال لوح فارغ، لا يأتون إلى هذا العالم وهم يحملون المسـلّمات والافتراضـات التـي تكوّنـت لدى آبائهم، أو الوعود التي ستقدّمها إلـيهم كنيسـتهم، أو لـديهم القـدرة على تصنيف الناس وتقسيمهم إلى مجموعات يحبّونهـا ويكرهونهـا. إنهـم

يأتون إلى هذا العالم وهم لا يحملون شيئاً على الإطلاق، ماعدا حاجتهم إلى الراحة التي سيمنحها لهم أي شخص مهما كان.

تساءلت كم يستغرق الطلاء الذي تمنحنا إيّاه الطبيعة حتّى يزول بوساطة التنشئة والتربية.

لَمَّا نظرت إلى السرير مرَّة أخرى، لاحظت أنَّ ديفيس باور قد توقَّف عن التنفُّس.

انحنيت فوقه وتأكَّدت من أنّني لم أعد أرى صدره الصغير يصعد ويهبط، ومن الزاوية التي أقف فيها، لاحظت وجود بقع زرق على بشرته.

اقتربت منه على الفور، ووضعت السمَّاعة الطبيَّة على قلبه، ورحت أنقر عقبيه، وأزلت بطانية التقميط. يتعرَّض كثير من الأطفال لانقطاع تنفّسهم في أثناء النوم، لكن إذا حرّكتهم قليلاً، وغيّرت وضعيّة استلقائهم من الظهر إلى البطن أو إلى أحد الجانبين، يعود التنفّس تلقائيّاً.

ثمَّ تذكّرت: لا يسُمح لأيٍّ شخص أمريكيّ من أصل أفريقيّ أن يقوم برعاية هذا المريض.

نظرتُ من فوق كتفي إلى باب غرفة الحضانة، وعدَّلت زاوية جسدي كي يرى، إذا دخل أحدهم، ظهري فقط، ولا يرى ما أفعله.

هل تحفيز الطفل مثل إنعاشه؟ هل لمس الطفل من الناحية الفنيَّة يعني العناية به؟

هل يمكن أن أخسر عملي لهذا السبب؟

هل ما أفعله شيء مهمّ؟

هل يهمّ إذا بدأ هذا الطفل يتنفّس مرّة أخرى؟

تحوّلت أفكاري بسرعة إلى إعصار: لا بدَّ أنَّ تنفّسه قد توقّف، فلا يتعرَّض الأطفال من حديثي الولادة لإصابات قلبيَّة. فقد لا يتنفّس الطفل

من ثلاث إلى أربع دقائق، لكنَّ معدَّل ضربات قلبه يظلّ 100، لأنّ معدّل ضربات قلبه الطبيعيّ هو 150... وهذا يعني أنّه حتّى لو لم يصل الدم إلى الدماغ، فإنه يـروي بقيـة الجسم، وعندما يُزَّود الطفل بالأوكسجين، سيرتفع معدّل ضربـات القلـب. لـذلك، فـإنّ الضغط على صدر الرضيع أقلّ أهميّة من التنفّس بالنسبة إليهم، وهذا عكـس طريقـة رعاية مريض بالغ.

لكن، حتَّى لَمَّا وضعت شكوكي جانباً، وجرّبت كـلّ السـبل التـي يتطلبهـا التفاعـل الطبيّ، لم يعد تنفّسه. جرت العـادة أن أضـع جهـاز قيـاس النـبض لأراقـب الأكسـجين ومعدّل ضربات القلب. يجب أن أجد قناع أكسجين، أن أُجري مكالمات.

ما الذي يُفترض بي أن أفعله؟

ما الذي لا يُفترض بي أن أفعله؟

في أيّ لحظة الآن يمكن أن تدخل كورين أو ماري غرفة الحضانة.

سترياننى أتدخّل في رعاية هذا الرضيع، وماذا بعد ذلك؟

بدأ العرق يسيل من عمـودي الفقـريّ، ولففـت الطفـل بسرعـة في البطانيـة مـرّة أخرى، ورحت أحدّق إلى جسده الصغير، وسمعت دقّات قلبـي في أذني، بنـدول إيقـاع الفشل.

لستُ متأكّدة إن كانت قد مرَّت ثلاث دقائق، أو ثلاثون ثانية فقط عندما سمعت صوت ماري خلفي. قالت: «روث، ماذا تفعلين؟».

أجبت، وشعرت أنّني أصبت بالشلل: «لا شيء. لم أفعل شيئاً».

لَمَّا نظرت من فوق كتفي، رأت بشرة خدّ الطفل الزرقـاء، والتقـت عيناهـا بعينـيَّ للحظـة. «أحضري لي جهـاز التـنفّس»، قالـت لي مـاري، وأزالـت اللفافـة عـن الطفـل، وراحت تنقر على قدميه الصغيرتين، وقلبته على بطنه.

إنَّها تفعل تماماً ما كنت قد فعلته.

وضعت ماري قناع التنفّس على أنف وفم ديفيس، وراحت تضغط على الكيس، فانتفخت رئتاه. «اتصلي بالرمز...»

نفَّذت ما طلبته منّي، واتصلت بالرقم 1500، هاتف الحضانة، وقلت: «الرمز أزرق في حضانة الأطفال حديثي الولادة»، وتخيَّلت أنَّ أعضاء الفريق سيتركون أعمالهم المعتادة في المستشفى - طبيب التخدير، ممرضة العناية المركّزة، ممرّضة التسجيل، ومساعدة ممرّضة من طابق مختلف، والدكتورة أتكينز، طبيبة الأطفال التي رأت الطفل منذ بضع دقائق- ويهرعون بسرعة.

قالت لي ماري: «ابدئي بالضغط».

لم أتردَّد هذه المرّة، ورحت أضغط على صدر الطفل بإصبعين، مئتي ضغطة في الدقيقة. ولَمَّا وصلت عربة الإنعاش إلى غرفة الحضانة، مددت يدي الأخرى إلى أسلاك التوصيل وألصقت الأقطاب الكهربائيَّة على الطفل لنرى نتائج جهوديّ على جهاز مراقبة القلب. فجأة، اكتظَّت غرفة الحضانة الصغيرة بالأشخاص، يتنافسون للحصول على مكان أمام مريض لا يزيد طوله على تسع بوصات. «أحاول وضع أنبوب التنفّس هنا». صاح طبيب التخدير في ممرّضة وحدة العناية المركّزة التي كانت تحاول أن تجد وريداً في فروة رأس الطفل.

فقالت تجادله: «لم أجد الخطّ المرفقيّ».

قال طبيب التخدير: «هنا»، وتنحَّى الطبيب جانباً ليفسح للممرضة مكاناً لترى منه على نحو أفضل. راحت تضغط، وأنا أضغط بأصابعي بقوة، على أمل أن يبرز وريد - أي وريد - بوضوح.

كان طبيب التخدير يحدّق إلى الشاشة، ثمَّ قال: «توقّفي عن الضغط»، فرفعت يديَّ كما لو أنَّه قُبض عليَّ متلبّسة في جريمة.

نظرنا جميعنا إلى الشاشة، لكنَّ إيقاع نبضات الطفل كان 80. قال الطبيب: «الضغط غير مجدٍ»، فبدأت أضغط بقوة أكثر على القفص الصدريّ. ظهر خيط رفيع. لا توجد عضلات بطنية تحمي الأعضاء

الموجودة تحت هذا البطن الصغير. إذا ضغطت بقوة أكبر أو ابتعدت قليلاً عن المركز فقد أمزّق كبد الطفل الرضيع.

«بدأ لون الطفل يصبح وردياً»، سألت ماري: «هل لا يزال الأكسجين يعمل؟»، وسأل طبيب التخدير: «هل يستطيع أحد أن يُحضر غازات الدم؟». اختلط سؤاله بسؤالها فوق جسم الطفل.

مدَّت ممرّضة العناية المركّزة يدها إلى فخذ الطفل لتتأكّد من وجود نبض، محاولة أن تغرز الشريان الفخذيّ لتأخذ عيّنة من الدم لتعرف إن كان دم الطفل حامضياً. جرى أحد أفراد الفريق إلى المختبر يحمل بيده قارورة. لكن، عندما نحصل على النتيجة بعد نصف ساعة، لن يكون ذلك مهمّاً لأنَّ الطفل سيكون قد تنفّس.

أو أنَّه لن يعود يتنفّس.

«اللعنة، لماذا لم نجد خطأً بعد؟»

«إذا أردتِ أن تحاولي، تفضّلي»، قالت ممرضة وحدة العناية المركزة.

«أوقفي الضغط»، طلب إليَّ طبيب التخدير، فتوقّفت. كان معدّل ضربات القلب على الشاشة 90.

«أعطني قليلاً من الأتروبين». أعطيت حقنة للطبيب الذي بدأ يضخّ الدواء في الأنبوب في رئتي الطفل، ثمّ واصل دفع الأوكسجين والأتروبين عبر الشعب الهوائيَّة والأغشية المخاطيَّة.

في أثناء أزمة كهذه، يصبح الوقت لزجاً، تسبح فيه ببطء شديد، لا يمكنك أن تعرف إن كنت تعيش أم تستعيد كلّ لحظة فظيعة. يمكنك أن ترى يديك تعملان كما لو أنّهما لا تنتميان إليك. تسمع أصواتاً تتسلّق سلَّم الذعر، وتصبح كلّها نغمة واحدة تصمّ الآذان، ونشازاً.

«ماذا عن إدخال القنيّة في السرَّة؟»، سألت ممرّضة وحدة العناية المركزة.

فردَّت ماري: «لقد مضى زمن طويل على الولادة».

بدأت الأمور تنحدر بسرعة. غريزياً، بدأت أضغط بقوة أكبر.

«إنّك تضغطين بعدوانية شديدة»، قال لي طبيب التخدير، «خففي الضغط».

لكنَّ صراخاً كسر إيقاعي. فقد دخلت بريتاني باور الغرفة وهي تولول. أوقفتها ممرّضة التسجيل عندما حاولت أن تقترب من الطفل بقوة، وراح زوجها المذهول الذي لم يتحرّك يحدّق إلى أصابعي وأنا أضغط على صدر ابنه.

«ماذا يحدث له؟»، صرخت بريتاني.

لا أعرف من سمح لهم بالدخول إلى هنا، لكن لم يكن هناك أحد يمكنه إخراجهم، فقد كان جميع العاملين في جناح المخاض والتوليد منهكين، ولم يكن هناك عدد كاف من الممرّضات منذ الليلة الماضية. كانت كورين لا تزال في غرفة العمليّات في قسم الولادة القيصريّة، وماري معي هنا. ربّما سمع السيد والسيدة باور نداءات الطوارئ، ولا بدَّ أنَّهما شاهدا الممرّضات والأطبّاء يهرعون نحو غرفة الحضانة حيث يفترض أنَّ مولودهما الجديد يغطّ في النوم بعد التخدير.

كنت سأركض إلى هناك أنا أيضاً.

فُتح الباب بقوّة، واندفعت طبيبة الأطفال، الدكتورة أتكينز، بسرعة إلى رأس سرير الطفل، وسألت: «ما الذي يجري هنا».

لم يجب أحد، وأدركت أنَّني أنا التي يُفترض بها أن تجيب.

«كنت هنا مع الطفل»، قلت لها، كلماتي تتناغم مع الضغطات التي لم أتوقَّف عنها، «أصبح شاحباً جداً، وتوقَّف تنفُّسه. أنعشناه، لكن لم يكن هناك شهيق أو نفس عفويّ، فبدأنا الإنعاش القلبيّ الرئويّ».

«منذ متى وأنتِ في هذه الحالة؟»، سألت الدكتورة أتكينز.

«خمس عشرة دقيقة».

«حسناً يا روث، من فضلك توقَّفي للحظة...» ونظرت الدكتورة أتكينز إلى شاشة القلب. وصل معدل ضربات القلب الآن إلى 40.

«شاهدة قبر»، دمدمت ماري.

نستخدم هذا المصطلح عندما نرى مركّبات واسعة في مخطّط القلب – حيث يستجيب الجانب الأيمن من القلب ببطء شديد قياساً إلى الجانب الأيسر من القلب. لم يكن هناك أيّ نتاج قلبيّ.

لا أمل.

بعد بضع ثوانٍ، توقَّفت ضربات القلب تماماً. «لقد انتهى»، قالت الدكتورة أتكينز. أخذت نفساً عميقاً - ليس هذا أمراً سهلاً على الإطلاق، لكن يصبح أسوأ عندما يكون الطفل حديث الولادة - ثمَّ سحبت الأنابيب وألقت بها في سلَّة المهملات، ثمَّ قالت: «الوقت».

نظرنا جميعاً إلى الساعة على الحائط.

«لا»، صاحت بريتاني وهي تلهث، وسقطت على ركبتيها، «أرجوكِ لا تتوقَّفي. أرجوكِ لا تستسلمي».

فقالت طبيبة الأطفال: «أنا آسفة جداً يا سيّدة باور، لكن لا يوجد شيء يمكننا فعله لأجل ابنك. لقد رحل».

أفلت تورك يده من يد زوجته وأخرج الأسلاك من سلة المهملات، ودفع طبيب التخدير عن طريقه، وراح يحاول أن يلصقها مرة أخرى بأنبوب تنفّس ديفيس، وقال له متوسّلاً، «أرني كيف. سأتولّى الأمر بنفسي. يجب ألّا تتوقَّف».

«أرجوك...».

«يمكنني جعله يتنفّس. أعرف أنَّني أستطيع...»

وضعت الدكتورة أتكينز يدها على كتفه، فانهار تورك على نفسه في انفجار داخليّ من الحزن. «لا توجد وسيلة تستطيع أن تعيد من خلالها ديفيس»، قالت له، فغطّى وجهه بيده وأجهش إلى البكاء.

«الوقت»، كرَّرت الدكتورة أتكنز.

جزء من بروتوكول الموت هو أنَّ جميع من في الغرفة يوافق على لحظة حدوثه. «حسناً»، قالت ماري، ودمدمنا جميعنا، بصوت حزين: نوافق.

خطوتُ إلى الوراء، ورحتُ أحدّق إلى يدي. كانت أصابعي متشنجة من عمليّة الضغط. قلبي يوجعني.

قاست ماري درجة حرارة الطفل: 95 بارد. كان تورك يقف الآن ثابتاً لا يأتي بأيِّ حركة إلى جانب زوجته، يساعدها كي تقف على قدميها. وجهاهما شاحبان، خدران لا يصدّقان ما يريانه. بدأت الدكتورة أتكينز تكلّمهما بهدوء، محاولة أن تشرح لهما المستحيل.

في هذه اللحظة، عادت كورين ودخلت غرفة الحضانة. «روث، ماذا حدث بحقّ الجحيم».

لفَّت ماري البطانية حول ديفيس بإحكام، ووضعت القبَّعة الصغيرة على رأسه. الدليل الوحيد على الصدمة التي عانى منها هو أنبوب صغير، مثل قشّة صغيرة، يخرج من فمه المزموم. حملت الطفل بين ذراعيها، كما لو أنَّ الحنان لا يزال مهمّاً.

وأعطته لأمِّه.

«أنا آسفة»، قلت لكورين، في حين كنت أقصد ربّما «سامحيني». سرت إلى جانبها وتحاشيت السير إلى جانب الوالدين الحزينين والطفل الميت، ولم أكد أصل إلى الحمّام حتَّى اعتراني شعور بدوار شديد. ضغطتُ جبهتي على الحافة الخزفية الباردة لحوض الماء في دورة المياه وأغمضت عينيَّ. حتَّى تلك اللحظة، كنت لا أزال أشعر بها: ملمس القفص الصدريّ تحت أصابعي، وصوت تدفُّق دمه في أذني، والحقيقة المرَّة على لساني: لو لم أتردَّد، لربَّما ظلَّ هذا الطفل في قيد الحياة.

في أحد الأيّام، كانت لديَّ مريضة، فتاة مراهقة ولد طفلها ميتاً بسبب انفصال المشيمة من الدرجة الثالثة. إذ انفصلت المشيمة عن بطانة الرحم، ولم يعد الطفل يحصل على الأوكسجين. كانت شدّة النزف تعني أنَّنا سنفقد الأمّ والوليد معاً. أُرسل الوليد إلى مشرحة المستشفى لإجراء عمليّة التشريح - إجراء روتينيّ في ولاية كونيتيكت إذا توفّي طفل حديث الولادة. وبعد اثنتي عشرة ساعة، وصلت جدّة الفتاة من ولاية أوهايو التي أرادت أن تحتضن حفيدها لمرّة واحدة فقط.

نزلتُ إلى المشرحة التي يُحفظ فيها الرضَّع الذين ماتوا في ثلاجة عاديّة من طراز «أمانا»، مكدّسين فوق الرفوف في أكياس جثث صغيرة. سحبتُ الطفل وأخرجته من الكيس، وتمعَّنت لدقيقة في ملامحه الصغيرة الجميلة. بدا كأنَّه دمية. بدا كأنَّه نائم.

لم أتمكَّن من أن أعطي هذه المرأة طفلاً بارداً، فعدتُ ولففته وذهبت إلى غرفة الطوارئ لأجلب بعض البطانيات الساخنة. ولَمَّا عدت إلى المشرحة، قمّطتُ الطفل بها، الواحدة تلو الأخرى، في محاولة لأن أزيل البرودة من جسمه. وأخذت إحدى القبّعات المحبوكة التي نُلبسها عادة للأطفال حديثي الولادة لتغطية أعلى رأسه.

السياسة المعمول بها هنا في المستشفى أنّه إذا مات مولود جديد: فإنّنا لا نبعده عن أمّه. وإذا أرادت تلك المرأة الحزينة أن تضمَّ وليدها لمدّة أربع وعشرين ساعة، وتنام معه وهو فوق قلبها، وتمشّطه وتحمِّمه، وتمضي كلّ اللحظات مع طفلها الذي لن تراه بعد ذلك أبداً، فإنّنا نتيح لها هذه الفرصة، وننتظر حتّى تصبح الأمّ مستعدّة لأن تترك وليدها ونأخذه منها.

حملت تلك الجدّة حفيد ابنتها طوال فترة ما بعد الظهر. ثمَّ أعادت الرضيع إلى ذراعيَّ. وضعت منشفة على كتفي، كما لو كنتُ أرضعه، وصعدت في المصعد، وهبطت به إلى الطابق السفليّ حيث المشرحة.

ربّما يخيّل إليك أنّ أقسى جزء في تجربة كهذه اللحظة التي تعطيك فيها الأمّ طفلها، لكنّها ليست كذلك. لأنّه لا يزال حتّى تلك اللحظة طفلها. أمَّا أصعب لحظة بالنسبة إليها فهي عندما نخلع القبَّعة الصغيرة المحبوكة والبطانية والحفاضات عنه، ونضعه في كيس الجثث ونغلقه، ثمَّ نغلق باب الثلّاجة.

بعد ساعة، عدتُ إلى غرفة الممرّضات لآخذ معطفي من الخزانة، عندما مدَّت ماري رأسها من الباب، وقالت: «من الجيّد أنك لا تزالين هنا. هل لديك دقيقة؟»

أومأت برأسي وأنا جالسة قبالتها إلى الطاولة. كان أحدهم قد وضع حفنة من قطع الحلوى. أخذت قطعة منها وأزلت عنها غلافها وتركتها تنزف في لساني، مع أمل أن تجعلني ألّا أقول ما لا ينبغي قوله.

«يا له من صباح!»، تنهّدت ماري.

أجبتها: «يا لها من ليلة!».

«صحيح، فقد عملتِ في نوبتين»، قالت وهزَّت رأسها، «تلك الأسرة المسكينة».

«ما حدث شيء فظيع. قد لا أتفق مع معتقداتهما، لكن هذا لا يعني أنَّني أرى أنَّهما يستحقّان أن يفقدا طفلاً».

«كان علينا أن نعطي الأمّ مخدراً»، قالت لي ماري، «وأُنزل الطفل إلى الطابق الأرضيّ».

بحكمة منها، لم تذكر لي الأب.

وضعت ماري استمارة على الطاولة، وقالت: «إنَّه مجرّد بروتوكول. أريد أن تكتبي كلّ ما حدث على نحو رسميّ عندما توقَّف تنفّس ديفيس باور. فقد كنتِ في غرفة الحضانة».

فأجبتها: «كنت أحلّ مكان كورين». كان صوتي ثابتاً، رقيقاً، مع أنَّ كلَّ كلمة تبدو خطِرة مثل شفرة في حلقي، «استُدعيت إلى غرفة العمليّات فجأة.

لم يكن بالإمكان ترك الطفل باور وحده من دون رقابة. لَـمَّا كانت في قسم الولادة القيصريّة أيضاً، كنت الوحيدة المتاحة لأشرف على الطفل».

كان قلم ماري يخدش على الاستمارة. سألتني: «متى لاحظتِ أنَّ الرضيع توقَّف عن التنفُّس؟»

لففتُ لساني حول قطعة الحلوى، ودفعته إلى أعلى خدّي، وقلت: «قبل أن تصلي بلحظة».

بدأت ماري تتكلَّم، ثمَّ عضَّت شفتها. نقرت على القلم مرتين، ثمَّ أنزلته بنقرة نهائيَّة، وكرَّرت «لحظة» كما لو أنّها تزن نطاق وحجم هذه الكلمة. «روث... لَـمَّا دخلت، كنت واقفة هناك».

«كنت أفعل ما كان يفترض بي فعله،» صحَّحتُ، «لم ألمس هذا الطفل». ونهضت من أمام الطاولة، وارتديت معطفي، آملة ألّا ترى يديَّ وهما ترتجفان، وقلت: «هل هناك شيء آخر؟»

فقالت ماري: «كان يوماً قاسياً. خذي قسطاً من الراحة».

أومأت لها برأسي وغادرت غرفة الاستراحة. وبدلاً من أن آخذ المصعد إلى الطابق الأرضيِّ ثمَّ إلى الشارع، غصتُ في أحشاء المستشفى. تحت أضواء النيون الكاشفة في المشرحة، رفَّت عيناي ريثما تتكيفان مع الضوء. تساءلتُ لماذا الوضوح شديد البياض دائماً.

كان الطفل الوحيد الميت هناك. أطرافه لا تزال لدنة، ولم يبرد جلده بعد. كانت هناك بقع على خدّيه وقدميه، لكن هذا هو الدليل الوحيد على أنّه أيّ شيء غير ما يبدو للوهلة الأولى: محبوباً لأحد ما.

استندت إلى نقَّالة فولاذيَّة، وضممته بين ذراعيَّ. ضممته بالطريقة التي كنت سأضمّه بها، لو سُمح لي أن أفعل ذلك. همستُ اسمه، وصلّيت لروحه. رحّبت به في هذا العالم المحطّم، وقلت في الوقت نفسه وداعاً.

كينيدي

كان الصباح هادئاً.

أولاً، نمنا جميعاً حتَّى وقت متأخّر لأنَّني ظننت أنَّ ميكا قد ضبط منبّه ساعته، وأنّني ضبطتُ منبّه ساعتي. ثمّ رفضت ابنتنا فيوليت، ذات السنوات الأربع، أن تتناول رقائق الذرة، وراحت تبكي حتّى وافق ميكا على أن يقلي لها بيضة، لكنّها انفجرت في البكاء مرّة أخرى عندما وضع الصحن أمامها، وصاحت: «أريد سكيناً عاهرة». ربَّما كان ذلك الشيء الوحيد الذي أوقفنا، أنا وميكا، في غمرة اندفاعنا المحموم.

سألني ميكا: «هل قالت ما أظنّ أنَّها قالته؟».

صرخت فيوليت وهي تبكي مرّة أخرى - هذه المرّة بوضوح أكثر: «أريد شوكة وسكيناً».

لَمَّا انفجرتُ ضحكاً، رمقني ميكا بنظرة مؤنبة، وقال: «كم مرّة طلبت إليك أن تتوقّفي عن الشتائم! هل تظنين أنَّ من المضحك أن تبدو ابنتنا ذات السنوات الأربع مثل بحَّار؟»

«من الناحية الفنيّة، لم تقل ذلك. إنّك لم تسمعها جيّداً».

«لا تجادليني»، تمتم ميكا.

فقلت: «لا تلقي عليَّ محاضرة».

لَـمَّا غادرنا البيت – أخذ ميكا فيوليت إلى روضة الأطفال قبل أن يذهب إلى المستشفى ليُجري ستّ عمليّات جراحيّة متتالية، وقدتُ سيّارتي في الاتجاه المعاكس إلى مكتبي – كان الشخص الوحيد في أسرتنا الذي يتمتَّع بمزاج رائق فيوليت، التي تناولت طعام الفطور مستخدمة كلّ

أدوات المائدة، وأصرَّت على ارتداء حذاء ماري جينس السميك المرصَّع بـالترتر الـبراق، لأنّه لم تكن لأيّ من والديها القدرة والطاقة على مجادلتها حول ذلك أيضاً.

بعد ساعة، تحوَّل يومي من سيّئ إلى أسوأ. فمع أنّني درسـت الحقـوق في جامعـة كولومبيا، وتخرّجتُ بـين الأوائـل الخمسـة في دفعتـي، عملـتُ مـدَّة ثـلاث سـنوات في مكتب قاضٍ فيدراليّ، رئيسي حالياً - رئيس دائرة نيـو هـافن القضـائيّة، التابعـة لقسـم خدمات المحامي العامّ في ولاية كونيتيكت، أرسلني للتفاوض حول حمَّالات الصدر.

جلـس آل وجيكفيتـز، مـدير الإصـلاحيّات في سـجن نيـو هـافن، معـي في غرفـة اجتماعات خانقة مع نائبه ومحام خاصّ يدعى آرثر وانغ. انتبهوا، فأنا المـرأة الوحيـدة الموجودة في تلك الغرفة. كان الدافع إلى عقد هذا الاجتماع الـذي أطلقـتُ عليـه اسـم «إتي بيتي تيتي» أنَّ المحاميات مُنعن منذ شـهرين مـن دخـول مبنـى السـجن إذا كـنَّ يرتدين حمَّالات صدر لها سلك معدنيّ لأنّها تجعل أجهزة الكشف عـن المعـادن تطلـق صافرتها باستمرار.

إذ لم يقبل المسؤولون في السجن إجراء التفتيش بالتربيت أو بـاللمس، وإنّمـا أصرّوا على التفتيش بخلع الملابس، وهو أمر غير قانونيّ، ويستغرق وقتاً طويلاً. وبغية تجنّـب ذلك، بدأنا ندخل غرفة السيّدات ونترك ملابسنا الداخليّـة فيهـا لنـتمكَّن مـن الـدخول وزيارة موكّلينا، لكنّ إدارة السجن قالت بعد ذلك إنَّـه لا يمكننـا أن نـدخل إذا لم نكـن نرتدي حمَّالات صدر.

حكَّ آل صدغيه، وقـال: «سـيّدة مـاكواري، يجـب أن تفهمـي أنَّ ذلـك يهـدف إلى تقليل المخاطر إلى أدنى حدّ ممكن».

فأجبته: «لكنَّهم يسمحون لك بأن تدخل وأنت تحمـل مفـاتيح. مـاذا تظـنّ أنَّنـي سأفعل؟ سأهرِّب سجيناً من السجن في مِشَدّ نسائيّ؟»

تنحنح نائب مدير السجن، الذي لم يستطع أن ينظر في عينيَّ مباشرة، وقال: «ذهبتُ إلى محالّ تارغت، ورأيت حمَّالات الصدر المعروضة للبيع هناك...»

وصل حاجباي إلى منبت شعري، والتفتُّ إلى آل، وسألته: «هل أرسلته ليجري بحثاً ميدانيّاً؟»

قبل أن يتمكَّن من أن يجيب، أسند آرثر ظهره إلى كرسيه، وقال: «كما تعرفين، إن ذلك يتطلب السؤال إن كان ينبغي إجراء مراجعة كاملة لسياسة الملابس بأكملها»، وأضاف، «في السنة الماضية، أردت أن أقابل موكلي قبل أن آخذ إجازة، وكنت أنتعل حينها صندلاً، فقالوا إنني لا أستطيع أن أدخل السجن وأنا أنتعل الصندل، والحذاء الوحيد الآخر الذي كان في حوزتي حذاء غولف، وكان مقبولاً تماماً».

فقلت متسائلة: «الحذاء الذي توجد مسامير في أسفله؟ لماذا تسمحون لأحد بالدخول بحذاء غولف توجد مسامير في أسفله، ولا تسمحون له بالدخول بالصندل؟»

تبادل مدير السجن ونائبه النظرات.

ثمَّ قال النائب: «حسناً، بسبب الذين يحبُّون لعق أصابع الأقدام».

«هل تخشى أن يلعق أحد أصابع أقدامنا؟»

«نعم»، قال نائب مدير السجن بجمود، «صدّقيني، هذا الإجراء لحمايتك. إنَّها أشبه بزيارة زوجيَّة بقدمك».

لوهلة تخيَّلت الحياة التي كان من الممكن أن أعيشها لو أنني انضممت إلى شركة محاماة عقيمة. تخيّلت أنني ألتقي مع وكلائي في غرف اجتماعات مكسوة بألواح خشبية، بدلاً من حجرات معدّة أصلاً للتخزين تفوح فيها روائح مثل رائحة منظفات وبول. وتخيّلت أنني أصافح عميلاً يده لا ترتجف - بسبب انسحاب الميثامفيتامين أو الرعب التام في نظام قضائيّ لا يثق به.

لكن، هناك دائماً خيارات تفضيليّة. إذ لَمَّا تعرَّفت إلى ميكا، كان طبيباً متدرّباً في جراحة العيون في جامعة ييل - نيو هافن. فحصني، وقال إنَّ لديَّ أجمل ثُلامات في عينيَّ رآها في حياته. في أول لقاء لنا، قلت له إنّني أعتقد أنَّ العدالة عمياء، فقال إنّ ذلك لأنّه لم تتح لها الفرصة لإجراء عمليّة بعد. لو لم أتزوّج ميكا لربّما عملت في مكاتب أنيقة مطلية بالكروم في إحدى المدن الكبرى. لكنَّ زوجي فتح عيادة، وتوقّفت عن العمل لفترة لأنجب ابنتنا فيوليت. ولَمَّا أصبحت جاهزة للعودة إلى العمل مرّة أخرى، ذكَّرني ميكا بنوع العمل الذي أرغب في ممارسته. وبفضل الراتب الذي يتقاضاه، استطعت أن أزاول مهنة المحاماة. كان ميكا يقول لي دائماً إنّني أستطيع أن أكسب نقوداً، لكن بما أنّني أعمل محامية في النيابة العامّة، فلن أصبح غنيّة أبداً، لكن يمكنني أن أنظر إلى نفسي في المرآة.

وبما أنّنا نعيش في بلد يُفترض فيه أنّ العدالة تُطبّق فيه مبدأ المساواة، مهما كنت تملك من مال، أو مهما كان عمرك أو عرقك أو جنسك أو إثنيتك، ألَا يجب أن يكون المحامون الذين تعيّنهم المحكمة بارعين وعدوانيين ومبدعين مثل أيّ محام خاصّ آخر؟

بسطتُ يديَّ على الطاولة، وقلت لمدير السجن: «كما تعرف، فأنا لا ألعب الغولف، لكنّي أرتدي حمَّالة صدر. هل تعرف من يرتدي حمّالة صدر أيضاً؟ صديقتي هارييت سترونغ، المحامية في الاتحاد الأمريكيّ للحريات المدنيّة. درسنا معاً في كلية الحقوق، ونتناول الغداء معاً مرّة في الشهر. أظنّ أنّها ستحبّ كثيراً أن تسمع عن الاجتماع الذي نعقده الآن، لأنّ ولاية كونيتيكت تحظر التمييز على أساس التوجّه الجنسيّ والهويّة الجنسيَّة، وأن المحاميات فقط، اللاتي يُعرّفن بأنهنّ إناث، يرتدين حمّالات صدر عندما يزرن موكليهنّ في هذا السجن، وهذا يعني أنَّ سياستك تنتهك حقوق المحاميات، وتمنعنا من تقديم استشارتنا لموكّلينا. وأنا على يقين تامّ أيضاً بأنَّ هارييت تودُّ أن تتواصل مع نقابة المحامين في ولاية كونيتيكت

لتعرف كم عدد المحاميات الأخريات اللاتي يشتكين من هذا الأمر. بعبارة أخرى، إنَّ ذلك يعني أنك ستقع في ورطة إذا ما نُشر ذلك في الصحافة. لذلك، عندما آتي لزيارة موكّلي في المرّة القادمة، فستكون معي حمَّالة صدري «لو ميستير» قياس 34 – أرجو المعذرة لأنَّني أستخدم هذه الاستعارة - وسأفترض أنه لن تكون هناك أيّ تبعات. هل هذا صحيح؟».

زمّ مدير السجن شفتيه، وقال: «أنا واثق بأنّنا نستطيع أن نعيد النظر في مسألة حظر حمَّالات الصدر التي يوجد فيها شريط معدنيّ».

فقلت: «جيّد»، وأخذت حقيبتي، «شكراً لوقتك. يجب أن أذهب الآن إلى المحكمة».

خرجت من تلك الغرفة الصغيرة يتبعني آرثر. لَمَّا خرجنا من مبنى السجن إلى ضوء الشمس الساطع، ابتسم، وقال لي: «ذكّريني ألَّا ينتهي الأمر إلى أن أقف ضدّك في المحكمة».

هززت رأسي، وقلت: «هل تلعب الغولف حقاً؟»

فقال: «أفعل ذلك عندما أريد أن أُطري القاضي وأنال رضاه». ثمَّ سألني: «هل قياسك حقّاً 34؟»

«لن تعرف ذلك طوال حياتك يا آرثر»، ضحكت، وتوجّه كلّ منّا إلى سيّارته في ساحة وقوف السيارات، لنخدم عالمين مختلفين تماماً.

* * *

لا نتبادل أنا وزوجي عادة رسائل نصيّة، وإنّما تتألَّف محادثاتنا الهاتفيَّة من ذكر أسماء جنسيّات: فيتناميّ، إثيوبيّ، مكسيكيّ، يونانيّ. مثل، «إلى أين سنذهب الليلة؟» لَمَّا خرجت من الاجتماع في السجن، كانت هناك رسالة من ميكا: آسف، كنت أحمق صباح اليوم.

ابتسمتُ، وأرسلت إليه رسالة نصيّة. لا عجب أنَّ ابنتنا تشتم.

هل يوجد موعد الليلة، كتب ميكا.

طار إبهامي فوق هاتفي، وكتبت: هنديّ؟

أتطلع إلى ذلك، أجاب ميكا.

لهذا السبب لا يمكنني أن أظلَّ غاضبة منه.

ترى أمّي، التي نشأت في بيئة أرستقراطية في ولاية نورث كارولينا، أنَّه لا يوجد مطرّي بشرة أو كريم للعين لا يستطيع أن يعالج أيّ نوع من البشرة، لذلك، كانت تصرّ دائماً على أن أعتني بنفسي لأبدو جميلة. وكيف يمكنني ذلك ولديَّ ابنة صغيرة وقرابة مئة موكّل في حاجة إلى خدماتي في أيِّ لحظة، ويستحقّون أن أمنحهم من وقتي أكثر من الوقت الذي أمضيه في صالون تصفيف الشعر لأصبغ شعري.

بمناسبة عيد ميلادي، أهدتني أمّي السنة الماضية هديَّة حرصت على ألّا أستخدمها حتّى اليوم: بطاقة هديَّة إلى صالون مسّاج لمدّة تسعين دقيقة. يمكنني أن أفعل أشياء كثيرة في تسعين دقيقة. أجهّز ملفّاً أو ملفّين، وأناقش اقتراحاً، وأعدّ الإفطار، وأُطعم فيوليت، حتّى (إذا أردت أن أكون صادقة)، أن نمرح أنا وميكا تحت الملاءات، وإذا أتيحت لي تسعون دقيقة، فإنّ آخر شيء أريد فعله هو أن أمضيها وأنا عارية ممدّدة فوق طاولة وتقوم إحداهنّ بدهن جسمي بالزيت.

لكن، كما قالت لي أمّي، فإنّ صلاحية تلك الدعوة تنتهي في غضون أسبوع، ولم أستخدمها حتّى الآن. وبما أنّها تعرف أنّني مشغولة ولا أكترث لمثل هذه التفاصيل، فقد حرصت على أن تحجز لي في صالون «مسّاج» في أثناء النهار بما يناسب امرأة مشغولة دائماً، أو هذا ما قرأته على شعار البطاقة. جلست في غرفة الانتظار حتى نادت إحداهنَّ اسمي.

تساءلت بقلق إن كان عليَّ أن أُبقي سروالي الداخليّ تحت الثوب الذي قُدّم لي، ثمّ وجدت صعوبة في فتح الخزانة التي سأضع فيها ملابسي

وإقفالها. قد تكون هذه الخطة الكبرى – إذ ينتاب الزبونات شعور بالإحباط عندما يصلن إلى مرحلة التدليك ولا يعود بإمكانهنّ أن يغادرن إلّا بعد أن يشعرن بأنهنَّ أصبحن في حال فضلى ممّا كنَّ عليه عندما أتينَ. «أنا كلاريس»، قالت المدلّكة بصوت رقيق، رقّة ناقوس قادم من جبال التيبت، «سأخرج لتشعري بالراحة».

كانت الغرفة معتمة ومضاءة بالشموع، وينبعث في أرجائها صوت موسيقا هادئة. خلعتُ الرداء والخفّ وصعدت، وغطيت نفسي بالملاءة، ووضعتُ وجهي في تلك الفتحة الصغيرة على طاولة التدليك. بعد لحظات، سمعتُ نقراً خفيفاً على الباب، وصوتاً يقول: «هل نحن مستعدّون؟»

لا أعرف. مَن نحن؟

قالت كلاريس: «ما عليك الآن إلّا أن تسترخي».

حاولت. أقصد، حاولت حقاً. أغمضتُ عينيَّ مدَّة ثلاثين ثانية ثمَّ فتحتهما، ورحت أحدّق إلى قدميها المكسوّين بحذاء رياضيّ خفيف من الفتحة في طاولة التدليك. أخذت تمرّر يديها على امتداد عمودي الفقريّ بثبات. سألتها: «هل تعملين هنا منذ فترة طويلة».

«ثلاث سنوات».

«أراهن أنَّه توجد زبونات تتمنَّين ألّا تضطرّي إلى لمسهنَّ»، قلت مازحة، «أقصد، مثل الشعر في ظهري».

لم تردَّ. تحرَّكت قدماها على الأرض. تساءلت إن كانت تفكّر في أنَّني واحدة من أولئك الزبونات.

تساءلت، هل ترى جسدي كما يراه الطبيب - لوح يجب أن تعمل عليه، أو أنَّها ترى السيلوليت في مؤخّرتي وكتلة الدهن التي أخفيها عادة تحت حمَّالة صدري، وأفكّر في أنَّ شكل الأمّ التي دلَّكتها قبلي كانت تفضلني بكثير.

أليس كلاريس اسم الفتاة في فيلم (صمت الحملان؟)

«فول ونبيذ شيانتي أحمر»، تمتمتُ.

«عفواً؟»

«آسفة»، دمدمتُ، ذقني غائصة داخل الفتحة في طاولة التدليك. «يصعب التكلّم وأنا في هذه الوضعيَّة». بدأت أشعر باحتقان في أنفي، فعندما أستلقي ووجهي إلى الأسفل هكذا لفترة طويلة، يحدث لي ذلك، فأضطرّ إلى أن أتنفَّس من فمي، وأظنّ أنَّ المدلّكة لاحظت أنَّ لعابي كان يسيل أحياناً من الفتحة. هذا من بين أسباب أخرى تجعلني لا أحبّ التدليك.

قلت لها: «أفكّر أحياناً ما الذي يمكن أن يحدث لو أنَّني تعرَّضتُ لحادث سيّارة وعلقتُ هكذا رأساً على عقب»، وأضفت، «لا في السيّارة، وإنّما في المستشفى، وقد التصقت إحدى دعامات العنق تلك بجمجمتك كي لا تتحرّك فقراتك؟ ماذا لو قلبني الطبيب على بطني، واحتقن أنفي كما أشعر الآن، ولا أستطيع أن أخبره بذلك؟ أو إذا دخلت في غيبوبة حيث أكون مستيقظة لكنّني محاصرة داخل جسدي ولا أستطيع أن أقول شيئاً، وأشعر بالرغبة في أن أُفرغ احتقان أنفي؟» بدأ رأسي ينبض بقوة الآن لأنّني مستلقية بهذه الوضعيَّة. «ماذا لو عشت وبلغت مئة وخمس سنوات من العمر، وأنا في بيت رعاية وأصبت بالزكام، ولم يخطر في بال أحد أن يجلب لي بضع قطرات من أفرين؟»

ابتعدت قدما كلاريس عن نطاق رؤيتي، ثمّ شعرت بهواء بارد يهبّ على ساقيَّ عندما بدأت تدلّك ربلة ساقي اليسرى. قلت: «قدّمت لي أمّي هديّة المسّاج بمناسبة عيد ميلادي».

«هذا شيء جميل...»

«إنَّها من أشدّ المعجبات بمرطبات البشرة. قالت ذات مرة إنّ عدم وجود ديناصور في جلدي لن يقتلني إذا أردت أن يبقى زوجي معي،

فقلت لها إنّه إذا كانت مرطبات البشرة هـي التـي سـتحافظ عـلى زواجـي فـإنَّ لـديَّ مشكلة أكبر بكثير ممّا إذا كان لديَّ الوقت الكافي لآخذ موعداً للتدليك أم لا...»

«السيّدة ماكواري»، قالت المدلِّكة، «لا أظنّ أنَّني رأيت زبونة في حاجة إلى تـدليك بقدر ما تحتاجين».

لسبب ما، جعلني ذلك أشعر بالفخر.

«وفي مجازفة لأن أفقد إكراميتي، لا أظنّ أيضاً أنَّني رأيت زبونة لا تحبّ التدليك».

جعلني ذلك أكثر فخراً، فقلت لها: «شكراً».

«ربّما يمكنك أن تحاولي فقط... استرخي. توقَّفي عن الكلام. صفّي عقلك».

أغمضتُ عينيَّ مرّة أخرى، وبدأت أسـتعرض في رأسي قائمـة المهـام التـي يجـب أن أفعلها.

«وأنا لا أجيد ممارسة رياضة اليوغا أيضاً»، هممت.

في الأيام التي أعمل فيها حتّى وقت متأخّر، ولا يزال ميكا في المستشفى، تـأتي أمّـي وتأخذ فيوليت من المدرسة. الجميـع رابحـون في هـذا الأمـر - فلسـت مضـطرَّة إلى أن أدفع أجرة جليسة أطفال، وتمضي أمّي وقتـاً مـع حفيـدتها الوحيـدة، وفيوليـت تحبّهـا كثيراً. لا يقيم أحد حفل شاي كما تفعل أمّي التـي تصرّ عـلى اسـتخدام أدوات الشـاي الخزفيّة القديمة منذ يوم زفافها، ومناديل الكتّـان، وصـبّ الشـاي الحلـو مـن الإبريـق. حينما أعـود إلى البيـت أعـرف أنَّ فيوليـت قـد اسـتحمَّت وقُـرئ لهـا بعـض القصـص، ونامت. وستكون هناك بقايا قطرات من الليمون أو كعك الشوفان بالزبيب من حفـل شاي أقامته بعد الظهر، لا تزال دافئة في أوعية بلاستيكيَّة، ويكون مطبخي أنظف مـمَّا تركته في الصباح.

تكاد أمّي تُفقد ميكا صوابه. «آفا حسنة النية»، كان يحبّ أن يقول، «وكذلك جوزيف مكارثي». وكان يقول إنَّ أمّي جرَّافة متنكّرة في ثوب حسناء من الجنوب. على نحو ما، هذا صحيح. فلدى أمّي طريقتها للحصول على ما تريد قبل أن تدرك أنّها احتالت عليك.

«مرحباً»، قلتُ، وألقيت حقيبتي على الأريكة عندما ألقت فيوليت نفسها بين ذراعيَّ.

«لقد رسمتُ بأصابعي»، قالت فيوليت، ورفعت كفّيها نحوي. كانت أصابعها لا تزال زرقاء قليلاً، «لم أستطع أن أجلب الرسمة إلى البيت لأنَّ الألوان لم تجفّ بعد».

«أهلاً حبيبتي»، قالت أمّي وهي خارجة من المطبخ، «كيف كان يومك؟». صوتها يذكّرني دائماً بنبات الهليوتروب ورحلة بسيّارة مكشوفة والشمس تضرب تاج رأسك.

فقلت: «كالمعتاد. لم يحاول أحد أن يقتلني اليوم، وهذا شيء جميل». ففي الأسبوع الماضي، حاول رجل كنت أمثّله في تهمة اعتداء مشدَّدة أن يخنقني على طاولة الدفاع عندما قرّر القاضي الإفراج عنه بكفالة بمبلغ مرتفع جدّاً. لا أزال غير متأكّدة إن كان موكّلي غاضباً أم أنّه كان يحاول أن يدَّعي الجنون. وإذا كان الأمر كذلك، فلا بدَّ أن أمنحه مزيّة لأنَّه يفكّر لأجل المستقبل.

«كينيدي، ليس أمام الطفلة. عزيزتي، هل يمكنكِ أن تذهبي وتحضري محفظة جدّتك؟». وضعت فيوليت على قدميها، دلفت إلى الغرفة بجانب الباب الخارجيّ. «تعرفين أنَّك عندما تقولين أشياء كهذه تجعلينني أريد أن أحصل على وصفة طبية لدواء زاناكس المضاد للقلق»، تنهّدت أمّي، «ظننت أنّك ستبحثين عن وظيفة حقيقيّة عندما ذهبت فيوليت إلى المدرسة».

«ألف، عندي وظيفة حقيقيّة، وباء، إنّك تتناولين زاناكس توّاً، لذلك هذا تهديد خادع».

«هل عليكِ أن تجادلي في كلّ شيء؟»

«نعم، فأنـا محاميـة». عنـدها أدركـت أنَّ أمّـي ترتـدي معطفهـا، «هـل تشـعرين بالبرد؟»

«قلت لك إنّني لا أستطيع أن أبقى حتّى وقت متـأخّر هـذه الليلـة. سـنذهب أنـا ودارلا إلى حفل رقصة كوانتر».

«اسمها رقصة كونترا»، قلت أصحّحها، «هذا أولاً، وثانياً، لم تخبريني من قبل».

«أخبرتك الأسبوع الماضي. فقط أردتِ ألّا تنصتي يـا حبيبتـي». عـادت فيوليـت إلى الغرفة وأعطتها حقيبتها. قالت لها: «إنّك فتاة جيّدة. أعطيني قبلة الآن».

ألقت فيوليت ذراعيها حـول عنـق أمّـي. فقلـت لهـا: «لا يمكنـك أن تـذهبي الآن. عندي موعد».

فقالت: «كينيدي، أنتِ متزوّجة. إذا كان هناك أحد في حاجـة إلى موعـد فهـو أنـا. وتوجد لدينا أنا ودارلا خطط كبيرة حول ذلك».

خرجت من الباب وجلست على الأريكة. «مامي»، قالت فيوليت، «هل يمكننـا أن نتناول بيتزا؟»

نظرت إلى حذائها المطرّز بالترتر في قدميها، وقلت لها: «لديَّ فكرة فضلى».

«حسناً»، قال ميكا عندما رآني جالسة إلى الطاولة في المطعم الهنديّ مـع فيوليـت، «يا لها من مفاجأة!».

فقلت له: «لقد ذهبت جليسة الأطفال»، ونظرت بطرف عيني إلى فيوليت، «وقـد تجاوزنا مرحلة الخطر».

بدأت فيوليت تلوّن على مفرش الطاولة الورقيّ، ثمَّ قالت: «بابا، أريد بيتزا».

فقال لها ميكا: «لكنّك تحبّين الطعام الهنديَّ يا فِي».

«لا، لا أحبّه. أريد بيتزا»، قالت بإلحاح.

في تلـك اللحظـة، أحضر النـادل طعامنـا. «توقيـت مثـالي»، دمـدمت، «أتـرين يـا عزيزتي؟»

رفعت فيوليت وجهها إلى النـادل، عيناهـا الزرقـاوان واسـعتان، وهـي تحـدّق إلى عمامته التي يعتمرها السيخ عادة، وسألت: «لماذا يضع على رأسه منشفة؟»

فقلت لها: «لا تكوني وقحة يا حلوتي. هذه تُسمّى عمامة يرتديها بعض الهنود».

قوّست حاجبيها، وقالت: «لكنَّه لا يشبه بوكاهونتاس».

أردت أن تنشقَّ الأرض وتبتلعني، لكنّي رسمت ابتسامة على وجهي، وقلت للنادل الذي بدأ يُفرغ أطباقنا بأسرع مـا يمكنـه: «أنـا آسـفة جـدّاً. فيوليـت، انظـري، طبقـك المفضّل، دجاج تيكا ماسالا». بدأت أسكب قليلاً في صحنها، محاولة أن أشتّت انتباههـا حتّى يذهب النادل.

«يا إلهي!»، همستُ لميكا، «ماذا لو ظنَّ أنَّنا آباء فظيعون، أو أناس فظيعون؟»

«ألقِ اللوم على ديزني».

«ربّما كان عليَّ أن أقول شيئاً مختلفاً؟»

ملأ ميكا ملعقة من طبق فيندالو ووضعه في صحنه، وقال: «نعم، كان بإمكانك أن تختاري مطعماً إيطالياً».

تورك

وقفت وسط الحضانة التي لن يستخدمها ابني أبداً.

قبضت يداي مشدودتين على جانبَي. أريد أن أحرّكهما. أريد أن أضرب الجدار بكلتا قبضتيَّ حتّى تنهار هذه الغرفة اللعينة كلّها.

فجأة، أحسستُ بيد تلمس كتفي. «هل أنت مستعدّ؟» كان فرانسيس ميتشوم - والد زوجتي – واقفاً خلفي.

هذا هو وجهه المزدوج - نعيش أنا وبريت في جانب، ويعيش في الجانب الآخر. عبر فرانسيس الغرفة وسحب الستائر المرسوم عليها الأرنب بيتر، ثمَّ صبَّ كميَّة من الطلاء في وعاء صغير، وبدأ يطلي الجدران باللون الأبيض فوق اللون الأصفر الباهت الذي كنّا قد طلينا به، أنا وبريت، الجدران منذ أقلّ من شهر. طبقة الطلاء الأولى لم تغطِّ الطبقة التي تحتها تماماً فبدا اللون الأصلي أشبه بشيء علق تحت الجليد. أخذت نَفَساً عميقاً واستلقيت تحت سرير الطفل الصغير، وبدأت أُرخي البراغي التي كنت قد شددتها بإحكام، لأنّني لم أشأ أن أكون السبب في أن يقع أيّ مكروه لابني.

من كان يعرف أنّه لم يكن يتوجَّب أن يكون هناك سبب؟

تركتُ بريت نائمة بسبب المهدّئ. لقد تحسَّنت حالتها كثيراً عمَّا كانت عليه صباح اليوم عندما كنّا في المستشفى. ظننت أنّه لا يوجد شيء أسوأ من البكاء الذي لم يتوقَّف، صوتها يتكسَّر إلى شظايا. لكنَّ ذلك كلّه توقَّف عند الساعة الرابعة صباحاً، ولم تقل بريت شيئاً، وإنّما راحت تحدّق إلى الحائط بعينين خاويتين، ولم تجب عندما ناديتها باسمها، حتّى إنّها لم تنظر إليَّ. لقد أعطاها الأطباء مهدّئات لتنام، وقالوا لي إنَّ النوم أفضل وسيلة ليبرأ الجسد.

لم يغمض لي جفن. لكنّي كنت أعرف أنَّ النوم لن يجعلني في حال فضلى، وكي أنام يجب أن أرتكب عملاً وحشيّاً، لحظة تدمير. كنت أريد أن أتخلَّص من الألم الذي يعتمل داخلي، وأُفرغه في مكان آخر.

في آخر دورة لمفكّ البراغي، انهار السرير، وسقط الفراش الثقيل على صدري. لَمَّا سمع فرانسيس صوت وقوع السرير، التفت وسألني: «هل أنت على ما يرام؟»

فقلت له: «نعم». لقد سقطت المرتبة على صدري. كان ذلك مؤلماً، لكنّي أعرف هذا النوع من الألم. ستحدث لي كدمة، لكنّها ستزول. انسللت من تحت الأخشاب المتشابكة وركلتها بحذائي، وقلت: «قطعة زبالة أخرى».

تجهَّم وجه فرانسيس، وقال: «ماذا ستفعل بها؟»

لا يمكنني أن أحتفظ به. أعرف أنّنا نستطيع أن ننجب طفلاً آخر ذات يوم، إذا كنّا محظوظين، لكن إبقاء هذا السرير كما لو أنّنا ندع طفلنا الجديد ينام مع شبح.

عندما لم أجب، جفّف فرانسيس يديه بقطعة قماش، وراح يلملم قطع الخشب، وقال: «سنعطيه إلى رابطة النساء الآريات» التي كانت بريت قد حضرت بعض اجتماعاتهنّ: عضوات في حركة الرؤوس الحليقة السابقة كنّ يذهبن إلى جمعيّة توزيع حليب الأطفال ويحصلن على حليب الأطفال مجاناً بهويّات مزيّفة، يخدعن الحكومة ليجلبن حليب الأطفال للنسوة اللاتي يمضي أزواجهنَّ فترة من التدريب لأجل القضيَّة.

لم يعد شكل فرانسيس الذي كان يرأس فريق بنَّائي الجدران، الذي كنت أعمل معه، جذّاباً الآن، والذي يتمتَّع بتصنيف جيّد في (قائمة أنجي)، ويصوّت لحزب (حفلة الشاي)- (أعضاء الرؤوس الحليقة القدماء لم يموتوا، فقد كانوا ينضمّون إلى جماعة كوكلوكس كلان العنصرية، أمّا الآن فقد أصبحوا ينضمّون إلى حزب (حفلة الشاي). ألا تصدّقونني؟ اذهبوا واستمعوا

إلى متحدّث قديم في جماعة كوكلوكس كلان، وقارنـه بخطـاب يلقيـه عضـو في حـزب (حفلة الشاي) القومي، فبدلاً من أن يقولوا «يهوديّ»، أصبحوا يقولون الآن «الحكومة الفيدرالية». وبدلاً مـن أن يقولـوا «فقـراء»، أصـبحوا يقولـون «الطبقـة الاجتماعيَّـة في بلدنا»، وبدلاً من أن يقولوا «زنجي»، أصبحوا يقولون «الرعايـة الاجتماعيَّـة». كـانوا في ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي أسطورة، فقد كـان جـيش التحـالف الأبـيض الـذي يقوده يتمتّع بنفوذ كبير مثل جماعة المقاومة الآرية البيضاء التي يقودها توم ميتزجر، وكنيسة الخالق العالمية التي يقودها مات هيل، والتحالف الوطني الذي يقوده وليـام لوثر بيرس، ومنظمة الشعوب الآرية التي يقودها ريتشارد بتلر. في ذلـك الوقـت، كـان يربّي بريت وحده، وكانت فرقته الإرهابيّـة تجـوب شـوارع نيـو هـافن وهـم يحملـون مطارق خفيفة وعصيّ هـوكي مكسـورة، وهـراوات، وأنابيـب مـن الرصـاص - يضربـون الزنوج واللوطيين واليهود – في حين كانت الطفلة بريت تغطّ في النوم في السيّارة.

أمَّا لَمَّا بدأت الأمور تتغيّر في منتصف تسـعينيات القـرن المـاضي - عنـدما اتّخـذت الحكومة إجراءات صارمة ضدّ حليقي الرؤوس - وجد القادة، مثل فرانسيس، أنفسـهم مقيدين وسُجنوا، فأدرك فرانسيس أنّك إذا لم تشأ أن تُكسر، فعليك أن تنحني. كان هو الرجل الذي غيّر هيكل حركة القوة البيضاء مـن منظمـة كبـيرة إلى خلايـا صـغيرة مـن الأصدقاء من ذوي الميول السياسـيَّة المشـتركة. وطلـب أن نطيـل شـعرنا، ونـذهب إلى الجامعـة، ونلتحـق بـالجيش، كي ننـدمج في المجتمـع. وبمسـاعدتي، أنشـأ وأدار موقعـاً إلكترونياً، وكان يردّد دائماً إننا لم نعد مجموعات الآن، وإنما صرنا جيوباً ساخطة داخـل النظام.

لَمَّا عرف الناس أنّنا أصبحنا نسير ونعيش بينهم غير مرئيين، ازدادوا رعباً.

قلت إنّ رابطة النساء الآريات هـي التي ستأخذ سرير الطفل والطاولة التي اشتريتها بثمن رخيص وأصلحتها، وثياب الطفل التـي جلبتهـا بريـت

من مؤسّسة غوودويل الخيرية والتي وضعتها في الخزانـة، وبـودرة الأطفـال والشـامبو وكلّ هذه الأشياء، سيستخدمها طفل آخر، طفل في قيد الحياة.

لَمَّا نهضت ووقفت بسرعة، شعرت بدوار، ووجـدت نـفسي أحـدّق في المـرآة التـي رُسمت بالونات صغيرة على إطارهـا. كنـت أعـود إلى المنـزل مـن العمـل وأرى بريـت جالسة إلى الطاولة بيدها فرشاة فأستثيرها وأقـول لهـا إنهـا أصـبحت مارثـا سـتيوارت، فتقـول إنَّ الشيء الوحيـد الـذي يجمعهـا بمارثـا سـتيوارت هـو أنّهـا امـرأة اسـتثنائيَّة، وتضحك. رسمت بالوناً على خدّي ثمّ قبّلتُها، في تلك اللحظة، لَمَّا ضممتها إليَّ، ولم يكن ابننا قد ولد بعد، كان كلّ شيء على ما يرام.

أمَّا الآن، فتحيط بعينيَّ هالات سود، وبدأت لحيتي تنمو، وأصبح شـعري أشـعث. صرت أبدو مثل هارب من شيء ما.

«اللعنة على كلّ هذه،» همستُ، وخرجتُ من غرفة الطفل إلى الحمَّام.

في الحمَّام، أنا وآلة الحلاقة الكهربائيَّة. وضعتها في مقبس الكهرباء، وبحركة واحدة حلقت شعري في منتصف رأسي. رحـت أمـرّر الآلـة في كـلّ جانـب، وبـدأت خصـلات شعري تتساقط على كتفي ثمّ إلى حوض المغسلة. كالسحر، عندما بدأ شعري يتساقط، ظهرت صورة في تاج رأسي، فوق منبت الشعر مباشرة: صليب معقـوف أسـود سـميك، تشكل الحروف الأولى من اسمي واسم بريت.

عرفت أنَّها ستتزوّجني عندما قالت نعم.

كنت آنذاك في الحادية والعشرين من عمري، وكان وجهي متَّسخاً.

لَمَّا جئت لأُري بريت هذا الدليل على حبّي لها، لم تقل شـيئاً لأن فرانسـيس دخـل الغرفة وصفعني على مؤخرة رأسي بقوة، وقال: «هل أنت غبيّ. أيّ جزء من السرّيـة لم تفهمه؟»

فقلت له: «إنَّه سرّي»، وابتسمت لبريت، «إنّه سرّنا. عندما ينمو شعري مرّة أخرى، لن يعرف أحد أنَّها مرسومة هنا، إلّا نحن».

«وماذا لو أصبحتَ أصلع؟» سأل فرانسيس.

من قسمات وجهي، عرف أنّني لم أفكّر في هذا الأمر.

لم يدعني فرانسيس أغادر منزله طوال الأسبوعين التاليين، حتّى أصبح ذلك الجرح الذي أحدثته عندما جززت شعري يبدو ظلاً قاتماً كأنه آثار جَرَب.

أخذت مسطرة تقويم وقليلاً من كريم الحلاقة وأكملت العمل. مرّرت يدي فوق رأسي الأملس. شعرت بأنّني أصبحت أخفّ وزناً، ولاحظت حركة الهواء وراء أذني.

عدت إلى غرفة الطفل، التي لم تعد غرفته. فقد اختفى السرير، وكُدِّست قطع الأثاث الأخرى في الصالة. ووضعت الأشياء الأخرى في صناديق كما أمر فرانسيس. وقبل أن تخرج بريت من المستشفى بعد ظهر اليوم، سأعيد إطار السرير ومنضدة جانبية لترى أنّها عادت غرفة ضيوف، كما كانت منذ بضعة أشهر.

رحت أحدّق إلى وجه فرانسيس أتحدّاه على مواجهتي. تبعت عيناه خطوط وشمي، كما لو أنّه يتحسّس ندبة. ثمّ قال بصوت هادئ، «فهمت يا فتى، إنّك ذاهب إلى الحرب».

* * *

لا يوجد شيء أسوأ من أن تغادر المستشفى من دون الطفل، وقد ذهبت إليه لتنجبه فيه. كانت بريت جالسة على كرسيّ متحرّك (البروتوكول المتَّبع في المستشفى) تدفعها ممرّضة مساعدة (بروتوكول آخر يتبعه المستشفى)، سرت خلفها وقد غطيت رأسي بقبّعة خفضتها إلى أسفل جبهتي. ظلَّت عينا بريت تحدّقان، ويداها مطويتان في حضنها. هل أنا وحدي أو أنَّ الجميع يحدّقون إلينا؟ هل يتساءلون ما مشكلة هذه المرأة التي لم يكن رأسها حليقاً ولا توجد جبيرة أو أيّ شيء آخر عليها؟

كان فرانسيس قد ركن سيّارته ذات الدفع الرباعيّ أمام باب المستشفى، وفتح حارس الأمن باب السيّارة الخلفيّ، في حين ساعدت بريت في النهوض من الكرسيِّ. دُهشت كم بدت خفيفة الوزن، وتساءلت هل ستطير عندما تفلت يداها ذراعَي الكرسيّ المتحرّك!

لوهلة، اكتسى وجهها بذعر شديد. أدركت أنَّها أجفلت من كهف مقعد السيارة الخلفيّ المظلم كما لو كان هناك وحش مختبئ في السيّارة.

أو في مقعد السيَّارة.

طوّقت خصرها بذراعي، وهمست لها: «حبيبتي، هل أنتِ على ما يرام؟».

تشنّج عمودها الفقريّ، وأجفلت قبل أن تصعد في السيّارة. لَمَّا أدركت أنَّه لا يوجد إلى جانبها كرسيّ فارغ للأطفال، استرخت عضلات جسدها، وأسندت ظهرها إلى المقعد، وأغمضت عينيها.

جلستُ في المقعد الأماميّ. رآني فرانسيس، فرفع حاجبه وسألها: «كيف حالك أيّتها الخنفساء؟» مستخدماً كلمة التحبّب التي كان يناديها بها عندما كانت طفلة.

لم تجب. كان كلّ ما فعلته أنَّها هزَّت رأسها، وسالت دمعة كبيرة على خدّها.

شغّل فرانسيس السيارة وخرج من ممرّ المستشفى، كما لو أنه يريد أن يتجاوز كلَّ ما حدث فيه.

في مكان ما، في إحدى الثلاجات في القبو، يقبع طفلي. أو لعلّه ذهب الآن، وقد فُتح بطنه مثل ديك روميّ في عيد الشكر على طاولة الطبيب الشرعيّ.

كان بإمكاني أن أخبره ما الذي حدث. كان بإمكاني أن أخبره ذلك الشيء الرهيب الذي أراه كلّما أغمضت عيني: تلك العاهرة السوداء التي كانت تضغط على صدر ابني.

كانت وحدها مع ديفيس. سمعت الممرّضات الأخريات يتحدّثن عن ذلك في الردهة. كانت وحدها عندما لم يكن من المفترض أن تكون هناك. من يعرف ما الذي جرى عندما لم يكن أحد يراها؟

نظرتُ إلى بريت. عندما نظرتُ إلى عينيها، كانتا فارغتين.

ماذا لو كان قد حدث شيء أسوأ من فقدان ابني؟ ماذا لو كنت قد فقدت زوجتي أيضاً؟

بعد أن تخرَّجتُ في المدرسة الثانويّة، انتقلتُ إلى هارتفورد، وعملت في شركة (كولت للصناعات التحويلية)، ودرست هناك في الجامعة لفترة قصيرة، لكنَّ الهراء الليبراليّ الذي كان يردّده أولئك الأساتذة جعلني أشعر بالغثيان، فتركت الدراسة، لكنّي لم أتوقَّف عن التسكّع حول مبنى الجامعة. أوّل شاب جنَّدته كان شاباً نحيفاً ذا شعر طويل، جاء ووقف أمام شابّ أسود في الطابور في كافيتريا الطلاب، فدفعه الشابّ الأسود، لكنَّ يوركي عاد ودفع الشابَّ الأسود أيضاً، وقال له: «إذا لم تعجبك الحياة هنا، فعُد إلى إفريقيا». كان العراك الذي أعقب ذلك ملحمياً، وانتهى الأمر إلى أنَّني ساعدت يوركي، وأنهيت الشجار. لَمَّا وقفنا خارج الكافتيريا ورحنا ندخّن، قلت له: «كما تعرف، ليس من المفترض أن تكون الضحيَّة».

ثمَّ أعطيته نسخة من نشرة (النداء الأخير) التي تصدرها (حركة أمَّة الإسلام) التي كنت ألصقها على جميع لوحات الإعلانات في الحرم الجامعيّ. «أترى هذه؟» قلت له عندما بدأنا نمشي، وأنا متيقن من أنّه سيتبعني، «هل تريد أن تقول لي لماذا لا يذهب أحد إلى اتحاد الطلاب السود ويُقبض عليهم بسبب خطاب الكراهية؟ لكن، لماذا لا يوجد اتحاد للطلبة البيض؟»

نخر يوركي، وقال: «لأنَّ ذلك سيُعدُّ تمييزاً».

نظرت إليه كما لو كان أينشتاين، وقلت: «تماماً».

ثمَّ أصبح الأمر سهلاً. كنّا نبحث عن فتيان يتعرّضون للتنمّر فنتدخَّل ونقف إلى جانبهم ليعرفوا أنَّ هناك أشخاصاً يحمونهم، ثمّ ندعوهم إلى التجوّل معنا بعد انتهاء الدروس، وعندما يصعدون في السيّارة، أضع أشرطة موسيقا فرق سكرودرايفر، ونو ريمورس، وبيرزركر وسنتوريون، الفرقة الموسيقية التابعة لحركة القوة البيضاء التي تبدو مثل شيطان يزأر حتّى تجعلك ترغب في أن تدمِّر العالم.

جعلتهم يعتقدون أنَّ اللون الذي ولدوا فيه يمنحهم قيمة كبيرة، ولَـمَّا كانوا يشتكون من أيّ شيء في الجامعة، بدءاً من إجراءات التسجيل حتّى الطعام، أذكّرهم بأنّ رئيس الجامعة يهوديّ، وأنّ كلَّ ذلك يشكّل جزءاً من خطة أكبر تدبّرها حكومة الاحتلال الصهيونيّ كي تقمعنا، وعلّمتهم أنَّ «نحن» تعني «أبيض».

أخذت منهم المخدّرات التي يتعاطونها ورميتها في القمامة لأنّ المدمنين يشون بك عادة. لقد صنعتهم وفاقاً لصورتي. قلت ليوركي: «لديّ حذاء طويل رائع ماركة دوك مارتينس، على مقاس قدمك، لكنَّني لا أستطيع أن أعطيه لشاب شعره يلمع ويعقده في شكل كعكة»، فجاء في اليوم التالي وقد قصّ شعره وشذّبه بعناية. وشكّلتُ فريقاً مقاتلاً، فرعاً جديداً لفرقة الموت في أمريكا الشماليّة في هارتفورد.

أراهن أنّني علّمت هؤلاء الطلاب أكثر ممّا علّمهم أيّ أستاذ بارع، وشرحت لهم الفروق الأساسيّة بين مختلف الأعراق، وكنت أقول لهم: «إذا لم تكن مفترساً، فإنَّك ستكون الفريسة».

لَمَّا استيقظتُ، وجدت نفسي غارقاً في بركة من العرق، وحاولت بصعوبة أن أفيق من حلم مزعج. على الفور، بدأت أتحسَّس بيدي الملاءة، أبحث عن بريت، لكنّي لم أجدها.

نزلت من السرير ورحت أسير في الظلام كما لو كنت أشقّ طريقي عنوة بين حشد من الناس. ربما كنت أسير في نومي أيضاً، وتوجَّهت إلى الغرفة التي كنت أعيد طلاءها مع فرانسيس قبل مغادرة بريت المستشفى.

كانت بريت واقفة عند مدخل الغرفة، عاقدة يديها، كما لو أنَّها في حاجة إلى أحد يساعدها لتبقى منتصبة القامة. كان القمر قد اقترب من النافذة، فحاصرها ظلّها. لَـمَّا بدأت عيناي تتأقلمان مع عتمة الليل، حاولتُ أن أرى ما الذي تراه: الكرسي القديم ذو الذراعين المغطى بمفرش، وإطار سرير الضيوف الحديدي، وقد عادت الجدران بيضاء من جديد. كانت رائحة الطلاء الجديد الكريهة لا تزال تملأ أنفي.

تنحنحتُ، ثمَّ قلت بصوت خفيض: «قلنا إنَّ ذلك سيكون مفيداً».

استدارت نصف استدارة، وبدت لوهلة كأنّها خُلقت من النور، وهمست: «ماذا لو أنَّ هذا لم يحدث قطّ؟ ماذا لو كان مجرَّد كابوس؟»

كانت ترتدي أحد قمصاني الداخليَّة – الذي تحبّ أن تنام فيه – واضعة يدها فوق بطنها.

«بريت»، قلت وخطوت خطوة نحوها.

«ماذا لو لم يتذكّره أحد؟»

ضممتها إليَّ، وشعرت بدائرة أنفاسها الحارَّة تهبُّ على صدري، كالنار. قلت: «حبيبتي، أقسم إنَّني لن أدع أحداً ينسى ذلك».

لا توجد لديَّ سوى بدلة واحدة. في واقع الأمر، لدينا أنا وفرانسيس بدلة واحدة نتقاسمها. فلا داعي لارتداء ثياب أنيقة عندما تعمل في البناء في أثناء النهار، وتدير موقع حركة القوة البيضاء في الليل. لكن، في عصر اليوم التالي، اضطررت إلى ارتداء البدلة - سوداء، مقلّمة، من النوع الذي أتخيَّل أنَّ آل كابوني كانوا سيبدون صارمين فيها - وقميص أبيض وربطة

عنق، وعدت أنا وبريت إلى المستشفى لنلتقي كارلا لونغو، المحامية المتخصِّصة في إدارة المخاطر في المستشفى، التي وافقت على مقابلتنا.

لَمَّا خرجتُ من الحمّام حليق الرأس، وقد بدا الوشم المرسوم في مؤخّرة رأسي بوضوح شديد، فوجئت عندما رأيت بريت متكوّرة على السرير، مرتدية قميصي الداخليّ الذي تحبّ أن تلبسه، وقلت لها: «حبيبتي، لدينا اجتماع مع المحامية، ألا تذكرين؟» كنت قد قلت لها ذلك قبل نصف ساعة. لا يمكن أن تكون قد نسيت.

تدحرجت عيناها نحوي كما لو كانتا كرتين معدنيتين، تتحرّكان في رأسها. ودفع لسانها الكلمات حول فمها كما لو كانت طعاماً، وقالت: «لا... أريد... أن... أعود».

لَمَّا أدارت ظهرها، وسحبت الملاءة فوقها، رأيت القنينة على المنضدة إلى جانب السرير: الحبوب المنوّمة التي أعطاها إيّاها الطبيب لتساعدها في النوم. أخذتُ نفساً عميقاً ثم حملت زوجتي وأجلستها. كانت مثل كيس رمل، ثقيلة، لا تتحرك. كان عليها أن تأخذ دشاً، قلت، لكنَّ ذلك يحتاج إلى أن أدخل معها الحمّام، ولا يوجد لدينا وقت. تناولت كأس الماء الموجودة على المنضدة إلى جانب السرير، ورششت منها وجهها. ارتعشت، وجعلها الماء تعتدل في جلستها. خلعت بيجامتها، وأخرجت من درج خزانتها أول شيء بدا مناسباً - بنطالاً أسود وسترة بأزرار في المقدّمة. وبينما رحت أُلبسها ثيابها، ظهر لي وميض مفاجئ بأنّني أفعل كما فعلت لابني، ثمّ ضغطت على ذراع بريت بقوّة فصرخت. قبَّلتها على رسغها، ودمدمت: «آسف حبيبتي»، وبلطف أكثر، رحت أمرّر مشطاً في شعرها محاولاً أن أجمعه معاً في شكل ذيل حصان، ثمَّ أدخلت قدميها في حذاء أسود صغير، ثمَّ رفعتها بين ذراعيَّ، وخرجنا إلى السيَّارة.

لَمَّا وصلنا إلى المستشفى، بدت كما لو كانت مشلولة. «أرجوكِ استيقظي»، قلت لها متوسّلاً، وثبّتها إلى جانبي عندما دخلنا، «لأجل ديفيس».

ربّما نجح ذلك، لأنّنا لَمَّا دخلنا مكتب المحامية، فتحت عينيها قليلاً.

كانت كارلا لونغو امرأة حقيرة من أصل إسبانيّ، كما خمَّنت من اسمها، جالسة على كرسيّ، وأشارت إلينا أن نجلس على الأريكة أمامها. رأيتها تبتلع لسانها عندما خلعت قبَّعة الصوف التي أضعها على رأسي. جيّد. دعها تعرف مع من تتعامل، منذ البداية.

مالت بريت نحوي.

قلتُ لها موضّحاً: «زوجتي، لا تزال على غير ما يرام».

هزَّت المحامية رأسها بتعاطف، وقالت: «السيّد والسيّدة باور، اسمحا لي أولاً أن أقول لكما إنَّني آسفة لفقدانكما ابنكما».

لم أجبها.

ثمَّ قالت: «أنا متأكّدة من أنَّ لديكما أسئلة تريدان أن تطرحاها عليَّ».

انحنيت إلى الأمام، وقلت: «لا توجد لديَّ أسئلة. أعرف ما الذي حدث. لقد قتلت تلك الممرّضة السوداء ابني. رأيتها بأمِّ عيني وهي تضرب على صدره. قلت للمشرفة إنَّني لا أريد أن تلمس هذه الممرّضة ابني، وماذا حدث؟ تحقَّقت أسوأ مخاوفي».

«أنا متأكّدة من أنّك تدرك أنَّ السيدة جيفرسون كانت تؤدّي عملها فقط...»

«أوه، نعم؟ وهل كان عملها أيضاً أن تخالف تعليمات رئيستها؟ كلّ شيء مسجَّل في سجلّ ديفيس».

وقفت المحامية على قدميها لتتناول ملفّاً على طاولة مكتبها، أُلصقت على جانبه قصاصات ملوّنة صغيرة أظنّ أنّها رموز سريّة. فتحت الملفّ. من مكاني، رأيت القصاصة اللاصقة. تحرَّكت فتحتا أنفها، لكنّها لم تعلّق شيئاً.

قلت لها: «لم يكن من المفترض أن تقوم هذه الممرّضة برعاية ابني، وقد تُركت وحدها معه».

نظرت كارلا لونغو إليَّ، وقالت: «كيف عرفت ذلك يا سيّد باور؟»

«لأنَّ العاملين لديك لا يستطيعون أن يتكلّموا بصوت منخفض. سمعتها تقول إنَّها تعمل بالنيابة عن ممرّضة أخرى. في اليوم السابق، غضبت لأنني طلبت ألّا تقترب من ابني. وما الذي جرى؟ كانت تخبط على صدر ابني. كنت أراقبها»، قلت وقد بدأت الدموع تترقرق في عينيَّ. جفّفتهما. أحسست بالغباء والضعف، ثمّ قلت: «أتعرفين؟ اللعنة على كلّ ذلك. سأرفع قضيّة على المستشفى. لقد قتلتم ابني، ستدفعون ثمن ذلك».

بصراحة، لا أعرف كيف يعمل النظام القانونيّ. كنت أبذل كلّ ما في وسعي حتّى لا تقبض الشرطة عليَّ. لكنّي شاهدت إعلانات كثيرة عبر التلفاز تجعلني أعتقد أنّك إذا استطعت أن تحصل على مبلغ من المال، ورفعت دعوى قضائيّة بسبب الإصابة ببعض أمراض الرئة الناجمة عن الأسبستوس، فمن المؤكّد أنّك ستحصل على مبلغ كبير إذا مات طفلك الذي يفترض أنّه يحصل على رعاية طبية جيّدة.

أمسكت سترة بدلتي بيد، وسحبت بريت باليد الأخرى نحو باب المكتب. ولَمَّا هممت أن أفتحه، سمعت صوت المحامية خلفي، وسألتني: «سيّد باور، لماذا سترفع دعوى على المستشفى؟ إنّك تمزح، أليس كذلك؟»

خطت خطوة إلى الأمام، وكرّرت ما قالته: «لماذا سترفع دعوى على المستشفى، في حين أنَّ كلَّ شيء يوحي بأنَّ روث جيفرسون هي التي قتلت طفلك؟»

بعد قرابة سنة من إدارتي جماعة فرقة الموت في أمريكا الشمالية في هارتفورد، أصبح لدينا دخل ثابت، وأصبح بإمكاني الحصول على مسدَّسات كولت من خلال تزوير سجلات المخزون، ثمَّ بيعها في الشارع. في معظم

الأحيان، كنّا نبيعها للسود لأنَّهم سيقتلون بها بعضهم بعضاً، ولأنَّهم يدفعون ثمن المسدَّس ثلاثة أضعاف أكثر ممَّا يدفعه الإيطاليون. كنت أنا ويوركي نتولَّى هذه العملية. وفي إحدى الليالي، بينما كنا عائدين من صفقة عقدناها مع أحدهم، رأينا سيّارة شرطة تتبعنا بأضوائها التي تومض.

أصيب يوركي بالذعر، وقال: «اللعنة، يا رجل، ماذا سنفعل؟»

فقلت له: «دعنا نتوقّف إلى جانب الطريق ونتظاهر بأنَّه لا يوجد لدينا مسدّس في السيّارة، لأنّ هذا ما تسأل عنه الشرطة، وأننا عائدان من حفل في شقّة أحد أصدقائنا». لكن، ما إن طلب منّا رجال الشرطة أن نترجَّل من السيّارة، بدأ يوركي يتصبّب عرقاً كأنَّه عامل منجم فحم، وبدا كما لو أنه ارتكب جرماً عظيماً، وأظنّ أنّهم فتَّشوا السيارة عندما لاحظوا ذلك. انتظرت لأنّني أعرف أنه لا يوجد شيء في السيارة أخفيه، لكن من الواضح أنَّ الأمر لم يكن كذلك بالنسبة إلى يوركي. فبينما كنت أفاوض الشخص على بيع المسدَّس، اشترى يوركي ثماني كرات من مخدّر الميثامفيتامين.

وبما أنَّها كانت مخبَّأة في صندوق التابلو في سيّارتي، فقد اتُّهمت بحيازتها. كان السجن عالماً أفهمه، حيث يُفصل الجميع، ويوضعون بحسب العِرق. لَمَّا حُكم عليَّ بالسجن لمدّة ستّة أشهر، قرّرت أن أمضي كلّ دقيقة فيه للتخطيط لأنتقم. كان يوركي يتعاطى المخدّرات قبل أن ينضمَّ إلينا، لكن لم يكن أحد من أفراد فرقتنا يتعاطى مخدّرات، وكانوا يحرصون على ألّا يضع أحدهم مخدّرات في صندوق التابلو في سيّارتي.

في السجن، كان عدد أفراد العصابات السود يفوق عدد العصابات الأخرى، ما جعل أعضاء العصابات البيض والإسبان اللاتينيين يتَّحدون معاً. لكن محاولة أن تُبقي رأسك مرفوعاً في السجن وتبتعد عن المشاكل كانت شيئاً صعباً. كنت أعرف أنّه لو كان في السجن أحد ينتمي إلى (حركة القوة البيضاء) فإنّه سيعثر عليَّ عاجلاً أم آجلاً - لكنّي كنت آمل ألّا يجدني الزنوج أولاً.

أبقيتُ أنفي مدفوناً في الكتاب المقدَّس. كنت في حاجة إلى اللـه في حيـاتي. وإذا لم يكن هناك أحد يدافع عنك، فمن الأفضل لك أن تأمل أن يقف اللـه إلى جانبك. لكنّي لم أكن أقرأ الأجزاء التي قرأتها من قبل في الكتاب المقدَّس عنـدما كنـت أدرس تعـاليم الهوية المسيحيَّة، لكنّي وجدت نفسي أقرأ بنهم الصفحات التـي تتحـدَّث عـن المعانـاة والخلاص والأمل. صمتُ لأنّني قرأت شـيئاً عـن الصـيام في الكتـاب المقـدَّس، وفي أثنـاء الفترة التي صمت فيها طلب اللـه إليَّ أن أحيط نفسي بأشخاص يشبهونني.

في اليوم التـالي، ذهبـت لأحضر دروسـاً مـع مجموعـة دراسـة الكتـاب المقـدس في السجن. كنت الرجل الوحيد الذي لم يكن أسود.

في البداية، راح أحدنا يحدّق إلى الآخر، ثمَّ أشار الرجل، الذي يدير الاجتماع، بذقنه إلى شابّ لا يكبرني كثيراً، ليفسح لي مكاناً أجلس فيه إلى جانبه. أمسك أحدنا بيد الآخر، ولَمَّا أمسكت بيده، كانت ناعمة مثل يدَي أبي. لا أعرف لماذا خطر في بـالي ذلـك، لكـن هذا ما بدأت أفكّر فيه عنـدما بـدؤوا يتلـون الصـلاة الربانيَّـة، وفجـأة وجـدت نـفسي أتلوها معهم.

بدأت أحضر دروس الكتاب المقدَّس كلّ يـوم. ولَـمَّا كنّـا ننهـي قـراءة مقـاطع مـن الإنجيل ونقول آمين، يسأل بيغ آيكي، الذي يدير المجموعة: «من لديه محاكمة غـداً؟» فيقول أحد منهم إنّ لديه جلسة اسـتماع أوليـة، أو إنَّ الضـابط الـذي اعتقلـه سـيدلي بشهادته أو شيئاً من هذا القبيل، فيقول بيغ آيـكي: «حسـناً، دعونـا نصـلِّ لأجلـك لـئلّا يرميك الشرطيّ تحت عجـلات أيّ حافلـة»، ويقـرأ مقطعـاً مـن الكتـاب المقـدَّس عـن الافتداء.

كان توينكي الشاب الأسود الذي يقـاربني في العمـر. تحـدَّثنا كثـيراً عـن الفتيات اللاتي لم نعد نصاحبهنَّ، لكن صدقاً تحدّثنا أكثر عـن الطعـام الـذي كنا نتوق إلى تناوله عندما نخرج من السـجن. قلـت لـه إنّنـي مسـتعدّ لأن أرتكب جريمة لأحصل على طبق من مطعم تاكو بيل، أمّا توينكي فقـد كـان

يريد تناول وجبة من مطعم شيف بوياردي. على نحو ما، لم يهمّني لون بشرته كثيراً، لكن لو كنت قد رأيته في شوارع هارتفورد، لركلته في مؤخّرته، أمّا في السجن، فقد أصبح الأمر مختلفاً. وعندما نلعب معاً لعبة البستوني، كنّا نغشّ بإعطاء إشارات بيدنا وبأعيننا نتَّفق عليها مسبقاً، لأنّه لن يتوقّع أحد أن يتعاون رجل أبيض مع فتى أسود.

في أحد الأيام، بينما كنت جالساً في الغرفة المشتركة مع بعض الرجال البيض نتسمع إلى نشرة أخبار منتصف النهار عبر التلفاز، ذكر المذيع عن وقوع حادثة جرى فيها تبادل إطلاق نار، وذكر عدد الأشخاص الذين أصيبوا مصادفةً، فقلت: «لهذا السبب فإنّنا ننتصر على تلك العصابات، فهم لا يطلقون النار كما نفعل. إنّهم لا يعرفون كيف يستخدمون السلاح، انظروا إلى قبضة الموت تلك. خراء زنجيّ أنموذجيّ».

لم يكن توينكي جالساً معنا، لكنّي رأيته جالساً في الجانب الآخر من الغرفة، عيناه ترمقانني. وفي المساء، لعبنا الورق لقاء سجائر، ولَمَّا أعطيته إشارة بأن يرمي الديناري، رمى الإسباتي فخسرنا. وبينما كنّا خارجين من القاعة، التفتُّ إليه، وقلت له: «ماذا فعلت بحقّ الجحيم؟ لقد أعطيتك إشارة».

فحدَّجني وقال: «أظنّ أنَّ هذا خراء زنجي أنموذجيّ».

قلت في نفسي: اللعنة، لقد جرحت مشاعره. ثمَّ قلت، وماذا في ذلك؟

يبدو أنَّني لم أتوقَّف عن استخدام هذه الكلمة. لكنّي أعترف أنّني عندما أقولها أحياناً، فإنّها تعلق في حلقي مثل حسك سمكة قبل أن أتمكّن من أن أطلقها.

* * *

بينما كنت أنتعل حذائي، دفعت بقدمي واجهة الجدار القديمة فتهاوت على الشرفة، وتناثرت شظايا الزجاج. لَمَّا رآني فرانسيس من النافذة الأماميَّة، ثنى ذراعيه وقوَّس حاجبيه.

قلت له: «لا يزال الأمر في غاية السوء، ولم أجد متنفَّساً بعد».

اندفع الهواء البارد إلى داخل المنزل من الفتحة التي أحدثتها في الجدار.

شعرت بالراحة لوجودي هنا.

«هل لهذا علاقة باجتماعك؟»، قال فرانسيس موحياً بأنَّ سبب ذلك نصف الساعة التي أمضيتها في مركز الشرطة. فما إن أوصلت بريت، التي زحفت إلى السرير، حتّى عدت مباشرة إلى مركز الشرطة.

لم يكن بالإمكان حتى تسميته اجتماعاً. فقد جلست أمام شرطي بدين اسمه ماكدوغال سجّل الشكوى التي قدّمتها ضدّ روث جيفرسون، وتمتم قائلاً: «إنّه سيُجري قليلاً من البحث»، وهذا يعني أنّني لن أسمع منه مرّة أخرى.

«ماذا قلت له؟»

«قلت له إن تلك العاهرة قتلت ابني».

لم يكن ماكدوغال يعرف شيئاً عن ابني، أو ما الذي حدث في المستشفى، فحكيت له القصة المأساوية بأكملها مرّة أخرى، ثمَّ سألني ماكدوغال ما الذي أريده منه، كما لو كان الأمر غير واضح.

قلت له: «أريد أن أدفن ابني، وأريد أن تدفع ثمن ما اقترفته يداها».

فقال: «ربَّما أسأتَ تفسير ما رأيت لأنّك كنت حزيناً». فقلت له: «لم تكن تنعش القلب والرئتين فقط، وإنّما كانت تؤذي ابني. حتّى إنَّ الطبيب طلب إليها أن تخفّف من حدّة ضغطها على صدره».

لَمَّا قلت له إنّها كانت تضمر لي الشرَّ، نظر ماكدوغال إلى وشمي على الفور، وقال: «إنَّك تمزح».

قلت لفرانسيس: «إنّها جريمة كراهية عاهرة، هذا كلّ ما في الأمر، «لكن لم يعد أحد يدافع عن البيض لأننا أصبحنا أقلية الآن».

اقترب والد زوجتي ووقف إلى جانبي، وأزال قطعة زجاج تتدلى من تجويف في النافذة بيديه العاريتين، وقال: «إنك تحاول أن تقنعني بما أنا مقتنع به يا تورك».

ربّما لم يتحدّث فرانسيس عن القوة البيضاء علناً منذ سنوات، لكنّي عرفت بطريق المصادفة أنَّه يخزّن أسلحة في مستودع مقفل يبعد ثلاثة أميال من هنا، استعداداً للحرب العرقيَّة المقدَّسة، وقال: «آمل أنّك ترغب في سدّها»، فتظاهرت بأنَّه لا يقصد النافذة.

بعد لحظات، رنَّ هاتفي الخلوي. أخرجته من جيبي، لكنّي لم أعرف من صاحب الرقم الذي ظهر على الشاشة. قلت: «هالو؟»

«السيّد باور؟ أنا السرجنت ماكدوغال، تحدَّثنا قبل ظهر اليوم؟»

لففتُ يدي حول الهاتف واستدرت، مشكّلاً بظهري جداراً من الخصوصيَّة.

«أردت أن أقول لك إنّه أتيحت لي فرصة التحدّث إلى إدارة المخاطر في المستشفى والطبيب الشرعيّ أيضاً. وقد أكَّدت كارلا لونغو قصّتك. قال لي الطبيب الشرعيّ إنَّ ابنك مات بسبب نوبة سكّر الدم أدَّت إلى توقّف التنفّس، ثمَّ إلى توقّف القلب».

«وماذا يعني ذلك؟»

فقال: «حسناً، سُلِّمت شهادة الوفاة إلى المستشفى. يمكنك أن تدفن ابنك».

أغمضتُ عينيَّ. للحظة، لم أجد رداً، ثم قلت: «حسناً».

«وهناك شيء آخر يا سيّد باور»، أضاف السرجنت ماكدوغال، «أكَّد الطبيب الشرعيّ وجود كدمات فوق القفص الصدريّ لابنك».

توقّف مستقبلي كلّه على النفس بين هذه الجملة والجملة التي ستليها.

«ثمَّة دليل على أنّه قد يكون لروث جيفرسون سبب في موت ابنك»، قال ماكدوغال، «وقد يكون قد حدث ذلك نتيجة دوافع عنصريَّة»، ثمَّ أضاف، «سأتصل بمكتب المدّعي العامّ».

«شكراً لك»، قلتها بجفاف، وأغلقت الهاتف. ثمَّ تداعت ركبتاي، ووقعت أمام العتبة التي حطمتها. شعرت بيد فرانسيس على كتفي، وعلى الرغم من أنّه لا يوجد حاجز يفصل بيني وبين الخارج، بدأت أتنفّس بصعوبة.

«أنا آسف يا تورك»، قال فرانسيس، مسيئاً تفسير استجابتي.

«لا داعي للأسف»، نهضت وركضت إلى غرفة النوم المعتمة حيث تستلقي بريت تحت كومة من الأغطية. فتحت ستائر النافذة فغمرت أشعّة الشمس الغرفة. انقلبت على ظهرها، ورفّت بعينيها مذعورة. أمسكت بيدها.

لم أستطع أن أمنحها طفلنا، لكنني أستطيع أن أقدّم لها الآن أفضل شيء بعده. العدالة.

بينما كنت أخطّط للانتقام من يوركي في الفترة التي أمضيتها في السجن طوال ستّة أشهر، تحالف مع عصابة لسائقي الدراجات الناريَّة، تطلق على نفسها اسم (الوثنيون)، بلطجية ضخام الجثث، أظنّ أنَّهم يتعاطون مخدّر الميثامفيتامين مثله، وكانوا سعداء لحمايته، إن كان ذلك يعني أنَّ في استطاعتهم الإطاحة بزعيم فرقة الموت في أمريكا الشمالية، التي يقع مقرّها في هارتفورد.

لَمَّا خرجت من السجن، حاولت في اليوم الأول أن أجمع شمل أعضاء فريقي القدامى، وبما أنّهم عرفوا أنّني سُجنت، واعتذروا كلّهم عن مساعدتي، قلت لهم: «لقد تخلّيت عن كلّ شيء لأجلكم، أهكذا هي مكافأتكم لي؟»

لكن، لن أسمح أن يظنَّ أحد أنَّ دخولي السجن جعل حماستي تخبو. في تلك الليلة بالذات، ذهبت إلى مطعم البيتزا، الذي يُعدُّ مقرّاً غير رسميّ لهم، وانتظرت حتّى سمعت هدير عشرات الدرَّاجات الناريَّة، ثمَّ توقَّفت. خلعتُ سترتي، وطقطقت مفاصلي، وخرجتُ إلى الزقاق خلف المطعم.

كان يوركي، ابن القحباء، مختبئاً وراء ستار من العضلات، طول أصغر واحد فيهم قرابة مترين، ولا يقلّ وزنه عن مئة وأربعين كيلوغراماً.

مع أنَّ حجمي أصغر منهم جميعاً، لكنَّني أمتاز بسرعة الحركة، ولم يتدرَّب أيّ من هؤلاء الرجال على قبضة يد جدّي.

كنت أتمنّى أن أخبركم بما جرى في تلك الليلة، لكن كلّ ما يمكنني قوله هو ما سمعته من الآخرين: كيف اندفعتُ مثل وحش هائج نحو أضخم رجل فيهم، ورفعت ذراعي، ووجَّهتها إليه بسرعة كبيرة، فوقعت لكماتي على فمه مباشرة، وسقط صفّ أسنانه الأمامية كلّها؛ وكيف رفعت أحدهم من قدميه وألقيت به مثل قذيفة مدفع فوق الرجال الآخرين؛ وكيف ركلت راكب دراجة نارية بقوة على كليته، وسمعت أنَّ لون بوله ظلَّ أحمر طوال شهر؛ وكيف أنَّ الدم سال في الزقاق كما يسيل المطر على الرصيف.

كلّ ما أعرفه أنَّه لم يبقَ لي شيء لأخسره سوى سمعتي، وهذا يكفي لأن أشنَّ حرباً. لا أذكر أيَّ شيء فعلته، سوى أنّني استيقظت في صباح اليوم التالي في مطعم البيتزا، وقد وضعوا كيس ثلج على يدي المكسورة، وعيني المتورّمة.

لا أتذكّر شيئاً ممّا جرى حينذاك، لكنّ الخبر انتشر في كلّ مكان، ومع أنَّني لا أتذكّر شيئاً، أصبحت أسطورة مرة أخرى.

في اليوم الذي دُفن فيه ابني، كانت الشمس مشرقة، وكانت الريح تهبّ من الغرب كما لو أنَّ لها أسناناً. وقفت أمام الحفرة الصغيرة في الأرض.

لا أعرف مَن الذي نظّم كلّ هذه الجنازة. فقد كان على أحدهم أن يتصل ليحصل على قطعة أرض، وإبلاغ الآخرين بموعد إقامة مراسم الصلاة. أظنّ أنّ فرانسيس هو الذي وقف أمام النعش وراح يتلو آية من الكتاب المقدّس: «لأجل هذا الصَّبي صَلَّيتُ فأعْطانِيَ الرَّبُّ سؤالي الذي سألته مِنْ لَدُنْه، وأنا أيضاً أعرته للربّ جميع أيام حياته للربّ. وسجد هناك للربّ».

تجمَّع رفاق فرانسيس وبعض صديقات بريت في الحركة، بالإضافة إلى أشخاص لا أعرفهم، ليقدّموا العزاء لفرانسيس، كان أحدهم توم ميتزجر مؤسّس حركة المقاومة الآرية البيضاء، الذي يبلغ الثامنة والسبعين من عمره. وهو شخص منكفئ على نفسه مثل فرانسيس.

لَمَّا أجهشت بريت إلى البكاء في أثناء تلاوة المزمور، مددتُ لها يدي، لكنها سحبتها على الفور، والتفتت إلى ميتزجر الذي كانت تدعوه «العم تومي»، مذ كانت صغيرة، فوضع يده حول خصرها، وحاولتُ ألّا أشعر بأنَّ غيابها بمنزلة صفعة لي.

سمعت اليوم الكثير من العبارات والكلمات التافهة المكرّرة مثل: إنَّه أصبح في مكان أفضل؛ إنَّه جنديّ شهيد؛ إنَّ الزمن كفيل بمعالجة كلّ الجروح. لكنَّ الشيء الذي لم يقله لي أحد إنَّ الحزن وحيد. فمهما كان الشخص الآخر الذي جاء لتعزيتك، فإنّك تظلّ وحدك قابعاً في زنزانة صغيرة. حتّى عندما يحاول الآخرون مواساتك، فإنّك تدرك أنَّ هناك حاجزاً بينك وبينهم، مصنوعاً من ذلك الشيء الفظيع الذي حدث، والذي يجعلك تظلّ معزولاً. كنت أظنّ أنّنا، بريت وأنا، سنتألّم، في الأقل، معاً، لكنّها لم تعد تطيق أن تنظر إلى وجهي. تساءلت عمَّا إذا كان تصرّفها هذا ناجم عن السبب عينه الذي جعلني أتجنّبها: لأنّني عندما أنظر إلى عينيها، بدأت أراهما في وجه ديفيس، وعندما أرى الغمّازة التي تزيّن ذقنها يخيّل إليَّ أنّه توجد لدى ابني غمّازة مثلها. لقد أصبحت هي - التي كانت كلّ ما أصبو إليه – ذكرى مستمرّة لكلّ ما فقدته.

ركّزت انتباهي على التابوت عندما بدأ ينزل إلى الأرض. فتحتُ عينيَّ على وسعيهما لئلّا تترقرق الدموع في عينيَّ، وكي لا أبدو ضعيفاً.

بدأت أدوّن في رأسي بعض الأشياء. الأشياء التي لن أراها أبداً في ابني: أن أراه يبتسم للمرّة الأولى، وأحتفل بأول عيد ميلاد له، وأجلب له مسدَّساً

هوائياً، وأنصحه كيف يسأل فتاة أن تخرج معه. معالم إرشاديّة، لكن يبدو أنَّ معالم طريق الأبوّة قد اختفت، بالنسبة إليَّ.

وقف فرانسيس أمامي فجأة يحمل بيده المجرفة. ابتلعت ريقي بصعوبة، وأخذتها منه، وأصبحت أول شخص يبدأ بدفن ابني. بعد أن ألقيت حفنة من التراب في الحفرة، غرزتُ المجرفة في الأرض. ساعد توم ميتزجر بريت في أن ترفعها، ففعلت ذلك ويداها ترتعشان.

أعرف أنّني يجب أن أقف متيقظاً في حين يواري الجميع ديفيس التراب، لكنّ عقلي كان منشغلاً في مقاومة الرغبة في أن أنزل إلى تلك الحفرة، وأزيل التراب بيديَّ العاريتين، وأرفع التابوت وأفتحه وأُنقذ ابني. تمالكت نفسي بقوة حتَّى أخذ جسدي كلّه يرتعش بقوّة.

ثمَّ حدث شيء بدَّد كلَّ هذا التوتر الذي كان يحيط بصمّام الأمان حتّى يتلاشى البخار الذي يعتمل داخلي. فقد انسلَّت يد بريت إلى يدي، عيناها لا تزالان خاويتين من أثر المهدّئات والألم. كان جسدها بعيداً عنّي، لكن من المؤكّد أنَّها مدَّت لي يدها. لا بدَّ أنَّها في حاجة إليَّ.

للمرَّة الأولى منذ أسبوع، بدأت أقول لنفسي إنَّنا نستطيع أن نتجاوز هذه المحنة.

* * *

عندما يدعوك فرانسيس ميتشوم، فلا بدَّ أن تلبّي الدعوة على الفور.

بعد المشاجرة التي نشبت بيني وبين «الوثنيين»، تلقّيت رسالة مكتوبة بخطّ فرانسيس قال فيها إنَّه سمع تلك الشائعات، ويريد أن يتأكّد إن كانت صحيحة. دعاني إلى لقائه يوم السبت القادم في نيو هافن، وذكر عنوان المكان. لَمَّا وصلت إلى العنوان المحدَّد وسط أراض زراعيّة فوجئت عندما رأيت جميع السيارات مركونة أمام البيت، وقلت في نفسي ربّما كان اجتماعاً لأعضاء فريقه.

لَمَّا قرعت جرس الباب، لم يجبني أحد، لكنّي سمعتُ حركة في الفناء الخلفيّ، فسرت إلى جانب المنزل، ودخلت عبر السياج المفتوح.

على الفور، رأيت عدداً من الأطفال في نحو الخامسة من أعمارهم، مع أنّه ليست لديَّ خبرة في تقدير أعمار الناس بهذا الحجم. كانوا يركضون في اتّجاه امرأة تمسك مضرب بيسبول، تحاول أن تجمع الأطفال غير المنضبطين ليصطفّوا في رتل. «إنّه عيد ميلادي»، قال أحد الأطفال، «لذلك يجب أن أكون الأول»، وأخذ المضرب وراح يلوّح به أمام دمية: زنجيّ مصنوع من الورق يتدلَّى من أنشوطة.

حسناً، في الأقلّ، عرفت أنّني في المكان الصحيح.

التفتُّ إلى الجانب الآخر، وأصبحت وجهاً لوجه مع فتاة تحمل نجوماً في يديها، شعرها طويل مجعَّد، وعيناها زرقاوان كاشفتان.

دُهشت مئات المرّات قبل الآن، لكنّي لم أُدهش كما دُهشت الآن. حتّى إنَّني نسيت كلمة مرحباً.

«حسناً»، قالت، «أظنّ أنّك كبير بعض الشيء على هذه الألعاب، لكن يمكنك أن تأخذ دوراً إذا أردت».

حدَّقت إليها، مرتبكاً، حتَّى عرفت أنّها تشير إلى ملصق صورة لشخص ذي أنف معقوف مثبّتة على حائط جانبيّ. نعم، أردت أن ألعب، لكن لم يخطر في بالي أنّني يجب أن أصيب بالسهم وجه ذاك اليهوديّ.

قلت لها: «إنّي أبحث عن فرانسيس ميتشوم. لقد طلب أن يراني؟»

نظرت إليَّ، مضيّقة عينيها، وقالت: «لا بدَّ أنَّك تورك. إنَّه ينتظرك». استدارت، ودخلت المنزل بسهولة شخص اعتاد أن يتبعها.

كان في المطبخ نساء عديدات، يتنقلن بين الثلاجة والخزانات، يثبنَ مثل حبّات الفشار في صينية ساخنة، تندفع الواحدة تلو الأخرى بأوامر: أحضري الأطباق! لا تنسي الآيس كريم. وكان في الداخل عدد أكبر من الأطفال،

لكنّهم أكبر سنّاً – يافعون، ذكّروني بنفسي منذ فترة ليست بعيدة - استعبدهم الرجل الواقف أمامهم. كان فرانسيس ميتشوم أقصر قامة ممَّا أتذكّر، لكنّه كان واقفاً على منصّة عندما رأيته آخر مرّة. أبعد شعره الفضيّ الغزير عن وجهه، وكان يلقي محاضرة حول لاهوت الهوية المسيحيّة. لَمَّا قال: «مارست الأفعى الجنس مع حواء»، نظر الفتيان إلى بعضهم عندما ذكر كلمة «جنس»، كما لو أنّ سماعها تُنطق بصوت عالٍ، يعدُّ ترحيباً بهم إلى حرم البلوغ، «وإلّا لماذا يقول الربّ إنّه لا يمكنها أن تأكل تفَّاحة؟ إنّهما في حديقة. إنّ التفاحة رمز. جاء الشيطان إلى حوّاء متلبِّساً في شكل أفعى، وأغواها لممارسة الجنس معه، وحبلت. ثمَّ عادت إلى آدم وأغوته لمضاجعتها، فأنجبت قابيل الذي ولد وقد رُسمت علامة الشيطان عليه - 666، نجمة داود. هذا صحيح، كان قابيل أول يهوديّ، لكنّها أنجبت أيضاً هابيل، ابن آدم. ثمَّ قتل قابيل هابيل لأنَّه يغار. إنَّه من نسل الشيطان».

«هل تؤمن بهذا الهراء؟» سألتني الفتاة الجميلة الواقفة إلى جانبي. كان صوتها ناعماً جداً. شعرت كأنَّ سؤالها فخّ.

كان بعض أعضاء حركة القوّة البيضاء من أتباع «الهوية المسيحيَّة»، وبعضهم الآخر ليسوا من أتباعها. كانت رين وفرانسيس وأنا نعتقد أنّنا نحن «بيت إسرائيل» الحقيقيّ الذين اختارنا الربّ، أمّا اليهود فهم دجَّالون، وسيُمحون عن الوجود في الحروب العرقيَّة.

ابتسمتُ ابتسامة عريضة، وقلت: «لَمَّا كنت في مثل عمرهم تقريباً، كنت جائعاً جداً وسرقت قطعة نقانق في محطّة وقود. لم أكن أبالي كثيراً بالسرقة، لكنّي كنت مقتنعاً طوال أسبوعين بأنّ الربَّ سيضربني وينتقم منّي لأنّني أكلت لحم خنزير».

لَمَّا التقت أعيننا، شعرت كأنّها المسافة بين اللحظة التي تشعل فيها ضوء الموقد، واللحظة التي يشتعل فيها ويصبح أزرق. أحسست بأنَّني سأنفجر.

«أبي»، قالت، «ضيفك هنا».

«أبي؟»

نظر فرانسيس ميتشوم إليَّ، محوّلاً انتباهه عن مجموعة اليافعين الذين يتحدَّث إليهم، والذين راحوا يحدّقون إليَّ أيضاً.

سار فرانسيس بين الفتيان وربَّت على كتفي، وقال: «تورك باور. أنا سعيد أنَّك أتيت».

فأجبته: «إنّه لشرف كبير لي أن أُدعى».

قال فرانسيس: «أرى أنَّك رأيت بريتاني منذ قليل».

«بريتاني. لم أتعرَّف إليها رسمياً»، ومددتُ يدي، وقلت: «مرحباً».

«مرحباً»، كرَّرت بريت وضحكت. استمرَّت ضحكتها لحظة طويلة، لكنّها لم تكن كافية كي يلاحظها أحد.

ما عدا ميتشوم، الذي - أظنّ – لا تفوته أشياء كثيرة، قال: «دعنا نتمشَّ قليلاً؟» ومشيت إلى جانبه، وعدنا إلى الفناء الخلفيّ.

تحدَّثنا عن الطقس (بدأ الربيع متأخّراً هذه السنة) وعن قيادة السيارة من هارتفورد إلى نيو هافن (توجد أعمال إصلاح كثيرة على الطريق السريع). لَمَّا وصلنا إلى ركن في الفناء، إلى جانب شجرة تفّاح، جلس ميتشوم على كرسيّ حديقة وأشار إليَّ أن أجلس أيضاً. من المكان الذي جلسنا فيه، كنَّا نرى لعبة بينياتا. جاء دور الصبيّ صاحب عيد الميلاد ليضرب اللعبة بالمضرب. لم تسقط أيّ قطعة حلوى حتّى الآن. قال ميتشوم: «هذا ابني بالمعمودية».

«إنّي أتساءل لماذا دعوتني إلى حفل للفتيان؟».

فقال: «أحبُّ أن أتحدَّث إلى الجيل القادم، فذلك يجعلني أشعر بأنّني شخص مهمّ».

«لم أكن أعرف ذلك يا سيدي. أريد أن أقول إنّك لا تزال مهمّاً».

فقال ميتشوم: «لقد صنعت لنفسك اسماً جيّداً مؤخّراً».

هززت رأسي. لم أكن متأكّداً لماذا يريد فرانسيس ميتشوم أن يراني.

قال: «سمعتُ أنَّ زنجياً قتل شقيقك، وأنَّ أباك مزارع».

اشتعل رأسي، واحمرّ خدَّاي، وقلت له: «لم يعد أبي».

«هدِّئ من روعك يا بني. لا يمكننا أن نختار والدينا. المهمّ هو ما نختار أن نجعل منهما». نظر إليَّ، وسألني: «متى رأيته آخر مرّة؟»

«عندما ضربته حتَّى أغمي عليه».

مرة أخرى، شعرت أنني أجتاز اختباراً، وأن عليَّ أن أجيب عن الأسئلة بحذر، لأنَّ ميتشوم واصل حديثه، «لقد بدأت تجمع فريقك، وبحسب روايات عدَّة، فأنت أفضل شخص يجنّد أعضاء في الساحل الشرقيّ. فقد جعلت شخصاً تافهاً في المرتبة الثانية في القيادة، ثمَّ لقنته درساً عندما خرجت من السجن».

«فعلت ما كان عليَّ فعله».

أجابني ميتشوم: «حسناً، لا يوجد أشخاص كثيرون مثلك هذه الأيام. كنت أظنّ أنَّ الشرف سلعة توشك أن تنقرض».

في تلك اللحظة، أصاب أحد الفتيان اللعبة وقطع عنقها، فتناثرت قطع الحلوى فوق العشب. انهال الصبية عليها، وراحوا يجمعون قطع الحلوى في قبضاتهم.

خرجت والدة الفتى صاحب عيد الميلاد من المطبخ وبيدها طبق مملوء بقطع الكيك، وبدأت تغنّي «عيد ميلاد سعيد»، فتجمَّع الصبية حول طاولة الحديقة.

خرجت بريتاني إلى الشرفة، أصابعها زرقاء من طبقة الكريمة.

قال ميتشوم: «لَمَّا كنت أدير فرقة، لم يُقبض على أحد في الحركة بتهمة الإدمان. أمّا الآن، لأجل حبّ الربّ، فإنّ الفتيان الآريين يتعاونون مع الهنود الحمر في المحميات لصنع الميثامفيتامين في مكان لا تستطيع الشرطة الفدرالية أن تصل إليه».

عيد ميلاد سعيد!

قلت لميتشوم: «إنّهم لا يتعاونون، وإنّما يتّحدون معاً لمواجهة أعداء مشتركين: المكسيكيون والسود. إنّي لا أدافع عمّا يفعلونه، لكنّي أفهم لماذا يمكن أن يكونوا حلفاء غير محتملين».

عيد ميلاد سعيد عزيزي جاكسون!

ضيَّق ميتشوم عينيه، وكرَّر قائلاً: «حلفاء غير محتملين. مثال على ذلك، رجل عجوز ذو خبرة... وشاب لديه أكبر بيضتين رأيتهما في حياتي. رجل يعرف الجيل السابق من الأمريكيين البيض يمكنه أن يقود الجيل التالي. شخص نشأ في الشوارع... وشخص نشأ مع التكنولوجيا. لماذا يمكن أن يكون ذلك مزاوجة؟».

عيد ميلاد سعيد!

في الجانب الآخر من الفناء، رأتني بريت واحمرَّ وجهها. قلت: «إنّي أستمع».

* * *

بعد انتهاء مراسم الجنازة، عاد الجميع إلى منزلنا حيث قُدِّمت أطباق عدَّة وأنواع من الفطائر متنوعة، لم أتناول منها شيئاً، ولم يتوقّف الناس عن تعزيتي والإعراب عن أسفهم وحزنهم، كما لو أنَّ لهم علاقة بما جرى. جلس فرانسيس وتوم في الشرفة التي لا تزال فيها بعض شظايا الزجاج، التي تناثرت من نافذتي، يشربان زجاجة الويسكي التي أحضرها توم.

جلست بريت على الأريكة كأنَّها زهرة تحيط بها صديقاتها كأنهنَّ بتلات. وحينما يقترب منها أحد لا تعرفه جيداً، كنَّ يقتربن منها كثيراً، ويلتففن حولها، ثمّ يغادرن ويقلن لها أشياء من قبيل: اتصلي بي إذا احتجتِ إليَّ، ومع مضي كلّ يوم، سيصبح الأمر أسهل قليلاً. بعبارة أخرى: كلّها أكاذيب.

بينما كنت أودّع آخر ضيف، توقَّفت سيّارة. فُتح الباب وترجَّل منها ماكدوغال، السرجنت الذي أخذ إفادتي. صعد الدرج إلى حيث أقف واضعاً يديه في جيبيه، وقال بخشونة: «لا توجد لديَّ معلومات جديدة لك الآن. جئت لأقدِّم لك تعازيَّ».

أحسست أنَّ بريت جاءت ووقفت خلفي مثل ظلّ، فقلت لها: «حبيبتي، هذا هو السرجنت الذي سيساعدنا».

سألته: «متى؟»

فقال: «حسناً يا سيّدتي، التحقيقات في هذه الأشياء تأخذ وقتاً...»

راحت بريت تكرّر: «هذه الأشياء، هذه الأشياء»، ثمَّ دفعتني جانباً واقتربت من الشرطيّ كثيراً، وقالت: «ابني ليس شيئاً، ولم يكن»، ثمَّ قالت مصحّحة، وصوتها يتهدَّج، «لم يكن شيئاً».

ثمَّ استدارت واختفت داخل المنزل. نظرتُ إلى الشرطيّ، وقلت: «كان يوماً عصيباً».

«أفهم ذلك. عندما يتصل بي المدّعي العامّ، فسأكون في...»

لم يكمل جملته حتّى عمَّ صوت ارتطام صاخب خلفي. «يجب أن أذهب»، قلت له، وأغلقت الباب في وجهه.

سمعت صوت ارتطام آخر قبل أن أصل إلى المطبخ. ما إن خطوت إلى داخل المطبخ حتّى طار صحن خزفيّ ومرَّ إلى جانب وجهي، وارتطم بالحائط خلفي. «بريت»، صرخت وجريت نحوها، فألقت كأساً أصابت رأسي، وأصابت جفني، وللحظة، رأيت النجوم تتطاير أمام عينيَّ.

«هـل يفـترض أن يجعلنـي ذلـك أشـعر عـلى نحـو أفضـل؟» صـاحت بريـت، «إنّي أكرههم».

«حبيبتي»، أمسكتها من كتفيها، «إنّهم يحاولون أن يكونوا لطيفين».

قالت وبدأت الـدموع تسـيل عـلى وجههـا: «لا أريـد أن يكونـوا لطيفـين. لا أريـد مشاعر الشفقة تلك. لا أريد شيئاً سوى تلك القحباء التي قتلت ابني».

ضممتها إليَّ، لكنّها ظلّت متيبسة، وقلت: «لم ينتهِ الأمر بعد».

فجأة دفعتني بقوّة إلى الوراء، وقالت، وقد امـتلأت كلماتهـا بالسـمّ حتّـى شـعرت بالشلل: «سيظلّ الأمر كذلك إذا لم تكن رجلاً حقيقيّاً».

خفقت عضلة في فكّي، وأحكمتُ قبضتي، لكنّي لم أفعل شيئاً. جاء فرانسيس الـذي كان قد دخل الغرفة في لحظة ما، ووقف وراء بريت، وطوّق خصرها بذراعه، وقال لها: «تعالي الآن أيّتها الخنفساء الصغيرة، لنصعد إلى الطابق العلويّ»، وأخرجها من المطبخ.

عرفت ما الذي تقصده: إنَّ المحارب لا يعـدُّ محاربـاً حقيقيـاً إذا كـان يحـارب مـن وراء شاشة الكمبيوتر. صحيح أنَّ فكرة العمل السريّ في حركتنا هـي مـن بنـات أفكـار فرانسيس، وهي خطّة رائعة وماكرة - لكـنَّ بريـت عـلى حـقّ. فهنـاك فـرق كبـير بـين البهجة الفورية التي تأتي من توجيه ضربة قوية، والفخر المتأخّر الذي يأتي نتيجـة بـثّ الذعر عبر الإنترنت.

أخذت مفاتيح السيارة من على طاولة المطبخ. بعد لحظـات، كنـت أتجـوّل وسـط المدينة، بـالقرب مـن خـطّ السـكّة الحديديَّـة. فكَّـرت في أن أبحـث عـن عنـوان تلـك الممرّضة السوداء، فلديَّ الخبرة التكنولوجية التي تمكّنني من العثور عليـه في أقـلّ مـن دقيقتين، وهي المدّة التي يستغرقها رجـال الشرطـة لتوجيـه أصـابع الاتهـام إليَّ إذا مـا حدث لها شيء أو لممتلكاتها.

لكنّي ركنتُ سيَّارتي أسفل جسر سكَّة الحديد، وترجَّلت مـن السـيارة. بدأ قلبي يخفق بقوة، وارتفع الأدرينالين داخلي. مرّ زمن طويل لم أفعـل

فيه شيئاً كهذا، ونسيت كيف يمكنني أن أشعر، بعكس أيّ شيء قد يسـبّبه الكحـول أو الرياضة أو حتّى الوقوع في الحبّ.

كان أولَ من اعترض طريقي رجل فاقد الوعي، متشرّد، لم أعرف إن كان سـكراناً أم مخدّراً، نائماً فوق قطعة من الورق المقوّى تحت جبل مـن أكيـاس بلاسـتيكيَّة. لم يكـن أسود البشرة، وإنَّما كان... سهل المنال.

أمسكته من حنجرته. أخذ يرتجف من كابوس إلى آخر. «إلى ماذا تنظر؟» صرخـت في وجهه وأنا أمسك به من رقبته بقوّة، حتّى لا ينظـر إلى شيء سـواي، «مـا مشـكلتك بحقّ الجحيم؟»

ثمَّ نطحته برأسي على فمه، فخلعت أسنانه، ثمَّ رميته عـلى الرصـيف مـرة أخـرى، وسمعت صوت صدع عندما ارتطمت جمجمته بالرصيف.

مع كلّ ضربة وجَّهتها إليه، كنت أتنفّس براحة أكـبر. لم أفعـل ذلـك منـذ سـنوات، لكن بدا لي ذلك كأنَّه البارحة – تمتلك قبضتاي ذاكرة عضليَّة. رحت أكيل اللكـمات إلى وجه هذا الرجل الغريـب حتّـى أصـبح شخصـاً لا يمكـن التعـرّف إليـه بسـهولة، لأنهـا الطريقة الوحيدة ليتذكّر مَن أكون.

روث

حينما تكونين ممرّضة، فإنك تعرفين أكثر من أيّ شخص آخر أنَّ الحيـاة لا تتوقَّـف، وأنَّ هنـاك أيامـاً جيّـدة، وهنـاك أيامـاً سـيئة، وهنـاك مريضـات لا يفـارقن ذاكرتـك، وأخريات لا يمكنك أن تنتظري حتَّى نسيانهنَّ. لكـن، توجـد دائمـاً أمّ أخـرى في مرحلـة المخاض أو توشك أن تلد، تدفعك إلى الأمـام. هنـاك دائمـاً محصـول جديـد مـن الـبشر الصغار الذين لم يكتبوا حتّى الجملـة الأولى في قصـص حيـواتهم. في حقيقـة الأمـر، إنّ عمليّة الولادة أشبه بخط تجميع، تفاجئني دائمـاً عنـدما أضـطرّ إلى أن أتوقَّـف وأنظـر مرّتين - كما لو أنَّ طفلة ساعدتُ في ولادتها كما يبدو لي البارحة، تصبح فجأة مريضتي، وتريد أن تنجب طفلها. أو عندما يرنّ جرس الهاتف، وتسألني محاميـة المستشـفى إن كان بإمكاني أن أذهب إلى مكتبها لنتحدَّث.

لستُ متأكّدة أنَّ ثمَّة حديثاً كان قد دار بيني وبين كارلا لونغو من قبل. في الواقـع، لست متأكّدة إن كنت أعرف من هي محامية المستشفى - عفواً، مسـؤولة الاتصـال في إدارة المخاطر - اسمها كارلا لونغو. لكن حتّى في ذلك الوقت، لم أواجـه أيّ مشـكلة، لم أكن أشكّل خطراً تنبغي إدارته.

مضى أسبوعان على وفاة ديفيس بـاور - أربعـة عشر يومـاً وأنـا أذهـب إلى عمـلي وأؤدّي واجبي: أعلّق الحقن الوريديَّة، وأطلب إلى النسوة أن يضغطن بقوّة، وأعلّمهـنَّ كيف يجعلن المولود الجديد يتعلَّق بهنَّ. لكن الأهمّ من كلّ ذلك، مضـت أربـع عشرة ليلة وأنا أستيقظ مجفلة، لا أعيش موت ذلـك الرضـيع، وإنّمـا اللحظـات التـي سـبقت ذلك. أستعيدها في شريط يجري بحركة بطيئة، وأعيده وأمحو حواف مـا قيـل في رأسي حتّى أبدأ أصدِّق ما قلته لنفسي. وما قلته للآخرين.

وما قلته لكارلا لونغو عبر الهاتف عندما اتَّصلت بي.

«سأكون سعيدة بلقائك»، قلت لها، في حين كنت أقصد حقاً: هل أنا في ورطة؟

أجابت: «رائع. هل الساعة العاشرة وقت مناسب؟»

بما أنَّ ورديَّتي ستبدأ اليوم الساعة الحادية عشرة، قلت لها حسناً. وبينما كنت أسجّل رقم الطابق الذي يوجد فيه مكتبها، دخل إديسون المطبخ. مرَّ إلى جانبي وفتح الثلاجة، وتناول منها زجاجة عصير البرتقال. بدا لي أنّه سيشرب العصير من القنينة مباشرة، فرفعت حاجبي، لكن بدا أنَّه لم يستجب.

«روث؟»، قالت كارلا لونغو في أذني، «هل أنتِ هناك؟»

«نعم، آسفة».

«أراك في الموعد المحدّد إذاً؟»

«أتطلّع إلى ذلك»، قلت لها بزهوّ، وأغلقت الخطّ.

جلس إديسون ووضع كومة من الحبوب في الصحن، وسألني: «هل كنتِ تتحدَّثين إلى شخص أبيض؟»

«ما هذا السؤال؟»

هزَّ كتفيه بلا اكتراث، وصبّ الحليب في صحنه، ولفَّ جوابه حول الملعقة التي وضعها في فمه، ثمَّ قال: «صوتك بدأ يتغيّر».

كان جورب كارلا لونغو منسولاً. كان ينبغي لي أن أفكّر في أشياء عدَّة أخرى، بما في ذلك سبب هذه المقابلة، لكنّي رحت أركّز على النسل الممتدّ في جوربها، وقلت في نفسي، لو كانت واحدة أخرى - امرأة أعدّها صديقة - لأخبرتها همساً بالأمر كي أجنّبها أيّ شعور بالحرج.

مع أنَّ كارلا ظلّت تقول إنّها تقف إلى جانبي (هل يوجد جانبان؟) وإنَّ هذا ليس إلّا إجراء شكلياً، وجدت صعوبة كبيرة في تصديقها.

أمضيت العشرين دقيقة الماضية وأنا أحكي لها بالتفصيل كيف انتهى بي الأمر وحدي مع طفل باور في غرفة الحضانة، لكنَّ المحامية ظلّت تكرّر: «إذاً، طُلب إليك ألّا تلمسي الرضيع».

«نعم»، قلت لها للمرّة العشرين.

«ولم تلمسيه حتّى... كيف يمكنك التعبير عن ذلك؟» وهي تنقر بغطاء قلمها على الطاولة.

«حتّى طلبت إليَّ ماري، الممرّضة المسؤولة».

«وماذا قالت؟»

«طلبت إليَّ أن أضغط»، قلت وتنهّدت، «انظري، لقد دوّنت كلّ ذلك. لا يمكنني أن أخبرك أيّ شيء لم أخبرك به حتّى الآن. ومناوبتي توشك أن تبدأ، فهل انتهينا هنا؟»

مالت المحامية إلى الأمام؛ مرفقاها متوازنان فوق ركبتيها، وسألتني: «هل حدث أيّ تواصل بينك وبين الوالدين؟»

«قليلاً. قبل أن أُمنع من رعاية الطفل».

«هل كنتِ غاضبة؟»

«عفواً؟»

«هل كنتِ غاضبة؟ أقصد، بقيتِ تقدّمين الرعاية للطفل بعد أن طُلب إليك ألّا تفعلي ذلك؟».

«كان لدينا نقص في عدد الممرّضات. كنت أعرف أنَّ كورين، أو ماري، ستأتي لتتسلَّم منّي»، أجبتها، لكنّي سرعان ما أدركت أنّني لم أجب عن سؤالها، «لم أكن غاضبة».

فقالت المحامية: «لكنَّ الدكتورة أتكنز قالت إنّك قلت شيئاً يتعلَّق بتعقيم الطفل».

سقط فكّي. «هل تحدَّثتِ إلى طبيبة الأطفال؟»

فقالت: «عملي يستدعي أن أتحدّث إلى الجميع».

نظرتُ إليها، وقلت: «كان من الواضح أنَّ الوالـدين يعتقـدان أننـي ملوثـة. كانـت مجرد مزحة غبية»، مزحة لا تعني شيئاً على الإطلاق، لو لم تحدث الأمور الأخـرى. إذا. إذا. إذا.

«هل كانت عينك على الطفل؟ هل كنت تنظرين إليه؟»

تردَّدتُ، حتَّى في هذا التناقض، شعرت أنَّ هذه هي النقطة الأساس، اللحظـة التـي سأتذكَّر فيها كلَّ شيء بالتفصيل. لا يمكنني أن أقول للمحامية إنّنـي لم أنفّـذ تعلـيمات ماري، لأنّ ذلك قد يكلّفني وظيفتي، لكن لا يمكنني أن أخبرها بأنّني حاولت أن أنعش الرضيع، لأنّ هذه التعليمات ستبدو فجأة شرعيَّة.

منذ أن لمست ذلك الطفل، ومات.

«كان الطفل بخير؟» قلت بحرص، «ثمَّ سمعته يلهث».

«ما الذي فعلته؟»

نظرت إلى كارلا لونغو، وقلت لها: «لقد اتبعت التعليمات. طُلـب إليَّ ألّا أفعـل أيّ شيء، فلم أفعل»، تردّدت، ثمّ قلت: «كما تعرفين، ربّما نظرت ممرّضة أخرى، لو كانـت في مكاني، إلى تلك الملاحظة في ملفّ الطفل ووجدتها... متحيّزة».

عرفتُ ما ألمحتْ إليه: يمكنني أن أرفع دعوى عـلى المستشـفى بتهمـة التمييـز، أو أنَّني أردتها أن تفكّـر، في الأقـلّ، في أنّنـي أسـتطيع أن أفعـل ذلـك، مـع أنّ عمـل ذلـك سيكلّفني نقوداً لا أملكها لقاء أجور محام، بالإضافة إلى صداقاتي ووظيفتي.

فقالت كارلا بسلاسة: «بطبيعة الحال، إنّنا لا نريد ذلك في فريق العمـل لدينا»، بمعنى آخر: استمرّي في التهديد بمقاضاة المستشفى، وتصبح حياتـك

المهنية هنا مجرد تاريخ. دوَّنت شيئاً ما في دفتر ملاحظاتها الجلديّ الأسود الصـغير، ثـمّ وقفت وقالت: «حسناً، شكراً للوقت الذي أمضيتِه هنا».

«لا توجد مشكلة. تعرفين أين تجدينني».

«أوه، نعم»، قالت، وظللتُ طوال الطريق، وأنا عائدة إلى جناح الولادة، أحـاول أن أتخلَّص من الشعور بأنَّ هاتين الكلمتين البسيطتين قد تشكّلان تهديداً.

لكن، لَمَّا عدت إلى الطابق الذي أعمل فيه، لم يكن لديَّ وقت لأن أتخـبّط في بحـر عدم الثقة بنفسي، فقد رأتني ماري أخـرج مـن المصـعد، فأمسـكت بـذراعي بارتيـاح، وقالت: «روث، أعرّفك إلى فيرجينيا. فيرجينيا، هذه روث، إحدى أكثر الممرّضات خبرة في قسم التوليد في المستشفى».

نظرتُ إلى المرأة الواقفة أمامي بعينين واسعتين عندما راحت تنظر إلى عربة تُـدفع إلى قسم الولادة القيصريَّة. كـان هـذا كـلّ مـا أحتـاج كي أفهـم مـا الـذي يجـري هنـا. «فيرجينيا»، قلت بهدوء، «يوجد لدى ماري عمل كثير الآن، فلماذا لا تساعدينني؟»

نظـرت مـاري بصـمت نظـرة تشي بالشـكر، وجـرت وراء العربـة، ثـمَّ التفـتّ إلى فيرجينيا، «إذاً، طالبة غير تقليديَّة؟»

بعكس معظم طالبـات التمـريض الـلاتي تشـبه وجـوههنَّ وجـوه الأطفـال، كانـت فيرجينيا في الثلاثينات من عمرها. «بداية متأخّرة»، قالـت مـفسّرة، «أو مبكـرة، وذلـك بحسب ما تنظرين إليها. كان أطفالي صغاراً، وأردت أن يخرجوا من المنزل قبل أن أبدأ حياتي المهنيَّة. ربّما تقولين إنّني مجنونة لأنّني عدت إلى المدرسة وأنا في هذا العمر».

فقلت لها: «أن تأتي متأخّراً أفضل من ألّا تأتي أبداً».

ثمَّ أضفت: «سنتولّى مسـؤوليّة غـرفتين؛ في إحـداهما أمّ مصـابة بسـكّري الحمل، ولدت صباح اليوم، ويحتاج طفلها إلى سـكّر كـلّ ثـلاث سـاعات؛ وفي

الغرفة الأخرى امرأة في حالة مخاض وقد أنجبت طفلاً من قبل، ففي الأقلّ لديها تجربة الولادة من قبل. ما عليك إلّا أن تنفّذي تعليماتي».

ثمَّ دخلنا الغرفة. «مرحباً، سيّدة براونشتاين»، قلت للمريضة التي تمسك بيد شريكها بقوّة، «سمعت أنّك جئت قبل الآن. اسمي روث وهذه فيرجينيا. فيرجينيا، يبدو أنَّ بإمكان السيد براونشتاين أن يجلس على كرسيّ هنا. هل يمكنك أن تقرّبي كرسياً؟» بقيتُ أتكلّم بهدوء وأنا أفحص بطنها، «كلّ شيء يبدو في حالة جيّدة».

لَمَّا قالت المرأة: «لا أشعر أنَّني في حالة جيّدة»، قلت لها بهدوء: «يمكننا أن نهتمَّ بذلك».

التفتت السيّدة براونشتاين إلى فيرجينيا وقالت: «أريد أن ألد في الماء».

هزّت فيرجينيا رأسها بتردّد، وقالت: «حسناً».

قلت: «بعد أن نراقبك لمدّة عشرين دقيقة أو قرابة ذلك، سنرى كيف هي حال الطفل، فإذا كان ذلك ممكناً، فمن المؤكد أننا سنضعك في حوض الاستحمام».

ثمَّ أضافت السيّدة براونشتاين: «والشيء الآخر أنّنا لا نريد ختاناً، إذا كان صبياً، لأنّنا سنقيم حفل ختان خاصّ بنا».

قلت لها: «لا توجد مشكلة. سأدوّن هذه الملاحظة في الملفّ».

قالت: «لَمَّا أنجبت إيلي تقيَّأت، وأشعر الآن بالغثيان...»

مددت يدي إلى وعاء التقيؤ ومرّرته إلى فيرجينيا.

«دعينا نرَ إن كان بإمكاننا أن نفحصك قبل أن يحدث ذلك»، قلت لها، ووضعت في يديَّ قفّازين مطاطيين، وسحبت الملاءة أسفل السرير.

التفتت السيّدة براونشتاين إلى فيرجينيا، وسألتها: «هل أنت متأكّدة أنّها فكرة جيّدة؟»

«ممممم»، والتفتت إليَّ، «نعم؟»

خفضتُ الملاءة وقلت: «سيدة براونشتاين، إنَّ فيرجينيا طالبة تمريض، وأنا أعمل هنا منذ عشرين سنة. إذا أردتِ، أنا متأكدة أنَّها ستكون سعيدة لأن تضيف إلى معلوماتها كم سنتمتراً بلغ حجم التوسّع لديك. لكن، إذا كنتِ تشعرين بعدم الارتياح، وتريدين إنهاء ذلك، فإنّي سأكون سعيدة لعمل ذلك».

«أوه»، امتقع لون وجه المريضة، «كنت أظنّ...»

... أنَّها الممرّضة المسؤولة، ومع أنّ فيرجينيا تصغرني بعشر سنوات، فإنَّ بشرتها بيضاء.

أخذتُ نَفَساً عميقاً كما أطلب عادة من المريضات اللاتي سيصبحن أمَّهات، كي أتخلَّص - مثلهنّ – من شعوري بالاستياء. وضعت يدي بلطف على ركبة السيدة براونشتاين، وابتسمت لها ابتسامة مهنيَّة، وقلت: «لنبدأ بإخراج الطفل الآن».

لا تزال أمّي تعمل في منزل مينا هالويل المشيّد من الحجر البنيّ في مانهاتن. ومنذ أن توفّي السيّد سام، أصبحت أمّي تساعد السيدة مينا، وانتقلت ابنتها كريستينا إلى بيت في مكان قريب، وأصبحت لها حياتها الخاصّة. أمّا ابنها لويس، فيعيش مع زوجته في لندن، ويعمل مدير إحدى الشركات وسط لندن. من الواضح أنّني الشخص الوحيد الذي يرى أنّ من المضحك أنّ أمّي تساعد مينا التي تكبرها بثلاث سنوات. وكلّما طلبت إلى أمّي أن تتقاعد وتتوقَّف عن العمل، تجاهلتني وقالت إنّ أسرة هالويل لا تزال في حاجة إلى خدماتها. يمكنني القول إنَّ أمّي في حاجة إلى أسرة هالويل بقدر ما تحتاج إليها الأسرة نفسها، وربّما تشعر بأنَّه لا يزال لديها هدف في الحياة.

تأخذ أمّي عطلتها يوم الأحد، وبما أنّني أكون نائمة عادة في ذلك اليوم بعد مناوبة طويلة ليلة يوم السبت، كنت أذهب وأزورها في بيت السيّدة مينا، لكنَّ زياراتي لها قليلة جداً. كنت أسوّغ ذلك لنفسي وأقول إنَّ ذلك

يُعزى إلى انشغالي في المستشفى أو مع ابني إديسون، أو لألف سبب وسبب. لكن، في واقع الأمر، إنّي لا أزورها كثيراً لأنّ قطعة صغيرة منّي تموت كلّما جئت إلى هذا البيت ورأيت أمّي ترتدي ذلك الرداء الأزرق غير الأنيق، وتلفّ مئزراً أبيض حول خصرها. كنت أظنّ أنّ السيدة مينا ستطلب إلى أمّي، بعد كلّ هذا الوقت، أن ترتدي ثياباً كما تحبّ هي، لكن لم يحدث ذلك. ربّما، لهذا السبب أدخل من المدخل الرئيس عندما أزورها، حيث يقف البوَّاب، ولا أستخدم مصعد الخدم خلف المبنى. ثمَّة جزء منحرف فيَّ يحبّ أن يعرف أنه سيُعلن عن قدومي مثل أيِّ ضيف آخر، وأن يُسجَّل اسم ابنة الخادمة في سجلّ الزوّار.

لَمَّا استقبلتني أمّي اليوم، ضمّتني إليها، وعانقتني بقوّة، وقالت: «روث، إن لم تكن هذه أفضل مفاجأة، فلقد عرفت الآن لماذا سيكون اليوم يوماً جيداً».

فقلت: «حقاً؟ لماذا؟»

«ارتديت معطفي الثقيل اليوم لأنَّ الطقس بدأ يتغيّر فوجدت في جيبه عشرين دولاراً بقيت منذ الخريف الماضي، وقلت لنفسي إمّا أنَّها فأل حسن، وإمَّا أنَّها بداية الزهايمر»، قالت وهي تبتسم، «لكنّي اخترت الأول».

أحبّ أن أرى كيف أنَّ تجاعيدها تحيط بابتسامتها. أحبّ أن أرى كيف سيظهر العمر على وجهي ذات يوم.

«هل حفيدي حبيبي هنا أيضاً؟» سألتني وهي تنظر خلفي إلى البهو، «ألم تحضريه معك؟»

«لا، ماما، إنّه في المدرسة الآن. يجب أن تكتفي بي وحدي».

«أنت وحدك»، قالت منزعجة، «كما لو أنّ ذلك لم يكن كافياً». أغلقت الباب وراءها وبدأت أفكّ أزرار معطفي. مدّت يدها لتأخذه، لكنّي علّقته بنفسي على مشجب في الخزانة. آخر شيء يمكنني فعله هو أن تقوم أمّي

على خدمتي أيضاً. وضعت معطفي إلى جانب معطفها، وكما اعتدت، مرَّرت يدي على وشاح أمّي الناعم قبل أن أغلق باب الخزانة.

سألتها: «أين السيّدة مينا؟»

فقالت: «ذهبت تتسوَّق مع كريستينا والطفل».

«لا أريد أن أقاطعك إذا كنتِ مشغولة...»

«لديَّ الوقت كلّه لك يا حبيبتي. تعالي إلى غرفة الطعام. إنّي أنظّف هنا قليلاً». بدأت تعمل أسفل البهو، ورحت أتبعها، ولاحظت كيف أنّها تركّز على استخدام ركبتها اليمنى لأنّ ركبتها اليسرى مصابة بالتهاب.

كانت تكسو طاولة غرفة الطعام ملاءة بيضاء، تتدلّى فوقها خيوط الكريستال التي تشكّل الثريا الضخمة مثل آثار دموع. في الوسط، يوجد وعاء فيه محلول الأمونيا تفوح منه رائحة لاذعة. جلست أمّي وواصلت عملها، وراحت تمسح كلَّ خيط، ثمَّ تتركه يجفّ في الهواء.

«كيف أنزلتِها؟» سألتها وأنا أنظر إلى الثريا.

«بحذر»، أجابت أمي.

فكّرت كيف يمكنها أن توازن نفسها وهي واقفة على الطاولة أو على الكرسيّ، وقلت لها: «من الخطر عليك كثيراً أن تفعلي هذه الأشياء بعد الآن...»

لوَّحت لي بيدها، وقالت: «إنّي أفعل ذلك منذ خمسين سنة. أستطيع أن أنظّف الكريستال وأنا في غيبوبة».

«حسناً، لا تتوقَّفي عن الصعود لإنزالها من الثريا، وقد تحصلين على ما ترغبين»، قلت لها عابسة، «هل ذهبت إلى طبيب العظام الذي أعطيتك اسمه؟»

«روث، توقَّفي عن حسباني طفلتك»، وبدأت تملأ الفراغ بيننا بالسؤال عن الدرجات التي حصل عليها إديسون. وقالت إن أديسا قلقة لأنّ ابنتها البالغة من العمر ستَّة عشر عاماً توقّفت عن الذهاب إلى المدرسة الثانوية (لم تذكر لي

أديسا ذلك عندما كنّا في صالون تقليم الأظافر). وخلال حديثنا، كنت أساعدها في رفع خيوط الكريستال فأغمرها في محلـول الأمونيـا، وأشـعر بالسـائل يحـرق بشرتي، وكـان الكبرياء - أكثر مرارة - يحرق مؤخّرة حلقي.

لَمَّا كنَّا، أنا وأختي، صغيرتين، كانت أمّي تحضرنا معها إلى هنا أيّـام السـبت. كانـت تعدُّ ذلك شيئاً كبيراً، امتيازاً – فلا يكون سلوك جميـع الأطفـال جيـداً عنـدما يرافقـون أحد أبويهم إلى مكـان العمـل. إذا أحسـنت الـتصرّف، يمكنـك أن تضـغطي عـلى الـزرّ الموجود على الناقل الذي ينقل الصحون من غرفة الطعام إلى المطبخ، لكنَّ الشيء الذي بدأ شيئاً ممتعاً سرعان ما أصبح مصـدر تـوتّر لي. صـحيح أنّنـا كنّـا نلعـب أحيانـاً مـع كريستينا، وبألعابها الباربي، لكن عندما تأتي إحدى صديقاتها، كانـت تطلـب إلينـا، أنـا وراشيل، أن نذهب إلى المطبخ أو إلى غرفـة الغسـل لترينـا أمّـي كيـف نكـوي الأكـمام والياقات. ولَمَّا بلغت العاشرة، تمرَّدتُ أخيراً. «ربَّما تقبلين ذلك، لكنّي لا أريـد أن أصـبح خادمة لدى السيدة مينا»، قلـت لأمّـي بصـوت مرتفـع ليسـمعه آخـرون، فصـفعتني، وقالت مصحّحة ما قلته: «لا يمكنك أن تستخدمي هذه الكلمة لوصـف عمـل شريـف بأجر، العمل الذي يضع تلك السترة على ظهرك، وذلك الحذاء في قدميك».

الشيء الذي لم أدركه في ذلك الوقت هو أنّ لتدريبنا المهنيّ هدفاً أسمى. فقـد كنّـا نـتعلّم طـوال الوقـت - كيـف نرتّـب الأسرَّة في المستشـفى، وكيـف نزيـل البقـع عـن الجدران، وكيف نصنع الحساء. كانت أمّي تعلّمنا طوال الوقت أن نعتمد عـلى أنفسـنا كي لا نصبح مثل السيّدة مينا، لا نستطيع أن نفعل الأشياء بأنفسنا.

لَمَّا انتهينا من تنظيف قطع الكريستال، وقفتُ عـلى كـرسيّ، في حـين راحـت أمّـي تناولني القطعة تلو الأخرى لأعلّقها في الثريا. كانت جميلة جداً، ولَمَّا أوشكنا أن ننتهي، قالت أمّي: «إذاً، هل ستقولين لي ما المشكلة، أو يجب أن أكتشف ذلك بنفسي؟»

«لا توجد مشكلة. لقد اشتقت إليك، هذا كلّ شيء».

هذا صحيح، فقد جئت إلى مانهاتن لأنّني أريد أن أراها. أردت أن أذهب إلى مكان أعرف أنّني سأكون فيه موضع تقدير.

«ماذا حدث في العمل يا روث؟»

لَمَّا كنتُ طفلة، كان حدس أمّي قويّاً، واستغرقت سنوات عدَّة حتّى أدركت أنّها لم تكن بصَّارة تقرأ المستقبل. لم تكن تعرف المستقبل، وإنّما كانت تعرفني جيّداً.

«لا تتوقَّفين عادة عن التحدّث عن إنجاب ثلاثة توائم أو عن والد زوجة وجَّه لكمة إلى وجه أب جديد في غرفة الانتظار. أمّا اليوم، فلم تذكري لي شيئاً عن المستشفى على الإطلاق».

نزلت عن الكرسيّ وطويت ذراعيَّ. إنَّ أفضل الأكاذيب هي تلك التي تلتفّ حول جوهر الحقيقة. لذلك، مع أنّني لم أذكر شيئاً عن تورك باور والطفل الذي مات، أو عن كارلا لونغو، حكيت لأمّي عن طالبة التمريض والمريضة التي افترضت بسهولة أنّها هي المسؤولة ولست أنا. تدفّقت الكلمات مثل شلّال، بقوّة أكبر ممَّا أتوقَّع. لَمَّا انتهيت من حكاية القصَّة، كنَّا نجلس في المطبخ، وقد وضعت أمّي كوب الشاي أمامي.

زمَّت أمّي شفتيها، كما لو أنّها تزن الدليل، وقالت: «ربّما تخيّلتِ ذلك».

تساءلتُ إن كان هذا هو السبب الذي يجعلني أتصرَّف هكذا، السبب الذي يجعلني أنحو إلى أن أقدّم أعذاراً للجميع إلَّا لنفسي، وأبذل جهداً كبيراً لأن أتلاءم بسلاسة، فقد كانت أمّي أنموذجاً لهذا السلوك منذ سنوات.

لكن، ماذا لو كانت محقّة؟ هل إنّني أبالغ في ردّة فعلي؟ فكَّرت في الأمر مليّاً. إنّها ليست مثل حادثة تورك باور، لأنّ السيدة براونشتاين لم تذكر حتى لون بشرتي. ماذا لو كانت أمّي على صواب وأنني شديدة الحساسية؟ ماذا لو أنني أختلق الافتراض بأنَّ المريضة قالت ذلك لأنَّ

فيرجينيا بيضاء وأنا لست كذلك؟ ألا يجعلني ذلك الشخص الذي لا يستطيع أن يرى أبعد من مسألة العِرق؟

تردَّد صوت أديسا في رأسي بوضوح شديد: هذا ما يريدونه، أن تشكّي في نفسك. طالما أنَّهم يستطيعون أن يجعلوك تعتقدين أنَّك لست جديرة، فإنَّهم لا يزالون يقيِّدونك بالسلاسل.

قالت أمّي: «أنا متيقّنة أنَّ السيّدة لم تقصد شيئاً عندما قالت ذلك».

لكنَّ ذلك لم يجعلني أشعر بأنني أصغر.

لم أقلها بصوت مسموع، لكنّي فكّرت فيها، وأرسلت هذه الفكرة رعشة في أسفل ظهري. هذه ليست أنا. إنّي لا أتَّهم أحداً. لا أظنّ أنَّ معظم البيض يحكمون عليَّ لأنَّني سوداء أو لأنَّهم يظنّون أنَّهم يتفوَّقون عليَّ. إنّي لا أطوف العالم أبحث عن مشاجرة. كنت قد تركت ذلك لأديسا. أمَّا أنا، فإنّي أبذل قصارى جهدي لأطير تحت الرادار. بالطبع، أعرف أنَّ العنصريَّة قائمة، وأنَّ أشخاصاً مثل تورك باور يلوّحون بها، لكنّي لا أحكم على جميع البيض من خلال أعمال تاريخيَّة قامت بها حفنة من الناس.

أو بالأحرى، لم أفعل ذلك من قبل.

يبدو أنَّ تلك القصاصة الصغيرة الملصقة على ملفّ المريض ديفيس باور قد أصابت شرياناً حيوياً داخلي، ولا أعرف كيف يمكنني أن أوقف النزيف.

بغتة، سمعنا صوت خشخشة مفاتيح وصخباً عندما عادت السيدة مينا وابنتها وحفيدها. هرعت أمّي إلى الردهة لتأخذ معاطفهم وأكياس التسوّق منهم، وتبعتها. اتسعت عينا كريستينا عندما رأتني وألقت ذراعيها حولي، في حين راحت أمّي تساعد في خلع سترة الثلج لابنها فيليكس البالغ من العمر أربع سنوات. ثمَّ صاحت: «روث، هذا هو القدر. ماما، ألم أحدّثك منذ قليل عن ابن روث؟»

رفعت السيدة مينا عينيها إليَّ، وقالت: «نعم، صحيح، عزيزتي روث، ألست جميلة. لا توجد تجعيدة واحدة في بشرتك. أقسم إنّك لا تكبرين في السنّ».

مرّة أخرى، تردَّد صدى صوت أديسا في رأسي: الأسود لا يُكسر. قويّ جداً. أخمدتُ هذا الصوت وعانقت السيدة مينا، ضئيلة الحجم، برفق، وقلت لها: «وأنتِ كذلك يا سيّدة مينا».

«هيّا، استمرّي في الكذب عليَّ»، وتظاهرت بأنّها لم تعبأ بكلماتي، ثمّ ابتسمت بمكر، وأضافت: «لا، بجد، أكملي. أحبّ أن أسمع الجميع يقولون ذلك».

حاولت أن أرسل إلى أمّي الإشارة، وقلت: «ربّما ينبغي لي أن أذهب...»

«لا تقطعي زيارتك لأننا جئنا»، قالت السيدة مينا، وأخذت فليكس من ذراعَي أمّي، «ابقي كما تشائين»، والتفتت إلى أمّي، وقالت: «لو، سنتناول الشاي في الغرفة الذهبيَّة».

أمسكت كريستينا بيدي، وقالت: «تعالي معي»، وصعدنا الدرج إلى غرفة النوم التي كنَّا نلعب فيها.

كانت غرفة ممتلئة بأشياء كثيرة مختلفة، لا تزال فيها قطع الأثاث عينها، التي كانت موجودة عندما كانت صغيرة، لكن، أصبح هناك سرير ومجموعة من اللُّعب المتناثرة على الأرض. لَمَّا دستُ فوق شيء، كدت أتعثّر به، أدارت كريستينا عينيها، وقالت: «يا إلهي! إنّها لُعب فليكس. أليس من الجنون إنفاق مئات الدولارات على أشياء مصنوعة من البلاستيك؟ لكنّك تعرفين فليكس، فهو يحبّ ألعاب القراصنة».

انحنيت ورحت أتفحَّص السفينة المتشابكة، في حين راحت كريستينا تبحث في الخزانة. يوجد قبطان في معطف أحمر وقبَّعة سوداء عليها ريش، وثمَّة قراصنة عديدون متشابكين في شبكة بلاستيكيَّة، وعلى ظهر السفينة قرصان من البلاستيك لونه برتقاليّ وبنيّ، يلتفّ حول رقبته طوق فضيّ صغير.

يا إلهي! هل يفترض أن يكون هذا عبداً؟

نعم، هذا دقيق من الناحية التاريخيَّة، لكن لا يـزال لعبـة. لمـاذا هـذا الجـزء مـن الماضي؟ ماذا أيضـاً - مجموعـة لُعـب في معسـكر اعتقـال أسرى حـرب يابـانيين؟ درب الدموع ليغو؟ لعبة سالم لمطاردة الساحرات؟

«أردت أن أخبرك قبل أن تقرئيها في الصـحيفة»، قالـت كريسـتينا، «يفكّـر لاري في الترشّح ليصبح عضواً في الكونغرس».

فأجبتها: «رائع، ما رأيك أنتِ؟»

ضمَّتني إليها، وقالت: «شكراً. هل تعرفين أنّك أوّل صديقة أخبرها بذلك ولا تقـول إنّ هذه هي الخطوة الأولى إلى البيت الأبـيض أو يقولـون إننـا يجـب أن نحصـل عـلى بيت في بيثيسدا أو أرلينغتون؟ أنت أول شخص يقول إنَّه قد يكون لـديَّ رأي في هـذه المسألة».

«حسناً، أليس كذلك؟ يبدو أنَّ ذلك يسبّب اضطراباً كبيراً لجميع أفراد الأسرة».

«نعم»، قالت كريستينا، «لستُ متأكّدة أنَّنـي أمتلـك الشـجاعة لأن أصـبح زوجـة سياسيّ».

ضحكت وقلت: «لديك الجرأة والشجاعة لتديري البلد كلّه».

«هذا تماماً ما أعنيه. يبدو أنّني يجب أن أنسى أنّني تخرَّجت بمرتبة الشرف، وأقف بدلاً من ذلك، أحمل ابني الجميل وأبتسم للطيف، كأنَّها الفكرة الوحيدة التي يمكننـي أن أحتفظ بها في رأسي، وهـي: مـا لـون أحمـر الشـفاه الـذي يتناسـب مـع بلـوزتي؟»، تنهّدت كريستينا، وأضافت، «عديني بشيء؟ إذا قصصت شعري ورفعته في شكل يشبه الخوذة، فهل ستقتلينني قتلاً رحيماً؟»

أترين، قلت لنفسي، هذا دليل. لقـد عرفـت كريسـتينا طـوال حيـاتي. ونعم، ربّما توجد فروق بيننا – اجتماعيّة واقتصاديّة، وسياسيّة، وعرقيّة -

لكن هذا لا يعني أنّنا لا نستطيع أن نتواصل، إنساناً لإنسان، صديقة لصديقة.

قلت: «يبدو أنّك قد اتّخذت قرارك توّاً».

نظرت كريستينا إليَّ، بيأس، وقالت: «لا أستطيع أن أقول له لا. لهذا السبب أحببته في المقام الأول».

«أعرف»، قلت لها، «لكن من الممكن أن يكون الأمر أسوأ».

«كيف؟»

فقلت: «يخدم أعضاء الكونغرس مدَّة سنتين فقط. سنتان تمضيان في طرفة عين. تصوّري لو أنَّه أراد أن يصبح عضواً في مجلس الشيوخ!».

ارتجفت كريستينا، ثمَّ ابتسمت ابتسامة عريضة، وقالت: «إذا تمكَّن من الوصول إلى البيت الأبيض، فسأعيّنك رئيسة الموظّفين».

«أو ربّما الجرَّاح العامّ للرئيس».

شبكت كريستينا ذراعها في ذراعي وعدنا إلى الغرفة الذهبيَّة حيث كانت أمّي تضع صينية من الخزف الصينيّ وإبريق شاي، وطبقاً ممتلئاً بكعك لوز بيتيّ صنعته بيديها. كان فليكس جالساً على الأرض يلعب بقطار خشبيّ.

«مممم، يا لو، منذ زمن أحلم بمثل هذه الكعكات»، قالت كريستينا وعانقت أمّي قبل أن تتناول واحدة منها، وأضافت، «إنّنا محظوظون جدّاً لأنّك جزء من أسرتنا».

الأسرة لا تتقاضى أجراً، قلت في نفسي.

ابتسمت. لكن مثل ثوب ترتديه لا يناسبك، لكنَّه ضيّق عليك.

في أحد أيام السبت، التي كنا نذهب فيها مع أمّي، بينما كنت ألعب لعبة الغميضة مع كريستينا وراشيل، دخلت خطأً غرفة يحظر علينا أن

نقترب منها، غرفة مكتب السيد هالويل، التي تكون عـادة مغلقـة، لكـن عنـدما أدرت مقبض الباب لأختبئ من صيحات كريسـتينا التـي كانـت تقـول: «جـاهزة أم لا؟ لقـد أتيت...»، وجدت نفسي أتعثَّر داخل الحرم السرّيّ.

أمضينا أنا وراشيل وقتاً طويلاً نتخيّل ما يقبـع وراء ذلـك البـاب المغلـق. إذ كانـت راشيل تظنّ أنّه مختبر ممتلئ بأجزاء أجساد موضوعة في الخلّ، أمّا أنا فكنت أظـنّ أنّ فيها حلوى، لأنّ الحلوى كانت في ذهني البالغ من العمر سبع سنوات، أثمن شيء يمكن أن يُخبّأ في غرفة مقفلة. لكن، لَمَّا جثوت على يديَّ وركبتيَّ عـلى السـجّادة الشرقيَّـة في مكتب السيّد هالويل، كانت الحقيقة مخيبة للآمال تماماً: فقد كانت فيهـا أريكـة مـن الجلد، ورفوف كثيرة تشبه عجلات فضيّة، وشاشة أفلام نقالة، وكان سام هالويل نفسه يثبّت ثقوب الفيلم في أسنان جهاز العرض.

كنت أرى السيد هالويل دائماً بأنه نجم سينمائيّ، وكانت أمّي تؤكّد صحّة ذلك. لَمَّا التفت وأخذ يحدّق إليَّ، حاولت أن أجد عذراً أسـوّغ فيـه سـبب انتهـاكي حرمـة هـذه المنطقة المحظورة، لكنَّ عينيَّ تركَّزتا على الصورة المحبَّبة على الشاشة، التي يظهر فيهـا تينكر بل وهو يطلق الألعاب النارية فوق القلعة.

قال: «هذا كلّ ما تعرفينه»، وشعرت أنّ كلامه مضحك، وكلماته غـير واضـحة. لَـمَّا رفع كأس الماء إلى فمه، وسمعت قرقعة مكعّبات الـثلج، قـال: «لا توجـد لـديك فكـرة كيف يكون الأمر عندما ترين العالم يتغيّر أمام عينيك».

ظهر على الشاشة رجل لا أعرفه، يقول: «اللون يضيء الأشياء ويجعلها برّاقة، أليس كذلك؟» في حين امتلأ جدار من الصور بالأبيض والأسود خلفه بكلّ ظلال قوس قزح.

«كان والت ديزني عبقريّاً»، قال السيد هالويـل، وجلـس عـلى الأريكـة، وربَّت على المقعد جانبه، فجلست. بطّة من الرسوم المتحرّكة تضـع نظّـارة

وتتكلّم بلهجة ثقيلة، تضع يدها في علب طلاء وتلقي بمحتوياتها على الأرض، وتمزجها كلّها معاً حتّى تصبح عجينة كالطين... ثمّ قالت البطّة ذات الزعانف، وهي تحرّك الطلاء بقدمها حتّى أصبح لونها أسود، هكذا كانت الأشياء في بداية الزمن. أسود. كان الإنسان في الظلام فيما يتعلّق باللون. لماذا؟ لأنّه كان غبياً.

اقترب السيّد هالويل منّي كثيراً حتّى بدأت أشمّ أنفاسه - حامضة، مثل رائحة عمّي إسيبا الذي لم يحضر عيد الميلاد السنة الماضية لأنّ أمّي قالت إنّه ذهب إلى مكان ما ليتوقّف عن شرب الخمر. «كريستينا ولويس وأنت وأختك لا تميّزون ذلك. يبدو الأمر لكم هكذا دائماً». ثمّ وقف فجأة والتفت إليَّ فأظهر جهاز العرض ظلّ وجهه، رقصة من الصور الظليلة الساطعة. «سيُقدَّم البرنامج التالي بألوان حيّة عبر قناة NBC»، قال وفتح ذراعيه فانقلبت كأسه إلى الجانب، وانسكب السائل على السجّادة. ثمّ سألني: «ما رأيك يا روث؟»

أردته أن يتحرَّك قليلاً لأرى ما الذي ستفعله البطّة بعد ذلك.

ازداد صوت السيد هالويل هدوءاً، وقال: «كنت أقول ذلك قبل بدء كلّ برنامج حتّى أصبح التلفاز الملوّن شائعاً جداً، ولم يعد أحد في حاجة إلى تذكيره بأنّها معجزة. لكن، قبل ذلك - قبل ذلك - كنت صوت المستقبل. أنا. سام هالويل. سيُقدّم لكم البرنامج التالي بالألوان الحيّة عبر شاشة NBC».

لم أطلب إليه أن ينزاح قليلاً لأتمكَّن من رؤية فيلم الرسوم المتحرّكة. جلستُ ويداي في حضني لأنّني أعرف أنّه عندما يتحدّث الناس أحياناً، فإنّهم لا يتحدَّثون لأنّ لديهم شيئاً يقولونه، وإنّما لأنَّهم في حاجة ماسَّة إلى أن يستمع إليهم أحد ما.

في وقت متأخّر من تلك الليلة، بعد أن عدنا إلى البيت ووضعتنا أمّي في سريرنا، رأيت كابوساً. فتحتُ عينيَّ ورأيت كلّ شيء في ظلال رماديّة اللون،

مثل الرجل الذي ظهر على شاشة السينما قبل أن يصبحورديّ اللون وتتفجّـر الخلفيّـة بالألوان. رأيت نفسي أركض في المنزل المشيّد من الحجر البنيّ، أفـتح الأبـواب المغلقـة، حتّى فتحت غرفة مكتب السيد هالويل. كان الفيلم الذي نشاهده ينبعث مـن جهـاز العرض، لكن الصورة كانت بالأبيض والأسود أيضاً. بدأت أصرخ، فاندفعت أمّي وراشيل والسيّدة مينا وكريستينا، حتّـى السـيد هالويـل، إليَّ، لكـن لَـمَّا قلـت لهـم إنّ عينـيَّ لم تعودا تريان، وإنَّ كلَّ الألوان في العالم تلاشت، ضحكوا عليَّ، وقالوا: روث، هكذا كانـت الحال دائماً، وستظلُّ دائماً.

لَمَّا عدت بالقطار إلى نيو - هافن، كان إديسون جالساً محنياً فوق طاولـة المطـبخ يؤدّي واجباته المدرسيَّة. لَمَّا دخلت، قلـت لـه: «مرحباً حبيبـي»، وقبّلتـه عـلى رأسـه، وقبّلته مرّة أخرى، وقلت له: «هذه القبلة من جدّتك لو».

«ألا يُفترض بك أن تكوني الآن في المستشفى؟»

«لديَّ فترة نصف ساعة قبل أن تبدأ ورديَّتي، فقرّرت أن أمضيها معك بدلاً مـن أن أمضيها في زحمة المرور».

نظر إليَّ وقال: «ستتأخّرين».

فقلت له: «إنّك تستحقّ ذلك». تناولت تفّاحة مـن الطبـق عـلى طاولـة المطـبخ - أحتفظ دائماً بشيء صحيّ لأنّ إديسون يأكل أيَّ شيء يـراه - وقضـمتها، ومـددت يـدي إلى بعض الأوراق المتناثرة أمام ابني.

قرأت عبارة: «هنري أو فلبير». قلت له: «يبدو مثل جنيّ».

«كـان أوّل أمـريكيّ مـن أصـل أفريقـيّ تخـرَّج في الأكاديميّـة العسـكريّة (ويسـت بوينت). يجب على كلّ طالب يدرس التاريخ الأمريكيّ أن يقدّم فصلاً عن بطل أمريكيّ، وأحاول أن أعرف ما يمكنني أن أقدِّم».

«ومن هو الشخص الآخر؟»

رفع إديسون عينيه، وقال: «بيل بيكيت - راعي بقر أسود، ونجم في مسابقات رعاة البقر. وكريستيان فليتوود، جنديّ أسود في الحرب الأهليّة حصل على ميدالية الشرف».

نظرت إلى صورة كلّ رجل من هؤلاء، وقلت: «لا أعرف أحداً منهم».

«نعم، هذا هو الهدف»، قال إديسون، «لدينا روزا باركس والدكتور كينغ. هل سمعت يوماً عن أخ يُدعى لويس لاتيمر؟ لقد رسم أجزاء الهاتف لأجل تقديم طلب براءة الاختراع لألكساندر غراهام بيل، وعمل رسّاماً وخبير براءات اختراع لتوماس إديسون، لكنّك لم تسمِّيني على اسمه لأنّك لم تكوني تعرفين بوجوده. المرّة الوحيدة التي يصنع فيها الأشخاص الذين يشبهوننا التاريخ، هذه ملحوظة هامشيَّة».

قال ذلك من دون إحساس بالمرارة، قالها كما يقول إنّه لم يعد لدينا كاتشب، أو إن لون جواربه أصبح وردياً في الغسَّالة - كما لو أنّه شيء لم يكن سعيداً به، ولم يكن متحمّساً، لأنّ ذلك لن يغيّر النتيجة في هذه اللحظة بالذات. عدت أفكّر في السيّدة براونشتاين وفيرجينيا. يبدو أنّها شيء لا يزال عالقاً في ذهني، وعاد إديسون وضغط عليه. هل صحيح أنّني لم ألحظ هذه الأشياء قبل الآن؟ أو أنني كنت أحرص على إبقاء عينيَّ مغمضتين؟

نظر إديسون إلى ساعته، وقال: «ماما، سوف تتأخّرين حقاً».

صحيح. قلت له، ما الذي يمكن أن يسخّنه لأجل العشاء، ومتى يأوي إلى الفراش، وفي أيّ ساعة تنتهي مناوبتي، وهرعت إلى سيّارتي، وذهبت إلى المستشفى. ومع أنّني سلكتُ أقصر الطرق الممكنة وصلت متأخّرة عشر دقائق. صعدت الدرج ولم أنتظر المصعد، ولَمّا وصلت إلى جناح الولادة، كنت ألهث والعرق يسيل منّي. رأيت ماري واقفة عند مكتب الممرّضات كأنّها تنتظرني. قلت لها على الفور: «أنا آسفة. كنت في نيويورك مع أمّي، ثمّ علقت في زحمة المرور، و...»

«روث... لا أستطيع أن أسمح لك بأن تعملي هذه الليلة».

ذُهلتُ. تأتي كورين متأخّرة معظم الوقت، وعندما تأخّرت قليلاً، أول مرّة، تُوجَّه إليَّ عقوبة؟

قلت: «لن أتأخَّر مرّة أخرى».

لكن ماري كرَّرت: «لا أستطيع أن أسمح لك بأن تعملي»، وأدركت أنّها لم تنظر في عينيَّ، وأضافت: «أبلغني قسم الموارد البشريّة أنَّ رخصتك قد عُلِّقت».

تحوّلت فجأة إلى قطعة حجر. «ماذا؟»

«أنا آسفة جدّاً»، همست، «سيرافقك رجال الأمن إلى خارج المبنى بعد أن تأخذي جميع أغراضك من خزانتك».

«انتظري»، قلت لها عندما لاحظت شابّين ضخمين يحومان خلف مكتب الممرّضات، «إنّك تمزحين. لماذا تُعلَّق رخصتي؟ وكيف يمكنني أن أعمل بعد ذلك؟»

أخذت ماري نفساً عميقاً، والتفتت إلى حارسَي الأمن اللذين تقدَّما نحوي. «سيّدتي؟» قال أحدهما وأشار إلى غرفة الاستراحة، كما لو أنّني لا أعرف الطريق بعد عشرين عاماً من العمل في هذا المكان.

* * *

في صندوق الكرتون الصغير الذي حملته إلى السيّارة توجد فرشاة أسنان ومعجون أسنان وعلبة حبوب «أدفيل» وسترة صوفيّة، ومجموعة من صور إديسون. كان هذا كلّ ما كنت أحتفظ به في خزانتي في المستشفى. وضعت الصندوق في المقعد الخلفيّ، وظلّ يجذب انتباهي في المرآة الخلفيَّة، يفاجئني، مثل راكب لم أكن أتوقّعه.

لم أخرج من باحة موقف السيارات قبل أن أتصل بمحامي النقابة. كانت الساعة الخامسة مساء، ولم تكن فرصة وجوده في مكتبه كبيرة، لذلك، لَمَّا ردَّ عبر الهاتف، انفجرت في بكاء. أخبرته كلَّ شيء عن تورك باور وابنه، فراح يهدِّئني، وقال إنّه سيجري بعض التحريات ثمَّ سيتصل بي.

كان عليَّ أن أعود إلى المنزل وأتأكّد أنّ إديسون على ما يرام، لكن عودتي من العمل ستثير جدالاً بيننا، ولست متأكّدة أنَّني أستطيع مناقشة هذا الأمر الآن. وإذا ما نجح محامي النقابة فقد أستطيع أن أعود إلى عملي.

ثمَّ رنَّ هاتفي. «روث؟» قالت كورين، «ما الذي يجري بحقّ الجحيم؟»

أسندت ظهري إلى مقعد السيّارة، وأغمضت عينيَّ، وقلت: «لا أعرف».

قالت: «انتظري»، وسمعت جلبة مكتومة، «أنا في غرفة التخزين اللعينة كي لا يسمعني أحد. اتّصلت بك عندما سمعت».

«سمعتِ ماذا؟ لا أعرف شيئاً. كلّ ما أعرفه أنَّهم أوقفوا العمل برخصتي».

«حسناً، قالت محامية المستشفى الحقيرة شيئاً لماري يتعلَّق بسوء سلوك مهنيّ...»

«كارلا لونغو؟»

«من هي؟»

«محامية المستشفى الحقيرة. لقد ألقت بي تحت الحافلة»، قلت لها بمرارة. تحدّثنا أنا وكارلا وظننت أنّ الأمر قد انتهى. لم أتوقّع أن تفعل ذلك بهذه السرعة، «لا بدَّ أنَّ ذاك الأب العنصريّ قد هدّدها برفع دعوى قضائيّة، فضحَّت بي لتنقذ المستشفى».

مرَّت لحظة صمت. لحظة صغيرة جداً إلى درجة أنّني لو لم أكن أرهف السمع لما سمعتها. ثمَّ قالت كورين - زميلتي، صديقتي - «أنا متيقنة من أنَّ الأمر لم يكن مقصوداً».

في مدرسة دالتون، كانت هناك طاولة يجلس إليها جميع الأطفال السود على الغداء، إلّايَ. في إحدى المرّات، دعاني طالب حاصل على منحة دراسية لأنضمَّ إليهم إلى طاولة الغداء. شكرته، واعتذرت، وقلت له إنّي أعطي دروساً عادة لصديقة بيضاء لا تفهم درس المثلثات جيّداً. لم يكن ذلك صحيحاً، وإنّما الحقيقة أنّ الطاولة التي يجلس إليها الطلاب السود تجعل أصدقائي البيض متوترين، لأنّهم، حتّى لو جلسوا معي هناك، فلن يكون مُرحّباً بهم.

أمَّا الحقيقة الأخرى، فهي أنّني لو جلست مع الصبية الملوَّنين الآخرين، فلن أتمكَّن من التظاهر بأنّني مختلفة عنهم. ولَمَّا بدأ السيد أدامسون، أستاذ التاريخ، يتحدّث عن مارتن لوثر كينغ، ولم يرفع عينيه عنّي، تجاهل أصدقائي البيض، وقالوا إنّه لم يكن يقصد ذلك. وإذا قال أحد الطلاب الجالسين إلى الطاولة السوداء، إنّ السيد أدامسون كان يحدّق إليَّ طوال الدرس، فإنّ طالباً أسود آخر سيؤكّد ذلك، ويقول: لقد حدث لي ذلك أيضاً.

لَمَّا كنت في المدرسة الثانويَّة، كانت لديَّ رغبة قويّة في أن أندمج مع الآخرين، فأحطت نفسي بطلاب يمكنهم إقناعي بأنّني إذا ما شعرت بأنّني أُستبعد بسبب لون بشرتي، فإنّني أختلق ذلك، وأبالغ في التفكير في هذا الأمر، وإنّني سخيفة.

أمَّا في كافتيريا المستشفى، فلم تكن هناك طاولة يجلس إليها السود، فقد كان عدد العاملين الملوّنين قليلاً بالإضافة إلى طبيب أو طبيبين، وأنا.

لم أسأل كورين إن كانت تصرّفات كارلا لونغو متعمّدة أم كانت بمحض المصادفة. قلت لها إنّني يجب أن أذهب، وأغلقت الهاتف وهي لا تزال تتكلّم، ثمَّ خرجت من بوّابة المستشفى الذي عملت فيه لعقدين من الزمن، واتجهت نحو الطريق السريع المزدحم في اتجاه نيويورك، مثل شريان. مررت بمدينة من الخيام الصغيرة التي يعيش فيها مشرّدون من المحاربين القدماء، ورأيت صفقة مخدّرات تعقد أمام عينيّ، ثمّ ركنت

سيّارتي خارج الحيّ الشعبيّ الذي تعيش فيه أختي. فتحت لي الباب وهي تسند إلى وركها طفلاً صغيراً وبيدها ملعقة خشبيّة، وكانت قسمات وجهها تشي بأنّها تنتظرني منذ سنوات.

«لماذا أنتِ دَهِشة هكذا؟» سألتني أديسا، «ماذا كنت تتوقَّعين أن يحدث، أن تنتقلي إلى ويتفيل؟»

«إيست إند»، صحّحت لها، فرمقتني بعينيها الدَّهشتين.

جلسنا إلى طاولة المطبخ. قياساً إلى عدد الأطفال الذين تعيش معهم، فقد كانت الشقة نظيفة ومرتَّبة. صفحات من دفتر تلوين ملصقة على الحائط، وهناك طبق سباغيتي في الفرن. وفي المطبخ، كانت تيانا، أكبر بنات أديسا، تُطعم الطفلة الصغيرة الجالسة على كرسيها المرتفع، وثمَّة صبيّان يلعبان لعبة النينتندو في غرفة الجلوس. طفلتها الأخرى اسمها ميا.

«أكره أنَّني قلت لك ذلك...»

«لا»، تمتمتُ، «كنتِ تنتظرين أن تقولي لي ذلك منذ زمن».

هزَّت كتفيها موافقة، وقالت: «أنتِ التي كنت تقولين لي دائماً، أديسا إنّك لا تعرفين ما تقولين. حتّى إنَّ لون بشرتي ليس سبباً. إنّك لست واحدة منهم، أليس كذلك؟»

«كما تعرفين، لو أردت أن أكون كيس اللكمات لتمكّنت من البقاء في المستشفى»، قلت لها ودفنت وجهي بين يديَّ، «كيف يمكنني أن أُخبر إديسون؟»

فقالت أديسا: «لا يوجد عيب في الحقيقة؟ فلم ترتكبي أيّ خطأ. من الأفضل أن يعرف أنَّ بإمكانه أن يصادق أشخاصاً بيضاً، لكنَّ ذلك لن يجعله أقلَّ سواداً».

لَمَّا كان إديسون أصغر سناً، كانت أديسا ترعاه بعد المدرسة عندما يكون لديَّ عمل في فترة ما بعد الظهر، حتَّى أصبح يتوسل إليَّ بأن يبقى في البيت

وحده لأنَّ أبناء خالته يضربونه لأنه لا يفهم كلماتهم العاميَّـة، ولَـمَّا بـدأ يتقنهـا، بـدأ أصدقاؤه البيض في المدرسة ينظرون إليه كما لـو أنـه أصـبح ذا رأس آخـر. حتّـى إنَّنـي كنت أجد صعوبة في فهم أبناء أختي؛ أحدهم يدفع الآخر بمرفقـه عـلى الأريكـة حتّـى ضربتهم تيانا بمنشفة أطباق كي ينام الطفل الصغير. ربّمـا لم يكـن إديسـون يـتلاءم مـع زملائه البيض في مدرسته بسبب لون بشرته، لكنّه لم يكن يتلاءم مع أبناء خالتـه أيضـاً، مع أنَّهم يشبهونه.

طوت أديسا ذراعيها، وقالت: «تحتاجين إلى محام لمقاضاة ذلك المستشفى اللعين».

فقلت: «هذا يكلّف الكثير من النقود. لا أريد إلّا أن يختفي كلّ هذا».

بدأ قلبي يخفق بقوّة. لا يمكنني أن أفقد بيتنا. لا يمكنني أن أنفق كلّ مـا ادّخرتـه لأجل جامعة إديسون، على الطعام وتسديد رهن البيت وفـاتورة الغـاز. لا يمكننـي أن أدمّر فرص مستقبل ابني لأنّ فرصتي انفجرت في وجهي.

لا بدَّ أنَّ أديسا رأت أنّنـي سـأنهار، فأمسـكت بيـدي، وقالـت بهـدوء: «روث. قـد ينقلب عليك أصدقاؤك، لكن هل تعرفين ما هو الشيء الجيّد في أن تكون لديك أخت؟ إنّها دائمة».

ثبَّتت عينيها في عينيَّ – كانت عيناها داكنتين إلى درجة أنّك تكاد ترى الحافة التي تفصل بين القزحيّـة والحدقـة، لكـنّهما كانتـا ثـابتتين، لم تتركـاني، وشـيئاً فشـيئاً، بـدأت أتنفَّس.

لَـمَّا عـدت إلى البيـت، في السـاعة السـابعة، هـرع إديسـون إلى البـاب الخـارجيّ، وسألني: «ماذا تفعلين في البيت؟ هل كلّ شيء على ما يرام؟»

ألصقتُ ابتسامة عـلى وجهـي، وقلـت لـه: «أنـا بخـير، حبيبـي. حـدثت فـوضى في المناوبات، فخرجت أنا وكورين وتناولنا العشاء في مطعم أوليف غاردن».

«هل تبقّى شيء من الطعام؟»

بارك اللـه في الصبيّ المراهق الذي لا يرى أبعد من وخزات الجوع، فقلت له: «لا. تناولنا مقبّلات فقط».

فقال متذمّراً: «حسناً، يبدو أنّها فرصة ضائعة».

«هل انتهيت من كتابة موضوعك عن لاتيمر؟»

هزَّ رأسه، وقال: «لا. أظنّ أنّني سأختار أنتوني جونسون. أول صاحب أراضي أسود منذ سنة 1651».

أجبته: «عظيم».

«نعم، لكن اعترضتني عثرة هنا. انظري، فقد كان عبداً جاء من إنكلترا إلى فرجينيا وعمل في مزرعة تبغ هاجمها الهنود الحمر وقُتل الجميع ماعدا خمسة أشخاص. وحصل هو وزوجته ماري على مئتين وخمسين فدّاناً من الأرض. لكنَّ الشيء المثير للاهتمام أنّه كان يقتني عبيداً. لا أعرف إن كنت أريد أن أخبر الطلاب الآخرين بذلك، فقد يستخدمون ذلك ضدّي في أثناء المناقشة». هزَّ رأسه، مستغرقاً في التفكير، وأضاف: «أقصد، كيف يمكنني أن أفعل ذلك، إذا كنتُ أعرف ما الذي يعنيه العبد؟»

فكَّرت في جميع الأشياء التي فعلتها كي أشعر أنّني في القمّة - التعليم، الزواج، هذا المنزل، الحفاظ على حاجز بيني وبين أختي. «لا أعرف»، قلت بصوت منخفض، «في عالمه، كان ذوو النفوذ يمتلكون أشخاصاً آخرين. ربّما هذا ما كان يرى أنَّه في حاجة إلى فعله ليشعر بالقوّة أيضاً».

فقال إديسون: «هذا لا يعني أنَّه كان محقّاً».

لففت ذراعيَّ حول خصره، وضممته إليَّ بقوَّة، وضغطت وجهي على كتفه لئلّا يرى الدموع التي ترقرقت في عينيَّ.

«لأجل ماذا كلّ ذلك؟»

دمدمتُ: «لأنّك تجعل هذا العالم مكاناً أفضل».

ضمّني إديسون إليه، وقال: «تخيَّلي ما يمكنني أن أفعل لو أحضرت لي وجبة دجاج بالجبن».

لَمَّا أوى إلى فراشه، بدأت أفرز الرسائل الواردة بالبريد: فواتير وفواتير، ومزيد من الفواتير، بالإضافة إلى مظروف صغير من وزارة الصحَّة العامة، يبلغونني فيه أنّهم علّقوا رخصة التمريض خاصتي. حدَّقت إليها مدَّة خمس دقائق كاملة، لكنَّ الكلمات لم تتجسَّد في أيّ شيء آخر سوى أنَّ الدليل على أنَّ هذا ليس كابوساً قد أستيقظ منه، دَهِشةً من مخيّلتي المجنونة، جلست في غرفة الجلوس، وراحت أفكاري تتلاطم في رأسي، فلم يعد بإمكاني أن أفكّر. إنّه خطأ، هذا كلّ ما في الأمر. أعرف ذلك، وأريد أن يراه الجميع أيضاً، فأنا ممرّضة أشفي الناس، وأجلب لهم الراحة. أُصلح الأشياء، ويمكنني أن أُصلح هذا أيضاً.

رنّ هاتفي في جيبي. نظرت إلى الرقم - محامي النقابة يتصل بي. لَمَّا أجبت، قال: «روث، أرجو ألّا يكون الوقت متأخّراً جداً».

كدت أضحك، كما لو أنّني سأتمكّن من النوم الليلة. سألته: «لماذا سحبت وزارة الصحّة العامّة رخصتي؟»

فقال: «بسبب ادّعاء وجود إهمال محتمل».

«لكنّي لم أرتكب أيّ خطأ. عملت هناك عشرين سنة. كيف يمكنهم أن يطردوني هكذا؟»

«لديك مشكلات أكبر من مجرَّد الحفاظ على وظيفتك. فقد قُدِّمت ضدّك قضيّة جنائيَّة يا روث. تحمّلك الولاية مسؤوليّة وفاة الطفل».

قلت له: «لم أفهم». كانت الجملة حادّة مثل سكاكين فوق لساني.

«لقد شكَّلوا توّاً هيئة محلّفين كبرى. أنصحك بأن تعيّني محام للدفاع عنك. لم يعد ذلك ضمن اختصاصي».

هذا ليس حقيقيّاً. لا يمكن أن يكون هذا حقيقيّاً. «لقد طلبت إليَّ الممرّضة المشرفة ألّا ألمس الرضيع، ولم ألمسه، والآن أُعاقب لأنَّني فعلت ذلك؟»

فأجاب محامي النقابة: «الولاية لا يهمّها ما الذي قالته لك الممرّضة المشرفة. إنَّها ترى فقط أنَّ الطفل مات. إنّهم يستهدفونك لأنّهم يرون أنّك لم تؤدّي عملك كما يجب».

«أنت مخطئ». هززت رأسي في الظلام، وقلت الكلمات التي ابتلعتها طوال حياتي. «إنَّهم يستهدفونني لأنَّني سوداء».

على الرَّغم من كلّ ذلك، نمت. عرفت ذلك لأنَّني عندما سمعت المطرقة الهوائيّة عند الساعة الثالثة صباحاً، ظننت أنّني أحلم بأنّني عالقة في زحمة المرور، وقد تأخّرتُ عن عملي، وأقام عمّال الطرق وادياً بيني وبين المكان الذي يجب أن أكون فيه. في حلمي، أطلقت بوق السيارة، لكنَّ المطرقة الهوائية لم تتوقَّف.

وهكذا، انفجرت من سطح الوعي، وانطلقت المطرقة الهوائيّة عندما اقتلع رجال الشرطة الباب من مفصّلاته، ودخلوا غرفة الجلوس شاهرين مسدَّساتهم. صحت بهم: «ماذا تفعلون؟ ماذا تفعلون هنا؟»

«روث جيفرسون؟» صاح أحدهم، لم أستطع أن أجد صوتي، لم أستطع أن أقول شيئاً، وارتعشت ذقني: نعم. وعلى الفور سحب ذراعي وثبّتها وراء ظهري، ودفعني إلى الأسفل، فالتصق وجهي بالأرض، ووضع ركبته على ظهري، وعقد رباطاً بلاستيكياً حول رسغي، في حين راح الآخرون يقلبون الأثاث، ويفتحون الأدراج، ويلقون بمحتوياتها على الأرض، ويرمون الكتب من على الأرفف، ثمَّ قال الشرطيّ: «لقد وجّهت إليك هيئة محلّفين كبرى تهمة القتل، والقتل غير العمد. أنتِ مقبوض عليك».

ثمَّ اخترق صوت آخر صدى هذه الكلمات. صوت إديسون وهو يسألني: «ماما؟ ما الذي يحدث هنا؟»

اتّجهت كلّ الأعين نحو مدخل غرفة النوم. «لا تتحرّك»، صاح شرطيّ آخر، ووجّه مسدّسه نحو ابني، «ارفع يديك».

بدأت أصرخ.

هجموا كلّهم على إديسون، دفعه ثلاثة منهم إلى الأرض، وقيّدوا يديه مثلي. رأيته يبذل جهده ليزحف نحوي، والذعر يغلّف كلّ عضلة من عضلات رقبته، وبياض عينيه يتحرّك في جميع الاتجاهات ليعرف إن كنت على ما يرام.

«دعوه وشأنه»، صحت، «لا علاقة له بكلّ ذلك».

لكنّهم لا يعرفون ذلك. كان كلّ ما يرونه فتى أسود طوله ستّ أقدام. صحت به: «افعل ما يقولونه لك يا إديسون، ثمّ اتصل بخالتك».

سمعت صوت طقطقة مفاصلي عندما سحبني الشرطيّ الذي أمسك بي فجأة من رسغي وأوقفني على قدميَّ، ولَمّا قاومته قليلاً، جاء رجال الشرطة الآخرون، وتركوا محتويات خزائن مطبخي، ورفوف كتبي وأدراجي مكوّمة على الأرض.

لَمّا أخذوا يجرّونني، وأنا في ثوب نومي وصندلي، إلى أسفل الدرج، استيقظتُ تماماً. تعثّرت وخُدشت ركبتي على الرصيف قبل أن يدفع أحدهم رأسي إلى مقعد سيّارة الشرطة. دعوت الله أن يسأل جيراني الذين أيقظتهم الجلبة في شارعنا النائم في الساعة الثالثة صباحاً، والذين وقفوا أمام بيوتهم يعكس القمر وجوههم البيض، أنفسهم ذات يوم ما لماذا ظلّوا صامتين، ولم يسأل أحد منهم إن كان في استطاعته أن يساعدني.

كنت قد ذهبت إلى مركز الشرطة عندما سحج أحدهم سيارته بسيارتي في ساحة وقوف السيارات وهرب السائق الأحمق الذي فعل ذلك. وفي أحد الأيام، أمسكت بيد مريضة تعرَّضت لاعتداء جنسيّ، لكن لم تكن لديَّ الشجاعة الكافية لأخبر السلطات، أمّا اليوم فقد أُدخلت مركز الشرطة من

الشارع الخلفيّ ولم أتمكَّن من أن أرى بوضوح بسبب أضواء النيون الساطعة. سُلِّمت إلى شرطيّ آخر، شابّ، طلب إليَّ أن أجلس، وسألني عن اسمي وعنواني وتاريخ ميلادي ورقم الضمان الاجتماعيّ. كنت أتكلَّم بصوت منخفض، فطلب إليَّ لمرات عدَّة أن أرفع صوتي، ثمّ أُخذت إلى جهاز يشبه آلة نسخ الفوتوكوبي، لكنّها ليست كذلك. وضعت أصابعي، الواحد تلو الآخر، فوق سطح زجاجيّ. عندما ظهرت بصمات أصابعي على الشاشة، قال الشرطيّ الشابّ: «جيّد». ثمّ أُوقفت قبالة جدار من الطوب، وصوَّروني. ثمّ قادني الشرطيّ الشاب إلى الزنزانة الوحيدة الموجودة في مركز الشرطة هنا، وكانت صغيرة ومظلمة وباردة جداً، ويوجد في الزاوية مرحاض ووعاء طويل العنق. «عفواً»، قلت له وهو يقفل الباب، «كم سأبقى هنا؟»

نظر إليَّ نظرة لا تخلو من التعاطف، وقال بغموض: «لا أعرف»، وذهب.

جلست على المقعد المعدنيّ، فتسلّلت البرودة عبر ثوب النوم الذي أرتديه. شعرت بالحاجة إلى أن أتبوّل، لكنّني شعرت بحرج شديد لأن أفعل ذلك هنا، في مكان مكشوف.

تساءلت هل اتصل إديسون بأديسا لتحاول إخراجي من هنا؟ تساءلت، هل أخبرته أديسا عن الطفل الذي مات؟ تساءلت، هل سيلومني ابني؟

فجأة، تذكَّرت نفسي قبل اثنتي عشرة ساعة، عندما كنت أغمر خيوط كريستال الثريا في محلول الأمونيا وموسيقا كلاسيكيّة تصدح في منزل أسرة هالويل. هذا التناقض جعلني أكتم ضحكة، أو إجهاشة إلى بكاء، لا أعرف.

إذا لم تتمكّن أديسا من إخراجي من هنا، فربّما تستطيع أسرة هالويل، التي تعرف أشخاصاً مهمّين، لكن يجب أن يخبر أحد ما أمّي بما حدث أوّلاً، ومع أنّها ستدافع عنّي حتّى يوم موتها، فإنّي أعرف أنّها ستتساءل كيف حدث ذلك؟ كيف انتهى الأمر بهذه الفتاة التي كسرتُ ظهري كي تعيش حياة سعيدة، في زنزانة السجن؟ وأنا أيضاً لا أعرف الإجابة عن هذا السؤال

أيضاً. لقد كان تعليمي: شهادة التمريض، وعشرون سنة من الخدمة في المستشفى، وبيتي الصغير الأنيق، وسيّارتي الجميلة تويوتا RAV4، وابني الذي حصل على مرتبة الشرف في كفَّة، لبنات وجودي الأساسيَّة، ولون بشرتي السمراء في الكفَّة الأخرى.

حسناً.

لم أبذل كلَّ هذا الجهد كي لا أحقّق شيئاً. لا يزال بإمكاني أن أستخدم شهادتي الجامعيّة الرائعة والسنوات التي أمضيتها برفقة الطلاب البيض لأغيّر هذا الوضع، وأقنع الشرطة بأنّ هذا مجرّد سوء تفاهم. فأنا مثلهم أعيش في هذه المدينة. ومثلهم أدفع ضرائبي، ولديهم قواسم مشتركة معي أكثر ممّا لديهم مع ذلك المتعصّب العنصريّ الحانق الذي أثار هذه المشكلة.

لا أعرف متى سيعود أحد إلى الزنزانة، فلا أملك ساعة يد، ولا توجد ساعة حائط، لكن هناك متَّسع من الوقت كي أستعيد شرارة الأمل التي تحترق داخل صدري.

جاء الشرطيّ الشابّ، وقال: «سآخذك الآن إلى غرفة الاستجواب. كما تعرفين، يجب أن أفعل...»، وأشار إلى يديَّ.

نهضت واقفة، وقلت له: «لا بدَّ أنَّك منهك لأنّك لم تنم طوال الليل».

هزَّ كتفيه، لكنّه احمرّ خجلاً، وقال: «شخص آخر سيفعل ذلك».

«أراهن أنَّ أمّك فخور بك. أعرف أنَّني سأكون كذلك. أظنّ أنَّ ابني أصغر منك بسنتين فقط». مددت يديَّ أمامي، لكنَّه قال ببراءة وهو ينظر بعينيه الواسعتين إلى رسغيَّ، «أظنّ أنّنا نستطيع أن نذهب من دونها».

وضع يده على ذراعي بإحكام، وسرنا.

أخفيت ابتسامتي وحسبت ذلك انتصاراً.

بقيت وحدي في غرفة فيها مرآة كبيرة أعرف أنها نافذة لغرفة أخرى في الجانب الآخر من الجدار. يوجد جهاز تسجيل على الطاولة، ومروحة تدور في

السقف، مع أنَّ المكان بارد جداً. طويت يديَّ فوق حضني، ورحت أنتظر. لم أنظـر في صورتي المنعكسة في النافذة لأنني أعرف أنهـم يراقبـونني. ألقيـت نظـرة سريعـة لأرى نفسي وقد بدوت مثل شبح وأنا مرتدية قميص النوم.

لَمَّا فُتح الباب، دخل محقِّقان اثنان – ثور في هيئة رجل، وعفريتة ضـئيلة الحجـم. «أنا المحقّق ماكدوغال»، قال الرجل، «وهذه المحقّقة ليونغ.»

ابتسمت لي. حاولت أن أقرأ ما يقبـع وراء ابتسـامتها. إنّـك امـرأة أيضـاً، أرجـو أن نتواصل بالتخاطر. إنك أمريكيَّة من أصل آسيويّ، تجلسين في المقعد الذي أجلـس فيـه مجازاً، إن لم يكن حرفياً.

«هل أجلب لك ماء يا سيّدة جيفرسون؟» سألتني المحقّقة ليونغ.

فقلت: «نعم، شكراً».

لَمَّا ذهبت لتجلب الماء، أوضح لي المحقّق ماكـدوغال أنّـه لا يتعـيّن عـليَّ أن أقـول لهما شيئاً، لأنَّني إذا تفوَّهت بشيء، فقد يُستخدم ما أقوله ضدّي في المحكمة، وأضـاف إذا لم يكن لديّ شيء أخفيه، يمكنني أن أحكي لهما جانباً من القصَّة.

فقلت: «نعم»، مع أنّني كنت قد شاهدت ما يكفي من البرامج عبر شاشة التلفـاز تجعلني أعرف أنّني يجب أن ألوذ بالصمت. لكن، ما نشاهده ضرب من الخيال، وهنـا واقع الحياة. فأنا لم أفعل شيئاً ضدّ القانون، وإذا لم أشرح لهما ذلك، فكيف سـيعرفان؟ إذا لم أشرح حالتي، ألا يجعلني ذلك أبدو مذنبة؟

سألني إن كان من الممكن أن يشغّل جهاز التسجيل.

فقلت: «طبعاً، وشكراً لك. شكراً جزيلاً لأنك مسـتعدّ لأن تسـمعني. أظـنّ أنّ هـذا كلّه مجرّد سوء تفاهم كبير».

لَمَّا عادت المحقّقة ليونغ، ناولتني كأساً كبيرة من الماء، فشربته كلّه. لم أكـن أعـرف كم كنت ظمأى إلّا عندما بدأت أشرب.

«مهما كان الأمر يا سيدة جيفرسون»، قال ماكدوغال، «فلدينا بعض الأدلة القوية التي تتناقض مع ما تقولينه. إنك لا تنكرين أنَّك كنتِ موجودة عندما مات ديفيس باور؟»

فأجبت: «لا، كنت هناك. كان شيئاً فظيعاً».

«ماذا كنت تفعلين في ذلك الوقت؟»

«كنت جزءاً من فريق الطوارئ. فقد أصبح الطفل مريضاً جداً، وبسرعة كبيرة. بذلنا كلّ ما في وسعنا».

«لكنّي انتهيت توّاً من النظر إلى صور الطبيب الشرعيّ، التي توحي بأنَّ الطفل تعرَّض لإيذاء جسديّ...»

صحت: «حسناً، أنا لم ألمس هذا الطفل».

فقال ماكدوغال: «قلتِ توّاً إنّك أحد أفراد فريق الطوارئ».

«لكنّي لم ألمس الطفل إلّا عندما بدأت حالته تزداد سوءاً».

«في تلك اللحظة بدأتِ تضغطين على صدر الطفل...»

تدفَّق الدم إلى وجهي، وقلت: «ماذا؟ لا، كنت قد بدأت عمليَّة الإنعاش القلبيّ الرئويّ...»

«بشيء من الحماس، استناداً إلى شهود عيان»، أضاف المحقّق.

مَن؟ قلت في نفسي، ورحت أستعرض في ذهني كلّ الأشخاص الذين كانوا موجودين في الغرفة. من الذي رأى ما كنت أفعله ولا يعرف ما كنت أفعل حقّاً: رعاية طبيَّة طارئة؟

«السيدة جيفرسون»، سألتني المحقّقة ليونغ، «هل ناقشتِ أحداً في المستشفى عن مشاعرك تجاه هذا الطفل وأسرته؟»

«لا، فقد كنتُ قد أُخرجت من رعايته، وانتهى الأمر».

ضيّق ماكدوغال عينيه، وقال: «ألم تكن لديك مشكلة مع تورك باور؟»

أخذت نفساً عميقاً، وقلت: «لم ينظر أحدنا إلى الآخر وجهاً لوجه».

«هل هذا شعورك تجاه الأشخاص البيض؟»

فقلت له، وأنا أنظر في عينيه مباشرة: «عدد من أعزّ أصدقائي هم من البيض».

حدَّق ماكدوغال إليَّ طويلاً حتّى رأيت حدقتيه تتقلّصان. كنت أعرف أنّه كان ينتظر أن أشيح بنظري عنه أولاً، لكنّي رفعت ذقني.

نهض وقال: «يجب أن أُجري مكالمة»، وخرج من الغرفة.

عددت ذلك انتصاراً أيضاً.

جلست المحققة ليونغ على طرف الطاولة، شارتها عند وركها، تلمع مثل لعبة جديدة. ثمَّ قالت: «لا بدَّ أنَّك متعبة جداً»، كان بإمكاني أن أسمع في صوتها اللعبة نفسها التي حاولت أن ألعبها مع الشرطيّ الشاب في زنزانة الحجز.

فقلت لها بصوت هادئ: «اعتادت الممرّضات العمل لفترات طويلة مع فترات نوم قليلة».

«وأنت تعملين ممرّضة منذ فترة من الزمن، أليس كذلك؟»

«منذ عشرين عاماً».

ضحكت، وقالت: «يا إلهي! لقد بدأتُ عملي هذا منذ تسعة أشهر. لا يمكنني أن أتخيّل أن أفعل شيئاً كلّ هذه المدّة. أظنّ أنّه لا يمكنك أن تنجحي في عملك إذا لم تكوني شغوفاً به، أليس كذلك؟»

أومأت برأسي، متوخّية الحذر. لكن، لو سنحت لي الفرصة ليفهم هذان المحقّقان أنّني بريئة، فستكون معها هي، فقلت: «صحيح، وأنا أحبّ مهنتي».

فقالت: «لا بدَّ أنَّك انزعجت كثيراً عندما طلبت إليك المشرفة أن تتوقَّفي عن رعاية ذلك الطفل، ولا سيَّما بالنظر إلى مستوى خبرتك».

«لم يكن أفضل يوم أمضيته في حياتي، لا».

«في أول يوم خرجت فيه إلى العمل؟ قدت سيّارة الشرطة على الطريق السريع لأقف في موقع بناء. حقّاً. كنت قد حصلت على أعلى الدرجات في امتحان المحقّقين، لكن في الميدان، فإنّ ذلك يبدو مزحة. لا يزال الرجال الآخرون في دورتي ينادونني «صدمة». أقصد، لنكن صادقين، يجب على المحقّق الأنثى أن تعمل ضعف ما يفعله المحقّق الرجل، لكنّهم لا يتذكّرون إلّا خطأً بسيطاً ارتكبته. كنت مستاءة جداً، ولا أزال».

نظرت إليها. ظهرت الحقيقة على لساني مثل قطعة حلوى صلبة. لم يكن من المفترض أن ألمس الطفل. لكنّي لمسته، مع أنَّه كان من الممكن أن أقع في ورطة.

ثمَّ أضافت: «انظري يا روث، إذا كان ذلك مجرد حادث، فالآن الوقت المناسب لتقولي ذلك. ربما أثّر فيك شعورك بأنك جُرحت كثيراً. سيكون ذلك مفهوماً تماماً. فقط قولي لي، وسأفعل كلّ ما في وسعي لأجعل الأمر يسير بسهولة أكبر».

في تلك اللحظة، أدركت أنَّها لا تزال تعتقد أنَّني مذنبة.

وأنَّها لم تكن لطيفة معي عندما حكت لي قصتها، وإنما تحاول أن تتلاعب بي.

وأنّ تلك البرامج المتلفزة غير حقيقيّة.

ابتلعت ريقي بصعوبة، حتّى إنَّ الصدق قبع في حفرة بطني. ثمَّ قلت كلمتين قصيرتين بصوت لم أميّزه: «أريد محامياً».

المرحلة الأولى
التحوُّل

مفاتيح البيانو باللونين الأسود والأبيض،

لكنَّها تبدو مثل مليون لون في دماغك.

ماريا كريستينا مينا

كينيدي

لَمَّا وصلت إلى المكتب، كان إد غوركيس - أحد زملائي - يتحدَّث عن الشخص الذي عُيِّن في المكتب مؤخّراً بعد أن تركت إحدى المحاميات المساعدات الشابات العمل لإنجاب طفلها، وأبلغت قسم الموارد البشريَّة بأنّها لن تعود إلى العمل. كنت أعرف أنَّ رئيسنا هاري يجري مقابلات، لكنّي لم أكن أعرف أنّه اتّخذ قراره إلّا عندما جاء إد إلى مكتبي.

«ألم تلتقيه بعد؟» سألني إد.

«ألتقي مَن؟»

«هوارد، الموظَّف الذي عُيِّن مؤخَّراً».

يعمل إد محامياً عامّاً لأنّه يستطيع ذلك. وبما أنّ لديه صندوق ائتمان كبيراً فهو لا يعبأ بالرواتب الضئيلة التي نتقاضاها. ومع أنه نشأ وهو يتمتع بجميع الامتيازات الممكنة، فلا يوجد شيء يرضيه، فهو دائم التذمّر والشكوى: مقهى ستاربكس على الطرف الآخر من الشارع يقدّم قهوة ساخنة جداً، وقع حادث على الطريق السريع جعله يتأخّر عشرين دقيقة، لم تعد آلة البيع في المحكمة تبيع كاندي سكيتلز.

«لم يمضِ على وصولي أكثر من أربع ثوان. كيف يمكنني أن أرى أحداً؟»

«من الواضح أنه عُيِّن هنا لتحقيق أهداف عدَّة، فهو شابّ غرّ».

«وماذا لو كان شابّاً غرّاً؟ ألم تكن أنت شاباً غرّاً أيضاً ذات يوم؟».

فقال إد بصوت منخفض: «كان هناك مرشَّحون أكثر جدارة».

بدأت أبحث بين الأكوام المكدَّسة على طاولة مكتبي عن الملفّات التي أحتاج إليها. كانت هناك رسائل كثيرة على الهاتف تعمّدت تجاهلها، ودمدمتُ: «آسفة لأنّ ابن أختك لم يُختر لهذه الوظيفة».

«ماكوري، أنت سخيفة».

«انظر يا إد، لديَّ عمل يجب أن أنجزه. لا يوجد لديَّ وقت للثرثرة في أحاديث المكتب». انحنيت نحو شاشة حاسوبي، وتظاهرت بأنّني بدأت أقرأ أول بريد إلكترونيّ تصادف أنَّه إعلان من محالّ نورد ستروم تراك.

في نهاية الأمر، أدرك إد أنَّني لن أشاركه الحديث، فذهب إلى غرفة الاستراحة، حيث لا شكَّ في أنَّ القهوة لن تكون فيها جيدة، ولم تبق لدينا نكهة الكريما التي يفضّلها. أغمضت عينيَّ، وأسندت ظهري إلى الكرسيّ.

فجأة، سمعت حفيفاً على الجانب الآخر من مقصورتي، ورأيت شاباً أسود طويل القامة ونحيفاً واقفاً، يرتدي بدلة رخيصة بربطة عنق في شكل قوس، ويضع نظّارة كالتي يضعها أنصار موسيقا الجاز. لا بدَّ أنَّه الموظّف الجديد الذي اختاره المدير للعمل معنا، والذي كان جالساً هناك طوال الوقت يستمع إلى ما يقوله إد عنه.

قال: «اسمي هوارد، إذا كان لديك أدنى شكّ».

أرخيت وجهي إلى ابتسامة، ورحت أتخيّل الدّمى التي تشاهدها فيوليت في برنامج افتح يا سمسم. «هوارد»، كرّرت، وقفزت واقفة على قدميَّ، ومددت يدي على الفور لمصافحته، وقلت: «أنا كينيدي. يسرّني حقاً أن ألتقيك».

فقال: «كينيدي، مثل جون ف؟»

أُسأل كثيراً عن اسمي، فأقول: «أو روبرت»، مع أنّ هوارد كان محقاً. لعلّي أفضّل أن يُطلق عليَّ اسم السياسيّ الذي حقّق أشياء كثيرة في مجال الحقوق المدنيّة، لكنَّ أمّي كانت معجبة بأخيه سيّئ الحظّ، وأسطورة قصر كاميلوت.

سأبذل جهدي ليعرف هذا الشابّ المسكين أنّ شخصاً واحداً في الأقلّ، في هذا المكتب، سعيد بوجوده هنا، فقلت له، والابتسامة على وجهي:

«إذاً، أهلاً بك. إذا احتجت إلى أيّ شيء، وإذا كان لديك أيّ سؤال عن طريقة العمل هنا - فلا تتردّد في أن تسألني».

«عظيم. شكراً لك».

«وربّما نتناول الغداء معاً؟»

هزَّ هوارد رأسه، وقال: «يسعدني ذلك».

«حسناً. يجب أن أذهب إلى المحكمة الآن»، قلت متردّدة، ثمّ التفتُّ إلى الفيل القابع في الغرفة، وقلت: «لا تستمع أيضاً إلى إد. لا يفكّر الجميع هنا بالطريقة نفسها»، ابتسمت له، وأضفت، «أظنّ أنّ من الرائع أن تردَّ الجميل لمجتمعك».

ابتسم هوارد، وقال: «شكراً، لكن... لقد نشأتُ في دارين».

دارين. إحدى أغنى البلدات في الولاية.

ثمَّ جلس، واختفى وراء الحاجز الذي يفصل بيننا.

لم أكن قد شربت فنجان القهوة الثاني بعد، وكان عليَّ أن أشقَّ طريقي بصعوبة في حركة المرور الكثيفة، ومجموعة المراسلين المتشابكة، فتساءلت ما الذي يجري في قاعة المحكمة العليا. أنهينا حتّى الآن ثلاث قضايا: انتهاك جنائيّ لأمر تقييديّ لمتَّهم لا يتكلَّم اللغة الإنكليزيَّة، ومتَّهمة للمرّة الثانية شعرها مصبوغ باللون الأبيض وثمَّة هالات ترتسم تحت عينيها، يُزعم أنّها أصدرت شيكاً من دون رصيد بقيمة 1200 دولار لشراء حقيبة يد من ماركة مشهورة، ورجل كان من الغباء بحيث إنَّه لم يسرق هويّة شخص وبدأ يستخدم بطاقات ائتمانه وحسابه المصرفيّ فحسب، وإنّما اختار أن يسرق امرأة اسمها كاثي، ولم يخطر في باله أنَّه سيُقبض عليه.

ومرّة أخرى، كنت أردّد لنفسي إنّه لو كان زبائني أكثر ذكاء، لانقرضت مهنتنا.

إنَّ الطريقة التي نعمل بها في المحكمة العليا في نيو هافن عند توجيه اتهام إلى أحدهم، أن يعمد أحد المحامين في مكتب المساعدة القضائية، الذي أعمل فيه، إلى تمثيل أيّ شخص يمثل أمام القاضي ولا يوجد لديه محام خاصّ. وكما لو كنت عالقاً في باب دوّار، كلّما دخلت المبنى، رأيت ديكوراً وتصميماً جديدين، وتتوقَّع أن تعرف ما هي وجهتك، وكيف ستبحر هناك. في معظم الأوقات، أقابل موكِّليَّ الجدد عند طاولة الدفاع لأفهم بسرعة سبب اعتقالهم، وأحاول أن أخرجهم بكفالة.

هل قلت إنَّني أكره اليوم الذي يتمّ فيه توجيه الاتهام؟ حتّى لو أبليت بلاء حسناً، وتمكَّنت من إخراج المدَّعى عليه بكفالة شخصيّة، التي لولاها سيُسجن حتّى يحين موعد المحاكمة، من المرجّح أنَّني لن أكون المحامية التي ستواصل قضيّته. أمّا القضايا المهمَّة التي أريد الدفاع عنها، فإمَّا أن يأخذها منّي محام أقدم في المكتب، وإمَّا أن تُنقل إلى محام خاصّ، أي محام لقاء مبلغ كبير من المال.

لا بدَّ أنَّ مسار المتهم التالي سيكون على هذا النحو: «التالي: الولاية ضدّ جوزيف دوز هوكينز الثالث»، نادى كاتب المحكمة.

كان جوزيف دوز هوكينز شاباً صغيراً يملأ حبّ الشباب وجهه. بدا خائفاً جداً، وهذا ما ستفعله لك ليلة في السجن عندما تقتصر تجربتك المتعلّقة بالسلوك الإجراميّ على مشاهدة المسلسل المتلفز «*The Wire*».

قال القاضي: «السيّد هوكينز، أرجو أن تعرّف نفسك لأجل السجلّ؟»

«مممم، جو هوكينز»، أجاب الصبيّ، بصوته المتهدّج.

«أين تقيم؟»

«139، غراند ستريت، ويستفيل».

قرأ كاتب المحكمة الاتهام الموجَّه إليه: تجارة مخدّرات.

بحسب قَصَّة شَعر الفتى، مرتفعة الثمن، واستجابته بعينيه الواسعتين للنظام القانونيّ، لا بدّ أنّه كان يتعاطى شيئاً من قبيل أوكسي، وليس الميث أو الهيروين. قال القاضي على الفور: «جو، أنت متَّهم بتجارة المخدّرات. هل تفهم ماذا تعني هذه التهمة؟»

عندما هزَّ الصبيّ رأسه، أضاف القاضي: «هل يوجد محامي دفاع هنا اليوم؟»

نظر الصبيّ من فوق كتفه إلى القاعة، وبدا شاحباً قليلاً، ثمَّ قال: «لا».

«هل تريد أن تتحدّث إلى محام عامّ؟»

فقال: «نعم، يا حضرة القاضي».

وهنا جاء دوري.

تقتصر الخصوصيَّة على ما يسمّى مخروط الصمت عند طاولة الدفاع. قلت: «أنا كينيدي ماكوري. كم عمرك؟»

«ثماني عشرة سنة. في السنة الأخيرة في هوبكنز».

طبعاً المدرسة الخاصّة. «منذ متى وأنت تعيش في ولاية كونيتيكت؟»

«منذ أن كان عمري سنتين؟»

سألته: «هل هذا سؤال أو إجابة؟»

فقال: «إجابة»، وابتلع ريقه. كان حجم تفَّاحة آدم لديه بحجم عقدة قبضة قرد.

«هل تعمل؟»

تردَّد قليلاً، ثمَّ قال: «هل تقصدين إلى جانب بيع الأوكسي؟»

فأجبت على الفور: «لم أسمع».

«أوه، قلت...»

«لم أسمع ما قلته».

رفع عينيه، وهزَّ رأسه، وقال: «فهمت. لا، لا أعمل شيئاً».

«مع مَن تسكن؟»

«مع أمّي وأبي».

وضعت علامة على القائمة المرجعيَّة التي كنت قد وضعتها في ذهني، وطرحت عليه وابلاً من الأسئلة، ثمّ سألته أخيراً: «هل لدى والديك الموارد الكافية لتوكيل محام خاصّ؟»

نظر إلى بدلتي التي اشتريتها من محالّ تارغيت، والتي عليها بقعة حليب، عندما قلبت فيوليت صحن الحليب هذا الصباح، وقال: «نعم».

قلت له: «اسكت، ودعني أتكلَّم»، والتفتُّ إلى منصَّة القاضي، وقلت: «حضرة القاضي، إنَّ عمر جو الشابّ لا يتجاوز الثمانية عشر عاماً، وهذه أول جنحة له. وهو طالب في السنة الأخيرة في المدرسة الثانويّة، ويعيش مع أمِّه وأبيه - أمّه معلّمة في حضانة أطفال، وأبوه مدير بنك - لديهما منزلهما. أطالب بإطلاق سراحه بكفالة على أساس تعهُّد رسميّ منه».

التفت القاضي إلى نظيرتي في هذه الرقصة، المدّعية العامّة، التي تقف عند الطرف الآخر من منصَّة الدفاع، واسمها أوديت لوتون، التي تحبّ كثيراً أن تطالب بأحكام مثل عقوبة الإعدام. ومع أنَّ معظم المدَّعين العامّين والمحامين العامّين يدركون أنَّنا طرفان لعملة واحدة في جداول رواتب الموظّفين، ونترك العداء خلفنا في قاعة المحكمة، ونتواصل اجتماعياً خارجها، فإنّ أوديت تظلّ منطوية على نفسها. «ما الذي تريد أن تتوصّل إليه الولاية هنا أيّتها المستشارة؟»

رفعت عينيها. شعرها قصير جدّاً، وعيناها داكنتان إلى درجة أنّك لا تستطيع أن ترى بؤبؤ عينها. بدت مرتاحة تماماً، كما لو أنَّها عادت توّاً من صالون تجميل. فقد كان مكياجها لا تشوبه شائبة.

نظرتُ إلى يديَّ. إمَّا أنَّ بشرتي قد تآكلت، وإمَّا أنَّ هناك طلاء أخضر تحت أظافري، أو أنَّني بدأت أتعفَّن من الداخل.

قالت أوديت: «إنَّها تهمة خطِرة، إذ لم نعثر على مخدّر في حوزة السيّد هوكينز فحسب، وإنَّما كانت لديه نيّة لبيعه. إنَّ جعله طليقاً في المجتمع يشكّل تهديداً وخطأً فادحاً. تطلب الولاية أن تكون الكفالة عشرة آلاف دولار مع ضمان».

كرَّر القاضي قائلاً: «تُحدَّد الكفالة بعشرة آلاف دولار»، واقتاد حارس المحكمة جوزيف داوز هوكينز الثالث إلى خارج القاعة.

حسناً، لا يمكنكِ أن تفوزي بها كلّها. النبأ السارّ هنا هو أنَّ بإمكان أسرة جوزيف أن تغطّي مبلغ الكفالة - حتّى لو كان ذلك يعني أنّه سيضطرّ إلى عدم قضاء عطلة عيد الميلاد في باربادوس، والخبر الأفضل هو أنَّني لن أرى جوزيف داوز هوكينز الثالث مرة أخرى. ربما أراد أبوه أن يلقنه درساً بعدم إحضار محامي الأسرة منذ البداية، كي يمكث في زنزانة طوال الليل، لكنَّني متيقنة من أنَّها مسألة وقت قبل أن يتَّصل ذلك المحامي الذي يتقاضى أجراً عالياً بمكتبنا ويتولَّى قضيّة جوي.

ثمَّ سمعت صوتاً يقول: «الولاية ضدّ روث جيفرسون».

رأيت امرأة تُقاد إلى قاعة المحكمة مقيّدة بالسلاسل، لا تزال في ثوب نومها، وقد لفّت وشاحاً حول رأسها. لَمَّا دخلت القاعة، جالت بعينيها قاعة المحكمة، وللمرة الأولى أدركت أنَّ قاعة المحكمة مكتظة في يوم الثلاثاء هذا أكثر من المعتاد، لا بل كانت تغصّ بالناس.

قال لها القاضي: «أرجو أن تعرّفي نفسك لأجل السجلِّ؟»

فقالت: «روث جيفرسون».

«قاتلة»، صاحت امرأة من قاعة المحكمة، فثارت جلبة بين الحاضرين تحوَّلت إلى هدير. أجفلت روث. رأيتها تدير وجهها نحو كتفها، ثمّ أدركت أنَّها تمسح البصاق الذي بصقه عليها أحدهم من وراء الحاجز.

هرع حرس المحكمة، وجرّوا الرجل من مكانه - شخص ضخم فظّ لم أستطع أن أراه إلّا من الخلف، وقد رسم وشم صليب معقوف عليه أحرف عدَّة على فروة رأسه.

أمر القاضي بإحلال النظام في القاعة. وقفت روث جيفرسون شامخة، وراحت تبحث بعينيها عن شخص - أو شيء - لم تجده.

«روث جيفرسون»، صاح كاتب المحكمة، «أنتِ متَّهمة بالتهمة الأولى، جريمة قتل، والتهمة الثانية، القتل بسبب الإهمال».

كنت منهمكة في محاولة أن أعرف ما الذي يجري هنا، ولم أدرك أنَّ الجميع كانوا ينظرون إليَّ، وأنَّ هذه المرأة المدَّعى عليها قد قالت للقاضي إنّها في حاجة إلى محام عامّ.

نهضت أوديت واقفة وقالت: «لقد ارتكبت عملاً إجرامياً شنيعاً شمل قتل رضيع لا يزيد عمره على ثلاثة أيام، يا حضرة القاضي. وقد أبدت المدَّعى عليها كراهيتها وعداءها لوالدَي هذا الطفل، وستثبت الولاية أنَّ تصرّفها ذاك هو عن سابق إصرار، وبحقد متعمّد، في تجاهل طائش لسلامة المولود الذي تعرَّض في حقيقة الأمر لصدمة على يديها، أدّت إلى موته».

هل قتلت هذه المرأة مولوداً جديداً؟ بدأت سيناريوهات تدور في رأسي: هل هي مربيَّة؟ هل هي حالة هزّ الرضيع؟ هل هو موت مفاجئ؟

«هذا جنون»، انفجرت روث جيفرسون قائلة. لكزتها بمرفقي برفق، وقلت لها: «ليس هذا هو الوقت المناسب».

قالت بإصرار: «دعيني أتحدَّث إلى القاضي».

قلت لها: «لا، دعيني أتحدَّث إلى القاضي نيابة عنك». التفتُّ إلى منصَّة القاضي، وقلت: «حضرة القاضي، هل يمكننا أن نتحدَّث لحظة؟»

أخذتها إلى طاولة الدفاع، على بعد خطوات قليلة من المكان الذي كنّا نقف فيه، وقلت لها: «أنا كينيدي ماكواري. سنتحدَّث عن تفاصيل

قضيتك لاحقاً، لكنّي أريد الآن أن أطرح عليك بعض الأسئلة. منذ متى تقيمين هنا؟»

فقالت بصوت أجشّ وعنيف: «لقد قيّدوني. جاؤوا إلى منزلي في منتصف الليل، وكبّلوا يديَّ بالأصفاد، وكذلك ابني...»

«أفهم أنَّك منزعجة. لكن، لدينا عشر ثوان تقريباً لأتعرّف إليك، وأتمكّن من مساعدتك في الخروج من هذه التهمة».

فقالت: «هل تظنّين أنّك تستطيعين أن تعرفيني في عشر ثوان؟»

تراجعتُ. إذا كانت هذه المرأة تريد أن تفسد مثولها أمام المحكمة، فهذا ليس ذنبي.

«السيدة ماكواري»، قال القاضي، «لا يمكنني أن أنتظر كثيراً، من فضلك...»

التفتُّ نحو القاضي، وقلت: «نعم، حضرة القاضي».

«تقرّ الولاية بالطبيعة الخبيثة والبغيضة لهذه الجريمة»، قالت أوديت وهي تنظر إلى روث مباشرة. كان الانقسام بين هاتين المرأتين السوداوين أمراً لافتاً للنظر: البدلة الأنيقة التي ترتديها المدَّعية العامّة والحذاء العالي، والقميص الأنيق إزاء ثوب النوم ووشاح الرأس، اللذين ترتديهما روث. بدا ذلك كأنَّها لقطة في فيلم سينمائيّ. كما لو أنَّها دراسة حالة في دورة دراسيَّة لا أذكر متى حضرتها، «ونظراً لجسامة التهم الموجّهة إليها، تطلب الولاية احتجاز المدَّعى عليها وعدم منحها كفالة».

كان بإمكاني أن أشعر بالهواء الذي يندفع من رئتَيْ روث. قلت: «حضرة القاضي»، ثمَّ توقَّفت.

لا توجد لديَّ معلومات يمكنني أن أستخدمها. لا أعرف ما هي مهنة روث جيفرسون. لا أعرف إن كانت تمتلك منزلاً أم أنَّها انتقلت إلى ولاية كونيتيكت البارحة. لا أعرف إن كانت قد وضعت وسادة على وجه ذلك الطفل حتّى توقَّف عن التنفُّس، أم أنَّها غاضبة بحقّ لأنَّه وُجهت إليها تهمة ملفَّقة.

«حضرة القاضي»، كرّرت، «لم تقدّم الولاية أيّ دليل على مزاعمها المتوهّمة. فهذه تهمة شديدة الخطورة من دون دليل تقريباً. وفي ضوء ذلك، سأطلب إلى المحكمة أن تحدّد كفالة معقولة بمبلغ خمسة وعشرين ألف دولار».

كان ذلك أفضل ما يمكنني فعله لندرة المعلومات التي قدّمتها. وتكمن مهمّتي في أن أُخرج روث جيفرسون من هذه التهمة الموجّهة إليها بأكبر قدر ممكن من الكفاءة والإنصاف. نظرت إلى ساعة الحائط. ربّما لا يزال هناك عشرة موكّلين آخرين بعدها.

فجأة، شعرتُ أحداً يشدّني من كمّي. «هل ترين ذلك الشاب؟» تمتمت روث وهي تنظر إلى قاعة المحكمة. ثبَّتت نظراتها على شابّ يقف على قدميه في الجزء الخلفيّ من قاعة المحكمة، كما لو أنَّ مغناطيساً سحبه وجعله يقف منتصباً. «ذاك هو ابني»، قالت روث، ثمَّ التفتت إليَّ، «هل لديك أولاد؟»

فكّرت في فيوليت. تساءلت، أكبر مشكلة في حياتك هي ألّا يراك ابنك محبطة وأنت مكبَّلة اليدين.

«حضرة القاضي»، قلت، «أودّ أن أتراجع عمَّا قلته توّاً.

«عفواً أيتها المحامية؟»

«قبل أن نناقش موضوع الكفالة، أودُّ أن تتاح لي الفرصة لأتحدَّث قليلاً إلى موكّلتي».

قطَّب القاضي حاجبيه، وقال: «لقد منحتك وقتاً قبل قليل».

فقلت معدّلة كلامي: «أريد أن أحصل على فرصة لأتحدَّث إلى موكّلتي لأكثر من عشر ثوانٍ».

فرك القاضي يده على وجهه، وقال: «حسناً. بإمكانك أن تتكلّمي مع موكّلتك في أثناء الاستراحة، وسنعيد النظر في هذه القضيَّة مرّة ثانية».

أمسك الحارس ذراعَيْ روث. يمكنني أن أقول إنّها لا تعرف ما الذي يجري من حولها. «سأراك بعد قليل»، قلت لها، ثمَّ اقتيدت خارج قاعة

المحكمة. بعد لحظات، وجدت نفسي أدافع عن شابّ في العشرين مـن عمـره، يطلـق على نفسه الرمز # («مثل أمير، لكنّه ليس أميراً»، كما قال لي) رسم قضيباً عملاقـاً عـلى جدار جسر على الطريق السريع، ولم يفهم لماذا يُعدُّ ذلك عملاً إجرامياً، وليس فنّاً.

لديَّ عشر قضايا أخرى، كنت أفكّر في أثنائهـا في روث جيفرسـون. وبفضـل العقـد الذي أبرمته نقابة كتّـاب الاختـزال، الـذي يفـرض إعطـاء اسـتراحة لمـدّة خمـس عشرة دقيقة للذهاب إلى دورة المياه، خرجت من قاعة المحكمة وتوجّهت مباشرة إلى زنزانـة الحجز الرطبة القذرة التي وضعوا فيها موكّلتي.

رفعت عينيها عن السرير المعدنيّ الذي تجلس عليـه وهـي تفـرك رسـغها بعـد أن أزالوا الأصفاد عن رسغيها، التي كانت مكبَّلة بها في قاعة المحكمة، مثل أيّ متّهم آخـر، متَّهم بارتكاب جريمة قتل، فسألتني بصوت حادّ: «أين كنت؟»

فأجبتها: «أؤدّي عملي».

نظرت روث إلى عينيَّ، وقالت: «هذا ما كنت أفعله أنا أيضاً. فأنا ممرّضة».

بدأت أجمع الألغاز معاً: لا بدَّ أنَّ خطأً ما قد حدث في أثناء رعايـة روث للرضـيع. أمر يعتقد الادّعاء أنّه لم يكن حادثـاً. قلـت لهـا: «يجـب أن أحصـل منـك عـلى بعـض المعلومات. إذا لم ترغبي في أن تُحتجزي هنا حتّى يحـين موعـد محاكمتـك، فيجـب أن نعمل معاً».

صمتت روث لحظة طويلة، وقد فاجأني ذلك. فمعظم الأشخاص الـذين في وضـعها يتشبَّثون بشريان الحياة الذي يتيحه لهم محامي الدفاع، أمّا هذه المرأة فقد بـدا أنّهـا تحاول أن تعرف إن كنتُ أرقى إلى مستوى الدفاع عنها.

يجب أن أقرَّ بأنّه شعور مزعج، إذ لا ينحو موكليَّ إلى أن يصدروا أحكاماً على أحد، وإنّما هم أشخاص اعتادوا أن تصدر أحكام في حقّهم.

هزّت رأسها أخيراً.

قلت: «حسناً»، وانبعث من فمي نَفَسٌ لم أعرف أنَّني كنت أحبسه، «كم عمرك؟»

«أربعة وأربعون».

«هل أنتِ متزوّجة؟»

قالت روث: «لا. توفّي زوجي في أفغانستان عندما أُرسل إلى هناك في مهمّة للمرّة الثانية. انفجرت به عبوة ناسفة. حدث ذلك منذ عشر سنوات».

سألتها: «ابنك - هل هو ابنك الوحيد؟».

قالت: «نعم. إديسون، طالب في المدرسة الثانويّة»، وأضافت، «وهو يقدّم حالياً أوراقه إلى الجامعة. جاءت تلك الحيوانات إلى منزلي وقيّدوا طالباً متفوّقاً بمرتبة الشرف».

«سنصل إلى ذلك بعد قليل»، وعدتها، «هل لديك شهادة في التمريض؟»

«درست في جامعة ولاية نيويورك في بلاتسبرغ ثمَّ في مدرسة التمريض في جامعة ييل».

«هل أنتِ موظّفة؟»

«أعمل في مستشفى الرحمة - ويست هافن منذ عشرين سنة، في جناح الولادة. لكنَّهم طردوني البارحة».

دوّنت هذه الملاحظات في دفتر الملاحظات القانونيّة، ثمّ سألتها: «ما مصدر دخلك حالياً؟»

هزَّت رأسها، وقالت: «تعويضات وفاة زوجي العسكريّ».

«هل تملكين منزلك؟»

«المنزل في حيّ إيست إند».

إنَّه الحيّ نفسه الذي أقيم فيه أنا وميكا، حيّ يسكنه البيض الأغنياء. أرى عادة وجوهاً سوداء البشرة داخل سيّاراتهم. أعمال العنف نادرة في هذا الحيِّ، وعندما تحدث سرقة أو سرقة سيّارة، يمتلئ قسم التعليقات في صفحة صحيفة نيو هافن إندبندنت على الإنترنت بأشخاص من منطقة إيست إند يشتكون كيف أنَّ «عناصر» من الأحياء الفقيرة مثل ديكسويل ونيوهولفيل يتسلَّلون إلى قريتنا الصغيرة المثاليَّة.

بكلمة «عناصر»، فإنّهم يقصدون ذوي البشرة السوداء بالطبع.

«يبدو أنّك فوجئت»، قالت روث.

فأجبت بسرعة: «لا. فقد تصادف أنّني أسكن هناك أيضاً، ولم أرَك قطّ».

فقالت بجفاف: «إنّي لا أخرج كثيراً».

تنحنحتُ وقلت: «هل لديك أقارب في ولاية كونيتيكت؟»

«أختي أديسا، الجالسة إلى جانب إديسون. إنّها تعيش في شارع تشيرش ستريت ساوث».

إنَّه مجمّع سكنيّ يعيش فيه ذوو الدخل المحدود في حيّ هيل، يقع بين محطّة قطار الأنفاق يونيون وحيّ ييل الطبيّ. يعيش نحو 97 في المئة من الأطفال في هذا الحيّ في فقر، ولديَّ نصيبي من الموكّلين الذين أرافع عنهم من هذا الحيّ. ومع أنّه لا يبعد عن حيّ إيست إند سوى بضعة أميال، فهو عالم آخر: فتيان يبيعون مخدّرات لإخوانهم الأكبر سنّاً، وإخوانهم الأكبر سنّاً يبيعون المخدّرات لأنّه لا يوجد لديهم عمل، وتمارس بعض الفتيات الدعارة، وتطلق العصابات هناك النار كلَّ ليلة. تساءلت كيف تعيش روث حياة مختلفة عن حياة أختها.

«هل لا يزال والداك في قيد الحياة؟»

«أمّي تعمل في أبر ويست إند في مانهاتن»، قالت روث وأشاحت بعينيها عن عينيَّ، وقالت: «هل تتذكّرين سام هالويل؟»

«الذي يعمل في شبكة التلفزة؟ ألم يمت؟»

«نعم. لكنَّها لا تزال تعمل لدى أسرته».

فتحتُ الملفَّ باسم روث، الذي يضمّ لائحة الاتهام التي أصدرتها هيئة المحلّفين الكبرى، والتي عجَّلت مسألة القبض عليها. لم يتح لي الوقت الكافي لأنظر في أكثر من التهم الموجَّهة إليها قبل الآن، لكنّي رحت أتصفَّح الأوراق بسرعة، ثمّ سألتها: «مَن هو ديفيس باور؟»

لان صوت روث، وقالت: «الطفل الذي مات».

«أخبريني، ما الذي حدث؟».

بدأت روث تنسج قصّتها. مقابل كلّ حقيقة سوداء كثيفة تدور حولها، يلوح وميض فضيّ من العار. حدَّثتني عن والدَي الطفل، وملاحظة المشرفة، والختان والولادة القيصريَّة الطارئة، والنوبة التشنجية للمولود الجديد، وقالت إنَّ الرجل الذي يوجد وشم صليب معقوف على ذراعه، والذي بصق عليها في قاعة المحكمة هو والد الطفل. بدأت الخيوط تتشكَّل من حولنا، مثل الحرير المنبعث من شرنقة.

«... والشيء التالي الذي عرفته»، قالت روث، «هو أنَّ الطفل مات».

ألقيتُ نظرة على محضر الشرطة، وسألتها: «ألم تلمسيه قطّ؟»

حدَّقت إليَّ لحظة طويلة كأنَّها تحاول أن تعرف إن كان بإمكانها أن تثق بي، ثمَّ هزَّت رأسها، وقالت: «لم ألمسه إلّا بعد أن طلبت إليَّ الممرّضة المسؤولة أن أضغط على صدره».

انحنيتُ إلى الأمام. «إذا استطعت أن أخرجك من هنا وتعودين إلى منزلك وإلى ابنك، يجب أن ترسلي نسبة مئويّة من مبلغ الكفالة. هل لديك نقود كافية؟»

عدَّلت كتفيها، وقالت: «النقود التي ادّخرتها لأجل دراسة إديسون في الجامعة، لكنّي لن ألمسها».

«هل أنتِ مستعدَّة لأن ترهني منزلك؟»

«ماذا يعني ذلك؟»

قلت لها موضّحة: «أن تمنحي الولاية حقّ رهن البيت».

«ثمّ ماذا؟ إذا خسرت القضيّة، فهل هذا يعني أنَّ إديسون لن يعود لديه مكان يعيش فيه؟»

«لا. هذا مجرّد إجراء للتأكّد من أنّك لن تغادري المدينة إذا أخلوا سبيلك».

أخذت روث نَفَساً عميقاً، وقالت: «حسناً. لكن أريد أن تسدي لي معروفاً. أن تخبري ابني أنَّني على ما يرام».

هززت رأسي موافقة، ثمَّ هزَّت رأسها.

في تلك اللحظة، لم نعد امرأة بيضاء وأخرى سوداء، أو محامية ومتَّهمة. لا يفصلنا ما أعرفه عن النظام القانونيّ وما الذي ستتعلّمه. وإنَّما أُمَّان، تجلس إحدانا إلى جانب الأخرى.

لَمَّا سرت في قاعة المحكمة، شعرت أنني وضعت الآن عدسات تصحيحيَّة. لاحظت الجالسين في القاعة، الذين لم أُبدِ اهتماماً بهم منذ قليل. قد لا تكون لديهم وشوم مثل والد الطفل، لكنَّهم من البيض. قلة قليلة منهم ينتعلون أحذية دوك مارتنز، أمّا الباقون فينتعلون أحذية رياضيَّة. هل هم من ذوي الرؤوس الحليقة أيضاً؟ يحمل بعضهم لافتات عليها اسم ديفيس، وثبَّت بعضهم الآخر شرائط زرق بدبابيس على قمصانهم تضامناً. كيف فاتني كلّ ذلك عندما دخلت قاعة المحكمة؟ هل تجمَّعوا هنا ليدعموا أسرة باور؟

فكّرت في روث وهي تسير في الشارع في إيست إند، وتساءلت كم شخصاً من سكّان الحيّ الآخرين يتساءلون ما الذي تفعله هنا، حتّى لو لم يقولوا ذلك في وجهها. كم من السهل الاختباء وراء البشرة البيضاء، قلت

لنفسي وأنا أنظر إلى هؤلاء المتعصِّبين المحتملين، الذين يدَّعون أنَّ العرق الأبيض عِـرق متفوّق. قرينة الشكّ لصالحك. فأنت لست مشتبهاً فيك.

برزت الوجوه السود القليلة في القاعة في تناقض شديد. توجّهت نحو الشابّ الذي أشارت إليه روث، والذي نهض واقفاً على الفور. قلت له: «إديسون؟ اسمي كينيدي».

كان أطول قامة منّي بثلاثين سنتمتراً تقريباً، لكنَّ وجهه لا يزال وجه طفل. سألني: «هل ماما بخير؟»

«إنّها على ما يرام، وقد أرسلتني لأخبرك بذلك».

«حسناً، لقد أمضيت معها وقتاً طويلاً»، قالت المرأة الواقفة إلى جانبه، لها ضـفائر طويلة يتخلّلها لون أحمر، وبشرتها أغمق بكثير من بشرة روث. كانت تشرب كولا مـع أنّه لا يسمح بإدخال الطعام أو الشراب إلى قاعة المحكمة، ولَمَّا رأتنـي أنظـر إلى علبـة الكولا، رفعت حاجبها كما لو أنّها تتحدَّاني أن أجرؤ وأقول لها شيئاً.

«لا بدَّ أنكِ أخت روث».

«لماذا؟ لأنّني الزنجيّة الوحيدة في هذه القاعة بالإضافة إلى ابنها؟»

تذكَّرت الكلمـة التـي اسـتخدمتها، والتـي أنـا متأكـدة مـن أنَّهـا ردَّة الفعـل التـي تنتظرها. إذا كانت روث حكمية أو حادة، فإنّ أختها مثل قنفذ تعاني من مشكلة عدم التحكّم بغضبها. «لا»، قلت بالنبرة عينها التي أسـتخدمها مـع فيوليـت عنـدما أحـاول مجاراتها، «أولاً، وقبل كلّ شيء، أنتِ لسـت الشـخص الوحيـد... الملـوّن... هنـا. وثانيـاً، قالت لي أختك إنّك تجلسين مع إديسون».

«هل يمكنك أن تُخرجيها؟» سألني إديسون.

ركّزت انتباهي عليه، وقلت: «سأبذل قصارى جهدي».

«هل أستطيع أن أراها؟»

«ليس الآن».

فُتح الباب المؤدّي إلى مكتب القاضي، ودخل كاتب المحكمة، وطلب إلى الجميع الوقوف، ثمَّ أعلن عن عودة القاضي.

قلت له: «يجب أن أذهب».

ركّزت أخت روث نظرها عليَّ، وقالت: «ابذلي جهدك أيّتها الفتاة البيضاء».

جلس القاضي إلى المنصَّة، واستدعى قضيَّة روث من جديد. أُحضرت روث من داخل المبنى، وأخذت مكانها إلى جانبي. نظرت إليَّ نظرة ممتلئة بالتساؤل، فأومأت لها برأسي: كلّ شيء على ما يرام.

«السيّدة ماكوري»، قال القاضي، «هل أتيح لك متَّسع من الوقت لتتحدَّثي إلى موكّلتك؟»

فقلت: «نعم، حضرة القاضي. قبل بضعة أيام فقط، كانت روث جيفرسون ممرّضة في مستشفى الرحمة -ويست هافن، تقوم على رعاية النسوة اللاتي يدخلن في مرحلة المخاض، والأطفال حديثي الولادة، كما كانت تفعل طوال السنوات العشرين الماضية. وعندما تحدث حالة طبية طارئة تتعلَّق بطفل رضيع، فإنّ روث تعمل مع أشخاص آخرين في المستشفى لإنقاذ حياة الطفل. وعلى نحو مأساويّ، لم يكن من المفترض أن يحدث، ونتيجة التحقيق الذي لم يُبتّ فيه، أُوقفت روث في عملها. إنَّها خريجة جامعيَّة، وابنها طالب متفوّق بمرتبة شرف، وزوجها بطل عسكريّ ضحَّى بحياته في سبيل بلدنا في أفغانستان. تعيش مع ابنها في الحيّ، ولديها أسهم المنزل الذي تسكنه. لذلك، فإنّي أطلب إلى المحكمة أن تقدّم كفالة معقولة، فلا تشكّل موكّلتي خطراً شديداً، ولا يوجد لديها سجلّ سابق، وهي مستعدّة للالتزام بأيّ شروط تحدّدها المحكمة بشأن كفالتها. إنَّها قضيّة يمكن الدفاع عنها بقوّة».

لقد أظهرت روث أنّها مواطنـة أمريكيّـة مسـتقيمة أُسيء فهمهـا. والشيء الوحيـد الذي لم أفعله هو أن أرفع العلم الأمريكيّ وألوّح به في قاعة المحكمة.

التفت القاضي إلى روث، وقال: «ما مقدار الأسهم التي نتحدّث عنها؟»

«أستميحك عذراً؟»

سألتها: «ما قيمة الرهن العقاريّ على منزلك؟» فأجابت روث: «مئة ألف دولار».

هزَّ القاضي رأسه، وقال: «سأحدّد كفالة بقيمة مئة ألـف دولار. كشرط مـن شروط الكفالة، وسأقبل بوضع المنزل في الكفالة. القضيّة التالية؟»

بدأ أنصار البيض العنصريين في قاعة المحكمة يطلقـون صيحات اسـتهجان. لسـت متيقنة من أنَّهم سيكونون سعداء بأيّ حكم أقـلّ مـن الإعـدام بالسـحل والقتـل عـلى أيـدي الرعـاع. أمـر القـاضي بـإحلال النظـام والهـدوء في قاعـة المحكمـة، وراح يضرب بمطرقته، ثمَّ قال أخيراً: «أخرجوهم من قاعة المحكمة»، وبدأ حرّاس المحكمة يتحرَّكون بين الممرَّات.

«ما الذي يجري الآن؟» سألتني روث.

«ستخرجين».

«شكراً لله. كم سيستغرق ذلك؟»

نظرت إليها، وقلت: «يومين».

أمسك الحارس بذراع روث ليعيدها إلى زنزانـة الحجـز. بيـنما كانـت تُقـاد بعيـداً، انزلقت تلك الستارة خلف عينيها، وللمرَّة الأولى رأيت الذعر فيهما.

ليس الأمر كما يُعرض عبر التلفـاز وفي أفـلام السـينما، إذ إنّـك لا تخـرج مـن قاعـة المحكمة حرّاً هكذا، وإنّما عليك أن تحصل على بعض الوثـائق المحـدّدة والتعامـل مـع ضامنين. أعرف ذلك لأنّنـي محاميـة عامَّـة، ويعـرف معظـم مـوكِليَّ ذلـك لأنّ بعضـهم يرتكب جنحاً متكرّرة.

أمّا روث، فهي ليست مثل معظم موكّلِيَّ.

حتّى إنّها ليست واحدة منهم، عندما تفكّر في الأمر جيّداً.

أعمل في مكتب المحامي العامّ منذ أربع سنوات تقريباً، وتولّيت قضايا سرقة وفساد إجراميّ وسرقة هويات وشيكات بلا رصيد عدَّة، حتّى أصبح بإمكاني أن أرافع فيها في نومي. أمّا هذه فهي قضيّة جريمة قتل، محاكمة عالية المستوى، ستُخرج من يدي عندما يُحدَّد موعد المحكمة، وستذهب إلى محام آخر في مكتبي ذي خبرة أكثر منّي أو إلى محام خاصّ.

على المدى البعيد، لن أكون محامية روث، أمّا الآن، فأنا لا أزال محاميتها، وأستطيع مساعدتها.

بصمت، شكرت العنصريين البيض الذين أحدثوا هذه الجلبة. ثمّ جريت في الممرّ في قاعة المحكمة إلى إديسون وخالته، وقلت لأختها: «اسمعي. يجب أن تُحضري نسخة مصدَّقة من سند ملكيّة منزل روث، ونسخة مصدّقة من التقييم الضريبي، ونسخة من آخر دفعة للرهن العقاريّ تُظهر المبلغ المتبقّي من الرهن، ويجب إحضارها كلّها إلى مكتب الكاتب...»

لاحظت أنَّ أخت روث راحت تحدّق إلى وجهي كأنَّني كلّمتها باللغة الهنغاريَّة، لكنّي تذكّرت أنّها تقيم في شارع تشيرش ستريت ساوث، وأنّها لا تمتلك المنزل الذي تسكن فيه، لذلك قد تكون هذه أيضاً لغة أجنبية بالنسبة إليها.

ثمَّ رأيت إديسون يدوّن كلَّ ما قلته على ظهر إيصال أخرجه من محفظته، وقال: «سأحضر كلَّ ما طلبتِه».

أعطيته بطاقتي، وقلت له: «هذا رقم هاتفي الخلويّ. إذا كان لديك أيّ أسئلة، يمكنك أن تتصل بي، لكن لن أكون الشخص الذي سأدافع عن قضيّة أمّك. سيتواصل شخص آخر من مكتبي معك بعد أن تخرج».

أثار هذا الاعتراف انتباه أخت روث، فقالت: «إذاً، هذا كلّ شيء؟ وضعتِ منزلها قيد الرهن لتخرجيها من السجن، إذاً هل أنهيت عملك

الجيّد الآن؟ أظنّ، بما أنَّ أختي سوداء، فمن الواضح أنّها هي التي ارتكبت الجريمة وأنتِ تفضّلين ألّا توسّخي يديك، أليس كذلك؟»

ما قالته شيء سخيف على مستويات عدَّة، ليس أقلّها أنّ معظم موكلِيَّ أمريكيون من أصل أفريقيّ. لكن، قبل أن أتمكّن من توضيح التسلسل الهرميّ للسياسة في مكتب المحامي العامّ، تدخَّل إديسون، وقال: «خالتي، اهدئي» ثمّ التفت إليَّ، وقال: «أنا آسف».

«لا»، قلت له، «أنا كذلك».

لَمَّا عدت إلى البيت، في تلك الليلة، كانت أمّي جالسة على الأريكة تشاهد برنامج ديزني جونيور عبر شاشة التلفاز، في يدها كأس من النبيذ الأبيض. إنَّها تشرب كأساً من النبيذ الأبيض مساء كلّ يوم، منذ أن تسعفني ذاكرتي كانت تسميه «دواءها» عندما كنت صغيرة، وكانت فيوليت متكورة إلى جانبها، تغطّ في نوم. قالت أمّي إنَّ قلبها لم يسمح لها بأن تحرّكها من مكانها. جلست إلى جانب ابنتي بحذر، وتناولت زجاجة النبيذ من على الطاولة الصغيرة، وأخذت جرعة منها مباشرة. قوَّست أمّي حاجبيها، وسألتني: «هل كان الأمر سيّئاً إلى هذه الدرجة؟»

«لا تعرفين كم كان سيّئاً»، ومسّدتُ شعر فيوليت، «لا بدَّ أنّك أرهقتِها اليوم».

«حسناً»، تردّدت أمّي، «حدثت مشادَّة بيننا في أثناء العشاء».

«هل بسبب شرائح السمك؟»

«لا، تناولتها، وستشعرين بالسعادة عندما تعرفين أنَّ أرييل غادر المبنى. في الواقع، هذا ما أزعجها. بدأنا نشاهد الأميرة والضفدع، وقالت فيوليت إنَّها تريد أن تكون تيانا في عيد الهالوين».

ثمَّ قالت: «كينيدي، ألا تظنين أنّ فيوليت ستكون سعيدة أكثر لو ارتدت ثوباً مثل سندريلا؟ أو رابونزيل؟ أو حتّى تلك اللعبة الجديدة ذات الشعر الأبيض التي تحوّل كلّ شيء إلى ثلج؟»

قلت: «إلسا؟ لماذا؟»

فقالت: «لا تجعليني أقولها بصوت عالٍ يا حبيبتي».

«هل تقصدين لأنَّ تيانا سوداء؟» قلت، وتذكّرت على الفور روث جيفرسون والبيض العنصريين الذين أطلقوا صيحات استهجان في قاعة المحكمة.

«لا أظنّ أنَّ فيوليت تعبِّر عن مسألة المساواة بقدر حبّها للضفادع. قالت لي إنّها ستطلب لعبة حيوان لأجل عيد الميلاد، وتقبّله، وترى ما الذي سيحدث».

«لن تحصل على ضفدع في عيد الميلاد. لكن، إذا أرادت أن تكون تيانا في عيد الهالوين، فسأشتري لها الثوب».

«سأخيط لها الثوب»، صحَّحت أمّي، «لن تشتري حفيدتي ثوباً رخيصاً يمكن أن تشتعل فيه النار إذا مشت إلى جانب فانوس».

«رائع. أنا سعيدة لأنّك استطعت أن تتغلَّبي على مقاومتك لتحقيق حلم فيوليت».

رفعت أمّي ذقنها قليلاً، وقالت: «لم أخبركِ بذلك حتّى لا تلوميني يا كينيدي. إنَّ نشأتي في الجنوب لا تعني أن أصبح متحيّزة».

قلت لها: «ماما، كانت لديك مربّية سوداء البشرة».

فقالت أمّي: «كنت أحبّ بيتي كثيراً، كما لو أنَّها كانت واحدة من الأسرة، غير أنّها... لم تكن».

صبَّت أمّي مزيداً من النبيذ في كأسها، ثمَّ تنهَّدت وقالت: «كينيدي. إنَّه مجرّد ثوب سخيف».

شعرت فجأة بتعب شديد. لا بسبب إيقاع عملي السريع أو بسبب عدد القضايا الكبير التي تولّيتها فحسب، وإنّما التساؤل إن كان ما أفعله يحدث فرقاً حقيقياً أيضاً.

«في إحدى المرّات»، قالت أمّي بصوت رقيق، «لَمَّا كنتُ في عمر فيوليت، حاولت أن أشرب من بركة الماء التي يشرب منها الملوّنون في الحديقة، عندما لم تكن بِيتي تنظر. صعدت فوق الحاجز الإسمنتيّ وأدرتُ المقبض. كنت أتوقَّع أن يحدث شيء غير عاديّ. كنت أتوقّع أن تظهر ألوان قوس قزح، لكنّها كانت مثل الماء الذي يشربه أيّ شخص آخر». التقت عيناها عينيَّ، وأضافت: «اللون البنفسجيّ سيجعل أجمل سندريلا صغيرة».

«ماما...»

«كنت أقول. كم سنة استغرقت ديزني حتّى أعطت كلّ أولئك الفتيات ذوات البشرة السوداء أميرتهنَّ الخاصّة بهنَّ؟ هل تظنين أنَّ من الصواب أن تريد فيوليت شيئاً تنتظره منذ زمن بعيد؟»

«ماما».

رفعت يديها باستسلام، وقالت: «حسناً. تيانا إذاً. انتهينا».

رفعت قنينة النبيذ، وأمالتها إلى الأعلى، وشربتها حتَّى آخر قطرة فيها.

بعد أن ذهبت أمّي، غططت في النوم على الأريكة مع فيوليت، ولَـمَّا استيقظت، كان فيلم (الملك الأسد) يُبَّث عبر قناة ديزني للأطفال. فتحت عينيَّ لأرى على الشاشة موت موفاسا الذي داس فوقه جاموس الماء، عندما دخل ميكا وخلع ربطة عنقه الخانقة بيد واحدة. قلت له: «مرحباً. لم أسمع صوت السيّارة».

«لأنّني نينجا عبقريّ متنكّر في زيّ طبيب عيون». انحنى وقبّلني، وابتسم لفيوليت التي كانت تشخر بصوت ناعم، وأضاف: «كان يومي ممتلئاً بالمياه الزرقاء (الغلوكوما) والسوائل الزجاجيّة. كيف كان يومك؟»

فقلت: «أقلّ جسامة من المعتاد».

«هل عادت المجنونة شارون؟»

لدى المجنونة شارون شيء لبيتر سالوفي، رئيس جامعة ييل. تترك له أزهاراً، ورسائل حبّ، وفي إحدى المرات تركت له ثياباً داخليّة. دافعت عنها في ستّ دعاوى قضائية، ويشغل سالوفي منصب رئيس الجامعة منذ عام 2013.

فقلت: «لا»، وحدّثته عن روث وإديسون وذوي الرؤوس الحليقة في قاعة المحكمة.

«حقاً؟» قال ميكا مبدياً اهتماماً كبيراً بذوي الرؤوس الحليقة، «مثل أولئك ذوي حمّالات السراويل والسترات الضيقة والأحذية الطويلة، وكلّ شيء؟»

«رقم واحد، لا، ورقم اثنان، هل يجب أن أخاف لأنّك تعرف كلّ ذلك؟» أزحتُ قدمي من فوق الطاولة الصغيرة ليجلس أمامي، «في الواقع، إنّهم يشبهوننا تماماً. إنّه أمر مثير للذعر حقاً. أقصد، ماذا لو كان جارك واحداً من أولئك العنصريين البيض وأنت لا تعرف ذلك؟»

فقال ميكا: «سأخرج بحذر، وأقول إنّ السيّدة غرينبلات ليست من منظمة حليقي الرؤوس»، قال ذلك ورفع فيوليت برفق بين ذراعيه.

«في كلّ حال، إنّها نقطة خلافيّة. إنّها قضيّة كبيرة لا يمكنني أن أدافع عنها»، قلت له وأنا أصعد الدرج إلى غرفة نوم ابنتنا، ثمّ أضفت، «روث جيفرسون تعيش في إيست إند».

«ها»، قال ميكا الذي وضع فيوليت في سريرها وغطّاها وقبّلها على جبينها.

«ماذا يُفترض أن يعني ذلك؟» سألته بعنف، مع أنّني أبديت ردّة الفعل نفسها.

فقال ميكا: «ليس من المفترض أن تعني أيَّ شيء. إنّه مجرّد ردّ».

«ماذا تقصد حقّاً، لكنّك مهذّب جداً ولا يمكنك أن تقولها؛ إنَّه لا توجد أُسر من السود في إيست إند».

«أظنّ. ربّما».

تبعتـه إلى غرفتنـا وفككـت سـحّاب تنـورتي، وخلعـت جـوربي. ارتـديت الفانيلـة والشورت اللذين أنام بهما عادة، ودخلـت الحـمَّام، وبـدأت أنظّـف أسـناني إلى جانـب ميكا. بصقت، مسحت فمي بظاهر يـدي. «هـل تعلـم أنَّـه في مسلسـل الأسـد الملـك، تتحدّث الضباع – الأشخاص الأشرار - إمّا بلهجة السود وإمَّا بلهجة القادمين من أمريكا اللاتينيَّة؟ ويُطلب إلى الأشبال الصغار ألّا يذهبوا إلى المكان الذي تعيش فيه الضباع؟»

نظر إليَّ دَهِشاً.

«هل تدرك أنَّ بشرة سكار (الندبة)، الشرير، داكنة أكثر من بشرة موفاسا؟»

«كينيدي»، قال ميكا، ووضع يديه على كتفي، ثمَّ انحنى وقبّلنـي، «هنـاك احـتمال ضئيل بأنّك تغالين في التفكير في هذا الأمر».

في هذه اللحظة بالتحديد، عرفت أنَّني سأقيم الـدنيا وأقعـدها لأجـل الـدفاع عـن روث.

من فخامة مكتبه عرفتُ أنَّ هذا المحامي جيّد؛ إذ لم تكن جدران مكتبه مطلية بالدهان وإنّما تكسوها ألواح خشبيَّة، وكانت كأس الماء التي أحضرتها لي السكرتيرة من الكريستال الثقيل. حتّى الهواء تنبعث منه رائحة قويَّة، مثل عطر سيّدة تخجل منّي عندما تراني في شارع عامّ.

مرّة أخرى، ارتديت اليوم السترة التي أتقاسمها أنا وفرانسيس، بعد أن كويت بنطالي، ووضعت على رأسي قبَّعة صوفيَّة، وأنزلتها على وجهي، ولم أتوقف عن فتل خاتم زواجي حول إصبعي. ربّما أصبحت أبدو مثل أيّ شخص عاديّ يريد أن يرفع دعوى على شخص آخر، بدلاً من الشخص الذي يتجنَّب عادة النظام القانونيّ ويأخذ حقّه بيده.

فجأة، رأيت رورك ماثيوز واقفاً أمامي. بدلته في غاية الأناقة، حذاؤه يلمع، يشبه أحد نجوم المسلسلات المتلفزة، ما عدا أنَّ أنفه غريب الشكل قليلاً، كما لو أنّه كُسر عندما كان يلعب كرة القدم في المدرسة الثانويَّة. مدَّ يده ليصافحني، وقال: «السيّد باور، لماذا لا تأتي معي؟»

أخذني إلى مكتب أكثر فخامة، ممتلئ بالجلد الأسود والكروم، وأشار إلى مكان على الأريكة الصغيرة لأجلس. «اسمح لي أن أعبّر لك عن أسفي على ما فقدته»، قال ماثيوز، كما يقول لي الجميع هذه الأيام. لقد أصبحت هذه الكلمات عادية جداً، وأصبحت تبدو مثل حبّات مطر لم أعد ألاحظها. «تحدَّثنا عبر الهاتف عن إمكان رفع دعوى مدنيَّة...»

قاطعته قائلاً: «مهما كان اسمها. لا أريد شيئاً إلّا أن يدفع المجرم عقاب هذا».

فقال ماثيوز: «آه. لهذا السبب طلبت إليك أن تأتي إلى هنا. كما ترى، فالأمر معقَّد جداً».

«ما الأمر المعقّد جداً فيها؟ إنّك ستقاضي الممرّضة، فهي التي فعلت ذلك».

تردَّد ماثيوز، وقال موافقاً: «يمكنك أن ترفع دعوى على روث جيفرسون»، ثمّ أضاف، «لكن، لنكن واقعيين – إنَّها امرأة مفلسة. كما تعلم، تجري الولاية حالياً محاكمة جنائيَّة، وهذا يعني أنّك إذا رفعتَ دعوى مدنيَّة في الوقت نفسه، فإنّ السيّدة جيفرسون ستطلب إظهار كلّ الوثائق المتعلّقة بالقضيّة كي لا تجرّم نفسها في أثناء فترة تعليق المحاكمة الجنائيَّة. وإذا رفعت دعوى مدنية ضدّها، فقد تُستخدم ضدّك عند استجواب الشهود في أثناء الدعوى الجنائيَّة».

«لم أفهم».

فقال ماثيوز بصراحة: «سيُظهرك الدفاع بأنّك شخص انتهازيّ تسعى وراء المال، وأنّك حاقد على المتهمة».

عدتُ وجلستُ، ووضعتُ يديَّ على ركبتيَّ، وقلت: «هكذا إذاً؟ لا توجد لديَّ قضيَّة؟»

فأجاب المحامي: «لم أقل ذلك، وإنّما أظنّ أنّك اخترت الهدف الخطأ. بعكس السيدة جيفرسون، فلدى المستشفى جيوب عميقة، ولديه التزام بالإشراف على العاملين فيه، وهو مسؤول عن تصرّفات الممرِّضة أو عدم تصرّفها. هذا ما أوصيك بأن ترفع الدعوى ضدّه. وسنظلّ نذكر اسم روث جيفرسون - لا تعرف، فهي لا تملك شيئاً حالياً، لكن ربّما تربح غداً اليانصيب أو تحصل على ميراث»، ورفع حاجبه، وأضاف، «بعد ذلك يا سيد باور، قد لا تحصل على العدالة فحسب - وإنّما تحصل على مبلغ كبير أيضاً».

هززت رأسي، وأنا أتخيَّل ذلك. فكَّرت كيف يمكنني أن أخبر بريت إن كنت أفعل الشيء الصحيح لأجل ديفيس. «إذاً، ماذا نفعل لنبدأ؟»

فقال ماثيوز: «الآن؟ لا شيء. لا شيء حتّى تنتهي الدعوى الجنائيَّة. ستظلّ الدعوى المدنيَّة قابلة للتطبيق عندما تنتهي الدعوى، وبهذه الطريقة لا يمكن استخدامها لتجريم شخصك». مال إلى الوراء، وفرد يديه، وقال: «عد إليَّ عندما تنتهي المحاكمة. سأكون هنا».

في البداية لم أصدِّق فرانسيس عندما قال إنَّ الموجة الجديدة للبيض المتفوّقين ستكون حرباً لا تُدار بقبضة اليد، وإنّما بالأفكار التي تُنشر بطريقة تخريبية ومجهولة عبر الإنترنت. لكنّي لم أكن غبياً إلى درجة أن أقول له إنّه ليس إلّا عجوزاً مجنوناً ساذجاً، لسبب واحد، وهو أنَّه لا يزال يُعدُّ أحد أساطير الحركة، والأهمّ من كلّ ذلك، فهو والد الفتاة التي لم أتوقَّف عن التفكير فيها.

كانت بريت ميتشوم بالغة الجمال، تمتلك أنعم بشرة لمستها في حياتي، ولها عينان زرقاوان شاحبتان تحيطهما بكُحل غامق. وبخلاف ذوات الرؤوس الحليقة الأخريات، فهي لا تحلق شعرها عند التاج وتترك ضفائر خفيفة تؤطّر بها وجهها ومؤخّرة عنقها، وإنّما كان شعرها كثيفاً يصل حتّى منتصف ظهرها، تضفره أحياناً، وتكون الضفيرة سميكة بحجم رسغي. كنت أفكّر دائماً كيف سأشعر عندما تتدلّى هذه الضفائر وتلامس وجهي مثل ستارة عندما تقبّلني.

لكن، آخر شيء كان يمكنني فعله هو أن أغازل فتاة يستطيع أبوها أن يقصم عمودي الفقريّ بمكالمة هاتفيّة واحدة، فبدأت أزورهما كثيراً بحجّة أنّ لديَّ سؤالاً لفرانسيس الذي كان يحبّ أن يراني لأنّني منحته الفرصة لأن يعبّر عن أفكاره عبر موقع البيض المتفوّقين على الإنترنت، بالإضافة إلى أنّني كنت أساعده في تغيير زيت شاحنته، وأصلح له حوض تصريف النفايات. أصبحت أساعده في كلِّ شيء، أمّا بالنسبة إلى بريت، فقد كنت أعشقها من بعيد.

ذُهلت عندما جاءت ذات يوم وأنا أقطع الحطب لفرانسيس، وقالت: «قل لي إذاً، هل الشائعات صحيحة؟»

سألتها: «أيّ شائعات؟»

فقالت: «يقولون إنّك هزمت كلّ أفراد عصابة الدرّاجات الناريّة، وأنّك قتلت والدك».

فقلت: «في هذه الحالة، لا».

«إذاً، ما أنت سوى صغير مثل الرجال الآخرين الذين يحبّون التظاهر بأنَّهم من البيض المتفوّقين العنصريين لينعموا بدفء أبي؟»

مصدوماً، رفعتُ عينيَّ إليها، ورأيت فمها يرتعش. رفعتُ الفأس فوق رأسي، وشددتُ عضلاتي، وهويت بالفأس على قطعة الخشب التي انفلقت إلى نصفين، ثمَّ قلت: «أحبّ أن أرى نفسي بين هذين النقيضين».

«ربّما أريد أن أرى ذلك بنفسي»، قالت، واقتربت منّي أكثر، «في المرة القادمة ستخرج مجموعتك للصيد».

ضحكت، وقلت: «لا يمكنني أن أُخرج ابنة فرانسيس ميتشوم مع رفاقي».

«لمَ لا؟»

«لأنّكِ ابنة فرانسيس ميتشوم».

«هذا ليس جواباً».

يا إلهي! نعم، الأمر كذلك، حتّى لو أنّها لم تكن ترى ذلك.

«يأخذني أبي مع مجموعته طوال حياتي».

وجدت صعوبة في تصديق ذلك. (اكتشفت لاحقاً أنَّ ما قالته صحيح، لكنّه كان يتركها نائمة في مقعد سيّارته الخلفيّ). «إنّكِ لست قويّة بما يكفي كي تأتي مع رفاقي»، أضفت لأزيحها عن ظهري.

عندما لم تردَّ، ظننت أنّها لن تأتي. لكن، لَمَّا رفعت الفأس عالياً وهويت بها على قطعة الخشب، اندفعت بريت كالبرق أمام مسار نصل الفأس،

فألقيت المقبض على الفور، وأحسست أنَّ الفأس أفلتت من يدي ووقعت على الأرض على مسافة ستّ بوصات منها. صرختُ: «يا إلهي! ما خطبك؟»

فأجابت: «ألستُ قويّة بما يكفي؟»

فقلت لها: «الخميس بعد حلول الظلام».

في كلِّ ليلة، أسمع ابني يبكي.

يوقظني الصوت، وهكذا أعرف أنّه طيف. أمّا بريت فلا تسمعه، لكنّها لا تزال تطفو في ضباب من الحبوب المنوّمة. أغادر الفراش وأتبوّل، وأتبع الضوضاء التي تزداد صخباً، لكن ما إن أصل إلى غرفة الجلوس، تتلاشى وتختفي، لا أجد فيها أحداً سوى شاشة الكمبيوتر، خضراء تلمع في وجهي.

أجلس على الأريكة، وعلى الرّغم من أنّني أتجرَّع ستَّ قناني من البيرة، أظلّ أسمع صوت ابني وهو يبكي.

قال لي والد زوجتي إنَّ حزني سيدوم أسبوعين، ثم أبدأ أشرب كلّ البيرة الموجودة في المنزل. في إحدى الليالي، جاء فرانسيس ووجدني جالساً على الأريكة في غرفة الجلوس، رأسي مدفون بين يديَّ، أحاول ألّا أسمع صوت بكاء الطفل. لوهلة ظننت أنّه سيهدّئ من روعي – مع أنّه رجل عجوز، لكنّه يفهمني – لكن بدلاً من أن يفعل ذلك، سحب سلك الكهرباء من الكمبيوتر المحمول وألقاه في وجهي، وقال ببساطة: «كن متوازناً»، وعاد إلى غرفته.

بقيت جالساً في مكاني لفترة طويلة، جهاز الكمبيوتر يضغط في جانبي مثل فتاة تطلب أن أرقص معها.

لا أستطيع أن أقول إنّني مددت يدي إليه، وإنّما بدا أنّه عاد إليَّ.

بلمسة مفتاح، حُمّلت صفحة الإنترنت. لم آتِ إلى هذه الغرفة من قبل أن تلد بريت ابننا.

لَمَّا تعاونت مع فرانسيس لإنشاء موقعنا على الإنترنت، قرأت كتيبات كثيرة حول ترميز البيانات والبيانات الوصفية، في حين كان فرانسيس

يلقّمني الموادّ التي سننشرها. أطلقنا على موقعنا اسم «*LONEWOLF*» (الذئب الوحيد) لأننا أردنا أن نكون هكذا.

لم نعد في ثمانينيّات القرن العشرين عندما خسرنا أفضل رجالنا في السجون. كان الحارس القديم قد بدأ يتقدّم في العمر، وبدأ الشبّان يتحمّسون كثيراً لحضور التجمّعات التي تقيمها جماعة كو كلوكس كلان حيث يجلس عدد من الشبّان الأجلاف يشربون ويتحدّثون عن الأيام الجميلة السابقة، لا يريدون سماع حكايات الزوجات القديمة، من قبيل أنّه تفوح من السود رائحة كريهة عندما يصبح شعرهم رطباً. كانوا يريدون إحصاءات يمكنهم أن يأخذوها إلى أساتذتهم وأقاربهم اليساريين الذين لا يتقبّلون فكرة أنّنا أصبحنا ضحايا التمييز الحقيقيين في هذا البلد.

قدَّمنا لهم كلَّ ما طلبوه.

نشرنا الحقيقة: فقد ذكر مكتب الإحصاء الأمريكي أنَّ البيض في الولايات المتّحدة سيصبحون أقليَّة في عام 2043، وأنَّ 40 في المئة من السود المسجَّلين في برنامج الرعاية الاجتماعيّة قادرون على العمل، لكنَّهم لا يعملون، وأنَّ حكومة الاحتلال الصهيونيَّة تستولي على بلدنا، ويمكن تتبع ذلك حتّى آلان غرينسبان في الاحتياطيّ الفيدراليّ.

سرعان ما أصبح موقع *Lonewolf.org* على الإنترنت شيئاً أكبر من نفسه، وأصبح البديل الأكثر شباباً وعصرية. حافة التمرّد الجديدة.

بدأت يداي تتحركان الآن فوق لوحة المفاتيح عندما دخلت الموقع بصفتي مدير الموقع. إنَّ سبب إنشاء هذا الموقع هو السرية والقدرة على التواري وراء ما أؤمن به. كلّنا مجهولو الهوية هنا، وكلنا إخوة أيضاً. هذا هو جيشي من الأصدقاء الذين لا تُعرف هوياتهم الحقيقيَّة.

لكن، كلّ شيء سيتغيَّر اليوم.

عدد كبير منكم يعرفونني من منشوراتي على مـدونتي التـي اسـتجبتم لهـا بكتابـة ردودكم وتعليقاتكم. إنكم مثلي وطنيون حقيقيون. مثلي، أردتم اتباع فكرة، لا شخص، واليوم، سأخرج إلى النور لأنَّني أريد أن تعرفوني. أريد أن تعرفوا ما الذي جرى لي.

اسمي تورك باور، إنِّي أكتب. وسأحكي لكم قصَّة ابني.

بعد أن ضغطت على زرّ الإرسال، رأيت قصَّة حيـاة ابنـي القصـيرة الشـجاعة عـلى شاشة الكمبيوتر. أردت أن أصدّق أنّه إذا كان عليه أن يموت، فإنّـه سـيموت في سـبيل قضيَّة. لأجل قضيّتنا.

لم أشرب في تلك الليلة، ولم أنم، وإنّما رحت أراقـب العـدَّاد في الجـزء العلـويّ مـن العنوان الذي يمثّل عرض كلّ صفحة.

1 قارئ.

6 قرّاء.

37 قارئاً.

409 قرَّاء.

لَمَّا أشرقت الشمس، أصبح أكثر من ثلاثة عشر ألف شخص يعرفون اسم ديفيس.

أعددت القهوة، ورحت أتصفَّح التعليقات وأنا أشرب أول كوب.

أنا في غاية الأسف لخسارتك هذه.

كان ابنك محارباً لأجل العِرق الأبيض.

لم يكن ينبغي أن يسمح للعلكة الزرقاء الملعونة أن تعمل في مستشفى للبيض.

تبرَّعت باسم ابنك لحزب الحرية الأمريكيَّة.

لكنّي تسمَّرت في مكاني عندما قرأت ما كتبه لي أحدهم:

تقول الرسالة إلى المؤمنين في روما: *12:19*: يا أحبَّائي، لا تنتقموا لأنفسكم، بل اتركوا العقاب للربِّ لأنَّه يقول في الكتاب: هذا كلام الربّ، أنا أنتقم، أنا أجازي.

في يوم الخميس، بعد أن تفادت بريت ضربة فأسي، تناولت العشاء معها وأبيها. كنَّا لا نزال نتناول الحلوى بعد العشاء عندما رفعت بريت عينيها، كما لو أنها تذكّرت شيئاً تريد أن تقوله لنا، وقالت: «لقد صدمتُ زنجيّاً بسيّارتي اليوم».

دفع فرانسيس كرسيه إلى الوراء مرة أخرى، وسألها: «وماذا كان يفعل أمام سيّارتك؟»

«لا أعرف. أظنّ أنّه كان يمشي. لكنّه بعج الحاجز الأماميّ».

«يمكنني أن ألقي نظرة عليها»، قلت لها، «كنت أعمل في إصلاح هياكل السيارات».

ارتسمت ابتسامة حول فم بريت، وقالت: «أراهن أنّك كنت تفعل ذلك».

احمرَّ وجهي ثلاثين درجة من اللون الأحمر عندما قالت بريت لأبيها إنّها أقنعتني بأن نذهب لمشاهدة فيلم رومانسي بعد العشاء. ربَّت فرانسيس على ظهري، وقال: «إنّك أفضل منّي يا بني»، وبعد قليل، صعدنا في سيّارتي لنمضي ليلة ممتعة.

كانت بريت مثل سلك حيّ، يئزّ في المقعد إلى جانبي. لم تتوقَّف عن الكلام. لم تتوقَّف عن طرح أسئلة: إلى أين سنذهب؟ من سيكون هدفنا؟ هل كنتُ هناك من قبل؟

قلت في نفسي، إمّا أن تسير الليلة على ما يرام وأكسب احترام بريتاني دائماً، وإمَّا ألّا تسير على ما يرام ويلوي أبوها عنقي لأنَّني عرَّضت ابنته للخطر.

أخذتها إلى باحة وقوف سيارات مهجورة، إلى جانب كشك لبيع النقانق، معظم زبائنه من المثليين الذين يلتقون هنا أحياناً ثمّ يختفون

وراء الأشجار. (حقّاً، هل هناك عبارة مبتذلة أكثر من أن يلتقي المثليون في كشك نقاق؟ إنّهم يستحقّون أن يُضربوا لأجل ذلك فقط).

سألتني: «هل سيلتقي الرجال الآخرون هنا؟»

فقلت: «لا يوجد رجال آخرون. كانت لديَّ مجموعة من الشبّان، لكن بعد أن انقلب أحدهم عليَّ، أدركت أنّني يجب أن أعمل وحدي. بهذه الطريقة، بدأت الشائعات تنتشر حول عصابة سائقي الدرّاجات الناريَّة. كان السبب الوحيد الذي جعلني أقضي على عصابة كاملة وحدي هو أنَّني لم أعد أثق بأحد آخر».

فقالت بريت: «فهمت. إنّه شيء فظيع أن يتخلَّى عنك الأشخاص الذين يُفترض بهم أن يدعموك».

نظرتُ إليها، وقلت: «بطريقة ما أظنّ أنَّكِ عشت حياة مرفهة».

«نعم، ما عدا ذلك الجزء من حياتي الذي تخلّت فيه أمّي عنّي عندما كنت طفلة، كما لو كنت... نفاية».

كنت أعرف أنّه لا توجد لدى فرانسيس زوجة، لكنّي لا أعرف ما الذي جرى، فقلت: «هذا شيء مقرف. أنا آسف».

لدهشتي، لم تكن بريت منزعجة، وإنما غاضبة. «أنا لست آسفة»، قالت وعيناها تحترقان مثل جمرتين في النار، «قال أبي إنّها هربت مع زنجيّ».

في تلك اللحظة، دخل رجلان كشك النقانق، وطلبا سندويشتين، ثمَّ خرجا وسارا في اتّجاه طاولة الحديقة نصف المكسورة.

«هل أنتِ جاهزة؟» سألت بريت.

«ولدتُ وأنا جاهزة».

أخفيتُ ابتسامتي. هل أنا شجاع إلى هذه الدرجة؟ ترجَّلنا من سيّارتي ومشينا في الشارع كما لو أنَّنا سنتناول سندويشة أيضاً، لكنّي توقّفت أمام

الطاولـة وابتسـمت، وقلـت: «هيـه، هـل توجـد لـدى أحـد مـنكما، أيُّهـا المنكوحـان، سيجارة؟»

تبادلا النظرات فيما بينهما. أحبّ تلك النظـرة. إنَّهـا النظـرة عينهـا التـي تراهـا في عينَي حيوان عندما يدرك أنّه أصبح محـاصراً. قـال الشـابّ الأشـقر، القصـير النحيـف، لرفيقه: «لنذهب من هنا».

«انظر، هذا لا يصلح لي»، قلت وأنا أقـترب منـه أكـثر، «لأنَّنـي لا أزال أعـرف أنّـك هناك»، وأمسكت بالشابّ الأشقر من حنجرته ولكمته لكمـة جعلـت الـدنيا تسـودّ في عينيه.

سقط على الأرض مثل قطعة حجر. لَمَّا التفتُّ، رأيت بريت تثب فوق ظهر الشاب النحيف وقد ركبت فوقه مثل كابوس، وغرزت أظافرها في خدّه، ولَمَّا تعثَّر وسقط على الأرض، أخذت تركلـه عـلى كليتيـه، ثـمَّ جلسـت فوقـه، ورفعـت رأسـه وضربتـه عـلى الرصيف.

لقد قاتلت مع نسوة من قبل. ثمّـة اعتقـاد مغلـوط شـائع بـأنَّ الفتيـات حليقـات الـرؤوس خاضـعات وحافيـات الأقـدام، حبـالى في معظـم الأوقـات، لكـن إذا أردتِ أن تنتمي إلى جماعة حليقات الرؤوس، يجب أن تكوني عاهرة قاسية. ربما لم توسّخ بريـت يديها من قبل، لكنها كانت طبيعية.

لَمَّا كانت لا تزال تضرب جسداً متراخياً، فاقد الوعي، سحبتها وحثثتها قائلاً: «هيّا»، وجرينا معاً إلى السيّارة.

انطلقنا إلى تلّ يطلُّ عـلى مهـبط الطـائرات في مطـار تويـد. كانـت أضـواء المـدرج تومض في وجهنا عندما جلسنا فوق غطاء السـيارة، تسـبح بريـت في الأدرينـالين الـذي غمرها. «يا إلهـي!»، صـاحت ورفعـت حنجرتهـا إلى سـماء الليـل، «كـان ذلـك شـيئاً لا يصدّق. أشعر... أشعر...»

لم تجد الكلمة، لكنّي وجدتها. فأنا أعرف كـم تكـون محتقنـاً في داخلـك وتريد أن تنفجر. أعرف كيف تشعر عندما تسبّب ألماً لشـخص آخـر لبضـع

ثوان، بدلاً من أن تشعر به أنت نفسك. قد يكون مصدر قلق بريت مختلفاً عن مصدر قلقي، لكنّها كانت تكبح نفسها حتّى وجدت أخيراً منفذاً لها. قلت لها: «إنّه شعور بالحريّة».

«نعم»، تنفّست وراحت تحدّق إلى وجهي، «هل شعرت يوماً أنّك لا تنتمي إلى بشرتك؟ مثل أن تشعر بأنّك شخص آخر؟»

طوال الوقت، قلت في نفسي. لكن بدلاً من أقول لها ذلك، انحنيت وقبّلتها.

دارت حول نفسها ثمّ جلست فوقي، وجهها يلاصق وجهي. قبّلتني بعنف، عضّت شفتي، وراحت تلتهمني. حشرت يديها تحت ذيل قميصي، وراحت تتحسّس أزرار بنطالي. «هيه»، قلت لها، وحاولت أن أمسك رسغيها، «لسنا في عجلة من أمرنا».

فهمست وفمها على رقبتي: «نعم، توجد».

كانت تشتعل كالنار، ولو اقتربت من النار كثيراً، فإنّها ستشتعل فيك أيضاً. تركتها تنزلق تحت سحّاب بنطالي، وساعدتها في رفع تنورتها وخلع سروالها الداخليّ. أنزلت بريت نفسها فوقي، ورحت أتحرّك في داخلها مثل بداية شيء ما.

في صباح يوم الاستدعاء إلى المحكمة، ارتديت ثيابي، في حين كانت بريت لا تزال نائمة في البيجاما التي لم تخلعها منذ أربعة أيام. تناولت فطوري وهيّأت نفسي للحرب.

رأيت في المحكمة قرابة عشرين صديقاً لم أكن أعرفهم، كانوا أتباعاً مخلصين لموقع «*LONEWOLF*»، ويكتبون تعليقات على الموقع، رجالاً ونساء قرؤوا عن ديفيس، وأرادوا أن يفعلوا أكثر من مجرّد إبداء تعاطفهم كتابة. وكانوا مثلي، لا يبدون كما يتوقّع معظم الناس أن يكون شكل «حليقي الرؤوس»، فلم يكن أحد منهم حليق الرأس إلّا أنا، يرتدون جميعاً ثياباً عاديّة، ووضع بعضهم دبابيس صغيرة على ياقاتهم عليها صورة

«عجلة الشمس»، ووضع بعضهم شريطاً أزرق لأجل ديفيس. ربَّت بعضهم على كتفـي أو ناداني باسمي، وأومأ آخرون برؤوسهم، بأن أمالوا رؤوسهم قليلاً عندما كنت أسير في الممرّ، لإبلاغي أنَّهم جاؤوا إلى هنا لدعمي.

في تلك اللحظة، اقتربت منّي امـرأة سـوداء. كـدت أدفعهـا وأُبعـدها عنّـي عنـدما بدأت تتكلَّم - ردّة فعل غير عادية - ثمَّ علمت أنّها المدَّعية العامّة من صوتها.

كنت قد تحـدّثتُ إلى أوديـت لوتـون عـبر الهـاتف، لكنّـي لم أتخيَّـل أنَّهـا سـوداء. شعرت كأنَّ أحداً وجَّه إليَّ صفعة، مؤامرة ما.

لعلَّ ذلك شيء جيّد. ليس من المستغرب أنَّ الليبراليين الذين يديرون نظام المحاكم هم ضدّ الأنغلو - ساكسون الأمريكيين، لذلك لا يمكننا أن نحصل على محاكمـة عادلـة. سوف يحوّلون الاتّهام ضدّي بدلاً من إدانة تلك الممرّضة، لكن إذا كانت المحامية التـي تدافع عن قضيّتي سوداء، فليس من الممكن أن أكون متحيّزاً، أليس كذلك؟

لن يعرفوا ما يدور في رأسي من أفكار أبداً.

تلا أحدهم اسم القاضي - دوبونت – الذي لا يبدو أنَّه اسم يهـوديّ، وهـي بدايـة جيّدة. ثمّ جلست أمام أربعة متهمين آخرين قبل أن ينادوا اسم روث جيفرسون.

انبعث أزيز في قاعة المحكمة مثل أزيز شواية، وبدأ الحـاضرون يطلقـون صـيحات استهجان، ورفعوا لافتات عليها صورة وجه ابني – الصورة التي وضـعتها عـلى الموقـع، الصورة الوحيدة التي أملكها عنه، ثمّ أُدخلت الممرّضة وهي ترتدي ثوب نوم، ويـداها مقيّدتان. راحت تنظر حولها في أرجاء القاعة تبحث عـن شيء مـا. تسـاءلت إن كانـت تحاول أن تراني.

قرّرت أن أسهّل عليها المهمّة.

في حركة سريعة، نهضت ووقفت، واستندت إلى الحاجز المنخفض الذي يفصلنا عن المحامين وكاتب الاختزال. أخذتُ نفساً عميقاً، وبصقتُ بصقة كبيرة أصابت العاهرة على خدّها.

يمكنني أن أعرف اللحظة التي عرفتني فيها.

على الفور، هرع اثنان من حرّاس المحكمة، وأمسكا بي، وجرّاني إلى خارج قاعة المحكمة، لكن لا بأس في ذلك أيضاً، لأنّه حتّى عندما يجرّونني إلى الخارج، فسترى الممرّضة الصليب المعقوف يتلوّى مثل أفعى في مؤخّرة فروة رأسي.

لا مانع من أن تخسر معركة تشنّها لتربح حرباً.

ألقى بي حارسا المحكمة الأحمقان خارج أبواب قاعة المحكمة الثقيلة، وقال لي أحدهم محذّراً: «لا تفكّر في أن تعود مرّة أخرى»، ثمّ دخلا واختفيا.

أرخيتُ يديَّ على ركبتيَّ، والتقطت أنفاسي. قد لا أتمكن من دخول قاعة المحكمة، لكن هذا بلد حرّ، بقدر ما أعلم. لا يمكنهم أن يمنعوني من الوقوف هنا لأرى روث جيفرسون وهي تُنقل إلى السجن.

لَمَّا رفعتُ عينيَّ، رأيتهم: شاحنات صغيرة تعلوها أطباق الأقمار الاصطناعيَّة، الصحافيّات يسوّين تنانيرهنّ الضيّقة، ويختبرن ميكروفوناتهنّ. لقد جاءت وسائل الإعلام لتنقل وقائع هذه القضيّة.

قال المحامي إنّهم في حاجة إلى والد حزين، لا إلى والد غاضب؟ يمكنني أن أمنحهم ذلك.

لكن، أوّل ما فعلته أنّني أخرجت هاتفي الخلويّ واتصلت بفرانسيس في البيت، وقلت له: «أيقظ بريت واجعلها تغادر السرير وتجلس أمام التلفاز»، ونظرت إلى عربات الأخبار، وأضفت، «القناة الرابعة».

ثمَّ أخرجت من جيبي القلنسوة التي وضعتها على رأسي في قاعة المحكمة صباح اليوم كي لا ألفت الانتباه إلى وشمي، إلّا عندما أريد ذلك. وضعتها على رأسي.

تذكَّرت ديفيس، لأنَّ ذلك كان كلّ ما أحتاج إليه كي تملأ الدموع عينيّ.

«هل رأيتِ ذلك؟» دنوت من مراسلة كنت قد رأيتها على شاشة محطة إن بي سي، «هل رأيتِ كيف أخرجاني من قاعة المحكمة؟»

نظرت إليَّ، وقالت: «آه، نعم. آسفة، لكننا هنا لنغطي قصة أخرى».

فقلت: «أعرف، لكن أنا والد الطفل الذي مات».

قلت للمراسلة كم كنا أنا وبريت متحمسين لإنجاب طفلنا الأول. وقلت لها إنني لم أر قط شيئاً أجمل من يديه الصغيرتين وأنفه الذي يشبه أنف بريت تماماً. قلت لها إن زوجتي لا تزال حزينة جداً على ما حدث لديفيس، ولم يعد في مقدورها أن تغادر السرير، حتَّى إنَّها لم تستطع أن تأتي إلى المحكمة اليوم.

قلت لها إنّها مأساة كبيرة بالنسبة إلى شخص تعهّد بأن يشفي الناس ويقتل رضيعاً لا حول له ولا قوة عن عمد، فقط لأنها انزعجت عندما مُنعت من رعاية مريضتها»، ثمّ أضفت، وأنا أنظر إلى المراسلة، «أفهم أنَّنا لم نرَ ذلك وجهاً لوجه، لكن ذلك لا يعني أنَّ ابني يستحقّ أن يموت».

سألتني: «ماذا تأمل أن تكون النتيجة يا سيّد باور؟»

فقلت لها: «أريد أن يعود ابني، لكنَّ ذلك لن يحدث».

ثمَّ اعتذرت. الحقيقة أنّني بدأت أشعر بالاختناق عندما تذكّرت ديفيس. ولم أشأ أن أظهر عبر التلفاز وأنا أبكي مثل امرأة، فابتعدتُ عن المراسلين الآخرين الذين اندفعوا ليتحدّثوا إليَّ، لكنّهم سرعان ما ابتعدوا عنّي عندما فُتحت أبواب المحكمة، وخرجت أوديت لوتون، وبدأت تقول إنّها جريمة شنعاء، وإنّ الولاية حريصة على تحقيق العدالة. انسللت إلى

جانب المبنى حيث كان البوّاب يدخّن سيجارة، وتوجّهت إلى رصيف التحميل في الخلف. أعرف أنّه يؤدّي إلى الباب في الأسفل، المفضي إلى زنزانات الاحتجاز.

لم أتمكّن من الدخول بسبب الحرّاس، لكنّني وقفت على مسافة بعيدة، متكوّراً على نفسي من الريح، حتّى توقّفت شاحنة كُتب على جانبها «مؤسّسة يورك الإصلاحيّة». إنّه السجن الوحيد للنساء في الولاية، ويقع في نيانتيك. المكان الذي لا بدّ أنّهم سيأخذون الممرّضة إليه.

في آخر لحظة، وقفت في طريقها فاضطرّ السائق إلى أن يحيد عن الطريق.

أعرف أنّ روث جيفرسون ستهتزّ داخل الشاحنة من هذه الحركة، وستنظر من النافذة لترى ما الذي سبّب تلك الهزّة.

وأنّني سأكون آخر شيء تراه قبل أن تذهب إلى السجن.

بعد أن أخذتُ بريت إلى كشك بائع النقانق، أصبحتُ زائراً دائماً إلى منزلها حيث كنت أدير من غرفة جلوس فرانسيس موقع *LONEWOLF* على الإنترنت، كنّا نستضيف فيه مناقشات: منتديات عن الضرائب، نتحدّث عن «جو القانونيّ، العامل الأبيض، ضدّ خوسيه، السارق غير القانونيّ؛ مقالات تدور حول السبب الذي جعل أوباما يدمّر اقتصادنا؛ ونادي الكتاب عبر الإنترنت؛ وقد خصّصنا قسماً للكتابة الإبداعيّة والشِّعر - شمل ثلاثمئة صفحة انتهت مع الحرب الأهليّة، وخصّصنا قسماً خاصّاً للنساء الأنغلو - سكسونيّات، ليتمكنّ من التواصل مع بعضهنّ بعضاً، وقسماً آخر للمراهقين لمساعدتهم في معرفة ما يجب أن يفعلوه عندما يقول لهم أحد الأصدقاء إنّه مثليّ (ضع حدّاً للصداقة على الفور، أو قل له إنّه لا يولد أحد هكذا، وإنّ هذا الميل سيتلاشى في النهاية)، وخصّصنا صفحة للرأي (أيّهما أسوأ: مثلّي أبيض أم أسود سويّ؟ ما هي الجامعات المعادية للبيض؟). وكان أكثر موضوعاتنا شعبية إقامة مدرسة للبيض

القوميين بدءاً من رياض الأطفال حتى الصف الثاني عشر، ويوجد لدينا أكثر من مليون تعليق وبوست.

وخصَّصنا أيضاً على الموقع قسماً للاقتراحات حول ما يمكن أن يفعله الأشخاص سواء أكانوا وحدهم أم داخل خلاياهم إذا ما أرادوا القيام بعمل ما من دون الترويج للعنف الصريح. وفي معظم الأحيان، كنّا نجد سبلاً نزرع فيها الرعب في نفوس الأقليّات لأنّها تعتقد أنّه يوجد جيش منّا بينهم، في حين لسنا في الواقع سوى شخص أو شخصين.

مارسنا، أنا وفرانسيس، ما كنّا نبشِّر به وندعو إليه، وكنا نتوجّه إلى منطقة معظم سكَّانها من السود، ونضع لافتة على الطريق السريع تقول إنّها تخصّ جماعة «كو كلوس كلان» (KKK). في إحدى الليالي، توجّهنا إلى (مركز الجالية اليهوديَّة) في ويست هارتفورد. وفي أثناء صلاة ليلة الجمعة، وضعنا نشرة تحت ممسحة الزجاج الأماميّ على كلّ سيارة مركونة في ساحة انتظار السيّارات: صورة لأدولف هتلر وهو يؤدّي تحيّته المعروفة، كتبنا تحتها بحروف كبيرة: «المحرقة كذبة كبرى»، وكتبنا على الجانب الآخر من الصورة هذه الحقائق خلف الصورة:

- كانت مادة «سيكلون باء» لإزالة القمل، وكي تُستخدم كغاز تحتاج إلى كميات ضخمة من المقصورات مُحكمة الإغلاق، ولم يكن أيّ منها موجوداً في المعسكرات.
- لم تكن هناك بقايا لآثار القتل الجماعي في المعسكرات. أين هي شظايا العظام والأسنان؟ أين هي أكوام الرماد؟
- المحارق الأمريكية تحرق جثة واحدة كل ثماني ساعات، أمَّا محارق الجثث في أوشفيتز فقد كانت تحرق 25 ألف جثة في اليوم؟ هذا مستحيل.
- كان الصليب الأحمر يتفقّد المعسكرات كلَّ ثلاثة أشهر، وقدَّم شكاوى كثيرة - لم يرد في أيّ منها ذكر عن قتل ملايين اليهود بالغاز.

- كرَّست وسائل الإعلام اليهودية الليبرالية هذه الأسطورة لتُبرز أجندتها.

في صباح اليوم التالي، نشرت صحيفة (هارتفورد كورانت) مقالاً عن أنَّ أحد النازيين الجدد تسلَّل إلى الحيّ، وأنَّ الآباء بدؤوا يشعرون بالقلق على أطفالهم. سيكون الجميع خائفين، وهذا ما نسعى إليه. ليس علينا أن نرهب أحداً ما دام بإمكاننا بثّ الذعر في نفوسهم.

في طريق عودتنا إلى المنزل، قال فرانسيس: «حسناً. كان ذلك عمل ليلة سعيدة».

هززت رأسي، لكني أبقيت عينيَّ على الطريق. كان فرانسيس يحرص على ذلك - فلم يكن يدعني أقود السيارة وجهاز الراديو مفتوح مثلاً حتّى لا يتشتَّت انتباهي بسهولة.

ثمَّ قال: «أريد أن أسألك سؤالاً يا تورك». انتظرت أن يسألني كيف يمكننا الحصول على أعلى تصنيف لموقعنا على الإنترنت في محرك البحث غوغل، أو إن كان في مقدورنا أن نبثَّ حلقات صوتيَّة، لكنَّه بدلاً من ذلك، التفت إليَّ، وقال: «متى ستجعل من ابنتي امرأة شريفة؟»

كدتُ أبتلع لساني، ثمَّ قلت: «أنا، ممم، يشرّفني أن أفعل ذلك».

نظر إليَّ، يقيّمني، ثمَّ قال: «جيّد. افعل ذلك قريباً».

كما تبيّن، استغرق ذلك بعض الوقت. فقد أردت أن يكون كلّ شيء مثالياً. فسألت عن اقتراحات على الموقع. اقترح أحدهم أن أتقدَّم لخطبتها وأنا أرتدي بدلة رسم عليها شعار الغستابو. وقال آخر إنّه أخذ حبيبته إلى المكان الذي التقيا فيها أول مرة، لكنّي رأيت أنَّ كشك بائع النقانق مع رجال مثليين ينفخ أحدهم الآخر في الغابة وراء الأشجار ليس المكان المناسب، وظهرت تعليقات عدّة حول ما إذا كان خاتم الخطوبة ضرورياً أو لا، لأنَّ اليهود هم الذين يديرون صناعة الألماس.

قرَّرت في النهاية أن أنقل إليها مشاعري. أخذتها ذات يوم إلى ذلك المكان. «حقّاً؟» قالت، «هل ستطبخ؟»

«أظنّ أنَّ بإمكاننا أن نفعل ذلك معاً»، قلت لها عندما دخلنا المطبخ. التفتُّ بعيداً لأنَّني ظننت أنَّها سترى مدى رعبي.

«ماذا يوجد لدينا؟»

«حسناً، لا تدعي أملك يخِب»، قلت لها وأريتها علبة حمّص، كتبت في الأعلى: لا توجد كلمات لأقول كم أحبّك أيّها الحمّص».

ضحكت، وقالت: «جميل».

أعطيتها كوز ذرة، وأشرت لها أن تقشّره. لَمَّا سحبت القشرة سقطت قصاصة كتب عليها: أظنُّ أنك رائعة.

بابتسامة عريضة، مدَّت يدها لأعطيها شيئاً آخر.

أعطيتها قنينة كاتشب عليها ملصق كتب عليه: أحبّك من طماطم رأسي.

«هذا جميل»، قالت بريت وهي تبتسم.

«أنا مقيّد بالموسم»، ومرَّرت إليها قطعة زُبد.

أنتِ نصف زبدتي.

ثمَّ فتحتُ الثلاجة.

على الرفّ العلويّ برزت أربع حبّات كوسا لتشكِّل الحرف M، وثلاث حبَّات جزر لتشكّل حرف A، وموزتان منحنيتان: r ،r، وقطعة من جذر الزنجبيل حرف: Y.

وعلى الرفّ التالي، كانت هناك صرَّة مغلَّفة بالسيلوفان من اللحم المفروم الذي شكّلته في هيئة الحرفين *ME*.

وعلى الرفّ السفليّ، وضعت قطعة قرع حفرت عليها اسم بريتاني.

غطّت بريت فمها بيدها، وجثوت على ركبتي. قدَّمت لها علبة فيها خاتم أزرق من الزبرجد بلون عينيها، وقلت لها متوسّلاً: «قولي نعم».

لَمَّا نهضت واقفاً وضعت الخاتم في إصبعها. «كنت أتوقّع أن أرى ربطة عنق كبيرة بعد كلّ ذلك».

تبادلنا القبلات، ورفعتها إلى المنضدة، فلفَّت ساقيها حولي. فكّرت في أن أمضي بقية حياتي مع بريت. فكّرت في أطفالنا. كيف سيشبهونها تماماً، وكيف سيكون لديهم أب أفضل من أبي بمليون مرّة.

بعد ساعة، لَمَّا احتضنّا بعضنا على أرضيّة المطبخ، فوق كومة ثيابنا، التصقت بريت بي وهمست: «أظنّ أنَّ الجواب نعم».

أضاءت عيناها، وجرت إلى الثلاجة، وعادت بعد ثوانٍ قليلة، وقالت: «نعم، لكن يجب أن تعدني أولاً بشيء. نحن...» وأسقطت في يدي بطيخة.

بطيخة صفراء.

* * *

لَمَّا عدت من المحكمة ودخلت البيت، كان التلفاز لا يزال مفتوحاً. قابلني فرانسيس عند الباب، نظرت إليه، يلوح على شفتي سؤال. قبل أن أسأله، رأيت بريت جالسة على الأرض في غرفة الجلوس، ووجهها على بعد بضع بوصات من الشاشة. كانت تذاع أخبار منتصف النهار، وكانت أوديت لاوتون تتحدَّث إلى المراسلين.

التفتت بريت، وللمرَّة الأولى منذ أن ولد ابننا، للمرَّة الأولى منذ أسابيع، ابتسمت، وقالت: «حبيبي». كانت مشرقة وجميلة. بادلتها الابتسامة، وقلت لها: «حبيبتي، أنتِ نجمة».

روث

قيّدوا يديَّ بالسلاسل.

هكذا تماماً، قيّدوا يديَّ أمامي، كما لو أنَّ ذلك لا يجعل مئتي سنة من التاريخ تجري في عروقي مثل تيَّار كهربائيّ، كما لو أنّني لا أستطيع أن أشعر بجدّة جدّتي وأمّها وهما تقفان في ساحة المزاد. قيّدوني بالسلاسل، وابني - الذي دأبت على أن أقول له، كلّ يوم منذ اليوم الذي ولد فيه، إنّك أكثر من لون بشرتك - يراني.

كان ذلك مهيناً أكثر من ظهوري في ثوب نومي أمام أعين الجميع، وأكثر من أن أضطرَّ إلى أن أتبوّل من دون أيّ خصوصيّة في زنزانة الحجز، وأكثر من أن يبصق عليَّ تورك باور، وهناك شخص غريب يتحدّث بالنيابة عنّي أمام القاضي. سألتني إن كنت قد لمست الطفل، وكذبت عليها، لا لأنّني كنت لا أزال أظنّ ذلك في تلك اللحظة، ولا لأنّه لا تزال لديّ وظيفة يمكنني أن أحتفظ بها، وإنّما لأنّني لم أستطع أن أفكّر بسرعة كافية ما هو الردّ الصحيح، الإجابة التي قد تطلق سراحي، ولأنّني لم أكن أثق بهذه المرأة الغريبة التي تجلس أمامي، والتي لست سوى واحدة من بين عشرين متّهماً ستراهم اليوم.

رحت أنصت إلى هذه المحامية التي اسمها كينيدي كذا، نسيت اسم أسرتها، وهي تتراشق بالكلام مع محامية أخرى. أمّا المدعية العامّة، وهي امرأة ملوّنة، فلم تنظر في عينيَّ مباشرة. تساءلت إن كان سبب ذلك أنَّها لم تكن تشعر بشيء إلّا بالازدراء تجاهي، مجرمة مزعومة... أم لأنّها تعرف أنّها إذا كانت تريد أن تؤخذ بجديّة، فعليها أن توسّع الهوّة بيننا.

أوفـت كينيـدي بوعـدها وأخرجتنـي بكفالـة. كـم أردت أن أعـانق هـذه المـرأة! أشكرها. «ماذا يحدث الآن؟» سـألتها، عنـدما سـمع النـاس في قاعـة المحكمـة القـرار، وأصبح شيئاً حيّاً يتنفَّس.

قالت لي: «ستخرجين».

«الحمد لله. كم سيستغرق ذلك من الوقت؟»

توقَّعت دقائق. ساعة في الأكثر. لا بدَّ من إجراء معاملات ورقيَّة، وأذهب لأثبت أنَّ كلَّ ذلك كان مجرّد سوء تفاهم.

«يومان»، قالت كينيدي، ثمَّ جـاء حـارس ضـخم، أمسـك بـذراعي ودفعنـي بقـوّة، وأعادني إلى حجرة الأرانب في زنازين الاحتجاز في قبو هذا المبنى البائس.

انتظرت في الزنزانة التي نقلوني إليها في أثناء فترة الاستراحة في المحكمـة. أحصـيت الكتل الخرسانيّة الموجودة على الحائط: 360. أحصيتها مرّة أخرى. رحت أفكّر في شكل وشم العنكبوت على فروة رأس تورك باور، وكيف أنّنـي لم أكـن أصـدّق أنّـه يمكـن أن يكون سيئاً إلى هذه الدرجة، لكنّي كنت مخطئة. لا أعرف كم مرَّ مـن الوقـت قبـل أن تأتي كينيدي. «ما الذي يجري؟» انفجرت، «لا يمكنني أن أبقى هنا أيّاماً أخرى».

تحدَّثت عن سندات الرهن العقاريّ ونسبها المئويّة. كانت الأرقـام تسـبح في رأسي. قالت: «أعرف أنّك قلقة لأجل ابنك. أنا واثقة بأنّ أختك ستعتني به».

نشيج تضخّم مثل أغنية في حنجرتي. تذكّرت منزل أختي الذي يردّ فيه أولادها على أبيهم عندما يطلب إلى أحدهم أن يلقي القمامة خارج البيت، وطعام العشاء حيث لا يتبادلون الأحاديث خلاله، وإنّما يتناولون وجبات طعام صينيّ جاهزة وهم يشـاهدون التلفاز مرتفع الصوت جدّاً. تذكّرت إديسون عندما كان يرسل لي رسـائل نصـيّة وأنـا في العمل.

«إذاً، سأبقى هنا؟» سألتها.

«ستُرحَّلين إلى السجن».

«سجن؟» سرت قشعريرة في جسدي»، «لكنّي ظننت أنّني سأخرج بكفالة؟»

«صحيح. لكنَّ عجلات العدالة تتحرَّك ببطء شديد، ويجب أن تبقي هنا ريثما تصبح الكفالة جاهزة».

فجأة، ظهر حارس لم أرَه من قبل عند باب الزنزانة، وقال: «أي تان السيّدتان، انتهى حديث القهوة».

نظرت كينيدي إليَّ، كلماتها سريعة وشرسة مثل طلقات رصاص، «لا تتحدّثي إلى أحد عن تهمك. سيحاول بعضهم إبرام صفقة لانتزاع معلومات منك. لا تثقي بأحد».

بمَن فيهم أنتِ؟ تساءلت.

فتح الحارس باب الزنزانة وأمرني أن أمدَّ ذراعَيّ. عادت تلك الأغلال والسلاسل من جديد. «هل هذا ضروريّ؟» سألته كينيدي.

فقال الحارس: «لست أنا من يضع القوانين هنا».

قادني إلى ممرّ آخر، ثمّ إلى رصيف التحميل حيث تنتظر شاحنة فيها امرأة أخرى مقيّدة بالسلاسل، ترتدي فستاناً ضيقاً، عيناها مكحلتان، وسترة تصل إلى منتصف أسفل ظهرها. «هل تحبّين ما ترينه؟» سألتني، فأشحت عينيَّ عنها على الفور.

صعد الضابط إلى المقعد الأماميّ وشغَّل محرّك السيارة.

«أيّها الضابط»، قالت المرأة، «أنا فتاة تحبّ جواهرها، لكنَّ هذه الأساور لا تتناسب مع أناقتي».

عندما لم يجبها، حوّلت عينيها إليَّ، وقالت: «أنا ليزا. ليزا لوت».

لم أتمالك نفسي. ضحكت وقلت لها: «أهذا هو اسمك حقاً؟»

«من الأفضل أن يكون كذلك لأنّني اخترته. أحبّه أكثر بكثير من... بروس». زمَّت شفتيها، وراحت تحدِّقني، تنتظر ردّة فعلي. انتقلت عيناي من يديها الضخمتين المشذبتين المطليتين بطلاء الأظافر إلى وجهها المذهل. إذا كانت تتوقع أن أُصدم، فلديها شيء آخر قادم. فأنا ممرّضة رأيت كلّ شيء حرفياً، بما في ذلك، رأيت رجلاً متحوّلاً جنسيّاً وهو حامل، في حين كانت زوجته عاقراً، ورأيت امرأة لديها مهبلان.

التقت نظراتي نظراتها، رافضة أن تخيفني، وقلت: «أنا روث».

«هل تناولتِ سندويشتك، يا روث؟»

«ماذا؟»

«الطعام، يا حلوة. إنّها أفضل بكثير في المحكمة ممّا هي عليه في السجن، أليس كذلك؟»

هززت رأسي، وقلت: «لم أفعل ذلك قبل الآن».

«يجب أن تكون لديَّ بطاقة مُثَقَّبة. كما تعلمين، من ذلك النوع الذي يمكنك أن تحصلي بها على قهوة مجانية أو أنبوب صغير من المسكرا في زيارتك العاشرة»، وابتسمت ابتسامة عريضة، وأضافت: «لماذا أنتِ هنا؟»

قلت: «أتمنَّى لو كنت أعرف».

«ماذا بحقّ الجحيم يا بنت؟» ردَّت ليزا، «كنتِ في قاعة المحكمة، ووجِّهت إليك تهمة، ألم تسمعي ما هي تهمتك؟»

أشحت بوجهي، ورحت أركّز على المشهد خارج النافذة، ثمّ قلت: «طلبت إليَّ المحامية ألّا أتحدَّث إلى أحد عن ذلك».

فقالت باستياء: «حسناً. عفواً يا صاحبة الجلالة».

في المرآة الخلفيّة، ظهرت عينا الضابط، كانتا حادّتين وزرقاوين، وقال: «إنّها متَّهمة بجريمة قتل»، ولم يقل أحدنا شيئاً آخر طوال الطريق.

لَمَّا تقدَّمتُ بطلب إلى مدرسة التمريض في جامعة ييل، طلبت أمّي إلى راعي كنيستها أن يصلّي مرّة أخرى لأجلي، على أمل أن يتمكّن الله من التأثير في لجنة القبول إذا لم تكن علاماتي تؤهّلني للقبول في الجامعة. أتذكّر أنّني شعرت بالخوف عندما جلست في الكنيسة إلى جانبها، عندما رفع المصلّون أرواحهم وأصواتهم إلى السماء لأجلي، فثمَّة أشخاص يموتون بالسرطان، وأزواج عقيمون يأملون في إنجاب طفل، والحروب القائمة في دول العالم الثالث - بعبارة أخرى، توجد أشياء أهمّ بكثير يجب على الله أن يفعلها في آن معاً، لكنَّ أمّي قالت إنَّ قضيّتي مهمّة بالقدر عينه، في الأقلّ بالنسبة إلى المصلّين. فقد كنت قصَّة نجاحهم، خريجة الجامعة التي ستُحدث فارقاً.

قبل بدء الدراسة بيوم واحد، أخذتني أمي لنتناول العشاء في أحد المطاعم. قالت لي: «مُقدّرٌ لك أن تفعلي أشياء صغيرة عظيمة، كما قال الدكتور كينغ». كانت تشير إلى أحد الاقتباسات الأثيرة لديها: إذا لم أستطع أن أفعل أشياء عظيمة، يمكنني أن أفعل أشياء صغيرة بطريقة عظيمة. وتابعت، «لكن، لا تنسي من أين أتيتِ». لم أفهم ما الذي كانت تقصده تماماً، فأنا واحدة من عشرات الأطفال في الحيّ الذي نعيش فيه، الذين ذهبوا إلى الجامعة، لكن قلة منهم سيلتحقون بالدراسات العليا. كنت أعلم أنَّها فخور بي، وتشعر بأنها تعمل بدأب كي تضعني في مسار مختلف. ربَّما كانت تحثني على أن أخرج من ذلك العش منذ أن كنت صغيرة، فلماذا تريد أن أحمل الأغصان التي صنعتها؟ ألا يمكنني أن أطير من دونها؟

أخذتُ دروساً في التشريح وعلم وظائف الأعضاء، وعلم العقاقير ومبادئ التمريض، وكنت أحرص على أن أعود دائماً إلى البيت فأتناول طعام العشاء مع أمي، وأحكي لها ما الذي جرى في يومي، ولم يكن يهمُّ أنَّني كنت أستغرق ساعتين كلّ يوم في الذهاب إلى الجامعة والعودة منها. كنت أعرف أنه لولا أن أمضت أمّي ثلاثين سنة وهي تنظّف وتفرك الأرض في منزل السيدة مينا، لما ركبت هذا القطار.

«أخبريني كلَّ شيء»، كانت أمّي تقول وهي تسكب ما طهته في صحني، فأحكي لها كل الأشياء الرائعة التي تعلّمتها، مثل أنَّ نصف السكان يحملون في أنوفهم جراثيم المكورات العنقودية الذهبية المقاومة للميثيسيلين (MRSA)، وأن النِتروغلِيسرين قد يسبب مغصاً إذا لامس جلدك، وأنك تكون أطول قامة في الصباح ممَّا في المساء بنحو نصف بوصة بسبب السائل الموجود بين أقراص العمود الفقريّ. لكن، هناك أشياء لم أكن أحكيها لها.

مع أنني درست في إحدى فضلى كليات التمريض في البلد، لم يكن ذلك شيئاً مهماً إلّا في الحرم الجامعي. ففي جامعة ييل، كانت بعض طالبات التمريض يطلبن أن أريهنَّ الملاحظات الدقيقة التي أدوّنها أو أن أنضمَّ إلى مجموعتهنَّ الدراسية، وفي أثناء المناوبات السريرية في المستشفى، كان الأساتذة يشيدون بمهاراتي. وفي آخر النهار، كنت أذهب إلى مخزن صغير وأشتري زجاجة كوكا كولا فيتبعني صاحب المخزن حيثما تحرَّكت ليتأكد أنَّني لن أسرق شيئاً. ولَـمَّا كنت أجلس في القطار، تمرّ نساء بيض مسنّات من أمامي من دون أن ينظرن إليّ بالرغم من وجود مقعد شاغر إلى جانبي.

بعد انتهاء فترة تدريبي في مدرسة التمريض بشهر، اشتريت كوباً عليه شعار جامعة ييل، فظنّت أمّي أنّني اشتريته لأنّني سأغادر قبل فجر كلّ يوم لألحق بالقطار المتّجه إلى نيو هافن، فتستيقظ باكراً وتعدّ لي كوباً من القهوة الطازجة تملأ بها الكوب، لكن لم يكن الكافيين هو ما أحتاج إليه، إنّما تذكرة لدخول عالم مختلف. إذ كنت أضع الكوب كلّما صعدت في القطار، وأدير كلمة «ييل» عمداً ليتمكَّن الركاب الآخرون من قراءتها عندما يصعدون في الحافلة. إنّها راية، لافتة، تقول: أنا واحدة منكم.

تبيّن لي أنّ سجن النساء يبعد عن نيو هافن ساعة كاملة بالسيارة. لَـمَّا وصلنا، نُقلنا أنا وليزا إلى زنزانة احتجاز تشبه الزنزانة التي قبعت فيها في قاعة المحكمة، بفارق أنها أكثر ازدحاماً، فيها خمس عشرة امرأة أخرى، ولا توجد

فيها مقاعد. جلست على الأرض بين امرأتين، مدّت إحداهما يديها أمامها تدمدم صلاة تحت أنفاسها بالإسبانية، وتقضم الأخرى بشرتها.

اتكأت ليزا على القضبان وراحت تنسج شعرها الطويل في ضفيرة ذيل سمكة.

«المعذرة»، قلت بصوت منخفض، «هل تعرفين إن كانوا يسمحون لي بأن أجري مكالمة هاتفية؟»

رفعت عينيها ونظرت إليّ، وقالت: «أوه، الآن تريدين أن تكلّميني».

«آسفة. لا أقصد أن أكون وقحة. أنا... أنا جديدة هنا».

طقطقت شريطاً مطاطياً في نهاية ضفيرتها، وقالت: «بالتأكيد، ستتلقين مكالمة هاتفية مباشرة بعد أن يقدّموا لك الكافيار مع مسَّاج لطيف».

صُدمت. أليست المكالمة الهاتفية حقاً أساسياً للسجناء؟ «كما يصوّرون لنا ذلك في الأفلام»، همهمت.

وضعت ليزا يديها تحت ثدييها ثمَّ أفلتتهما، وقالت: «لا تصدّقي كلّ ما ترينه».

فتحت حارسة باب الزنزانة. نهضت المرأة التي كانت تصلّي ووقفت على قدميها، وعيناها ممتلئتان بالأمل، لكنّ الشرطيّة توجّهت إلى ليزا، وقالت: «يا إلهي! ليزا، هل عدتِ مرّة أخرى؟»

«ألا تعرفين شيئاً عن الاقتصاد؟ كلّه عرض وطلب. لستُ في هذا العمل وحدي. لو لم يكن هناك طلب كبير على خدماتي، لتوقَّف العرض».

ضحكت الحارسة، وقالت: «توجد صورة الآن»، وأخذت ليزا من ذراعها وقادتها إلى خارج الزنزانة.

أُخرجت من الزنزانة امرأة تلو الأخرى، ولم تكن السجينة التي تخرج تعود. وكي أشتّت انتباهي، رحت أعدّ قوائم بالأشياء التي يجب أن أتذكّرها

لأخبر أديسا ذات يوم عندما يصبح بإمكاني أن أتذكّر ما حدث، وأضحك: بأنّـه لا يمكـن تحديد نوع الطعام الذي قدّموه لنـا في أثنـاء انتظارنـا لسـاعات عـدَّة، فلـم أعـرف إن كانت خضراوات أو لحماً. وأنّ السجينة التي كانت تمسـح الأرض عنـدما دخلنـا تشـبه كثيراً معلّمتي في الصف الثاني، ومع أنني كنت محرجة من ثـوب النـوم الـذي أرتديـه، فهناك امرأة معي في زنزانة الحجز ترتدي ثوباً كالذي ترينه في مباريات كـرة القـدم في المدرسة الثانوية. ثمّ فتحت أخيراً الحارسة التي كانت قـد أخـذت ليـزا البـاب، ونـادت اسمي.

ابتسمت لها، محاولة أن أكون مطيعة قدر الإمكـان. قـرأت اسـمها عـلى البطاقـة: غيتس. لَمَّا خرجنا وابتعدنا عن مرمى مسامع النساء الأخريات في الزنزانـة، قلـت لهـا: «أيّتها الضابط غيتس، أعرف أنّك تؤدّين عملك، لكن أُطلـق سراحـي بكفالـة. أريـد أن أتصل بابني...»

فقالت: «وفّري ذلك لمحاميتك أيّتهـا السـجينة». ثـمّ أخـذت صـورة أخـرى لي، ثـمّ بصمات أصابعي مرّة أخرى، وملأت استمارة، وسألتني عن كـلّ شيء، بـدءاً مـن اسـمي وعنواني وجنسي إلى وضعي من فيروس الإيدز وتاريخ تعاطيّ المخدّرات، ثمّ قادتني إلى غرفة أكبر قليلاً من خزانة لا يوجد في داخلها شيء إلّا كرسيّ.

لَمَّا قالت لي: «اخلعي ثيابك، وضعي ملابسك على الكرسيّ»، رحت أحدّق إليها.

كرَّرت: «اخلعي ثيابك».

ثنـت ذراعيهـا واسـتندت إلى البـاب. إذا كانـت أول حريّـة تفقـدينها في السـجن الخصوصيّة، فإنّ الحريّة الثانية التـي تفقـدينها هـي الكرامـة. أدرت ظهـري وسـحبت ثوب النوم فوق رأسي. طويته بعناية ووضعته على الكرسيّ، ثمّ خلعت سروالي الداخليّ وطويته أيضاً، ووضعت نعلي فوق الكومة.

عندما تكونين ممرّضة، تتعلّمين كيف تجعلين المريضة تشعر بالراحة في اللحظات التي قد تكون مهينة أو مخجلة - كيف تغطّي ساقَي امرأة في أثناء المخاض، وعندما تتغوّط الأمّ في أثناء المخاض بسبب ضغط رأس الطفل، تنظّفينها بسرعة وتقولين لها إنّ ذلك يحدث للجميع، وتتجاهلين أيَّ موقف محرج، وتبذلين كلَّ ما في وسعك للتخفيف من حدَّته. لَمَّا وقفت عارية وأنا أرتجف، تساءلت إن كان عمل هذه الحارسة عكس عملي تماماً، هذا إن لم يكن هدفها أكثر من أن تجعلني أشعر بالعار.

قرَّرت ألّا أمنحها هذا الشعور بالرضا.

«افتحي فمك»، قالت الشرطيّة، فمددتُ لساني كما أفعل في عيادة الطبيب.

«انحني إلى الأمام وأريني ماذا يوجد وراء أذنيك».

فعلت ما أمرتني به، مع أنّني لم أستطع أن أتخيَّل ما الذي يمكن أن تخفيه الواحدة وراء أذنيها، ثمّ أمرتني أن أرفع شعري، وأفتح أصابع قدميَّ وأرفعهما لتتمكّن من رؤية المؤخّرة.

ثمَّ قالت الحارسة: «اجلسي القرفصاء، واسعلي ثلاث مرّات».

أتخيّل ما الذي يمكن أن تهرّبه امرأة إلى داخل السجن بسبب المرونة الملحوظة في تشريح الأنثى. تذكَّرت كيف كان عليَّ، عندما كنت طالبة في كليّة التمريض، أن أتدرَّب على معرفة عرض عنق رحم متوسّع. سنتيمتر واحد هو فتحة بحجم طرف إصبع. سنتمتران ونصف السنتيمتر هما الإصبعان الثاني والثالث، تنزلق في فتحة بحجم عنق قنينة مزيل طلاء الأظافر. أربعة سنتيمترات من اتّساع الرحم بحجم تلك الأصابع نفسها، تنتشر في عنق قنينة تتّسع لأربعين أونصة من صلصة الشواء «سويت بيبي راي»، حجم فتحتها خمسة سنتيمترات لقنينة كاتشب ماركة «هاينز».

«باعدي بين إليتيك».

في مرّات عدّة ساعدت في توليد امرأة تعرّضت لاعتداء جنسيّ. من المنطقيّ أنّه قد تثار في أثناء الولادة ذكريات اغتصاب، فالجسد خلال المخاض جسد مجهد، وقد يـؤدّي ذلك لدى امرأة تعرَّضت للاغتصاب إلى ردّة فعل للبقاء في قيد الحياة تـؤدّي إلى إبطـاء التقدّم أو إيقافه من الناحية الفسيولوجيّة. لذلك، من المهمّ جداً في هـذه الحـالات أن تكون غرفة المخاض والولادة مكاناً آمناً، للاستماع إلى المرأة حتّـى تشـعر بـأنّ لهـا رأيـاً فيما يحدث لها.

ربّما لا ينبغي لي أن أقول أشياء كثيرة هنا، لكن لا يزال بإمكـاني أن أختـار ألّا أكـون ضحيّة، فالهدف من هذه الإجراءات هو أن أشعر بـأنّني أقـلّ درجـة مـن حيـوان، وأن أشعر بالخزي من عريٍّ.

لكنَّني أمضيت عشرين سنة وأنا أرى جمال المرأة - لا من حيث مظهرها، وإنّما بمـا يمكن أن يتحمّله جسدها.

وقفت أمام المرأة الضـابط، أتحـدَّاها ألّا تنظـر إلى بشرتي البنيّـة الملسـاء، وحلقتَـي حلمتيَّ الداكنتين، وانتفاخ بطني، وطبقة الشعر بين ساقيّ. أعطتنـي البدلـة البرتقاليـة عـلى مقـاسي، وبطاقـة سـجل عليهـا رقمـي كسـجينة، كهويّـة لي، بحسـباني جـزءاً مـن مجموعة، ولست فرداً. رحت أحدّق إليها حتّى لاقت عيناي عينيها، فقلت لها: «اسمي روث».

فطور من الدرجة الخامسـة. كـان أنفـي مـدفوناً في كتـاب، وكنـت أقـرأ البيانـات بصوت عالٍ. قلت: «كان هناك توءمان وُلدا بفارق ثمانية وثمانين يوماً».

جلست راشيل أمامي وهي تتناول رقائق الذرة، ثمّ قالت: «إذاً هـما ليسـا تـوءمين أيّتها الغبيَّة».

«ماما»، صحت على الفور، «قالت راشيل إنّني غبيَّة». قلبت الصفحة. «قتـل رجـل ميت مقطوع الرأس سيغورد القوي، وربط رأس الرجل في سرجـه، ولمـس أحـد أسـنانه فأصيب بالتهاب ومات».

هرعت أمّي إلى المطبخ، وقالت: «راشيل، لا تقولي لأختك غبيَّة. وروث، توقّفي عن قراءة أشياء مقرفة في أثناء الطعام».

أغلقت الكتاب على مضض، لكن ليس قبل أن أدع عينيّ تضيئان على حقيقة أخيرة: كانت هناك أسرة في ولاية كنتاكي، بشرتها زرقاء منذ أجيال عدّة بسبب زواج الأقارب. جميل، قلت في نفسي، وبسطت يدي وقلّبتها.

«روث»، قالت أمّي بحدّة. كان ذلك كافياً لأعرف أنّها لم تكن المرّة الأولى التي تنادي فيها اسمي، «اذهبي وغيّري قميصك».

«لماذا؟» سألتها، قبل أن أتذكّر أنّني يجب ألّا أتكلّم مرّة أخرى.

أمسكت أمّي بلوزتي التي عليها بقعة بحجم عشرة سنتات على صدري. قلت لها متجهمة: «ماما، لن يراها أحد عندما أرتدي كنزتي».

سألتني: «وإذا خلعتِها؟» ثمّ أضافت، «لا تذهبي إلى المدرسة وعلى قميصك بقعة، لأنّك لو فعلت ذلك، فلن يقول الناس إنّك فتاة مهملة ووسخة، وإنّما سيقولون لأنّك سوداء».

كنت أعرف أنّني يجب ألّا أُغضب أمّي، فأخذت الكتاب وجريت إلى الغرفة التي نتقاسمها أنا وراشيل، وبحثت عن قميص أبيض نظيف. لَمَّا زررت القميص، انجرف نظري نحو كتاب (الأشياء التافهة) الذي كنت قد رميته وظلّ مفتوحاً على سريري.

قرأت إنَّ أكثر المخلوقات وحدة على وجه الأرض هو حوت أمضى أكثر من عشرين سنة وهو ينادي رفيقة له، لكن صوته كان مختلفاً تماماً عن أصوات الحيتان الأخرى فلم يردَّ عليه أحد.

في المساء، أُعطيت ملاءات وبطانية وشامبو وصابون ومعجون أسنان وفرشاة أسنان، وعُهد بي إلى سجينة أخرى قالت لي أشياء مهمة مثل: من الآن فصاعداً، يجب أن أشتري كل مستلزمات النظافة الشخصية الخاصة بي من المفوّض؛ وإذا أردت أن أشاهد برنامج القاضية جودي عبر التلفاز

في غرفة الاستراحة، فيجب أن أكون هناك في وقت مبكر لأتمكَّن من الحصول على مقعد جيد؛ وإنّ وجبات الطعام الحلال هي الوجبات الوحيدة التي تؤكل، لذلك يمكنني أن أقول إنّني مسلمة؛ وإنّ إحداهنّ تُدعى «ويغ» ترسم أفضل الوشوم لأنَّ الحبر الذي تستعمله ممزوج بالبول، وهذا يعني أنّه يدوم لفترة أطول.

لَمَّا سرنا أمام الزنزانات، لاحظت أنّه توجد سجينتان في كلّ زنزانة، وأنّ معظم السجينات من ذوات البشرة السوداء، أمّا الشرطيّات فلسن كذلك. في جزء منّي شعرت كما كنت أشعر عندما كانت أمّي تطلب إلى أختي أن تأخذني مع صديقاتها في الحيّ الذي نقطن فيه. كانت الفتيات يسخرن منّي لأنّني مثل بسكويت «أوريو» سوداء من الخارج وبيضاء من الداخل. وكنت ألزم الصمت حتّى لا أقول شيئاً أبدو من خلاله غبيَّة. ماذا لو كانت امرأة كهذه رفيقتي في المسكن؟ ما هي الأشياء المشتركة التي قد تجمعنا؟

إنَّ ما يجمعنا هو حقيقة أنَّنا كلتينا في السجن.

استدرتُ عند الزاوية، ومدّت السجينة ذراعها في إيماءة كبيرة، وقالت: «لقد عدتُ إلى بيتي الجميل». لَمَّا نظرت إليها رأيت امرأة بيضاء تجلس على سرير من طابقين.

وضعت لفافة السرير على المرتبة الفارغة، وبدأت أسحب الملاءات والبطانية.

سألتني المرأة: «هل قلتُ لك إنّك تستطيعين أن تنامي هناك؟»

تسمَّرتُ في مكاني، وقلت: «أنا... ممم، لا».

«هل تعرفين ما الذي حدث للمرأة التي كانت تقاسمني الزنزانة؟» لها شعر أحمر مجعّد وعينان لا تنظران في الاتجاه نفسه. هززت رأسي. اقتربت منّي كثيراً، وهمست: «ولا أحد آخر»، ثمَّ انفجرت ضاحكة، وقالت: «آسفة، إنّي أمزح معك. اسمي واندا».

بدأ قلبي يخفق في مؤخّرة حنجرتي، وقلت بصعوبة: «روث»، ثمّ أشرت إلى المرتبة الفارغة، «إذاً، هذا هو...»

«حسناً، كما تشائين. لا يهمّني، طالما بقيتِ بعيدة عن أشيائي».

هززت رأسي موافقة، وبدأت أرتّب السرير، في حين كانت واندا تراقبني، ثمَّ سألتني: «هل أنتِ من هنا؟»

«من إيست إند».

«أنا من بانتام. هل ذهبتِ إلى هناك قبل الآن؟» هززت رأسي، ثمّ أضافت، «لم تذهبي إلى بانتام، هل هذه أول مرّة؟».

رفعت عينيَّ بارتباك، وقلت: «في بانتام؟»

«في السجن».

«نعم، لكنّي لن أبقى هنا لفترة طويلة. إنّي أنتظر صدور الكفالة».

ضحكت واندا، وقالت: «حسناً، إذاً».

التفتُّ إليها ببطء، وقلت: «ماذا؟»

«أنا أنتظر مثلك. مرَّت ثلاثة أسابيع الآن».

ثلاثة أسابيع. شعرت بانحلال ركبتيَّ، وغصت في المرتبة. ثلاثة أسابيع؟ قلت لنفسي إنّ حالتي ليست مثل حالة واندا. لكن لا يهمّ: ثلاثة أسابيع.

سألتني: «إذاً، ما تهمتك؟»

«لا شيء».

«من المدهش أن يأتي أحد إلى هنا ولم يرتكب شيئاً غير قانونيّ». استلقت واندا على سريرها، ومدّت ذراعيها فوق رأسها. «قالوا إنني قتلت زوجي، وقلت لهم إنه هو الذي اصطدم بسكّيني». نظرت إليَّ، وقالت: «كانت تلك حادثة. كما تعرفين، بالطريقة نفسها التي كسر فيها ذراعي، وجعل عيني سوداء، ودفعني إلى أسفل الدرج. كانت كلّها حوادث أيضاً».

كانت هناك أحجار في صوتها. تساءلت إن كان صوتي سيصبح هكذا أيضاً مع مرور الوقت. تذكَّرت أنَّ كينيدي قالت لي إنَّني يجب أن أتجنَّب الاختلاط بالآخرين.

تذكَّرت تورك باور، وتخيَّلت الوشم الذي رأيته في قاعة المحكمة يلمع على فروة رأسه الحليق. تساءلت إن كان قد أمضى فترة في السجن، وإذا كان الأمر كذلك، فهذا يعني أنَّ لدينا شيئاً مشتركاً أيضاً.

ثمَّ تخيّلت طفله متكوّراً بين ذراعيَّ في المشرحة، بارداً وأزرق مثل حجر.

قلت: «أنا لا أؤمن بالحوادث»، وتركت الأمر عند هذا الحدّ.

كان المستشار، الضابط راميريز، ذو الوجه المستدير والطري مثل فطيرة، يتناول حساءه، وظلَّ الحساء ينسكب على قميصه، وكنت أحاول ألّا أنظر إليه كلَّما حدث ذلك. «روث جيفرسون»، قال وهو يقرأ ملفّي، «هل كان لديك سؤال حول الزيارات؟»

فأجبته: «نعم. أريد أن أتصل بابني إديسون حتّى يعرف كيف يجمع الأوراق التي نحتاج إليها للإفراج عنّي بكفالة، فهو لا يتجاوز السابعة عشرة من عمره».

أخذ راميريز يبحث على طاولة مكتبه. أخرج مجلّة – بنادق وذخيرة - ومجموعة من النشرات عن الاكتئاب، ثمّ أعطاني استمارة، وقال: «اكتبي أسماء وعنوانات الأشخاص الذين تريدين أن يكونوا في قائمة الزوّار».

«ثمَّ ماذا؟»

«ثمَّ أرسلها بالبريد، وعندما يوقِّعونها ويعيدونها، تتمّ الموافقة على الاستمارة، ويصبح كلّ شيء على ما يرام».

«لكنَّ هذا قد يستغرق أسابيع».

فقال راميريز: «عشرة أيام عادة»، وتابع شرب الحساء.

ترقرقت الدموع في عينيَّ. إنَّ ذلك أشبه بالكابوس، من النوع الذي يهزّ فيه أحدهم كتفك وتقول لنفسك إنّه حلم، وتقول: هذا ليس حلماً. «لا أستطيع أن أتركه وحده كلّ هذه الفترة».

«يمكنني أن أتَّصل بخدمات حماية الطفل...»

«لا»، قلت، «لا».

ثمَّة شيء جعله يضع الملعقة، وحدّق إليَّ، وقال: «يوجد دائماً آمر السجن. يمكنه أن يمنحك زيارة مجاملة لزائرين بالغين قبل الموافقة على الطلب الرسميّ. لكن، بما أنّ ابنك في السابعة عشرة من عمره، فيجب أن يأتي بصحبة شخص بالغ آخر».

أديسا، قلت في نفسي. ثمّ تذكّرت على الفور لماذا لن يوافق آمر السجن على زيارتها أبداً: فلديها سجلّ بسبب شيك إيجار مزوّر منذ خمس سنوات.

أعدت الاستمارة إليه. بدت الجدران كما لو كانت مصراع كاميرا يغلق، وقلت له: «شكراً لك في كلّ حال»، وعدت إلى زنزانتي.

كانت واندا جالسة على سريرها، تقضم شوكولاتة تويكس. نظرت إليَّ، ثمَّ قطعت قطعة صغيرة منها وقدَّمتها لي.

أخذتها، وأطبقتُ قبضتي عليها، فبدأت الشوكولاتة تذوب فيها.

«ألم يسمحوا لك بإجراء مكالمة هاتفيّة؟» سألتني واندا. هززت رأسي، وجلست على طرف سريري مولية ظهري لها، أنظر إلى الحائط.

«حان وقت برنامج القاضية جودي»، قالت واندا، «هل تريدين مشاهدته؟»

عندما لم أردَّ، خرجت واندا من الزنزانة وذهبت إلى غرفة الاستجمام. لعقتُ الشوكولاتة من يدي ثمّ ضغطت براحتيَّ معاً، ورحت أكلّم شريحة

الأمل الوحيدة المتبقية لديَّ. رحت أصلّي، يا الـلـه، أرجوك، أرجوك، أرجوك أنصت إليَّ.

لَمَّا كنت صغيرة، كنت أنام في منزل كريستينا المشـيَّد مـن الحجـر البنـيّ. كنّـا نمـدّ أكياس نومنا في غرفة الجلوس، ويشغّل سام هالويل جهاز العرض السينمائيّ فيعرض لنا أفلام رسوم متحرِّكة قديمة لا بدَّ أنَّه حصل عليها عندما كـان مـديراً تنفيـذياً في محطَّـة التلفزة. في ذلك الوقت، كان ذلك شيئاً عظيماً - فلم تكن هناك أجهزة فيـديو أو أفـلام فيديو عند الطلب. كان العرض الخاصّ متعة مخصّصة لنجـوم السـينما فقـط - وأظـنّ لأطفالهم أيضاً، ومع أنّني كنت أشعر بالسعادة لأنّني لن أعود إلى منزلنا في تلك الليلة، فقد كان ذلك ثاني أفضل شيء: لأنّ أمّي كانـت تعـدّ لنـا الحـمَّام، وتُلبسـني بيجـامتي، وتعدّ لنا كوباً من الكاكاو الساخن والبسكويت قبل أن تغادر، وعندما نستيقظ تكـون قد عادت وأعدّت لنا بعض الفطائر المحلَّاة.

على الرَّغم من الاختلافات القائمة بيني وبين كريستينا، فقد أصبحت دائمة لا تمحى مع تقدّمنا في العمر. لم يكن من السهل أن أتظاهر بأنّه ليس من المهمّ أن تعمل أمّـي في منزلهم، أو أنّه كان عليَّ أن أعمـل بعـد المدرسـة، أو أنّ الثيـاب التـي أرتـديها أيـام الجمعة كانت ثياب كريستينا. لم يكن الأمر أنّهـا لم تكـن ودوداً معـي، وإنّمـا أنـا التـي أقمت حاجزاً بيني وبينها بشكوكي، لبنة من الإحراج كلّ مرّة. وكانت جميـع صـديقات كريستينا شقراوات، جميلات، ذوات أجساد ممشـوقة، يطفـن حولهـا مثـل نـدف ثلـج متشابهة. كنت أقول لـنفسي، إنّنـي لم أكـن أصـادقهنّ، لأنّنـي لم أكـن أريـد أن تشـعر كريستينا بأنّ عليها أن تضمّني إلى مجموعة صديقاتها، لكـنّ السـبب الحقيقـيّ الـذي جعلني أنأى بنفسي عنها هو أنَّ الابتعاد أقـلّ إيلامـاً مـن المخـاطرة عنـدما تحـين تلـك اللحظة الحتميّة لأصبح فيها شيئاً ثانوياً.

كان السبب الوحيد الذي جعلني لا أبتعد عن كريستينا هـو أنّـه لم تكـن لديَّ صديقات عديدات. إذ كانت هناك طالبة باكستانيّة، وفتاة مصابة بإعتام

عدسة العين كنت أعطيها دروساً في الرياضيّات، لكنّ الشيء المشترك الوحيد بيننا هو أنَّنا لم نجد مكاناً آخر نتلاءم فيه. ومع أنّه كانت هناك مجموعة من الأطفال السود الآخرين، فقد كانت تربيتهم بعيدة عن تربيتي - مع أنّ آباءهم كانوا يعملون سماسرة في البورصة، ويأخذون دروساً في المبارزة، ويملكون بيوتاً صيفيّة في نانتوكيت. وهناك راشيل، التي حملت بطفلها الأول وهي في الثامنة عشرة من عمرها. ربّما كانت تحتاج إلى صديقة، لكن حتّى لَمَّا كنّا نتحدّث وجهاً لوجه عبر طاولة المطبخ، لم أكن أجد شيئاً واحداً أقوله لها، لأنّ الأشياء التي كانت تريدها في حياتها تختلف عن الأشياء التي كنت أريدها، وبصراحة كنت أخشى أنَّني إذا ما بدأت أخرج معها، فإنّ جميع الصور النمطيّة التي لفّت نفسها بها ستتلاشى مثل ملمّع أحذية، وتجعل من الصعب أن أتلاءم بسهولة في قاعات جامعة دالتون.

ربَّما لهذا السبب، لَمَّا دعتني كريستينا إلى حفل ستقيمه لصديقاتها يوم الجمعة، وافقت على الفور. قلت لها نعم، وتمنّيت أن تثبت لي أنَّني مخطئة. برفقة جميع صديقاتها الجديدات، أردت أن أشاركهنَّ تبادل النكات، وأحكي لهنّ كيف اختبأنا، أنا وكريستينا، في مصعد الخدمة، ووضعنا على رأسينا خوذتين من ورق الألمنيوم، وتظاهرنا أنّنا في مركبة فضائيّة تصعد إلى القمر؛ أو عندما تغوّط كلب السيدة مينا، فيرغوس، على سريرها، واستخدمنا طلاء أبيض لنغطي البقعة، وظننا أن أحداً لن يلاحظ ذلك. كنت أريد أن أكون الشخص الوحيد الذي يعرف في أيّ خزانة في المطبخ توجد الأطعمة، وأين تُحفظ أغطية السرير الإضافية، وأسماء كلّ لُعب الحيوانات القديمة المحشوة التي تملكها كريستينا. أردت أن يعرف الجميع أنّنا، أنا وكريستينا، صديقتان قبل أن يكنَّ صديقاتها.

كانت كريستينا قد دعت صديقتين من الصفّ الثاني – ميستي، التي كانت تدَّعي أنَّها تعاني من صعوبة في القراءة كي تحصل على تسهيلات في واجباتها المدرسيَّة، لكن يبدو أنه لا توجد لديها مشكلة في القراءة بصوت

عالٍ من كومة مجلات كوزمو التي أحضرتها كريستينا إلى الغرفة العلويّة؛ وكيرا، المهووسة بروب لوي، وبالفتحة عند فخذها. كنّا قد مددنا مناشف الأرضيّة الخشبيّة، ورفعت كريستينا صوت المذياع عندما انطلقت أغنية داير ستريتس، وغنّت كلمات الأغنية كلّها عن ظهر قلب. تذكّرت كيف كنا نستمع إلى أسطوانات السيّدة مينا – التي كانت كلها أسطوانات برودواي أصلية - ونرقص ونتظاهر بأننا سندريلّا أو إيفا بيرون أو ماريا فون تراب.

أخرجت من حقيبتي قنينة طلاء واق من الشمس. كانت الفتيات الأخريات قد دهنَّ أجسادهنَّ بزيت الأطفال، كما لو كنَّ شرائح لحم فوق شواية، لكن آخر شيء كنت أريده أن أزداد سواداً، لاحظت أنَّ كيرا تنظر إليَّ، ثمَّ سألتني: «هل تجعل الشمس بشرتك سمراء أكثر؟»

فقلت لها: «نعم»، لكنّي لم أخض معها في التفاصيل لأنَّ ميستي قاطعتها.

«هذا رائع جداً»، قالت، «الغزو البريطانيّ»، وأدارت المجلّة لنتمكَّن من رؤية العارضات، كلّ واحدة أنحف من الأخرى، ترتدي ملابس الموسم المقبل، وعليها العلم البريطانيّ، ومعاطف حمراء لها أزرار ذهبيّة ذكَّرتني بمايكل جاكسون.

جلست كريستينا إلى جانبي وأشارت بإصبعها، «ليندا إيفانجليستا، تبدو رائعة».

«آه، حقاً؟ تبدو كأنّها نازيَّة. سيندي كروفورد طبيعيّة جدّاً»، ردَّت عليها كيرا. نظرتُ إلى الصور. ثمّ أضافت كيرا: «ستذهب أختي إلى لندن هذا الصيف. السفر بحقيبة سفر واحدة والتجوّل في أوروبا. جعلت أبي يعدني، بخط يده، بأنني عندما أبلغ الثامنة عشرة من عمري يمكنني أن أذهب أيضاً».

«السفر بحقيبة ظهر فقط؟» سألتها ميستي، «لماذا؟»

«لأنه رومانسيّ. فكّري في ذلك. بطاقات قطار *Eurail*. نُزل الشباب. التعرُّف إلى شبَّان مثيرين».

فقالت ميستي: «أظنّ أنّ فندق سافوي رومانسيّ أيضاً، ولديهم حمَّامات».

نظرت كيرا إليَّ، وقالت: «ادعميني يا روث. لا يلتقي أحد في رواية رومانسيّة في بهو فندق سافوي أبداً. يصطدم أحدهم بالآخر على رصيف محطّة القطار، أو يأخذ أحدهم حقيبة شخص آخر بالخطأ، أليس كذلك؟»

فقلت: «يبدو كأنّه قدر»، لكنّ الشيء الذي كنت أفكّر فيه هو أنّه لا يمكنني ألَّا أعمل في أثناء عطلة الصيف، حتّى لو كنت أخطّط للذهاب إلى الجامعة.

نقرت كريستينا على بطنها فوق المنشفة، وقالت: «أنا جائعة. يجب أن نطلب وجبات خفيفة»، ثمّ نظرت إليَّ، وقالت: «روث، هل يمكنك أن تحضري لنا شيئاً نأكله؟»

لَمَّا دخلت المطبخ الذي تعبق فيه رائحة تشبه رائحة الجنَّة، ابتسمت أمّي. صينية من البسكويت تُركت لتبرد، وصينية أخرى في الفرن. مدَّت أمّي ملعقة المزج ودعتني ألعق العجين، وسألتني: «كيف تسير الأمور في سان تروبيه؟»

فقلت لها: «كلهنَّ جائعات. كريستينا تريد طعاماً».

«أوه، هكذا إذاً، لماذا لم تأتِ وتسألني بنفسها؟»

فتحتُ فمي لأردَّ لكنّي لم أستطع أن أجيبها. لماذا طلبت منّي؟ لماذا أتيت؟

زمَّت أمّي شفتيها، وسألتني: «لماذا أرسلتك أنتِ إلى هنا يا حبيبتي؟»

نظرت إلى الأسفل بين قدميّ الحافيتين، وقلت: «قلت لك - نحن جائعون».

فكرّرت قائلة: «روث. لماذا أنتِ هنا؟»

لم أستطع أن أتظاهر هذه المرّة بأنّني لم أفهم قصدها، فقلت بصوت خفيض حتّى إنّني لم أكد أسمع صوتي، وكنت آمل ألّا تسمعني أمّي أيضاً: «لا يوجد مكان آخر أذهب إليه».

فقالت بإصرار: «هذا غير صحيح. عندما تكونين جاهزة، سنكون في انتظارك».

أخذت صحناً وبدأت أملؤه بالكعك. لم أعرف ما الذي كانت أمّي تقصده، ولم أشأ أن أعرف. تحاشيتها في الفترة المتبقية من بعد الظهر، ولَمّا غادرت في الليل، جلسنا في غرفة نوم كريستينا، ورحنا نلعب لعبة «ديبيش مود»، ونرقص فوق السرير. استمعت إلى الفتيات الأخريات وهنّ يعترفن بقصصهنّ السريَّة، وتظاهرتُ بأنَّ لديَّ قصَّة أيضاً لأشاركهنّ الحديث. لَمَّا جلبت كيرا قنينة ممتلئة بالفودكا («فيها أقلّ سعرات حراريَّة، إذا أردت أن تسكر»)، تصرَّفت كما لو أنّه لا توجد مشكلة، مع أنّ ضربات قلبي بدأت تخفق بقوة. لم أشرب لأنّ أمّي ستقتلني لو فعلت ذلك، ولأنّني أعرف أنّني يجب أن أبقى صاحية. في كلّ ليلة، قبل أن أخلد إلى النوم، أدهن بشرتي بمرهم وأفرك ركبتيَّ وكاحليَّ ومرفقيَّ بزبدة الكاكاو حتّى لا تصبح رماديّة، وأمشّط شعري وألفّه حول رأسي ليزداد نموّه ثمّ ألفّه بوشاح. كانت أمّي تفعل ذلك، وراشيل أيضاً، لكنّي متأكّدة أنّ هذه الطقوس ستبدو غريبة على الفتيات هنا، حتّى على كريستينا. لم أشأ أن أجيب عن أسئلتهنّ، أو أفعل أكثر ممّا فعلت، وتقصّدت أن أكون آخر فتاة تذهب إلى الحمَّام لأبقى فيه حتّى ينمنَ جميعهنَّ... ثمَّ أستيقظ قبل الفجر وأصلح شعري قبل أن تتحرَّك أيّ واحدة منهنَّ.

بقيت مستيقظة عندما بدأت ميستي تحكي بتفصيل شديد كيف أنّها مارست الجنس الفمويّ، فهرعت كيرا إلى الحمّام وتقيَّأت. انتظرت حتّى نظفن أسنانهنّ، وانتظرت لفترة طويلة حتّى بدأت أسمع شخيرهنَّ، ثمَّ خرجت في الظلام الدامس.

انحشرنا، أربعتنا، مثل سمك السردين على سرير كريستينا. رفعت الغطاء وانسللت إلى جانب كريستينا التي تفوح منها رائحة شامبو الخوخ

الذي تستخدمه دائماً. ظننت أنّها كانت نائمة، لكنّها انقلبت على ظهرها ونظرت إليَّ.

كان وشاحي ملفوفاً حول رأسي، أحمر مثل جرح، تتدلّى أطرافه إلى أسفل ظهري. رأيت عينَيْ كريستينا تومضان نحوه، ثمّ نظرت في عينيَّ. لم تقل شيئاً عن الوشاح. «أنا سعيدة بوجودك هنا»، همست كريستينا، ولفترة قصيرة مباركة، كنت أنا كذلك.

في وقت متأخّر من تلك الليلة، بينما كانت واندا تشخر، ينبعث منها صوت يشبه الصفير، استلقيت وبقيت مستيقظة. عند كلّ نصف ساعة، يأتي حارس بيده مصباح يدويّ يضيئه داخل الزنزانة ليتأكّد أنّ الجميع نائمون. وعندما يأتي إلى زنزانتنا، كنت أُغمض عينيَّ وأتظاهر بأنّني نائمة. تساءلت إن كان النوم أسهل مع أصوات مئات النساء من حولك. تساءلت إن كان الأمر سيصبح أسهل بعد فترة قصيرة.

في أثناء إحدى تلك الجولات، كان ضوء المصباح يقفز مع خطوات الحارس الذي توقَّف أمام زنزانتنا. استوت واندا في جلستها على الفور متجهّمة. «انهضي»، قال الحارس.

«ماذا في الأمر بحقّ الجحيم؟» قالت واندا بتحدٍّ، «إنّك تزعج الزنزانات كلّها في منتصف الليل؟ ألم تسمع يوماً عن حقوق السجناء...؟»

«ليس أنتِ»، هزّ الحارس رأسه نحوي، وقال: «هي».

لَمَّا سمعتُ ذلك، رفعت واندا يديها وتراجعت. ربّما كانت مستعدّة لأن تقاسمني لوح شوكولاتة تويكس، لكنّي أصبحت وحدي الآن.

ارتعشت ركبتاي عندما نهضت ومشيت نحو باب الزنزانة المفتوح، وسألته: «إلى أين ستأخذني؟»

لم يردّ الحارس وقادني في الممرّ، ثمّ توقَّف أمام أحد الأبواب. رنَّ الجرس على لوحة التحكّم، ثمّ سمعت طنيناً عندما فُتح القفل. دخلنا في محبس

هوائيّ وانتظرنا حتّى أُغلق الباب خلفنا قبل أن يُفتح الباب المجاور بطريقة سحريّة.

قادني بصمت إلى غرفة صغيرة تشبه خزانة، وسلّمني كيساً ورقياً.

نظرت إلى داخل الكيس ورأيت ثوبي وصندلي. خلعت بدلة السجن عن جسدي، وطويتها كعادتي، ثمَّ تركتها في كومة على الأرض. ارتديت ثيابي القديمة. عدت إلى حياتي القديمة.

انتظر الحارس حتّى فُتح الباب مرّة أخرى، وقادني هذه المرّة إلى الزنزانة التي انتظرت فيها أوّل ما وصلت إلى هنا، فيها الآن امرأتان نائمتان على الأرض، تفوح منهما رائحة كحول وقيء، ثمّ خرجنا فجأة، وعبرنا سياجاً من الأسلاك الشائكة.

التفتُّ إليه مذعورة، وقلت: «لا أملك نقوداً». أعرف أنَّنا على مسافة ساعة أو قرابة ذلك من نيو هافن، ولا أملك أجرة حافلة أو هاتفاً أو حتَّى ثياباً مناسبة.

هزَّ الحارس رأسه وأشار إلى مكان بعيد، فلاحظت أنَّ الظلام يتحرَّك، ظلّ إزاء ليلة غير مقمرة. تحرَّكت الصورة الظليَّة حتَّى بدأت أرى ملامح سيارة فيها شخص. خرج من السيارة وركض نحوي. «ماما»، قال إديسون، ودفن وجهه في رقبتي، «لنعد إلى البيت».

هناك نوعان من الأشخاص الذين يصبحون محامين عامين تعيّنهم المحكمة للدفاع عن المتهمين الذين لا يمكنهم تعيين محام خاص: أولئك الذين يعتقدون أنهم يستطيعون إنقاذ العالم، وأولئك الذين يعرفون جيداً أنهم لا يستطيعون أن يفعلوا ذلك. الفئة الأولى هم من خرّيجي كليّة الحقوق الحالمين، المفرطين في التفاؤل، المقتنعين أنَّ في مقدورهم أن يحدثوا فارقاً في الحياة. أمَّا الفئة الثانية، فهم الذين عملوا في هذا السلك، ويعرفون أن المشكلات التي تعترضنا أكبر منّا ومن موكّلينا بكثير. فما إن تصبح ندوب القلب النازفة أمراً واقعاً، حتّى تصبح الانتصارات فرديّة: أن تتمكَّن من لمّ شمل أمّ أُخضعت لإعادة تأهيل مع ابنها الذي أُودع في مركز للرعاية، والقدرة على التعامل مع مئات القضايا، ومعرفة الذين هم في حاجة إلى أكثر من إجراء مقابلة معهم والدفاع عنهم. وكما يتبين، فإنَّ المحامين العامّين هم أقلّ قدرة من سوبرمان، وأكثر قدرة من سيزيف. إنّ عدد المحامين الذين ينتهي بهم الأمر إلى أن يُسحقوا تحت وطأة القضايا غير النهائيّة وساعات العمل الطويلة والأجور المتدنية، ليس قليلاً. لذلك، فإنّنا نتعلَّم بسرعة أنَّه إذا كان علينا أن نُبقي جزءاً صغيراً من حياتنا مقدّساً، فيجب ألّا نجلب عملنا معنا إلى البيت.

لذلك، لَمَّا حلمتُ بروث جيفرسون لليلتين متتاليتين، عرفت أنَّني في ورطة.

في الحلم الأول، عقدت مع روث اجتماعاً كالذي يعقده المحامي مع موكّله. طرحت عليها مجموعة من الأسئلة التي أطرحها عادة على أيّ موكّل، لكنَّها كلَّما تكلَّمت، كانت تتكلّم بلغة لا أفهمها. حتّى إنّني لم

أعرف ما هي تلك اللغة، فكنت أضطرّ إلى أن أسألها وأنا محرجة أن تعيد ما قالته. ثمّ فتحت فمها أخيراً، وبدأت تنطلق منه فراشات زرق.

وفي الليلة الثانية، حلمتُ أنَّ روث دعتني إلى العشاء. كانت أفخم مائدة، عليها أصناف كثيرة من الطعام تكفي لإطعام فريق كرة قدم كامل، وكلّ طبق ألذّ من الطبق الآخر. شربت كأساً من الماء، ثمَّ كأساً أخرى، وكأساً ثالثةً حتى فرغ إبريق الماء. لَـمَّا سألت إن كان بإمكاني أن أملأ الإبريق مرّة أخرى، بدا الذعر على وجه روث، وقالت: «ظننتُ أنّك تعرفين»، ولَمَّا رفعت عينيَّ إليها أدركت أنّنا مسجونتان في زنزانة واحدة في السجن.

استيقظت وأنا أكاد أموت من شدة العطش. انقلبت إلى جانبي، ومددت يدي وتناولت كأس الماء التي أضعها عادة إلى جانبي على الطربيزة، إلى جانب السرير، وشربت ماء بارداً. شعرت بذراع ميكا تطوّق خصري ويجذبني إليه. قبَّل رقبتي، ووضع يده فوق قميص بيجامتي.

سألته: «ماذا ستفعل لو دخلت السجن؟»

فتح ميكا عينيه، وقال: «إنّي متأكّد تماماً، بما أنّك زوجتي، وعمرك فوق الثامنة عشرة، فإنَّ ذلك أمر قانونيّ».

«لا»، قلتُ، واستدرت إليه، «ماذا لو أنّني فعلت شيئاً... وأُدنتُ؟»

«هذا شيء مثير»، قال ميكا، وارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة، «محامية في السجن. حسناً، سألعب معك. ماذا فعلتِ؟ لنقل إنك ارتكبتِ عملاً فاضحاً على الملأ. أرجوك قولي إنّه عمل غير محتشم»، وشدَّني إليه.

«حقّاً. ماذا سيحدث لفيوليت؟ كيف ستشرح لها الأمر؟»

«كينيدي، هل هذه طريقتك لتخبريني أنّك قتلتِ مديرك أخيراً؟»

«إنّه سؤال افتراضيّ».

«في هذه الحالـة، هـل يمكننـا أن نؤجّـل الإجابـة عـن هـذا السـؤال خمـس عشرة دقيقة؟» أغمض عينيه وراح يقبّلني.

بينما كان ميكا يحلق ذقنه، كنت أحاول أن أرفع شعري وأعقـده في شـكل كعكـة، سألني: «هل ستذهبين إلى المحكمة اليوم؟»

كان وجهه لا يزال متورّداً، ووجهي أيضاً.

«سأذهب بعد ظهر اليوم. كيف عرفت؟»

«لا تثبتين إبراً في رأسك إلّا إذا كنت ستذهبين إلى المحكمة».

فقلت: «إنّها دبابيس شعر لأنّي أحاول أن أبدو امرأة مهنيّة».

«تبدين مثيرة أكثر ممّا تبدين امرأة مهنيَّة».

ضحكتُ، وقلت: «أرجو ألّا ينتاب موكّلي هـذا الشـعور،» وأمسـكت خصـلة شـعر فالتة، وأسندت ردفيَّ إلى المغسـلة، «أفكّـر في أن أطلـب إلى هـاري أن يسـند إليَّ قضـية جنائيّة».

«فكرة عظيمة»، قال ميكا بشيء من السخرية، «أقصد، بمـا أنّـه توجـد لـديك الآن خمسمئة قضيّة مفتوحة، يجب أن تأخذي قضيّة تتطلَّب مزيداً من الوقت والطاقة».

هذا صحيح. بما أنّني محامية عامّة فهذا يعني أنّ لـديَّ نحـو عشرة أضـعاف عـدد القضايا التي توصي بها جمعية المحامين الأمريكيّة، وأنّ لديَّ في المتوسط أقلّ من ساعة لأحضّر كلّ قضيّة تحال إلى المحكمة، وفي معظم الأوقات التي أعمل فيها، لا أتمكّن مـن تناول طعام الغداء، أو يتاح لي وقت لأذهب إلى دورة المياه.

«إذا كان ذلك يجعلك تشعرين بأنّك في حال فضلى، فقد لا يسندها إليك».

دقّ ميكـا مـوسى حلاقتـه عـلى خـزف المغسـلة. في بدايـة زواجنـا، كنـت أحـدّق إلى الشـعرات الصـغيرة جـداً التـي تجـفّ في حـوض المغسـلة بدهشـة، وكنـت أظـنّ

أنّني أستطيع أن أقرأ فيها مستقبلنا كما تقرأ بصّارة أوراق الشـاي، ثـمّ سـألني: «هـل لهذا الطموح المفاجئ علاقة بسؤالك عن دخول السجن؟»

«ربّما؟»

«حسناً، أفضّل أن تأخذي قضيته بدلاً من أن تنضمي إليه وراء القضبان».

«قضيتها»، صحّحت له، «روث جيفرسون. تلك الممرّضة. قصّتها لا تفارقني».

حتّى لو كان موكّلي قد ارتكب عملاً غير قانونيّ، فقد أتعاطف معه. يمكنني أن أقرَّ بأنّه اختار خياراً سيّئاً، لكنّـي لا أزال أؤمـن بالعدالـة، مـا دام جميـع النـاس يتمتعـون بفرص متساوية للحصول على العدالة - وهذا ما يجعلني أفعل ما أفعله.

أمَّا فيما يتعلَّق بروث، فثمَّة شيء غير مفهوم تماماً في قضيّتها. لَمَّا اندفعت فيوليت فجأة إلى الحمّام، شدَّ ميكا المنشفة حول خصره، وعقـدتُ ردائي، وقالـت: «مامـا، بابـا، أصبحت اليوم أشبه ميني».

كانـت تحمـل بيـدها لعبـة مينـي مـاوس المحشـوّة، وقـد ارتـدت تنـورة منقّطـة، وانتعلت حذاء رياضيّاً أصفر، ولبست قميص بكيني أحمر، ووضعت في كفّيها قفَّـازين أبيضين طويلين أخذتهما من سـلَّة الثيـاب. نظـرت إليهـا، وتسـاءلت كيـف يمكننـي أن أشرح لها أنّها لا تستطيع أن ترتدي بكيني إلى المدرسة.

«ميني امرأة ساقطة»، قال ميكا، «أقصد مرَّت سبعون سنة. يجـب أن تضـع مـيكي خاتماً في إصبعها».

«ماذا تعني امرأة ساقطة؟» سألت فيوليت.

قبّلت ميكا، وقلت له مازحة: «سأقتلك».

فأجابني: «آه، إذاً، لهذا السبب ستذهبين إلى السجن».

في المكتب يوجد جهاز تلفاز - شاشته صغيرة محشورة بين آلة القهوة وفتّاحة علب. إنّه ضرورة مهنيّة لمشاهدة التغطيات الصحفيّة التي تجري أحياناً لبعض موكّلينا. وفي الصباح، قبل أن تعقد المحكمة جلساتها، يوضع على برنامج (صباح الخير يا أميركا). كان إد مهووساً بالثياب التي ترتديها المذيعة لارا سبنسر، أمّا أنا فأرى في جورج ستيفانوبولوس التوازن المثاليّ بين المراسل الدقيق والأناقة. نجلس ونشاهد جولة من استطلاعات الرأي الافتراضيّة بين مرشّحي الرئاسة، في حين يعدّ هوارد قهوة طازجة، ويحكي لنا إد عن سهرة العشاء مع أصهاره. لا تزال حماته تناديه باسم زوجته السابقة، مع أنّه مضى على زواجهما تسع سنوات. «إذاً هذه المرة»، قال إد، «سألتني عن كميّة ورق التواليت التي أستخدمها».

«ماذا قلت لها؟»

فأجاب: «ما يكفي فقط».

«لماذا تريد أن تعرف؟»

فأجاب إد: «قالت إنّهم يحاولون التقليل من استخدامها لأنّهم من ذوي الدخل المحدود. دعيني أعلمك أنّهم يذهبون إلى فوكسوود ثلاث مرات في نهاية عطلة الأسبوع في الشهر، والآن يجب أن نقنن استخدام ورق التواليت؟»

«هذا هراء»، قلت مبتسمة، «هل رأيت ماذا فعلت هناك؟»

كان روبن روبرتس يُجري مقابلة مع رجل مهيب في منتصف العمر، أحمر الشعر، قُبلت قصيدته في مجموعة مختارات أدبية رفيعة - لكن بعد أن قدّمها باسم ياباني مستعار، قال الرجل: «رُفضت 35 مرة، لذلك أظنّ أنّهم ربّما ينتبهون إليَّ أكثر لو كان اسمي أكثر...»

«ممتلئاً بالألوان؟» قال روبرتس.

نخر إد، وقال: «يوم بطيء بالأخبار».

خلفي، سقطت ملعقة من يد هوارد، فأطلقت رنيناً في حوض المغسلة. «لماذا يُعدُّ ذلك شيئاً؟» سأل إد.

فقلت: «لأنّها كذبة. إنّه يعمل في شركة تأمين، وقد اختار ثقافة شخص آخر ليحصل على خمس عشرة دقيقة من الشهرة».

«إذا كان ذلك كلّ ما يتطلبه الأمر، ألا تُنشر مئات قصائد الشعراء اليابانيين كلّ سنة؟ من الواضح أنّ ما كتبه جيّد. كيف تصادف أنَّ أحداً لم يتحدَّث عن ذلك؟»

دخل هاري بلات، مديري، غرفة الاستراحة فجأة، معطفه يتطاير مثل إعصار حول ساقيه، وقال: «أكره المطر كثيراً. لماذا لم أنتقل إلى أريزونا؟» بهذه التحيّة، تناول كوباً من القهوة وعاد إلى مكتبه.

تبعته، وطرقت على باب مكتبه المغلق بهدوء.

لَمَّا دخلت، كان هاري لا يزال يعلّق معطفه المبلّل، قال: «ماذا؟»

«هل تتذكّر تلك القضيّة التي دافعت فيها عن روث جيفرسون جيفرسون؟»

«دعارة؟»

«لا، إنّها الممرّضة من مستشفى «الرحمة - ويست هافن. هل يمكنني أن آخذ القضيَّة؟»

استقرّ وراء طاولة مكتبه، وقال: «حسناً. الطفل الميت».

عندما لم يقل شيئاً آخر، تلعثمتُ لأملأ الفراغ، وقلت: «إنّي أمارس المحاماة منذ خمس سنوات تقريباً، وأشعر بأنني تعلّقت بهذه القضيّة. أودّ أن تتاح لي فرصة الدفاع عنها».

فقال هاري: «لكنّها جريمة قتل!».

«أعرف. لكنّي أظنّ أنّني المحامية العامّة المناسبة لهذه القضيّة»، ثمّ أضفت بابتسامة، «وسوف تكلّفني بقضيّة جنائية، عاجلاً أم آجلاً، لذلك أقترح عليك عاجلاً».

همهم هاري. أي شيء أفضل من كلمة لا. ثمّ قال: «حسناً، سيكون من الجيد أن يكون هناك محام آخر في القضايا الكبيرة. لكن، بما أنّك مبتدئة، فسيقدّم لك إد يد المساعدة».

لم أكن أمانع حتّى لو جلس معي في المحكمة إنسان نياندرتال.

آه، انتظر.

قلت لهاري: «يمكنني أن أفعل ذلك وحدي». لم أدرك أنّني كنت حابسة أنفاسي إلّا عندما هزَّ رأسه أخيراً.

* * *

أحصيت عدد الساعات والمحاكمات التي يجب أن أحضرها قبل أن أذهب إلى سجن النساء بسيّارتي. لَـمَّا كنت أتوقَّف في أثناء زحمة السير، أفكّر كيف سأبدأ الحديث مع روث كي تثق بي كمحامية أدافع عنها. قد لا أكون قد دافعت عن أحد في جريمة قتل قبل الآن، لكنّي شاركت في عشرات المحاكمات المتعلقة بالمخدرات والاعتداء ومحاكمات أمام هيئة محلفين محليّة. «هذه ليست أول محاكمة لي»، قلت بصوت عالٍ وأنا أنظر في المرآة الخلفية.

«إنّه لشرف لي أن أمثّلك».

لا. سيبدو ذلك كما لو كان لقاءً دعائياً لميريل ستريب. أخذت نفساً عميقاً، وقلت: «مرحباً. اسمي كينيدي».

بعد عشر دقائق، ركنتُ سيّارتي، وارتديت عباءة الثقة الزائفة، ودخلت المبنى. رمقني الشرطيّ ذو البطن الذي جعله يبدو حاملاً في شهره العاشر، وراح يتفحّصني، ثمّ قال: «انتهت مواعيد الزيارات».

قلت له: «جئت لأرى موكّلتي. روث جيفرسون؟»

دقّق الشرطيّ في جهاز الكمبيوتر، وقال: «حسناً، لم يحالفك الحظ».

«عفواً؟»

فقال: «أُطلق سراحها منذ يومين».

اشتعل خدّاي لهيباً. لا يمكنني أن أتخيّل كم بدوت غبيّة لأنَّني لم أعرف ذلك عن موكّلتي، ثمّ قلت: «نعم! طبعاً»، متظاهرة بأنّني أعرف ذلك، وأنّني سألته لأختبره.

ظللت أسمع صوت ضحكته، وهو يغلق بوّابة السجن خلفي.

بعد بضعة أيام من إرسال رسالة رسمية إلى منزل روث - العنوان الذي حصلت عليه من طلب الكفالة - جاءت إلى المكتب. كنت في طريقي إلى آلة الفوتوكوبي عندما فُتح الباب ودخلت، متوترة ومترددة، كما لو أن هذا المكان لا يمكن أن يكون المكان المناسب، بأكداس الصناديق والأوراق تلك، كان المكان يبدو مثل متجر سيُفتح أو سيغلق أبوابه قريباً، أكثر من كونه مكتباً قانونياً.

«روث! أهلاً بك»، قلت لها ومددت يدي، «أنا كينيدي ماكوري».

«أتذكّر».

كانت أطول مني قامة، تقف باستقامة رائعة. قلت في نفسي إن أمّي ستُعجب بها كثيراً.

«لقد تسلّمتِ رسالتي»، قلت لها الشيء البديهي، «أنا سعيدة بوجودك هنا لأن لدينا أشياء كثيرة يجب أن نتحدّث عنها». نظرتُ حولي، وتساءلت أين يمكنني أن أدعوها لتجلس. فمقصورتي تكاد تتسع لي، وغرفة الاستراحة ليست مكاناً رسمياً. وهناك مكتب هاري، لكنه موجود الآن فيه. يستخدم (إد) عادة غرفة الاجتماعات الوحيدة لأخذ إفادات الموكلين. «هل تريدين أن نأكل شيئاً؟ يوجد مطعم بانيرا عند ناصية الشارع. هل تأكلين؟...»

«طعاماً؟» أنهت الجملة، «نعم».

دفعتُ عنها ثمن الحساء والسلطة، واخترت مقصورة في الجزء الخلفي من المطعم. تحدّثنا عن المطر، وعن مدى حاجتنا إليه، ومتى يمكن أن يتغيّر الطقس. «أرجوك»، قلت لها في إيماءة إلى طعامها، «تفضّلي».

أخذت سندويشتي وبدأت أقضمها عندما حنت روث رأسها وقالت: «إلهي! نشكرك على طعامنا، إذ تغذي أجسادنا لأجل المسيح».

كان فمي لا يزال ممتلئاً عندما قلت آمين.

«إذاً، فأنتِ ترتادين الكنيسة؟»، أضفت، بعد أن ابتلعت اللقمة.

رفعت روث عينيها ونظرت إليَّ وقالت: «هل هذه مشكلة؟»

«لا أبداً. في الواقع، من الجيّد أن أعرف ذلك، لأنّه شيء قد يساعد المحلّفين، مثلك».

للمرَّة الأولى، نظرتُ إلى روث بإمعان. إذ لَمَّا رأيتها آخر مرة، كان شعرها ملفوفاً، وهي في ثوب النوم. أمّا الآن، فهي ترتدي ثياباً محتشمة، بلوزة مخطّطة، وتنورة زرقاء فاتحة، وتنتعل حذاء مسطّحاً لامعاً. شعرها منسدل، مشدود في عقدة عند قاعدة رقبتها، بشرتها أفتح مما أتذكّر، بلون القهوة بالحليب تقريباً التي كانت أمي تسمح لي بأن أشربها عندما كنت صغيرة.

يظهر التوتر في أشكال مختلفة لدى الأشخاص المختلفين. فأنا أصبح ثرثارة، ويستغرق ميكا في التفكير ويبدو جدياً، وتزداد أمّي غطرسة. أمّا روث فيبدو أنها تصبح متوترة ومتشنجة، وهو شيء آخر أسجّله، لأنَّ المحلّفين الذين يرون ذلك قد يسيئون تفسيره، ويرون أنّه غضب أو غطرسة.

«أعرف أنَّ الأمر صعب»، قلت لها بصوت منخفض كي لا يسمعنا أحد، «لكنني أريد أن تكوني صادقة معي مئة في المئة. مع أنّني غريبة. أقصد، آمل ألّا أكون غريبة لفترة طويلة. لكن من المهمّ أن تدركي أن لا شيء تقولينه لي يمكن أن يُستخدم ضدّك. فهذا امتياز يتمتّع به الموكّل».

وضعت روث شوكتها بحذر وهزّت رأسها، وقالت: «حسناً».

أخرجتُ دفتراً صغيراً من حقيبتي، وقلت: «حسناً، أولاً، هل تفضّلين استخدام عبارة سوداء أو أمريكيّة من أصل أفريقيّ أو من أصحاب البشرة الملوّنة؟»

حدَّقت روث إليَّ، وقالت بعد لحظة: «من أصحاب البشرة الملوَّنة».

دوَّنت ذلك في دفتري، ووضعت تحتها خط، ثمّ قلت: «أريد فقط أن تشعري بالراحة. بصراحة، حتّى إنّني لا أرى لوناً. أقصد أنَّ العِرق الوحيد المهمّ هو الإنسان نفسه، أليس كذلك؟»

زمَّت شفتيها بقوة.

تنحنحتُ لأكسر عقدة الصمت، ثمّ سألتها: «ذكّريني مرّة أخرى في أيّ جامعة درستِ؟»

«جامعة ولاية نيويورك في بلاتسبيرغ، ثمّ في كلية التمريض في جامعة ييل».

«شيء رائع»، تمتمتُ ودوَّنت ذلك.

قالت: «سيّدة ماكواري».

«كينيدي».

«كينيدي... لا يمكنني أن أعود إلى السجن»، قالت روث وهي تنظر في عينيَّ، وللحظة، استطعت أن أرى ما الذي يدور في قلبها. «لديَّ ابني، ولا يوجد أحد يمكن أن يربّيه ليصبح الرجل الذي أعرف أنَّه سيكون».

«أعرف. اسمعي، سأبذل كلّ ما في وسعي. لديّ خبرة كبيرة في التعامل مع القضايا التي تتعلق بأشخاص مثلك».

ذلك القناع جمّد قسمات وجهها مرة أخرى، وقالت: «أشخاص مثلي؟»

فشرحت لها: «أشخاص متّهمين بجرائم خطِرة».

«لكنّي لم أفعل شيئاً».

«أصدّقك. لكن علينا أن نقنع هيئة المحلفين. لذلك، يجب أن نعود إلى الأساسيات لنعرف سبب توجيه التهمة إليك».

فقالت روث بهدوء: «أظنّ أنّ هذا أمر في غاية الوضوح. إذ لم يشأ والد ذلك الطفل أن أقترب من ابنه».

لَمّا قلت لها: «ذلك العنصريّ الأبيض؟ لا علاقة له بقضيّتك»، رفَّت روث بعينيها، وقالت: «لا أفهم كيف يمكن أن يكون ذلك ممكناً».

«ليس هو من اتهمك».

نظرت إليَّ كما لو أنني فقدت عقلي، «لكنني أنا الممرضة الوحيدة الملوّنة في جناح الولادة».

«بالنسبة إلى الولاية، لا يهمّ إن كنت سوداء أم بيضاء أم زرقاء أم خضراء. بالنسبة إليهم، كان لديك واجب قانونيّ لرعاية طفل تحت مسؤوليتك. فقط لأنّ المشرفة عليكِ قالت لا تلمسي الطفل لا يعني أنّك تحصلين على تصريح مفتوح بأن تقفي هناك ولا تفعلي شيئاً». انحنيتُ إلى الأمام، «حتّى إنَّه لا يتعيَّن على الولاية أن تحدّد درجة جريمة القتل. يمكنهم مناقشة نظريّات عدَّة - نظريّات متناقضة. إنّها أشبه باصطياد سمكة في دلو - فإذا تمكّنوا من الإمساك بواحدة منها، فإنّك تقعين في ورطة. وإذا استطاعت الولاية أن تثبت وجود ضرر ضمنيّ متعمَّد لأنك كنت غاضبة جداً بسبب منعك من رعاية الطفل، وألمحتِ إلى أنه كانت لديك رغبة في أن يموت، تستطيع هيئة المحلفين أن تدينك بتهمة القتل. حتّى لو قلنا لهيئة المحلّفين إنّ ذلك حدث بمصادفة محضة، فإنك ستعترفين بأنك ارتكبت خرقاً في أثناء تأدية واجبك في الرعاية، وإهمالاً جنائياً مع تجاهل طائش ومتعسف لسلامة الطفل – فإنك تقدّمين لهم في الأساس جريمة قتل بسبب الإهمال على طبق من فضَّة. وفي أيّ من هاتين الحالتين، ستدخلين السجن. وفي أيّ من هاتين الحالتين، لا يهمّ لون بشرتك».

أخذت نفساً عميقاً، وقالت: «هل تعتقدين حقاً أنّني لو كنت بيضاء، لكنت جالسة معك هنا الآن؟»

لا يمكنك أن تنظري إلى قضيّة توجد في جوهرها ممرّضة، الممرّضة الوحيدة الملوّنة في القسم، وأب أبيض عنصريّ، وقرار متسرّع اتخذه مسؤول في المستشفى... ولا نفترض أنَّ العِرق يشكّل عاملاً أساسياً.

لكن.

إنَّ أيَّ محام عامّ يقول لك إنَّ العدالة عمياء هو يكذب عليك كذبة كبيرة. شاهدي التغطيات الإخبارية للمحاكمات التي تنطوي على دلالات عنصريَّة، والشيء الذي سيبرز بعمق، الطريقة التي يبذل فيها المحامون والقضاة والمحلفون جهودهم ليقولوا إنه لا توجد علاقة لذلك بالعِرق، على الرغم من وضوح ذلك. فإنَّ أيَّ محام عام سيقول لك أيضاً إنَّ مع معظم موكّلينا يوجد أشخاص ملوّنون، ولا يمكنك أن تلعب ورقة العِرق في أثناء المحاكمة.

إنَّ إثارة مسألة العِرق في المحكمة انتحار مؤكد. إنك لا تعرفين كيف تفكّر هيئة المحلفين في قضيتك، ولا يمكنك أن تكوني متأكدة بماذا يفكّر القاضي. في واقع الأمر، فإن أسهل طريقة لخسارة قضية ذات دوافع عنصرية في جوهرها هي أن نسميها كما هي، وإنما تجدين لهيئة المحلفين سبباً. خيط إثبات يمكن أن يبرِّئ موكلك، ويسمح لهؤلاء الاثني عشر رجلاً وامرأة أن يعودوا إلى بيوتهم وهم يتظاهرون بأنَّ العالم الذي نعيش فيه عالم تسوده المساواة.

«لا»، قلت لها، «أظنُّ أنَّ إثارة هذه المسألة في المحكمة أمر محفوف بالمخاطر»، وانحنيت نحوها وأضفت، «إني لا أقول إنك لم تتعرَّضي للتمييز يا روث، وإنما أقول إنَّ هذا ليس الوقت أو المكان المناسبين للتحدُّث عن ذلك».

«إذاً متى؟» سألتني بصوت أجشّ، «إذا لم يتحدَّث أحد عن العِرق في المحكمة، فكيف سيتغيَّر أيّ شيء؟»

لا يوجد لديّ جواب عن ذلك. عجلات نظام العدالة بطيئة. لكن لحسن الحظ، يوجد قدر قليل من الزيت في آلة العدالة الشخصية التي تلقي نقوداً على الضحايا لتزيل عنهم شيئاً من المعاملة المهينة التي تعرَّضوا لها. «ترفعين دعوى مدنية. لا يمكنني أن أفعل ذلك بالنيابة عنك، لكن يمكنني أن أجد لك محامياً يعمل في مجال التمييز في التوظيف والعمل».

«لكن، لا يمكنني أن أتحمّل تكاليف محام...»

«سيأخذون قضيتك على أنَّها قضية طوارئ، وسيتقاضون ثلث المبلغ الذي يمكن أن تربحيه»، شرحت لها، «لأكون صادقة معك، أظن أنك ستتمكنين من الحصول على تعويضات عن الراتب الذي خسرته، بالإضافة إلى تعويضات عقابية عن القرار الغبي الذي اتخذه المسؤول في عملك».

فغرت فمها، وقالت: «تقصدين أنَّ من الممكن أن أحصل على مبلغ من المال؟»

فقلت لها: «لن أفاجأ أن يكون المبلغ بضعة ملايين». عقدت الدهشة لسان جيفرسون.

«أمامك مئة وثمانون يوماً لتقديم شكوى إلى لجنة تكافؤ فرص العمل».

«ثمَّ ماذا؟»

«تدرس اللجنة الشكوى ريثما تنتهي المحاكمة الجنائية».

«لماذا؟»

قلت لها بصراحة: «لأنَّ إصدار حكم بالإدانة ضدَّ المُدَّعى عليها أمر مهمّ، لأنّه سيغيّر الطريقة التي سيُعدّ فيها محاميك المدنيّ الشكوى

نيابة عنـك. وإذا مـا انتهـت القضـيّة فـإنَّ ذلـك يعـدُّ إدانـة، وسـيلحق ضرراً بقضـيتك المدنيّة».

قلَّبت روث الأمر في رأسها، وقالت: «لهذا السبب لا تريدين أن تتحدَّثي عن التمييز خلال هذه المحاكمة»، وأضافت روث، «عندها لن يصدر حكم الإدانـة»، وثنـت يـديها ووضعتهما في حجرها، وصمتت. هزّت رأسها، ثمّ أغمضت عينيها.

«لقد مُنعتِ من أداء عملك»، قلت لها بهدوء، «لا تمنعيني من أداء عملي».

أخذت روث نَفَسَاً عميقاً وفتحت عينيها، والتقت عيناها عينـيَّ، وقالـت: «حسـناً، ماذا تريدين أن تعرفي؟»

روث

في صباح اليوم الذي أعقب خروجي من السجن، استيقظت ورحت أحدّق إلى الشقّ القديم، الصدع الذي في السقف، الذي كنت أنوي دائماً أن أصلحه ولم أفعل ذلك قطّ. أحسست بقضيب ناتئ يبرز من الأريكة ويخز ظهري. أغمضت عينيَّ ورحت أنصت إلى التناغم اللطيف لصوت شاحنات القمامة التي تمرّ في شارعنا.

مرتدية رداء النوم (رداء جديد. سأتبرّع بالقديم الذي ارتديته في المحكمة إلى الجمعية الخيرية في أول فرصة تسنح لي) بدأت أعدُّ كوباً من القهوة، واتّجهت إلى غرفة نوم إديسون. كان ابني نائماً كالموتى، حتّى عندما أدرت مقبض الباب ودخلت الغرفة وجلست على حافة السرير، لم يُبدِ أيَّ حركة.

لَمَّا كان إديسون صغيراً، كنت أراقبه أنا وزوجي عندما يكون نائماً. كان زوجي، ويسلي، يضع أحياناً يده على ظهر إديسون ويراقب صعود وهبوط رئتيه. إنَّ علم تكوين إنسان آخر شيء عظيم، ومهما كانت المرات التي تعلّمت فيها عن الخلايا والانقسام والأنابيب العصبية والأشياء الأخرى التي تتعلق بتكوين طفل، لا يسعني إلا أن أقول إنّ هناك قدراً من المعجزة فيها أيضاً.

قرقر إديسون بعمق في صدره وفرك عينيه، وقال: «ماما؟» قال وانتصب جالساً. استيقظ على الفور، وسألني، «ماذا في الأمر؟»

فقلت له: «لا شيء. كلّ شيء على ما يرام في العالم».

أطلق زفرة ونظر إلى ساعته، وقال: «يجب أن أستعدَّ للذهاب إلى المدرسة».

من الحديث الذي دار بيننا في السيارة عندما كنا عائدين إلى البيت الليلة الماضية، عرفت أن أديسون لم يذهب إلى المدرسة البارحة ليتمكَّن من إرسال الكفالة لإخراجي من السجن، وربّما أصبح يعرف أموراً تتعلّق بالرهن العقاريّ والعقارات أكثر ممّا أعرفه. قلت له: «سأتصل بسكرتيرة المدرسة لتسويغ غيابك البارحة».

لكنَّنا نعرف كلانا أنَّ هناك فرقاً بين أن أقول «أرجو أن تعذري إديسون لغيابه البارحة لأنَّه كان يعاني من اضطراب في معدته» وبين «أرجو أن تعذري إديسون لغيابه لأنَّه كان يعمل على إخراج أمّه من السجن بكفالة». هزَّ إديسون رأسه، وقال: «لا داعي لذلك. سأكلّم أساتذتي».

لم تلتقِ عيناه عينيَّ، وأحسست بوجود شرخ يفصل بيننا.

«شكراً لك مرّة أخرى»، قلت بصوت خفيض.

فدمدم قائلاً: «لا يتعيَّن عليك أن تشكريني يا ماما».

«لا، يجب أن أشكرك». لصدمتي، أدركت أنَّ كلَّ الدموع التي حبستها طوال الأربع والعشرين ساعة الماضية، تجمَّعت فجأة في عينيَّ.

«هيه»، قال إديسون وضمّني إليه.

«أنا آسفة»، دمدمت على كتفه، «لا أعرف لماذا بدأت أنهار الآن».

«كلّ شيء سيكون على ما يرام».

شعرت بها مرّة أخرى، حركة الأرض تميد تحت قدميَّ، عودة ارتكاز عظامي فوق روحي. ثمّ أدركت أنّه للمرّة الأولى في حياتنا، كان إديسون هو الذي يواسيني، بدلاً من أن أواسيه أنا.

كنت أتساءل دائماً إن كانت الأمّ تستطيع أن ترى التحوّل الذي يطرأ على ابنها عندما يصبح بالغاً. تساءلت إن كان بالإمكان معرفة ذلك سريرياً، كما في فترة بداية مرحلة البلوغ، أو عاطفياً مثل أول مرّة تحطّم فيها قلبه، أو مؤقتاً مثل اللحظة التي قال فيها إنّني أفعل. كنت أتساءل

هل الكتلة الحرجة للخبرات الحياتية - التخـرُّج، أول وظيفـة، أول مولـود - هـي التـي رجحت الميزان، أو إذا كان ذلك الشيء الذي تلاحظه على الفـور عنـدما تـراه في المـرآة مثل بقعة نبيذ ظهرت فجأة على قميصك، أو أنها تسلّلت إليه بـبطء، مثـل التقـدُّم في العمر.

أدركت الآن أنَّ سنّ البلوغ خطّ مرسوم في الرمال، ففـي مرحلـة مـا، سـتجد ابنـك واقفاً على الجانب الآخر.

استغرقتُ وقتاً طـويلاً لأختـار الثـوب الـذي يجـب أن أرتديـه لأذهـب إلى مكتـب المحامية، فمنذ خمس وعشرين سنة، أرتدي ثياب المستشفى، وأحـتفظ بثيـابي الأنيقـة للـذهاب إلى الكنيسـة. لكـن لا أظـنّ أنَّ الفسـتان المزهـر بياقـة الـدانتيل والحـذاء ذا الكعب الواطئ ملائمان لاجـتماع عمـل. ارتـديت أخـيراً التنـورة الزرقـاء الغامقـة التـي أرتديها عادة إلى اجتماع الآباء والأساتذة في مدرسة إديسون، وبلوزة مخطّطة كانت قد اشترتها لي أمّي بمناسبة عيد الميلاد، وانتعلت حذاء مسطّحاً مناسباً.

لَمَّا وصلت إلى العنوان المـدوَّن في الرسـالة، قلـت في نـفسي لا بـدَّ أنَّنـي جئـت إلى المكان الخطأ، فلا يوجد أحد عنـد مكتـب الاسـتقبال – بـل لا يوجـد مكتـب اسـتقبال أصلاً، وتوجد مقصورات وأبراج من الصناديق تشكّل متاهة كما لو أنَّ الموظّفين فـئران، وأنَّ هذا المكان جزء مـن تجربـة علميّـة كبـيرة. خطـوت بضـع خطـوات إلى الـداخل، وسمعت فجأة أحداً ينادي اسمي.

«روث! مرحباً! أنا كينيدي ماكواري».

كيف يمكنني أن أنساها. أومأت برأسي وصافحتها عنـدما مـدّت لي يـدها. لم أفهـم تماماً لماذا أصبحت محاميتي.

بدأت تتكلّم بسرعة حتّى إنَّني لم أفهم كلمـة كاملـة قالتهـا، ربّمـا لأنّنـي كنت متوترة مثل الجميع، فأنا لا أملك نقوداً كافية لتوكيل محـام خـاصّ، إلّا إذا أنفقت كلّ ما وفّرته لأجـل دراسـة إديسـون، لكنّـي مسـتعدّة لأن أمضي

حياتي كلّها في السجن ولا أسمح بأن يحدث ذلـك. حتّـى لـو تمكّـن جميـع النـاس مـن توكيـل محـامٍ في هـذا البلـد فـإنّ هـذا لا يعنـي أنّ المحـامين جميعـاً سواسـية. ففـي المسلسلات المتلفزة، يحصـل الأشـخاص الـذين يوكلـون محـامين خاصّـين عـلى الـبراءة، ويدَّعي الذين تعيّن لهم الولاية محامين بأنه لا يوجد فرق.

اقترحت السـيّدة مـاكوري أن نخـرج مـن المكتـب ونتنـاول طعـام الغـداء في أحـد المطاعم القريبة، مع أنّه لم يكن في وسعي أن أتناول شيئاً لأنّني كنـت قلقـة إلى درجـة كبيرة. لَمَّا تناولنا الطعام، بدأت أُخرج محفظتي لكنّها أصرَّت على أن تـدفع عنـي ثمـن الوجبة. في البداية انزعجت قليلاً - فمنذ أن كنت صغيرة، وبدأت أرتـدي الثيـاب التـي تتخلَّى عنها كريستينا، لم أعد أرغـب في أن يتصـدّق عـليَّ أحـد. لكـن، قبـل أن أتـذمَّر، تريَّثتُ قليلاً. فماذا لو كان هذا ما تفعله مع جميع موكّليها لتقيم معهم علاقة وديّـة؟ ماذا لو أنّها تحاول أن تجعلني أشعر بالارتياح تجاهها بقدر ما أحاول أن تشـعر بـذلك تجاهي؟

لَمَّا جلسنا أمام أطباق الطعام، بدأت أصـلي صـلاة المائـدة، بـدافع العـادة. كانـت كورين الملحدة تمزح دائماً وتقـول عنـدما تسـمعني أصـلّي أو تـراني أحنـي رأسي فـوق الطعام: «وحش السباغيتي في السماء»، لذلك لم أُدهش عندما رأيت السـيدة مـاكواري تحدّق إليَّ عندما أنهيت صلاتي، وقالت: «إذاً أنتِ ترتادين الكنيسة».

قلت لها: «وهل في ذلك مشكلة؟» فربما تعرف شيئاً لا أعرفه، مثل أنَّ المحلّفين قـد يدينون الأشخاص الذين يؤمنون بالـلـه.

فقالت: «لا، أبداً. في الواقع من الجيد أن أعرف ذلك لأنّه أمر قد يساعد المحلّفـين، مثلك».

لَمَّا قالت ذلك، نظرت إلى حضني وتساءلت هل وجدتني امرأة غير محبوبة وتريد أن تبحث عن أشياء يمكن أن تؤثّر في الناس لصالحي؟

ثمَّ قالت: «أوّلاً، هل تفضّلين استخدام كلمة سوداء أو أمريكية من أصل أفريقيّ أو من أصحاب البشرة الملوَّنة؟»

أردت أن أقول لها إنّني أفضّل روث، لكنّي ابتلعت ردّي وقلت: «من أصحاب البشرة الملوَّنة».

في إحدى المرَّات، غضب ممرِّض يدعى ديف في المستشفى وأخذ يصيح محتجّاً على هذه العبارة، وقال: «كما لو أنّه لا لون لي»، وقد مدّ ذراعيه الشاحبتين، وأضاف، «انظروا، فأنا لست شفّافاً، أليس كذلك؟ لكنّي أظنّ أنّ الأشخاص ذوي الألوان الداكنة ليسوا كذلك»، ولَمَّا رآني في غرفة الاستراحة، امتقع لونه حتّى منبت شعره، وقال: «آسف يا روث، لكنّك تعرفين، قلّما أحسبك سوداء البشرة».

كانت محاميتي لا تزال تتكلّم، «حتّى إنّني لا أرى لوناً»، قالت، «أقصد، العِرق الوحيد الذي يهمّ هو الإنسان، أليس كذلك؟»

من السهل تصديق أننا جميعنا في هذا معاً عندما لا تكون الشخص الذي جرَّته الشرطة من بيتك. لكن، أعرف أنّه عندما يقول أشخاص بيض أشياء من هذا القبيل، فإنَّهم يقولون ذلك لأنَّهم يعتقدون أنّه الشيء الصحيح الذي يجب أن يقولوه، لا لأنّهم يدركون كيف يمكن أن يبدو ذلك عفوياً. قبل سنتين، غضبت أديسا عندما انتشرت في تويتر عبارة «حياة الجميع مهمَّة» كردّ فعل على النشطاء الذين كانوا يحملون لافتات تقول: «حياة السود مهمَّة». قالت لي أديسا: «إنّ ما يقولونه حقاً هو أنَّ حياة البيض تهمّ، ومن الأفضل أن يتذكّر ذلك السود قبل أن ندافع عن مصالحنا».

سعلت السيدة ماكواري سعلة خفيفة، وأدركتُ أنّني شردت في تفكيري، فأرغمت نفسي على أن أنظر إلى وجهها. ابتسمت قليلاً وسألتني: «ذكّريني مرّة أخرى في أيّ جامعة درستِ؟»

شعرت بأنّها تختبرني، فقلت لها: «جامعة بلاتسبيرغ التابعة لولاية نيويـورك، ثـمّ في كلية التمريض في جامعة ييل».

«رائع».

ما الرائع؟ أنّني خريجة جامعيّة؟ أم لأنّني درسـتُ في جامعـة ييـل؟ هـل هـذا مـا سيتعرَّض له إديسون طوال حياته أيضاً؟

إديسون.

قلت: «السيدة ماكواري»، ثمّ استدركت، «كينيدي».

«كينيدي»، تستقرّ الألفة على نحو غير مريح على لسـاني، «لا يمكننـي أن أعـود إلى السجن». تذكّرت إديسون عندما انتعل حذاء أبيه حين كان طفلاً وسـار فيـه. سـيمضي إديسون عمره كله ليرى أنَّ السحر الذي كان يؤمن به عنـدما كـان طفـلاً سـيُمحى، في مواجهة بعد الأخرى. لا أريد أن يتعرَّض لذلك في وقت قريب، «لـديَّ ابنـي، ولا يوجـد أحد يمكن أن يربّيه ليصبح الرجل الذي أرغب في أن يكون».

مالت السيّدة ماكواري - كينيدي - إلى الأمام، وقالت: «سأبذل كـلّ مـا في وسـعي. لديَّ خبرة كبيرة في التعامل في قضايا مثل أشخاص مثلك».

وسم آخر. «أشخاص مثلي؟»

«أشخاص اتُّهموا بجرائم خطِرة».

على الفور، أخذت موقفاً دفاعياً، وقلت: «لكنّي لم أفعل شيئاً».

«إنّي أصدّقك. لكن، يجب أن نقنع هيئة المحلفين بـذلك. لـذا، يجـب أن نعـود إلى الأساسيات لنعرف سبب اتهامك».

أمعنت فيها النظر، محاولة أن أمنحها فائدة الشكّ. إنّهـا القضـيّة الوحيـدة الثابتـة في جهاز راداري، لكن ربّما لديها مئات. ربّما نسيت حليق الرأس ذا الوشم الـذي بصـق في وجهي في قاعة المحكمة. «أظنّ أنّ الأمر في غاية الوضوح. لم يشأ والـد ذلـك الطفـل أن اقترب من ابنه».

«ذلك العنصريّ الأبيض؟ لا علاقة له بقضيّتك».

لوهلة، انعقد لساني، ولم أفِه بكلمة واحدة؛ فقد مُنعت من رعاية المـريض بسـبب لون بشرتي، ثمّ عوقبت لأنّني نفَّذت تلك التعلـيمات عنـدما دخـل الطفـل المـريض في مرحلة الخطر. بحقّ السماء، كيف يمكن ألّا يكون الأمران مترابطين؟

«لكنَّني كنت الممرّضة الوحيدة الملوّنة في جناح الولادة».

«لا يهمّ الولاية إن كنت سوداء أم بيضاء أم زرقـاء أم خضراء. بالنسـبة إليهـا، كـان لديك واجب قانونيّ لرعاية الطفل الذي تقـومين عـلى رعايتـه». وبـدأت تعـدّد السـبل التي يمكن أن تـدينني فيهـا هيئـة المحلّفـين، كـلّ إدانـة مثـل لبنـة ترصـف في مكانهـا المناسب إلى أن أقع في فخّ تلك الحفرة. عندها أدركت أنّني ارتكبت خطأ جسيماً: فقـد ظننت أنَّ العدالة منصفة حقّاً، وأنّ المحلّفـين سيفترضـون بـراءتي حتّـى تثبـت إدانتـي، لكنّ التحيّز نقيض ذلك تماماً: فالحكم موجود قبل وجود الدليل.

لا توجد لديَّ فرصة.

قلت لها بهدوء: «هل تظنين حقاً أنّني لو كنت بيضاء لرأيتنـي جالسـة معـك هنـا الآن؟»

هزَّت رأسها، وقالت: «لا. أظنّ أنّ إثـارة هـذه المسـألة في المحكمـة أمـر محفـوف بالمخاطر».

إذاً، يفترض أن نربح القضيّة إذا ادّعينا أنّ سبب حدوثها غير موجود؟ هـذا خـداع. مثل القول بأنّ مريضاً مـات لأنّـه أصيب بالـداحس مـن دون ذكـر أنّـه مصـاب بـداء السكري من النوع الأول.

قلت: «إذا لم يتحدَّث أحـد عـن العِـرق في المحكمـة، فكيـف يُفـترض أن يتغـيّر أيّ شيء؟»

ثنت يديها على الطاولة بيننا، وقالت: «ترفعين دعوى مدنيّة. لا يمكنني أن أفعل ذلك بالنيابة عنك، لكن يمكنني أن أجد لك محامياً مختصّاً في مجال التمييز في التوظيف والعمل»، وشرحت ما الذي يعنيه ذلك قانونياً بالنسبة إليَّ.

كانت الأضرار التي ذكرتها أكثر ممّا كنت أتخيّله في أكثر أحلامي جموحاً.

لكن، هناك شيء آخر، فالدعوى التي قد تكلّفني هذا المبلغ قد تساعدني في توكيل محام خاصّ قد يكون مستعدّاً للإقرار بأنّ العنصرية هي التي جعلتني أقف في المحكمة في المقام الأول، ولا يمكن رفع تلك الدعوى إلّا بعد انتهاء هذه الدعوى. بعبارة أخرى، إذا ثبت أنّي مذنبة الآن، فقد أقول وداعاً للمبلغ الذي وفرته لأجل المستقبل.

فجأة، أدركت أنَّ عدم رغبة كينيدي في إثارة مسألة العِرق في المحكمة قد لا يكون نابعاً من جهل، وإنّما على العكس تماماً، لأنّها تعرف حقّاً ما يجب أن أفعله لأحصل على البراءة.

قد أكون كذلك عمياء وضائعة، وقد تكون كينيدي ماكوري الوحيدة التي لديها خريطة طريق. نظرت في عينيها، وقلت: «ما الذي تريدين أن تعرفيه؟»

كينيدي

لَمَّا عدت إلى المنزل في الليلة بعد أول لقاء لي مع روث، كان ميكا لا يزال يعمل في المستشفى حتّى وقت متأخّر، وكانت أمّي تعتني بفيوليت. كانت رائحة الزعتر والعجين الطازج تعبق في أرجاء المنزل. «هل هذا يوم سعدي؟» قلت بصوت عال لأزيح عن كاهلي عبء عملي، فنهضت فيوليت من عند الطاولة التي ترسم عليها. «هل هناك بيتزا على العشاء؟»

حملت ابنتي بين ذراعيَّ وبيدها قلم تلوين أحمر، وقالت: «صنعت لك واحدة. احزري ما هي؟».

خرجت أمّي من المطبخ تحمل وعاء فيه كتلة عجين. «أوه، من الواضح أنّها...» نظرت في وجه أمّي التي هزّت رأسها، ومن وراء ظهر فيوليت، رفعت يديها وكشفت عن أسنانها. «ديناصور»، قلت مصحّحة، «أقصد...»

ابتسمت فيوليت ابتسامة عريضة، وقالت: «لكنّه مريض»، وأشارت إلى حبَّات الأوريغانو المنثورة فوق الجبن، «لذلك أصيب بطفح جلديّ».

«هل هو جدري الماء؟» سألتها، وتناولت لقمة.

فقالت: «لا». «مصاب بخلل وظيفيّ يصيب الزواحف».

كدت أبصق قطعة البيتزا من فمي. وعلى الفور، وضعت فيوليت على قدميها. لَمَّا ركضت إلى الطاولة لتواصل الرسم والتلوين، رفعتُ حاجبيَّ، وسألت أمّي بصوت خافت: «ماذا كنتما تشاهدان؟»

تعرف أمّي أنّ البرنامج الوحيد الذي نسمح لفيوليت بمشاهدته عبر التلفاز هو برنامج «افتح يا سمسم» و«ديزني الصغير»، لكن من نظرة البراءة المدروسة التي ارتسمت على وجه أمّي، عرفت أنّها تخفي عنّي شيئاً، وقالت: «لا شيء».

استدرتُ ورحت أحدّق إلى شاشة التلفاز البيضاء. بحدس داخليّ، التقطتُ جهاز التحكّم عن بعد، الملقى على الأريكة، وشغّلته.

كان والاس ميرسي واقفاً بكلّ مجده وبهائه خارج مبنى البلدية في مانهاتن بشعره الأبيض الجامح المرفوع كما لو أنّه صُعق بتيار كهربائيّ، رافعاً قبضته تضامناً مع أيّ عمل غير عادل يؤازره الآن. «إخواني وأخواتي، أسألكم: متى أصبحت كلمة سوء الفهم مرادفة لإطالة أمد العنصريّة؟ إنّنا نطالب باعتذار من مفوّض شرطة مدينة نيويورك عن الشعور بالعار والمشقّة اللذين تعرّض لهما هذا الرياضيّ الشهير...» وكان شعار قناة فوكس نيوز يجري تحت وجه رجل وسيم مألوف داكن البشرة.

لا نشاهد أنا وميكا عادة قناة فوكس نيوز التي تعرض بسهولة إعلانات كثيرة عن ضعف الانتصاب.

«هل سمحتِ لفيوليت بمشاهدة هذا؟»

فقالت أمّي: «طبعاً لا. شاهدته عندما كانت نائمة».

رفعت فيوليت رأسها من على الورقة التي تلوّنها، وقالت: «برنامج خمسة أمتار».

حدَّجت أمّي بحدّة، وقلت لها: «تشاهدين هذا البرنامج مع ابنتي التي لا يتجاوز عمرها أربع سنوات!».

رفعت يديها، وقالت: «حسناً، حسناً، نعم، أفعل ذلك أحياناً. إنّه برنامج إخباريّ، وليس برنامجاً إباحيّاً. بالإضافة إلى ذلك، هل سمعت عن هذا؟ إنّه سوء فهم بسيط، وهذا القسّ المزيّف السخيف يعترض مرّة أخرى لأنّ الشرطة كانت تحاول أن تؤدّي واجبها».

ثمَّ نظرت إلى فيوليت، وقلت لها: «عزيزتي، لماذا لا تذهبين وتختارين البيجامة التي تريدين ارتداءها وكتابين قبل النوم؟»

ركضت فيوليت إلى الطابق العلـويّ وعـدتُ إلى التلفـاز، وقلـت لأمّـي: «إذا كنـت ترغبين في مشاهدة والاس ميرسي، ففي الأقل ضعيه على قناة MSNBC».

«لا أريـد أن أشـاهد والاس. في الحقيقـة لا أظـنّ أنّـه يقـدّم خدمـة لمالـك ثـادون بالدفاع عن قضيّته».

مالك ثادون، الذي يبدو مألوفاً، هو الذي فاز ببطولة الولايـات المتحـدة المفتوحـة منذ بضع سنوات. سألتها: «ماذا حدث؟»

«لَمَّا خرج من فندقه قبض عليه أربعة رجال شرطة.

يبدو أنَّ التباساً في تحديد هويّته قد حدث».

جلست أمّي إلى جانبي على الأريكة، في حين اقتربت الكـاميرا كثـيراً لتُظهـر غضـب والاس ميرسي اللفظي، فبرزت عروق رقبته، وكان هناك وريد ينبض في صدغه. إنَّ هـذا الرجل ينتظر أن تحدث له نوبة قلبيَّة، «هل تعرفين؟»، قالت أمّي، «لو لم يكـن غاضـباً هكذا طوال الوقت، لاستمع إليه عدد أكبر من الناس».

لم يكن عليَّ أن أسألها مَن.

تناولت لقمة أخرى من بيتزا الديناصور، ثمّ قلت لأمّـي: «مـاذا لـو فتحنـا التلفـاز فقط على قناة لا توجد فيها إعلانات تجارية لها آثار جانبية؟»

ثنت أمّي ذراعيها، وقالت: «أفكّر في جميع الأشخاص الـذين لا تريـدين أن تـتعلّم ابنتك منهم يا كينيدي».

«إنّها طفلة يا أمّي. لا أريد أن تفكّر فيوليـت في أنَّ رجـال الشرطـة قـد يعتقلونهـا ذات يوم».

«أرجوك. كانت فيوليت تلوّن. لقد مرَّ كلّ ذلك تحت سمعها. الشيء الوحيد الـذي علّقت عليه هو تسريحة والاس ميرسي البشعة».

ضغطتُ بأصابعي على زوايا عينيَّ، وقلت: «حسناً. إنّني مرهقة. لننهِ هذا الحديث الآن».

أخذت أمّي صحني الفارغ ووقفت، وقد بدت منزعجة، وقالت: «حاشا لي أن أرى نفسي مجرد مساعدة بأجر».

اختفت في المطبخ، وذهبت لأضع فيوليت في سريرها. كانت قد اختارت كتاباً عن فأر له اسم لا تستطيع أيّ من صديقاتها أن تنطقه، و(اذهب أيُّها الكلب، اذهب) العنوان الذي أكرهه أكثر من أيّ شيء آخر في مكتبتها. صعدت إلى السرير معها وقبّلتها على رأسها الذي تفوح منه رائحة فقاعات الصابون بالفراولة وشامبو جونسون، كالذي كنت أستخدمه عندما كنت طفلة. لَمَّا بدأت أقرأ لها بصوت عالٍ، شكرت أمّي في سريّ لأنّها تحمّم فيوليت وتطعمها وتحبّها مثلي، حتّى لو جعلتها تشاهد غضب والاس ميرسي المسوّغ.

في تلك اللحظة، تذكّرت روث. لا أريد أن تفكّر فيوليت في أنَّ رجال الشرطة يمكن أن يقبضوا عليها ذات يوم، كما قلت لأمّي. لكن صدقاً، إنَّ احتمالات أن تكون طفلتي ضحيّة بسبب خطأ في تحديد الهويّة أقلّ بكثير من احتمالات روث.

«ماما»، قالت فيوليت، فأدركت أنّني توقّفت عن القراءة من دون أن أشعر، وشرد تفكيري.

«'هل تحبّين قبَّعتي؟'» قرأت بصوت عالٍ، «'لا، لا أحبّها'»

قالت أديسا إنّني في حاجة إلى أن أروّح عن نفسي، ودعتني إلى مقهى صغير يقـدّم نوعاً خاصّاً من الخبز، بكمية كبيرة حتّى ينتهي بك الأمـر دائمـاً إلى أن يصـل نصـفه إلى البيت. كان المقهى مزدحماً، فجلسنا أمام البار.

بدأت أمضي وقتاً أطول مع أختي، وهو أمر مريح وغريب في الوقـت نفسـه. قبـل الآن، كنت أعمل في معظم الأوقات عندما لا أكون مع إديسـون، أمّـا الآن فقـد أصـبح لديَّ وقت فراغ طويل.

«هذا رائع، وكلّ شيء»، قالت لي أديسا، «لكـن، هـل فكَّـرتِ كيـف سـتدفعين ثمـن طعامك بعد ذلك؟»

فكّرت في ما قالته كينيدي البارحة حول رفـع دعـوى قضـائيّة مدنيّـة. إنّهـا نقـود، لكنّها نقود لا يمكنني أن أعوّل عليها حتّى الآن - ربّما أبـداً. قلـت لهـا: «إنّي قلقـة أكـثر حول توفير الطعام لابني».

ضيَّقت عينيها وسألتني: «إلى متى يكفيك؟»

لا فائدة من الكذب عليها، قلت لها: «ثلاثة أشهر تقريباً».

«عندما تحتاجين إلى شيء، يمكنك أن تطلبي مني مساعدة، أليس كذلك؟»

لم أتمالك نـفسي عـن أن أبتسـم، وقلـت لهـا: «حقّـاً؟ لقـد أقرضـتك مبلغـاً الشـهر الماضي».

ابتسمت أديسا ابتسامة عريضة، وقالت: «قلت يمكنك أن تطلبـي منـي مسـاعدة، ولم أقل إنّني سأكون قادرة على أن أقدّمها»، وهـزّت كتفيهـا بـلا مبـالاة، ثـمّ أضـافت، «بالإضافة إلى ذلك، فإنّك تعرفين أنَّ هناك جواباً».

إنَّ ما تعلّمته هذا الأسبوع هو أنّني أمتلك مؤهلات تزيد عن المطلوب لجميع الوظائف الإداريّة المبتدئة في نيو هافن، بما فيها جميع وظائف السكرتارية والاستقبال، فاقترحت أختي أن أتقدَّم بطلب للحصول على إعانة بطالة. لكنّي أعدُّ ذلك احتيالاً، لأنّه ما إن تسوّى أموري، فإنّني سأعود إلى عملي، ورأيت أنَّ الحصول على عمل بدوام جزئيّ بديل آخر، لكنّني ممرّضة مؤهلة، ورخصتي معلّقة، فتحاشيت التحدّث عن ذلك.

قالت أديسا: «كلّ ما أعرفه أنَّه عندما أُلقي القبض على صديق تيانا بتهمة السرقة وقُدِّم إلى المحكمة، كان موعد المحكمة بعد ثمانية أشهر، لذلك يجب أن تنتظري خمسة أشهر أخرى. ما النصيحة التي قدّمتها لك تلك المحامية البيضاء النحيلة؟»

«اسمها كينيدي، إنّها تحاول أن تجد طريقة لا أذهب فيها إلى السجن، ولم نتحدّث كيف يمكنني أن أعيل نفسي حتّى تبدأ المحاكمة».

نخرت أديسا وقالت: «نعم، لأنّ هذه التفاصيل لا تحدث لشخص مثلها».

فقلت لها: «لقد قابلتها مرّة واحدة. إنّك لا تعرفين عنها شيئاً».

«أعرف أنّ الذين يصبحون محامين عامّين يفعلون ذلك لأنّ الأخلاق بالنسبة إليهم أهمّ من المال، وإلّا فإنّهم يفتحون مكتب محاماة ويصبح لديهم شركاء في المدينة الكبيرة. وهذا يعني أنّه يوجد لدى السيدة كينيدي صندوق ائتمان أو لها أب غنيّ».

«لقد أخرجتني بكفالة».

«تصحيح: ابنك هو الذي أخرجك بكفالة».

ألقيت نظرة قوية إلى أديسا، وحوّلت انتباهي إلى النادل الذي كان يلمّع الكؤوس.

دحرجت أديسا عينيها، وقالت: «إنّك لا تريدين أن تتكلّمي، هـذا جيّـد»، ونظـرت إلى التلفاز المعلّق فوق البار، الذي كان يعرض بعض الإعلانات، ثم قالت للنادل: «هيه، هل يمكننا أن نشاهد شيئاً آخر؟»

«تفضّلي»، قال لها وأعطاها جهاز التحكم عن بعد.

بعد دقيقة، بينما كانت أديسا تقلّب بين محطّات التلفزة، توقّفت عنـدما سـمعت أنشودة مألوفة من الكتاب المقدَّس: يا ربّ، يا ربّ، يا ربّ، ارحمنا! ثمّ انتقلت الكـاميرا إلى الناشط والاس ميرسي الذي كان ينتقد اليوم مدرسة محليّة في تكساس لأنّ الشرطـة اعتقلت طالباً مسـلماً عنـدما أحضر سـاعة منزليّـة صـنعها بنفسـه إلى المدرسـة ليريهـا لمدرّسة العلوم، فظنَّت أنّهـا قنبلـة موقوتـة. ثـمّ بـدأ والاس يقـول: «أحمـد، إذا كنـت تسمعني، أريد أن أقول لك شيئاً. أريد أن أقول لجميع الأطفال السود والسـمر، هنـاك أيضاً الذين يخشون أن يُساء فهمهم أيضاً بسبب لون بشرتهم...»

أنا متأكّدة أنَّ والاس ميرسي كان واعظاً، لكنّي لا أظنّ أنّ أحداً ذكّـره بأنّـه لـيس في حاجة إلى أن يصرخ عندما يكون أمام مايكرفون عبر التلفزة.

«أريد أن أقول إنّني كنت أظنّ، أنا أيضاً، أنّني أقلّ ممّا كنـت بسـبب شـكلي. ولـن أكذب – في بعض الأحيان، عندما يهمس الشيطان بالشـكّ في أذني، فـإنّي لا أزال أعتقـد أنّ هؤلاء الناس على حقّ. لكن في معظم الأحيان، أظهرت جميع هؤلاء المتنمرين. لقد نجحت على الرَّغم منهم. و.... أنتم كذلك».

قالت أديسا وهي تلهث: «يا إلهي يا روث! هذا ما تحتاجين إليه. والاس ميرسي».

«أنا متأكّدة تماماً أنَّ والاس ميرسي هو آخر شيء أحتاج إليه».

«ماذا تقولين؟ إنّ قصّتك من النوع الذي يحب أن يـدافع عنـه. التمييـز الـوظيفيّ بسبب العِرق؟ سيجعل كلّ شخص في البلد يعرف أنّك تعرَّضتِ للظلم».

أخذ والاس يهزّ قبضته عبر شاشة التلفاز، ومضى يقول: «هل يجب أن يكون غاضباً هكذا طوال الوقت؟»

ضحكت أديسا، وقالت: «حسناً يا بنت. أنا غاضبة طوال الوقت. أنا منهكة من كوني سوداء طوال اليوم»، وأردفت، «في الأقلّ، إنّه يعطي صوتاً لأشخاص مثلنا».

«بصوت مرتفع».

«تماماً. اللعنة يا روث، كنت تشربين طوال الوقت كوول إيد. سبحتِ مع سمك القرش لفترة طويلة، ونسيت أنّك من نوع سمك كريل».

«ماذا؟»

«ألا يأكل سمك القرش سمك كريل؟»

«إنّه يأكل البشر».

«هذا ما أقوله لك»، قالت أديسا، «لقد أمضى البيض سنوات في منح السود حرّيتهم على الورق، لكن في أعماقهم، لا يزالون يتوقّعون منّا أن نقول نعم، ماسوه، وأن نكون هادئين وممتنين لما حصلنا عليه، وإذا عبَّرنا عمَّا نفكّر فيه، فقد نفقد وظائفنا ومنازلنا، لا بل حتّى حياتنا أيضاً. إنَّ والاس هو الرجل الذي يغضب لأجلنا، ولو لم يكن موجوداً، لما عرف البيض قطّ الخراء الغبيّ الذي يزعجوننا به، وسيزداد السود غضباً وجنوناً لأنّهم لا يستطيعون أن يجازفوا ويردّوا. إنَّ والاس ميرسي هو الذي يمنع برميل البارود في هذا البلد من أن ينفجر».

«حسناً، كلّ هذا جيّد، لكنّني لا أُحاكم الآن لأنّني سوداء، وإنّما لأنّ طفلاً مات عندما كنت في الخدمة».

ابتسمت أديسا ابتسامة متكلّفة، وقالت: «من قال لك ذلك؟ محاميتك الزنبقة البيضاء؟ طبعاً، فهي لا ترى أنَّ الأمر يتعلَّق بالعِرق. إنّها لا تفكّر في العِرق، نقطة آخر السطر. فهي ليست مضطرَّة إلى أن تفعل ذلك».

«حسناً، عندما تحصلين على شهادتك في الحقوق، يمكنك أن تنصحيني في هذه القضيّة. حتّى ذلك الحين، سأستمع إلى ما تقوله لي». تردّدت، ثمّ قلت: «كما تعرفين، بالنسبة إلى شخص يكره أن يوضع في صورة نمطيّة، من المؤكّد أنّك تفعلين ذلك عن نفسك كثيراً».

رفعت أختي يديها، مستسلمة، وقالت: «حسناً يا روث. أنت محقّة. أنا مخطئة».

«إنّي أقول فقط - حتّى الآن، تؤدّي كينيدي ماكوري عملها».

فقالت أديسا: «عملها لتنقذك حتّى تشعر بالرضا عن نفسها»، ثمّ ضيّقت عينيها في وجهي، وأضافت، «وأنت تعرفين ما يوجد على الجانب الآخر من طيف الألوان ذاك».

لم أمنحها فرصة للشعور بالرضا وأردّ عليها. لكنّنا نعرف الجواب.

الأسود: لون شرير.

لم أزر كريستينا في منزلها في مانهاتن إلّا مرّة واحدة بعد أن تزوّجت لاري سوير، كي أقدّم لها هدية زفافها، لكنّها لم تكن تجربة جيّدة، فقد أقامت كريستينا ولاري حفل زفافهما في جزر تركس وكايكوس السياحية، وأعربت كريستينا عن أسفها لأنّها لم تتمكّن من دعوة جميع صديقاتها إلى هناك، واقتصرت على دعوة عدد محدود من صديقاتها. ولَمَّا فتحت هديتي - مجموعة من مناشف الشاي المصنوعة من الكتّان، طبعت عليها وصفات الكعك والكيك والفطائر التي تحبّها كثيراً، والتي كانت تعدّها لها أمّي - انفجرت في بكاء وعانقتني، وقالت إنّها أكثر هديّة شخصيّة تلقَّتها، وإنّها ستستخدمها كلّ يوم.

الآن، بعد أكثر من عشر سنوات، أتساءل إن كانت قد استخدمت مطبخها، ناهيك عن مناشف الشاي. كانت أسطح المناضد المصنوعة من الغرانيت تلمع، وكان هناك وعاء زجاجيّ أزرق ممتلئ بالتفّاح الطازج. لم

يكن هناك شيء يدلّ على وجود طفل في الرابعة من عمره. شعرت بالرغبة في أن أفتح باب الفرن، ماركة فاكينغ، المزدوج لأرى إن كان فيه فتات كيك أو بقعة شحم واحدة.

«تفضّلي واجلسي»، قالت كريستينا، وأشارت إلى كرسيّ في المطبخ.

جلست. فوجئت عندما سمعتُ صوت موسيقا هادئة ينبعث من الحائط خلفي.

قالت وهي تضحك في وجهي: «إنّه مكبّر صوت مخفيّ».

تساءلت كيف يشعر المرء وهو يعيش في مكان يبدو كأنّه جزء من جلسة تصوير مستمرّة. إذ كانت كريستينا، التي أعرفها، تترك أثراً من الفوضى وراءها من الردهة حتّى المطبخ عندما تعود من المدرسة، فتلقي معطفها وحقيبة كتبها وتركل حذاءها. في تلك اللحظة، ظهرت امرأة بهدوء شديد، كما لو أنّها انبثقت من الحائط أيضاً. وضعت طبقاً من سلطة الدجاج أمامي، وطبقاً أمام كريستينا.

«شكراً يا روزا»، قالت كريستينا، وأدركت أنّها ربّما لا تزال ترمي معطفها وحقائبها وحذاءها عندما تعود إلى المنزل، لكنَّ روزا هي أمّي بالنسبة إليها، مجرّد امرأة أخرى، الآن تجري وراءها وتلملم ما ترميه وراءها.

لَمَّا خرجت الخادمة، بدأت كريستينا تتحدّث عن حفل جمع تبرّعات لأحد المستشفيات، وكيف أنَّ برادلي كوبر وافق على أن يحضر الحفل، لكنَّه تراجع في آخر لحظة لأنّه أصيب بالتهاب في حنجرته، لكنَّ مجلة *Us Weekly* صوّرته في الليلة نفسها وهو في إحدى الحانات الرخيصة في شارع تشيلسي مع صديقته. تحدَّثت كثيراً عن موضوعات لا تهمّني، ولم أدرك سبب دعوتها لي إلّا قبل أن أُنهي نصف صحن السلطة الذي أتناوله.

«إذاً»، قاطعتها، «هل سمعتِ عن ذلك من أمّي؟»

تجهَّم وجهها، وقالت: «لا، من لاري. بعـد أن قـدّم أوراقـه للترشّـح، تأتينـا الأخبـار طوال الأسبوع». عضَّت شفتها السفلى، وأضافت، «هل كان ذلك فظيعاً؟»

بدأت ضحكة تتجمَّع في حلقي، وقلت: «أيّ جزء منها؟»

«حسناً، كلّ ذلك. طردي من العمل. إلقاء القبض عليَّ». اتَّسعت عيناها، وسألتني: «هل دخلتِ السجن؟ هل كان ذلك مثل مسلسل البرتقالي هو الأسود الجديد؟»

«نعم، لكن من دون الجنس»، قلت ونظرت إليها، «لم يكـن خطئـي يـا كريسـتينا. يجب أن تصدِّقيني».

مدَّت يدها عبر الطاولة وأمسكت بيدي، وقالت: «أصدّقك. أصدّقك يا روث. أرجو أن تعرفي ذلك. كما تعرفين، كنت أريد أن أساعدك. طلبت إلى لاري أن يوظّف محاميـاً من شركته القديمة ليمثّلك».

تجمَّدتُ في مكاني. حاولت أن أرى ذلك بادرة صـداقة، لكـن بـدا لي كـما لـو أنّنـي مشكلة يجب حلّها. «لا... أستطع أن أقبل ذلك...»

«حسناً، قبل أن تفكّري في أنّنـي أمّـك في قصـص الخيـال. صـدقاً، كـان لاري مـثلي مستاء جداً لأنّ هذا ليس الوقت المناسب ليكون على صلة بشيء يثير الفضيحة بسبب ترشّحه إلى الكونغرس».

يثير الفضيحة. تذوَّقت الكلمة، وقضمتها مثل حبَّة توت، وشعرت أنَّها انفجرت.

«تجادلنا حول هذا الموضـوع. أقصـد، مثـل، طلبـت منـه أن ينتقـل إلى غرفة النوم الثانية وكلّ شيء. لا يتعلّق الأمر بأنّه يؤيّد النازيين الجدد، لكن الأمر ليس بهذه البساطة، كما أظنّ. إنَّ العلاقات العِرقيّة في حالة فوضى في الوقت الحالي، ويتعرَّض مفـوّض الشرطـة للهجـوم، لـذلك يجـب أن يبقـى

لاري بعيداً عن كلّ ذلك بقدر ما يستطيع، وإلّا قد يكلّفه ذلك الانتخابات»، ثمّ هزّت رأسها، وأضافت، «أنا آسفة جداً يا روث».

شعرت بفكّي مشدوداً. سألتها: «هل هذا هو السبب الذي جعلك تطلبين إليَّ أن آتي إلى هنا؟ لتخبريني أنّه لا يمكنك أن تكوني على صلة بي بعد الآن؟»

كم كنتُ غبيَّة عندما ظننت أنَّها زيارة وديَّة؟ فلأول مرّة بعد عشر سنوات قرَّرت كريستينا أن تدعوني إلى الغداء فجأة؟ أم أنّني كنت أعرف طوال الوقت أنّني جئت إلى هنا لأنّني كنت آمل في أن تحدث معجزة في شكل هالويلز - حتّى لو كنت أفخر بأن أعترف بذلك؟

للحظة طويلة، حدَّقت إحدانا الأخرى. قالت كريستينا: «لا. أردت أن أراك بأمّ عيني. أردت أن أتأكّد أنّك... كما تعلمين... على ما يرام».

الكبرياء تنّين شرّير. ينام تحت قلبك ثمّ يزأر عندما تحتاج إلى الصمت.

«حسناً، يمكنك أن تشطبي ذلك من قائمة أعمالك الخيريّة»، قلت لها بمرارة، «أنا على ما يرام».

«روث».

رفعت يدي، وقلت: «لا تفعلي ذلك يا كريستينا، اتفقنا؟ فقط... لا تفعلي ذلك».

حاولت أن أبحث في سلسلة تاريخنا عن النتوء، الصدع بين تلك الحلقات، عندما انتقلنا من فتاتين تعرف إحداهما كلّ شيء عن الأخرى - نكهة الآيس كريم المفضّلة، العضو المفضّل في فرقة *New Kids on the Block* الموسيقيّة، الإعجاب بالمشهورين – إلى امرأتين لا تعرفان شيئاً عن كيف تعيش الأخرى. هل ابتعدنا كثيراً عن بعضنا أو أنَّ قربنا من بعضنا هو المشكلة؟ هل مشاعرنا بالألفة تعود إلى الصداقة أو إلى الجغرافيا؟

«أنا آسفة»، قالت كريستينا بصوت خافت.

«وأنا أيضاً»، همست.

ابتعدت فجأة عن الطاولة وعادت بعد لحظات، وأفرغت محتويات حقيبتها. نظّارة شمسيّة ومفاتيح وقلم أحمر شفاه وإيصالات تناثرت على سطح الطاولة؛ أقراص أدفيل المسكّنة، في أسفل حقيبتها، اندلقت مثل قطع حلوى. ثمّ فتحت محفظتها وأخرجت رزمة من الأوراق النقديَّة وضغطتها في يدي، وقالت: «خذي هذه. بيننا فقط».

لَمَّا لمست يدي يدها، شعرت بصدمة كهربائيَّة، فقفزت كما لو كانت صاعقة من البرق. «لا»، قلت وأنا أخطو إلى الوراء. إنَّ هذا خطّ إذا ما تجاوزته فإنّ كلَّ شيء سيتغيّر بيني وبين كريستينا. ربَّما لم نكن متساويتين قطّ، لكن، في الأقلّ، كان في استطاعتي أن أتظاهر بذلك. وإذا أخذتُ النقود، فلا يمكنني أن أستمرَّ في خداع نفسي.

«لا أستطيع».

كانت كريستينا عنيفة، ثنت أصابعي حول النقود بقوّة، وقالت: «خذيها»، ثمّ نظرت إليَّ كما لو أنَّ كلَّ شيء في العالم يسير على ما يرام، كأنّ شيئاً لم يتغيّر، كما لو أنّني لم أصبح مجرّد متسوّلة عند قدميها، أو إنسان يستحقّ الصدقة. «سنتناول حلوى»، قالت كريستينا، «روزا»؟

تعثَّرت بالكرسيّ، وكدت أسقط عندما حاولت أن أهرب. «لست جائعة»، متحاشية النظر إليها، «يجب أن أذهب».

أخذتُ معطفي وحقيبتي من الرفّ في الردهة، وخرجت بسرعة، وأغلقت الباب خلفي، ورحت أضغط على زرّ المصعد لمرّات عدَّة، كما لو أنَّ ذلك سيجعله يصل أسرع.

ثمَّ عددت المبلغ: خمسمئة وستة وخمسون دولاراً.

أصدر المصعد رنيناً.

ركضت نحو البساط الممدود أمام باب بيت كريستينا، ووضعت النقود تحته.

هذا الصباح، قلت لإديسون إنّنا لم نعد قادرين على قيادة السيّارة لأنّ صلاحية تسجيلها قد انتهت ولا أملك نقوداً لتجديدها. سيكون بيعها الملاذ الأخير بالنسبة إليّ، حتّى أتمكَّن من توفير مبلغ دفع رسوم الولاية والرسوم الفيدرالية والبنزين، سنستقلّ الحافلة.

صعدت في المصعد وأغمضت عينيَّ حتّى وصلت إلى الطابق الأرضيّ. رحت أجري في حديقة سنترال بارك ويست حتّى بدأت ألهث، حتّى عرفت أنَّني لن أغيّر رأيي.

يشبه المبنى في شارع همفري جميع المباني الحكوميّة الأخرى: كتلة بيروقراطية إسمنتية مربَّعة. كان مكتب الرعاية الاجتماعية مزدحماً، يجلس على جميع الكراسي البلاستيكيّة المشقّقة أشخاص يملؤون استماراتهم. اتّجهنا أنا وأديسا إلى الكاونتر. تعمل حالياً (كاشير) بدوام جزئيّ، وتحصل على الحدّ الأدنى من الأجور – لكنّها جاءت إلى هذا المكتب ستّ مرات عندما كانت تبحث عن عمل، لذلك فهي تعرف كيف تسير الأمور. «أختي تريد أن تقدّم طلباً للحصول على معونة»، قالت أديسا للموظّفة كما لو أنَّ ذلك لم يجعلني أموت في داخلي.

يبدو أنَّ السكرتيرة في مثل عمر إديسون، تضع قرطين طويلين يتأرجحان مثل سندويشة تاكو. «املئي هذه»، قالت، وأعطتني استمارة.

لَمَّا لم نجد مكاناً نجلس فيه، استندنا إلى الحائط. وبينما راحت أديسا تبحث عن قلم في حقيبتها التي تشبه مغارة، رحت أنظر إلى النساء اللاتي كنَّ يحاولن أن يملأن استماراتهنّ وأطفالهنّ الصغار على ركبهنَّ، وإلى الرجال الذين تفوح منهم رائحة الكحول والعرق، ورأيت امرأة لها ضفيرة رماديّة طويلة تمسك دمية بيدها وتغنّي لنفسها. نصف الموجودين في القاعة من البيض، من أصل أوروبيّ - أمّهات يمسحن أنوف أطفالهنّ بحشوات مناديل، ورجال متوترون يرتدون قمصاناً بياقات ينقرون بأقلامهم على أرجلهم وهم

يقرؤون كلَّ سطر في الاستمارة. لَـمَّا رأتنـي أديسـا أنظـر إلـيهم، قالـت: «ثلثـا الرعايـة الاجتماعيّة تذهب إلى أشخاص بيض. تخيَّلي».

لم أشعر بالامتنان لأختي كما أشعر به الآن.

ملأت الاستفسارات القليلة الأولى: الاسم والعنوان وعدد الأشخاص الذين أعيلهم.

قرأت، الدخل.

بدأت أدوّن راتبي السنويّ، ثمّ شطبته. قالت أديسا: «اكتبي صفر دولار».

«حصلت على مبلغ صغير من ويسلي...»

فكرَّرت أديسا قائلة: «اكتبي صفر دولار. أعرف أشخاصاً رُفض طلـب تسـجيلهم في برنامج الإعانة الغذائيَّة لأنّهم يملكون سيّارات تساوي كثيراً. إنّك ستفسدين النظام كـما أفسدك النظام».

عنـدما لم أبـدأ أكتـب، أخـذت منـي الاسـتمارة ومـلأت الفراغـات، وأعادتهـا إلى السكرتيرة.

مرَّت ساعة ولم يُستدعَ أحد من غرفـة الانتظـار. «كـم يسـتغرق ذلـك؟» همسـت لأختي.

أجابت أديسا: «مهما طالت الفترة التـي يجعلونـك تنتظرينهـا، فـإنَّ نصـف سـبب عدم تمكّن هؤلاء الأشخاص من الحصول على وظيفة هو أنَّهم مشغولون بالجلوس هنا في انتظار الحصول على مزايا ثمَّ يذهبون ويقدّمون طلباً آخر في مكان آخر».

أصبحت الساعة الثالثـة تقريبـاً – مضى عـلى مجيئنـا أربـع سـاعات – ثـمّ جـاءت إحدى الموظّفات إلى الباب، ونادت: «روبي جيفرسون؟»

نهضت واقفة، وقلت: «روث؟»

نظرت إلى الأوراق، وقالت: «ربّما».

تبعتها أنا وأديسا في الممرّ إلى مقصورة صغيرة وجلسنا. «سأطرح عليك بعض الأسئلة»، قالت بصوت رتيب، «هل لا تزالين موظفة؟»

«إنّها مسألة معقدة... لقد أُوقفت عن العمل».

«ماذا يعني ذلك؟»

«أنا ممرّضة، وقد عُلِّقت رخصتي ريثما تنتهي الدعوى القضائيَّة». قلت هذه الكلمات بسرعة، كما لو أنّها تخرج من داخلي.

فقالت أديسا: «لا يهمّ. سأشرح لك الأمر. لا يوجد لديها عمل، ولا تملك نقوداً». حدّقتُ إلى أختي. كنت آمل في أن نتوصّل أنا والموظفة إلى أرضيّة مشتركة، وألّا تعدّني مقدّمة طلب معونة من الحكومة مثل الآخرين وإنّما شخصاً من الطبقة المتوسّطة لم يحالفها الحظّ. لكنّ أديسا بدأت تستخدم في كلامها اللهجة التي يتحدَّث بها السود، وأفشلت محاولتي.

رفعت الموظّفة نظّارتها فوق أنفها، وقالت: «وماذا عن مبلغ جامعة ابنك؟»

قلت: «إنّه خمسة وتسعة وعشرون. لا يمكنني أن أستخدمه إلّا لأجل دراسته».

«إنّها في حاجة إلى علاج طبيّ»، قاطعتها أديسا.

نظرت المرأة إليَّ، وقالت: «ما المبلغ الذي تدفعينه حالياً للتأمين الصحيّ؟»

«ألف ومئة في الشهر»، أجبتها، وقد احمرَّ وجهي، «لكنَّني لن أكون قادرة على تسديد هذا المبلغ في الشهر القادم».

هزَّت المرأة رأسها، وقالت: «ألغي تأمينك السابق. يحقّ لك أن تحصلي على تأمين برنامج رعاية أوباما الطبيّ».

فقلت: «أوه، لا، لم تفهمي قصدي. لا أريد أن أتخلَّص من تأميني. أريد فقط أن أحصل على تمويل مؤقَّت، فهذا التأمين الصحيّ يأتي من المستشفى. سأستعيد وظيفتي في نهاية الأمر».

التفتت أديسا نحوي، وقالت: «وفي غضون هذه الفترة، ماذا لو كُسرت ساق إديسون؟»

«أديسا...»

«هل تظنين نفسك أو جي سيبمسون؟ إنّك لستِ أوبرا، ولستِ كيري واشنطن. إنّهم يحصلون على تصاريح من البيض لأنّهم أشخاص مشهورون. أنت لست سوى زنجيّة أخرى تسير أمورها إلى الهاوية».

كنت واثقة بأنَّه كان في استطاعة الموظّفة رؤية البخار وهو يتصاعد من شعري. جمعت أصابعي في قبضة حتّى شعرت بالدم ينسحب منّي. لا أعرف ما الذي جعلني أريد أن أقتل أختي.

بحقّ الجحيم، فأنا متَّهمة توّاً بارتكاب جريمة قتل.

نقَّلت الموظّفة نظراتها من أديسا إليَّ ثمّ إلى الأوراق، ثمّ تنحنحت وقالت، وهي تشعر بالسعادة لأنّها ستتخلَّص منّا: «حسناً، يحقّ لك أن تحصلي على مساعدة طبيّة ومساعدة ماليّة نقديّة من برنامج مساعدة التغذية التكميليّة. ستسمعان منّا قريباً».

شبكت أديسا ذراعها في ذراعي وجرّتني من الكرسيّ، وتمتمت: «شكراً»، وسحبتني إلى خارج المقصورة.

«الآن، لم يكن ذلك سيّئاً جداً، أليس كذلك؟» قالت عندما ابتعدنا عن مرمى سمع الموظفة، ووقفنا إلى جانب أصيص نبتة عند المصعد. فجأة عادت إلى طبيعتها.

استدرت إليها، وقلت: «ماذا فعلتِ بحقّ الجحيم؟ كنتِ في غاية الحماقة».

فقالت أديسا: «حمقاء التي حصلت لك على النقود التي تحتاجين إليها. يمكنك أن تشكريني لاحقاً».

بعد استنفاد كلّ الوظائف المؤقَّتة لدى مكتب الوكالة، تقدّمت بطلب إلى ماكدونالدز، وقلت لهم إنّني أخذت إجازة من عملي لأتفرَّغ لتربية

ابني، ولم أذكر لهم أنّني ممرّضة. لم أكن أريد شيئاً سوى توظيفي لأتمكّن من التخلّي عن بعض المزايا التي حصلت عليها من مكتب البطالة. ولأجل سلامتي العقليّة، كنت في حاجة إلى أن أعتقد بأنَّني لا أزال، في الأقلّ جزئياً، قادرة على الاعتناء بنفسي وبابني.

لَمَّا اتَّصل المدير بالهاتف ليعرض عليَّ العمل، وسألني إن كان بإمكاني أن أبدأ العمل على الفور لأنَّهم يعانون من نقص في العاملين، تركت ملاحظة قصيرة لإديسون على طاولة المطبخ، قلت له فيها إنَّ لديَّ مفاجأة له، واستقللت الحافلة من وسط المدينة.

لم أكن قطّ من الأشخاص الذين يرفضون القيام بأعمال صغيرة. إذ كان لي في عملي كممرّضة نصيب من إمساك أحواض التقيّؤ، وتغيير الملاءات المتَّسخة. لَـمَّا كنت أفعل ذلك، كنت أقول لنفسي دائماً إنَّ المريضة تشعر بالحرج - جسدياً أو عاطفياً، أو كليهما - أكثر منّي. كانت مهنتي تحتِّم عليَّ أن أجعل الأمور أفضل للمريضة بقدر الإمكان.

لذلك، لم أشعر بالحرج من العمل في مطعم للوجبات السريعة، فأنا لست هنا لأجل المجد، وإنّما لأجل المبلغ الذي سأتقاضاه، مهما كان ضئيلاً.

«مممم، سآخذ وجبة بيغ ماك»، سمعت أحدهم يقول، «وأنت ماذا تريد؟»

«نسيت محفظتي في البيت...»

استدرتُ لأنَّني عرفت ذلك الصوت. رأيت بريس صديق إديسون واقفاً أمام الكاونتر، وإلى جانبه ابني ويداه محشورتان في جيبَي سترته.

كان بإمكاني أن أرى الرعب المطلق في عينَيْ إديسون وهو ينظر إلى شبكة شعري، صدريتي، حياتي الجديدة. وبدلاً من أن أبتسم له، أو أرحّب به، أدرت ظهري قبل أن يراني برايس ويعرفني أيضاً. وقبل أن أسمع إديسون يقدّم عذراً آخر لهذا الموقف، سجَّلت طلبه.

لَمَّا عدت إلى المنزل، لم يكن إديسون هناك. خلعتُ بدلة ثياب العمل وأخذت دشّاً لأزيل رائحة الدهن. كتبت له رسالة نصيّة، لكنّه لم يجب. أعـددت العشـاء، متظـاهرة بأنّه ليس ثمَّة خطب ما. لَمَّا عاد أخيراً، كنت قد وضعت القِدر على المائـدة. قلـت لـه: «إنّها ساخنة»، لكنّه ذهب إلى غرفة نومه مباشرة. ظننت أنّه لا يزال منزعجاً من عملي الجديد، لكنّه عـاد بعـد لحظـة وبيـده مرطبـان ممتلـئ بقطـع نقـود معدنيَّـة ودفـتر شيكات، وضعها على الطاولة، وقال: «ألفان وثلاثمئة وستة وثمانون، بالإضـافة إلى بضـع مئات موجودة في المرطبان».

قلت له: «هذه النقود لأجل دراستك في الجامعة».

«إنَّنا في حاجة إليها الآن. سأعمل في عطلتـي الربيـع والصـيف. يمكننـي أن أجلـب مزيداً من النقود».

أعرف كيف تمكَّن إديسون من توفير هذه النقود من مخـزن البقالـة الـذي يعمـل فيه مذ كان في السادسة عشرة من عمره. كنّا قد اتفقنا على أن يستخدم هـذه النقـود لدراسته في الجامعة بالإضافة إلى المنح الدراسية التي سيحصل عليها، وبرنـامج معونـة الطلّاب الفيدراليّ، وخطّة 529 التي بدأناها لأجله منذ أن كان طفـلاً صـغيراً، وسـأكمل بقية تلك الرسوم. إنَّ فكرة أخذ النقود المخصّصـة للجامعـة تجعلنـي أشـعر بالغثيـان. قلت له: «إديسون، لا».

تقلَّص وجهه، وقال: «ماما، لا يمكنني أن أدعك تعملين في ماكدونالدز ولـديَّ نقـود نستطيع أن نستخدمها. هل تعرفين كيف يجعلني ذلك أشعر؟»

«أولاً، هذه ليست نقود، إنّها مستقبلك. ثانياً، لا عيب في يوم عمل جيّد وشريـف، حتّى لو كان ذلك إعداد بطاطا مقلية»، قلت له وضـغطت عـلى يـده، «وهـذا العمـل لفترة قصيرة جدّاً، حتّى تنجلي الأمور وأعود إلى العمل في المستشفى».

«يمكنني أن أتوقَّف عن ممارسة الرياضة وأعمل لساعات أكثر».

«لا، لن تفعل ذلك».

«أنا لا أهتمُّ برياضة غبيّة».

فقلت له: «وأنا لا أهتمّ بشيء آخر غيرك». جلست قبالته، وقلت: «حبيبي، دعني أفعل ذلك. أرجوك». شعرت بالدموع تملأ عينيَّ، وأضفت: «لو سألتني من هي روث جيفرسون قبل شهر، لقلت لك إنّها ممرّضة جيّدة، وأمّ جيّدة، أمّا الآن، بدأ أشخاص يقولون إنّني لست ممرّضة جيّدة، وإذا لم أتمكّن من أن أضع طبقاً على المائدة وثياباً على ظهرك - فعندئذ سأشكّ في نفسي كأمّ أيضاً. إذا لم تدعني أفعل ذلك... إذا لم تدعني أعتني بك... فلن أعرف من يُفترض أن أكون بعد الآن».

ثنى ذراعيه على صدره، وأشاح بعينيه عنّي، وقال: «الجميع يعرفون. أسمعهم يتهامسون ثمّ يصمتون عندما أقترب منهم».

«الطلاب؟»

فقال: «والمعلمون أيضاً».

قلت بانزعاج: «هذا شيء لا يغتفر».

«لا، ليس الأمر كذلك. إنَّهم يبذلون كلّ ما في وسعهم لمساعدتي. يقولون إنَّهم يعرفون أنَّ الأمور صعبة في المنزل الآن... وكلّما قال لي أحدهم ذلك - إنّهم في غاية اللطف ومتفهّمون - أشعر أنّني أريد أن أضرب شيئاً، لأنّ ذلك أسوأ ممّا يحدث عندما يتظاهر الناس بأنهم لا يعرفون أنك لم تذهب إلى المدرسة لأن أمك كانت في السجن»، وأضاف متجهّماً، «لم أرسب في ذلك الاختبار لأنني لم أدرس جيداً، وإنما لأنني لم أحضر الدروس بعد أن حاصرني السيد هيرمان وسألني إن كان بإمكانه أن يفعل أيَّ شيء لمساعدتي».

«أوه، إديسون...»

فانفجر قائلاً: «لا أريد مساعدتهم. لا أريد أن أكون شخصاً يحتاج إلى مساعدتهم. أريد أن أكون مثل أيّ شخص آخر، ولست حالة خاصّة. ثمّ أغضب

من نفسي لأنّني أتذمّر كما لو أنّني الشخص الوحيد الذي يعاني مـن مشـكلات عنـدما تكون... عندما تكون...» صمت وراح يفرك كفّيه على ركبتيه.

«لا تقل ذلك»، قلت له وضممته بين ذراعيَّ، «لا تفكّر في الأمر». ثمّ ابتعدت عنـه قليلاً، ووضعت كلتا يديَّ على جانبَي وجهه الجميل، «لسـنا في حاجـة إلى مسـاعدتهم. سنتجاوز كلّ ذلك. أعرف أنّك تصدّقني؟»

نظر إليَّ، تأمّلني جيّـداً مثـل حـاجّ يبحـث في سـماء الليـل عـن معنـى، وقـال: «لا أعرف».

فقلت بحزم: «حسناً، أنا أعرف. الآن، تناول طعامك لأنّني متأكّدة أنّني لن أذهـب إلى ماكدونالدز إذا برد».

التقط إديسون شوكته، ممتناً لأنَّني أبعـدت تفكـيره قلـيلاً. وحاولـت ألّا أفكّـر، في الحقيقة، في أنَّني كذبت على ابني للمرّة الأولى في حياتي.

بعد أسبوع، بينما كنت أهـمُّ بالـذهاب إلى عمـلي، رنّ جـرس البـاب. لَـمَّا فتحـت الباب، رأيت، لدهشتي، والاس ميرسي، بشعره الأبيض الأجعد، وبدلته المؤلفة من ثـلاث قطع، وساعة جيب، وكلّ شيء. قلت: «يا إلهي!». خرجـت الكلـمات مثـل زخّـات مـن أنفاسي، جافّة في صحراء عدم التصديق.

«أختي»، قال مبتسماً، «اسمي والاس ميرسي».

ضحكت. في الواقع قهقهتُ، فمن لا يعرف والاس ميرسي؟

ألقيت نظرة سريعة خلفه لأرى إن كانت حاشـيته تتبعـه، كـاميرات. لكـنَّ الـدليل الوحيد على شهرته كان سـيّارة ليمـوزين سـوداء فخمـة مركونـة أمـام المنـزل لا تـزال غمّازاتها تومض، مع سائق جالس في المقعد الأماميّ. «أتساءل إن كان بإمكاني أن آخـذ لحظة من وقتك؟»

كان أقرب احتكاك لي مع الشهرة عندما تعرَّضـت زوجـة مضـيف برنـامج متلفز الحامل في وقت متأخّر من الليل لحادث سيارة بالقرب من المستشفى، ونُقلت إلى الجناح الذي أعمل فيه لمراقبتها لمدّة أربع وعشريـن سـاعة. ومـع

أنّها كانت في حالة جيّدة، تحوّل دوري من مقدّمة رعاية صحيّة إلى مسؤولة عن إبعاد حشد المراسلين الذين أوشكوا أن يقتحموا الجناح. وفي المرّة الثانية، الوحيدة في حياتي، التي أقابل فيها شخصاً مشهوراً، أرتدي ثياب العمل البوليستر. «طبعاً، تفضّل»، وشكرت الله بصمت أنّني أعدت سريري القابل للطيّ إلى أريكة، «هل يمكنني أن أحضر لك شيئاً تشربه؟»

فقال: «ستكون القهوة نعمة».

لَمَّا شغَّلتُ آلة القهوة، قلت في نفسي، كانت أديسا ستموت لو كانت هنا. تساءلت إن كان من الوقاحة أن ألتقط صورة سيلفي مع والاس ميرسي وأرسلها إليها. «منزلك جميل»، قال لي ونظر إلى الصور الموضوعة على رفّ الموقد. «هذا ابنك؟ سمعت أنّه شاب متفوّق».

مِمَّنْ؟ تساءلت، «هل تفضّل حليباً؟ سكّراً؟ مع القهوة».

فقال والاس ميرسي: «كليهما». تناول الكوب وأشار إلى الأريكة، «هل لي؟» هززت رأسي، وأشار لأجلس على الكرسيّ إلى جانبه، ثمّ قال: «السيّدة جيفرسون، هل تعرفين لماذا أنا هنا؟»

«بصراحة، لا أستطيع حتّى أن أصدّق أنّك هنا، ناهيك عن أن أعرف سبب زيارتك».

ابتسم. لديه أكثر الأسنان بياضاً وتناسقاً رأيتها في حياتي، تلمع إزاء بشرته الداكنة. عن قرب، أدركت أنَّه أصغر سنّاً ممّا كنت أتوقّع. «جئت لأخبرك أنَّك لستِ وحدك».

مرتبكة، أملت رأسي، وقلت: «هذا لطف كبير، لكن لديَّ كاهن...»

«لكنَّ مجتمعك أكبر بكثير من كنيستك. يا أختي، ليست هذه هي المرّة الأولى التي يُستهدف فيها شعبنا. قد لا نمتلك القوة الكافية بعد، لكن الشيء المتاح لنا هو أن يساعد أحدنا الآخر».

حرَّكت فمي عندما بدأت أحاول أن أجمع الكلمات معاً. قلت له: «هذا لطف كبير منك أن تأتي إلى منزلي، لكنّي لا أظنّ أنّ قصّتي ستكون موضع اهتمام خاصّ بالنسبة إليك».

«على العكس تماماً. هل يمكنني أن أتجرّأ وأسألك سؤالاً؟ لَمَّا انتُقيتِ من بين الآخرين، وطُلب إليك ألّا تتدخَّلي في رعاية طفل أبيض، هل وقفت إحدى زميلاتك إلى جانبك ودافعت عنك؟»

تذكَّرت كورين وهي ترتجف عندما رحت أشتكي من تعليمات ماري غير العادلة، ثمَّ دفاعها عن كارلا لونغو. «كانت صديقتي تعرف أنَّني مستاءة».

«هل تكلّمت لأجلك؟ هل كانت ستجازف بعملها لأجلك؟»

«لم أطلب إليها أن تفعل ذلك»، قلت له، وبدأت أشعر بشيء من الانزعاج.

«ما لون بشرة زميلتك؟» سألني والاس مباشرة.

«كوني سوداء، لوني لم يشكّل أيّ مشكلة في علاقتي مع زميلاتي في العمل».

«لم يكن الأمر كذلك إلى أن أصبحن في حاجة إلى كبش فداء. إنَّ ما أحاول قوله يا روث - هل يمكنني أن أدعوك ذلك؟ - هو، إنّنا نقف معك. سيقف إخوتك وأخواتك السود إلى جانبك. سيجازفون بوظائفهم لأجلك. سيخرجون في تظاهرات احتجاجيَّة دفاعاً عنك، وسيثيرون هديراً لا يمكن تجاهله».

نهضت واقفة، وقلت: «شكراً لأجل... اهتمامك بقضيّتي. لكن، عليَّ أن أناقش هذا الأمر مع محاميتي، ومهما كان...»

«ما لون بشرة المحامية التي تدافع عنك؟» قاطعني والاس.

«ما الفرق في ذلك؟» قلت متحدّية، «كيف يمكنك أن تتوقّع أن يعاملك الناس البيض جيّداً إذا كنت تبحث عن عيوبهم باستمرار؟»

ابتسم كما لو أنّه سمع ذلك من قبل، وقال: «أظنّ أنّك سمعتِ عن تريفون مارتن».

طبعاً سمعت. لقد تأثّرت كثيراً بموت ذلك الفتى. لا لأنّه كان في عمر إديسون فقط، وإنّما لأنّه كان، مثل ابني، طالباً متفوّقاً، ولم يرتكب أيّ ذنب، سوى أنّه أسود البشرة.

فقال والاس: «هل تعلمين أنَّه في أثناء تلك المحاكمة، منعت القاضية – القاضية البيضاء - استخدام العبارة العنصريّة النمطيّة في قاعة المحكمة؟»، وأضاف، «كانت تحرص على أن تعرف هيئة المحلّفين أنَّ القضيّة لا علاقة لها بالعِرق، وإنّما بجريمة القتل».

اخترقتني كلماته بسهام. الكلمات نفسها التي قالتها لي كينيدي حول قضيّتي.

«كان ترايفون فتى طيباً وذكياً. أنت ممرّضة محترمة. إنّ السبب الذي جعل القاضية لا تريد إثارة مسألة العِرق - وهو السبب عينه الذي جعل محاميتك تتحاشاه كما لو كان وباء الطاعون - أنَّه يُفترض أن يكون السود، مثلك ومثل تريفون، استثناء. إنّكِ التعريف الدقيق عندما تحدث أشياء سيّئة لأشخاص طيبين، لأنَّها الطريقة الوحيدة التي يمكن لحرّاس البوّابة البيض تقديم الأعذار لسلوكهم من خلالها». انحنى إلى الأمام وكوب القهوة في يده، وأضاف: «لكن، ماذا لو لم تكن تلك هي الحقيقة؟ ماذا لو لم تكوني أنتِ وترايفون الاستثناء... وإنَّما القاعدة؟ ماذا لو كان الظلم هو المعيار؟»

«كلّ ما أريد أن أفعله أن أقوم بعملي، وأعيش حياتي، وأربّي ابني. أنا لست في حاجة إلى مساعدتكم».

فقال: «قد لا تحتاجين إليها، لكن من الواضح أن هناك أشخاصاً كثيرين يريدون مساعدتك. لقد ذكرتُ قضيتك الأسبوع الماضي باختصار في برنامجي». تحرّك قليلاً ومدّ يده إلى جيب سترته الداخلي وسحب مغلفاً صغيراً، ثم نهض واقفاً وأعطاني إياه، وقال: «حظاً سعيداً يا أختي. سأصلّي لأجلك».

لَمَّا أُغلق الباب خلفه، فضضتُ المغلّف وأفرغتُ محتوياته: ورقات ماليّة مـن فئـة عشرة وعشرين وخمسين دولاراً، بالإضافة إلى عشرات الشيكات التي كتبهـا لي أنـاس لا أعرفهم. قرأت العناوين عليها: تولسا في أوكلاهومـا؛ شـيكاغو؛ سـاوث بينـد، أولمبيـا في واشنطن. وفي أسفل الكومة وجدت بطاقة والاس ميرسي.

جمعتها كلّها في المغلّف، ووضعتها في إنـاء فـارغ عـلى رفّ في غرفـة الجلـوس، ثـمّ رأيته: واقي الشمس الذي أبحث عنه منذ فترة داخل صندوق الكابل.

يبدو كما لو كان مفترق طرق.

وضعت واقي الشمس على رأسي، وأخذت محفظتي ومعطفي، وخرجت من الباب إلى عملي.

أحتفظ على الرفّ بصورتي التي أحبها كثيراً مـع ويسـلي. كـان ذلـك في أثنـاء حفـل زفافنا، التقطها ابن عمّه ونحن ننظـر بعيـداً. في الصـورة، كنّـا واقفـين في بهـو الفنـدق الأنيق الذي أقمنا فيه حفل الاستقبال - كـان اسـتئجاره هديّـة زفافنـا قـدَّمها لي سـام هالويل؛ ذراعاي تطوّقان رقبة ويسلي، ورأسي متّجه إلى الجهـة الأخـرى، وكـان ويسـلي منحنياً إلى الأمام، وعيناه مغمضتان، يهمس لي شيئاً.

حاولت جاهدة أن أتـذكَّر مـا الـذي كـان يهمـس بـه لي زوجـي الوسـيم في بدلتـه الأنيقة. أريد أن أصدّق أنّه كان يهمس لي إنّك أجمل مخلوق رأيته في حيـاتي، أو إننـي لا أطيق أن أنتظر أكثر لنبدأ حياتنا معاً. لكن، هذا ما يحدث في الروايات والأفـلام، أمّـا في الواقع، فإنّي كنت متيقّنة من أنّنا كنّا نخطّط لنهـرب مـن القاعـة الممتلئـة بـالمهنّئين لأذهب إلى دورة المياه.

مع أنَّني لا أستطيع أن أتذكَّر ما دار بينـي وبـين ويسـلي مـن حـديث عندما التُقطت تلك الصورة، لكنّني أتذكّر الحـديث الـذي دار بيننـا بعـد ذلك. فقد كان هناك صفّ طويل من السيّدات اللاتي ينتظـرن أمـام دورة

مياه السيدات خارج الردهة الرئيسة، فتطوّع ويسلي بشجاعة ليقف حارساً أمام دورة مياه الرجال كي لا يدخل إليها أحد في أثناء وجودي فيها. استغرقت وقتاً طويلاً وأنا أحاول رفع ثوب زفافي، ولَمّا خرجتُ أخيراً من دورة المياه كانت قد مرَّت عشر دقائق، كان ويسلي لا يزال خلالها واقفاً خارج الباب، حارسي، بيده بطاقة خدمة ركن السيارات.

سألته: «ما هذه؟» لأنّه لم تكن لدينا سيّارة حينذاك، وكنّا قد جئنا إلى الحفل بالحافلة.

هزَّ ويسلي رأسه، وقال وهو يضحك: «دنا منّي أحدهم وطلب أن أحضر له سيّارته المرسيدس».

ضحكنا وأعطينا البطاقة إلى مكتب ركن السيارات في الفندق. ضحكنا لأننا كنا عاشقين. لأنه عندما تكون الحياة زاخرة بالأشياء الجيدة، لا يبدو من المهم أن يرى رجل أبيض عجوز رجلاً أسود في فندق فاخر ويفترض بطبيعة الحال أن لا بدَّ أنَّه يعمل في الفندق.

في صباح اليوم، دخل أحد المشرّدين، الذين يجوبون شوارع نيو هافن، ماكدونالدز. كان المدير يقدّم لهم طعاماً إذا أراد أن يتخلّص منهم بسرعة، مثل البطاطا المقلية التي لا تُباع للزبائن بعد أن يمضي عليها خمس دقائق. ويأتون أحياناً التماساً للدفء. وفي إحدى المرّات، بال رجل مشرّد في حوض الحمّام. أمّا اليوم، فقد دخل رجل ذو شعر طويل متشابك ولحية تكاد تصل إلى بطنه، كُتبت على قميصه الوسخ عبارة «ناماستاي في السرير»، والوسخ يملأ ما تحت أظافره. قلت له: «مرحباً. أهلاً بك في ماكدونالدز، هل يمكنني أن أسجّل طلبك؟»

حدَّقني بعينيه الدامعتين الزرقاوين، وقال: «أريد أن أسمع أغنية».

«عفواً؟»

«أغنية»، ارتفع صوته، «أريد أغنية».

جاءت المديرة المناوبة، امرأة ضئيلة الحجم، اسمها باتسي، وقالت: «سيّدي، يجب أن تخرج من هنا».

«أريد أغنية عاهرة».

تضرَّج وجه باتسي، وقالت: «سأتصل بالشرطة».

قلت لها: «لا، انتظري». نظرت في عين الرجل، وبدأت أدندن أغنية بوب مارلي. فقد كنت أدندن أغنية (ثلاثة طيور صغيرة) لإديسون كلّ ليلة عندما كان صغيراً. لعلّي سأتذكّر كلماتها حتّى يوم مماتي.

توقَّف الرجل عن الصراخ، وخرج من الباب. ألصقتُ ابتسامة على وجهي كي أتمكّن من استقبال الزبون التالي. «أهلاً بك في ماكدونالدز»، قلت وأنا أنظر إلى كينيدي ماكوري.

كانت ترتدي بدلة سوداء فاحمة، تمسك بيد فتاة صغيرة تنبعث من فروة رأسها خصلات شعر شُقر بلون الفراولة مجعّدة. قالت الفتاة: «أريد فطائر بانكيك مع سندويشة بيض».

«حسناً، هذا ليس خياراً»، قالت كينيدي بحزم، ثمّ لاحظت وجودي، وقالت: «أوه. واو. روث. أنت... تعملين هنا».

عرَّتني كلماتها. ماذا تتوقَّعين أن أفعل عندما تحاولين أن تبني قضيّة؟ أُنفق جميع مدَّخراتي؟

«هذه ابنتي فيوليت»، قالت كينيدي، «اليوم يوم خاصّ. آه، لا نأتي عادة إلى ماكدونالدز كثيراً».

«ماما، نعم نأتي»، قالت فيوليت، واحمرَّ خدَّا كينيدي.

أدركتُ أنّها لا تريد أن أفكّر في أنَّها ليست من ذلك النوع من الأمَّهات اللاتي يطعمن أطفالهنَّ وجباتنا السريعة وقت تناول الفطور، لا أكثر ممّا أريدها أن تفكّر فيَّ بأنَّني شخص أعمل هنا لو كان لديَّ خيار آخر. أدركت أننا، كلتينا، نريد بقوة أن نكون شخصين لسنا هما حقاً.

منحني ذلك مزيداً من الشجاعة.

لَمَّا همستُ لفيوليت: «لو كنت مكانك لاخترت فطائر بانكيك»، صفَّقت بيديها وابتسمت، وقالت: «إذاً، أريد بانكيك».

«أيّ شيء آخر؟»

أجابت كينيدي: «كوباً صغيراً من القهوة فقط لي. لديَّ حليب في المكتب».

«مممممم». ضغطت على الشاشة، «سيكون ذلك خمسة دولارات وسبع سنتات».

فتحت سحَّاب محفظتها وعدَّت بضع أوراق نقديَّة.

«إذاً»، سألتها عرضيّاً، «هل توجد أخبار جديدة؟» قلت ذلك بالنبرة نفسها، كما لو أنَّني أسألها عن الطقس.

«ليس بعد. لكن هذا طبيعيّ».

طبيعيّ. أخذت كينيدي يد ابنتها وتراجعت عن الكاونتر مستعجلة لتخرج بسرعة من هذه اللحظة مثلي. ابتسمت ابتسامة متكلّفة، وقلت: «لا تنسي الفراطة».

* * *

بعد أسبوع من حياتي المهنيَّة كطالبة في مدرسة دالتون، انتابني ألم في معدتي. ومع أنّني لم أصب بالحمّى، سمحت لي أمّي بألّا أذهب إلى المدرسة، وأخذتني معها إلى منزل أسرة هالويل. كنت كلّما فكَّرت في تجاوز أبواب المدرسة، شعرت بوخز في أحشائي، أو أنّني سأتقيأ، أو كلا الأمرين.

بسماح من السيّدة مينا، لفَّتني أمّي ببطانيات ووضعتني في غرفة مكتب السيّد هالويل، ووضعت لي بعض الموالح والزنجبيل، وفتحت التلفاز، ثمَّ أعطتني أيضاً وشاحها الذي يجلب لها الحظ لأضعه حولي، وقالت إنّه سيفيدني كما يفيدها. كانت تأتي لتطمئنَّ عليَّ كلّ نصف ساعة،

لذلك فوجئت عندما دخل السيد هالويل الغرفة، وقال مرحباً، واتّجه إلى طاولة مكتبه، وراح يتصفّح كومة من الأوراق حتّى وجد ما يبحث عنه - مجلّد أحمر، ثمّ التفت إليَّ وسألني: «هل مرضك معدٍ؟»

هززت رأسي، وقلت له: «لا، يا سيّدي». أقصد لم أكن أظنّ ذلك.

«قالت أمّك إنَّ بطنك يؤلمك».

هززت رأسي.

«وهل شعرتِ بذلك فجأة بعد أن ذهبت إلى المدرسة هذا الأسبوع؟...»

هل يظنّ أنّني أتمارض؟ لا لم أكن أفعل ذلك. كان الألم حقيقيّاً.

سألني: «كيف كانت المدرسة؟ هل أحببت معلّمتك؟»

«نعم يا سيّدي». فقد كانت الآنسة توماس ضئيلة الحجم، وجميلة، تقفز من مقعد تلميذ في الصفّ الثالث إلى آخر مثل طائر زُرْزُور في فناء بيت صيفيّ، وهي تبتسم دائماً عندما تذكر اسمي، بعكس مدرِّستي في هارلم العام الماضي - المدرسة التي لا تزال شقيقتي تذهب إليها - فلهذه المدرسة نوافذ كبيرة وضوء الشمس يتسلّل عبر ممرّاتها، وأقلام التلوين التي نستخدمها في دروس الفنّ لا تتفتّت، والكتب المدرسيّة نظيفة وخالية من أيّ كتابة عليها، وصفحاتها كاملة، وهي تشبه المدارس التي نراها عبر التلفاز، والتي كنت أظنّ أنّها من نسج الخيال، إلى أن وطأت قدمي إحدى تلك المدارس.

«همممم». جلس سام هالويل إلى جانبي على الأريكة، وسألني: «هل تشعرين كما لو أنَّك تناولت سندويشة بوريتو ليست نظيفة؟ تأتي وتذهب في موجات؟»

نعم.

«في الغالب، عندما تفكّرين في الذهاب إلى المدرسة؟»

نظرتُ إليه مباشرة، وتساءلت هل يستطيع أن يقرأ ما يدور في العقول.

«أظنّ أنَّني عرفت ما الذي يزعجك يا روث، لأنَّني أصبت بهذه الحشرة ذات يوم أيضاً. كان ذلك بعد أن تولّيت مسؤولية البرمجة في شبكة التلفزة. كان لديّ مكتب كبير وأنيق، وكان الجميع يتسابقون لإسعادي، وهل تعرفين ماذا؟ شعرت أنّني مريض مثل كلب». نظر إليَّ، وأضاف، «كنت متيقناً من أنّه في أيّ دقيقة سينظر إليَّ أحد ما ويدرك أنّني لا أنتمي إلى ذلك المكان».

تذكَّرت كيف كنت أشعر عندما أجلس في الكافتيريا الجميلة المكسوّة بألواح خشبية وأنا التلميذة الوحيدة التي لديها كيس طعام الغداء. تذكَّرت كيف أرتنا السيّدة توماس صوراً لأبطال أميركيين، ومع أنّ جميع التلاميذ عرفوا من هو جورج واشنطن وإلفيس بريسلي، كنت الوحيدة في الفصل التي عرفت صورة روزا باركس فشعرت بالفخر والحرج في آن واحد.

ثمَّ قال لي سام هالويل: «إنَّكِ لست مخادعة. لم تذهبي إلى تلك المدرسة من باب الحظّ، أو لأنه تصادف أنّك كنت في المكان المناسب، وفي الوقت المناسب، أو لأنّ شخصاً مثلي لديه علاقات. أنتِ هناك لأنّكِ أنتِ، وهذا إنجاز رائع في حدّ ذاته».

تذكَّرت هذا الحديث وأنا أنصت الآن إلى مدير مدرسة إديسون الثانوية، وهو يقول إنَّ ابني المهذَّب الذي لا يسحق بَقّة، ضرب أعزَّ صديق له على أنفه في أثناء فرصة الغداء اليوم، في أول يوم عاد فيه إلى المدرسة بعد عطلة عيد الشكر. «مع أنّنا ندرك أنّ الأمور في المنزل... صعبة، من الواضح يا سيّدة جيفرسون أنّنا لا نتسامح مع هذا النوع من السلوك».

«يمكنني أن أؤكّد لك أنّ ذلك لن يحدث مرّة أخرى». وفجأة، عدت إلى مدرسة دالتون، وشعرت أنّه يجب أن أكون ممتنة لأنّني موجودة هنا في مكتب المدير.

«صدّقيني، لقد تساهلت في الأمر لأنّني أعرف أنه توجد ظروف مخفّفة. في العادة، تُسجّل حوادث كهذه في سجلّ إديسون الدائم، لكنّي

لن أفعل ذلك. لكنّه سيُحرم من الدوام في المدرسة حتّى نهاية الأسبوع. إنَّ السياسة المتبعة في هذه المدرسة هي عدم التسامح التامّ في مثل هذه الأمور، ولا يمكننا أن ندع طلّابنا يشعرون بالقلق على سلامتهم».

«نعم، طبعاً»، تمتمتُ وخرجتُ من مكتب المدير، يتملّكني شعور بالمهانة. فقد اعتدت أن آتي إلى هذه المدرسة تغلّفني سحابة انتصار افتراضيَّة: لأرى ابني وهو يتلقّى جائزة أفضل طالب متفوّق في امتحان اللغة الفرنسيّة، وأصفّق له عندما يُتوّج بجائزة أفضل طالب رياضيّ لهذا العام. أمّا الآن، فلا يسير إديسون على خشبة المسرح في المدرسة وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة وهو يصافح المدير، وإنّما جالس على مقعد خارج باب مكتب المدير وعلى وجهه قسمات بأنّه لم يعد يعير العالم أيَّ اهتمام. أريد أن أشدّه من أذنيه.

ابتسم عندما رآني، وقال: «لماذا أتيتِ إلى هنا هكذا؟»

نظرت إلى بدلتي وقلت: «لأنَّني كنت في منتصف عملي عندما اتصل بي مكتب المدير ليقول إنَّ ابني سيُطرد من المدرسة».

«مطرود لفترة...»

فقلت له بقسوة: «لا تقل شيئاً الآن. ولا تصحّح ما أقوله». خرجنا من المدرسة في يوم شديد البرودة كأنّنا في بداية فصل الشتاء. «هل تريد أن تخبرني لماذا ضربت برايس؟»

«ظننتُ أنّني يجب ألّا أتكلَّم».

«لا تردّ عليَّ بوقاحة. بمَ كنت تفكّر يا إديسون؟»

أشاح إديسون بوجهه عنّي، وقال: «هل تعرفين فتاة اسمها تايلا؟ إنّك تعملين معها».

تخيلتُ فتاة نحيفة يملأ وجهها حبّ الشباب. «نحيلة؟»

«نعم. لم أكلّمها في حياتي قطّ. جاءت اليوم إليَّ عند الغداء وقالت إنّها تعرفك من مطعم ماكدونالدز، وظنّ برايس أنّ من المضحك أنّ أمّي تعمل هناك».

فأجبته: «كان عليك أن تتجاهله. لن يعرف برايس كيف يقوم بعمل يوم جيد لو وضعت مسدّساً على رأسه».

«بدأ يسخر منك».

«قلت لك إنّه لا يستحقّ أن تعيره أيّ اهتمام». أطبق إديسون فكّه، وقال: «قال بريس، «لماذا تشبه أمّك سندويشة ماك كبيرة؟ لأنّها ممتلئة بالدهون ولا تساوي إلّا دولاراً واحداً»».

اندفع الهواء كلّه من رئتيَّ. بدأت أسير نحو باب المدرسة. «سألقن ذلك المدير درساً».

أمسك ابني بذراعي، وقال: «لا، أرجوك، فقد أصبحت الآن موضع سخرية الجميع. لا تزيدي الأمر سوءاً». هزَّ رأسه، وأضاف، «لقد سئمت كلَّ ذلك. بدأت أكره هذه المدرسة العاهرة، ومنحها الدراسيّة المنكوحة، وتظاهرها الكاذب المنكوح».

لم أطلب إلى إديسون أن ينتبه إلى الكلمات التي يقولها. لم أعد أستطيع أن أتنفَّس.

كنت أعدُّ إديسون طوال الوقت، وأقول له إنّك لو اجتهدت، وكان سلوكك ممتازاً، فإنّك ستحصل على المكانة التي تستحقّها. وكنت أقول له إنّنا لسنا مخادعين، وأنَّ ما نسعى إليه، ونحصل عليه، نستحقّه. لكن، ما لم أقله له هو أنَّ هذه الإنجازات قد تظلّ، في أيّ لحظة، بعيدة المنال.

من المدهش كيف أنّه يمكنك أن تنظر في المرآة طوال حياتك وتظنّ أنّك ترى نفسك بوضوح. ثمّ تقشّر ذات يوم طبقة رماديّة من النفاق، وتدرك أنّك لم ترَ نفسك على حقيقتها قطّ.

بذلت جهداً لأجد الردّ الصحيح هنا: أن أقول لإديسون إنّه كان محقّاً فيما فعله، وإنّه كان بإمكانه أن يضرب جميع الفتيان في تلك المدرسة لأنّ ذلك لن يحدث فارقاً على المدى الطويل. كافحت كي أجد طريقة أجعله فيها يعتقد بأنّه على الرّغم من ذلك، يجب أن نضع قدماً أمام القدم الأخرى كلّ يوم، وندعو أن يكون أفضل مع كلّ يوم تشرق فيه الشمس، وأنه إذا لم يكن إرثنا استحقاقاً، فلا بدَّ أنَّه أمل.

لأنَّه إذا لم يكن كذلك، فإنّنا نصبح خاملين، مشرّدين، مهزومين. نصبح كما يظنّون من نحن.

استقللنا أنا وإديسون الحافلة إلى المنزل، ولم ينبس أحدنا بكلمة واحدة. لَمَّا انعطفنا عند ناصية الشارع، قلت له إنَّه محروم من الخروج من البيت. سألني: «إلى متى؟»

فقلت: «مدَّة أسبوع».

ابتسم، وقال: «حتَّى إنَّه لن يُدوَّن في سجلّي».

«كم مرّة قلت لك إنّه إذا أردت أن تؤخذ بجديّة، فعليك أن تكون أفضل من أيّ شخص آخر؟»

فقال إديسون: «أو ربّما يمكنني أن ألكم عدداً أكبر من البيض»، ثمَّ أضاف، «لقد أخذني المدير على محمل الجدّ لأنَّني فعلت ذلك».

زممت شفتيَّ وقلت: «لمدَّة أسبوعين».

اندفع محتدماً، وصعد الدرج في قفزة واحدة، ودفع باب البيت. كاد يوقع امرأة واقفة أمام الباب تحمل صندوقاً كبيراً من الورق المقوّى.

كينيدي.

كنت غاضبة جداً بسبب ما جرى لإديسون في المدرسة حتّى إنَّني نسيت أنّنا كنّا قد اتفقنا على أن نلتقي بعد ظهر اليوم لمراجعة حقائق القضيّة التي توصّلت إليها الولاية. «هل هذا وقت غير مناسب؟» سألتني

كينيدي بلطف، «يمكننا أن نؤجّل الموعد...» شعرت بالحرارة تتدفَّق إلى خدّيَّ، وقلت: «لا، الآن جيّد – شيء... غير متوقّع... حدث. يؤسفني أنّك سمعتِ ذلك. ابني ليس فظاً عادة». أبقيت الباب مفتوحاً لتدخل كينيدي، «يزداد الأمر صعوبة عندما لا يعود بإمكانك أن تضربيهم على المؤخّرة بعد الآن لأنّهم أصبحوا أضخم منك».

بدت أنّها كانت مصدومة، لكنّها غطَّت ذلك بسرعة بابتسامة مهذَّبة.

لَمَّا أخذت معطفها لأعلّقه على المشجب، نظرت إلى الأريكة والكرسيّ ذي الذراعين، والمطبخ الصغير، وحاولت أن أرى كلَّ ذلك بعينيها: «هل تحبّين أن تشربي شيئاً؟»

«سيكون الماء رائعاً».

ذهبت إلى المطبخ لأملأ كأساً بالماء - كنت على بعد بضع خطوات منها فقط، تفصلني عنها الطاولة – في حين راحت كينيدي تنظر إلى الصور المصطفَّة على الرفّ. كانت أحدث صورة مدرسيّة لإديسون، وصورة لنا عندما كنّا في مركز التسوّق في واشنطن العاصمة، وصورة لي أنا وويسلي في يوم زفافنا.

بدأت تُفرغ صندوق الملفَّات الذي جلبته، وأنا جالسة على الأريكة. كان إديسون في غرفة نومه، غاضباً. ثمّ قالت كينيدي: «ألقيت نظرة على الوثائق، لكنّي أحتاج هنا إلى مساعدتك. إنّه جدول بيانات الطفل. يمكنني أن أفهم المصطلحات القانونيّة، لكنّي لا أجيد قراءة المصطلحات الطبيّة».

فتحتُ الملفَّ، وشعرت بكتفي قد تشنّجت عندما قلبت صفحة الصورة الفوتوكوبي للملاحظة التي كتبتها ماري. «كلّ شيء دقيق - الطول والوزن وحاصل أبغار والعينان والفخذان...»

«ماذا؟»

«إنّه مرهم مضادّ حيويّ للعين وجرعة فيتامين ك. إنّه معيار قياسيّ للأطفال حديثي الولادة».

مدّت كينيدي يدها وأشارت إلى رقم، وسألتني: «ماذا يعني هذا؟»

«كان سكّر دم الطفل منخفضاً. لم يكن قد رضع بعد. وكانت الأمّ مصابة بسكّري الحمل، لذلك لم يكن ذلك أمراً مفاجئاً».

سألتني: «هل هذا خطّ يدك؟»

«لا، لم أكن الممرّضة المسؤولة عن الولادة. هذا خطّ لوسيل التي تولّيت المسؤوليّة عنها عندما انتهت ورديتها». قلبت الصفحة، ورحت أقرأ، «هذا تقييم المولود – الاستمارة التي كنت قد ملأتها. درجة الحرارة ثمانية وتسعون ونقطة واحدة، لا شيء يتعلّق بخصل شعره أو اليافوخ. فحص السكّري: اثنان وخمسون - كان سكّره يتحسّن، رئتاه صافيتان. لا توجد كدمات أو شكل غير طبيعيّ للجمجمة. الطول تسعة عشر إنشاً وخمس بوصات، ومحيط الرأس ثلاثة عشر إنشاً وخمس بوصات». هززت كتفي، وأضفت، «كان الفحص جيّداً، باستثناء احتمال وجود نفخة قلبيّة. يمكنك أن تري أين ذكرت ذلك في الملفّ، ووضعت علامة تنبيه لفريق طبّ قلب الأطفال».

«ماذا قال طبيب القلب؟»

«لم يتسنَّ له تشخيص الطفل، فقد مات قبل أن يُفحص». عبستُ، وسألتها: «أين نتائج فحص قدم الكعب؟»

«ما هذا؟»

«اختبار روتينيّ».

«سأطلبها»، قالت كينيدي، وراحت تقلّب الأوراق والملفَّات حتّى ورقة عليها ختم الطبيب الشرعيّ، «آه، انظري إلى هذه... سبب الوفاة: نقص السكَّر في الدم أدَّى إلى حدوث نوبة نقص السكَّر في الدم، أدَّت إلى توقُّف التنفّس والسكتة القلبيَّة»، قالت كينيدي: «توقّف القلب كما في حال وجود: عيب خلقيّ في القلب؟»

أعطتني التقرير. قلت: «حسناً، صحيح، فقد كان صمّام قلب الطفل مفتوحاً من الدرجة الأولى».

«هل هذا يهدّد الحياة؟»

«لا، وعادة ما تُغلق من تلقاء نفسها في السنة الأولى من العمر».

«عادة»، قالت مكرّرة، «لكن ليس دائماً».

هززت رأسي، ذاهلة، «لا يمكننا أن نقول إنّ الطفل مريض إذا لم يكن كذلك».

«ليس على الدفاع عبء الإثبات. يمكننا أن نقول أيّ شيء - إنَّ الطفل تعرَّض لفيروس إيبولا، وإنَّ ابن عمّ بعيد له مات بمرض القلب، وإنَّه أول طفل يولد لديه خلل في الكروموسومات لا تتوافق مع الحياة - علينا فقط أن نضع مساراً من فتات الخبز لهيئة المحلَّفين، وآمل في أن يكونوا جائعين بما يكفي لمتابعته».

رحت أقلّب صفحات الملفّ الطبيّ مرّة أخرى حتّى وجدت نسخة من ملصق الملاحظة، وقلت: «يمكننا أن نريهم هذه دائماً».

فقالت كينيدي على نحو قاطع: «هذا لا يثير الشكّ. في الواقع، هذا يجعل هيئة المحلّفين تظنّ أنّه قد يكون لديك سبب بأنك كنت مستاءة في المقام الأول. دعيها تمرّ يا روث. ما الأمر المهمّ هنا حقاً؟ الألم من كدمة صغيرة أصابت غرورك؟ وإلّا فإنّ المقصلة تتدلّى فوق رأسك؟»

أطبقت بيدي على الورقة بقوّة حتّى شعرت بوخزها، «ليست تلك كدمة صغيرة أصابت غروري».

«عظيم. إذاً اتفقنا. هل تريدين أن تربحي القضيَّة؟ ساعديني في إيجاد مسألة طبية تظهر أنَّ الطفل كان سيموت، حتّى لو اتّخذتِ كلَّ الإجراءات الممكنة لإنقاذه».

عندها، كدت أقول لها. كدت أقول إنّني حاولت أن أنعش ذلك الطفل، لكنَّ ذلك سيجعلني أعترف بأنّني كذبت على كينيدي، عندما أقف هنا وأقول لها من الخطأ أن نكذب حول وجود خلل في القلب. فأدخلت إصبعي في فمي ورحت أمصّ الجرح. وجدت في المطبخ علبة ضمادات ووضعتها على الطاولة، ولففت ضمادة حول إصبعي الوسطى.

إنّها ليست قضيّة عن نفخة قلبيّة. إنّها تعرف ذلك، وأنا أعرف ذلك.

نظرت إلى طاولة المطبخ، ومرّرت إبهامي فوق حبيبات الخشب، وسألتها: «هل تعدّين لابنتك الصغيرة سندويشات بزبدة الفول السوداني والجيلي؟»

«ماذا؟» رفعت كينيدي عينيها، وقالت: «نعم، بالتأكيد».

«كان إديسون صعب الإرضاء في الطعام عندما كان صغيراً. كان يقرّر أحياناً أنّه لا يريد المربَّى، وكان عليَّ أن أحاول إزالته عن قطعة الخبز. لكن، كما تعلمين، لا تستطيعين أن تزيلي المربّى من سندويشة زبدة الفول السودانيّ عندما تضعينهما. لا يزال بإمكانك أن تتذوقيه».

نظرت إليَّ المحامية كما لو أنّني فقدت صوابي.

«قلتِ لي أن لا علاقة لهذه الدعوى القضائيّة بالعِرق، لكن هذا هو السبب الذي جعلها تحدث، ولا يهمّ ما إذا كان بإمكانك إقناع هيئة المحلّفين بأنّني متقمّصة شخصيّة فلورنس نايتنغيل - لا يمكنك أن تستبعدي الواقع بأنني سوداء. فلو كانت بشرتي مثل بشرتك لما حدث لي كلّ هذا».

ثمَّة شيء أُغلق في عينيها. «أولاً»، قالت كينيدي بصوت هادئ، «قد توجَّه إليك التهمة بغضّ النظر عمّا هو عِرقك. إنّ الآباء والأمّهات الحزانى والمستشفيات التي تحاول ألّا تجعل أقساط التأمين ترتفع كثيراً تخلق وصفة مثالية لإيجاد كبش فداء. ثانياً، إنّي لا أختلف معك. صحيح أنّه توجد لمسات عرقيّة محدّدة في هذه القضيّة، لكن في رأيي المهنيّ، من المرجَّح أن يعوقك إثارتها في المحكمة أكثر من أن تساعدك في الحصول على

حكم بالبراءة، ولا أظنّ أنّها مجازفة يجب أن تجازفي بها فقط لتشعري بأنّـك أصبحت تشعرين بالارتياح تجاه إهانة متخيَّلة».

«إهانة متخيَّلة»، قلت. رحت أقلّب الكلمات في فمي، وأمـرّر لسـاني عـبر الحـواف الحادّة، «إهانة متخيَّلة»، رفعت ذقني وحـدّقت إلى كينيـدي، وسـألتها: «مـا رأيـك لـو كنتُ بيضاء؟»

هزّت رأسها، وقد شحب وجهها، وقالت: «لم أفكّر في ذلك. قلت لك عندما جلسـنا في أول لقاء لنا إنّي لا أرى لوناً».

«لا نتمتّع جميعنا بهذا الامتياز». مددت يـدي إلى الضـمادة ورحـت أهزّهـا فـوق ملفّاتها وأوراقها. «لون البشرة»، قرأت العلبة، وقلت لها: «قولي لي، أيّ مـن هـذه هـو لون البشرة؟ لون بشرتي؟»

برزت بقعتان لامعتان على خـدَّي كينيـدي، وقالـت: «لا يمكنـكِ أن تلـوميني عـلى ذلك».

«لا يمكنني؟»

اعتدلت في جلستها، وقالت: «أنا لستُ عنصريَّة يا روث. وأنا أتفهَّم أنـّك مسـتاءة، لكن ليس من العـدل أن تتهمينـي بـذلك، وأنـا أحـاول أن أبـذل كـلَّ مـا في وسـعي – أستخدم أفضل إمكاناتي المهنيّة - لمساعدتك. والـلـه، لو كنت أسير في الشارع، وكان ثمَّة رجل أسود قادماً نحوي وأدركت أنّني أسـير في الاتجـاه الخطـأ، فـإنّي أواصـل السـير في الاتجاه الخطأ بدلاً من أن ألتفت حتّى لا يفكّر تلقائياً في أنَّني خائفة منه».

فقلت: «هـذه مبالغـة في التعـويض، وهـذا شيء سـيّئ بالقـدر نفسـه»، وأضـفت، «قلتِ إنك لا ترين لون البشرة... لكن، هذا كلّ ما ترينه. إنّك تفـرطين في إدراك ذلـك، وفي محاولة أن تظهري بأنّك لست متحيّزة، حتّى إنـّك لا تسـتطيعين أن تفهمـي ذلـك عندما تقولين إنَّ العِرق لا يهمُّ وكلّ ما أسمعه منك أنّك تتجاهلين ما كنـت أشـعر بـه، وما عشته، وكيف أشعر عندما أُحبط بسبب لون بشرتي».

لا أعرف أيّ واحدة منّا فوجئت بثورة غضبي أكثر: كينيدي لأنّها تظنّ أنّني ممتنة للاستماع إلى نصائحها المهنيّة، أم أنا لأنني أطلقت العنان لوحش كان مختبئاً داخلي طوال هذه السنوات. كنت أكمن متربِّصة، أنتظر شيئاً يهزّ تفاؤلي الذي لم يكن يتزعزع ثمَّ أحرّره من عقاله.

هزّت كينيدي رأسها، زامّة شفتيها، وقالت: «إنّك على حقّ. فأنا لا أعرف كيف تكون الحال عندما يكون المرء أسود. لكنّي أعرف كيف تكون الحال في قاعة المحكمة. فإذا ما أثرتِ مسألة العِرق في المحكمة، فإنّك ستخسرين القضيّة. يحبّ المحلّفون الوضوح. يحبّون أن يكونوا قادرين على القول، بسبب ألف، النتيجة باء. وإذا رششتِ العنصرية فوق ذلك، فسيصبح كلّ شيء غامضاً وغائماً»، قالت وبدأت تجمع ملفّاتها وتقاريرها وتعيدها إلى حقيبتها، ثمَّ أردفت: «لا أحاول أن أجعل الأمر يبدو كأنَّ مشاعرك لا تهمّني، أو أنّني أعتقد أنَّ العنصريّة ليست شيئاً حقيقياً. إنّي أحاول فقط أن أبرِّئك».

الشكّ مثل لسعة صقيع، رحت أرتجف عند حواف دماغي. «لعلّنا يجب أن نهدأ كلتانا»، قالت كينيدي بطريقة دبلوماسيّة.

نهضت واقفة على قدميها وسارت نحو الباب، وقالت: «أعدك يا روث، يمكننا أن نربح هذه القضيّة من دون إثارة هذا الأمر».

بعد أن أُغلق الباب خلفها، جلست شابكة يديَّ في حضني.

كيف، تساءلت، يمكن أن نربح القضيّة؟

حككت عند حافة الضمادة حول إصبعي، ثمّ اتّجهت نحو الزهريّة المركونة على الرفّ إلى جانب التلفاز. أخرجتُ المغلَّف، ورحت أبحث بين الشيكات حتّى وجدت ما كنت أبحث عنه.

بطاقة والاس ميرسي.

يحبّ فرانسيس أن يفتح منزله لأعضاء الحركة بعد ظهر كلّ يوم أحد. فعندما تتوقّف المجموعات عن الطواف في الشوارع لتصيد أشخاصاً يمكن العبث بهم، لا يكاد أحدنا يرى الآخر. ويمكنك أن تتواصل مع كثير من الأعضاء عبر شبكة الويب العالميّة، لكنّه يظلّ مجتمعاً بارداً، يخلو من العلاقات الشخصية الدافئة. وبما أنّ فرانسيس يعرف ذلك، كان الشارع يمتلئ مرّتين في الشهر بسيارات قادمة من ولايات بعيدة مثل نيوجيرسي ونيو هامبشاير، ويستمتعون بضيافة فرانسيس في المساء. فتحت التلفاز على مباراة كرة قدم للرجال، وتجمّعت النسوة مع بريت في المطبخ، يجهزن الطعام، ويتبادلن الأحاديث. وأخذ فرانسيس على عاتقه ترفيه الفتيان الأكبر سنّاً بإلقاء محاضرات عليهم. يمكنك أن تقف من بعيد، وتكاد ترى الكلمات تنبعث من فمه كاللهب، كما لو كان تنيناً، في حين يجلس عند قدميه الفتيان مأخوذين بما يقوله.

مضت ثلاثة أشهر تقريباً منذ آخر لقاء يوم الأحد. إذ لم نرَ هؤلاء الأشخاص منذ جنازة ديفيس. صدقاً، لم أفكّر في ذلك لأنّني لا أزال أتعثّر مثل زومبي. لكن، لَمَّا طلب إليَّ فرانسيس أن أوجّه دعوة على موقع *Lonewolf.org*، فعلت ذلك على الفور، فلا يمكنك أن تقول لا لفرانسيس.

امتلأ البيت مرّة أخرى، لكنَّ الأمر كان مختلفاً قليلاً هذه المرّة، فقد أراد الجميع أن يتحدّثوا إليَّ والاطمئنان عليَّ. مكثت بريت، التي ألمّ بها صداع، في غرفة نومنا، حتّى إنَّها لم تشأ أن تتظاهر بأنّها اجتماعيّة، وظلّ فرانسيس المضيف السعيد، يفتح قناني البيرة، ويمتدح السيدات على قصّات شعرهنَّ، والأطفال ذوي العيون الزرق، أو طعم أنواع الكعك اللذيذ. لَمَّا

وجدني جالساً وحدي إلى جانب الكراج، عندما ذهبت لأفرغ كيس القمامة، قال: «يبدو أنَّ الناس يمضون وقتاً ممتعاً».

هززت رأسي، وقلت له: «يحبّ الناس البيرة المجانيَّة.»

نظر إليَّ بمكر وسألني: «هل كلّ شيء على ما يرام؟» وهو يقصد بعبارة «كلّ شيء»، بريت. لَمَّا هززت كتفي، زمَّ شفتيه، وقال: «كما تعرف، لَمَّا غادرت أمُّ بريت، لم أفهم لماذا بقيتُ هنا. فكّرت كثيراً في الانتقال من هنا. كنت أعتني بطفلتي البالغة من العمر ستّة أشهر، لكنّي لم أجد الإرادة للانتقال من هنا. وفي أحد الأيّام، فهمت السبب: عندما نفقد الأشخاص الذين نحبّهم، فإنّنا نشعر بامتنان أكبر للأشخاص الذين لا يزالون بين ظهرانينا. إنّه التفسير الوحيد الممكن».

ربَّت على ظهري بقوة وسار إلى الباحة الخلفيّة الصغيرة المسيَّجة. انتبه المراهقون الصغار الذين أحضرهم آباؤهم إلى هنا، واستيقظوا على جاذبيته. جلس وأسند ظهره إلى جذع شجرة وبدأ نسخته من مدرسة يوم الأحد. «من يحبّ الألغاز؟» هناك إيماءة، دندنة عامة بالموافقة، «جيد. من يستطيع أن يقول لي من هو إسرائيل؟»

«إنّه لغز محيّر»، تمتم أحدهم نكزه الصبيّ الجالس إلى جانبه بمرفقه.

صاح صبيّ آخر: «بلد ممتلئ باليهود».

فقال فرانسيس: «ارفعوا أيديكم، ولم أسأل ما هي إسرائيل. سألت مَن هو؟».

لوّح فتى، نبت زغب فوق شفته العليا، بيده، فأشار إليه فرانسيس. «يعقوب. بدأ يُدعى بهذا الاسم بعد أن حارب الملاك في فنوئيل».

فقال فرانسيس: «لدينا فائز هنا»، ومضى يقول: «لقد أنجب إسرائيل اثني عشر ابناً - ومن هنا جاء أسباط إسرائيل الاثني عشر، هل تتابعون ما أقوله؟...»

لَمَّا عدتُ إلى المطبخ، رأيت بضع نسوة يتحدَّثن، تحمل إحداهنَّ طفلة تبكي بحرقة، «كلّ ما أعرفه أنّها لم تعد تنام طوال الليل، وكنت متعبة جداً حتّى إنَّني خرجت من البيت وأنا في ثياب النوم لأذهب إلى العمل، لكنّي سرعان ما أدركت ذلك».

فقالت لها إحداهنّ: «إنّي أستخدم الويسكي، أفركه على لثة الطفل».

«لا يمكننا أن نعطيهم ذلك في سنّ مبكرة جداً»، قالت امرأة أكبر سنّاً، فضحكن.

لَمَّا رأينني واقفاً هناك، سقط الحديث كما تسقط صخرة من منحدر، ثمّ قالت المرأة الأكبر سنّاً: «تورك». لم أكن أعرف اسم تلك المرأة، لكنّي عرفتها من وجهها، لأنّها كانت هنا قبل الآن، «لم أرَك عندما دخلت».

لم أردَّ عليها. التصقت عيناي بالطفلة ذات الوجه الأحمر، وهي تلوّح بقبضتيها وتبكي بحرقة، ولم يعد بإمكانها أن تلتقط أنفاسها.

امتدّت ذراعاي إليها وقلت: «هل أستطيع...؟»

نظرت النسوة إلى بعضهنّ، ثمّ وضعت الأمّ الطفلة بين ذراعيَّ. دُهشت لخفّة وزن الطفلة، وتشنَّجت ذراعاها وساقاها وهي تبكي. «شش»، بدأت أقول لها، وأربّت عليها، «اهدئي الآن».

لَمَّا بدأت أفرك ظهرها بيدي، ووضعتها على كتفي، بدأ صراخها يتحوّل إلى فواق. «انظر إليه، مهدّئ الأطفال»، قالت أمّها وهي تبتسم.

هكذا كان من الممكن أن يكون.

هكذا كان ينبغي أن يكون.

أدركت فجأة أنّ السيدات لم يعد ينظرن إلى الطفلة، وإنّما رحن يحدّقن إلى شيء خلفي. التفتُّ. نامت الطفلة بسرعة، وتشكّلت فقاعات صغيرة من البصاق بين شفتيها.

«يا يسوع!»، صاحت بريت. ثمّ استدارت وركضت خارج المطبخ. ثمّ سمعت باب غرفة النوم يصفق خلفها بقوّة. «المعذرة»، قلت وأعدت الطفلة إلى أمّها بلطف وبسرعة، ثمّ ركضت وراء بريت.

كانت مستلقية على سريرنا وقد أولت ظهرها لي. ثمّ قالت: «أكرههنَّ. أكرههنَّ لأنهنَّ في بيتي».

«بريت. إنهنَّ يحاولن أن يكنَّ لطيفات».

فقالت بصوت عالٍ: «هذا أكثر شيء أكرهه». كان صوتها حاداً مثل نصل سكين: «أكره الطريقة التي ينظرن بها إليَّ».

«ليس هذا ما...»

«كلّ ما أردته هو أن أشرب كأس ماء مينك. هل هذا كثير؟»

«كنت سأجلب لك الماء...»

«ليست هذه هي المشكلة يا تورك.»

«وما هي؟» همستُ.

استدارت بريت. عيناها تسبحان بالدموع، وقالت: «تماماً»، وأجهشت إلى البكاء مثل تلك الطفلة، لكن حتّى بعد أن ضممتها إليَّ بقوة، ورحت أفرك ظهرها، لم تتوقَّف عن البكاء.

كان شعوراً غريباً أنَّني أهدّئ بريت وهي تبكي كما لو أنّني أهدهد طفلاً رضيعاً. هذه ليست المرأة التي تزوّجتها. تساءلت إن كنت قد دفنت تلك الروح الشرسة مع جثة ابني.

بقينا هناك، في شرنقة غرفة النوم، حتى بعد أن غربت الشمس وذهبت جميع السيارات وعاد المنزل خاوياً بوقت طويل.

في الليلة التالية، جلسنا جميعاً في غرفة الجلوس نشاهد التلفاز. كنت قد بدأت أكتب على الكمبيوتر منشوراً على موقع ***Lonewolf.org*** عن

شيء حدث في سينسيناتي. أحضرت لي بريت كأساً من البيرة وتكوَّرت إلى جانبي، أوّل تواصل منذ، حسناً، لا أستطيع حتّى أن أتذكّر. «ماذا تكتب؟» سألتني، ومدَّت رقبتها لتتمكّن من قراءة ما كتبته.

قلت لها: «ثمَّة زنجيَّان ضربا صبياً أبيض في المدرسة وكسرا ظهره، لكن لم تُوجَّه إليهما أيّ تهمة. يمكنكِ أن تراهني على أنّه لو كان الأمر عكس ذلك، لاتُّهم الصبية البيض بالاعتداء».

وجّه فرانسيس جهاز التحكّم إلى التلفاز، وقال: «هذا لأنّ مدينة سينسيناتي تقع في الشريحة المئويّة التاسعة والتسعين من المدارس الخرائيَّة»، وأضافت، «الطاقم الإداري فيها كلّه من السود. ما الذي نريده حقاً لأطفالنا؟»

«هذا جيّد»، قلت وطبعت الكلمات التي قالها، «سأُنهي المنشور بها».

أخذ فرانسيس يقلّب محطّات الكابل، ثمّ سأل: «كيف تصادف أنَّه توجد قناة ترفيهية للسود (*Black Entertainment TV*) ولا توجد قناة ترفيهيّة للبيض؟ «ويقول الناس إنّه لا توجد عنصريّة عكسيّة». أطفأ التلفاز ونهض واقفاً، وقال: «سأذهب لأنام».

قبَّل بريت على جبينها وخرج وتوجَّه إلى جناحه في البيت ذي الطابقين. توقّعت أن تنهض بريت أيضاً، لكنّها لم تبدِ أيّ حركة لتغادر.

ثمّ سألتني: «ألا يقتلك الانتظار؟»

رفعت عينيَّ إليها وسألتها: «ماذا تقصدين؟»

«يبدو أنَّه لم يعد هناك شيء عاجل. إنّك لا تعرف من هم الذين يقرؤون الأشياء التي تنشرها». التفتُّ وأصبحنا وجهاً لوجه، وجلست القرفصاء، وقالت: «في الماضي كانت الأمور أكثر وضوحاً. فقد تعلّمت ألواني من النظر إلى أربطة أحذية الرجال الذين كان أبي يلتقيهم. إذ يستخدم أعضاء القوة البيضاء والنازيون الجدد أربطة أحذية حمراء أو بيضاء، أمّا

أعضاء منظمة حليقي الرؤوس المناهضة للتحيُّز العنصريّ، فهم يستخدمون أربطة زرقاء أو خضراء».

ابتسمت ابتسامة متصنّعة، وقلت: «أجد صعوبة في أن أتصوّر أنَّ والدك يلتقي أعضاء من منظمة حليقي الرؤوس المناهضة للتحيّز العنصريّ لأنّهم أكبر خونة للعرق يمكنك أن تلتقي بهم. إنَّهم يستهدفون الذين يحاربون الضوء الجيّد منّا للقضاء على الأجناس الأقلّ أهميّة. يظنون أنَّهم ينكحون الرجل الوطواط، كلّ واحد من هؤلاء.

فأجابت بريت: «لم أقل لك إنّه كان... لقاء ودياً. لكنّه كان يفعل ذلك أحياناً. لقد فعلت ما كان عليك أن تفعله - حتّى لو بدا متناقضاً مع المنطق - لأنّك ترى الصورة الكبيرة». نظرت إليَّ، وسألتني: «هل تعرف العمّ ريتشارد؟»

لا أعرفه شخصيّاً، لكنَّ بريت تعرفه. إنّه ريتشارد بتلر، رئيس منظمة الشعوب الآرية، الذي مات عندما كانت بريت في السابعة عشرة من عمرها.

«كان العمّ ريتشارد صديق لويس فرخان».

زعيم أمَّة الإسلام؟ كان هذا خبراً جديداً بالنسبة إليَّ. «لكنّه...»

«أسود؟ نعم. لكنّه يكره اليهود والحكومة الفيدرالية بقدر ما نكرههما نحن. كان أبي يقول دائماً إنّ عدوّ عدوي صديقي». هزَّت بريت كتفيها بلا مبالاة، وأضافت: «كان ذلك نوعاً من التفاهم غير المعلن: بعد أن نعمل معاً لإسقاط النظام، يبدأ أحدنا يقاتل الآخر».

لا شكَّ في أنَّنا سننتصر.

نظرت إليَّ ملياً وقالت: «ما الذي نريده حقّاً لأطفالنا؟»، مكرّرة تعليق فرانسيس السابق، «أنا أعرف ما الذي أريده لابني. أريد أن تبقى ذكراه حيّة».

«حبيبتي، تعرفين أنَّنا لن ننساه».

فقالت بريت: «ليس نحن»، وفجأة، أصبحت كلماتها قاسية، «الجميع».

نظرت إليها. أعرف ما الذي تقوله: إنَّ كتابة مدوّنة قد تتسبّب في انهيار الأسس، لكنّ الشيء الأكثر إثارة - والأسرع - هو أن تفجّر المبنى من أعلاه إلى أسفله.

إلى حدّ ما لم أواكب حركة حليقي الرؤوس التي كانت في أوج أيامها قبل أن أولد بعشر سنين. تخيّلت عالماً عندما رآني الناس فيه قادماً، هربوا. تذكّرت كيف أمضينا أنا وفرانسيس السنتين الماضيتين ونحن نحاول إقناع الأعضاء بأنّ عدم الكشف عن هوياتهم الحقيقيّة أكثر مكراً وخداعاً – ومرعباً - من التهديدات العلنيّة. قلت: «أبوك لا يوافق على ذلك».

انحنت بريت وقبّلتني برقّة، وابتعدت قليلاً حتّى أصبحت أريد المزيد. يا إلهي! كم اشتقت إلى ذلك! كم اشتقتُ إليها!

أجابت: «الشيء الذي لا يعرفه أبي لا يمكن أن يؤذيه».

كان راين سعيداً بمكالمتي الهاتفيّة. لم أرَه منذ سنتين. لم يحضر حفل زفافي لأنَّ زوجته كانت قد أنجبت طفلهما الثاني. لَـمَّا قلت له إنّي سأمضي اليوم في براتلبورو، دعاني لتناول الغداء في منزله. كان متحمّساً جداً، فكتبتُ العنوان على منديل.

في البداية، خُيّل إليَّ أنّني ذهبت إلى المكان الخطأ: مزرعة صغيرة في طريق مسدود، على جانبها صندوق بريد في شكل قطة، ووضعت على العشب أمام المنزل لوحة بلاستيكية حمراء تلمع، وعُلِّقت إلى جانب الباب الخارجيّ لعبة في شكل رجل ثلج خشبيّ، صغيرة الحجم، وكُتب على الحصيرة الممدودة أمام الباب عبارة ترحيب: أهلاً وسهلاً. نحن التسكو.

ثمَّ ارتسمت على وجهي ابتسامة كبيرة بطيئة. هذا اللقيط الذكيّ؛ فقد نقل فكرة التواري عن الآخرين إلى مستوى جديد تماماً. أقصد، من يتوقّع أن يكون الأب الذي يعيش في البيت المجاور، والذي يغسل شرفته

باستمرار ويسمح لابنه أن يقود درَّاجة بثلاث عجلات على الدرب - من العنصريين البيض؟

فتح راين الباب حتّى قبل أن تتاح لي الفرصة لأقرعه، يحمل بين ذراعيه طفلاً صغيراً مكتنزاً، ومن بين برجَيْ ساقيه، أطلَّت فتاة صغيرة خجول، ترتدي تنورة مهترئة، وتضع على رأسها تاج أميرة. ابتسم ابتسامة عريضة، ومدّ يديه ليعانقني. لم أتمالك نفسي من ألّا ألاحظ أنّه يضع طلاء أظافر وردياً برّاقاً.

«أخي»، قلت وألقيت نظرة سريعة على أصابعه، «عرض أزياء جميل».

«يجب أن ترى كم أنَّني جيّد في حفلات الشاي. تفضّل. يا رجل، كم سعدت برؤيتك!»

دخلتُ، وقد اندسَّت الفتاة الصغيرة وراء ساقَيْ رين. «ميرا»، قال وهو يقرفص على الأرض، «هذا تورك، صديق بابا».

وضعت الفتاة إبهامها في فمها، كما لو أنَّها تقيّم حجمي. «إنّها لا تجيد التعامل مع الغرباء»، قال راين وهو يداعب الطفل الذي يحمله بين ذراعيه، «هذا الصبيّ الضخم إسحق».

تبعته إلى داخل المنزل حيث تناثرت اللعب مثل قصاصات الورق، ودخلنا غرفة الجلوس. أحضر لي راين علبة بيرة باردة، لكنه لم يجلب علبة لنفسه. سألته: «هل سأشرب وحدي؟»

هزّ كتفيه وقال: «لا تحبّ سال أن أشرب أمام الأطفال. إنَّها ترى أنَّني لا أقدّم لهما مثالاً جيداً عندما أفعل ذلك، وهراء من هذا النوع».

سألته: «أين سالي؟»

قال: «في العمل! إنّها تعمل في قسم التصوير بالأشعّة في مستشفى المحاربين القدامى. أنا أعمل من حين إلى آخر، لذلك أمكث في المنزل مع الطفلين».

قلت: «جميل»، ورشفت رشفة طويلة من القنينة.

وضع راين إسحق على الأرض، فبدأ يمشي مترنّحاً مثل سكران صغير. وجرت ميرا في الردهة إلى غرفة نومها، تخبط بقدميها مثل طلقة مدفعيَّة. «إذاً، كيف أحوالك يا رجل؟» سألني راين، «هل أنت على ما يرام؟»

أسندت مرفقي على ركبتي، وقلت: «يمكن أن أكون أفضل. وهذا ما جاء بي إلى هنا».

«مشكلات في الجنَّة؟»

أدركت أنَّ راين لا يعرف أنَّنا، أنا وبريت، أنجبنا طفلاً وفقدناه. بدأت أحكي له القصّة بأكملها - بدءاً من تلك الممرّضة السوداء إلى اللحظة التي توقّف فيها ديفيس عن التنفّس، ثمّ قلت: «إنّي أدعو كلّ الفرق، بدءاً من فرقة الموت في أمريكا الشمالية في فيرمونت حتّى حليقي الرؤوس في ولاية ماريلاند. أريد يوم ثأر لأجل ابني».

لَمَّا لم يجب راين، انحنيت إلى الأمام، وقلت: «إنّي أتحدّث عن القيام بأعمال تخريب. قتال كما الطريقة القديمة. قنابل ناريّة. أي شيء يمكن أن يسبّب ضحايا. الأمر متروك للفرق الفرديّة وقادتها، لكن أريد شيئاً مرئياً يلفت الانتباه إلينا. أعرف أنّ ذلك يتعارض مع ما كنّا نعمل لأجله عندما اندمجنا، لكن ربّما حان الوقت لتذكير بسيط بقوّتنا، كما تعرف؟ قوّتنا في أعدادنا. فإذا ما فعلنا عملاً كبيراً فلن يتمكّنوا من اعتقالنا جميعنا». نظرت في عينيه، وأضفت، «إنّنا نستحقّ ذلك. ديفيس يستحقّ ذلك».

في تلك اللحظة، سارت ميرا في الردهة، ووضعت تاجاً على رأس أبيها. رفعه ونظر إلى القوس الرخيص المصنوع من ورق القصدير، وقال لها: «حبيبتي، هل يمكنك أن تذهبي وترسمي لي صورة؟ إنّها فتاة جيدة». تبعها بعينيه وهي تسير عائدة إلى غرفتها. ثمّ قال لي: «أظنّ أنّك لم تسمع».

«أسمع ماذا؟»

«لقد خرجت يا رجل. لم أعد في الحركة».

رحت أحدّق إليه، مشدوهاً. إذ كان راين هو من عرَّفني إلى القوة البيضاء، ولَـمَّا انضممت إلى فرقة الموت في أمريكا الشمالية أصبحنا إخوة مدى الحياة. إنّه شيء لا يمكنك أن تتخلّى عنه بسهولة.

ثمَّ تذكّرت فجأة وشم الصليب المعقوف الذي كان مرسوماً على طول ذراع راين. نظرت إلى كتفيه، عضلات ذراعيه. لقد عدَّل وشم الصليب المعقوف وحوّله إلى شكل عريشة عنب، ولم يعد بإمكانك أن تعرف الرموز التي كانت مرسومة على ذراعه.

«حدث ذلك منذ سنتين. كنّا قد ذهبنا أنا وسالي إلى أحد تلك التجمّعات في ذلك الصيف، مثلك ومثلي، والشبّان أمثالنا، وكان كلّ شيء رائعاً ماعدا أنّه كان هناك شبّان ينتظرون في طابور لمضاجعة فتاة من ذوي الرؤوس الحليقة في خيمتها. أرعب ذلك سالي لأنّنا أخذنا طفلتنا إلى مكان تحدث فيه مثل هذه الأشياء، فبدأت أذهب إليها وحدي، وأترك الطفلة مع سالي. وفي أحد الأيام، استُدعينا إلى روضة الأطفال لأنّ ميرا حاولت أن تدفن طفلاً صينياً في صندوق الرمل، وقالت إنّها كانت تلعب لعبة القطّة، وهذا ما تفعله القطط ببرازها. تظاهرتُ بأنّني صُدمت، لكن عندما خرجنا من مبنى المدرسة قلت لميرا إنّها فتاة جيّدة. وفي أحد الأيّام، ذهبت إلى مخزن بقالة، وأخذت ميرا معي. أظنّ أنّها كانت في الثالثة من عمرها. كنّا ننتظر دورنا، وكانت العربة ممتلئة بالأغراض التي اشتريناها، وكان الناس يحدّقون إليَّ، كما تعرف، بسبب الوشم وهذه الأشياء، وكنت معتاداً ذلك. كان يقف وراءنا في الطابور رجل أسود، فقالت ميرا ببراءة: «بابا، انظر إلى هذا الزنجيّ». رفع راين عينيه، وأضاف، «لم أفكّر في الأمر، لكنّني سمعت المرأة الواقفة أمامنا في الطابور تقول لي: «عيب عليك»، وقالت لي العاملة في المخزن: «كيف تجرؤ على تعليم طفلة بريئة ذلك؟» وسرعان ما بدأ جميع من في المخزن يصرخون، وبدأت ميرا تبكي، فأمسكت بابنتي وتركت العربة الممتلئة بالأغراض خلفي وجريت إلى سيارتنا. في تلك اللحظة، بدأت أتساءل، ربّما إنَّني لم أكن أفعل

الشيء الصحيح. أقصد أنَّ من واجبي أن أربّي أطفالي ليكونوا محاربين عنصريين - لكن ربّما لم يكن ذلك لصالح ميرا، وربّما كان كلّ ما كنت أفعله أنّني أعدّها لحياة تجعل الجميع يكرهونها».

رحت أحدّقه. «ماذا ستخبرني أيضاً؟ أن تتطوّع في المعبد المحليّ؟ أعزّ صديق لك هو آسيويّ؟»

«لعلَّ الخراء الذي كنّا نقوله طوال تلك السنوات غير قانونيّ. إنّه الطُّعم المطلق يا رجل. لقد وعدونا بأنّنا سنكون جزءاً من شيء أكبر منا، وأننا سنفتخر بتراثنا وبعِرقنا، وربما لم يكن ذلك يتجاوز عشرة في المئة من الصفقة كلّها، والبقية كراهية أيّ شخص آخر لأنّه موجود. لَمَّا بدأت أفكّر في ذلك، لم أستطع أن أتوقّف، ربّما لهذا السبب كنت أشعر بالاشمئزاز دائماً، كما لو كنت أريد أن أهشّم وجه أحدهم، لأذكّر نفسي أنَّ في استطاعتي أن أفعل ذلك. لم أكن أمانع بأن أعمل ذلك، لكنّي لم أشأ أن يكبر أطفالي على تعلّم هذ الطريقة في الحياة». هزَّ كتفيه، وأضاف، «ذات يوم، انتشر خبر بأنّني أريد أن أنسحب. كنت أعرف أنّها مسألة وقت. هاجمني أحد رفاقي في ساحة وقوف السيارات بعد أن ذهبنا أنا وسالي إلى السينما، أوسعني ضرباً، فنُقلت في إثرها إلى المستشفى، وعالجوني ببعض القطب. لكن، بعد ذلك، انتهى كلّ شيء».

نظرت إلى راين، الذي كان أعزّ صديق لي، وكما لو أنَّ الضوء قد انزاح وبدأت أرى شيئاً مختلفاً تماماً. جبان. خاسر.

«إنَّ ذلك لا يغيّر شيئاً»، قال راين، «ما زلنا إخوة، أليس كذلك؟»

فقلت: «بالتأكيد. دائماً».

ثمَّ اقترح قائلاً: «ربّما تأتي أنت وبريت ونذهب للتزلّج هذا الشتاء».

«سيكون ذلك رائعاً». أنهيت بيرتي ونهضت واقفاً، وقلت له إنّني يجب أن أذهب قبل حلول الظلام. وبينما بدأت أبتعد بالسيّارة، راح راين يلوّح لي، وكذلك طفله إسحق.

أعرف أنَّني لن أراهما مرَّة أخرى.

* * *

بعد يومين، التقيتُ قادة الفرق السابقين على امتداد الساحل الشرقي، الذين كانوا يشاركون، ماعدا راين، في كتابة منشورات عبر موقع *Lonewolf.org*، وكلهم يعرفون ما الذي حدث لديفيس حتى قبل أن أبدأ أحكي لهم القصَّة. كان لديهم جميعاً تاريخ مع فرانسيس - فقد سمعوه ذات يوم وهو يتحدَّث في أحد التجمّعات الحاشدة، وكانوا يعرفون أنَّه قتل رجلاً.

مرهقاً وجائعاً، ركنت سيّارتي أمام منزلنا. لَمَّا رأيت وميض التلفاز في غرفة الجلوس - مع أنَّ الساعة تقارب الثانية صباحاً - أخذت نفساً عميقاً، فقد كنت آمل أن أنسلَّ إلى المنزل من دون أن يلاحظني أحد، لكن كان عليَّ الآن أن أختلق عذراً لفرانسيس عن سبب خروجي من دون أن أخبره.

لدهشتي، كانت بريت جالسة على الأريكة، مرتدية أحد قمصاني، ويصل إلى فخذيها مثل فستان. عبرت الغرفة، انحنيت، وقبّلتها على رأسها، وقلت لها: «حبيبتي، ألم تنامي بعد؟»

هزَّت رأسها. نظرتُ إلى شاشة التلفاز حيث كانت ساحرة الغرب الشرّيرة منحنية إلى جانب دوروثي، تهدّدها. سألتني: «هل شاهدت هذا من قبل؟»

«نعم. هل تريدين أن أقول لك كيف ستنتهي؟» قلت لها مازحاً.

«لا، أقصد أنَّها تشبه قصّة خرافيّة كاملة عن منظّمة القوة البيضاء. الساحر الذي يسحب خيوط الجميع يهوديّ صغير. ولون بشرة الشرّير غريبة، وهو يعمل مع القرود».

جثوت أمامها، موجّهاً انتباهها. «لقد فعلتُ ما وعدتُ به. قابلت كلّ الرجال الذين كانوا يديرون الفرق. لكن، لم يشأ أحد منهم أن يجازف. أظنّ

لأنّ والدك أحسن صنعاً عندما أقنعهم بأنّ أسلوبنا الجديد هو السريَّة. إنَّهم لا يريدون أن يجازفوا بأنفسهم ويدخلوا السجن».

«حسناً، أنا وأنت يمكننا...»

«بريت، إذا حدث خطأ ما، فإنّ أول شخص ستبحث عنه الشرطة هو الشخص الذي له صلة بالحركة. وقد ذُكر اسمنا في وسائل الإعلام بسبب الدعوى القضائيَّة». تردّدت قليلاً، «تعرفين أنّني مستعدّ لأن أفعل أيَّ شيء لأجلك، لكنّك بدأت تعودين إليَّ. إذا حُكم عليَّ بالسجن، فإنّي سأخسرك مرّة أخرى». ضممتها إليَّ، وأضفت: «أنا آسف يا عزيزتي، ظننت أنَّني سأنجح في ذلك».

قبّلتني، وقالت: «أعرف. لكن الأمر جدير بالمحاولة».

«لنذهب إلى السرير؟»

أطفأت بريت التلفاز، ودخلنا غرفة النوم. نزعتُ عنها قميصها ببطء، وتركتها تخلع حذائي وبنطالي الجينز. لَمَّا اندسسنا تحت الغطاء، ضغطتُ بجسدي على جسدها، لكن عندما بدأت أتحرّك بين ساقيها، كان مرخياً، انزلق من داخلها.

نظرت إليَّ في الظلام، عيناها غائمتان، وذراعها فوق بطنها الناعم. «هل أنا السبب؟» سألتني بصوت يكاد يكون همساً كدت أسمعه.

«لا»، أقسمتُ، «إنّك جميلة. هذا الخراء الغبيّ الذي يدور في رأسي».

تدحرجت بعيداً عنّي. حتّى وهي بعيدة عنّي، يمكنني أن أشعر بحرارة بشرتها الحمراء من الخجل.

قلت لها من وراء ظهرها: «أنا آسف».

لم تردَّ بريت.

استيقظت في منتصف الليل ومددت يدي نحوها. لم أفكّر في السبب الذي جعلني أفعل ذلك. ربّما إذا لم أعد أفكّر بالطريقة التي أفكّر فيها،

فقد أشعر بشيء من الراحة. راحت يدي تجوس فوق الملاءات، لكنَّها لم تجد بريت.

في البداية، كان هناك عدد كبير منّا، وكنّا جميعاً مختلفين. قد تكون من منظمة الشعوب الآرية، لكنّك لست من «حليقي الرؤوس» وذلك يتوقّف على ما إذا كنت تعتنق لاهوت الهوية المسيحيّة أم لا. فقد كان معظم البيض الذين يؤمنون بتفوّق العرق الأبيض أكاديميين ينشرون إطروحات، أمّا حليقو الرؤوس فهم أكثر عنفاً، يفضّلون تلقين دروس بقبضات أيديهم. أمّا الانفصاليون البيض فهم الذين يشترون أراضي في نورث داكوتا، ويحاولون تقسيم البلد، وإلقاء أيّ شخص ليس أبيض خارج المحيط الذي صنعوه لأنفسهم. وكان النازيون الجدد خليطاً بين منظمة الشعوب الآرية ومنظمة الإخوان الآريين في السجون - إذا كان هناك عنصر إجراميّ في عصابات شوارع عنيفة للحركة، فإنّهم هم. وهناك الأودونيون والخلقيون وأتباع كنيسة الخالق العالمية. لكن، على الرّغم من الأيديولوجيَّة التي قسمتنا إلى جماعات منفصلة، فإنّنا نلتقي جميعاً في يوم محدَّد في السنة لنحتفل: 20 نيسان (أبريل)، عيد ميلاد أدولف هتلر.

تقام مهرجانات للاحتفال بعيد الميلاد في جميع أرجاء البلد، مثل اجتماعات جماعة كو كلوكس كلان القديمة التي حضرتها عندما كنت مراهقاً. يلتقون عادة في بقعة نائية، أو في أرض محمية لا يعرفها أحد، أو في أي قرية تشبه قرية في جبال الألب، وتعطى الاتجاهات شفوياً، وتوضع إشارات على المنعطفات بأعلام صغيرة حُمر.

قد أكون قد حضرت خمسة مهرجانات أقامتها منظمة الشعوب الآرية منذ انضمامي إلى حركة القوة البيضاء، لكنَّ هذا المهرجان كان خاصّاً. ففي هذا المهرجان، أوشكت أن أتزوج.

حسناً، في الروح، في الأقلّ. من الناحية القانونيّة، كان علينا، أنا وبريت، أن نـذهب إلى مبنى البلديّة الأسبوع المقبل لنملأ الأوراق الرسميّة، أمّا من الناحية الروحيّـة، فقـد كان حفل الزفاف سيقام تلك الليلة.

كنت في الثانية والعشرين من عمـري، وكنـت في ريعـان شـبابي. لم تشـأ بريـت أن أبقى معها بصحبة فتيات أخريات، فذهبت إلى المكان الذي يقام فيـه المهرجـان. عـلى نحو عامّ، كان عدد الأشـخاص الموجـودين أقـلّ بكثـير مـمّا كـان يوجـد في الاحتفـالات السابقة التي حضرتها قبل خمس سنوات، ويعزى ذلك في الغالب إلى أنَّ رجال الشرطة الفيدرالية بدؤوا في اتّخاذ إجراءات صـارمة في الأمـاكن التـي نلتقـي فيهـا. لكـن، عـلى الرّغم من ذلك، كانت هنـاك المجموعـات المعتـادة مـن السـكارى، يتشـاجر بعضـهم، ويتبوّل بعضهم الآخر وراء الخيام المحمولة حيث يبيع الباعة كلّ شيء بدءاً من نقـانق الذرة حتّى كيلوتات ثونغ المكتوب عليها عبارة (أحبّ حليقـي الـرؤوس). وكـان هنـاك مكان مخصّص للأطفال توجد فيه دفاتر تلوين وقلعة مطاطية يقفزون فوقها، يرفـرف عليها علم النازيين، كبير الحجم، ملفوفـاً إلى الـوراء كـما كـان يُـرى في الـقصر الريـاضيّ حيث يلقي هتلر خطاباته النارية. وفي نهاية صـفّ بـائعي الأطعمـة والسـلع الأخـرى، يوجد رسّامو الوشم، الذين يزداد الطلب عليهم في هذه المهرجانات.

اخترقت الطابور، مع أنّني كنت أعرف أنّ ذلك سيثير غضب الرجـل الـذي أخـذت دوره. تشاجرنا، ولكمته على أنفه فسـال قليـل مـن الـدم، فـأغلق فمـه وتركنـي آخـذ مكانه. لَمَّا جلست أمـام فنّـان الوشـم، نظـر إليَّ وسـألني: «مـا الوشـم الـذي تريـد أن ترسمه؟»

نعمل أنا وفرانسيس منذ ستّة أشهر لإقناع الفرق بالتوقّف عن المباهـاة بإظهار الوشم ذي الـترس الشـمسيّ، والـرؤوس الحليقـة، والبـدء في الظهـور كأشخاص عاديين، وكـان ذلـك يعنـي أن ترتـدي قمصـاناً بـأكمام طويلـة أو

المعالجة بمواد حمضية لتغطية حبر الوشم على وجوهنا. أما اليـوم فكـان يومـاً مميـزاً. فقد أردت اليوم أن يعرف الجميع ما الشيء الذي أدافع عنه.

لَمَّا خرجت من تلك الخيمة، كانت هناك ثمانية حروف قوطيّة، كلّ حرف على كلّ مفصل من أصابعي. وعلى اليد اليمنى، عندما أغلق يدي في شكل قبضة، تظهر حروف: ك – ر – ا – ه – ي – ة. وعلى يدي اليسرى، الجانب الأقرب إلى قلبي، كلمة «حبّ».

عند الغروب، حان الوقت. تناهت من بعيد أصوات هدير الدراجات النارية، واصطفّ جميع من في المهرجان في صفّين. انتظرت، يداي مشدودتان أمامي، لا يزال الجلد أحمر متورّماً من الوشم الجديد.

ثمّ افترق الحشد فجأة، ورأيت بريت، يضيء خلفها ضوء برتقاليّ وأصفر في نهاية اليوم. كانت ترتدي فستاناً أبيض موشّى بالدانتيل. ابتسمت. ابتسمت ابتسامة عريضة حتّى شعرت أنَّ فكّي سيتمزَّق.

لَمَّا اقتربت كثيراً، وأصبح بإمكاني أن ألمسها، شبكت ذراعها في ذراعي. إذا انتهى العالم في تلك اللحظة، فإنّي سأكون سعيداً. ما إن بدأنا نسير في الممرّ الذي صنعوه لنا حتّى ارتفعت الأذرع، وصاح الجميع: «زيغ هايل» (يحيا النصر). كان فرانسيس واقفاً في آخر الصفّ. ابتسم لنا، عيناه مشرقتان وحادّتان. كان قد ترأس حفلات زفاف عدَّة للجماعة الآرية، لكن هذا الحفل كان مختلفاً. وقال بصوت أجشّ: «أيّتها الخنفساء، ألستِ شيئاً جميلاً؟» ثمّ التفت إليَّ، وقال: «إذا أزعجتها فسأقتلك».

فقلت: «نعم، يا سيّدي».

بدأ فرانسيس يقول: «بريتاني، هل تعدين بأن تطيعي تورك وتواصلي تراث العرق الأبيض؟»

فقالت: «نعم».

«وتورك، هل تكرّم هذه المرأة في الحرب على أنَّها زوجتك الآريَّة؟»

فقلت: «نعم».

استدار أحدنا تجاه الآخر. نظرتُ في عينيها، بثبات، وبدأنا نتلو الأربع عشرة كلمة، الشعار الذي وضعه ديفيد لين عندما كان يدير الطائفة: يجب أن نكفل وجود شعبنا ومستقبلاً للأطفال البيض.

قبّلتُ بريت، وأشعل أحدهم صليباً معقوفاً خشبياً خلفنا احتفاء بهذه اللحظة السعيدة. أقسم إنّني أحسست أن تحوّلاً ما طرأ عليَّ في ذلك اليوم. كما لو أنّني قد سلّمت نصف قلبي لهذه المرأة التي منحتني قلبها، وأنّ الطريقة الوحيدة التي يمكننا أن نواصل فيها الحياة هي هذا المزيج.

لم أكد أدرك أن فرانسيس كان يتكلم، والناس يصفقون. لكنني انجذبت نحو بريت، كما لو كنا آخر شخصين بقيا على وجه الأرض.

ربّما كنّا كذلك.

كينيدي

«موكّلتي تكرهني»، قلت لميكا عندما كنّا واقفين في المطبخ نغسل الصحون.

«أنا متأكّد أنّها لا تكرهك».

نظرت إليه وقلت: «إنّها تظنّ أنّني عنصريَّة».

«لديها وجهة نظر»، قال ميكا بلطف. التفتُّ إليه، وقد ارتفع حاجباي ووصلا إلى أعلى جبيني، ثمّ أضاف: «أنتِ بيضاء وهي ليست كذلك، وتصادف أنّكما تعيشان في عالم يمتلك فيه البيض كلّ القوّة».

قلت: «إنّي لا أقول إنّ حياتها أصعب من حياتي. أنا لست واحدة من أولئك الذين يظنّون أنّه لمجرّد أنّنا انتخبنا رئيساً أسود، فقد تجاوزنا العنصرية بطريقة سحريّة. أتعامل كلّ يوم مع موكلين من الأقليّات يدمّرهم نظام الرعاية الصحيّة ونظام العدالة الجنائيّة، والنظام التعليميّ. أقصد أنّ السجون تدار كأنّها مؤسّسة تجاريّة. أحدهم يستفيد من إبقاء أشخاص يتدفّقون إلى السجن باستمرار».

دعونا عدداً من زملاء ميكا إلى العشاء. كنت آمل أن أقدّم لهم وجبة عشاء شهية، لكني لم أُعدّ لهم شيئاً سوى بضع سندويشات تاكو، وقدّمت لهم فطيرة اشتريتها من المخبز بعد أن أزلت حواف القشرة قليلاً لأجعلها تبدو أنني خبزتها في البيت. كنت سارحة البال طوال السهرة. لا يستطيع أحد أن يلومني على ذلك، ولا سيَّما عندما يدور معظم الحديث حول معدلات فقدان طبقة الألياف العصبية الشبكية في الجانب المقابل من العين لمرضى الغلوكوما. ولم تفارق الأحاديث التي دارت بيني وبين روث تفكيري.

قلت لها: «لكن لا يمكنك إثارة مسألة العِرق في محاكمة جنائية»، وأضفت، «فهي واحدة من القواعد غير المعلنة، مثل عدم استخدام الضوء الساطع في سيارتك في الليل. حتى القضايا التي تستند إلى قوانين «دافع عن أرضك»، التي يكون تسعة وتسعون في المئة فيها رجل أبيض في فلوريدا قد خاف من طفل أسود وضغط على الزناد وقتله، تبتعد عن إثارة موضوع العِرق. أفهم أنّ روث تشعر بأنّ ربّ عملها قد ميّزها عن الآخرين، لكن لا علاقة لأيّ من ذلك بتهمة جريمة القتل».

مرَّر لي ميكا صحناً لأجفّفه، وقال: «لا تفهمي ذلك بطريقة مغلوطة يا حبيبتي، لكن في بعض الأحيان، عندما تحاولين أن تفسّري شيئاً، وتظنين أنّك تلمّحين إليه، فإنّك تكونين بذلك أشبه بشاحنة ماك».

التفتُّ إليه ملوّحة بمنشفة الصحون، وقلت: «ماذا لو كانت إحدى مريضاتك مصابة بالسرطان، وأنت تحاول علاجها، لكنّها تظلّ تقول لك إنّها مصابة باللبلاب السامّ. ألن تقول لها إنّه يجب التركيز على القضاء على السرطان أولاً، ثمّ نعالج الطفح الجلديّ؟» فكّر ميكا في الأمر، ثمّ قال: «حسناً، أنا لستُ طبيب أورام، لكن أحياناً، عندما تنتابك حكّة، فإنّك لا تتوقّفين عن حكّها، ولا تدركين أنّك تفعلين ذلك».

ضعتُ تماماً، وقلت: «ماذا؟»

«إنّها الاستعارة التي استخدمتِها أنت».

تنفّست الصعداء، وقلت مرة أخرى: «موكّلتي تكرهني».

في تلك اللحظة، رنَّ الهاتف. كانت الساعة تقارب العاشرة والنصف، فترة المكالمات المتعلّقة بالنوبات القلبية والحوادث. رفعت السماعة بيدي المبللة، وقلت: «هلو؟»

«هل هذه كينيدي ماكوري؟» قال صوت عميق، صوت أعرفه لكنَّني لم أستطع تمييزه.

«نعم».

«ممتاز. السيّدة ماكواري، أنا القسّ والاس ميرسي».

والاس ميرسي؟

لم أدرك أنّني قلت ذلك بصوت مسموع حتّى عندما سمعته يضحك، وقال: «إنّ الشائعات بأنّني نجم مُبالغ فيها كثيراً»، ثمّ أضاف: «أتصل الآن بشأن صديقة مشتركة بيننا - روث جيفرسون».

فقلت له على الفور: «قسّ ميرسي، ليست لديَّ الحرية لأن أناقش أمراً يتعلّق بموكلتي».

«أؤكّد لك أنك تستطيعين. لقد طلبت روث منّي أن أكون مستشاراً لها، من نوع ما...»

صررت على أسناني، وقلت: «لم توقّع موكّلتي على شيء ينصّ على ذلك».

«التصريح، نعم، طبعاً. أرسلته إليها بالإيميل منذ ساعة، وسيكون على مكتبك صباح الغد».

ماذا بحقّ الجحيم. لماذا تذهب روث وتوقّع شيئاً كهذا من دون استشارتي؟ لماذا لم تذكر لي أنّها تكلّم شخصاً مثل والاس ميرسي؟

لكنّي أعرف الإجابة: لأنّني قلت لروث إنّه لا علاقة لقضيتها بالتمييز العنصريّ، هذا هو السبب. ولا يهتمّ والاس ميرسي بشيء إلّا بالتمييز العنصريّ.

«استمع إليّ»، قلت له وقلبي يخفق بقوة، حتّى إنَّني كنت أسمع نبضاته في كلّ كلمة أقولها، «إنَّ تبرئة روث جيفرسون مهمّتي، وليست مهمّتك. هل تريد أن تزيد تقييماتك؟ لا تفكّر في أنّك تستطيع أن تفعل ذلك على حسابي».

أنهيت المكالمة، وضغطت على زرّ الإغلاق بقوّة فانزلق الهاتف من يدي وسقط على أرضية المطبخ. أغلق ميكا صنبور الماء، وقال: «اللعنة على

الهواتف اللاسلكيّة. كان الأمر أفضل بكثير عندما كان بإمكانك أن تغلقي الهاتف في وجوههم، أليس كذلك؟» اقترب منّي، يداه في جيبيه، وقال: «هل تريدين أن تحكي لي كلَّ شيء؟»

«كان والاس ميرسي عبر الهاتف. روث جيفرسون تريد أن ينصحها».

فقال ميكا: «أنت على حقّ. إنّها تكرهك».

* * *

فتحت روث الباب وهي في ثوب النوم ورداء الحمَّام. «من فضلك»، قلت لها، «أحتاج فقط إلى خمس دقائق من وقتك».

«أليس الوقت متأخّراً قليلاً؟»

لا أعرف إن كانت تقصد أنّ الساعة تقارب الحادية عشرة ليلاً الآن، أو لأنّنا افترقنا في لحظة من التوتّر بعد ظهر اليوم. اخترت الافتراض الأول، وقلت لها: «أعرف أنّني لو اتّصلت بك، فإنّك ستعرفين رقمي ولن تردّي».

فكّرت قليلاً وقالت: «ربّما».

شددت كنزتي حولي بإحكام. إذ ركبت سيّارتي بعد مكالمة والاس ميرسي على الفور ونسيت أن أرتدي معطفي. كان كلّ ما فكّرت فيه هو أنّني يجب أن أصل إلى بيت روث قبل أن توقّع البيان وتعيده إليه بالإيميل.

أخذت نفساً عميقاً، وقلت لها: «ليس الأمر أنّني لا أبالي كيف عوملت - إنّي أهتمّ بذلك، لكنّي أعرف أنّ مشاركة والاس ميرسي سيكلّفك كثيراً على المدى القصير، إن لم يكن على المدى الطويل أيضاً».

رأتني روث وأنا أرتجف. «تفضّلي»، قالت بعد لحظة. كانت الأريكة مرتَّبة، عليها وسائد وأغطية وبطانية، فجلست إلى طاولة المطبخ، في حين مدَّ ابنها رأسه من غرفة نوم، وقال: «ماما؟ ما الذي يجري هنا؟»

«لا شيء يا إديسون. اذهب ونم».

بدا مرتاباً، لكنّه دخل وأغلق الباب.

«روث»، قلت متوسّلة، «لا توقّعي ذلك البيان».

جلست على كرسيّ أمام الطاولة أيضاً، وقالت: «لقد وعدني بأنّه لـن يتـدخّل في مـا تفعلينه في المحكمة...»

«ستلحقين بنفسك ضرراً كبيراً»، قلت لها بصراحة، «فكّري في الأمر - حشود غاضبة في الشـارع، وظهـور وجهـك عـبر شاشـات التلفـزة كـلّ ليلـة، وسـيتحدَّث المعلّقـون القانونيّون عن القضـيَّة في بـرامج الصـباح – لا أظـنّ أنّـك تريـدين أن يـتحكّم هـؤلاء بطريقة سرد هذه القضيّة قبل أن تتاح لنا الفرصة لعمل ذلك»، وأشرت إلى باب غرفـة نوم إديسون المغلق، «وماذا عن ابنك؟ هل أنت مستعدّة لأن تجرّيه إلى أعين العامَّـة؟ لأنَّ هذا ما يحدث عندما تصبحين رمزاً. سـيعرف العـالم كـلّ شيء عنـكِ وعـن ماضـيك وعن أسرتك، ويصلبونك. سيصبح اسمك مألوفـاً تماماً مثـل اسـم تريفـون مـارتين. لـن تستعيدي حياتك بعد ذلك أبداً».

التقت عيناها عينيَّ، وقالت: «ولا هو أيضاً».

حقيقة، إنَّ هذا البيان سيفصلنا مثـل وادٍ. أنظـر إلى قعـر تلـك الهاويـة وأرى كـلّ الأسباب التي لا تجعل روث تفعل ذلك، لكن لَمَّا نظرت إلى الأسـفل، فـلا شـكّ في أنَّهـا رأت كلَّ الأسباب التي تجعلها تفعل ذلك.

«روث، أعرف أنّه لا توجد لديك أسباب تجعلك تثقين بي، ولا سيَّما بسبب الطريقة التي عاملك بها البيض مؤخّراً، لكن إذا نشر والاس ميرسي قضيتك على الملأ، فلن تكـوني في وضع آمن. آخر شيء تريدينه هو أن تُحاكم قضيتك في وسائل الإعلام. أرجوك، دعينا نفعل ذلك بطريقتي. أعطيني فرصة»، تردّدت، «أرجوك».

طوت ذراعيها، وقالت: «ماذا لو قلت لك إنّني أريد أن تعـرف هيئـة المحلّفـين مـا الذي جرى لي؟ أن يسمعوا القصّة من جانبي؟»

هززت رأسي، واتفقنا في صفقة: «أعدك بأننا سنجعلك تقدّمين شهادتك».

الأمر المثير في جاك ديناردي هو أنّه يضع كرة مطاطيّة على مكتبه بحجم رأس مولود جديد. وما عدا ذلك، فهو تماماً ما تتوقّع أن تجده يعمل في غرفة صغيرة خانقة في مستشفى الرحمة - ويست هافن: كرش، بشرة رمادية، يغطي صلعته بالشعرات المتبقية في رأسه. موظف بيروقراطيّ. كان السبب الوحيد لمجيئي إلى هنا أنّني أريد اصطياد بعض المعلومات، وأرى إن كان هناك أيّ شيء يمكن أن يقولوه عن روث يمكن أن يساعدها - أو يضرّها.

قال جاك ديناردي: «تعمل في هذا المستشفى منذ عشرين سنة».

سألته: «كم مرة رُقّيت روث إبّان السنوات العشرين هذه؟»

«دعينا نرَ»، وراح يفتّش في الملفّات، ثمّ قال: «مرة واحدة».

«مرّة واحدة إبَّان عشرين سنة؟» قلت بريبة، «ألا يبدو لك ذلك قليلاً؟»

هزَّ جاك كتفيه، وقال: «في الحقيقة لا أستطيع أن أناقش هذه المسألة».

«لماذا؟» قلت لأضغط عليه، «أنت جزء من المستشفى. أليس عملك مساعدة الناس؟»

«المرضى»، أوضح، «لا العاملين فيه».

شهقتُ. يُسمح للمؤسّسات أن تدقّق في شؤون موظفيها وتسجّل كلَّ خطأ يرتكبونه - لكن لا يوجّه أحد العدسة المكبّرة عليهم أبداً.

قلّب مزيداً من الأوراق والملفّات، ثمّ قال: «إنّ العبارة المستخدمة في آخر مراجعة لأدائها هي مشكلة شائكة».

لن أختلف معه في ذلك.

«من الواضح أنَّ روث جيفرسون مؤهّلة. لكن، ممّا يمكنني أن أجمعه من ملفّها هو أنّه جرى تجاوزها في الترقيات لأنّ المسؤولين يرون أنَّها امرأة معتدَّة بنفسها... قليلاً...»

تجهَّم وجهي. قلت: «المشرفة على روث، ماري مالون... منذ متى تعمل هنا؟»

نقر على مفاتيح الكمبيوتر قليلاً، ثمَّ قال: «منذ عشر سنوات تقريباً».

«إذاً، شخص يعمل هنا منذ عشر سنوات يصدر الأوامر والتعليمات لروث - أوامر مشكوك فيها - وربّما كانت روث تناقشها فيها أحياناً؟ هل يبدو ذلك أنّها مغرورة... أو حازمة؟»

التفت نحوي وقال: «لا أستطيع أن أقول».

نهضتُ، وقلت له: «شكراً لوقتك يا سيّد ديناردي». أخذتُ معطفي وحقيبتي، وقبل أن أجتاز عتبة الباب، استدرتُ، وقلت: «مغرورة... أم حازمة؟ هل من الممكن أن تتغيّر الصفة بحسب لون الموظَّفة؟»

«أنا أرفض هذا التفسير يا سيّدة ماكواري»، قال جاك ديناردي زامّاً شفتيه، «إنّ مستشفى الرحمة – ويست هافن لا يميّز على أساس العِرق، أو العقيدة، أو الدين، أو التوجّه الجنسيّ».

فقلت: «آه، حسناً. أرى ذلك. إذاً كان من سوء الحظ أنّ روث جيفرسون هي الموظفة التي اخترتم لتلقوا بها إلى الذئاب».

لَمَّا خرجت من المستشفى، قلت في نفسي إنّه لا يمكن الاستفادة من كلّ هذا الحديث في المحكمة. حتّى إنّني لست متأكّدة ما الذي جعلني أعود في اللحظة الأخيرة وألقي بهذا السؤال الأخير على موظف شؤون الموظفين.

إلّا إذا كانت روث قد أثَّرت فيَّ.

في نهاية عطلة ذلك الأسبوع، هطلت أمطار غزيرة. جلستُ أنا وفيوليت إلى الطاولة الصغيرة، نلوّن معاً. كانت فيوليت تخربش على الصفحة من دون أيّ حسبان لخطوط الراكون المرسومة أصلاً في دفتر التلوين.

«جدّتي تحبّ أن تلوّن داخل الخطوط»، قالت لي ابنتي، «تقول إنّ هذه هي الطريقة الصحيحة».

قلت تلقائيّاً: «لا توجد طريقة صحيحة أو طريقة خطأ»، وأشرت إلى انفجار اللونين الأحمر والأصفر، «انظري كم لوحتك جميلة».

مَن الذي وضع هذه القاعدة؟ لماذا وضعوا خطوطاً؟

لَمَّا سافرنا، أنا وميكا، إلى أستراليا لقضاء شهر العسل، أمضينا ثلاث ليال في مخيّم في المركز الأحمر في البلد، حيث كانت الأرض متصدّعة مثل حلق جافّ، وبدت سماء الليل مثل وعاء مقلوب من الألماس. صادفنا رجلاً من السكّان الأصليين، أرانا طائر «الإيمو» في السماء، النَجم القريب من كوكبة الصليب الجنوبيّ، التي لا تعدُّ لغزاً من النقاط المتراصفة إلى جانب بعضها مثل الكواكب التي نراها في سماء بلدنا، وإنّما المسافات بين النقاط - السُدم التي تدور عكس درب التبانة لتشكّل العنق الطويل والسيقان المتدلية للطائر العظيم. في البداية، لم أرَه، لكن لَمَّا رأيته، كان ذلك كلّ ما استطعت أن أراه.

لَمَّا بدأ هاتفي الخلوي يرنّ، ورأيت رقم هاتف روث، التقطته على الفور. سألتها: «هل كلّ شيء على ما يرام؟»

«نعم»، بدا صوت روث جامداً، «كنت أتساءل إن كان لديك وقت بعد ظهر اليوم».

نظرتُ إلى ميكا الذي دخل غرفة الجلوس توّاً. قلت له هامسة: «إنّها روث».

رفع فيوليت بذراعيه، ودغدغها، ليتيح لي الوقت لأكلّم روث. قلت لها: «هل حدث شيء في الأمر الذي كنت تريدين أن تتحدّثي عنه؟»

«ليس تماماً. أريد أن أذهب لأشتري هدية عيد ميلاد لأمّي، وقلت في نفسي ربّما ترغبين في أن تأتي معي».

رأيت غصن زيتون، وقلت: «يسعدني ذلك».

بينما كنت أقود سيارتي للقاء روث، فكّرت في جميع الأسباب التي تجعل ذلك خطأً فادحاً. إذ لَمَّا بدأت العمل محامية عامة، كنت أنفق راتبي الذي لم يكن يغطي مشترياتي طوال الأسبوع على موكليَّ عندما أرى أنهم في حاجة إلى ثياب نظيفة أو وجبة طعام ساخنة. استغرق ذلك فترة من الزمن حتى أدركت أن مساعدة موكليَّ لا يمكن أن تمتدَّ إلى حسابي المصرفيّ. أعرف أنَّ روث امرأة معتدَّة بنفسها، ولا أظنّ أنّها ستأخذني معها إلى السوق، وتلمّح بأنّها تريد أن تشتري حذاء جديداً. قلت في نفسي لا بدَّ أنّها تريد تنقية الأجواء بيننا.

في طريقنا إلى المركز التجاريّ، تركّز معظم حديثنا حول الطقس - متى سيتوقّف هطول المطر، وهل سيتحوّل إلى جليد - ثمّ تحدَّثنا عن المكان الذي سنمضي فيه عطلاتنا القادمة. ثمّ اقترحت روث أن أركن سيّارتي بالقرب من محالّ تي جي ماكس، ثمّ سألتها: «إذاً، هل تبحثين عن شيء محدَّد؟»

هزَّت روث رأسها، وقالت: «سأعرف ما هو عندما أراه. هناك أشياء تصيح باسم أمّي تكون مغطاة عادة بالترتر»، وابتسمت، وأضافت، «عندما ترتدي ثيابها وتذهب إلى الكنيسة، تظنين أنّها ذاهبة إلى حفل زفاف. أظنّ أنّها تفعل ذلك لأنّها ترتدي طوال الأسبوع ثياب العمل. ربّما كانت هذه هي طريقتها للانعتاق والتحرُّر».

«هل نشأت هنا في ولاية كونيتيكت؟» سألتها ونحن نترجَّل من السيارة.

فقالت: «لا، نشأت في حيّ هارلم. كنت أستقلّ الحافلة كلّ يوم إلى مانهاتن مع أمّي لتذهب إلى مكان عملها، وأنزل في دالتون».

سألتها: «هل ذهبتِ أنتِ وأختك إلى دالتون؟»

«أنا فقط. لم تكن أديسا... تحبّ الدراسة. ويسلي هو الذي جعلني أستقرّ في ولاية كونيتيكت».

«كيف التقيتما؟»

فقالـت روث: «في المستشـفى. كنـت طالبـة تمـريض في جنـاح المخـاض والـولادة، وكانت هناك امرأة توشك أن تلد طفلها، كان زوجهـا عسـكرياً في الجـيش. حاولـت أن تتصل به مرّات كثيرة. ولدت تـوءمين قبـل أن يحـين موعـدها بشـهر. كانـت مرعوبـة، ومقتنعة بأنّها ستنجب طفليها وحدها. وفجأة، دخل شابّ في بدلة عسـكريّة مموّهـة. نظر إليها ووقع مغميّاً عليه مثل صخرة، فرحت أعتني به».

قلت لها: «انتظري. هل كان ويسلي متزوّجاً امرأة أخرى عندما التقيتما؟»

«هذا ما ظننته أيضاً. إذ لَمَّا دخل الغرفة، بدأ يلاطفنـي. قلـت في نـفسي إنّـه أكـبر حمار رأيته في حياتي، يلاطفني أمام زوجته التي تلد توءميهما، وقلت له ذلك، فعلمـتُ أنّهما ليسا طفليه، وأنَّ والدهما صديقه في الجيش ولم يتمكّن من الحصول على إجازة، فوعـده ويسـلي بـأن يقـدّم يـد المسـاعدة لزوجـة رفيقـه». ضـحكت روث وأضـافت، «عندها، بدأت أقول لنفسي لعلّه ليس أكبر حمار. وأمضينا أنا وويسلي سنوات جميلـة معاً».

«متى مات؟»

«عندما كان إديسون في السابعة من عمره».

لا يمكنني أن أتخيّل أنّني أفقد ميكا. لا أستطيع أن أتخيّل أن أربّي فيوليت وحدي. أدركت أنّ ما فعلته روث في حياتها أكثر شـجاعة مـن أيّ شيء آخـر فعلتـه في حياتهـا. قلت لها: «أنا آسفة».

تنهّدت روث، وقالت: «وأنا أيضاً، لكنّـك تتعلّمـين كيـف تواصـلين الحيـاة، لأنّـه لا يوجد أمامك خيار آخر؟» التفتت إليَّ، وقالـت: «علّمتنـي أمّـي ذلـك، وقـد أجـد ذلـك مطرّزاً على وسادة».

«بأحرف برّاقة»، قلت لها ونحن نسير عبر أبواب المخزن.

حدّثتني روث عن سام هالويل الذي قرع اسمه جرساً باهتـاً في رأسي، وكيـف أنّ أمّها تعمل عاملة منزليّـة في منزلـه منـذ خمسـين سـنة تقريبـاً.

وحدّثتني عن كريستينا التي أعطتها أول رشفة غير مشروعة من البراندي وهي في الثانية عشرة من عمرها، وحكت لي أيضاً كيف أنّ كريستينا حاولت أن تعطيها نقوداً. فقلت لها: «إنّها تبدو فظيعة».

فكّرت روث قليلاً، وقالت: «لا، إنّها ليست فظيعة. هذا ما تعرفه فقط. لم تتعلّم في حياتها طريقة أخرى».

سرنا عبر الممرَّات، نتبادل القصص. قالت إنَّها كانت ترغب في أن تصبح عالمة أنثروبولوجيا، حتّى إنّها درست لوسي أسترالوبيثكس: كم امرأة من إثيوبيا تعرفين اسمها لوسي؟ حكيت لها كيف انفجرت ماء الرأس في أثناء المحاكمة، ولم يؤجّل القاضي الحقير الجلسة. حكت لي عن أديسا التي أقنعتها عندما كانت في الخامسة من عمرها أنّ السبب في أنَّ لون روث فاتح لأنها تصبح شبحاً، وأنها ولدت سوداء مثل حبّة توت، لكنّ سوادها يخفت شيئاً فشيئاً. حدّثتها عن وكيلتي التي خبأتها في قبو منزلي لمدة ثلاثة أسابيع لأنها كانت متيقنة من أنَّ زوجها سيقتلها. وحدّثتني عن رجل قال لصديقته، وهي في أثناء المخاض، إنَّها يجب أن تزيل شعرها بالشمع، واعترفت لها أنّني لم أرَ أبي الموجود حالياً في مؤسّسة لمرضى الزهايمر منذ أكثر من سنة، لأنّني حزنت كثيراً عندما زرته آخر مرة، ولم أنسَ تلك الزيارة لشهور عدّة. واعترفت روث بأنَّ السير في الحيّ الذي تقيم فيه أديسا يثير فزعها.

شعرت بجوع شديد، فاشتريت علبة من ذرة الكراميل من إحدى الواجهات وفتحتها ونحن نتحدَّث، ووجدت روث تحدّق إلى وجهي، وسألتني: «ماذا تفعلين؟»

«آكل؟» قلت، وفمي ممتلئ بالفشار، «تفضّلي. إنّي أحبّه كثيراً»

«لكنَّك لم تدفعي ثمنه بعد».

نظرت إليها كما لو كانت مجنونة، «طبعاً سأدفع ثمنه عندما نخرج. ما المشكلة؟

«أقصد...»

لكن، قبل أن تجيب، قاطعتنا موظفة وسألت روث وهي تنظر إليها مباشرة: «هل يمكنني أن أساعدك في إيجاد شيء؟»

فقالت روث: «إنّنا نستعرض الأشياء».

ابتسمت المرأة لكنَّها لم تتركنا، وراحت تتبعنا حيثما ذهبنا من مسافة قصيرة مثل لعبة طفل تُسحب بخيط. إمَّا أنّ روث لم تلحظها وإمّا أنّها أرادت ألّا تلحظها. اقترحت عليها أن تأخذ قفّازات أو وشاحاً شتوياً جميلاً، فقالت روث إنّ لدى أمّها وشاحاً قديماً يجلب لها الحظّ، ولن تقبل أن تستبدله بوشاح آخر. واصلنا الحديث ونحن نبحث حتّى وجدنا قسماً لأقراص فيديو دي في دي بأسعار مخفَّضة في الطابق السفليّ. «قد يكون هذا ممتعاً. يمكنني أن أختار مجموعة كاملة من مسلسلاتها المتلفزة المفضَّلة»، وراحت تبحث في صناديق أقراص الدي في دي، فاختارت أفلام (الجرس)، و(منزل كامل) و(بافي القاتل مصّاص الدماء).

مددتُ يدي إلى أسفل الصندوق وأخرجت شريط (عرض كوسبي). فكّرت في أن أريه لروث، لكنّي أخفيته تحت علبة شريط (ملفات إكس)، لأنّني خشيت أن تظنّ أنّني اخترت هذا الشريط بسبب لون بشرتهما؟ لكنّ روث خطفته من يدي، وسألتني: «هل شاهدتِ هذا عندما كان يُعرض عبر التلفاز؟»

فقلت: «طبعاً. ألم يشاهده الجميع؟»

«أظنّ كان ذلك هو الهدف. فإذا جعلت الأسرة الأكثر وظيفيّة تجتمع حول التلفاز لمشاهدة شخص أسود، فربّما لن ينتاب البيض الشعور بالرعب عينه».

«لا أعرف أنّني سأستخدم كلمتَيْ كوسبي والوظيفيّة في الجملة نفسها هذه الأيام»، قلت لها عندما توجّهت نحونا الموظّفة في تي جي ماكس.

«هل كلّ شيء على ما يرام؟»

«نعم»، قلت لها بانزعاج، «سنعلمك إذا ما احتجنا إلى مساعدة». ثمَّ اختارت روث شريط المسلسل المتلفز ER، لأنّ أمّها تحبّ جورج كلوني، بالإضافة إلى قفّازَي خيط على حوافهما فرو أرنب حقيقيّ. اخترتُ بيجامة لفيوليت ومجموعة من القمصان الداخلية لميكا. لَـمَّا توجَّهنا إلى صندوق الدفع، كانت الموظفة تتبعنا. دفعتُ أولاً، وأعطيت أمينة الصندوق بطاقتي الائتمانية، ثمّ انتظرت ريثما تنتهي روث من دفع ثمن الأشياء التي اشترتها.

«هل لديك هوية شخصيّة؟» سألتها الكاشير. فأخرجت روث رخصتها وبطاقة الضمان الاجتماعيّ. نظرت إليها الكاشير، ثمّ إلى الصورة في الرخصة، ومرّرت الأغراض.

في طريقنا للخروج، أوقفنا حارس أمن، وقال لروث: «سيّدتي، هل يمكنني أن أرى إيصال مشترياتك؟»

بدأتُ أبحث في حقيبتي عن إيصالي أيضاً، لكنَّه لوّح لي بيده ألّا أفعل ذلك، وقال: «أنتِ كما يجب»، وعاد ووجّه انتباهه إلى روث، وراح يطابق محتويات الحقيبة مع الإيصال.

هنا، أدركت لماذا أرادت روث أن أرافقها لأساعدها في اختيار هدية لأمّها.

لقد أرادت أن أرافقها كي أتفهَّم مشاعرها.

تتبّع الموظفة لنا خشية أن تحدث سرقة، وحرص الكاشير.

الحقيقة هي أنه من بين عشرات الأشخاص الذين غادروا تي جي ماكس في ذلك الوقت، كانت روث المرأة الوحيدة التي فُتشت حقيبتها.

شعرت بخدَّيَّ يلتهبان - محرجة بالنيابة عن روث، محرجة لأنَّني لم أكن أدرك ما الذي كان يحدث حتّى عندما كان يحدث. لَـمَّا أعاد حارس الأمن الحقيبة إلى روث، غادرنا المخزن، وجرينا تحت المطر الدافئ إلى سيّارتي.

جلسنا في السيارة نلهث مبلَّلين بالمطر الذي شكَّل حاجزاً بيننا وبين العالم. قلت لها: «فهمت».

نظرت روث إليَّ، وأجابت بلطف: «لم تبدئي في فهم الأمر جيّداً بعد».

قلت لها: «لكنّك لم تقولي شيئاً. هل اعتدتِ ذلك؟»

«لا أتصوّر أنَّك تعتادين ذلك. لكنّك تبدئين تعرفين كيف تتركين الأمر يمرّ».

سمعت كلماتها عن كريستينا يتردَّد صداها في رأسي: لم تتعلَّم قطّ طريقة أخرى للوجود.

التقت أعيننا. «اعتراف حقيقيّ؟ كانت أدنى درجة حصلت عليها في الجامعة هي فصل تاريخ السود. كنت الفتاة البيضاء الوحيدة في الفصل. كان أدائي جيّداً في الامتحانات الأخرى، لكنّ نصف الدرجات كانت تُمنح لحضور الدروس والمشاركة فيها، لكنّي لم أفتح فمي قطّ في أثناء الفصل الدراسيّ كلّه، لأنّني أعرف أنّني إذا قلت شيئاً، فإنّني سأقول أشياء مغلوطة، أو أشياء غبيَّة تجعلني أبدو متحيّزة».

صمتت روث للحظة، وقالت: «اعتراف حقيقيّ؟ إنّ السبب الذي جعلنا لا نتحدّث عن العِرق هو أنّنا لا نتحدَّث لغة مشتركة».

جلسنا بضع لحظات ننصت إلى صوت هطول المطر. «اعتراف حقيقيّ؟ لم أكن أحبّ برنامج كوسبي شو عبر التلفاز».

«اعتراف حقيقيّ؟» ابتسمت روث، «ولا أنا».

طوال شهر كانون الأول (ديسمبر)، ضاعفتُ جهودي لأشحذ أفكاري، أكتب مرافعات ما قبل المحاكمة. القضايا الثلاثون الأخرى التي تزاحم قضيّة روث للحظة في اهتمامي. بعد الغداء، كان من المفترض أن تدلي فتاة في الثالثة والعشرين من عمرها ضربها صديقها عندما اكتشف أنّها نامت مع أخيه بشهادتها، لكنَّ سيّارة الشاهدة اصطدمت بسيارة وهي قادمة على الطريق فاضطررنا إلى تأجيل الجلسة، وأصبح لديَّ ساعتان من الوقت. رحت

أنظر إلى أكوام الملفّات والأوراق المحيطة بمكتبي ثمّ اتّخذت قراراً سريعاً. نظرت من فوق حافة مقصورتي إلى حيث يجلس هوارد، وقلت له: «إذا سأل أحد عنّي، فقل له إنّني خرجت لأشتري سدادات قطنيّة».

«انتظري، حقاً؟»

«لا. لكنّهم سيشعرون بالحرج، ولن يبحثوا عنّي».

كان الجوّ دافئاً على نحو غير معتاد – نحو خمسين درجة فهرنهايت. أعرف أنّه عندما يكون الطقس لطيفاً، تأخذ أمّي فيوليت عادة من المدرسة وتذهبان إلى ملعب الأطفال. تتناولان وجبة خفيفة - تفّاح ومكسَّرات - ثمّ تلعب فيوليت قليلاً، ثمّ تعودان إلى المنزل. لكنّي رأيت فيوليت معلّقة من رأسها من قضبان الألعاب، وتنورتها تلامس ذقنها. لَمَّا رأتني صاحت: «ماما»، وبالرشاقة التي لا بدَّ أنّها ورثتها من جينات ميكا، قفزت إلى الأرض وجرت نحوي.

لَمّا رفعتها بين ذراعيَّ، استدارت أمّي الجالسة على مقعد الحديقة، وقالت: «هل طردوك من العمل؟»

رفعت جبيني، وقلت: «هل هذا حقاً أول شيء يخطر في بالك؟»

«حسناً، آخر مرّة جئتِ فيها في منتصف النهار فجأة كانت، كما أظنّ، عندما توفّي والد ميكا».

«ماما»، صاحت فيوليت، «صنعتُ لك هدية عيد الميلاد في المدرسة، قلادة تستطيع الطيور أن تأكلها أيضاً». لَمَّا بدأت تتلوّى بين ذراعيَّ، أنزلتها إلى الأرض فجرت تلعب.

ربَّتت أمّي على المقعد إلى جانبها. كانت ترتدي ثياباً سميكة مع أنَّ الطقس دافئ، وقد وضعت على حضنها قارئاً إلكترونيّاً، وإلى جانبها علبة صغيرة فيها شرائح تفّاح ومكسّرات مختلطة، وقالت: «إذاً، إذا كنت لا تزالين تحتفظين بوظيفتك، فما سبب هذه الزيارة المفاجئة؟»

«حادث سيّارة – لم يقع لي»، قلت ووضعت حفنة من المكسّرات في فمي، ثمّ سألتها: «ماذا تقرئين؟»

«لماذا يا حبيبتي، فأنا لا أقرأ قطّ عندما تلعب حفيدتي على الألعاب لأنّني لا أبعد عينيَّ عنها أبداً».

التفت نحوها، وسألتها: «ماذا تقرئين؟»

فقالت: «لا أتذكّر الاسم. شيء عن دوقة مصابة بالسرطان ومصّاص دماء يعرض عليها أن يجعلها خالدة. يبدو أنّها (الرواية) تنتمي إلى نوع أدبيّ يدعى الأدب المريض. إنّها لنادي الكتاب».

«من اختاره؟»

«لم أختره أنا. فأنا لا أختار الكتب. أنا أقطف العنب فقط».

فقلت لها: «كان آخر كتاب قرأته الكلّ يتغوَّط، لذلك لا أظنّ أنّني أستطيع أن أحكم عليه».

ملت إلى الوراء، وأدرتُ وجهي نحو شمس المساء. ربَّتت أمّي على حجرها، وتمدّدتُ على المقعد. مسَّدت شعري كما كانت تفعل عندما كنت في عمر فيوليت. «هل تعرفين أصعب شيء في أن تكوني أمّاً؟» قلت بتكاسل: «هو أنّه لم يعد لديك وقت لتكوني طفلة».

فأجابت أمّي: «لن تحصلي على الوقت أبداً. وقبل أن تعرفي ذلك، تكبر ابنتك الصغيرة لتنقذ العالم».

«الآن تستمتع بحشو وجهها»، قلت، ومددت يدي لأحصل على مزيد من المكسّرات. ما إن وضعت واحدة بين شفتيّ حتّى بصقتها على الفور، وقلت: «يا إلهي! أنا أكره الجوز البرازيليّ».

«لماذا؟» سألت أمّي.

فقلت: «طعمه يشبه رائحة القدمين. إنَّه أسوأ أنواع المكسّرات التي لا يحبّها أحد».

تذكّرت فجأة عندما كنت في عمر فيوليت تقريباً، وذهبت إلى بيت جدّتي لتناول عشاء عيد الشكر. كان البيت ممتلئاً بعمّاتي وأعمامي وأبناء عمومتي. كنت أحبّ فطيرة البطاطا الحلوة التي تصنعها، والمفارش التي تمدّها فوق قطع الأثاث في بيتها، التي تكون كلّها مختلفة، مثل رقائق الثلج. لكنّني كنت أبذل كلّ ما في وسعي لأتفادى العمّ ليون، شقيق جدّي، الذي كان صاخباً جدّاً، يسكر كثيراً، والذي يبدو دائماً أنه يقبّلك على شفتيك وهو يوجّه شفتيه إلى خدّك. كانت جدّتي تضع صحناً كبيراً من المكسّرات، وكان العمّ ليون يكسر البندق بالكسّارة ويقدّمها للأطفال: الجوز والبندق والكاجو واللوز والمكسّرات البرازيليّة، لكنّه لم يقل قطّ إنّ اسمه بندق برازيليّ. كان يرفع قشرة جوز بنيّة طويلة مجعّدة، ويقول: «أصابع زنجيّ للبيع. من يريد إصبع قدم زنجيّ؟»

«هل تتذكّرين العمّ ليون؟» سألتها فجأة، واعتدلت في جلستي، وسألتها: «ماذا كان يسمّيها؟»

تنهّدت أمّي، وقالت: «نعم. كان العمّ ليون شخصيّة غريبة».

في ذلك الوقت، لم أكن أعرف ما الذي تعنيه كلمة «زنجيّ». كنت أضحك كالآخرين. «كيف تصادف أنَّه لم يقل له أحد شيئاً في ذلك الوقت؟ كيف لم يسكته أحد؟»

نظرت أمّي إليَّ باستياء، وقالت: «لم يكن ذلك سيغيّر شيئاً في ليون».

«لو لم يكن لديه جمهور يستمع إليه»، قلت، وأومأت نحو صندوق الرمل حيث تقف فيوليت إلى جانب فتاة سوداء صغيرة، تُبعدان الرمل بعصا، وأضفت: «ماذا لو كرّرت ما كان يقوله ليون لأنّها لا تعرف أفضل من ذلك؟ كيف كان سيبدو الأمر في رأيك؟»

فقالت أمّي: «لم تكن ولاية نورث كارولينا آنذاك كما هي الآن».

«ربَّما لم يكن الأمر سيكون على هذا النحو لو توقَّف أشخاص مثلك عن تقديم الأعذار».

انزعجت عندما غادرت الكلمات فمي لأنّني أعرف أنّني ألوم أمّي في الوقت الذي ألوم فيه نفسي. فمن الناحية القانونية، مازلت أعرف أنَّ أفضل مسار لروث هو تجنّب أيّ نقاش يتعلّق بالعِرق، لكنّي أجد صعوبة في التوفيق بين الأمرين من الناحية الأخلاقيَّة. ماذا لو كان سبب رفضي السريع لعدم إثارة موضوع العِرق في قضيّة روث هو أنّ نظامنا القضائيَّ لا يتحمّل هذا العبء؟ أو لأنّني ولدت في أسرة كانت النكات فيها عن السود تعدُّ من تقاليد الأعياد مثل السجق والخزف الصينيّ؟ لقد نشأت أمّي مع امرأة تشبه أمّ روث في المنزل – تطبخ، وتنظّف، وتوصلها إلى المدرسة، وتأخذها إلى ملاعب كما تفعل مع فيوليت الآن.

لبثت أمّي صامتة لفترة طويلة حتَّى عرفتُ أنّني أسأت إليها، ثمَّ قالت: «في عام 1954، لَمَّا كنت في التاسعة من عمري، قضت المحكمة بأنّ خمسة أطفال سود سيلتحقون بمدرستي. أتذكّر صبياً في فصلي الدراسيّ قال إنّ لدى هؤلاء الصبية قروناً مخبَّأة في شعرهم المجعَّد، وحذّرتنا معلّمتي من أنَّهم قد يحاولون سرقة النقود التي سنشتري بها طعام الغداء»، ثمَّ التفتت إليّ، وأضافت: «قبل أن يصلوا إلى المدرسة بليلة واحدة، عقد أبي اجتماعاً. كان العمّ ليون موجوداً. تحدّثوا كيف يمكن أن يتعرّض الأطفال البيض للتنمُّر، وستحدث مشكلات للسيطرة على الفصل، لأنّ هؤلاء الأطفال لا يعرفون كيف يتصرَّفون. استشاط العمّ ليون غضباً، وامتقع وجهه، وفاحت منه رائحة عرق قويّة. قال إنّه لا يريد أن تكون ابنته فأرة تجارب، وقرّروا الاعتصام خارج المدرسة في اليوم التالي ليمنعوا الصبية السود من دخول المدرسة مع أنّهم كانوا يعرفون أنّ رجال الشّرطة سيكونون هناك. وأقسم أبي إنَّه لن يبيع للقاضي هوثورن سيّارة مرّة أخرى».

بدأت أمّي تجمع المكسّرات وحبَّات التفّاح وتضعها في العلبـة، ثـمّ قالـت: «كانـت بيتي، خادمتنا، موجودة في تلك الليلة أيضاً، تقـدّم لنـا عصـير الليمـون والكعـك الـذي خبزته عصر ذلك اليوم. وفي منتصف الاجـتماع، مللـت ودخلـت المطـبخ حيـث رأيتهـا تبكي. لم أرَ بيتي تبكي قطّ من قبل. قالت إنّ ابنها الصغير أحد أولئك التلاميذ الخمسـة الذين سيأتون إلى المدرسة». هزَّت أمّي رأسها، وأضافت: «لم أكن أعرف أنَّ لديها صـبيّاً صغيراً. فقد كانت بيتي تعمل في بيت أسرتي من قبل أن أمشي أو أتكلَّم، ولم يخطـر في بالي قطّ أنَّها يمكن أن تنتمي إلى أحد غيرنا».

سألتها: «وماذا حدث؟»

جاء هؤلاء الصبية إلى المدرسة. أدخلهم رجـال الشرطـة المدرسـة، ونعـتهم الصـبية الآخرون بأسماء شنيعة. بصق أحدهم عـلى أحـد الصـبية. أتـذكّره لأنّـه كـان يمشي إلى جانبي، وسال اللعاب على ياقته البيضـاء، وتسـاءلت إن كـان هـو ابـن بيتـي». هـزّت كتفيها، ومضت تقول: «في النهاية، جاء عدد آخر منهم، لكنّهم ظلّوا معـزولين، يـأكلون وحدهم عند الغداء، ويلعبون معاً في فترة الاستراحة، وبقينا نحن وحدنا. لا أستطيع أن أقول إنّه كان نوعاً من إلغاء التمييز العنصريّ».

أومأت أمّي برأسها نحو فيوليت وصديقتها الصغيرة، وهما تنثران قطع الطين فـوق العشب، ثمَّ أضافت: «استمرَّ ذلك لفترة أطول بكثير من أيّ منّا يا كينيدي. من المكـان الذي نشأت فيه، في حياتك، يبدو أنّه لا تزال أمامنا أميال علينا أن نقطعهـا. أمّـا أنـا؟» ابتسمت للفتاتين، «فأنظر إلى ذلك، وأُدهش كم قطعنا من شوط».

بعد عيدَي الميلاد ورأس السنة الجديدة، عملت عمـل محـاميين اثنـين، حرفيّاً، لأنّ إد ذهـب في إجـازة مـع أسرتـه في كوزوميـل. وقـد مثّلـت أحـد موكّلي إد في المحكمة، الذي انتهك أمراً تقييدياً، فقرَّرت أن أدقّق في جدول

المحكمة لأعرف من هو القاضي الذي سيُكلّف بقضيّة روث. تتمثّل إحدى وسائل التسلية الأنموذجيّة للمحامين في البحث عن تفاصيل حياة القضاة الشخصيّة - من هنَّ زوجاتهم؟ وهل هم أغنياء؟ وهل يرتادون الكنيسة يوم الأحد أو في أثناء الإجازات؟ وهل هم أغبى من كيس ممتلئ بالمطارق؟ وهل يحبّون مشاهدة المسرحيّات الغنائيّة؟ وهل يخرجون مع محامين خارج أوقات الدوام ويشربون؟... نخزّن هذه الحقائق والشائعات مثل السناجب التي تخزّن الجوز لفصل الشتاء، فعندما نرى من هو القاضي الذي يُعيَّن في قضيتنا، يمكننا أن نُخرج التفاصيل الدقيقة ونعرف إن كانت لدينا فرصة جيّدة لربح القضيّة.

لَمَّا رأيت من هو القاضي، غاص قلبي في أضلاعي.

إنَّ القاضي ثاندر يرقى إلى مستوى اسمه الذي يعني «الرعد». فهو القاضي الذي يحكم بالإعدام، ويحكم مسبقاً على القضايا، وإذا أُدنت، فإنّك ستمضي فترة طويلة جداً في السجن. لا أعرف ذلك من الأقاويل، وإنّما من التجربة الشخصيّة.

قبل أن أصبح محامية دفاع عامّ، لَمَّا كنت أعمل كاتبة لدى قاض فيدراليّ، تورَّط أحد زملائي في قضيّة أخلاقيّة شملت تضارباً في المصالح مع عمله السابق في شركة محاماة. كنت جزءاً من الفريق الذي يمثّله، وبعد سنوات من بناء القضيّة، ذهبنا إلى المحاكمة التي ترأسها القاضي ثاندر، الذي كان يكره أنواع السيرك الإعلاميّ. ومع أنّه كانت لدينا قضيّة محكمة، فقد أراد ثاندر أن يشكّل سابقة للمحامين الآخرين، فأدين زميلي وحُكم عليه بالسجن لمدّة ستّ سنوات. وإذا لم يكن ذلك صادماً إلى درجة كافية، فقد التفت القاضي إلينا، نحن الذين كنّا في فريق الدفاع، وقال موبّخاً: «يجب أن تخجلوا من أنفسكم. فقد خدعكم السيّد ديني كلّكم. لكنّه لم يخدع هذه المحكمة». كانت تلك القشّة الأخيرة بالنسبة إليَّ، فقد كنت أحرق الشمعة من كلا الطرفين، وأعمل طوال أسبوع تقريباً من دون أن

أعـرف النـوم. كنـت مريضـة مثـل كلـب، أتنـاول أدويـة الزكـام وجرعـات كبـيرة مـن البريدنيزون، مرهقة ومُحبطة بعد أن خسرت القضيّة - لذلك، ربّما لم يكـن في وسـعي التفكير بجلاء في تلك اللحظة.

ربّما قلت للقاضي ثاندر أن يلعق قضيبي.

ما أعقب ذلك أن عُقـد اجـتماع توسَّـلتُ خلالـه ألّا تُشـطب عضـويتي مـن نقابـة المحامين، وأكّدت للقاضي أنّه لا يوجد لديّ في الواقع عضو ذكري، وأنّني قلت، يـا لهـذا السحر! لأنّني أُعجبت كثيراً بالحكم الذي أصدره.

كانت لديَّ قضيّتان أمام القاضي ثاندر منذ ذلك الحين، وخسرتهما كلتيهما.

عزمت على ألّا أخبر روث عن تاريخي مع القاضي، فقد تكون المـرّة الثالثـة بمنزلـة مصيبة.

زررت أزرار معطفي، وتأهَّبت لمغادرة قاعة المحكمة، ورحت أحدّث نفسي حـديثاً مشجعاً صـامتاً طـوال الطريـق، إذ لـن أدع أيَّ إزعـاج، مهـما كـان صـغيراً، أن يـؤثّر في القضيّة التي سأتصدّى لها، ولا سيَّما أنَّ المحكمة ستختار هيئة محلّفين الشهر المقبل.

لَمَّا خرجتُ من المبنى، تناهى إليَّ صوت موسيقا كنسيَّة.

في شارع نيو هافن غرين، رأيتُ بحراً من الأشخاص السـود، شـابكين أيـديهم معـاً، أصواتهم تملأ السماء بانسجام: سننتصر، وهم يرفعون لافتات كتب عليها اسم روث.

في المقدّمة، رأيت والاس ميرسي يهتف بحماس، تقف إلى جانبه أديسا، أخت روث.

عند اقتراب انتهاء نوبتي في ماكدونالدز، بدأت أشعر بألم في قـدميَّ وظهـري. ومـع أنَّني عملت سـاعات إضـافيَّة كثـيرة، كـان عيـد المـيلاد كئيبـاً وهـزيلاً، أمضى إديسـون معظمه متجهّماً متقلّب المزاج، ولَمَّا عاد إلى المدرسة في الأسبوع التالي، طرأ عليه تحوّل مزلزل – فلم يعد يكلّمني إلّا قليلاً، وأصبح يردّ على أسـئلتي بوقاحـة، ولم يعـد يـؤدّي واجباته المدرسيّة على طاولة المطبخ، وبـدأ يختفـي في غرفتـه ويفـتح جهـاز التسـجيل بأعلى صوت على أغاني دريك وكيندريك لامار، ولم يعد هاتفه يتوقّف عن الرنين معلنـاً عن تسلّمه رسائل نصيَّة، وعندما كنت أسأله من الذي يرسل إليه كـلّ هـذه الرسـائل، يقول: «إنَّه شخص لا أعرفه». لم أعد أتلقّى مكالمات من المدير، أو رسائل إلكترونيَّة من أساتذته يقولون لي فيها إنّه متقاعس في دراسته، لكنَّ هذا لا يعني أنَّني لم أكن أتوقَّـع أن يحدث لي.

إذاً، ما الذي يجب فعله؟ كيف يمكنني أن أشجّع ابني عـلى أن يكـون أفضـل مـمّا يتوقّعه معظم الناس؟ كيف يمكنني أن أقول له إنّك تستطيع أن تصبح أيّ شيء تطمح إليه في هذا العالم – فمع أنّني عملت واجتهدت كثيراً في دراستي وتفوَّقت، ها أنـا ذي أُحاكم على جريمة لم أقترفها؟ وكلّما تحدَّثنا في هذا الأمر، أنا وإديسون، في هـذه الأيـام، رأيت ذاك التحدّي في عينيه، كأنّه يقول لي أتحـدّاك. أتحـدَّاك أن تقـولي إنـك لا تـزالين تؤمنين بهذه الكذبة.

لَمَّا أنهيت عملي ورأيت سـتّ مكالمـات هاتفيَّـة فائتـة مـن كينيـدي، ازداد يـومي سوءاً، فاتصلت بها مباشرة. «ظننت أنَّك وافقتِ على أنَّ العمل مع والاس ميرسي فكـرة سيّئة»، قالت من دون أن ترحّب بي.

«ماذا؟ نعم وافقت، وأوافق».

«إذاً، أنت لا تعرفين أنّه قاد مسيرة لأجلك اليوم أمام مبنى المحكمة؟»

توقّفت في مكاني، وتركت المشاة يدورون من حولي، وقلت: «لا بدَّ أنَّك تمزحين يا كينيدي، فأنا لم أكلّم والاس».

«كانت أختك معه كتفاً بكتف».

حسناً، حُلَّ اللغز. قلت لها: «تريد أديسا أن تفعل ما تشاء».

«ألا تستطيعين أن توقفيها؟»

«أحاول ذلك منذ أربع وأربعين سنة لكنّي لم أنجح بعد».

فقالت كينيدي: «ابذلي جهداً أكبر معها».

ركبت الحافلة وذهبت إلى شقّة أختي، بدلاً من أن أعود إلى بيتي مباشرة. لَمَّا دعتني ابنتها دونتي للدخول، رأيت أديسا جالسة على الأريكة تلعب لعبة كاندي كراش على هاتفها، مع أنّ الوقت يقارب موعد العشاء.

«حسناً، ها قد جاءت القطّة المخدّرة»، قالت، «أين كنت؟»

«كنت مشغولة جداً منذ رأس السنة الجديدة، بين العمل ومتابعة أمور المحاكمة، لم أحظَ بدقيقة واحدة».

«زرتك في ذلك اليوم، هل أخبرك إديسون؟»

أنزلت قدميها من على الأريكة لتفسح لي مكاناً لأجلس إلى جانبها.

قلت لها: «جئتِ لتقولي لي إنّ والاس ميرسي أصبح أعزّ صديق لك؟»

لمعت عينا أديسا، وقالت: «هل رأيتِني في نشرة الأخبار اليوم؟ لم تظهر صورتي كاملة. فقط من مرفقي حتّى رقبتي، لكن تستطيعين أن تعرفيني من المعطف ذي الياقة المنقّطة...»

فقلت لها: «أريد أن تتوقّفي عن ذلك، فأنا لست في حاجة إلى والاس ميرسي».

«هل محاميتك البيضاء هي التي قالت لك ذلك؟»

تنهّدت وقلت: «أديسا، لم أشأ قطّ أن أكون طفلة أحد يرفع صوري».

«حتّى إنّك لم تمنحي القسّ ميرسي فرصة. هل تعرفين كم شخصاً مرّوا في تجارب مثل تجربتك؟ كم مرّة قيل لهم لا بسبب لون بشرتهم؟ إنّها أكبر من قصّتك، وإذا كان هناك شيء جيّد يمكنه أن يُظهر ما حدث لك، فلماذا لا تدعينه يفعل ذلك؟» اعتدلت أديسا في جلستها، وأضافت: «كلّ ما يريده أن تمنحيه فرصة لأن يجلس معنا يا روث في مقابلة عبر التلفزة الوطنيّة».

دقَّت أجراس الإنذار في رأسي، وكرّرت: «نحن».

أشاحت أديسا بعينيها بعيداً، وقالت: «حسناً، قلت إنّني قد أتمكّن من تغيير رأيك».

«إذاً، هذا لا يتعلَّق حتّى بمساعدتي في أن أستمرَّ، وإنّما لتحصلي على شيء من التقدير. يا إلهي يا أديسا! هذا مستوى متدنّ جديد، حتّى بالنسبة إليك».

«ماذا يعني ذلك؟» نهضت ووقفت على قدميها، وراحت تحدّق إلى وجهي، مسندة يديها على وركيها، «هل تظنين حقاً أنّه يمكنني أن أستخدم أختي الصغيرة بهذه الطريقة؟»

قلت لها متحدّية: «ستقفين هنا وأنتِ مبلَّلة حتّى العظم، وتقولين لي إنّها لا تمطر؟»

قبل أن تجيبني، سمعنا صوت ارتطام عال عندما سقط باب من مفصلاته وارتطم بالحائط. خرج ابنها تاباري من إحدى غرف النوم مع صديقه، وهو يضحك. كانا في غاية الحماس، يتكلّمان بصوت مرتفع، يرتديان بنطلونين مسحوبين إلى أسفل جداً. لا أعرف لماذا يكلّفون أنفسهم عناء ارتدائها! كلّ ما يمكنني أن أفكّر فيه هو أنّني لن أدع إديسون يخرج من المنزل بهذه الهيئة.

لَمَّا استدار صديق تاباري، أدركت أنّه ابني. «إديسون؟»

«أليس هذا رائعاً»، قالت أديسا وهي تبتسم، «ابنا خالة يمضيان الوقت معاً؟»

«ماذا تفعلين هنا؟» قال إديسون بنبرة جعلتني أعرف أنّها لم تكن مفاجأة سارَّة له.

«ألا توجد لديك واجبات مدرسيّة يجب أن تنجزها؟»

«أنجزتها».

«وطلبات التقديم إلى الجامعة؟»

نظر إليَّ، وقال: «لا يزال هناك وقت حتّى نهاية الأسبوع».

«لا؟»

«ما المشكلة؟» سألني، «تقولين لي دائماً إنّ الأسرة مهمّة»ـ قال ذلك كما لو كانت هذه الكلمة شتيمة.

«إلى أين ستذهب أنت وتاباري بالتحديد؟»

رفع تاباري عينيه وقال: «إلى السينما يا خالتي».

«السينما» كالجحيم، قلت لنفسي، «ما الفيلم الذي ستشاهدانه؟»

تبادل هو وإديسون نظراتهما وضحكا، وقال تاباري: «سنختار فيلماً عندما نصل إلى هناك».

تقدّمت أديسا بضع خطوات، شابكة ذراعيها، وقالت: «هل لديك مشكلة في ذلك يا روث؟»

«نعم. نعم لديَّ»، انفجرت فيها، «لأنّني أظنّ أنّ ابنك سيأخذ إديسون إلى جانب ملعب كرة السلة ليدخّنا الحشيش، ولن يذهبا لمشاهدة الفيلم المرشَّح للأوسكار».

أرخت أختي فمها، وقالت بازدراء: «تحكمين على أسرتي، في حين أنت تُحاكمين بتهمة ارتكاب جريمة قتل؟»

أمسكتُ بذراع إديسون، وقلت: «ستأتي معي»، ثـم التفـتُّ إلى أديسـا وقلـت لهـا: «استمتعي بإجراء مقابلتك مع والاس ميرسي. لكن احرصي على أن تقولي له، وللجمهور العاشق، إنَّك وأختك لم تعودا في وفاق، ولم تعد إحداكما تكلّم الأخرى».

ثمَّ دفعتُ ابني خارج منزلها، ونزعت من عـلى رأسـه تلـك القبَّعـة عنـدما هبطنـا الدرج، وطلبت إليه أن يرفع بنطاله إلى خصره. لم يقل إديسون شـيئاً حتّـى أصبحنا في منتصف الطريق إلى موقف الحافلة، فقال: «أنا آسف».

أجبته: «من الأفضل أن تكون آسـفاً. هـل فقـدت عقلـك اللعـين؟ لم أربِّـك لتكـون هكذا».

«تاباري ليس سيئاً مثل أصدقائه».

بدأت أمشي، ولم أنظر إلى الوراء، ثمَّ قلت: «تاباري ليس ابني».

لَمَّا كنت حاملاً بإديسون، كان كلّ ما أعرفه هو أنّني لم أكن أريد أن تكون تجربـة ولادتي مثل تجربة ولادة أديسا - التـي ادّعـت أنهـا لم تـدرك أنّهـا حامـل حتّـى بلغـت شهرها السادس. أنجبت طفلها الأول، ثمَّ أنجبت طفلها الثاني عمليـاً في مـترو الأنفـاق. أمّا أنا، فكنت أريـد أن أحصـل عـلى أفضـل رعايـة يمكننـي أن أحصـل عليهـا، وأفضـل الأطبّاء. وبما أنّ ويسلي كان في الخدمة، فقد أشرفت أمّي على ولادتي. ولَمَّا اقترب وقت الولادة، استقللنا سيارة أجرة إلى مستشفى الرحمة - ويست هـافن، لأنّ أمّـي لا تجيـد قيادة السيّارة، ولم أكن أستطيع أن أقودها بـنفسي. كنـت قـد خطّطـت لأن ألـدَ ولادة طبيعيّة، لأنّنـي سـجَّلت هـذه اللحظـة في رأسي ألـف مـرّة بحسـباني ممرّضـة مخـاض وولادة، لكن مثل أيّ خطّة جرى التخطيط لها جيّـداً، لم تتحقّـق عـلى الوجـه الأكمـل. بينما أُخـذت إلى غرفـة العمليّـات لأجـري عمليّـة قيصريّـة، كانـت أمّـي تـردّد تـرانيم معمدانيَّة، ولَمَّا أفقتُ بعد العمليَّة، رأيتها تحمل ابني بين يديها.

«روث»، قالت لي، وعيناها ممتلئتان بالفخر، ولم أرَ لـون عينيهـا هكـذا مـن قبـل، «روث، انظري إلى ما خلقه اللـه لك».

لَمَّا أعطتني الطفل، أدركت فجأة أنّـه عـلى الـرّغم مـن أنّنـي كنـت قـد خطّطـت لولادتي الأولى بدقّة شديدة، لم أخطّط لثانية واحدة لما يمكن أن يحصل بعـد ذلـك، ولم تكن لديَّ أي فكرة حول كيف أكون أمّاً. كان ابني متيبّساً بـين ذراعـيَّ، ثـمَّ فـتح فمـه وبدأ يبكي، كما لو كان هذا العالم إهانة له.

مذعورة، نظرت إلى أمّي. كنتُ طالبة متفوّقة في المدرسة، لم أتخيّل قـطّ أنَّ هـذه - أكثر العلاقات طبيعيّة - ستجعلني أشعر بأنّني ضعيفة. لَمَّا هززت الطفل بـين ذراعـيَّ، بدأ يبكي بصوت أعلى، وراحت قدماه تركلان كما لو كان مسـافراً عـلى درَّاجـة خياليَّـة، ذراعاه تلوّحان، أصابعه الصغيرة مثنية ومتصلّبة. ثمّ ازداد صراخه حدّة، غضب تتخلّله عقدة صغيرة من الفواق، ثمّ احمرَّ خدّاه من الجهد الذي يبذله، لأنّـه كـان يحـاول أن يقول لي شيئاً لم أكن مستعدَّة لفهمه.

«ماما؟» قلت لها متوسّلة، «ماذا أفعل؟»

مددتُ ذراعيَّ إليها مع أمل أن تأخذه منّي وتهدِّئه، لكنّها لم تفعل شـيئاً سـوى أن هزَّت رأسها، وقالت: «قولي له من أنتِ بالنسبة إليـه»، ثـمّ خطـت خطـوة إلى الـوراء، كأنّها تريد أن تذكّرني بأنّني وحدي في هذا الأمر.

قرّبتُ وجهي من وجهه، وضغطت على عموده الفقـريّ تحـت قلبـي حيـث كـان قابعاً لأشهر عدَّة، وهمستُ له، «اسمك إديسون ويسلي جيفرسون. أنا أمّك، وسأمنحك أفضل حياة يمكنني أن أمنحك إيّاها».

رفَّ إديسون عينيه، ونظر إليَّ بعينيه الداكنتين، كما لو كنـت ظـلاً يجـب أن يميّـزه عن بقية هذا العالم الجديد الغريب. توقَّف عن البكاء مرّتين، قطار خرج عـن مسـاره، ثمَّ اصطدم بالصمت.

يمكنني أن أخبركم بالتحديد الدقيقة التي استرخى فيها ابنـي في محيطـه الجديـد. أعرف هذه التفاصيل جيداً لأنّها اللحظـة التـي فعلـتُ فيهـا الشيء نفسـه. «انظـري»، قالت أمّي من خلفي، من مكان خارج دائرتنا نحن الاثنين فقط، «لقد قلت لك ذلك».

بدأنا نلتقي أنا وكينيدي كلّ أسبوعين، حتى لـو لم تكـن هنـاك معلومـات جديـدة نتبادلها. كانت ترسل إليَّ أحياناً رسائل نصيّة، أو تأتي إلى ماكدونالـدز لتسـلّم علـيَّ. وفي إحدى تلك الزيارات، دعتنا أنا وإديسون إلى العشاء. قبل أن أذهب إلى منزل كينيـدي، غيّرتُ ثيابي ثلاث مرات حتّى قرع إديسون باب الحمّام أخيراً، وقال: «هل نحن ذاهبان لزيارة محاميتك، أو لزيارة الملكة؟»

إنَّه محقّ. لا أعرف لماذا كنت متوتِّرة هكذا، ماعدا أنّ ذلك يبدو أشبه بعبور خـطّ، لأنّ مجيئهـا إلى بيتـي لمراجعـة المعلومـات المتعلقـة بقضـيتي شيء، لكـن لـيس لهـذه الدعوة علاقة بها، إذ تبدو زيارة اجتماعيَّة.

ارتدى إديسون قميصاً وبنطالاً كاكي اللـون، وأنذرتـه بـأنّني سـأقتله إذا لم يـتصرَّف مثل الجنتلمان الذي أعرفه، أو أنّني سأضربه عندما نعود إلى البيت. لـَمَّا قرعنـا جـرس الباب، فتح لنا زوجها - اسمه ميكا - وقد اندسَّت فتاة صغيرة تحت ذراعه مثـل دميـة من القماش، وقال: «لا بدّ أنّك روث»، وأخذ طاقة الأزهار التي قدّمتها لـه، فصـافحني بحرارة، ثمَّ صافح إديسون. استدار في الاتجاه الآخـر، وقـال: «ابنتـي، فيوليـت، هنـا في مكان ما... كنت قد رأيتها منذ قليل... أنا متأكّد من أنّها تريد أن تسـلّم علـيكما». لـَمَّا استدار، دارت الفتاة الصغيرة حولـه، شـعرها يتطـاير، وقـد تسـاقطت ضـحكاتها عـلى قدمي مثل فقاعات.

انسلَّت من ذراع والدها، وجثوت على ركبتي. كانت فيوليـت مـاكواري نسخة مصغّرة عن أمّها، مع أنّها ترتـدي ثـوب الأمـيرة تيانـا. أعطيتهـا كـرة

زجاجية فيها أضواء بيض صغيرة، ولَمَّا ضغطتُ على الزرّ أضاءت كلّها، وقلت لها: «هذه لك. إنّها كرة زجاجية من قصص الحوريّات».

اتّسعت عينا فيوليت، وقالت: «واو». أخذتها وجرت.

نهضت وقلت لميكا: «وتتحوّل أيضاً إلى ضوء ليليّ رائع»، في اللحظة التي خرجت فيها كينيدي من المطبخ في بنطال جينز وكنزة ومريلة.

«لقد جئتِ»، قالت وارتسمت على وجهها ابتسامة، وبدت بقعة صلصة معكرونة على ذقنها.

فقلت: «نعم. لا بدَّ أنّني مررت من أمام بيتك مئة مرّة. لم أكن أعرف أنّك تقيمين هنا».

كنت سأظلّ لا أعرف لو لم أُتهم بجريمة القتل. أعرف أنها قالت لنفسها ذلك أيضاً، لكنَّ ميكا أنقذ اللحظة، وقال: «هل تشربين شيئاً؟ هل يمكنني أن أُحضر لك شيئاً يا روث؟ لدينا نبيذ وبيرة وجن وتونيك...»

«نبيذ من فضلك».

جلسنا في غرفة الجلوس. كان على الطربيزة صحن فيه جبن. «انظري إلى ذلك»، تمتم لي إديسون، «سلَّة ممتلئة بالبسكويت».

رمقته بنظرة حادّة في مقدورها أن تُسقط طائراً من السماء. «إنّه لطف كبير أن تدعواننا إلى منزلكما»، قلت بتهذيب.

فقالت كينيدي: «لا تشكريني بعد، فالعشاء مع طفلة في الرابعة من عمرها ليس تجربة جيدة على الطعام». ابتسمت فيوليت التي كانت تلوّن على الطرف الآخر من الطاولة. ثمّ أضافت: «بصراحة، لم نستضف زوّاراً كثيرين هذه الأيام».

«أتذكَّر عندما كان إديسون في ذلك العمر. إنّي متأكّدة أنّنا كنّا نتناول أنواعاً مختلفة من السباغيتي والجبن كلّ ليلة لمدّة سنة كاملة».

لفَّ ميكا ساقاً على ساق، وقال: «إديسون، قالت لي زوجتي إنّك طالب متفوّق».

نعم. لأنّني لم أذكر لكينيدي أنّه طُرد مؤقتاً من المدرسة مؤخّراً.

فأجابه إديسون: «شكراً لك سيّدي. أقدّم حالياً طلبات إلى جامعات عدَّة».

«أوه... هذا رائع. ماذا تريد أن تدرس؟»

«ربّما التاريخ، أو العلوم السياسيَّة».

هزَّ ميكا رأسه باهتمام، وسأله: «هل أنت من كبار المعجبين بأوباما؟»

لماذا يفترض البيض ذلك دائماً؟

فقال إديسون: «كنت صغيراً نوعاً ما عندما كان مرشّحاً للرئاسة، لكنّي شاركت أمّي في حملة رئاسة هيلاري عندما رشّحت نفسها ضدّه. أظنّ أنّني أصبحت حسّاساً تجاه القضايا العسكريّة بسبب أبي، وكان موقفها من حرب العراق منطقياً أكثر في ذلك الوقت. فقد كانت مؤيدة بصراحة للغزو، وكان أوباما معارضاً منذ البداية».

شعرت بفخر شديد. «حسناً»، قال ميكا منبهراً، «أتطلّع لأن أرى اسمك في قائمة المرشَّحين للرئاسة ذات يوم».

بدا أنَّ فيوليت شعرت بالملل من هذه الأحاديث، فخطت من فوق ساقي لتعطي إديسون قلم تلوين، وسألته: «هل تريد أن تلوّن؟»

فأجابها إديسون: «نعم»، وانحنى على ركبتيه، كتفاً بكتف مع ابنة كينيدي ليصل إلى دفتر التلوين. وبدأ يلوّن فستان سندريلا باللون الأخضر.

«لا»، قاطعته فيوليت، المستبدَّة الصغيرة، «يفترض أن يكون ذلك باللون الأزرق»، وأشارت إلى فستان سندريلا في دفتر التلوين، المخفي نصفه وراء راحة يد إديسون العريضة.

«فيوليت»، قالت لها كينيدي، «دعي ضيوفنا يتَّخذوا خياراتهم بأنفسهم، هل تتذكَّرين؟»

فأجابها إديسون: «لا بأس يا سيّدة ماكواري، لن أعبث بلون فستان سندريلا».

فأعطته الفتاة الصغيرة بزهو قلم التلوين الصحيح، الأزرق. حنى إديسون رأسه وبدأ يخربش من جديد.

«ستبدؤون اختيار هيئة المحلَّفين في الأسبوع المقبل؟» سألتها، «هل ينبغي لي أن أشعر بالقلق؟»

«لا. طبعاً لا. إنَّها مجرّد...»

«إديسون؟» سألته فيوليت، «هل هذا سلسال؟»

لمس القلادة التي أصبح يضعها منذ أن بدأ يرافق ابن خالته، وقال: «نعم، أظنّ ذلك».

فقالت له: «هذا يعني أنَّك عبد».

«فيوليت»، صاح ميكا وكينيدي اسمها في وقت واحد.

«يا إلهي! إديسون، روث. أنا آسفة جداً»، قالت كينيدي باندفاع، «لا أعرف من أين سمعت ذلك...»

«في المدرسة»، أجابت فيوليت، «قالت يوشيا لتايشا إنّ الأشخاص الذين يشبهونها كانوا يضعون سلاسل، وإنّ تاريخهم يقول إنّهم كانوا عبيداً».

فقال ميكا: «سنناقش ذلك لاحقاً. فيوليت إنّه ليس شيئاً يمكن أن نتحدَّث عنه الآن».

فقلت: «حسناً»، مع أنّني بدأت أشعر بعدم الارتياح في الغرفة، كما لو أنّ أحداً امتصّ كلّ الأكسجين منها. سألتها: «هل تعرفين ما هو العبد؟»

هزَّت فيوليت رأسها.

«تعني عندما يمتلك شخص شخصاً آخر».

رأيت أنّ الفتاة الصغيرة بدأت تقلّب ذلك في رأسها، وسألت: «مثل حيوان أليف؟»

وضعت كينيدي يدها على ذراعي، وقالت هامسة: «ينبغي لك ألّا تفعلي ذلك».

«ألا تظنين أنّه يجب أن أفعل ذلك، مرّة واحدة؟» ونظرتُ إلى ابنتها مرّة أخرى، «شيء مثل حيوان أليف، لكنّه مختلف أيضاً. منذ زمن بعيد، وجد الأشخاص الذين يشبهونك ويشبهون أمّك وأبيك مكاناً في العالم يشبه أناساً مثلي ومثل إديسون ومثل تايشا، وكنّا سعيدين هناك ونفعل أشياء عظيمة هناك – نبني بيوتاً، ونطهو الطعام، ونصنع أشياء من لا شيء - فأرادوا أن نفعل ذلك في بلدهم أيضاً، فجلبوا الأشخاص الذين يشبهونني من دون أن يأخذوا رأينا. لم يكن لدينا خيار. لذلك، فإنَّ العبد - هو شخص لا يوجد لديه خيار في ما يفعله، أو في ما فعلوه به».

وضعت فيوليت قلم التلوين، وبدأت تفكّر.

أضفت: «لم نكن أول العبيد. هناك قصص في كتاب أحبّه اسمه الكتاب المقدَّس. فقد استعبد المصريون الشعب اليهوديّ ليبنوا لهم مدناً. كان في استطاعتهم أن يجعلوا الشعب اليهوديّ عبيداً لهم لأنَّ المصريين كانوا يمتلكون القوة».

ومثل أيّ طفلة أخرى، في الرابعة من عمرها، عادت فيوليت إلى مكانها، إلى جانب ابني، وقالت له: «دعنا نلوّن رابونزيل بدلاً من ذلك»، لكنّها قالت بعد تردّد، «أقصد، هل تريد أن تلوّن رابونزيل؟»

فقال إديسون: «حسناً».

ربّما كنت الشخص الوحيد الذي لاحظ ذلك، لكن بينما كنت أشرح لها، نزع إديسون ذلك السلسال من عنقه ووضعه في جيبه.

«شكراً»، قال ميكا، «كان حقاً درساً جيداً في تاريخ السود».

فقلت: «إنّ العبودية ليست تاريخ السود، إنّها تاريخ البشريَّة كلّها».

انبعث صوت المؤقّت، فنهضت كينيدي. لَمَّا ذهبت إلى المطبخ، دمدمت شيئاً عن رغبتي في أن آتي معها وأساعدها، فلحقت بها. التفتت على الفور وخدّاها يشتعلان، وقالت: «أنا آسفة جداً لأجل ذلك يا روث».

«إنّها طفلة. إنّها لا تعرف شيئاً أفضل بعد».

«حسناً، لقد شرحتِ لها بطريقة أفضل بكثير ممّا كنت سأشرحه لها».

مدّت يدها إلى داخل الفرن وأخرجت صينية لازانيا.

قلت: «لَمَّا عاد إديسون إلى البيت من المدرسة، وسأل إن كنّا عبيداً، كان في عمر فيوليت تقريباً. وكان آخر شيء أريد أن أتحدّث عنه هذا الحديث وأتركه يشعر بأنّه ضحيّة».

«قالت لي فيوليت الأسبوع الماضي إنّها تتمنّى أن تكون مثل تايشا لأنّها تضع خرزات في شعرها».

«ماذا قلت لها؟»

لم تتردّد كينيدي، وقالت: «لا أعرف. لعلّي لم أجبها إجابة صحيحة. قلت لها شيئاً عن أنَّ كلَّ شخص مختلف عن الآخر، وهذا ما يجعل العالم رائعاً. أقسم إنّها عندما تسألني أشياء عن العِرق، أصبح مثل إعلان كوكا كولا».

ضحكتُ، وقلت لها: «لعلّك لا تتحدَّثين في دفاعك عن ذلك بقدر ما أتحدَّث أنا عنه. الممارسة تؤدّي إلى الإتقان».

«لكن، أتعرفين؟ لَمَّا كنت في عمرها، كانت توجد تايشا في الفصل أيضاً، مع فارق أنَّ اسمها كان ليزلي. كنت أريد أن أكون هي. كنتُ أحلم بأنّني سأستيقظ ذات يوم وأنا سوداء. بلا مزاح».

رفعت حاجبيَّ متظاهرة بالرعب، وقلت: «وتتخلّين عن ورقة اليانصيب الرابحة؟ هذا مستحيل».

نظرت إليَّ، وضحكنا كلتانا. في تلك اللحظة، لم نكن سوى امرأتين تقفان أمام صينية اللازانيا، نقول الحقيقة. في تلك اللحظة، لَمَّا بدأت عيوبنا واعترافاتنا تنسلّ مثل خيط في ثوب، شعرنا أنَّ لدينا قواسم مشتركة أكثر ممّا لدينا من اختلافات.

ابتسمتُ، وابتسمت كينيدي، وفي تلك اللحظة، في الأقلّ، رأت إحدانا الأخرى كما هي حقيقتها. إنها البداية.

فجأة، دخل إديسون المطبخ وبيده هاتفي الخلويّ. «ماذا في الأمر؟ لا تقل لي إنّك طُردت لأنّك جعلت آرييل سمراء؟»

فقال: «ماما، السيّدة مينا على الخط. أظنّ أنّ من الأفضل أن تكلّميها».

لَمَّا كنت في العاشرة من عمري، أُهديتُ في أحد أعياد الميلاد (الكريسماس) لعبة باربي سوداء اسمها كريستي، تشبه كثيراً الدمى التي تمتلكها كريستينا، ما عدا لون بشرتها، وكان لدى كريستينا صندوق ممتلئ بملابس باربي التي لم يكن في مقدور أمّي أن تشتري مثلها، فخاطت للعبة كريستي ثياباً من الجوارب القديمة ومناشف الصحون. صنعت لي منزل الأحلام من علب الأحذية. كنت في غاية السعادة، وقلت لأمّي إنّها أفضل من مجموعة كريستينا لأنّني الشخص الوحيد في العالم الذي يمتلكها. سخرت منّي أختي راشيل التي كانت في الثانية عشرة من عمرها، وقالت لي: «قولي عنها ما تشائين، لكنَّها تظلّ مقلّدة».

كانت معظم صديقات راشيل يقاربنها في العمر، لكنهنَّ كنَّ يتصرَّفن كما لو كنَّ في السادسة عشرة من أعمارهنَّ. لم أكن أرافقهنَّ كثيراً لأنهنَّ يذهبن إلى المدرسة في هارلم، أمّا أنا فكنت أذهب إلى مدرسة دالتون، وإذا ما أتينَ في عطلة نهاية الأسبوع، كنَّ يسخرن منّي لأنَّ شعري متموّج وليس مفتولاً في ضفائر مثل شعرهنَّ، ولأنَّ بشرتي فاتحة وليست داكنة مثل بشرتهنَّ، وكنَّ يقلن لي: «أتظنين أنّك كلّ هذا؟»، ويضحكن من وراء

ظهور بعضهنَّ كما لو كنَّ يضحكن على نكتة سريّة بينهنَّ. وعندما تطلب أمّي إلى راشيل أن تعتني بي في عطلة نهاية الأسبوع، نستقلّ الحافلة إلى مركز التسوّق، فكنت أجلس في مقدّمة الحافلة، في حين يجلسن جميعهنَّ في الخلف.

بدلاً من أن ينادينني باسمي، كنَّ يطلقن عليَّ اسم «أفرو ساكسونية»، ويغنين أغاني لا أعرفها. ولَمَّا قلت لراشيل إنّني لا أحبّ أن تسخر صديقاتها منّي، قالت إنَّني يجب ألّا أكون حسَّاسة إلى هذه الدرجة، «وإنهنَّ يمزحن معي، وإذا ما صادقتهنّ أكثر، فقد يحببني أكثر».

في أحد الأيّام، صادفتُ صديقاتها وأنا عائدة إلى البيت من المدرسة، ولم تكن راشيل معهنَّ هذه المرّة. «أوه، انظرن مَن هنا»، قالت فانتاسي، أطولهنّ قامة، وشدّت ضفيرتي الفرنسيّة، إذ كانت الفتيات في مدرستي يضفرن شعرهنَّ بهذه الطريقة في ذلك الوقت، وقالت: «تظنين أنّك جميلة جداً»، وأحاطت بي الفتيات الثلاث، «ماذا؟ ألا يمكنك أن تقولي شيئاً عن نفسك؟ هل تريدين أن تتكلَّم أختك عنك؟»

فقلت لهنَّ: «توقَّفن. اتركنني وشأني لو سمحتنَّ».

«أظنّ أنّ أحداً يجب أن تتذكَّر من أين جاءت»، وأخذن حقيبتي المدرسيّة، وفتحنها ورمين دفاتري في برك الماء على الأرض، ودفعنني إلى الوحل، ثمَّ أمسكت فانتاسي بدميتي كريستي وفكَّكتها إلى قطع. فجأة، ظهرت راشيل مثل ملاك منتقم، فسحبت فانتاسي وضربتها على وجهها، فسقطت فوق إحدى الفتيات وأوقعت فتاة ثالثة. ولَمَّا تجمَّعن معاً، وقفت فوقهنَّ بقبضتها، ورحن يزحفن بعيداً مثل سرطان البحر في بالوعة، ثمّ نهضن على أقدامهنَّ ورحن يجرين. جثوت إلى جانب لعبتي كريستي المكسورة، وجثت راشيل إلى جانبي، وقالت: «هل أنت على ما يرام؟»

قلت: «نعم... لكن... آذيتِ صديقاتك».

فأجابت راشيل: «لديَّ صديقات أخريات، أمّا أنتِ فإنّك أختي الوحيدة»، وشدَّتني حتّى وقفت على قدميَّ، وأضافت: «هيّا، لنذهب كي تنظّفي نفسك».

عدنا إلى البيت صامتتين. لَمَّا رأت أمّي شعري وجوربي الممزَّق، أدخلتني الحمَّام، ووضعت قطع ثلج على مفاصل أصابع راشيل.

ثمَّ ألصقت أمّي الأجزاء المفكّكة من كريستي، لكنَّ ذراعها ظلّت تسقط، وكان هناك ثقب دائم في مؤخّرة رأسها. في الليل، جاءت راشيل إلى سريري. كانت تفعل ذلك عندما كنّا صغيرتين حين تحدث عواصف رعديَّة. أعطتني كرسياً صنعته من علبة سجائر فارغة وكوب لبن وصحيفة. أشياء جمعتها وألصقتها معاً، وقالت: «أظنّ أنّ كريستي تستطيع أن تستخدم هذه».

هززت رأسي، وقلّبتها في يدي. لعلّها ستنهار عندما تجلس كريستي عليها، لكن لم يكن هذا هو المهمّ. رفعت الملاءة، واستلقت راشيل خلفي، وألصقت بطنها على ظهري، وأمضينا الليلة هكذا، كما لو كنّا توءمين سياميين، نتقاسم قلباً واحداً ينبض بيننا.

أصيبت أمّي بأول جلطة دماغيّة عندما كانت تنظّف الأرض بالمكنسة الكهربائيّة. سمعت السيّدة مينا صوت ارتطام جسدها على الأرض، ووجدتها مستلقية على حافة السجادة الفارسيّة ووجهها مضغوط على أهداب السجادة، كما لو كانت تتفحّصها، وأصيبت بجلطة دماغيّة ثانية عندما نقلتها سيارة الإسعاف إلى المستشفى. لَمَّا وصلنا إلى المستشفى فارقت الحياة. كانت السيّدة مينا تنتظرنا، تبكي بحرقة. بقي إديسون معها، في حين ذهبت لأرى أمّي.

ممرّضة لطيفة تركتني مع جسد أمّي. دخلتُ المقصورة الصغيرة المغلقة بستارة، وجلست إلى جانبها. أخذت يدها التي كانت لا تزال دافئة. «لماذا

لم أتصل بك الليلة الماضية؟» دمدمت، «لماذا لم آتِ وأزورك في نهاية الأسبوع الماضي؟»

جلست على حافة السرير، ثمّ حشرت نفسي تحت ذراعها للحظة. استلقيت ووضعت أذني على صدرها الهامد. هذه آخر فرصة أكون فيها طفلتها.

تملّكني شعور غريب بأنّني أصبحت يتيمة فجأة، كما لو أنّني فقدت دقّة التوجيه التي تجعلني أسير على الدرب الصحيح، وهو أمر لم أكن أكترث له كثيراً. من سيعلّمني الآن كيف أكون أمّاً وأربّي ابني، وكيف أواجه قسوة الغرباء، وكيف أكون متواضعة؟

أدركت أنّها كانت قد فعلت ذلك.

توجّهتُ بصمت إلى حوض المغسلة، وملأتُ وعاء بالماء الدافئ والصابون ووضعته إلى جانب أمّي. سحبتُ الملاءة التي غُطّيت بها، بعد فشل المعالجة الطارئة. لم أرَ أمّي عارية منذ زمن بعيد، لكن بدا لي كما لو أنَّني أنظر في مرآة شوّهتها السنون. هكذا سيصبح ثدياي وبطني، وها هي ذي علامات التمدّد والتشقّقات في بطنها، وها هو ذا منحنى العمود الفقريّ الذي لم يتوقّف عن العمل طوال عمرها، وها هي ذي خطوط الضحك التي تنبعث من عينيها.

بدأت أغسلها كما لو أنَّني أغسل مولوداً جديداً. مرّرت قطعة القماش على طول ذراعيها وساقيها، وجفّفت بين أصابع قدميها. أجلستها، وأسندتها إلى صدري. بدت عديمة الوزن. وبينما بدأت قطرات الماء تسيل على ظهرها، أسندتُ رأسي على كتفها، عناق من طرف واحد. لقد جلبتني إلى هذا العالم، وسوف أساعدها في مغادرته.

لَمَّا انتهيت، ضممتها بين ذراعيَّ، وأعدتها وأسندتها برفق إلى الوسادة، سحبت الملاءة إلى الأعلى وطويتها تحت ذقنها، ثمَّ همست: «أحبّك يا ماما».

ثمَّ فُتحت الستارة، ووقفت أديسا هناك. بعكس حزني الهادئ، أجهشت إلى البكاء، وألقت بنفسها فوق أمّي، وأمسكت بقبضتيها جانبَي الملاءة.

مثل أيّ نار ملتهبة، كنت أعرف أنّها ستخبو. انتظرت حتّى تحوّلت صرخاتها إلى فواق. لَمَّا التفتت ورأتني واقفة هناك، خُيِّل إليَّ حقاً أنّها أدركت، للمرَّة الأولى، أنّني هنا في الغرفة.

لا أعرف إن كانت هي التي فتحت ذراعيها نحوي أم أنا التي فتحتُ ذراعيَّ لها، لكن إحدانا ضمَّت الأخرى بقوة، نتمسّك بالحياة العزيزة. تحدّثنا مع بعضنا - هل اتصلت بك مينا؟ هل كانت في صحّة سيّئة؟ متى تحدّثتِ إليها آخر مرة؟ دارت الصدمة والحزن في حلقة، منّي إليها ومنها إليَّ.

ضمَّتني أديسا بقوة. علقت يداي في ضفائرها. همست في أذني: «أخبرت والاس ميرسي أن يجد موضوعاً جديداً يتحدَّث عنه».

ابتعدتُ قليلاً ونظرت في عينيها.

هزَّت أديسا كتفيها، كما لو أنّني سألتها سؤالاً، ثمّ قالت: «أنت أختي الوحيدة».

أقيمت جنازة أمّي كما كانت تريد، وامتلأت الكنيسة التي ترتادها منذ زمن بعيد في هارلم بأبناء الرعيّة الذين يعرفونها منذ سنوات. جلستُ في الصفّ الأماميّ إلى جانب أديسا، أحدّق إلى الصليب الخشبيّ الضخم المعلّق على جدار المذبح، بين لوحين ضخمين من الزجاج الملوّن، تحته نافورة ماء، ووضع على المذبح نعش أمّي - أصرَّت السيّدة مينا على أن يكون النعش من أفخر الأنواع، وقد تكفَّلت بدفع كلّ تكاليف الجنازة. وقف إديسون إلى جانب القسّ هارولد، وقد بدا مصدوماً، يرتدي بدلة سوداء قصيرة عند رسغيه وكاحليه، وينتعل حذاء رياضيّاً، ويضع نظارة شمسيّة عاكسة، على الرّغم من أنّه داخل الكنيسة. في البداية، ظننت أنّ ذلك يشي بقلّة احترام، لكنّي سرعان ما أدركت السبب؛ فأنا، بحكم عملي

كممرّضة، أرى الموت طوال الوقت، لكن هذه أول تجربـة لإديسـون مـع المـوت. فقـد كان صغيراً جداً لا يتذكّر شيئاً عندما جُلب أبوه إلى البيت في نعش، ملفوفاً بالعلم.

سار صفّ طويل من الناس في الممرّ، رقصة مروّعة ليلقوا نظـرة عـلى تـابوت أمّـي المفتوح، في ثوبها الأرجوانيّ المفضّل لديها، الذي تزيّن كتفيه حبّات من الترتر، وحـذائها الأسود الذي كان يؤلم قدميها، وأزرار الماس التي أهدتها لها السيدة مينـا والسـيد سـام في إحدى السنوات بمناسبة عيد الميلاد، لكنّها لم تستخدمها قطّ لأنّهـا كانـت تـخشى أن تسقط وتفقدها. أردت أن أدفنها بوشاحها الذي يجلب لها الحظ، والذي بحثـت عنـه في شقّتها لكنّي لم أجده. «يبدو أنّها في سلام»، سمعت ذلك مرّات كثيرة، أو «إنّها تبـدو كما كانت تماماً، أليس كذلك؟» لم يكن أيّ من ذلك صحيحاً. إذ كانت تبدو مثل رسـمة في كتاب ثنائيّ الأبعاد، تريد أن تقفز من الصفحة.

لَمَّا أتيحت للجميع فرصة إلقاء نظرة أخيرة عليها، بدأ القسّ هارولد الصلاة، وقال: «السيدات والسادة، الإخوة والأخوات... هذا ليس يوماً حزينـاً». ابتسـم بلطـف لابنـة أختي تيانا التي أجهشـت إلى البكـاء. «إنّـه يـوم سـعيد، لأنّنـا هنـا لنحتفـل بصـديقتنا الحبيبة، وأمّنا وجدّتنا، لوان برووكس، التـي أصـبحت تسـير أخـيراً في سـلام إلى جانـب الربّ. لنبدأ الصلاة.

حنيتُ رأسي، لكنّي اختلست نظرة إلى الكنيسة التي امتلأت بالمعزّين الـذين كـانوا جميعهم يشبهوننا، مـا عـدا السـيّدة مينـا وكريسـتينا، وفي الخلـف، كينيـدي مـاكوري وامرأة تكبرها سنّاً.

فوجئت عندما رأيتها، لكنّها بالطبع تعرف قلـيلاً عـن أمّـي، فقـد كنـتُ في منزلهـا عندما سمعتُ الخبر.

وعلى الرّغم من ذلك، فقد بدا الأمر مثل خطّ ضبابيّ، مثل النبيذ والجبن في منزلهـا. كما لو أنّني أحاول أن أضعها في علبة وتظلّ تسيل من جوانبها.

بدأ القسّ يقول: «لقد ولدت صديقتنا لوان عام 1940، لجيرمين ومادي برووكس، أصغر أبنائهما الأربعة. لديها ابنتان، وقد بذلت كلّ ما في وسعها طوال حياتها، بعد رحيل والدهما، وربَّتهما لتصبحا امرأتين طيبتين وقوّيتين، وكرَّست حياتها لخدمة الآخرين، وأنشأت بيتاً سعيداً للأسرة التي عملت عندها لأكثر من خمسين سنة. وقد فازت في سوق كنيستنا الخيريّ بشرائط للفطائر والكعك الذي كانت تصنعه أكثر من أيّ شخص آخر من المصلّين، وأعتقد أنَّ ما لا يقلّ عن عشرة باوندات حول وسطي يمكن أن تُعزى إلى الحلويات التي كانت تصنعها. كانت تحبّ موسيقا الإنجيل والخَبْزَ ويسوع، وقد خلفتها ابنتاها وأحفادها الستة المحبوبون».

أنشدت الجوقة الترانيم التي كانت تحبّها أمّي كثيراً: «خذ بيدي، أيُّها الربُّ الثمين» و«سأحلّق بعيداً». ثمَّ عاد القسّ إلى المنصَّة، رفع عينيه إلى المصلّين، وقال: «الله طيب».

فردّ الجميع: «دائماً».

«وقد دعا ملاكه إلى بيت المجد».

بعد أن ردَّد الحاضرون «آمين»، دعا القسّ الأشخاص الذين يرغبون في التحدّث عن التأثير الذي أحدثته أمّي في حيواتهم. وقفت بعض صديقاتها وتحرّكن ببطء كما لو كنَّ يعرفن أنَّ دورهنَّ التالي. قالت إحداهنَّ إنّها ساعدتني في علاج سرطان الثدي، وقالت أخرى إنَّها علّمتني كيف أخيط حاشية ثوب. كنت أعرف أمّي على نحو ما، لكنّها كانت بالنسبة إليهنّ شيئاً مختلفاً - معلّمة وصديقة مؤتمنة على أسرارهنّ، متواطئة في جرائمهنّ. وبينما كانت قصصهنّ تروى عن أمّي، كان الناس يبكون ويصلّون لأجلها.

ضغطت أديسا على يدي وصعدت إلى المنصَّة. لَمَّا قالت: «كانت ماما صارمة»، ضحك الحشد على هذه الحقيقة، ومضت تقول: «كانت صارمة فيما يتعلق بالسلوك والأخلاق، والواجبات المدرسيّة، والمواعدة، ومقدار

الجلد العاري الذي يمكننا إظهاره عندما نخرج إلى الأماكن العامّة. كانت هناك نسبة، صحيح يا روث؟ كان ذلك يتغيّر بحسب الفصل»، ابتسمت أديسا قليلاً ومضت تقول: «أتذكّر كيف أنّها وضعت ذات يوم أدوات المائدة على خوان العشاء، وقالت لي، يا بنت، عندما تغادرين الطاولة، يمكن أن تبقى هذه في مكانها.»

نعم، فعلت ذلك، سمعت أحداً يقول من خلفي.

«كنت طفلة جامحة، ولعلّي لا أزال كذلك. كانت ماما تُلبسنا ثياباً لم يكن الآباء الآخرون يكترثون لمثلها، وكان يبدو لي ذلك حينذاك ظلماً. وسألتها ما الفرق الذي سيحدث في مخطط الله الكبير لو أنّني ارتديت تنورة قصيرة حمراء، فقالت لي شيئاً لن أنساه في حياتي: لا يوجد لديّ وقت ثمين كثير كي تنتمي إليَّ، وسأحرص على ألّا يكون أقصر ممّا يجب أن يكون. كنتُ صغيرة جداً وغوغائيّة، ولم أفهم قصدها، أمّا الآن، فقد أصبحت أفهم ذلك. كان الشيء الذي لم أكن أفهمه حينذاك هو الجانب الآخر من العملة: فقد كان لديّ القليل من الوقت الثمين كي تكون أمّي».

ثمَّ تنحَّت جانباً والدموع تترقرق في عينيها. بصراحة، لم أكن أعرف أنَّ أديسا متحدّثة جيّدة هكذا، لكنّها، مرّة أخرى، كانت دائماً الفتاة الجريئة، أمّا أنا، فقد تراجعت إلى الخلف، ولم أشأ أن أقول شيئاً في الجنازة، لكن أديسا قالت لي إنّ الناس ينتظرون منّي أن أقول شيئاً، واقترحت أن أحكي لهم قصَّة. صعدت إلى المنصَّة، وتنحنحتُ، وأمسكت بحافة المنصّة الخشبيّة وأنا أرتجف. لَمَّا قلت: «شكراً» انبعث من الميكروفون صفير. عدت إلى الوراء، «أشكركم لمجيئكم لتوديع ماما. كانت ستحبّ أن تعرف أنّكم أبديتم جميعكم كلّ هذا الاهتمام، وإذا لم تأتوا فإنكم تعرفون أنّها في السماء تُلقي بظلالها على تصرّفاتكم». ألقيت نظرة على الحاضرين - من المفترض أنّها مزحة، لكنَّ أحداً لم يضحك.

بلعتُ ريقي، وتقدَّمت قليلاً، «كانت ماما تضع نفسها دائماً في الآخر. تعلمون كلّكم أنّها كانت تُطعم الجميع - حاشى لله أن تكونوا قد غادرتم منزلنا جائعين - كما قال القسّ هارولد - أراهن أنّكم تناولتم كلكم الفطائر وأنواع الكعك التي كانت تصنعها. في إحدى المرّات، كانت تخبز كعكة الغابة السوداء لأجل مسابقة الكنيسة، وأصررت على أن أساعدها. كنت صغيرة جداً. وبينما كنت أساعدها، سقطت منّي ملعقة القياس في المزيج، وخشيت أن أخبرها، فخُبزت داخل قالب الكيك، ولَمَّا بدأ حكم المسابقة يقسم القالب وجد الملعقة، فعرفت ماما ما الذي جرى، وبدلاً من أن تغضب منّي، قالت للحكم إنّ هذه خدعة خاصّة تستخدمها ليبقى قالب الكيك طرياً. لعلّكم تتذكّرون كيف كانت توجد داخل عدد من قوالب الكيك التي شاركت في مسابقة العام التالي ملاعق قياس معدنيّة - حسناً، الآن عرفتم السبب». انطلقت موجة من الضحك، وأطلقتُ نَفَساً لم أكن أدرك أنّني كنت أحبسه. «سمعتكم تقولون إنّ ماما كانت تفخر بالأشياء التي تخبزها، لكن، كما تعرفون، هذا غير صحيح. إذ كانت تعمل بكلّ طاقتها، وكانت تعمل بكلّ طاقتها في كلّ شيء. كانت تقول لنا إنّ الكبرياء خطيئة، وفي الحقيقة، كان الشيء الوحيد الذي رأيتها تفتخر به هو أنا وأختي».

بينما كنت أقول هذه الكلمات، تذكّرت النظرة التي ارتسمت على وجهها عندما أخبرتها بالتهمة التي وُجّهت إليَّ. قالت لي عندما عدت إلى المنزل من السجن، وأرادت أن تراني وجهاً لوجه لتتأكّد أنني على ما يرام، «روث، كيف يمكن أن يحدث لك هذا؟» كنت أعرف ما الذي كانت تقصده، إذ كنت طفلتها الذهبيّة، فقد أفلتُّ من تلك الدائرة. حققت إنجازاً في حياتي. كسرت السقف الذي أمضت حياتها كلها وهي تنطحه برأسها، وكرّرت: «كانت تفخر بي كثيراً»، لكنَّ الكلمات كانت لزجة، بالونات تنفجر ما إن تلامس الهواء، وتترك رائحة خيبة أمل خفيفة.

«لا بأس يا حبيبتي»، سمعت من الحاضرين.

لم تقل أمّي أشياء كثيرة، لكن هل لا تزال تفخر بي؟ هل يكفي أن أكـون ابنتهـا؟ أم أن اتهامي بجريمة لم أرتكبها تشبه إحدى تلك البقع التي كانت تسعى إلى إزالتها؟

أردتُ أن أقول أشياء أخرى، لكنّي لم أعد أتذكّر شيئاً. ربّما كانت الكلـمات المدوّنـة على قصاصة الورق الصغيرة مكتوبة بالهيروغليفيّـة. رحـت أحـدّق إليهـا، لكـن لم يعـد هناك شيء له معنى. لا أستطيع أن أتخيّل عالماً قد أدخل فيه إلى السـجن لسـنوات. لا أستطيع أن أتخيّل عالماً لا توجد فيه أمّي. ثمَّ تذكّرت شيئاً قالتـه لي ذات مـرّة، في تلـك الليلة التي ذهبت فيها إلى حفل كريستينا. عنـدما تكـونين مسـتعدّة لنـا، فسـنكون في انتظارك. في تلك اللحظة، شعرت بحضور آخر لم أشعر به من قبـل، أو ربّمـا بحضـور لم ألحظه قطّ، صلب كالجدار، ودافـئ عـلى الـبشرة. إنّـه مجتمـع مـن الأشـخاص الـذين يعرفون اسمي، حتّى عندما لا أتذكّر أسماءهم دائمـاً. مصـلّون لم يتوقّفـوا عـن الصـلاة لأجلي، حتّى عندما طرت وابتعـدت عـن العـشّ. إنَّهـم أصـدقاء لا أعـرف أنّهـم كـانوا أصدقائي، لديهم ذكريات أبعدتها وركنتها في مؤخّرة دماغي، لقد نسيت.

سمعت صوت تدفّق النافورة خلفي، وفكّرت كيف يمكن أن يرتفـع المـاء ويتحـوّل إلى ضباب، ويغازل عندما يصبح سحابة، ثمَّ يعود مطراً. هل تسـمّي ذلـك سـقوطاً؟ أم هو عودة إلى الأصل؟

* * *

بعد أن أنشدت الجوقـة ترنيمـة «قريبـاً وقريبـاً جـداً» حُمـل الـنعش مـن الكنيسـة، واصطففنا وراءه. بعد انتهاء مراسم الدفن، حيث ألقى القسّ كلمة أخرى، اجتمعنا في شقّة أمّي – البيت الصغير الذي نشأت فيـه. قامـت سـيدات الكنيسـة بـواجبهنّ كـاملاً. كانـت هناك أطباق ضخمة من سـلطة البطاطـا وسـلطة الكرنـب وأطبـاق مـن الـدجاج المقـليّ وضعت على مفارش مائدة ورديّة جميلـة، ووضـعت أزهـار مـن الحريـر في كـلّ مسـاحة

أفقيّة تقريباً، وفكّر أحدهم في أن يجلب كراسي قابلة للطيّ، مع أنّه لم يكن هناك مكان كاف يتّسع للجميع.

ذهبتُ إلى المطبخ، ونظرت إلى الأطباق المكدَّسة بالكعك وقطع الليمون، ثمّ مشيت إلى رفّ كتب صغير فوق المغسلة عليه دفتر صغير بالأبيض والأسود. فتحته، ذكّرني خطّ ماما بالتلال والوديان ذوات الأشواك الشائكة. قرأت: فطيرة البطاطا الحلوة. أحلام جوز الهند. كعكة الشوكولاتة لكسر رجل. ابتسمت لهذه الوصفة الأخيرة - الوصفة التي كنت قد أعددتها لويسلي قبل أن يتقدَّم لخطبتي، بعدها قالت لي ماما: «ألم أقل لك ذلك».

لَمَّا سمعت كلمة «روث» التفتُّ ورأيت كينيدي والمرأة البيضاء الأخرى التي ترافقها، والتي بدت غريبة في مطبخ أمّي.

وصلت إلى الهاوية، لكنّي استعدتُ لباقتي. قلت لهما: «شكراً لقدومكما. إنّه يعني لي الكثير».

خطت كينيدي خطوة إلى الأمام، وقالت: «أودّ أن تتعرَّفي إلى أمّي، آفا».

مدَّت المرأة المسنّة يدها بتلك الطريقة الجنوبيَّة، مثل سمكة مرخية، وضغطت بأطراف أصابعها على أطراف أصابعي، وقالت: «تعازيَّ. كانت جنازة لائقة».

هززت رأسي. حقاً، ما الذي يمكن أن أقوله؟

«كيف حالك؟» سألتني كينيدي.

«ما زلت أفكّر في أنَّ أمّي ستطلب إليَّ أن أذهب وأقول للقسّ هارولد أن يضع صينية على طاولتها الصغيرة». لا توجد لديّ الكلمات لأقول لها كيف أشعر حقاً وهي مع أمّها، وأنا أعرف أنّه لم يعد لديَّ هذا الخيار. تشعر كما لو كنت بالوناً عندما يفلت أحدهم الخيط.

نظرت كينيدي إلى الدفتر المفتوح في يدي، وسألتني: «ما هذا؟»

«دفـتر وصـفات. لم يكتمـل بعـد. ظلّـت مامـا تقـول لي إنّهـا سـتكتب لي أفضـل الوصفات التي تعرفها، لكنّها كانت مشغولة دائماً بالطهو لشـخص آخـر». أدركـت كـم بدا صوتي مريراً، «لقد ضيَّعت حياتها، مستعبدة لشـخص آخـر. تلمّـع الفضّـة، وتطهـو ثلاث وجبات في اليوم، وتفرك وتنظّف المراحيض، وتعتني بطفلة شخص آخر».

تحشرج صوتي في تلك الجملة الأخيرة. سقط من أعلى الجرف.

مدّت أمّ كينيدي، آفا، يدها في حقيبتها، وقالت: «طلبتُ أن آتي اليوم مع كينيـدي، فأنا لا أعرف أمّك، لكنّي كنت أعرف شخصاً يشبهها. كنت أحبّها كثيراً».

أرتني صورة قديمة حوافها مهترئة. صورة امرأة سـوداء في زيّ خادمـة تحمـل فتـاة صغيرة بين ذراعيها. للفتاة شعر فاتح كالثلج، تضغط بيدها على خدّ الخادمة في تناقض مذهل. هناك أكثر من واجب يربط بينهما. هناك كبريـاء. هنـاك حـبّ. «أنـا لا أعـرف أمّك، لكن يا روث - لم تضيّع حياتها سدى».

اغرورقت بالدموع عيناي. أعدت الصورة إلى آفا، وشدّتني كينيدي إليها وعانقتني. بعكس المعانقة القاسية التي أتذكّرها من النسوة البـيض، كـما تفعـل السـيدة مينـا أو مديرة المدرسة الثانويّة، فإنّ هذه المرأة لا تشعر بأنّها مجبرة أو متعجرفة أو زائفة.

ابتعدنا قليلاً وأصبحنا وجهاً لوجه، «أنا حزينة لأجل مصابك»، قالت كينيدي، وكان هناك شيء يمور بيننا: وعد، وأمل في أنّه عنـدما نـذهب إلى المحكمـة، فلـن تعـبر تلـك الكلمات نفسها شفتيها.

كينيدي

في عيد زواجنا السادس، نقل إليَّ ميكا عدوى أنفلونزا المعدة. بدأت الأسبوع الماضي بفيوليت، مثل معظم الفيروسات المعدية التي تدخل بيتنا. ثمَّ بـدأ ميكـا يتقيّـأ. قلـت لنفسي إنّه لا يوجد لـديَّ وقـت أمـرض فيـه، وظننـت أنّنـي في أمـان حتّـى غرقـت في منتصف الليل بالعرق، وجريت إلى الحمَّام.

استيقظت وأنا أضغط خدّي على البلاط البارد، وميكا واقـف فـوقي. «لا تنظـر إليَّ هكذا»، قلت له، «الأرض نظيفة».

فقال ميكا: «ستتحسَّنين».

تنهّدت وقلت: «جيّد».

«كنت سأعدّ لك وجبة الفطور في السرير، أمّا الآن فسأعدّ لك كأساً من الزنجبيل».

«أنت أمير». لَمَّا اعتدلت في جلستي، بدأت الغرفة تدور بي.

«هيه. اثبتي مكانك يا بنت»، قال ميكا وقرفص إلى جانبي، وسـاعدني في النهـوض، ثمَّ حملني بين ذراعيه إلى غرفة النوم.

قلت له: «في أيّ ظرف آخر، سيكون ذلك رومانسياً جداً».

ضحك ميكا، وقال: «إنّي مدين لك بذلك في وقت لاحق».

«بذلت كلّ ما في وسعي كي لا أتقيّأ عليك».

«لا أستطيع أن أقول لك كم أقـدّر لـك ذلـك»، قـال بجديـة عاقـداً ذراعيـه، «هـل تريدين أن تتشاجري الآن لأنّك لن تذهبي إلى المكتب اليوم؟ أم هل تريدين أن تنهـي كأس الزنجبيل أولاً؟»

«إنّك تستخدم ضدّي الأساليب التي أستخدمها. فهذا يشبه عندما أقـول لفيوليـت إمّا – أو...»

«انظري، وتظنين أنَّني لا أستمع أبداً».

«سأذهب إلى العمل»، قلت وحاولت أن أقف على قـدميَّ، لكنّـي فقـدتُ الـوعي. لَمَّا رفَّت عيناي بعد لحظة، رأيت وجه ميكا قريباً من وجهي. فهمسـتُ: «لـن أذهـب إلى العمل».

«إجابة جيّدة. اتصلت منذ قليل بآفا. ستأتي لتؤدّي دور الممرّضة».

أطلقت تنهيدة، وقلت: «ألا يمكنك أن تقتلني بدلاً من ذلك؟ لا أظنّ أنّني أستطيع أن أتعامل مع أمّي. إنّها تظنّ أنّ جرعة من ويسكي بوربون تشفي كلّ شيء».

«سأغلق خزانة المشروبات. هل تحتاجين إلى أيّ شيء آخر؟»

«حقيبتي؟» قلت متوسّلة.

يعرف ميكا أنَّ من الأفضل ألّا يقول لا لذلك. لَمَّا هبط إلى الطابق السفليّ ليجلبها، رفعت نفسي من على الوسائد. لديَّ أشياء كثيرة يجب أن أنجزها، لكن بدا جسدي أنّه يخذلني.

غفوت في الدقائق القليلة التي استغرقها ميكـا ليعـود إلى غرفـة النـوم. حـاول أن يضع الحقيبة برفق على الأرض كي لا يزعجنـي، لكنّـي مـددت يـدي إليهـا، وبالغـت في تقدير قوتي، فانسكبت محتويات الملفّ الجلـديّ فـوق السريـر وعـلى الأرض، فـانحنى ميكا ليجمعها. «هاه»، قال وهو يمسك ورقة، «ماذا تفعلين بتقرير مختبر؟»

كانت الورقة مُجعَّدة لأنّهـا انسـلّت مـن بـين الملفّـات واسـتقرّت في قعـر حقيبتي. رحت أحدّق إليها، ورأيت سلسلة من الرسـوم البيانيّـة. إنّهـا نتـائج فحص حديثي الولادة التي طلبتها من مستشفى الرحمة - نيو هافن، التي لم تكن موجودة في ملفّ ديفيس باور، وقد وصـلت هـذا الأسـبوع، وبمـا أنَّنـي

لا أفهم في الكيمياء جيّداً، ألقيت عليها نظرة سريعة، وقلت إنّني سأريها لروث بعد انتهاء جنازة أمّها. قلت لميكا: «إنّها اختبار روتينيّ».

فأجاب ميكا: «لا يبدو أنّها كذلك. التحليل يظهر خللاً في الدم».

أخذتها من يده، وسألته: «كيف عرفت ذلك؟»

فقال ميكا، مشيراً إلى الرسالة المرفقة التي لم أكلّف نفسي عناء قراءتها، «لأنّها تشير هنا إلى وجود خلل في تحليل الدم».

دقّقت في الرسالة الموجَّهة إلى الدكتورة مارلين أتكينز، وسألته: «هل يمكن أن تكون مميتة؟»

«لا أعرف».

«لكنَّك طبيب».

«لقد درست طب العيون ولم أدرس الإنزيمات».

رفعت عينيَّ إليه، وسألته: «ماذا جلبت لي في عيد زواجنا؟»

فقال ميكا: «كنت سآخذك لنتناول العشاء في المطعم».

فقلت: «حسناً، بدلاً من ذلك خذني إلى طبيب حديثي الولادة».

حينما نقول في أمريكا إنّه يحقّ لك أن تُحاكم من قبل هيئة محلفين من أقرانك، فإنّنا لا نقول الحقيقة تماماً. إذ لا يتمّ اختيار هيئة المحلَّفين عشوائياً كما يُخيَّل إليك، وبفضل التدقيق الدقيق من قبل الدفاع والادّعاء العامّ لإبعاد طرفَيْ منحنى الجرس - فمن المرجّح أن يصوّت بعض الأشخاص ضدّ أفضل مصالح موكّلينا. فنستبعد الأشخاص الذين يرون أنَّ الأشخاص مذنبون حتّى تثبت براءتهم، أو الذين يقولون لنا إنّهم يرون أمواتاً، أو الذين يحقدون على النظام القانونيّ لأنّهم اعتُقلوا ذات مرّة. وندرس أيضاً كلّ حالة على حدة. فإذا كان موكّلي متهرّباً من التجنيد، فإنّي أحاول أن أقلّل من عدد المحلّفين الذين يفتخرون بأنّهم خدموا في الجيش

بافتخار. وإذا كان موكّلي مدمن مخدّرات، فإنّي لا أريد أن يكون هنـاك أحـد في هيئـة المحلفين فقدَ أحد أفراد أسرته لأنّه تناول جرعة مخدّر زائدة. فلدى كلّ شخص أحكـام مسبقة، وتتمثل مهمّتي في أن أتأكّد أنّهم سيعملون لصالح الشخص الذي أمثّله.

ومع أنّني لن ألعب ورقة العِرق عنـدما تبـدأ المحاكمـة - كـما أمضـيت شـهوراً في توضيح ذلك لروث - فإنّني سأحاول أن أجمع كلّ الاحتمالات قبل أن تبدأ.

لذلك، قبل أن نبدأ في اختيار المحلّفين، ذهبتُ إلى مكتب مديري، وقلـت لـه إنّنـي كنت مخططة.

قلت لهاري: «إنّي أشعر بإرهاق شديد، وأظنّ أنّني أحتاج إلى شريك يساعدني».

أخذ مصَّاصة من مرطبان يضعه عـلى طاولـة مكتبـه، وقـال: «لـدى إيـد محاكمـة ستبدأ هذا الأسبوع...»

«إنّي لا أتحدَّث عن إد. أفكّر في هوارد».

«هوارد». نظر إليَّ مرتبكـاً، «الفتـى الـذي لا يـزال يجلـب وجبـة طعامـه في علبـة طعام؟»

صحيح، إنَّ هـوارد قـد تخـرَّج مـؤخّراً في كليّـة الحقـوق ولم يتسـلَّم حتَّـى الآن، في غضون الأشهر القليلة التي أمضاها في المكتب، سوى قضـايا جـنح بسـيطة: مثـل خـدم منازل، وبعض الأعمال المخلّة بالنظام. ابتسمت له أكثر ابتساماتي نعومة، وقلت: «نعم. كما تعرف، لن يكون سوى مساعد لي. ساعي بريد. وفي أثناء ذلك، سيحصل على خـبرة جيّدة في المحكمة».

أزال هاري الغلاف عن المصَّاصة ووضعها في فمه، وقال وهو يمسك العود بأسـنانه: «مهما يكن».

بمباركته، أو أقرب مباركة يمكنني أن أحصل عليها، عدت إلى مقصورتي ومددت رأسي فوق الحاجز الذي يفصلني عن مقصورة هوارد، وقلت له: «احزر ماذا. ستساعدني في قضيّة جيفرسون. سيجري اختيار هيئة المحلّفين هذا الأسبوع».

رفع عينيه ونظر إليَّ، وقال: «انتظري. ماذا؟ صحيح؟»

إنّها صفقة كبيرة بالنسبة إلى مبتدئ لا يزال يؤدّي أعمالاً بسيطة في المكتب. «سنذهب الآن»، قلت له، وأخذت معطفي، وأنا أعرف أنَّه سيتبعني.

أحتاج إلى أيدٍ مساعدة، وأريد أن تكون أيضاً من السود.

بدأ هاورد يجري إلى جانبي في أروقة المحكمة. قلت له: «لا تتكلّم مع القاضي إذا لم أطلب إليك ذلك»، وأضفت، «لا تُبدِ أيَّ مشاعر، مهما قدَّمت أوديت لوتون عرضاً مسرحيّاً - فالمدّعون العامّون يفعلون ذلك ليشعروا كأنّهم منقار غريغوري في الطائر المحاكي».

«من؟»

«الله. لا تهتمّ». نظرت إليه، «كم عمرك؟»

«أربع وعشرون».

«لديّ كنزات أكبر منك»، تمتمت، «سأعطيك وقائع القضيّة لتقرأها الليلة. سأحتاج إليك بعد ظهر اليوم لتجري بحثاً ميدانياً».

«بحثاً ميدانيّاً؟»

«نعم، لديك سيّارة، أليس كذلك؟»

هزَّ رأسه.

«وبعد أن نُدخل المحلّفين، ستصبح بمنزلة كاميرا الفيديو البشريّة بالنسبة إليَّ. يجب أن تسجِّل كلَّ حركة وتعليق يبديهما أيّ شخص من المحلّفين المحتملين عندما يردّون على أسئلتي، لندرسها ونعرف من هم

المرشَّحون الذين يمكن أن يزعجونا. لا يتعلَّق الأمر بمن هم في هيئـة المحلّفـين... وإنّمـا بمن هم ليسوا في هيئة المحلّفين. هل لديك أسئلة؟»

تردَّد هوارد، وقال: «هل صحيح أنّكِ قلت للقاضي ثاندر العقْ قضيبي؟»

توقّفت ونظرت إليه، يداي على وركي، وقلت: «إنّـك لا تعـرف بعـد كيـف تنظّـف ماكينة صنع القهوة، لكنّك تعرف ذلك؟»

دفع هوارد نظّارته إلى أعـلى أنفـه، وقـال: «أمـارس حقّـي في إبـداء الصـمت كي لا أُجرَّم».

«حسناً، إنّ ما سمعته قد أُخرج من سياقه لأنّني كنت قد تناولت دواء بريدنيزون في ذلك اليوم. اخرس الآن واظهر بأنّك أكبر من أن تكـون في الثانيـة عشرة مـن عمـرك، بحقّ اللـه». لَمَّا دفعت الباب إلى غرفة القاضي ثاندر، كان جالساً وراء طاولـة مكتبـه، والمدَّعية العامّة موجودة في الغرفة. «مرحباً، حضرة القاضي».

نظر إلى هوارد، وقال: «مَن هذا؟»

فقلت: «مساعدي».

طوت أوديت ذراعيها، وسألت: «منذ متى؟»

«منذ نحو نصف ساعة».

حدَّقنا كلّنا إلى هوارد، في انتظار أن يعرّف بنفسه. نظـر إليَّ، زامّـاً شـفتيه بقـوّة. لا تتكلَّم مع القاضي إلّا عندما أقول لك. «تكلَّم»، دمدمت.

مدَّ يده، وقال: «هوارد مور. إنَّه شرف... ممم... لي يا حضرة القاضي».

أخرج القاضي ثاندر مجموعة ضخمة من الاستمارات المكتملة التي تُرسـل إلى الأشخاص الذين يـتمّ اسـتدعاؤهم للمشـاركة في هيئـة المحلَّفـين، ممتلئـة بالمعلومات العمليّة، مثل: أين يعيش، أين يعمل... لكنَّها تشمل أيضـاً أسـئلة محـدَّدة: هـل لـديك أيّ مشـكلة بفرضـية الـبراءة؟ إذا لم يُـدلِ المـدَّعى عليـه

بشهادته، فهل تفترض أنه يخفي شيئاً؟ هل تفهم أنَّ الدستور يمنح المدَّعى عليه الحقّ في عدم قول أيِّ شيء؟ وإذا أثبتت الولاية هذه القضية بما لا يـدع مجـالاً للشـكّ، فهـل لديك أيّ مخاوف أخلاقية بشأن إدانة المدَّعى عليه؟

قسّم القاضي مجموعة الاستمارات إلى نصفين، وقال: «السيّدة لوتون، خـذي هـذه المجموعة لمـدّة أربـع سـاعات، والسـيّدة مـاكواري، خـذي هـذه. سـنعقد اجتماعـاً في الساعة الواحدة بعد الظهر، ونتبادل المجمـوعتين، ثـمَّ نبـدأ اسـتجواب المحلَّفـين بعـد يومين».

لَمَّا عدنا إلى مكتبنا، شرحت لهوارد الأمور التي نريد أن نبحث عنهـا عـادة، وقلـت له: «يكون لدى النساء المسنّات في هيئة المحلّفين أكبر قدر من التعـاطف، وهـنّ أكـثر خبرة، وأقلّ الناس إصداراً للأحكام، ويكنّ قاسيات على الرعاع الصغار مثل تـورك بـاور، وتفادى جيل الألفيّة».

«لماذا؟» سأل هوارد وقد فوجئ، «أليس الشباب أقلّ عنصريَّة؟»

فقلت: «هل تقصد شبّاناً مثل تورك؟ جيل الألفية هـو جـيلي. يعتقـدون عـادة أنّ كلَّ شيء يدور في فلكهم، ويتخذون قرارات تسـتند إلى مـا يجـري في حيـواتهم، وكيـف ستؤثّر في حيواتهم. بعبارة أخرى، إنّهم حقول ألغام من الأنانية».

«فهمت».

«من الناحية المثاليّة، نريد محلّفين يتمتعون بمكانة اجتماعيّة رفيعة لأنّهم يميلـون إلى التأثير في المحلَّفين الآخرين في أثناء المداولات».

فقال هوارد: «إذاً، فإنّنا نبحث عن وحيد القرن».

«رجل أبيض مستقيم شديد الحساسية وواع من الناحية العنصريَّة».

فأجبته بجديَّة: «يمكن أن يكون مثليّاً، يهوديّاً، أنثى - أي شيء يمكن أن يسـاعدهم في التماهي مع التمييز بأيّ شكل سيكون بمنزلة مكافأة لروث».

«لكنّنا لا نعرف أيّاً من هؤلاء المرشّحين. كيف يمكننا أن نصبح وسطاء روحيين بين عشية وضحاها؟»

فقلت: «لن نصبح وسطاء روحيين. سنصبح محقّقين ومتحرّين. ستأخذ نصف الاستمارات وتذهب بها إلى العناوين الواردة فيها. يجب أن تعرف كلَّ ما يمكنك أن تعرفه. هل هم متديّنون؟ هل هم أغنياء؟ فقراء؟ هل توجد لافتات تدلّ على حملة سياسيّة أمام حدائق بيوتهم؟ هل يعيشون فوق مكان عملهم؟ هل لديهم سارية علم في الفناء الأماميّ؟»

«وما جدوى كلّ ذلك؟»

فقلت موضّحة: «في معظم الأحيان، يكون هذا الشخص محافظاً جداً».

«وماذا ستفعلين؟» سألني، «هل ستفعلين الشيء عينه؟».

رحت أنظر إلى هوارد وهو يغادر، يسجّل أوّل عنوان على نظام تحديد المواقع (GPS) على هاتفه، ثمّ سرت في ردهات المكتب، وسألت المحامين الآخرين إن كان قد ورد اسم أيّ من هؤلاء الأشخاص في قوائمهم – لأنّه يجري استدعاء الكثير من المحلّفين مرّة أخرى. كان إد يهمُّ بالخروج من الباب ويتوجّه إلى المحكمة، ينظر في حزمة من الأوراق التي يحملها بيده. «أتذكّر هذا الرجل»، قال وهو يسحب إحدى تلك الأوراق، «كان عضواً في هيئة المحلّفين في قضيّتي يوم الاثنين - قضيّة سرقة كبيرة».

بعد عشر دقائق، سجّلت عنواناً على نظام تحديد المواقع في هاتفي، ووجدت نفسي أقود سيّارتي عبر نيوهالفيل. أقفلت أبواب السيارة لأجل سلامتي. يعدّ المبنى السكنيّ «الحدائق الرئاسيّة» الذي يقع بين جادَّتَيْ شيلتون وديكسويل، جيباً يعيش فيه السكّان من ذوي الدخل المنخفض في المدينة، حيث يعيش ربع السكّان تحت خطّ الفقر، أمّا الشوارع المحيطة بتلك المساكن فهي ممتلئة بتجّار المخدّرات. تقيم نيفا جونز في مكان ما في هذا المبنى. رأيت طفلاً صغيراً يخرج من باب

إحدى البنايات، لا يرتدي معطفاً، وبدأ يركض عندما شعر بلسعة البرد، ومسح أنفه بكمّه.

هل ستصدر امرأة من هذه المنطقة إذا رأت روث حكماً عليها بسرعة؟ أو أنَّها سترى الفروق الاجتماعيّة والاقتصاديّة بينهما وتشعر بالاستياء؟

إنَّه قرار صعب. في حالة روث الفريدة، قد لا يكون أفضل عضوّ في هيئة المحلّفين من لون البشرة نفسه.

وضعت علامة استفهام في الجزء العلويّ من الاستمارة – تحتاج هذه المرأة إلى مزيد من التفكير. قدت السيارة ببطء وغادرت الحيّ، وانتظرت حتّى رأيت أطفالاً يلعبون في الخارج، ثمّ ركنت سيّارتي عند ناصية الشارع، واتّصلت بهوارد. «إذاً؟» سألته عندما أجاب، «كيف تجري الأمور معك؟»

فقال: «مممم. أنا عالق تقريباً».

«أين؟»

«إيست شور».

«ما المشكلة؟»

فقال هوارد: «إنَّه مجمَّع سكنيّ مغلق، ويوجد سياج منخفض استطعت أن أنظر من فوقه، لكن يجب أن أخرج من السيّارة».

«إذاً، اخرج من السيّارة».

«لا أستطيع. انظري، لَمَّا كنت في الجامعة، وضعت قاعدة لنفسي - لا تخرج من السيارة إلّا إذا كان هناك شخص أسود يعيش سعيداً في الأفق»، وأضاف، «إنّي أنتظر منذ خمس وأربعين دقيقة، لكنَّ الأشخاص الوحيدين في هذا الجزء من نيو هافن هم من البيض».

ليس بالضرورة أن يكون ذلك شيئاً سيئاً لروث. سألته: «ألا يمكنك أن تذهب وتلقي نظرة من فوق الحائط؟ تأكّد أنّه لا توجد لافتة كُتب عليها ترامب في حديقة بيتها؟»

«كينيدي - توجد كاميرات مراقبة الحيّ في كلّ مكان. ماذا تظنين ما سيحدث إذا رأوا شاباً أسود يحاول أن يختلس النظر من فوق الحائط؟»

«أوه»، قلت محرجة، «فهمت». نظرت من النافذة إلى ثلاثة أطفال يقفزون فوق أكوام من أوراق الشجر. فكّرت في الصبيّ الأسود الصغير الذي رأيته يخرج من مباني «الحدائق الرئاسيّة». قال لي إد الأسبوع الماضي إنّه دافع عن طفل في الثانية عشرة من عمره متورّط في عملية إطلاق نار مع شابين في السابعة عشرة من عمريهما، وإنّ النيابة العامّة تريد أن تحاكم الثلاثة بحسبانهم بالغين. «امنحني ساعة ثمّ قابلني في 560 شارع تيودور في إيست إند، و... هوارد»؟ عندما تصل إلى هناك، فإنَّ الخروج من السيارة آمن، فأنا أعيش هناك».

وضعت كيس الطعام الصينيّ برفق على طاولة مكتبي في البيت، وقلت: «أحضرت أشياء لذيذة»، وأخرجت طبق طعام «لو مين» الصينيّ.

قال هوارد: «وأنا كذلك»، وأشار إلى كدسة أوراق طبعها من الطابعة.

كانت الساعة العاشرة مساء، فأقمنا معسكراً في منزلي. إذ تركتُ هوارد هناك طوال فترة ما بعد الظهر يبحث عبر الإنترنت، في حين تبادلنا، أنا وأوديت، أكداس الاستمارات. عانيت لساعات من ازدحام المرور، ودقّقت في قوائم المحلّفين بحسب الحيّ وقوائم المدّعي والمدَّعى عليها في قاعة المحكمة لأرى إن كان أيّ من المحلّفين المحتملين كان محكوماً جنائياً أو لديه أقارب جرت مقاضاتهم جنائيّاً.

«وجدت ثلاثة رجال متَّهمين بالعنف المنزليّ»، قال هوارد، وامرأة أُدينت أمّها بتهمة الحرق العمد، وسيّدة عجوز جميلة دهم رجال الشرطة بيتها بسبب وجود مختبر ميثامفيتامين فيه لحفيدها السنة الماضية».

انعكست الشاشة بلونها الأخضر حول وجه هوارد وهو يُجري مسحاً ضوئياً للصفحة. قال: «حسناً»، وفتح وعاء بلاستيكياً فيه حساء، وشرب من

طرفه من دون أن يستخدم ملعقة، «يا إلهي! إنّي أتضوّر جوعاً. ها هو ذا الشيء أخيراً: يمكنك أن ترى بعض الأوساخ على فيسبوك، لكن ذلك يتوقّف على إعدادات الخصوصيَّة».

«هل جرّبت موقع *LinkedIn*؟»

فقال: «نعم، إنه منجم ذهب».

أشار هوارد إلى الأرض حيث نشر الاستمارات وأرفق مع كل منها ورقة مطبوعة، وقال: «هذا الشخص؟ «إننا نحبّه. إنَّه يدرِّس العدالة الاجتماعيّة في جامعة ييل، والأفضل من ذلك أنَّ أمَّه ممرّضة». رفعت يدي استحساناً، وقلت «هذا هو الشخص المفضّل الثاني».

أعطاني استمارة أخرى. كانديس وايت. في الثامنة والأربعين من عمرها، أمريكيّة من أصل أفريقيّ، أمينة مكتبة، وأمّ لثلاثة أطفال. قد تكون صديقة لروث، وليست مجرّد حكم لصالح الدفاع. برنامجها المتلفز المفضّل والاس ميرسي.

ربّما لا أريد أن أدع القسّ ميرسي يعبث بقضيّة روث، لكن من المؤكّد أنّ الذين يشاهدونه سيتعاطفون مع موكّلتي.

تابع هوارد يستعرض اكتشافاته. «لديّ ثلاثة أعضاء في الاتحاد الأمريكيّ للدفاع عن الحريّات المدنيّة. وقد كرّمت هذه الفتاة إريك غارنر في مدوّنتها مسلسلة بعنوان (أنا لا أستطيع أن أتنفّس أيضاً).

«جيّد».

فقال هوارد: «على الطرف الآخر من الطيف، فإنّ هذا الرجل المحبوب هو شمّاس كنيسته، ويدعم أيضاً راند بول، ويدعو إلى إلغاء جميع قوانين الحقوق المدنيَّة».

أخذت الاستمارة من يده ووضعت على اسمه في الأعلى علامة X حمراء.

«شخصان نشرا معلومات حول تخفيض التمويل للرعاية الاجتماعيَّة»، قال هـوارد، «لست متأكّداً ما الذي تريدين فعله بهما».

فأجبته: «ضعهما في الكومة، في الوسط».

«حدّثت هذه الفتاة معلوماتها الشخصيّة منذ ثـلاث سـاعات: يـا يسـوع المسـيح! صدم أحد الأغبياء جانب سيّارتي».

وضعت استمارتها فوق استمارات أنصار بول راند، بالإضافة إلى شـخص آخـر يضـع صورة غلين بيك في ملفّه الشـخصيّ عـبر تـوتير. رفـض هـوارد اسـتمارتين لأنَّ صـاحبيها وضـعا علامــة إعجـاب عـلى صـفحات جماعـة «الجمجمـة» و«يـوم السـيف» عـلى الفيسبوك. «هل هذه من ألعاب العروش؟» سألته، مذهولة.

فقال هوارد: «إنّهم فرق القوّة البيضاء»، وأنا متأكّدة من أنّه احمرَّ خجلاً. «وجدت مجموعة تطلق على نفسها اسم Vaginal Jesus أيضاً. لكن لا يوجد أحد من المحلّفين المحتملين يستمع إليهم».

«ما تلك الكومة الكبيرة في الوسط؟»

فقال هوارد: «غير محدَّدة. لديَّ بعض صـور أشـخاص يرفعـون شـارات العصـابات المسلَّحة، وحفنة من رماة الحجارة، وثمَّة أحمق سجَّل مقطع فيديو لنفسه وهو يدخّن الهيروين، ولديَّ ثلاثون صورة سلفي لأشخاص ثملين».

«ألا يسعدنا من صميم قلوبنا أننا نعرف أنَّ النظام القضائيَّ يمكـن أن يثـق بهـؤلاء الأشخاص؟»

كنت أمزح، لكنَّ هوارد نظر إليَّ ملياً، وقال: «أصدقك القول، كان اليـوم صـادماً لي قليلاً. أقصد لم أكن أعرف كيف يعيش الناس حيواتهم، وماذا يفعلون عندما يظنون أنّ أحداً لا يراهم...»، ونظر إلى صورة امرأة تلوّح بكأس حمراء، «أو حتّى عنـدما يكونـون كذلك».

«عندما تبدأ ترى أسفل بطن أمريكا القذر، فستنتابك الرغبة في أن تذهب وتعيش في كندا».

«وهذه»، قال هوارد مشيراً إلى شاشة الكمبيوتر، «أوه، افعلي بها ما تشائين».

قطّبت جبيني عندما رأيت اسم WhiteMight @ على تويتر، وسألته: «من هو هذا المحلّف؟»

فقال: «إنّه ليس من المحلّفين، وأنا واثق بأنّ مايلز ستاندأب اسم مزيّف». لَمَّا نقر مرّتين على صورة الملفّ الشخصيّ ظهرت صورة رضيع حديث الولادة. «أين رأيت هذه الصورة من قبل...؟»

«إنَّها صورة ديفيس باور نفسها التي رفعوها أمام مبنى المحكمة قبل جلسة توجيه الاتهام. دققت في الصور. أظنّ أنَّ هذا حساب تورك باور».

«الإنترنت شيء جميل»، قلت، ونظرت إلى هوارد بافتخار، «أحسنت صنعاً».

نظر إليَّ متفائلاً، وقال: «هل انتهينا هذه الليلة؟»

«أوه هوارد»، ضحكت، «لقد بدأنا الآن».

في صباح اليوم التالي، التقيت أوديت في أحد المطاعم لنستعرض أرقام استمارات المحلّفين المحتملين الذين تريد كلّ واحدة منّا أن ترفضه. وفي الحالات النادرة التي تطابقت فيها أرقامنا (الشابّ البالغ من العمر 25 عاماً، الذي خرج توّاً من مستشفى الأمراض النفسيّة، والرجل الذي قُبض عليه الأسبوع الماضي) وافقنا على استبعادهما.

لا أعرف أوديت معرفة جيّدة. إنّها امرأة قاسية، جدّيَّة. في الاجتماعات القانونيَّة، حينما يكون الجميع سكارى، تجلس في الزاوية تشرب الصودا مع ليمون، وتخزّن ذكريات يمكن أن تستخدمها ضدّنا لاحقاً. كنت أقول لنفسي دائماً إنّها امرأة متوتّرة، وتساءلت: عندما تذهب إلى التسوّق، هل

يُطلب إليها، مثل روث، أن تُظهر إيصالاتها قبل أن تخرج من المتجر؟ هل تبرز إيصالاتها وهي صامتة؟ أو أنّها تقول لهم بصوت حادّ إنّها هي التي تقدّم السارقين من تلك المتاجر إلى المحاكمة؟

في محاولة لأقدّم لها غصن زيتون، ابتسمت لها، وقلت: «ستكون تجربة جيّدة، أليس كذلك؟»

وضعت ملفّ الاستمارات في حقيبتها، وقالت: «كلّها محاكمات كبيرة».

«لكنَّ هذه... أقصد...»، تلعثمت، أحاول أن أجد الكلمات.

التقت عينا أوديت، اللتان تشبهان رقائق صوّان، عينيَّ، وقالت: «إنَّ اهتمامي بهذه القضيّة يساوي اهتمامك بها. إنّي أقاضيها لأنّ الجميع في مكتبي يعملون فوق طاقتهم القصوى، وقد هبطت على مكتبي. ولا يهمّني إن كانت موكّلتك سوداء أو بيضاء أو مرقَّطة. لا يوجد لون لجريمة القتل». لَمَّا قالت ذلك، نهضت واقفة وقالت: «أراك غداً»، وذهبت.

«الحديث معك لطيف أيضاً»ـ تمتمت.

في تلك اللحظة، اندفع هوارد. نظّارته مائلة، وأطراف قميصه خارج بنطاله، ويبدو أنّه تناول حتّى الآن عشرة فناجين من القهوة، وقال: «كنت أجري بعض الأبحاث»، وجلس على الكرسيّ الذي كانت تجلس عليه أوديت منذ قليل.

«متى؟ في الحمّام؟» أعرف تماماً متى توقفنا عن العمل الليلة الماضية، فلم يكن لدينا سوى وقت فراغ قصير.

«إذاً، هناك دراسة أجرتها نايدا تيركيلسن من جامعة ستوني بروك في نيويورك بين العامين 1991 و1992، حول كيف يقيّم الناخبون البيض السياسيين السود الذين يرشحون أنفسهم لمنصب الرئاسة، وكيف يؤثّر التحيّز في تقييمهم، وكيف يتغيّر ذلك بالنسبة إلى الأشخاص الذين يبذلون جهدهم لئلّا يتَّسم تصرّفهم بالتحيّز...»

فقلت: «أولاً، إنّنا لا نستخدم دفاعاً يقوم على أساس العِرق، وإنّما على أساس العلم. ثانياً، إنّ روث ليست مرشّحة لمنصب الرئيس».

فقال هوارد: «نعم، لكن هناك تداعيات متقاطعة في الدراسة أظنّ أنّها يمكن أن تقول لنا أشياء كثيرة عن المحلّفين المحتملين»، وأضاف، «اسمعيني فقط. فقد أخذت تيركيلسن عينة عشوائيّة من زهاء ثلاثمئة وخمسين شخصاً أبيض من هيئة المحلّفين في مقاطعة جيفرسون في كنتاكي. وضعت ثلاث مجموعات عن مرشّحة مزيّفة لمنصب حاكم الولاية، لها السيرة الذاتيّة نفسها، والسيرة المهنيّة والبرنامج السياسيّ نفساهما، وكان الفارق الوحيد هو أنَّ المرشَّح كان رجلاً أبيض. وفي صور أخرى، عُدِّلت لتصبح رجلاً أسود ذا بشرة فاتحة، أو رجلاً أسود ذا بشرة داكنة. وطُلب إلى الناخبين تحديد ما إذا كانوا متحيّزين من الناحية العنصريَّة، وما إذا كانوا يميلون إلى أن يدركوا هذا التحيّز العنصريّ».

حرَّكت يدي أحثّه على أن يسرع.

قال هوارد: «حصل السياسيّ الأبيض على أكثر الردود إيجابيَّة».

«مفاجأة كبيرة.»

«نعم، لكن هذا ليس الجزء المثير للاهتمام. فمع تزايد التحيّز، انخفض تصنيف الرجل الأسود ذي البشرة الفاتحة أكثر من تصنيف الرجل الأسود ذي البشرة الداكنة. لكن، عندما قُسِّم الناخبون المتحيّزون إلى الذين يدركون أنّهم عنصريون، والذين لا يدركون ذلك، تغيَّرت الأمور. فقد كان الأشخاص الذين لم يبدوا اهتماماً بأنّهم متحيّزون أقسى على الرجل الأسود ذي البشرة الداكنة أكثر من الرجل الأسود ذي البشرة الفاتحة. أمّا الناخبون الذين كانوا قلقين حول ما الذي يمكن أن يقوله الناس عنهم بأنّهم عنصريّون، فوضعوا الرجل الأسود ذا البشرة الداكنة في مرتبة أعلى من الرجل الأسود ذي البشرة الفاتحة. هل فهمت ما أقصده؟ فإذا كان ثمَّة

شخص أبيض يحاول جاهداً ألّا يبـدو عنصريّـاً، فإنّـه سـيبالغ في التعـويض عـن تحيّـزه بقمع مشاعره الحقيقيّة تجاه الشخص ذي البشرة الداكنة».

حدَّقت إليه وسألته: «لماذا تقول لي ذلك؟»

فقال: «لأنَّ روث سوداء. بشرتها فاتحة، لكنَّها لا تزال سـوداء. ولا يمكنـك أن تثقـي بالضرورة بالأعضاء البيض في هيئة المحلّفين تلك حتّى لو قالوا إنّهـم ليسـوا متحيّـزين. فقد يكونون ضمنياً عنصريين أكثر بكثير ممّا يظهرونه إلى الخارج، وهذا يجعلهم أوراقاً خطِرة في هيئة المحلَّفين».

نظرت إلى الأسفل، إلى الطاولة. أوديت مخطئة. إنَّ جريمة القتـل ليسـت مـن لـون واحد. إنّنا نعرف ذلك من الذهاب مباشرة من المدرسة إلى السجن. هناك أسباب كثيرة تجعل كسر هذه الحلقة أمراً صعباً - وأحدها أنَّ المحلَّفين البـيض يـأتون إلى المحاكمـة وهم متحيِّزون. من المرجّح أنّهـم يقـدّمون تنـازلات لمـدَّعى عليـه يشـبههم أكـثر مـن الشخص الذي لا يشبههم.

قلت لهوارد: «حسناً، ما خطّتك؟»

لَمَّا صعدت إلى السرير في تلك الليلة، كان ميكا يغطّ في النوم، لكنَّه مـدَّ يـده بعـد قليل وضمّني إليه، فقلت له: «لا، أنا متعبة جداً ولا أستطيع أن أفعل أيَّ شيء الآن».

قال: «حتّى اشكريني؟»

استدرت نحوه وسألته: «لماذا؟»

فقال: «لأنّني وجدت لك اختصاصيّ حديثي الولادة».

اعتدلت في جلستي على الفور، وقلت: «و...؟»

«وسنراه في نهاية هذا الأسبوع. أعرفه من كليّة الطبّ».

«ماذا قلت له؟»

«قلت له إنَّ زوجتي المحامية المجنونة لن تنام معي إلى أن أجلب لها خبيراً في هذا الاختصاص».

ضحكت، ثمّ وضعت يدي على وجه ميكا وقبَّلته قبلات طويلة وبطيئة.

بحركة سريعة، أمسكني وألقاني على ظهري واعتلاني. ابتسامته تلمع في ضوء القمر. «إذا كنتِ ستفعلين لي ذلك لأنّني وجدت لك طبيب أطفال حديثي الولادة»، قال مغمغماً، «فماذا ستعطينني لو وجدت لك شيئاً أهمّ من ذلك، مثل طبيب طفيليات؟ أو طبيب جذام؟»

فقلت: «إنّك تفسدني بدلالك»، وشددته فوقي.

التقيت روث عند المدخل الخلفيّ للمحكمة، تحسّباً لأن يكون والاس ميرسي قد قرَّر أنَّ هيئة المحلّفين تستحقّ وقته وطاقته. كانت ترتدي البدلة الأرجوانية التي اشترتها من محلّ تي جي ماكس الأسبوع الماضي، وقميصاً أبيض متموّجاً، أمَّا شعرها فمسحوب إلى الوراء ومعقود في مؤخّرة رقبتها. كانت تبدو امرأة مهنية في كلِّ جزء فيها، وكنت سأظنّ أنّها موجودة هنا في المحكمة لكونها محامية لولا أنَّ ركبتيها كانتا ترتجفان بقوّة.

أمسكت بذراعها، وقلت لها: «استرخي. لا يستحقّ الأمر كلَّ هذا التوتّر».

نظرت إليّ، وقالت: «فجأة... أصبح شيئاً حقيقيّاً».

عرَّفتها إلى هوارد، وبينما كانا يتصافحان رأيت شيئاً يكاد يكون غير محسوس بينهما – إقرار بأنّه من المدهش أن يكونا كلاهما في قاعة المحكمة هذه، لكن لأسباب مختلفة. مشينا أنا وهوارد إلى جانبَي روث، ودخلنا قاعة المحكمة، وجلسنا في مقاعدنا في منصَّة الدفاع.

مع أنَّ القاضي ثاندر مكروه من جميع المحامين، إلّا أنَّ المحلَّفين أُعجبوا به كثيراً. فقد كان يرتدي ثياباً تليق به، بشعره الفضيّ المتموّج، وخطوط خبيرة جادة حول فمه، تشكّل هلالين حول أيّ حكمة سينطق بها. لَمَّا تجمَّع مئات المحلَّفين المحتملين في قاعة المحكمة، أعطى تعليمات أوليَّة.

«تذكّر»، همست لهوارد، منحنية من وراء ظهر روث. «تكمن مهمّتك في أن تـدوّن ملاحظات. ملاحظات كثيرة حتّى تتشنّج يدك. إذا أجفل أحد هؤلاء المحلَّفين عند ذكـر كلمة معيَّنة، يجب أن أعرف ما هي تلك الكلمة، وإذا غطّوا في النـوم، أريـد أن أعـرف متى».

أومأ برأسه في حين رحت أتفحَّص وجوه المحلَّفين المحتملين. تعرَّفت وجوه بعضهم من صورهم على الفيسبوك. لكن، حتّـى الـذين لم أتـذكّرهم ارتسـمت عـلى وجـوههم قسمات اعتدت رؤيتها: فهناك وجـوه الـذين أُطلـق علـيهم سرّاً اسـم الكشّـافة الـذين يشعرون بالسعادة لأنّهم يؤدّون هذا الواجب لأجـل بلـدهم، وهنـاك وجـوه مورغـان ستانلي - رجال أعمال لا يتوقَّفون عن النظر إلى سـاعاتهم لأنَّ وقـتهم أهـمّ بكثـير مـن قضاء اليـوم في مقصـورة هيئـة المحلّفـين. وهنـاك مرتكبـو الجـنح، الـذين مـرّوا بهـذه العمليّة من قبل، ويتساءلون لماذا بحقّ الجحيم تمَّ استدعاؤهم مرّة أخرى.

«سيداتي وسادتي، أنا القاضي ثاندر، وأودّ أن أرحّب بكم في المحكمة التي أرأسها».

يا إلهي!

«في هذه القضيّة، تمثّـل أوديـت لوتـون الولايـة، وتتمثـل مهمّتهـا في إثبـات هـذه القضـيّة بالأدلّـة القاطعـة بمـا لا يـدع مجـالاً للشـكّ. وتمثّـل المـدَّعى عليهـا كينيـدي ماكواري». ولَمَّا بدأ يتلو التهم التي ارتكبتها روث - القتل والقتل غـير العمـد - بـدأت ركبتاها ترتجفان بقوّة حتّى مددتُ يدي تحت الطاولة وضغطت عليها.

مضى القاضي ثاندر يقول: «سأشرح لكم لاحقاً ما الذي تعنيه هذه الاتهامـات، أمّـا الآن، هل يوجد أيّ فرد في هيئة المحلّفين يعرف طرفَيْ هذه القضيّة؟»

رفع أحد المحلَّفين يده.

سأله القاضي: «هل يمكنك أن تقترب من منصّة المحكمة؟»

اقتربتُ أنا وأوديت للمداولة، وشُغِّل جهاز الضوضاء حتّى لا يسمع بقية أعضاء هيئة المحلفين ما يقوله هذا الرجل الذي أشار إلى أوديت، وقال: «لقد سجنت أخي بتهمة مخدّرات، وهي كذابة عاهرة».

وبالطبع، فقد أُعفي من هذه المهمَّة.

بعد بضع استفسارات شاملة، ابتسم القاضي للمجموعة، وقال: «حسناً. سأدعكم تذهبون الآن، وسيأخذكم حاجب المحكمة إلى غرفة هيئة المحلَّفين. سنناديكم الواحد تلو الآخر لتتمكّن المستشارتان من طرح أسئلة متابعة فرديّة عليكم. أرجو ألّا تتحدَّثوا عن تجاربكم مع زملائكم المحلّفين. كما قلت لكم، يقع على عاتق الولاية عبء الإثبات. لم نبدأ بأخذ الأدلّة حتّى الآن، لذا أحثّكم على أن تكونوا منفتحي العقول، وأن تكونوا صادقين في إجاباتكم أمام المحكمة. نريد أن نتأكّد أنَّكم تشعرون بالراحة كمحلّفين في هذه القضيّة، كما يحقّ للأطراف المعنيّة أن يشعروا بأنّه سيحكم على قضيتهم أشخاص عادلون ومحايدون».

أتمنَّى أن يكون القاضي نفسه كذلك، قلت في نفسي.

إنَّ استجواب المحلَّفين أشبه بحفل كوكتيل للتعارف، لكن من دون مشروبات. تريد أن تتحدّث إلى أعضاء هيئة المحلّفين، وتريد أن يحبّوك. تريد أن تبدي اهتماماً بمهنهم، حتّى لو كانت تلك المهنة مراقبة الجودة في مصنع فازلين. وعندما يمرّ كلّ محلَّف أمامك، فإنّك تقيّمه أو تقيّمها. إنّ المحلّف المثاليّ هو الذي يحصل على خمس درجات، في حين المحلّف السيّئ يحصل على درجة واحدة.

سيُدرج هوارد في قائمة الأسباب التي تجعل المحلَّف غير مقبول. في نهاية المطاف سينتهي بنا الأمر إلى أن أقبل المحلَّفين الذين يحصلون على 3 و4 و5 درجات، لأنّنا نستطيع أن نستخدم سبع نقاط لطرد أحد المحلّفين

من المجموعة من دون الحاجة إلى إبداء أيّ سبب. ولا نريد أن نستخدمها كلّها دفعة واحدة، لأنَّه ماذا لو ظهر محلَّف آخر يشكّل لنا مشكلة أكبر لم يأتِ دوره بعد؟

كان أوّل رجل يتقدّم إلى المنصّة يدعى ديريك ويلش، في الثامنة والخمسين من عمره، لديه أسنان سيّئة، ويرتدي قميصاً مزهراً تدلّت أطرافه خارج بنطاله. حيّته أوديت بابتسامة، وقالت له: «السيد ويلش، كيف حالك اليوم؟»

«أظنّ أنّني على ما يرام. جائع قليلاً».

ابتسمت وقالت: «وأنا أيضاً. قل لي، هل عملنا في أيّ قضيّة معاً قبل الآن؟»

فقال: «لا».

«ماذا تعمل يا سيّد ويلش؟»

«أدير محلاً لبيع الخردوات».

ثمَّ سألته عن أبنائه وأعمارهم. نقر هوارد على كتفي. كان يبحث على نحو محموم في الاستمارات، وهمس: «أخوه شرطيّ».

«أقرأ صحيفة وول ستريت جورنال»، قال ويلش عندما التفت إلى الوراء، «وهارلان كوبين».

«هل سمعت عن هذه القضيَّة؟»

فقال: «قليلاً. في الأخبار. أعرف أنَّ الممرّضة اتُّهمت بقتل طفل».

أجفلت روث إلى جانبي.

«هل لديك أيّ فكرة إن كانت المدَّعى عليها مذنبة بهذه الجريمة؟» سألته أوديت.

«حسب علمي، في بلدنا، فإنّ الجميع أبرياء حتّى تثبت إدانتهم».

«كيف ترى دورك كعضو في هيئة المحلّفين؟»

هزَّ كتفيه، وقال: «أظنّ أن أستمع إلى الأدلّة... وأفعل ما يقوله القاضي».

فقالت أوديت: «شكراً حضرة القاضي»، وجلست.

نهضت قليلاً من مقعدي، وقلت: «مرحباً سيّد ويلش. لديك قريب في دائرة إنفاذ القانون، أليس كذلك؟»

«أخي شرطيّ».

«هل يعمل في هذا الحيّ؟»

فأجاب: «منذ خمس عشرة سنة».

«هل حدَّثك يوماً عن عمله؟ ما نوع الأشخاص الذين يتعامل معهم؟»

«أحياناً...»

«هل سُرق متجرك قبل الآن؟»

«تعرَّضنا للسرقة مرَّة واحدة».

«هل ترى أنَّ ارتفاع معدّلات الجريمة تعزى إلى تدفّق الأقليّات إلى الحيّ؟»

فكَّر قليلاً، وقال: «أظنّ أنَّ لذلك علاقة أكبر بالأوضاع الاقتصاديَّة، فحينما يفقد الناس وظائفهم يعتريهم اليأس».

ثمّ سألته: «مَن في رأيك له الحقّ في إملاء العلاج الطبيّ - أسرة المريض أم الطبيب المختصّ؟»

«إنّها مسألة تُدرس حسب تفاصيلها...»

«هل عانيت أنت أو أحد أفراد أسرتك من نتيجة سيّئة في المستشفى؟»

تقلَّص فم ويلش، وقال: «ماتت أمّي وهي على طاولة العمليّات في أثناء إجراء تنظير باطنيّ روتينيّ».

«هل ألقيت اللوم على الطبيب؟»

تردَّد، ثمَّ قال: «توصَّلنا إلى تسوية».

راية رُفعت في الميدان. قلت له: «شكراً»، ولَمَّا جلست، نظرت إلى هوارد وهززت رأسي.

أمَّا المحلّف المحتمل الثاني فكان رجلاً أسود في أواخر الستينات من عمره. سألته أوديت عن المستوى الدراسيّ الذي وصل إليه، وهل هو متزوّج، ومع من يعيش، وما هي هواياته. ترد معظم هذه الأسئلة في الاستمارة، لكنّك تسألها مرّة أخرى وأنت تنظر في عين الشخص.

قلت: «فهمت أنّك تعمل حارس أمن في مركز تجاريّ. هل تعدّ نفسك فرداً في جهاز إنفاذ القانون؟»

فأجاب: «أظنّ أنّ هذا صحيح على نطاق ضيّق».

«سيّد جوردان، أنت تعلم أنّنا نبحث عن هيئة محلّفين محايدة»، قالت أوديت، «ولا بدَّ أنَّك لاحظت أنَّك أنت والمدَّعى عليها شخصان ملونان. فهل يمكن أن يؤثّر ذلك في قدرتك على اتّخاذ قرار منصف؟»

رفَّ بعينيه، وقال: «هل يوجد أيّ شيء في لونك يجعلك غير منصفة؟»

أظنّ أنَّ السيّد جوردان قد يكون الشخص المفضّل لديَّ في العالم الآن. نهضت واقفة عندما أنهت أوديت استجوابها، وسألته: «هل تظنّ أنَّ السود عرضة لارتكاب جرائم أكثر من البيض؟»

كنت أعرف الإجابة توّاً، لذلك لم يكن هذا سبب سؤالي. فقد أردت أن أرى كيف ستكون ردّة فعله معي، لأنّني امرأة بيضاء، تطرح سؤالاً كهذا.

فقال ببطء: «أعتقد أنّ السود عرضة لأن ينتهي بهم الأمر في السجن أكثر من البيض».

قلت: «شكراً لك يا سيّدي»، والتفتّ نحو هوارد، وأومأت برأسي على نحو غير ملحوظ، كأنَّني أقول: عشر درجات.

هناك العديد من الشهود الذين يقعون في مكان ما بين المرعب والرائع. ثمّ وقفت المحلّفة رقم 12 أمام المنصَّة. اسمها ليلا فيركلاف، عمرها مثاليّ لتكون في هيئة المحلَّفين، شقراء ومفعمة بالحيويَّة، تدرّس في المدرسة الداخليَّة فصلاً دراسياً متكاملاً عن العنصريَّة. مهذّبة ومهنية إلى درجة كبيرة مع أوديت، لكنّها ابتسمت لي عندما وقفت، وقلت لها: «ستكون ابنتي في مدرسة المنطقة التي تعملين فيها، لذلك انتقلنا إلى ذلك الحيّ».

فقالت المرأة: «ستحبّينها».

«الآن، ها أنا ذي هنا يا سيدة فيركلاف، امرأة بيضاء تمثّل امرأة سوداء تواجه أحد أخطر الاتّهامات التي يمكن أن توجَّه إلى أيِّ شخص. لديَّ بعض المخاوف، وأودّ أن أتحدّث عنها، لأنّ من المهمّ أن تشعري بالارتياح في هيئة المحلّفين بقدر ما أشعر أنا بالارتياح لتمثيل موكّلتي. كما تعلمين، فإنّنا نتحدّث جميعنا عن أنَّ التحيّز شيء سيّئ، لكنّه حقيقة واقعة. ففي سبيل المثال، هناك أنواع معيّنة من القضايا لا يمكنني أن أكون فيها عضواً في هيئة المحلّفين. أقصد؛ أنا أحبّ الحيوانات، وإذا رأيت أحداً يتصرّف بقسوة تجاهها، فلا يمكنني أن أكون موضوعيّة – أستشيط غضباً حتّى يسيطر غضبي على أيّ تفكير عقلانيّ. وإذا كانت هذه هي الحال، فسأجد صعوبة في تصديق أيّ شيء يقوله لي الدفاع».

«فهمت وجهة نظرك تماماً، لكن لا يوجد في جسدي عظمة منحازة»، أكّدت السيّدة فيركلاف.

«إذا صعدتِ في الحافلة، وكان فيها مقعدان شاغران - أحدهما إلى جانب رجل أمريكيّ من أصل أفريقيّ، والآخر إلى جانب امرأة بيضاء مسنَّة، فأين تجلسين؟»

«سـأجلس في أول مقعـد شـاغر أجـده»، قالـت وهـزّت رأسـها، «أعـرف مـا الـذي تقصدينه يا سيّدة ماكوري. لكن بصراحة، لا توجد لديَّ مشكلة مع السود».

في هذه اللحظة، أسقط هوارد قلمه.

سمعته كما لو كانت طلقة ناريَّة. استدرت إليه، والتقت عيناي عينيـه، وتظاهرت بأنَّ نوبة سعال شديدة انتابتني. هذه هي الإشارة التي اتفقنا عليها أنا وهوارد مسبقاً. رحت أسعل حتّى كدت أختنق وتخـرج رئتـي مـن فمـي، ثـمَّ شربـت مـن كـأس الماء الموجودة على طاولة الدفاع، وقلت للقاضي: «زمـيلي سـيكمل بالنيابـة عنّـي يـا حضرة القاضي».

لَمَّا وقف هوارد، بدأ يبتلع الهواء على نحو متشنّج. كنت واثقة بأنَّ القاضي سيظنّ أنّ فريق الدفاع مصاب بالطاعون، عندما رأيت ردّة الفعل على وجه ليلا فيركلاف.

تجمَّدت في الدقيقة التي وقف فيها هوارد أمامها.

كان الوقت بين ذلك والسرعة التي افترَّت فيها شفتاها عن ابتسـامة خفيفـة جـداً، لكن هذا لا يعني أنّني لم أره.

قال لها هوارد: «أنا آسف جداً يا سيدة فيركلاف. أريد أن أطرح عليك بضعة أسئلة فقط. ما نسبة الأطفال السود الموجودين في فصلك؟»

«حسناً، يوجد لديَّ فصل يضمّ 30 تلميذاً، ثمانية منهم أمريكيّون من أصل أفريقيّ في هذه السنة».

«هل ترين أنّه يجب تأديب الأطفال الأمريكيين من أصل أفريقيّ أكثر من الأطفال البيض؟»

بدأت تدير خاتمها في إصبعها، ثـمّ قالـت: «إنّي أعامـل جميـع تلامـذتي عـلى قـدم المساواة».

«لنخرج من الفصل الدراسيّ للحظة، هل تظنـين بصـورة عامـة أنّـه يجـب تأديـب الصبية الأمريكيين من أصل أفريقيّ أكثر من الصبية البيض؟»

«حسناً، لم أقرأ دراسات حول هذا الموضوع»، وظلّت تفتل خاتمها بتوتّر شديد، «لكن يمكنني أن أقول لك إنّني لست جزءاً من المشكلة».

وهذا يعني بالطبع أنّها ترى أنّ هناك مشكلة.

لَمَّا أنهينا الاستجواب الفرديّ، وأُعيدت المجموعة الأولى المكوّنة من أربعة عشر محلفاً إلى غرفة الانتظار، بدأنا نتناقش أنا وهاورد ونفرز من نريد استبعاده، إن وجد.

«هل نحن مستعدّون لمناقشة الأشخاص الذين يجب استبعادهم؟» سأل القاضي ثاندر.

فقالت أوديت: «أودّ أن أستبعد المحلّف رقم 10 الذي أشار إلى أنّ الشخص الأسود لا يستطيع أن يحصل على وظيفة منصفة، ناهيك عن محاكمة عادلة».

فأجاب: «لا يوجد لديَّ اعتراض».

وأجبت: «أودّ أن أستبعد المحلّف رقم 8 الذي اغتصب ابنته رجل أسود».

فقالت أوديت: «لا يوجد لديَّ اعتراض».

واستبعدنا رجلاً زوجته المسنّة على فراش الموت، وأمّاً طفلها مريض، ورجلاً يعيل أسرته المكوّنة من ستّة أفراد حذّره رئيسه أنّه إذا تغيّب أسبوعاً عن العمل، فإنّه سيجازف بوظيفته.

قلت: «أريد أن أستبعد المحلّف رقم 12».

فقالت أوديت: «مستحيل».

قطّب القاضي ثاندر جبينه في وجهي، وقال: «لم تذكري سبب الاستبعاد أيَّتها المستشارة».

فقلت له: «إنَّها عنصريَّة؟» لكن بدا ذلك سخيفاً حتَّى بالنسبة إليَّ، فالمرأة تدرّس طلّاباً من ذوي البشرة السوداء، وأقسمت أنَّها ليست متحيّزة. ربّما كان تحيّزها ضمنياً وفاقاً لردّة فعلها تجاه هوارد وتوتّرها وهي تدير الخاتم في يدها، لكن لو شرحت تجربتنا الصغيرة لأوديت أو للقاضي، فإنّي سأكون في موقف حرج.

أعرف أنَّني لو طلبتها لاستجوابها مرّة أخرى، فلن يكون ذلك مجدياً، وهذا يعني أنَّه إمّا أن أقبلها في هيئة المحلّفين، وإمَّا أن أستخدم حقّي في استبعادها من دون سبب أو مسوّغ.

لقد استخدمت أوديت ذلك عندما استبعدت ممرّضة، واستبعدتُ منظّماً مجتمعياً أقرّ بأنّه يستطيع أن يجد ظلماً في أيّ مكان، واستبعدتُ امرأة فقدت رضيعها، ورجلاً رفع دعوى قضائيّة على مستشفى بسبب خطأ طبيّ، وشخصاً عرفت - بفضل هوارد والفيسبوك - أنّه حضر مهرجاناً موسيقيّاً أقامته «القوة البيضاء».

مال هوارد من أمام روث ليهمس في أذني، وقال: «استخدميها لأنَّها ستسبّب لنا مشكلة، حتّى لو لم تكن تبدو أنّها ستفعل ذلك».

«أيتها المستشارة»، سأل القاضي، «هل إنّنا مدعوون جميعاً إلى جلسة الثرثرة الصغيرة معكما؟»

«أنا آسفة يا حضرة القاضي – أريد لحظة للتشاور مع مساعدي المحامي؟» والتفتُّ إلى هوارد، وقلت: «لا أستطيع. أقصد، لديَّ ستة وثمانون محلّفاً آخرين يجب استجوابهم، ولم يبقَ لدينا سوى أربع مرّات يحقّ لنا فيها استبعاد محلَّفين. قد يكون الشيطان جاثماً في المجموعة التالية». نظرت في عينيه، وأضفت: «إنّك على صواب. إنّها متحيّزة، لكنّها لا ترى أنّها كذلك، ولا تريد أن تُرى هكذا. لذلك ربّما، ربّما فقط، تميل لصالحنا».

نظر هوارد إليَّ للحظة طويلة. أعرف أنّه أراد أن يعبّر عن رأيه، لكنّه هزّ رأسه وقال: «أنتِ الرئيسة».

فقلتُ للقاضي: «نقبل المحلّفة رقم 12».

وتابعت أوديت: «أودّ أن أستبعد المحلّف رقم 2».

إنّه حارس الأمن الأسود رقم 10 الذي يناسبني. أوديت تعرف ذلك، لذلك كانت مستعدّة لاستخدام حقّها في استبعاده. لكنّي تصدّيت لها مثل طلقة قبل أن تنهي جملتها، وقلت: «حضرة القاضي، أريد عقد اجتماع جانبيّ». لَـمَّا اقتربنا من منصّة القاضي، قلت: «حضرة القاضي، هذا انتهاك صارخ لسابقة باتسون».

كان جيمس باتسون رجلاً أمريكيّاً من أصل أفريقيّ، حوكم بتهمة السطو في ولاية كنتاكي من قبل هيئة محلّفين جميع أعضائها أشخاص بيض، وفي أثناء اختيار المحلَّفين لأجل المحاكمة، استبعد المدّعي العامّ ستّة محلّفين محتملين - أربعة منهم من ذوي البشرة السوداء، وحاول محامي الدفاع استبعاد هيئة المحلّفين كلّها لأنّ باتسون لم يُحاكم من قبل عينة تمثيلية من المجتمع المحليّ، لكنّ القاضي رفض ذلك، وانتهى الأمر إلى إدانة باتسون. وفي عام 1986، حكمت المحكمة العليا لصالح باتسون، وذكرت أنَّ استخدام المدّعي العامّ حقّ استبعاد محلّفين في قضيّة جنائيّة لا يمكن أن يستند إلى العِرق فقط.

ومنذ ذلك الحين، عندما يُستبعد شخص أسود من هيئة محلّفين، يحقّ لأيّ محام أو محامية دفاع استدعاء سابقة باتسون.

«حضرة القاضي»، تابعتُ كلامي، «التعديل السادس من الدستور يضمن حقَّ المدَّعى عليه في أن يُحاكم أمام هيئة محلّفين من أقرانه».

«شكراً لك سيّدة ماكواري، أعرف جيداً ما يقوله التعديل السادس».

«لم أقصد أن أُلمّح إلى غير ذلك. إنّ نيو هافن مقاطعة شديدة التنوّع، ويجب أن تعكس هيئة المحلّفين هذا التنوّع، وحالياً فإنَّ هذا الرجل هو المحلّف الأسود الوحيد في هذه المجموعة المكوّنة من أربعة عشر محلفاً».

فقالت أوديت: «لا بدَّ أنَّك تمزحين»، وأضافت، «هل تقصدين أنَّني عنصريَّة؟»

«لا، إنّي أقول إنّ من الأسهل لك أن تجمعي هيئة محلّفين لصالح الولاية من دون السؤال بسبب عرقك».

التفت القاضي إلى أوديت، وسألها: «ما سبب رفضك له أيّتها المستشارة؟»

فقالت: «وجدته مولعاً بالجدل».

فقال لي القاضي ثاندر محذّراً: «هذه هي المجموعة الأولى من المحلّفين، فلا تغضبي بسرعة».

ربّما كان القاضي يؤيّد الادّعاء حالياً على نحو صريح. ربّما كنت أريد أن أُظهر لروث أنَّني سأحارب لأجلها. مهما كان السبب، اعتدلت في وقفتي، واغتنمت هذه الفرصة حتّى أخلَّ بتوازن أوديت حتّى قبل أن نبدأ، وقلت: «أريد جلسة استماع في هذا الأمر. أريد أن تبرز أوديت ملاحظاتها. فلا يزال هناك أشخاص آخرون يحبّون الجدال في هيئة المحلّفين هذه، وأريد أن أعرف إن كانت قد وثَّقت هذه الصفة لدى المحلّفين الآخرين».

زاغت عينا أوديت، وصعدت إلى منصَّة الشهود. يجب أن أعترف بأنّني أمتلك ما يكفي من كبرياء محامية دفاع كي أرى المدعية العامّة تقف هناك، في القفص. راحت تحدّق إلى وجهي عندما اقتربت منها. «أشرت إلى أنَّ المحلّف رقم 2 يحبّ الجدال أيضاً. هل استمعت إلى ردود المحلَّف رقم 7؟»

«طبعاً استمعت».

سألتها: «كيف وجدت سلوكه؟»

فقالت: «وجدته ودوداً».

نظرتُ إلى الملاحظات الممتازة التي دوّنها هوارد، ثمَّ قلت لها: «حتّى عندما سألته عن الأمريكيين من أصل أفريقيّ والجريمة خرج من مقعده وقال إنّك تلمّحين إلى أنّه عنصريّ؟ أليس هذا جدالاً؟»

هزّت أوديت كتفيها، وقالت: «كانت نبرته مختلفة عن نبرة المحلّف رقم 2».

فقلت: «من قبيل المصادفة، وكذلك لون بشرته»، وأضفت، «قولي لي، هل دوّنتِ أيّ ملاحظة بأنّ المحلّف رقم 11 يحبّ الجدال؟»

نظرت في دفتر ملاحظاتها وقالت: «كنّا نتحرّك بسرعة. لم أدوّن كلَّ ما كنت أفكر فيه لأنّه لم يكن ذا أهميّة».

فقلت موضّحة: «لأنّه لم يكن ذا أهميّة، أم لأنّ المحلّف أبيض البشرة؟» ثمّ التفتُّ إلى القاضي، وقلت: «شكراً يا حضرة القاضي».

التفت القاضي ثاندر إلى المدَّعية العامّة وقال: «لن أسمح بالاستبعاد من هيئة المحلّفين. لا أسمح لك بأن تضعيني في موقف باتسون في بداية هذه اللعبة يا سيدة لوتون. المحلف رقم 2 يبقى في هيئة المحلفين».

انسللت إلى مقعدي إلى جانب روث، منتفشة. غمزني هوارد كما لو كنت إلهة. لا يمكنك أن تلقّن مدَّعية عامّة درساً كلَّ يوم. فجأة، مرَّرت لي روث قصاصة. فتحتها وقرأت الكلمتين البسيطتين: شكراً لك.

لَمَّا صرَفنا القاضي في ذلك اليوم، طلبت إلى هوارد أن يعود إلى بيته وينام قليلاً. غادرت أنا وروث قاعة المحكمة معاً. ألقيت نظرة سريعة إلى الخارج أولاً لأتأكّد أنّ وسائل الإعلام غير موجودة. لم يكن هناك أحد - لكنّي أعرف أنّ ذلك سيتغيّر عندما تبدأ المحاكمة.

لَمَّا وصلنا إلى ساحة انتظار السيّارات، بدا أنّني وروث لم نكن في عجلة من أمرنا لتعود إلى البيت. ظلّت روث مطرقة برأسها، ومن معرفتي بها حتّى الآن عرفت أنَّ ثمَّة شيئاً يدور في رأسها.

سألتها: «هل تريدين أن نذهب ونتناول كأساً من النبيذ؟ أم يجب أن تعودي إلى إديسون؟»

هزّت رأسها وقالت: «أصبح يغادر البيت أكثر ممَّا أغادره هذه الأيام».

«يبدو أنّك لست مسرورة من ذلك».

فقالت روث: «لم أعد قدوة له».

انعطفنا عند الناصية إلى حانة أتردّد إليها أحياناً، لأحتفل بنصر أو بهزيمة. أعرف أنّها ممتلئة بمحامين أعرفهم، فانسللنا إلى مقصورة في الخلف. طلبنا كلتانا نبيذ بينو نوار، ولَمَّا وصلت الكأسان، رفعت كأسي لها وقلت: «نخب الحكم بالبراءة».

لاحظت أنَّ روث لم ترفع كأسها.

قلت لها بلطف: «روث، أعرف أنّ هذه هي أول مرة تُحاكمين فيها. لكن صدّقيني - سارت الأمور اليوم على نحو ممتاز».

راحت تدوّم النبيذ في كأسها، وقالت: «كانت أمّي تحكي قصّة بأنّها كانت تدفعني ذات يوم في عربة الأطفال في حيّنا في هارلم، وتجاوزتها سيّدتان بشرتهما سوداء، فقالت إحداهما للأخرى، إنّها تتجوّل هنا كما لو أنّ هذه ابنتها. إنّها ليست ابنتها. لا أحبّ أن تفعل المربّيات ذلك. كان لون بشرتي فاتحاً أكثر من لون بشرة أمّي. كانت تضحك لأنّها تعرف أنّني ابنتها، ولَمَّا كبرت، لم يكن الصبية البيض هم الذين يجعلونني أشعر بالحزن تجاه نفسي، وإنّما الصبية السود أيضاً». نظرت روث إليَّ، ومضت

تقول: «هذه المدّعية العامّة ذكّرتني بـذلك اليـوم، كـما لـو أنّهـا كانـت هنـاك لتقـتصَّ منّي».

«لا أعرف إن كان ذلك شـيئاً شخصـيّاً بالنسـبة إلى أوديـت. إنّهـا تحـبّ أن تنـتصر فقط».

ما أدهشني أنَّني لم أُجرِ حديثاً كهذا مع شـخص أمـريكيّ مـن أصـل أفريقـيّ، فأنـا أحرص دائماً على ألّا أبدو متحيّزة، وأخشى كثيراً أن أقول شيئاً مسيئاً. فقد رافعتُ كثـيراً عن موكلين أمريكيين من أصل أفريقيّ، لكنّي كنت أعدّ نفسي لأن أكون ذلك الشـخص الذي يمتلك كلّ الإجابات، أمّا روث فقد رأت ذلك القناع ينزلق.

مع روث، أعـرف أنّنـي أسـتطيع أن أسـأل سـؤالاً غبيـاً تسـأله فتـاة بيضـاء، وأنّهـا ستجيبني من دون أن تحكم على جهلي، وإذا ما تدخّلت في أمورهـا، فـإنّي أعـرف أنّهـا ستقول لي ذلك. تذكَّرت عندما شرحت لي الفرق بين الحياكة والإكسسـوارات، أو كيـف سألتني عن اسمرار البشرة تحت الشمس، وكـم يسـتغرق تقشـير الجلـد المتقـرّح. إنّـه أشبه بالفرق بين الرقص فوق قشرة التعارف والغوص إلى مركز العلاقة الفوضويّ. فهـي ليست مثاليّة دائماً، وليست لطيفة دائماً - لكن بما أنّها امرأة راسخة في الاحـترام، فإنّهـا لا تتزعزع.

قالت روث: «لقد فاجأتني اليوم».

ضحكت، وقلت: «لأنّني أتقن عملي؟»

«لا. لأنّ نصف الأسئلة التي طرحتهـا تسـتند إلى العِـرق»، والتقـت عيناهـا عينَـيّ، «بعد كلّ ذلك الوقت وأنت تقولين لي إنّ هذا لا يمكن أن يحدث في المحكمة».

فقلت بصراحة: «إنّها لا تحدث. عندما ستبدأ المحاكمة يوم الاثنين، سيتغيّر كلّ شيء».

«هل ما زلتِ ستسمحين لي بأن أتكلَّم؟» قالت روث، «لأنّني أريد أن أقول ما يعتمل في صدري».

«أعدك». وضعت كأسي على الطاولة، وقلت: «روث، كما تعرفين، إنّ تظاهرنا بأنّه لا توجد علاقة للعنصريّة بقضيّة ما لا يعني أنّنا لسنا على علم بها».

«إذاً لماذا تتظاهر؟»

«لأنّ هذا ما يفعله المحامون. إنّي أكذب لأكسب رزقي. إذا كنت أرى أنّ ذلك سيجلب لك البراءة، فإنّي أستطيع أن أقول لهيئة المحلّفين إنّ ديفيس باور وحش يستطيع أن يغيّر هيئته من بشر إلى ذئب، وإذا صدّقوا ذلك، فسيكون ذلك عاراً عليهم».

التقت عينا روث عينيَّ، وقالت: «إنّها عمليّة تهدف إلى صرف الانتباه. إنّه مهرّج يلوّح في وجهك كي لا تلاحظي خفّة يده خلفه».

من الغريب أن أسمع أحداً يصف عملي هكذا، لكن هذا غير صحيح، فقلت لها: «وأظنّ أنّ كلّ ما يمكننا فعله الآن هو أن نشرب لننسى»، ورفعت لها كأسي.

أخذت روث أخيراً رشفة من نبيذها، وقالت: «لا يوجد نبيذ بينو نوار كاف في العالم».

مرَّرت إبهامي حول حافة منديلي، وقلت: «هل تظنين أنّه سيأتي زمن تختفي فيه العنصريّة؟»

«لا، لأنّ ذلك يعني أنّ على البيض أن يقتنعوا بأنّهم متساوون مع الآخرين. من الذي سيختار تفكيك النظام الذي يجعلهم مميّزين؟»

شعرت بحرارة تغمر وجهي. هل تتحدّث عنّي؟ هل تقترح أنّ سبب عدم معارضتي للنظام أنّ لديَّ، شخصيّاً، شيئاً سأخسره؟

لكنَّ روث استدركت، وقالت: «لكن، ربّما أنا مخطئة».

رفعت كأسي، وقرعتها بكأسها، وقلت: «نخب خطوات طفل».

بعد يوم آخر من اختيار أعضاء هيئة المحلفين، أصبح لدينا اثنا عشر محلفاً بالإضافة إلى محلفين بديلين. أمضيت عطلة نهاية الأسبوع وأنا متوارية في غرفة مكتبي في البيت أعدّ المرافعة الافتتاحيّة أمام المحكمة يوم الاثنين، ولم آخذ إجازة إلّا بعد ظهر يوم الأحد للقاء طبيب حديثي الولادة، إيفان كيلي - غارسيا، الذي كان سعيداً جداً لأنه سمع من زميله ميكا بعد سنوات عدّة، وأبدى سروراً ظاهرياً أيضاً لاستضافة زميله السابق وزوجته المحامية المجنونة وطفلتهما ذات السنوات الأربع، التي كانت نائمة في المقعد الخلفيّ في السيّارة. يعيش إيفان في ويستبورت، كونيتيكت، مع زوجته التي استطاعت أن تعدَّ لنا طبق غواكامولي وصلصة بعد أن ركضت مسافة خمسة عشر ميلاً في تمرينها الصباحيّ. لم ينجبا أطفالاً بعد، لكن لديهما كلب بيرنيز ضخم. «انظر إلينا يا أخي»، قال إيفان، «متزوّج. يعمل. مُتّزِن. هل تذكر عندما أوقعنا أسيد وقرّرت أن أتسلّق شجرة لكنّي نسيت أنّي أخاف المرتفعات؟»

نظرت إلى ميكا، وسألته: «هل أوقعتما أسيد؟»

«ربّما لم تخبرها عن السويد أيضاً»، قال إيفان مازحاً، «السويد؟» ورحت أنقل نظري بين الرجلين.

«لدى زوجتي أول قضيّة قتل في المحكمة، لذلك فإنّي أعتذر سلفاً لو سألتك عشرة آلاف سؤال».

همستُ لميكا: «سأسمع منك القصّة بأكملها فيما بعد»، ثمّ ابتسمت لإيفان، وقلت: «أرجو أن تشرح لي طريقة فحص الأطفال حديثي الولادة».

فقال: «حسناً، في الأساس، كان ذلك تغييراً لقواعد اللعبة بالنسبة إلى وفيات الأطفال. بفضل شيء يسمّى مطياف الكتلة الترادفيّة، الذي يُجرى في المختبرات التابعة للولاية، يمكننا تحديد حفنة من الأمراض الخلقيّة التي يمكن علاجها أو إدارتها. إنّي متأكّد أنّ ابنتك أجرت هذا الفحص، وربّما لم تعرفي ذلك».

سألته: «ما تلك الأمراض؟»

«أوه، كلّ ما يرد في قاموس علوم الطالب المجتهد: نقص البيوتينيداز - هذا عندما لا يستطيع الجسم إعادة استخدام وإعادة تدوير ما يكفي من البيوتين الحرّ. وفرط تنسّج الكظر الخلقي وقصور الغدة الدرقية الخلقي، وهي عيوب هرمونيَّة، والغالكتوزيميا في الدم التي تمنع الرضيع من معالجة سكّر معيّن موجود في الحليب، حليب الثدي والحليب الاصطناعيّ. واعتلالات الهيموغلوبين، وهي مشكلات في خلايا الدم الحمر. واضطرابات الأحماض الأمينية التي تسبّب تراكم الأحماض الأمينية في الدم أو في البول؛ واضطرابات أكسدة الأحماض الدهنية التي تمنع الأجسام من تحويل الدهون إلى طاقة؛ واضطرابات الحموضة العضوية، وهي نوع من الهجين بين الاثنين. ربما سمعت عن بعضها، مثل فقر الدم المنجليّ الذي يصيب الكثير من الأمريكيين من أصل أفريقيّ»، ثمّ أضاف، «إنّ الأطفال الذين يصابون بهذا المرض لا يمكنهم تكسير أنواع معينة من الأحماض الأمينية، فتتراكم في الدم أو في البول. وإذا لم تعرفي أنَّ ابنك مصاب بهذا المرض، فإنّه يؤدّي إلى ضعف إدراكي

وحدوث نوبات صرع، أمّا إذا اكتُشف بعد الولادة مباشرة، فـيمكن معالجتـه بوسـاطة نظام غذائيّ خاصّ، ويكون التشخيص ممتازاً».

أعطيته نتائج فحص المختبر، وقلت: «يقول المختبر إنَّ هنـاك خلـلاً في فحـص هـذا الطفل المريض حديث الولادة».

قلَّب الصفحات القليلة الأولى، ثمَّ قـال: «وجـدتها - هـذا الطفـل مصـاب «بـنقص نازعة هيدروجين الأسيل -الإنزيم المشترك A متوسّط السلسلة». إنّه اضـطراب صـبغيّ جسديّ متنحّ من أكسدة الأحماض الدهنيّة. يحتاج جسمك إلى الطاقـة للقيـام بعمـل الأشياء - الحركة، العمل، الهضم، حتّى التنفّس- إنّنا نحصل عـلى وقودنـا مـن الطعـام، ونخزّنه في أنسجتنا بمنزلة أحماض دهنيّة إلى أن نحتاج إليه. عند هذه النقطة، نؤكسـد تلك الأحماض الدهنيّة لتوليـد الطاقـة لعمـل وظـائف الجسـم. لكـنَّ الطفـل المصـاب باضطراب أكسدة الأحماض الدهنيَّة لا يستطيع أن يفعل ذلـك لأنّـه يفتقـد إلى إنـزيم رئيسيّ، وهذا يعني أنّه عندما يستنفد مخزونه من الطاقة، يتعرَّض لمشكلة».

«يعني...؟»

أعاد إليَّ نتائج المختبر، وقال: «ستنخفض نسبة السكّر في دمـه، وسيشـعر بالتعـب، ويصبح بطيء الحركة».

أثارت هذه الكلمات شيئاً في عقلي. يُعـزى انخفـاض نسـبة السـكّر في دم ديفـيس باور إلى سكّري الحمل لدى أمّه. لكن، ماذا لـو لم يكـن الأمـر كـذلك؟ «هـل يمكـن أن يؤدّي ذلك إلى موت الطفل؟»

«إذا لم يتمَّ تشخيصه في وقت مبكر. كثـير مـن هـؤلاء الأطفـال لا تظهـر عليهم الأعراض حتّى يحدث شيء كمحفّـز - عـدوى، أو تطعـيم، أو صـيام -

ثمّ يحصل تـدهور سريـع يشـبه إلى حـدّ كبـير متلازمـة مـوت الرضـيع المفـاجئ - وفي الأساس يتعرّض الطفل إلى توقّف في القلب».

«هل يمكن إنقاذ الطفل إذا كان مصاباً به؟»

«يتوقّف ذلك على الحالة. ربّما نعم. ربّما لا».

ربّما، أظنّ أنّها كلمة ممتازة لهيئة المحلّفين.

نظر إيفان إليَّ، وقال: «أظنّ، إذا كانت هنـاك دعـوى قضـائية في هـذا الأمـر، فـإنّ المريض لم ينجُ منها؟»

هززت رأسي، وقلت: «مات وعمره ثلاثة أيام».

«في أيّ يوم ولد الطفل؟»

«يوم الخميس. وأُجري فحص الكعب يوم الجمعة».

«متى أُرسل إلى مختبر الولاية؟» سألني إيفان.

قلت: «لا أعرف. هل يُحدث ذلك فرقاً؟»

«نعم»، استند إلى ظهر كرسيّه، ونظـر إلى فيوليـت التـي كانـت تحـاول أن تمتطـي الكلب، «يغلق المختبر في ولاية كونيتيكت يـومي السـبت والأحـد. فـإذا أُرسـلت عيّنـة الاختبار من المستشفى بعد ذلك، لنقـل مـثلاً، منتصـف يـوم الجمعـة، فلـن تصـل إلى المختبر إلّا بعد عطلة نهاية الأسبوع». نظر إيفان إليَّ، وأضاف: «وهذا يعني أنّه لو ولد هذا الطفل يوم الاثنين، لأتيحت له فرصة النجاة».

المرحلة الثانية

الضغط

أرادت أن تتعامل مع كراهيتهم، وأن تدقِّق فيها، وتعمل على حلّها حتَّى وجدت ثغرة صغيرة، فسحبت حصاة أو حجراً أو لبِنة، ثمَّ جزءاً من الجدار، وسرعان ما بدأ الصرح ينهار بأكمله ويتلاشى.

راي برادبري، الرجل المُصَوَّر

روث

كما تعرفون، كلّنا نفعل ذلك. نصرف انتباهنا عن رؤية كيف يمضي الزمن. نلقي بأنفسنا في أعمالنا ووظائفنا. نركّز على إبعاد الآفة عن نباتات البندورة (الطماطم) التي نزرعها، نملأ خزان البنزين في سياراتنا، ونستخدم بطاقات المترو، ونشتري حاجاتنا حتَّى تبدو كلّ الأسابيع نفسها. ويأتي يوم، تلتفتين فيه وترين أنَّ ابنك الصغير أصبح رجلاً، ويأتي يوم تنظرين فيه في المرآة وترين شعرك قد وخطه الشيب، ويأتي يوم تدركين فيه أنه لم يتبقَّ من حياتك سوى أقلّ ممّا عشته، وتتساءلين، كيف مضت كلّ تلك الأيام بهذه السرعة؟ فقد تناولت البارحة فقط أول مشروب عندما بلغت السنَّ القانونيّة، وعندما كنت لا أزال أضع له حفاضاً، عندما كنت شابة.

حينما تدركين ذلك، تبدئين في إجراء عمليّاتك الحسابيّة. كم بقي لي من الزمن؟ إلى أيّ قدر يمكنني أن أحشر نفسي في تلك المساحة الصغيرة؟

أظنّ أنّ بعضنا يدَعون هذا الإدراك يوجّههم. نحجز رحلة إلى جبال التبت، ونتعلّم النحت والقفز بالمظلّات. نحاول أن نتظاهر بأنَّ الأمر لم ينتهِ بعد.

وينهمك بعضنا الآخر في ملء خزّانات سيّاراتهم بالبنزين، واستخدام بطاقات المترو، والتسوّق، لأنَّنا إذا رأينا الدرب الذي أمامنا مباشرة فقط، فلن نفكّر متى يمكن أن يتهاوى الجرف.

بعضنا لا يتعلّم أبداً.

وبعضنا يتعلّم في وقت أبكر من بعضنا الآخر.

في صباح اليوم الذي ستجري فيه المحاكمة، طرقتُ بهدوء باب غرفة إديسون. سألته: «هل أنت جاهز؟» وعندما لم أسمع منه رداً، أدرت مقبض الباب ودخلت. كان إديسون لا يزال مستلقياً تحت كومة من

الأغطية، يغطي عينيه بذراعه. قلت له بصوت أعلى: «إديسون، هيَّا. لا يمكننا أن نتأخَّر».

من عمق تنفّسه عرفت أنَّه لم يكن نائماً. ثمَّ دمدم: «لن أذهب».

كانت كينيدي قد طلبت إليَّ ألّا يذهب إديسون إلى المدرسة اليوم ليحضر المحاكمة. لم أخبرها أنّه لم يعد يرى الذهاب إلى المدرسة أولوية هذه الأيّام، ويؤكّد ذلك المرّات التي اتصلت بها المدرسة بي بسبب غيابه. توسَّلت إليه، جادلته، لكنَّ الاستماع إليَّ أصبح مهمّة شاقَّة. الطالب المجدّ، ابني المجتهد الجميل، أصبح متمرّداً الآن – يقبع في غرفته، يستمع إلى الموسيقا بصوت عالٍ جداً حتّى تهتزّ الجدران، أو يرسل رسائل نصيّة إلى أصدقاء لم أكن أعرف أنّ لديه هؤلاء الأصدقاء، وأصبح يعود إلى المنزل بعد الفترة التي حدّدتها له، تفوح منه رائحة مشروبات قويّة وحشيش. ناضلت، وبكيت، ولم أعد أعرف كيف أتعامل معه، فقد بدأ قطار حياتنا كلّه يحيد عن مساره. ليست هذه سوى قاطرة واحدة التي بدأت تخرج عن مسارها.

قلت له: «لقد تحدَّثنا عن هذا».

فقال محدّقاً إلى وجهي: «لا، لم نتحدَّث. لقد تحدَّثت وحدك».

«قالت كينيدي إنّ المرأة التي يُنظر إليها بأنّها أمّ يصعب تصويرها بأنّها قاتلة. قالت إنَّ الصورة التي تقدّمها إلى هيئة المحلّفين أهمّ أحياناً من الأدلَّة».

«كينيدي تقول. كينيدي تقول. تتحدّثين كما لو أنَّها يسوع...»

قاطعته: «إنّها كذلك. في الأقلّ إنّها محقّة الآن. كلّ صلواتي تتجه نحوها، لأنّها الشيء الوحيد الذي يقف بيني وبين الإدانة يا إديسون، لهذا السبب أطلب إليك - لا بل أتوسّل إليك أن تفعل هذا الشيء الوحيد لأجلي».

«لديَّ أشياء يجب أن أفعلها».

قوّست حاجبيّ، وسألته: «مثل ماذا؟ ألّا تذهب إلى المدرسة؟»

أشاح إديسون بعينيه بعيداً عنّي، وقال: «لماذا لا تغادرين فقط؟»

فقلت: «في غضون أسبوع يمكن أن تتحقَّق أمنيتك».

للحقيقة أسنان. وضعت يدي على فمي كما لو أنّني لن أدع الكلمات تخرج منه. حاول إديسون أن يحبس دموعه، وهمهم: «لم أقصد ذلك».

«أعرف».

«لا أريد أن أذهب إلى المحكمة لأنّني لا أظنّ أنّني أستطيع أن أستمع إلى ما يقولونه عنك».

وضعتُ كلتا يديَّ على خدّيه، وقلت: «إديسون، أنت تعرفني، أمّا هم فلا يعرفونني. مهما سمعت في قاعة المحكمة تلك، مهما كانت الأكاذيب التي يحاولون أن يقولوها - تذكّر أنَّ كلَّ ما فعلته هو لأجلك». داعبت خدّه، وتتبَّعت مسار آثار دموعه بباطن إبهامي، وقلت: «ستصبح شيئاً مهمّاً. سيعرف الناس اسمك».

سمعت صدى صوت أمّي وهي تقول لي الشيء نفسه. كن حذراً ممّا تتمنّاه، قلت في نفسي. سيعرف الناس اسمي بعد اليوم، لكن ليس من الأسباب التي كانت تأملها.

قلت لإديسون: «إنَّ ما يحدث لك مهمّ، وما يحدث لي ليس مهمّاً».

رفع يده وأمسك رسغي، وقال: «إنّه مهمّ بالنسبة إليَّ».

هذا هو أنت، قلت في نفسي، ونظرت في عينَيْ إديسون. هذا هو الصبيّ الذي أعرفه، الصبيّ الذي علّقت كلّ آمالي عليه.

قلت: «يبدو أنّني في حاجة إلى موعد غرامي لأجل محاكمتي».

ترك إديسون رسغي، ومدّ ذراعه، مثنياً عند المرفق، كما كان يفعل بأسلوبه المهذَّب، مع أنَّه كان لا يزال يرتدي بيجامته، ومع أنَّني لا أزال ألفّ وشاحاً حول شعري، ومع أنَّنا لم نكن سنذهب إلى حفل، لكنَّها أكثر من تحدٍّ علينا أن نواجهه، وقال: «يسرُّني أن أفعل ذلك».

جاءت كينيدي في الليلة الماضية إلى بيتي في زيارة غير متوقَّعة مع زوجها وابنتها. جاءت مباشرة من بلدة تبعد قرابة ساعتين لتزفَّ لي الخبر بأنَّ الفحص الذي أُجري لديفيس باور أظهر أنَّه مصاب بنقص نازعة هيدروجين الأسيل - الإنزيم المشترك A متوسّط السلسلة».

حدَّقت إلى نتائج الفحص التي أرتني إيَّاها، النتائج التي فسَّرها لها الطبيب صديق زوجها، «لكن هذا... هذا.»

فقالت: «من حسن حظّك. لا أعرف إن كانت هذه النتائج غير موجودة في الملفّ خطأً، أو أنَّ أحدهم قد أتلفها عن قصد لأنَّه يعرف أنَّ ذلك سيجعلك أقلّ عرضة للاتهام. لكن، المهمّ الآن أنّه أصبحت في حوزتنا المعلومات الضروريَّة التي سنحوّلها إلى حكم بالبراءة».

إنَّ فقر الدَّم الناجم عن نقص نازعة هيدروجين حالة طبيَّة أخطر بكثير من القناة الشريانيَّة من الدرجة الأولى، مرض القلب الذي كانت كينيدي تعتزم إثارته في المحكمة. لم يعد القول بأنَّ ابن باور كان يعاني من اضطراب يهدّد حياته كذبة.

لن تكذب في المحكمة. أنا فقط.

حاولت كثيراً أن أكون صريحة مع كينيدي، ولا سيَّما بعد أن تحوَّلت علاقتنا من علاقة مهنيَّة إلى علاقة صداقة، لكنّي وجدت أنَّ ذلك زاد الأمر سوءاً. فلم أخبرها منذ البداية أنَّني تدخَّلت ولمست ديفيس باور عندما بدأت تنتابه تلك النوبة لأنَّني لم أكن أعرف إن كان بإمكاني أن أثق بها، أو كيف ستنعكس الحقيقة على قضيّتي. أمَّا الآن، فلم يعد بإمكاني أن أخبرها لأنَّني خجلت من كذبي عليها.

انفجرتُ بكاءً.

قالت: «من الأفضل أن تكون هذه دموع السعادة، أو دموع الامتنان لموهبتي القانونيَّة الفذَّة».

قلت: «ذلك الطفل المسكين. إنَّه شيء اعتباطيّ».

لكنَّني لم أكن أبكي لأجل ديفيس باور، ولم أكن أبـكي لأنَّنـي لم أكـن صـادقة معهـا، وإنَّما بكيت لأنَّ كينيدي كانت على حقّ طوال الوقت - لا يهمّ حقاً إن كانـت الممرِّضـة التي تعتني بديفيس باور سوداء أم بيضاء أم أرجوانيـة. لا يهـمّ إن كنـت قـد حاولـت إنعاش ذلك الطفل أم لا. فإنَّ كلَّ ذلك لن يغيّر شيئاً بالنسبة إلى الطفل.

وضعت كينيدي يـدها عـلى ذراعـي وذكَّرتنـي: «روث. تحـدث أشـياء سـيّئة عـدَّة لأشخاص طيبين كلَّ يوم».

رنَّ هاتفي الخلويّ عندما توقّفت الحافلة أمام موقفها، وسط المدينة. لَمَّا صـعدت أنا وإديسون، ملأ صوت أديسا أذني: «يا بنت، لن تصدّقي هذا. أين أنتِ؟»

نظرت إلى إشارة، وقلت لها: «شارع الجامعة».

«حسناً، امشي نحو المنطقة الخضراء».

حدَّدت اتجاهاتي، والتففنا أنا وإديسون. تبعد المحكمة شارعاً واحداً عن الحديقـة العامّة، وكانت كينيدي قد أعطتني توجيهات صريحة بعدم الاقتراب من هـذا الاتجـاه لأنَّ الصحافة ستباغتني.

لكن، من المؤكَّد أنَّه لا يوجد ضرر في أن أرى ما الذي يجري من مسافة بعيدة.

سمعتُ أصواتهم قبل أن أراهم. كانت أصواتهم القوية تلتقي معاً في ضفائر بانسـجام وتصعد إلى السماء. بحر من الوجوه، الكثير منها في تدرّجات اللون البنيّ، يصـيحون: «أوه، الحريَّة». يقف في المقدّمة أمام منصّـة صـغيرة، وراءه شـعار الشـبكة، والاس مـيرسي. وقـد شكَّل رجال الشرطة حاجزاً بشريـاً، أذرعهـم ممـدودة، كـأنهم يحـاولون إلقـاء تعويـذة كي لا تحـدث أعـمال عنـف، وكـان شـارع إلم يعـجّ بعربـات محطّـات التلفـزة، أطباقهـا

مرفوعة نحو الشمس، في حين يمسك الصحافيون ميكروفوناتهم، ويلتقط المصوّرون سلسلة من اللقطات.

«يا إلهي!»، تنفَّست بعمق.

قالت أديسا بافتخار: «لا علاقة لي بذلك، لكن كلّ هذا لأجلك، يجب أن تصعدي الدرج الأماميَّ مرفوعة الرأس».

«لا يمكنني أن أفعل ذلك، فقد اتفقت مع كينيدي على أن نلتقي في مكان محدَّد.

فقالت أديسا: «حسناً»، لكنّي سمعت نبرة انزعاج في صوتها.

قلت لها: «أراك هناك. أديسا، شكراً لقدومك».

فقالت: «في أيّ مكان يمكن أن أكون فيه غير هناك؟» ثمَّ اختفى الخطّ.

مررنا، أنا وإديسون، أمام طلَّاب جامعة ييل، الذين لا يعرفون ما الذي يجري من حولهم، يضعون على ظهورهم حقائب مثل قواقع السلحفاة. اجتزنا مباني الجامعة السكنية القوطية المحاطة بجدران خلف بوَّابات سود؛ وسيّدة الشعر - المرأة المشرّدة التي تردّد بضعة أبيات من الشّعر لقاء أعطية. لَمَّا وصلنا إلى منزل الأبرشيَّة في شارع وول ستريت، انسللنا من وراء المبنى دون أن يلاحظنا أحد، إلى ساحة فارغة.

«ماذا الآن؟» سألني إديسون، الذي كان يرتدي البدلة التي ارتداها في جنازة أمِّي.

قلت له: «لننتظر الآن». لدى كينيدي خطّة كي أتسلَّل إلى المدخل الخلفيّ حتّى لا أجذب انتباه الصحافيين. قالت لي أن أثق بها.

تورك

جافاني النوم الليلة الماضية، شاهدت برنامجاً عبر إحدى محطَّات التلفزة، عُرض في الساعة الثالثة صباحاً، عن كيف كان الهنود الحمر يعيشون. في إعادة التمثيل، ظهر رجل يرتدي مئزراً، أشعل النار في كومة من أوراق الأشجار على امتداد خطّ طويل لشجرة شُطرت طولياً، وبعد أن احترقت، كشطها بما يشبه صدفة محار، وكرَّر العمليّة حتَّى أصبح الزورق مجوَّفاً. أشعر أنّني هكذا اليوم، كما لو أنَّ أحداً أفرغ ما في جوفي، وأصبحت خاوياً.

يبدو ذلك مفاجئاً لأنَّني أنتظر هذا اليوم منذ فترة طويلة. كنت أظنّ أنَّني سأمتلك طاقة سوبرمان لأنَّني سأذهب إلى الحرب لأجل ابني، ولن يقف شيء في وجهي.

لكن الغريب في الأمر أنّني شعرت بأنَّني وصلت إلى ساحة القتال فوجدتها مقفرة.

كنت متعباً. فعلى الرَّغم من أنّني بلغت الخامسة والعشرين من عمري، فإنّي أشعر بأنّني عشت حياة تكفي عشرة رجال.

خرجت بريت من الحمَّام، وقالت: «أنا جاهزة». كانت ترتدي حمَّالة صدر وجوربيها، كما طلبت منها المدَّعية العامّة، كي تبدو امرأة متحفّظة.

ثمَّ قالت: «وأنت، يجب أن تعتمر قبَّعة على رأسك». اللعنة.

بالنسبة إليَّ، فإنَّ هذا ما تستحقّه ذكرى ابني: فإذا لم أتمكَّن من استعادته، فسأعاقب الأشخاص المسؤولين عن ذلك، وأجعل الآخرين من أمثالهم يرتجفون من شدَّة الخوف.

فتحتُ صنبور الماء الساخن، ووضعت يدي تحته، ثمّ وضعت كريم حلاقة ودهنته فوق فروة رأسي، وبدأت أكشط رأسي بسلاسة.

ربّما لأنَّه لم يغمض لي جفن، الليلة الماضية، أو لأنَّ الحفرة التي استقرَّت في أحشائي جعلتني أرتجف - مهما كان السبب، فقد جرحت نفسي فوق أذني اليسرى. بدأت تلسعني عندما سالت رغوة الصابون فوق الجرح.

ضغطتُ على رأسي بقطعة قماش، لكنَّ جروح فروة الرأس تستغرق وقتاً حتّى تتخثّر. بعد دقيقة، رفعت قطعة القماش، ورأيت خطّ الدّم يسيل فوق رقبتي، تحت ياقة قميصي.

بدا مثل علم أحمر قادم من وشم الصليب المعقوف. أُخذتُ برؤية هذا المزيج: الصابون الأبيض، البشرة الشاحبة، البقعة زاهية اللون.

في البداية، سرنا في الاتجاه المعاكس للمحكمة. كانت هناك طبقة من الصقيع تغطي الزجاج الأمامي لشاحنتي الصغيرة، وكان الجوّ مشمساً، من ذلك النوع من الأيام التي تبدو رائعة إلى أن تدرك أنَّ الطقس بارد ما إن تضع قدمك خارج البيت. ارتدينا أفضل ثياب عندنا - فقد ارتديت سترة البدلة التي نتقاسمها أنا وفرانسيس، وارتدت بريت فستاناً أسود احتضن جسدها.

كانت سيّارتنا الوحيدة الواقفة في ساحة موقف السيارات. بعد أن ركنت سيارتي، ترجلت من السيارة وجئت إلى جانب باب بريت. لم أفعل ذلك لأنّني جنتلمان، وإنّما لأنَّها رفضت أن تنزل من السيَّارة. جلست على ركبتيَّ إلى جانبها، ووضعت يدي على ركبتها، وقلت لها: «حسناً، يمكن أن يساند أحدنا الآخر».

دفعت ذقنها إلى الأمام، كما كانت تفعل عندما تظنّ أنَّ أحداً يصفها بأنّها ضعيفة أو غير فعَّالة. ثمَّ ترجَّلت من السيارة. كانت تنتعل حذاء مسطّحاً، كما طلبت منها أوديت لوتون، لكنّ معطفها قصير يصل إلى وركها، وأستطيع أن أقول إنّ الريح تتسلّل بسرعة عبر نسيج ثوبها.

حاولت أن أقف بينها وبين الريح الشديدة، كما لو أنّني أستطيع أن أغيّر الطقس لأجلها.

لَمَّا وصلنا، كانت الشمس تضرب شاهدة القبر فجعلته يتلألأ. كان لونه أبيضَ. أبيض يعمي الأبصار. انحنت «بريت»، وتتبَّعت بأصابعها حروف اسم ديفيس. تاريخ ولادته وتاريخ وفاته، تحتهما كلمة واحدة فقط: أحبّك.

أعجبتني فكرة أنَّ الكلمة المحفورة على قبر ابني تتطابق مع الوشم الظاهر على مفاصل يدي اليسرى. كما لو كنت أحمله معي.

وقفنا عند القبر حتّى شعرت بريت ببرد شديد. حقل من الأعشاب بلون الخوخ، زُرع بعد الجنازة، أصبح بنياً الآن. موت ثانٍ.

أوّل ما رأيته في قاعة المحكمة هؤلاء الزنوج.

يبدو أنَّ الحديقة كلّها في وسط نيو هافن ممتلئة بهم، يلوّحون بأعلام، وينشدون ترانيم.

إنَّه ذلك الأحمق الذي يظهر عبر شاشة التلفاز، والاس شيء ما. الشخص الذي يظنّ أنّه قسيس، وربّما جرى تطويبه كقسّ عبر الإنترنت مقابل خمسة دولارات. إنه يلقي درساً عن تاريخ السود، ويتحدّث عن ثورة بيكون. سمعته يقول: «استجابة لذلك، إخوتي وأخواتي، تمَّ الفصل بين البيض والسود، إذا اتّحدوا معاً، لأنّهم كانوا يعتقدون أنّهم قد يسبّبون أضراراً كبيرة، وفي عام 1705، مُنح الخدم المسيحيون - ذوو البشرة البيضاء - أراضٍ وبنادق وطعام ونقود، أمَّا الذين لم يُمنحوا ذلك، فقد استُعبدوا، وسُلبت أراضينا ومواشينا، وإذا رفعنا يداً أمام رجل أبيض، تُزهق حياتنا»، ثمّ رفع ذراعيه، وقال: «إنَّ التاريخ يرويه الأمريكيّون الأنغلو ساكسون».

صحيح. نظرت إلى حجم الحشد الذي يستمع إليه. تذكَّرت عندما صمدت حفنة من سكَّان تكساس أمام جيش من الإسبان لمدّة اثني عشر يوماً في ألامو.

أقصد... إنَّهم خسروا.

فجأة، من ذلك البحر الأسود رأيت قبضة بيضاء مرفوعة. رمز.

تحرَّك الحشد، في حين سار الرجل نحوي. رجل ضخم حليق الرأس، له لحية حمراء طويلة. وقف أمامي أنا وبريت ومدَّ يده، وقال يُقدِّم نفسه: «كارل ثورهيلدسون، لكنّك تعرفني باسم أودين 45 على موقع *Lonewolf.org*..

صافحني رفيقه أيضاً، وقال: «إريك دوفال. الشيطان الأبيض»، ثمّ انضمَّت إليهما امرأة تحمل توءمين، طفلين صغيرين، شعرهما فضيّ، ثمَّ جاء رجل يرتدي بدلة مموَّهة، وثلاث فتيات وضعن كحلاً أسودَ كثيفاً، ورجل طويل القامة ينتعل بوطاً عسكرياً ويضع عود أسنان بين أسنانه، وشابّ يضع نظّارة ذات إطار سميك، يحمل بين ذراعيه جهاز كمبيوتر محمول.

تيَّار متدفّق من الأشخاص تحلّقوا حولي - أشخاص أعرفهم من خلال مصالح مشتركة عبر موقع *Lonewolf.org*. على الإنترنت؛ خيّاطون ومحاسبون ومعلّمون، رجال يقومون بدوريات على الحدود في أريزونا، ومليشيات في تلال نيو هامبشاير. إنَّهم نازيون جدد مخلصون، ظلّوا غير معروفين، يتوارون حتّى الآن وراء الشاشات بأسماء مستعارة.

ولأجل ابني، كانوا على استعداد ليظهروا من جديد.

كينيدي

في صباح يوم المحاكمة، استغرقتُ في النوم. قفـزت مـن سريـري مثـل كـرة مـدفع، ونثرت الماء على وجهي، ورفعت شـعري إلى الخلـف في شـكل كعكـة، ولبسـت جـوربيَّ وبدلة زرقاء. استغرقت عملياً لأنهي زينتي ثلاث دقائق، ثمّ جريـت إلى المطـبخ حيـث كان ميكا يقف أمام الموقد. سألته: «لماذا لم توقظني؟»

ابتسم وقبّلني قبلة سريعة، وقال: «أنا أحبّك أيضاً يا قمر حيـاتي. اذهبـي واجـلسي إلى جانب فيوليت».

كانت ابنتنا جالسة إلى الطاولة تنظر إليَّ، وقالت: «ماما، إنّك تنتعلين فـردتَي حـذاء مختلفتين».

«أوه، يا إلهي!»، تمتمت واستدرت لأعود إلى غرفة النوم، لكن ميكـا أمسـكني مـن كتفي وأعادني إلى الكرسي، وقال: «ستأكلين هذه قبل أن تبرد. تحتاجين إلى طاقـة حتـى تتغلَّبي على حليق الـرأس ذاك وزوجتـه، وإلّا فستسـتنفدين طاقتـك، وأنـا أعـرف مـن التجربة الشخصيّة أنّ الخيار الوحيد للطعام في تلك المحكمة شيء بنيّ اللون يحـاولون تصويره على أنّه قهوة، وآلة بيع ألواح شوكولاتة الغرانولا تعود إلى الـعصر الجـوراسيّ». وضع أمامي طبقاً - بيضتان مقليّتان، وخبز محمّص مع المربّى. كنت جائعـة إلى درجـة أنَّني تناولت البيضتين قبل أن ينهي بقية الفطـور – قهـوة بالحليـب في كوبـه القـديم عندما كان طالباً في كليّة الطبّ في جامعة هارفارد، وقال مازحاً: «انظـري، قـدَّمت لـك قهوتك في كوب الامتياز الأبيض».

انفجـرت ضـاحكة، وقلـت: «إذاً، سـآخذه معـي في السـيّارة ليجلـب لي الحـظّ، أو الشعور بالذنب، أو شيئاً آخر».

قبَّلتُ فيوليت على رأسها، والتقطت فردة حذائي المطابقة من خزانة غرفة النوم، بالإضافة إلى هاتفي والشاحن وجهاز الكمبيوتر والحقيبة. كان ميكا ينتظرني عند الباب وبيده كوب القهوة، وقال: «حقّاً، أنا فخور بك».

قلت له: «شكراً».

«اذهبي وكوني مارسيا كلارك».

أجفلتُ، وقلت له: «إنَّها مدَّعية عامَّة. هل يمكنني أن أكون غلوريا ألريد؟»

هزَّ ميكا كتفيه، وقال: «اهزميهم فقط».

في تلك اللحظة، كنت أسير نحو مرآب السيّارة. قلت: «هل أنت متأكّد أنّ هذا آخر شيء يفترض بك أن تقوله لشخص سيرافع عن أوّل قضيّة جريمة قتل في المحكمة؟»، وجلست وراء المقود دون أن تسقط قطرة واحدة من قهوتي.

أقصد، لا بدَّ أن يكون ذلك فألاً حسناً، أليس كذلك؟

قدتُ سيّارتي أمام قاعة المحكمة لأرى ما الذي يجري، مع أنّني اتّفقت مع روث أن أراها في مكان أعرف أنّه لن يقترب منها أحد هناك. سيرك، الطريقة الوحيدة لوصفه. في أحد طرفَيْ الحديقة، كان ولاس ميرسي يبثّ على الهواء مباشرةً، ويعظ حشداً من الناس بوساطة مكبّر الصوت. سمعته يقول: «في عام 1691، استُخدمت كلمة أبيض في المحكمة للمرَّة الأولى. في ذلك الوقت، نفَّذت هذه الأمَّة قاعدة القطرة الواحدة، فقد كنتَ تحتاج إلى قطرة دم واحدة كي تُعدَّ أسودَ في هذا البلد...»

وعلى الطرف الآخر من الحديقة، احتشدت مجموعة من الأشخاص البيض. في البداية، ظننت أنَّهم يتفرَّجون على ألاعيب والاس، ثمَّ رأيت أحدهم يرفع صورة الطفل المتوفَّى.

ثمَّ بدؤوا يسيرون عبر المجموعة التي تستمع إلى والاس. انطلقت اللعنات، ثمّ بدأ التدافع واللكمات. جاء رجال الشرطة على الفور، وبدؤوا في الفصل بين السود والبيض.

ذكَّرني ذلك بحيلة سحريَّة أجريتها السنة الماضية لإثارة إعجاب فيوليت. إذ صببت ماء في مقلاة وذررت فوقها قليلاً من الفلفل، ثمّ قلت لها إنّ الفلفل يخاف الصابون العاج، ولَمَّا غمرت لوح الصابون في المقلاة، انفصل الفلفل إلى الحواف.

بالنسبة إلى فيوليت، كان ذلك سحراً. بالطبع، كنت أعرف أنَّ السبب الذي جعل الفلفل يبتعد عن الصابون هو التوتُّر السطحيّ.

وهو يشبه ما يجري هنا.

قدت سيّارتي إلى منزل الأبرشيَّة في وول ستريت، حيث رأيت إديسون واقفاً - لكنّي لم أرَ روث. ترجَّلت من سيّارتي، وشعرت بقلبي يغوص في أعماقي، وسألته: «هل هي...؟»

فأشار إلى الجهة الأخرى من الساحة، حيث كانت روث واقفة على الرصيف المقابل، تنظر إلى المارّة الذين يقطعون الشارع. لم يلحظها أحد حتّى الآن، لكنّها مجازفة. ذهبت إليها. لَمَّا لمست ذراعها، أبعدت يدي، وقالت بنبرة رسميّة: «أريد لحظة».

فتراجعتُ.

كان الطلَّاب والأساتذة يمرّون أمامنا وقد انقلبت ياقاتهم في وجه الريح. مرّت دراجة مسرعة، ثم وقفت حافلة ضخمة كالديناصور عند الرصيف، وأفرغت بضعة ركّاب قبل أن تنطلق مرّة أخرى. «لا تزال تراودني هذه... الأفكار»، قالت روث. «كما تعرفين، طوال عطلة نهاية الأسبوع. كم مرة كنت أستعدّ لأستقلَّ الحافلة؟ أو أعدّ طعام الفطور؟ هل هذه آخر مرّة أكتب فيها شيكاً لفاتورة الكهرباء؟ هل كنت سأولي

اهتماماً أكبر في نيسان الماضي عندما ظهرت أزهار النرجس، لو كنت أعرف أنّني لن أراها مرَّة أخرى؟»

سارت خطوة نحو صفّ من الأشجار الصغيرة التي غرست في صفّ أنيق. طوقت بيديها جذع شجرة رفيعة كما لو كانت ستخنقه، ثمَّ رفعت وجهها إلى الأغصان العارية فوقها.

«انظري إلى تلك السماء»، قالت روث، «إنّها قريبة من اللون الأزرق الذي تجدينه في أنابيب طلاء الرسم الزيتيّ. لون تحوّل إلى جوهره»، ثمّ التفتت إليَّ، وقالت: «كم من الوقت يستغرق نسيان هذا؟»

وضعت ذراعيَّ حول كتفيها. كانت ترتجف، وأنا أعرف أن لا علاقة لذلك بدرجة الحرارة، ثمّ قلت لها: «إذا كان لديّ شيء يمكنني أن أقوله عن ذلك، فإنّي أقول إنّك لن تعرفي ذلك أبداً».

لَمَّا كان إديسون صغيراً، كنت أعرف دائماً متى يكون معكَّر المزاج. كنت أشعر بذلك، حتّى لو لم أرَه. كنت أقول له إنّ لديَّ عينين في مؤخّرة رأسي عندما كان يبدي دهشته بأنّني لم أكن أراه، أعرف أنّه كان يحاول أن يسرق شيئاً ما ليتناوله قبل العشاء.

ربّما لهذا السبب، مع أنَّني أنظر إلى الأمام كما طلبت إليَّ كينيدي، أحسست بنظرات جميع الجالسين خلفي في قاعة المحكمة.

كنت أشعر بتلك النظرات كأنَّها وخزات، سهام، لدغات حشرات صغيرة. احتجت إلى كلِّ تركيزي كي لا أصفع مؤخّرة رقبتي وأبعدهم عنّي.

على من أضحك؟ احتجت إلى كل تركيزي كي لا أقف وأجري في الممر وأخرج من قاعة المحكمة هذه.

كانت كينيدي وهوارد منهمكين في مناقشة سير الجلسة، لا يوجد لديهما وقت ليكلماني. أوضح القاضي أنَّه لن يتسامح مع حدوث أيِّ إزعاج أو اضطراب في القاعة، وأنَّه يطبّق سياسة عدم التسامح التامّ – أي حركة، ستخرج من القاعة، لا بدَّ أنَّ هذا جعل العنصريين البيض تحت السيطرة. لكنَّهم لم يكونوا الوحيدين الذين كانت أعينهم تخترقني.

كانت هناك مجموعة كاملة من السود، عرفت وجوهاً عدَّة منها من جنازة أمّي، الذين جاؤوا لرفع معنوياتي بدعائهم وصلواتهم. جلس إديسون وأديسا ورائي مباشرة، يمسك أحدهما بيد الآخر فوق مسند الذراع الذي يفصل بين مقعديهما. يمكنني أن أشعر بتلك الرابطة بقوّة، أسمع أنفاسهما.

فجأةً، عدتُ بذاكرتي إلى المستشفى، يدي على كتف امرأة جاءها المخاض، وعيني مركّزة على الشاشة أقرأ البيانات المتعلّقة بها. آمرها:

«خذي نفساً عميقاً... شهيق... زفير»، حتّى يغادرها الشعور بالتوتُّر. فمن دون هذا الضغط لا يمكن إحراز أيّ تقدُّم.

حان الوقت لأن أطبّق نصيحتي على نفسي.

سحبتُ كلّ الهواء الذي استطعت أن أسحبه. فتحتا أنفي تتوهَّجان. ورحت أتنفّس بعمق حتّى بدأت أتخيّل الفراغ الذي أحدثه، وتنحني الجدران إلى الداخل. تنتفخ رئتاي في صدري، تمتلئان حتّى تكادا تنفجران. لثانية، حبست نفَسي.

ثمَّ أطلقته.

لم تنظر أوديت لوتون في عينيَّ مباشرة قطّ، وكان كلّ تركيزها منصبّاً على هيئة المحلَّفين. إنّها واحدة منهم. حتّى المسافة التي تضعها بينها وبين طاولة الدفاع وسيلة لتذكير الذين سيقرّرون مصيري بأنّه لا يوجد هناك شيء مشترك يجمعنا، ولو كانوا يرون التشابه بين بشرتينا.

قالت: «سيّداتي وسادتي أعضاء هيئة المحلّفين، إنّ القضيّة التي ستسمعون عنها الآن مروّعة ومأساويّة. فقد كان تورك وبريتاني باور، مثل الكثيرين منّا، متلهفَين لأن يصبحا أبوين. في الواقع، كان أفضل يوم في حياتيهما الأول من شهر تشرين الأول 2015، اليوم الذي ولد فيه ابنهما ديفيس». وضعت يدها على حاجز مقصورة المحلَّفين، ومضت تقول: «وبخلاف جميع الآباء، كانت لدى هذين الأبوين تفضيلات شخصيّة جعلتهما يشعران بعدم الارتياح لأن تقوم ممرّضة أمريكيّة من أصل أفريقيّ برعاية طفلهما. قد لا يعجبكم ما يؤمنان به، وقد لا تتفقان معهما، لكن لا يمكنكم إنكار طلبهما العادل لاتّخاذ قرارات تتعلّق برعاية ابنهما الطبية في المستشفى. وبممارستهما هذا الحقّ، طلب تورك باور أن تقوم ممرّضات محدَّدات برعاية ابنه الرضيع. لم تكن المدَّعى عليها واحدة منهن - أيها السيدات والسادة، كانت هذه إهانة لم تستطع احتمالها».

لو لم أكن مرعوبة، لضحكت. هذا كلُّ شيء؟ هذه هي الطريقة التي قلَّلت فيها أوديت من أهميّة العنصريّة التي أدَّت إلى وضع تلك الملاحظة في الملفّ؟ تكاد تكون الطريقة التي قبلتها بهذه الدقة الشديدة حتى قبل أن ترى هيئة المحلفين قبحها على نحو مثير للإعجاب، كي ينظروا إلى شيء آخر تماماً: حقوق المرضى، عندما نظرتُ إلى كينيدي، هزَّت كتفيها، كأنَّها تقول: قلت لك ذلك.

«في صباح يوم السبت، نُقل ديفيس باور الصغير إلى غرفة الحضانة لإجراء عمليّة الختان. كانت المدَّعى عليها وحدها في تلك الغرفة عندما أصيب الطفل بضيق التنفُّس. وماذا فعلت؟» قالت أوديت بتردّد، «لا شيء. هذه الممرِّضة التي لديها خبرة تزيد على عشرين سنة، هذه المرأة التي أدّت القسم بأن تقدّم الرعاية الطبيّة بأفضل ما في وسعها، وقفت هناك». ثمَّ استدارت وأشارت إليَّ. «وقفت المدَّعى عليها هناك، وراحت تنظر إلى ذلك الطفل وهو يكافح حتّى يتنفّس، وتركته يموت».

بدأت أشعر الآن أنَّ أعين أعضاء هيئة المحلّفين تلاحقني، مثل بنات آوى فوق جيفة. بدا بعضهم فضولياً، وراح بعضهم الآخر يحدّقونني باحتقار. جعلني ذلك أرغب في أن أزحف تحت طاولة الدفاع، آخذ حمّاماً. لكنّي شعرت بيد كينيدي تضغط على يدي القابعة في حضني، ورفعت ذقني، وقالت: «لا تدعيهم يرون أنّك تنضحين عرقاً».

«كان سلوك روث جيفرسون متهوّراً، طائشاً، ومتعمَّداً.

روث جيفرسون قاتلة».

لا يزال سماع الكلمة وهي توجَّه إليَّ، مع أنّني أتوقّعها، يفاجئني. حاولت أن أقيم حاجزاً يصدّ هذه الصدمة، بتصوّر، في تتابع سريع، جميع الأطفال الذين حملتهم بين ذراعيَّ، اللمسة الأولى التي حصلوا عليها ليشعروا بالراحة في هذا العالم.

«تُظهر الأدلَّة أنَّ المدَّعى عليها وقفت هناك لا تفعل شيئاً في حين كان ذلك الرضيع يصارع لأجل حياته. لَمَّا دخل الطاقم الطبيّ وطلبوا إليها أن تساعد الطفل، استخدمت قوّة أكثر من اللازم، وانتهكت جميع المعايير المهنيَّة. كانت عنيفة جداً مع هذا الطفل الصغير إلى درجة أنّكم سترون الكدمات في صور تشريح جثته».

استدارت أوديت لتواجه هيئة المحلّفين مرّة أخرى، وقالت: «سيداتي وسادتي، لقد جُرحت مشاعرنا جميعاً، لكن حتّى لو لم تشعروا بأنّ ذلك الاختيار قد تمّ على نحو صحيح - حتّى لو وجدتم أنّها إهانة أخلاقيّة - فإنّكم لا تنتقمون. إنّكم لا تؤذون الأبرياء انتقاماً من الشخص الذي أخطأ معكم. لكن، هذا بالتحديد ما فعلته المدَّعى عليها. لو أنَّها تصرَّفت بحسب ما تدرَّبت عليه كمهنيَّة طبيَّة، بدلاً من أن يكون دافعها الغضب والانتقام، لكان ديفيس باور حيّاً يرزق اليوم. لكن، لو أدَّت روث جيفرسون واجبها كما يجب؟» حدَّقت إلى عينيَّ، «لأتيحت لهذا الطفل الفرصة لأن يبقى حيّاً».

نهضت كينيدي الجالسة إلى جانبي بخفَّة، وسارت نحو مقصورة المحلَّفين، كعب حذائها ينقر فوق بلاط الأرضيَّة، وقالت: «ستجعلكم المدَّعية العامَّة تعتقدون أنَّ هذه القضيّة باللونين الأسود والأبيض. لكنَّها ليست كما تظنّون. أنا أمثّل روث جيفرسون التي تخرَّجت في جامعة ولاية نيويورك في بلاتسبرغ، وحصلت على إجازة في التمريض من جامعة ييل. عملت ممرّضة في جناح المخاض والتوليد لأكثر من عشرين سنة في ولاية كونيتيكت، وهي زوجة ويسلي جيفرسون الذي كان عسكرياً في جيش بلدنا ومات خارج البلد، وربَّت ابنها، إديسون، الطالب المتفوّق الذي يتقدّم حالياً بطلباته للقبول في الجامعة وحدها. سيّداتي وسادتي، إنَّ روث جيفرسون ليست وحشاً، إنَّها أمٌّ صالحة، وكانت زوجة صالحة، وهي ممرّضة مثاليَّة».

ثمَّ عادت إلى طاولة الدفاع ووضعت يدها على كتفي، ومضت تقول: «سيثبت الدليل أنَّه ذات يوم مات طفل في أثناء مناوبة روث. ليس أيّ

طفل فقط. وإنّما كان الطفل ابن تورك باور، الرجل الذي كرهها بسبب لون بشرتها. وماذا حدث؟ لَمَّا مات الطفل، توجّه إلى الشرطة واتّهم روث. على الرّغم من حقيقة أنَّ طبيبة الأطفال – التي ستسمعون منها - أثنت على روث لأجل الطريقة التي بذلت فيها كلّ جهدها لإنقاذ هذا الرضيع عندما توقَّف تنفُّسه. ومع أنَّ المشرفة على روث - التي ستسمعون منها – طلبت إلى روث ألّا تلمس هذا الطفل، في حين لا يحقّ للمستشفى أن يطلب إليها أن تتخلّى عن واجبها كممرّضة».

عادت كينيدي نحو هيئة المحلَّفين، وأضافت: «هذا ما ستثبته الأدلَّة: لقد واجهت روث موقفاً مستحيلاً. هل تنفّذ أوامر المشرفة عليها، والرغبات المضلّلة لوالدَي المولود؟ أو تبذل كلَّ ما في وسعها لتنقذ حياة الطفل؟

«السيّدة لوتون قالت إنّ هذه القضيّة مأساويّة، وهي محقّة. لكن، مرّة أخرى، ليس للسبب الذي تعتقدونه. لأنَّ أيَّ شيء فعلته روث جيفرسون أو لم تفعله لم يكن سيُحدث فرقاً بالنسبة إلى ديفيس باور الصغير. إنَّ ما لم يعرفه آل باور - والمستشفى – حينذاك، هو أنَّ الطفل كان يعاني من حالة تهدّد حياته، ولم يتمَّ الكشف عنها بعد. ولم يكن سيحدث أيّ فرق لو كانت روث معه في الغرفة أو فلورنس نايتنجيل. ببساطة لا توجد وسيلة كان من الممكن أن تمنح الحياة لديفيس باور».

مدَّت يديها، ومضت تقول: «تريد المدّعية العامّة أن تجعلكم تعتقدون أنّ سبب وجودنا هنا اليوم الإهمال. لكن، لم تكن روث مهملة في عملها - وإنّما المستشفى ومختبر الولاية هما اللذان أخفقا في الإبلاغ على الفور عن حالة طبيّة خطرة لدى الرضيع، التي لو تمّ تشخيصها مبكراً، لكان من الممكن إنقاذ حياته. تريد المدّعية العامّة أن تعتقدوا أنَّ سبب وجودنا هنا اليوم هو الغضب والانتقام. هذا صحيح. لكن، لم يكن الغضب يتملَّك روث، وإنّما أراد تورك وبريتاني باور، الغارقين في حزنهما وألمهما، أن يجدا كبش فداء. ولَمَّا لم يتمكّنا من إبقاء ابنهما في قيد الحياة، وبصحّة جيّدة،

أرادا أن يتحمّل شخص آخر مسؤوليّة ذلك، ووجدا أمامهما روث جيفرسون»، وأضافت وهي تنظر إلى المحلّفين، «لقد كانت هناك ضحيّة بريئة واحدة، وأحثّكم على ألّا تكون هناك ضحيّة ثانية».

لم أرَ كورين منذ شهور. بدت أكبر سنّاً، وقد تشكّلت هالات تحت عينيها. أتساءل إن كانت لا تزال مع صديقها نفسه، أم أنها مريضة، وما هي الأزمة التي اجتاحت حياتها مؤخّراً. تذكَّرت كيف كانت تعطيني قطع البندورة (الطماطم) وأعطيها حبّات الزيتون عندما تجلب السلطة من الكافتيريا ونتناولها في غرفة الاستراحة.

إذا كانت الأشهر القليلة الماضية قد علَّمتني شيئاً، فهو أنَّ الصداقة ليست إلّا وهماً. فالأشخاص الذين تظنّ أنّهم راسخون في صداقتك يتحوّلون إلى مرايا وضعفاء، ثمّ تنظر وتدرك أنّ هناك آخرين كنت تستهين بهم، هم قاعدتك. قبل عام من الآن، كنت سأقول لكم إنّنا كنّا، أنا وكورين، صديقتين حميمتين، لكن تبيّن أنّ ذلك كان تقارباً وليس ارتباطاً. كنّا معارف افتراضيين، تشتري إحدانا للأخرى هدايا عيد الميلاد، ونخرج معاً ونتناول الطعام في ليالي الخميس، لا لأنّه كانت تجمعنا قواسم مشتركة عدَّة، وإنّما لأنّنا كنّا نعمل لفترة طويلة، لذلك كان من الأسهل أن نواصل أحاديثنا المختزلة بدلاً من أن نذهب ونعلّم شخصاً آخر اللغة.

طلبت أوديت من كورين أن تذكر اسمها وعنوانها، ثمّ سألتها: «هل أنت موظّفة؟»

من منصّة الشهود، التقت عينا كورين عينيَّ، ثمَّ انزلقتا بعيداً، وقالت: «نعم، في مستشفى الرحمة - ويست هافن».

«هل تعرفين المدَّعى عليها في هذا الأمر؟»

«نعم»، قالت كورين، «أعرفها».

لكنَّها لا تعرف، ليس حقّاً. لم تكن تعرف قطّ.

كي نكون منصفين، أظنّ أنّني لم أكن أعرف حقاً من أنا أيضاً.

«منذ متى تعرفينها؟» سألتها أوديت.

«منذ سبع سنوات. عملنا معاً في جناح المخاض والولادة».

«نعم»، قالت المدّعية العامّة، «هل كنتما تعملان معاً في الأول من تشرين الأول (أكتوبر) 2015؟»

«نعم. بدأنا مناوبتنا عند الساعة السابعة صباحاً».

«هل كنتِ تعتنين بديفيس باور في صباح ذلك اليوم؟»

فقالت كورين: «نعم، لكنّي تولّيت المسؤوليَّة عن روث».

«لماذا؟»

«المشرفة علينا ماري مالون طلبت إليَّ ذلك».

قدَّمت أوديت نسخة مصدَّقة من السجل الطبيّ كإثبات، وقالت: «أودّ أن أحيلك إلى الوثيقة رقم 24، أمامك. هل يمكنك أن تخبري هيئة المحلّفين ما هي؟»

فقالت كورين: «ملفّ سجلّ طبيّ»، ثمّ أضافت، «كان المريض هو ديفيس باور».

«هل توجد ملاحظة في بداية الملفّ؟»

«نعم»، قالت كورين، وقرأته بصوت عالٍ، «لا يُسمح لشخص أمريكيّ من أصل أفريقيّ برعاية هذا المريض».

كانت كلُّ كلمة بمنزلة رصاصة.

«نتيجة لذلك، نُقلت رعاية المريض من المدَّعى عليها إليكِ، أليس كذلك؟»

«نعم».

«هل لاحظتِ ردَّة فعل روث على تلك الملاحظة؟» سألتها أوديت.

«نعم. كانت غاضبة ومستاءة. قالت لي إنَّ ماري أبعدتها عن رعايته لأنَّها سوداء، فقلت لها إنَّ ماري لا تفعل ذلك عادةً. كما تعلمين، لا بدَّ أنَّ أموراً أخرى كانت تحدث. لم تشأ أن تسمعها. قالت: «إنَّ هذا الطفل لا يعني لي شيئاً»، ثمّ غادرت وهي غاضبة».

غادرت وهي غاضبة؟ هبطت الدرج بدلاً من أن آخذ المصعد. من العجيب كيف يمكن إعادة تشكيل الأحداث والحقائق مثل الشمع الذي يبقى فترة طويلة تحت الشمس. لا يوجد شيء يُدعى حقيقة. لا يوجد شيء إلّا كيف رأيت الحقيقة في لحظة معيّنة، وكيف نقلت تلك الحقيقة. كيف عالج دماغك هذه الحقيقة. لا يمكن أن تنزع راوي الحكاية عن الحكاية.

«هل كان ديفيس باور طفلاً يتمتَّع بصحَّة جيّدة؟» واصلت المدّعية العامّة.

«بدا الأمر على هذا النحو»، اعترفت كورين، «أقصد، لم يكن يرضع كثيراً، لكن لم يكن ذلك على درجة من الأهميّة. كثير من الأطفال يكونون بليدين في البداية».

«هل كنت في العمل يوم الجمعة الثاني من تشرين الأول؟»

فقالت كورين: «نعم».

«وهل كانت روث أيضاً؟»

«لا. لم يكن من المفترض أن تأتي على الإطلاق، لكنّي متأكّدة أنَّ عددنا كان قليلاً، واستدعيت إلى العمل لزيادة عددنا – من الساعة السابعة مساء حتّى يوم السبت من دون توقّف».

«إذاً، كنتِ ممرّضة ديفيس طوال يوم الجمعة؟»

«نعم».

«هل اتَّخذتِ أيَّ إجراءات روتينيَّة للرضيع؟»

هزَّت كورين رأسها، وقالـت: «في نحـو السـاعة الثانيـة والنصـف، أجريـت فحـص الكعب. إنّه فحص دم قياسيّ - لم يُجرَ لأنّ الطفل كان مريضاً أو لأيّ سبب آخر. يُجرى هذا الاختبار على جميع الأطفال المولودين حديثاً، ويؤخذ إلى مختبر الولاية لتحليله».

«هل كانت لديك أيّ مخاوف بشأن مريضك في ذلك اليوم؟»

«كانت لا تزال لديه مشكلة في الإمساك بالثدي حتّى يرضع. لكن، مرَّة أخرى، هـذا ليس أمراً غير عاديّ بالنسبة إلى أمّ تلد أوّل مرة، وبالنسبة إلى مولود جديد». ابتسمت لأعضاء هيئة المحلّفين، وأضافت: «أعمى يقود أعمى، وكلّ ذلك».

«هل تحدَّثتِ مع المدَّعى عليها حول ديفيس باور عندما جاءت؟»

«لا. في الواقع، بدا أنَّها كانت تتجاهله تماماً».

إنّها تجربة تشبه الخروج من الجسد - الجلوس هنا على مرأى من الجميع، وسماع هؤلاء الناس يتناقشون عنّي كما لو أنّني لست موجودة.

«متى رأيت روث بعد ذلك؟»

«حسناً، كانت لا تزال في الخدمة عندما عدت إلى منـاوبتي عنـد السـاعة السـابعة صباحاً. كانت تعمل طوال الليل، وكان من المقرّر أن تغادر عند الساعة الحاديـة عشرة صباحاً».

«ماذا حدث في ذلك الصباح؟» سألتها أوديت.

«خُتن الطفل. لا يحبّ الآباء عادة رؤية ذلك يجري أمامهم، فأُخذ الرضيع إلى غرفة الحضانة. نعطيهم شيئاً حلواً – على نحو أسـاسيّ مـاء سـكر - لتهـدئتهم قلـيلاً، ويقـوم طبيب الأطفال بهذا الإجراء. لَمَّا أدخلتُ سريـر الطفـل النقّـال، كانـت روث تنتظـر في غرفة الحضانة. كان صباحاً محموماً بالعمل، وكانت تأخذ قسطاً من الراحة».

«هل جرى الختان كما هو مخطّط له؟»

«نعم، لم تكن هناك أيّ مضاعفات. يتضمَّن البروتوكول مراقبة الطفل لمدَّة تسعين دقيقة للتأكّد من عدم وجود نزيف أو أيّ مشكلة أخرى».

«هل هذا ما فعلتِه؟»

«لا»، اعترفت كورين، «استُدعيت لإجراء ولادة قيصريَّة طارئة لمريضة أخرى. رافقتني الممرّضة المشرفة، ماري، إلى غرفة العمليَّات، وهذا عملها. وهذا يعني أنَّ روث كانت الممرّضة الوحيدة التي بقيت في الغرفة، فطلبت إليها أن تراقب ديفيس»، تردَّدت، ثمّ قالت: «يجب أن تفهمي أنّنا مستشفى صغير، ولدينا طاقم رئيس، وعندما تحدث حالة طبية طارئة، تُتَّخذ القرارات بسرعة».

كان هوارد إلى جانبي يدوّن ملاحظة.

«تستغرق العمليّة القيصريّة عشرين دقيقة. افترضتُ أنّني سأعود إلى غرفة الحضانة قبل أن يستيقظ الرضيع».

«هل انتابك شعور بالقلق عندما تركتِ ديفيس في رعاية روث؟»

فقالت بحزم: «لا»، ثمَّ أضافت، «روث أفضل ممرّضة رأيتها في حياتي».

«ما الفترة التي غبتِ فيها؟» سألتها أوديت.

فقالت كورين بهدوء: «فترة طويلة جداً. لَمَّا عدتُ، كان الطفل قد مات».

التفتت المدّعية العامّة إلى كينيدي، وقالت لها: «شهادتك».

ابتسمت كينيدي لكورين وهي تسير نحو منصَّة الشهود، وقالت لها: «تقولين إنّك عملتِ مع روث لمدّة سبع سنوات. هل تعدِّين نفسك صديقة لها؟»

اندفعت عينا كورين إليَّ، وقالت: «نعم».

«هل سبق لك أن شككت في التزامها بحياتها المهنيَّة؟»

«لا. كانت قدوة بالنسبة إليَّ إلى درجة كبيرة».

«هل كنتِ في غرفة الحضانة في أيّ وقت جرى فيه تدخُّل طبيّ لديفيس باور؟»

فقالت كورين: «لا، كنت مع مريضتي الأخرى».

«إذاً، لم تري روث تفعل شيئاً».

«لا».

أضافت كينيدي: «لم تري روث وهي تفعل شيئاً».

«لا.»

رفعت قصاصة الورق التي مرَّرها إليها هاورد، وقالت: «ذكرتِ، وأنا أقتبس هنا، عندما تحدث حالة طبية طارئة تُتخذ قرارات بسرعة. هل تذكرين أنَّكِ قلت ذلك؟»

«نعم...»

«كانت عمليّة الولادة القيصريّة التي ذهبتِ لإجرائها حالة طبيّة طارئة، أليس كذلك؟»

«نعم».

«ألا تقولين أيضاً إنّ المولود الجديد الذي كان يعاني من نوبة في جهازه التنفسيِّ حالة طبيّة طارئة؟»

«نعم، طبعاً».

«هل كنتِ تعرفين بوجود ملاحظة في الملفّ تقول إنّه يجب ألّا تعتني روث بهذا الطفل؟»

«اعتراض»، قالت أوديت، «هذا ليس ما كُتب في الملاحظة».

فقال القاضي: «الاعتراض مقبول».

أعادت السيّدة ماكواري صياغة السؤال: «هل كنتِ تعرفين أنّه توجد ملاحظة في الملفّ تقول بأنّه لا يستطيع أن يقوم أيّ شخص أمريكيّ من أصل أفريقيّ برعاية الطفل؟»

«نعم».

«كم عدد الممرّضات السوداوات اللاتي يعملن في القسم الذي تعملين فيه؟»

«روث فقط».

«هل كنتِ تعلمين عندما طلبتِ إلى روث أن تأخذ مكانك أنَّ والدَي الطفل أعربا عن رغبتهما في منعها من رعاية مولودهما الجديد؟»

تحرَّكت كورين في مقعدها الخشبيّ، وقالت: «لم أكن أظنّ أنّ شيئاً يمكن أن يحدث. كان الطفل في حالة جيدة عندما غادرتُ».

«السبب الكامل لمراقبة الطفل لمدّة تسعين دقيقة بعد الختان هو أنّه قد تتغيّر الأمور بالنسبة إلى الأطفال حديثي الولادة في لحظة، أليس هذا صحيحاً؟»

«نعم».

«والحقيقة، يا كورين، أنّك تركتِ ذلك الطفل مع ممرّضة مُنعت من خدمة الطفل، أليس كذلك؟»

فقالت كورين: «لم يكن لديَّ خيار آخر».

«لكنّكِ تركت ذلك الرضيع في رعاية روث؟»

«نعم».

«هل تعلمين أنّه ليس من المفترض أن تلمس ذلك الطفل؟»

«نعم.»

«إذاً، ارتكبتِ خطأً، أساساً، مرَّتين؟»

«حسناً...»

فقاطعتها كينيدي، وقالت: «هذا مضحك. لم يتَّهمك أحد بقتل ذلك الطفل!»

في الليلة الماضية، حلمتُ بجنازة أمّي. كانت المقاعد في الكنيسة ممتلئة، ولم يكن الفصل شتاء، وإنّما صيفاً. وعلى الرّغم من أجهزة التكييف، واستخدام الحاضرين في القاعة مراوح يدويَّة، كنّا ننضح جميعنا عرقاً. ولم تكن الكنيسة كنيسة، وإنّما كانت مستودعاً بدا كما لو أنّه أعيد ترميمه بعد حريق. وكان الصليب خلف المذبح مكوّناً من عوارض خشبيّة متفحِّمة رُكِّبت معاً مثل أحجية.

كنتُ أحاول أن أبكي، لكنّ الدموع جفّت في عينيَّ. وقد تحوَّلت كلُّ الرطوبة في جسدي إلى عرق. حاولت أن أثير الهواء نحوي، لكن لم تكن لديَّ مروحة.

ثمَّ أعطتني المرأة الجالسة إلى جانبي مروحة، وقالت: «خذي مروحتي».

رفعت عينيَّ لأشكرها، فرأيت أمِّي جالسة على الكرسيِّ إلى جانبي.

معقودة اللسان، نهضت ووقفت على قدميَّ.

نظرت إلى داخل التابوت لأرى من هو الشخص المسجّى فيه - بدلاً منها.

كان ممتلئاً بأطفال رضَّع ميتين.

عُيِّنت ماري بعدي بعشر سنوات. كانت آنذاك ممرّضة في قسم المخاض والتوليد مثلي تماماً. عانينا من نوبات عمل مزدوجة، واشتكينا من المزايا الرديئة التي نحصل عليها، وشهدنا إعادة تصميم المستشفى. لَمَّا تقاعدت الممرّضة المشرفة، رشّحنا أنفسنا، أنا وماري، لشغل تلك الوظيفة. ولَمَّا اختارت إدارة الموارد البشريَّة ماري، جاءتني محطَّمة، وقالت إنّها كانت تأمل في أن أحصل أنا على تلك الوظيفة، فقلت لها لا يتعيّن عليها أن تعتذر لأنّهم اختاروها هي، ولم أكترث لذلك، لأنّه كان عليَّ أن أهتمَّ بتربية

إديسون لأنَّ منصب الممرّضة المشرفة يعني الكثير من الأعمال الإدارية والقليل من التعامل مع المرضى.

بينما كنت أراقب ماري وهي تأخذ دورها الجديد، شكرتُ نجوم السعد لأنّها سارت بالطريقة التي أريدها.

«طلب والد الطفل، تورك باور، أن يتحدَّث إلى مشرفة»، قالت ماري، ردّاً على سؤال المدعية العامّة، وأضافت، «كان قلقاً حول رعاية طفله».

«ما كان محتوى تلك المحادثة؟»

نظرت إلى حضنها، وقالت: «لم يشأ أن يلمس أيّ شخص أسود طفله. لَمّا قال ذلك، كشف عن وشم يظهر على ساعده بوضوح علم الكونفدراليّة».

سُمعت شهقة من أحد أعضاء هيئة المحلَّفين.

«هل سبق أن طلب إليك أحد الوالدين طلباً كهذا؟»

تردَّدت ماري، وقالت: «نتلقّى طلبات من المرضى طوال الوقت. بعض النسوة يفضّلن طبيبات لتوليد أطفالهنَّ، أو لا يفضّلن أن تعالجهنَّ طالبة لا تزال تدرس الطبّ. نبذل كلّ ما في وسعنا لنجعل مريضاتنا يشعرنَ بالراحة، مهما كلَّف الأمر».

«في هذه الحالة، ماذا فعلتِ؟»

«دوَّنت ملاحظة ووضعتها في الملفّ».

طلبت إليها أوديت أن تعاين الوثيقة مع الملفّ الطبيّ، وأن تقرأ الملاحظة بصوت عالٍ.

«هل تحدّثتِ إلى العاملين معك عن طلب هذا المريض؟»

«نعم. شرحتُ لروث أنَّه يوجد طلب بأن تتوقَّف عن رعاية الطفل بسبب معتقدات الأب الفلسفيَّة».

«ماذا كانت ردَّة فعلها؟»

«عدَّتها إهانة شخصيّة»، قالت ماري بهدوء، «لم أقصد الأمر بهذه الطريقة. قلت لها إنّ الأمر مجرّد إجراء شكلي، لكنّها خرجت من مكتبي وصفقت الباب وراءها».

«متى رأيتِ المدَّعى عليها مرّة أخرى؟» سألتها أوديت.

«صباح يوم السبت. كنت في غرفة الطوارئ مع مريضة أخرى حدثت لها مضاعفات في أثناء الولادة، وبما أنّني المشرفة على الممرّضات، فإنّي مطالبة بإجراء هذا التبديل مع الممرّضة الموجودة التي تصادف أنّها كورين التي طلبت إلى روث أن تراقب مريضها الآخر - ديفيس باور - بعد الختان. وفي أقرب وقت ممكن، عدت إلى غرفة الحضانة».

«أخبرينا ما الذي رأيتِهِ يا ماري».

فقالت: «كانت روث واقفة أمام السرير. سألتها ماذا تفعلين؟ فقالت لا شيء».

أطبقت الغرفة عليَّ، وتشنَّجت عضلات رقبتي وذراعيَّ. شعرت أنَّني تجمَّدت مرّة أخرى، مسمّرة من رؤية الرخام الأزرق على خدّ الطفل، وهمود جسده الصغير. أسمع تعليماتها:

كيس التنفُّس الاصطناعي.

اتصلي بالرمز.

إنّي أسبح، الماء يغمرني فوق رأسي، أنا قطعة خشب.

باشري الضغط.

بدأت أضغط بإصبعين فوق زنبرك القفص الصدري الرقيق، أوصل الأسلاك بيدي الأخرى. أصبحت غرفة الحضانة فجأة ضيقة جداً من هذا العدد من الأشخاص داخلها. أُدخلت الإبرة تحت الجلد في فروة الرأس، وابل من الشتائم انطلقت عندما انزلقت إلى الخارج قبل أن تلامس الوريد. قارورة تدحرجت من فوق الطاولة. تدفّق الأتروبين إلى الرئتين

وغطّى الأنبوب البلاستيكيّ. هرعت طبيبة الأطفال إلى غرفة الحضانة. أُلقي بكيس التنفّس الاصطناعيّ في سلّة المهملات.

الزمن: 10:04.

«روث؟» همست كينيدي، «هل أنت على ما يرام؟»

لم أستطع أن أحرّك شفتيّ. غمرني الماء فوق رأسي. أصبحت قطعة من خشب.

إنّي أغرق.

قالت ماري: «بدأت دقّات قلب المريض تخفق ببطء شديد».

شاهِدتا قبرٍ.

«لم نتمكَّن من تزويده بالأكسجين. أخيراً، طلبت طبيبة الأطفال إعلان وقت الوفاة. لم ندرك أنّ الوالدين كانا في غرفة الحضانة. كانت تحدث أشياء كثيرة... و...» تلعثمت، ثمّ مضت تقول: «جرى الأب - السيد باور – إلى سلّة المهملات وأخرج كيس التنفّس الاصطناعيّ. حاول أن يضعه في الأنبوب الذي كان لا يزال بارزاً من حنجرة الطفل. توسَّل إلينا أن نريه كيف يمكنه أن يفعل ذلك»، مسحت دمعة، «إنّي لا أقصد أن... أنا... أنا آسفة».

أدرتُ رأسي بضع درجات، ورأيت نسوة عديدات في مقصورة المحلَّفين يفعلن الشيء نفسه. أمّا أنا، فلم تبقَ دموع لديَّ.

إنّي أغرق في دموع الآخرين.

سارت أوديت نحو ماري وأعطتها علبة مناديل ورقيّة. صوت النشيج الناعم يحيط بي مثل قطعة قطن يلتفّ من جميع الجوانب. «ماذا حدث بعد ذلك؟» سألتها المدّعية العامّة.

جفَّفت ماري دموعها، وقالت: «لففتُ ديفيس باور في بطانية، ووضعت قبَّعته مرّة أخرى، وأعطيته لأمّه وأبيه».

أنا قطعة خشب.

أغمضت عينيَّ. وبدأت أغرق، أغرق.

استغرقتُ بضع دقائق لأركّز على كينيدي التي بدأت تستجوب ماري.

«هل اشتكى لك أيّ مريض من خبرة روث كممرّضة قبل تورك باور؟»

«لا».

«هل قدّمت روث رعاية دون المستوى المطلوب؟»

«لا».

«لَمَّا دوَّنتِ تلك الملاحظة في جدول الطفل، كنتِ تعرفين أنّه ستكون هناك ممرّضتان فقط تعملان في أيّ وقت، وأنّه قد يكون هناك احتمال بأن يُترك المريض من دون إشراف في مرحلة ما في أثناء إقامته في المستشفى؟»

«هذا غير صحيح. كانت الممرّضة المناوبة الأخرى ستغطّي ذلك».

«وماذا لو كانت تلك الممرّضة مشغولة؟» سألتها كينيدي، «ماذا لو استُدعيت لإجراء عمليّة قيصريّة طارئة، مثلاً، وكانت الممرّضة الوحيدة المتبقية هي في الحقيقة أمريكيّة من أصل أفريقيّ؟»

فُتح فم ماري وأُغلق، لكن لم يصدر منه صوت.

«أنا آسفة يا سيّدة مالون - لم أفهم ذلك تماماً».

«لم يُترك ديفيس باور من دون إشراف في أيّ وقت»، قالت بإصرار، «كانت روث هناك».

«لكنّكِ – المشرفة عليها - منعتِها من رعاية هذا المريض بالذات، أليس هذا صحيحاً؟»

«لا، أنا...»

«ملاحظتك منعتها من معالجة هذا المريض بالذات على نحو فعَّال...»

فقالت ماري: «على نحو عامّ. من الواضح ليس في حالة طوارئ».

لمعت عينا كينيدي، وقالت: «هل هذا مدوَّن في تقرير المريض؟»

«لا، لكن...»

«هل كان ذلك مدوّناً في الملاحظة التي كتبتِها؟»

«لا».

«هل أبلغتِ روث بأنّه في ظروف معيّنة يجب أن يحلّ تَعهُّد نايتنغيل الذي تتعهَّد بموجبه الممرّضات محلّ ما أمرتِها به؟»

«لا»، تمتمت ماري.

طوت كينيدي ذراعيها، وسألتها: «إذاً، كيف كان من المفترض أن تعرف روث؟»

لَمَّا حان وقت استراحة المحكمة للغداء، عرضت كينيدي أن تُحضر لنا وجبة طعام كي لا نضطرَّ أنا وإديسون إلى الخروج ومواجهة الصحافة. قلت لها إنّني لست جائعة، فقالت لي: «أعرف أنَّ الأمر ليس مريحاً، لكنَّها كانت بداية جيّدة».

نظرت إليها نظرة تشي تماماً بما أفكِّر فيه: لا يمكن في أيّ حال أن يفكّر أحد من هيئة المحلّفين في أنَّ تورك باور حاول إنعاش ابنه.

بعد أن تركتنا كينيدي، جلس إديسون إلى جانبي. حلَّ ربطة عنقه. «هل أنت على ما يرام؟» سألته، وضغطت على يده.

«لا أصدّق أنّك أنتِ التي تسألني هذا السؤال».

سارت سيّدة إلى جانبنا وجلست إلى جانب إديسون على المقعد خارج قاعة المحكمة. كانت منهمكة في كتابة محادثة نصيّة على هاتفها، تضحك وتتجهَّم، وتسأل، أوبرا بشريَّة من شخص واحد، ثمّ رفعت عينيها أخيراً كما لو أنَّها أدركت أين هي.

رأت إديسون إلى جانبها، فتحرَّكت قليلاً لتضع شعرة من الفراغ بينهما. ثمَّ ابتسمت، كما لو أنَّ ذلك سيجعل كلَّ شيء على ما يرام.

قلت: «تعرف، أشعر أنَّني جائعة قليلاً».

ابتسم إديسون ابتسامة عريضة، وقال: «أنا دائماً جائع».

نهضنا معاً وتسلَّلنا من الجزء الخلفيّ من قاعة المحكمة. لم أعد أبالي حتّى في هذه المرحلة لو أنّني واجهت كلّ وسائل الإعلام، أو قابلت والاس ميرسي نفسه. تجوَّلت في الشارع شابكة ذراعي بذراع إديسون حتَّى وصلنا إلى مطعم بيتزا.

طلبنا قطعتي بيتزا وجلسنا ننتظر دورنا. انحنى إديسون فوق زجاجة الكوكا كولا وشربها بالقشة كلّها. مرّة أخرى سرحت في أفكاري وذكرياتي.

أظنّ أنَّني لم أدرك أنَّ المحاكمة ليست مجرَّد اغتيال شخصيّة. إنّها لعبة ذهنيّة، بحيث يجري نزع قشرة درع المدَّعى عليه كلّ مرّة، حتَّى لا يعود في وسعك إلّا أن تتساءل إن كان ما يقوله الادّعاء صحيحاً.

ماذا لو أنّني فعلت ذلك عمداً؟

ماذا لو أنّني تردَّدت لا بسبب ملاحظة ماري وإنّما لأنّني أردت أن أفعل ذلك في أعماقي؟

صوت إديسون أعادني إلى الواقع. رمشتُ، عدتُ إلى المركز. «هل نادوا اسمنا؟»

هزَّ رأسه، وقال: «ليس بعد. ماما، هل يمكنني... هل يمكنني أن أسألك شيئاً؟»

«دائماً».

فكَّر للحظة كما لو أنَّه يغربل الكلمات. «هل كان... هل كان الأمر كذلك حقاً؟»

رنَّ جرس عند المنضدة الأماميَّة. أصبحت وجبتنا جاهزة.

لم أتحرَّك لجلبها. بدلاً من ذلك، نظرت في عينَي ابني، وقلت: «كانت أسوأ».

كان طبيب التخدير الذي استُدعي بعد ظهر ذلك اليوم كشاهد للولاية شخصاً لا أعرفه جيّداً. لم يكن إسحق هاجر يعمل في الجناح الذي أعمل فيه إلّا إذا طُلب الرمز، ثمَّ وصل مع بقية أعضاء الفريق. لَمَّا جاء لرؤية ديفيس باور، لم أكن أعرف حتَّى اسمه.

«قبل أن تستجيب للرمز»، سألته أوديت، «هل رأيت هذا المريض من قبل؟»

فقال الدكتور هاجر: «لا».

«هل قابلت والديه من قبل؟»

«لا.»

«هل يمكنك أن تخبرنا ما الذي فعلته عندما وصلت إلى غرفة الحضانة؟»

فأجاب الدكتور هاجر: «أدخلتُ الأنبوب للمريض، ولَمَّا لم يتمكَّن زملائي من إدخال الإبرة في الوريد، حاولت أن أساعدهم».

«هل أعطيت روث أيّ تعليقات في أثناء هذه العمليّة؟» سألته أوديت.

«نعم. كانت تضغط على صدر الطفل، وطلبت منها مرَّات عدَّة أن تتوقَّف عن ذلك لنعرف إن كان المريض يستجيب أم لا. في إحدى المرّات، لَمَّا شعرت أنّها كانت تضغط بشيء من القوة على صدر المريض، قلت لها ذلك».

«هل يمكنك أن تصف ما الذي كانت تفعله؟»

فقال: «تتضمَّن عمليّات الضغط على صدر الرضيع الضغط على عظمة القصّ بدرجة نصف بوصة نحو مئتي مرّة في الدقيقة. كانت المُعَقَّدات الظاهرة على الشاشة مرتفعة جدّاً. خُيّل إليَّ أنّ روث كانت تضغط بقوّة».

«هل يمكنك أن تشرح ما الذي يعنيه ذلك بالنسبة إلى شخص عاديّ؟»

نظر الدكتور هاجر إلى هيئة المحلّفين، وقال: «إنّ الضغط على الصدر هي الطريقة التي نجعل بها القلب يخفق يدويّاً، إذا لم يخفق من تلقاء نفسه. ويهدف ذلك إلى دفع النتاج القلبيّ فيزيائياً... لكنّنا نتوقّف بعد ذلك عن عمليّة الضغط لفترة كافية كي يملأ الدّم القلب. لا يختلف الأمر عن عمليّة تسليك المرحاض. يجب أن تضغطي إلى الأسفل، لكن إذا لم تسحبي إلى الأعلى لإحداث عمليّة الشفط فلن يمتلئ الوعاء بالماء، وكذلك الأمر، إذا ضغطتِ بسرعة كبيرة أو شديدة، فإنّك تضخّين وتضخّين، لكن لا يوجد دم يجري في الجسم».

«هل تذكر تماماً ما الذي قلته لروث؟»

تنحنح وقال: «قلت لها أن تخفّف من حدّة ضغطها».

«هل من غير المعتاد أن يقترح طبيب التخدير إجراء تعديل على الشخص الذي يجري الضغط؟»

فقال الدكتور هاجر: «لا على الإطلاق. إنّه نظام من الضوابط والتوازنات. جميعنا نراقب بعضنا في أثناء الترميز. ربّما أراقب أيضاً لأرى إن كان جانبا الصدر يرتفعان، وإذا لم يحدث ذلك، كنت سأطلب إلى ماري مالون أن تضغط بقوّة أكبر».

«منذ متى بدأت روث تضغط بقوّة؟»

«اعتراض»، قالت كينيدي، «إنّها تضع الكلمات في فم الشاهد».

«سأعيد صياغة السؤال. منذ متى أصبح ضغط المدَّعى عليها شديداً على صدر المريض؟»

«كان قوياً على نحو طفيف لأقلّ من دقيقة».

فسألته أوديت: «في رأيك الطبيّ الخبير، يا دكتور، هل من الممكن أن يسبّب ما فعلته المدَّعى عليها ضرراً للمريض؟»

«يمكن أن تبدو عمليّة إنقاذ الحياة عنيفة جداً يا سيّدة لوتون. إنّنا نشقّ الجلد، ونكسر الضلوع، ونصدم بتوتر كهربائيّ عالي جدّاً»، ثمّ التفت إليَّ، وأضاف، «إنّنا نفعل ما يجب علينا فعله، وعندما نكون محظوظين، ينجح ما نفعله».

فقالت المدّعية العامّة: «لا توجد لديَّ أسئلة أخرى».

اقتربت كينيدي من الدكتور هاجر، وقالت: «كانت المشاعر جياشة وفي حالة توتّر في غرفة الحضانة، أليس كذلك؟»

«نعم».

«تلك الضغطات التي كانت تجريها روث - هل أثّرت سلباً على حياة الرضيع؟»

«بالعكس تماماً. أبقته في قيد الحياة ريثما نحاول التدخُّل الطبيّ».

«هل أسهمت في وفاة الرضيع؟»

«لا».

مالت كينيدي على حاجز مقصورة هيئة المحلّفين، وقالت: «هل من الإنصاف القول إنّه في غرفة الحضانة تلك، كان الجميع يحاولون إنقاذ حياة هذا الطفل؟»

«بالتأكيد».

«حتّى روث؟»

نظر الدكتور هاجر إليَّ مباشرة، وقال: «نعم».

عُلِّقت الجلسة بعد شهادة طبيب التخدير. غادر القاضي، وأُخرج المحلّفون من مقصورتهم. أخذتني كينيدي إلى غرفة اجتماعات يُفترض أن أمكث فيها كي أبقى بعيدة عن الصحافة ووسائل الإعلام.

أردتُ أن أتحدَّث إلى إديسون. أردتُ أن أعـانق أديسـا، لكنّـي جلسـت إلى طاولـة صغيرة في غرفة تضيئها أضواء النيون، وبدأت أحاول أن أفكك لعبة الشـطرنج هـذه في رأسي.

«هل تساءلتِ يوماً؟» سألت كينيدي، «ماذا يمكن أن تفعلي لو لم تكوني محامية؟»

نظرت كينيدي إليَّ، وقالت: «هل هذه طريقتك في القول إنَّ عملي سيّئ؟»

«لا، إنّي أفكِّر فقط... في البدء من جديد».

أزالت غلاف قطعة علكة ومرَّرت لي بقية العلبة، وقالت: «لا تضحكي، لكنّي كنـت أريد أن أصبح طاهية معجَّنات ذات يوم».

«حقاً؟»

«درست في مدرسة الطهي لمدّة ثلاثة أسابيع. لكنّ عجينـة الفيلـو تغلّبـت عـليَّ في النهاية. لم يكن لديّ الصبر لأصنعها».

لاحت ابتسامة على وجهي، وقلت: «عجيب!».

«وماذا عنك؟» سألتني كينيدي.

نظرت إليها، وقلت: «لا أعرف. أردت أن أصبح ممرِّضة منذ أن كنـت في الخامسـة من عمري. أشعر أنّني كبرت كثيراً لأبدأ من جديد. حتّى لو كـان عـليَّ أن أفعـل ذلـك، فإنّي لا أعرف إلى أين سأذهب».

فقالت كينيدي: «هذه مشـكلة أن تناديـك مهنـة محـدَّدة. إنّهـا لا تـدفع الإيجـار فقط».

تناديك. ألهذا السبب أزلت غطاء بطانية ديفيس باور عندما لم يعد يتنفَّس؟ قلت: «كينيدي، هناك شيء...»

لكنَّها قاطعتني وقالت: «يمكنك أن تعودي إلى الجامعة. احصلي على شهادة في الطبّ أو ادرسي لتصبحي مساعدة طبيب، أو اعملي مقدّمة رعاية طبيّة خاصّة».

لا يقول أحد منّا الحقيقة التي تضغط على الغرفة الصغيرة معنا: المجرمة المدانة لا تبدو جيّدة في سيرتها الذاتيّة.

لَمَّا رأت وجهي، لانت عيناها، وقالت: «ستسير الأمور على ما يرام يا روث. توجد لديَّ خطة كبرى».

«ماذا لو؟» قلت بهدوء، «ماذا لو لم تنجح الخطّة الكبرى؟»

شدّت على فكّيها، وقالت: «بعدها سأبذل قصارى جهدي لأخفّف من فترة حكمك».

«هل سأذهب إلى السجن؟»

«في الوقت الحالي، وجَّهت الولاية إليك تهماً عدَّة. في أيّ وقت، إذا قرَّرت أنّه لا يوجد لديها الدليل القاطع الذي يدعم تلك التهم، فقد يسقطون تهمة أكبر لصالح الإدانة بتهمة أقلّ. وإذا لم تتمكّن من إثبات جريمة القتل، لكنّها تعتقد بأنّ جريمة قتل حدثت بسبب الإهمال، فقد تلعب أوديت اللعبة بأمان». التقت عيناها عينَيّ، وأضافت: «إنَّ الحدَّ الأدنى لعقوبة جريمة القتل هو خمس وعشرون سنة، أمَّا القتل بسبب الإهمال؟ فهو أقلّ من سنة. وكي أكون صادقة معك، سيواجهون صعوبة شديدة في إثبات النيَّة. ستسير أوديت على أطراف أصابعها عندما تستجوب تورك باور وإلّا فإنّ هيئة المحلّفين ستكرهه».

«تقصدين بقدر ما أفعل أنا؟»

شحذت كينيدي عينيها وقالت تحذّرني: «روث، لا أريد أن أسمعك تقولين هذه الكلمات بصوت عالٍ مرّة أخرى. هل تفهمين؟»

في لحظة، أدركت أنّ كينيدي ليست الشخص الوحيد التي تفكّر في أن تخطو ستّ خطوات إلى الأمام، وكذلك أوديت، وإنّما تريد أن تجعل هيئة المحلّفين تكره تورك باور. تريدهم أن يشعروا بالغضب منه، بالاستياء، وبالقرف منه أخلاقيّاً.

وبهذه الطريقة ستتمكّن من إثبات الدافع.

كنت شديدة الإعجاب بالدكتورة أتكينز، طبيبة الأطفال، لكن بعد أن سمعتها تعدّد مؤهِّلاتها، وتورد سيرتها الذاتيّة، ازداد إعجابي بها. فهي واحدة من أولئك الأشخاص النادرين الذين حصلوا على جوائز وتشريفات أكثر ممّا تتوقّعه، لأنّها امرأة في غاية التواضع بحيث لا تذكر ذلك بنفسها. وهي أيضاً أول شاهدة تجلس على منصّة الشهود وتنظر إليّ مباشرة وتبتسم لي قبل أن تحوّل انتباهها إلى المدّعية العامَّة.

قالت الدكتورة أتكينز: «كانت روث قد فحصت المولود الجديد، وشعرت بالقلق بوجود احتمال أن يكون مصاباً بنفخة قلبيَّة».

سألتها أوديت: «هل كان ذلك مصدر قلق كبير؟».

«لا. يولد أطفال كثيرون بقناة شريانيّة مفتوحة. ثقب صغير جداً في القلب، يُغلق عادة من تلقاء نفسه في السنة الأولى من الحياة. لكن، لمزيد من الأمان، حدَّدت موعداً لاستشارة طبيب قلبيّة للأطفال قبل أن يخرج المريض من المستشفى».

علمت من كينيدي أنَّ أوديت ستفترض أنَّ المشكلة الطبية التي أشارت إليها كينيدي في مرافعتها الافتتاحيَّة هي النفخة القلبيَّة، فقلَّلت من أهميتها لأجل هيئة المحلَّفين.

«دكتورة أتكينز، هل كنت تعملين يوم السبت، الثالث من تشرين الأول - يوم وفاة ديفيس باور؟»

«نعم. جئت لختان المريض في الساعة التاسعة صباحاً».

«هل يمكنك أن تفسّري لنا هذا الإجراء؟»

«طبعاً، إنَّها عمليَّة بسيطة جداً تُزال فيها القلفة من قضيب الرضيع الذكر. تأخرت قليلاً لأنه كان لديَّ مريض آخر في حالة طوارئ».

«هل كان هناك شخص آخر حاضراً؟»

«نعم، ممرّضتان. كورين وروث. سألت روث إن كان المريض جاهزاً، فقالت إنها لم تعد الممرضة المشرفة عليه. وأكَّدت كورين أنَّ الرضيع جاهز للعمليّة، وأجريت ذلك من دون وقوع أيِّ حادث».

«هل قالت لك روث شيئاً عن الختان؟»

صمتت الدكتورة أتكنز قليلاً، ثمَّ قالت: «قالت ربَّما يجب أن أعقّم الطفل».

همس أحدهم خلفي في القاعة: قحبة.

«ماذا كان ردّك؟»

«لم أردَّ. كان لديّ عمل أقوم به».

«كيف سارت العمليَّة؟»

هزَّت طبيبة الأطفال كتفيها وقالت: «بدأ يبكي بعد ذلك مثل جميع الأطفال. قمَّطناه بشدّة، ثمَّ غطَّ في النوم»، ورفعت عينيها.

«لَمَّا غادرتِ، كان نائماً... حسناً... مثل طفل رضيع».

«الشاهدة لكِ»، قالت أوديت.

«دكتورة، لقد عملتِ في المستشفى لمدة ثماني سنوات، أليس كذلك؟» قالت لها كينيدي.

«نعم»، ضحكت قليلاً، «يا إلهي! الوقت يمضي بسرعة».

«في غضون ذلك الوقت، هل عملتِ مع روث من قبل؟»

فقالت الدكتورة أتكينز: «في أحيان كثيرة، وبفرح كبير»، وأضافت، «إنَّها ممرّضة رائعة، تبذل كلَّ ما في وسعها لرعاية مرضاها».

«لَمَّا علَّقت روث بشأن تعقيم الرضيع، كيف فهمت ما قالته؟»

فقالت الدكتورة أتكينز: «على سبيل المزاح. كنت أعرف أنَّها تمزح. روث ليست من النوع الذي يكون ليئماً مع المرضى».

«بعد ختان ديفيس باور، هل كنتِ لا تزالين تعملين في المستشفى؟»

«نعم، لكن في جناح آخر، في عيادة الأطفال».

«هل علمتِ بوجود حالة طارئة في غرفة الحضانة؟»

«نعم. نادت ماري الرمز. لَمَّا وصلت، كانت روث تضغط على صدره».

«هل كانت روث تفعل كلَّ شيء وفاقاً لأعلى معايير الرعاية؟»

«بقدر ما رأيت، نعم».

«هل أشارت إلى وجود أيّ عداء أو تحيّز ضدّ هذا الطفل؟» سألتها كينيدي.

«لا».

ثمَّ قالت لها كينيدي: «أودُّ أن أعود إلى الوراء قليلاً. هل طلبتِ أيّ تحليل لدم ديفيس باور بعد ولادته؟»

«نعم، فحص حديثي الولادة الذي تجريه ولاية كونيتيكت».

«أين يذهب تحليل الدم؟»

«يقوم مختبر الولاية في روكي هيل بفحصه. لا نجريه في مختبرنا».

«كيف يُرسل إلى مختبر الولاية؟»

فقالت الدكتورة أتكينز: «بوساطة مراسل».

«متى أُخذ دم ديفيس باور للفحص؟»

«في الساعة الثانية والنصف مساء يوم الجمعة، الثاني من تشرين الأول».

«هل تلقّيت نتائج اختبار فحص المولود من مختبر ولاية كونيتيكت؟»

تجهَّم وجه الدكتورة أتكينز، وفكَّرت في الأمر، ثمَّ قالت: «في الواقع، لا أتذكَّر أنَّني رأيته. لكن، بالطبع، كانت تلك نقطة جدال في ذلك الوقت».

«ما الغرض من إجراء الاختبار؟»

أوردت الدكتورة أتكينز سلسلة من الأمراض النادرة، بعضها ناجم عن طفرة جينية، وبعضها ناجم عن عدم وجود إنزيمات أو بروتينات كافية في الجسم، وبعضها الآخر ناجم عن عدم القدرة على تكسير الإنزيمات أو البروتينات، وقالت: «لم يسمع معظمكم عن هذه الحالات من قبل، لأنَّ معظم الأطفال لا يعانون منها، أمَّا الأطفال الذين يعانون منها - حسناً، يمكن علاج بعض الاضطرابات إذا اكتُشفت في وقت مبكر، إذا وفَّرنا سبلاً كالنظام الغذائيّ أو الأدوية أو العلاج بالهرمونات، يصبح بإمكاننا في أحيان كثيرة أن نمنع حدوث تأخيرات كبيرة في النموِّ وضعف الإدراك من خلال بدء العلاج على الفور».

«هل أيّ من هذه الحالات مميتة؟»

«بعضها، إذا تُركت من دون علاج».

«لم تتح لك فرصة الاطلاع على نتائج هذا الاختبار عندما أصيب ديفيس باور بنوبة قلبية، أليس كذلك؟» سألتها كينيدي.

«لا، لأنَّ مختبر الولاية يغلق في عطلة نهاية الأسبوع. عادة لا نحصل على النتائج التي نرسلها يوم الجمعة حتَّى يوم الثلاثاء».

فقالت كينيدي: «إنَّ ما تقولينه هو أنَّ الاختبار يستغرق ضعف الوقت تقريباً للحصول على نتائج له إذا كان من سوء حظّ الطفل أنَّه ولد في نهاية أيام أسبوع العمل».

«هذا صحيح، لسوء الحظ».

رأيت المحلّفين يدوّنون ملاحظات، ويستمعون باهتمام. تحـرَّك إديسـون خلفهـا في مقعده. ربّما كانت كينيدي على حقّ. ربّما كلّ ما يحتاجون إليه هو العلم.

سألتها كينيدي: «هل لديكِ اطلاع على اضطراب يدعى «نقـص نازعـة هيـدروجين الأسيل - الإنزيم المشترك A متوسّط السلسلة» (MCADD)؟».

«نعم. إنّه اضطراب أكسدة الأحماض الدهنيَّة. في الأساس، يواجه الرضـيع المصـاب به صعوبة في تكسير الدهون، وهذا يعني انخفاض نسبة السكّر في الدّم إلى مسـتويات متدنية على نحو خطِر. يمكن معالجته إذا اكتُشف في وقت مبكـر باتبـاع نظـام غـذائيّ دقيق، ورضاعة متكرّرة».

لنفترض أنّه لم يُكتشف. ماذا يحدث؟»

«حسناً، يتعرَّض الأطفال المصابون بهذا الاضطراب إلى خطر الوفاة إلى درجة كبـيرة في أثناء النوبة السريريّة الأولى بسبب نقص السكّر في الدم - عندما يذهب سكّر الـدم جنوباً».

«كيف ذلك؟»

«ينتابهم نعاس شديد، ويكونـون ثقـيلي الحركـة، بليـدين، عصـبيين، ولا يرضـعون جيّداً».

«لنفترض أنَّ طفلاً لم يُشخَّص بأنّه مصاب بهذا الاضطراب، ولم يُعالج وسيُختن. هـل يمكن أن يؤدّي ذلك إلى تفاقم حالته؟»

هزَّت الطبيبة رأسها، وقالـت: «يكـون هنـاك عـادة صـيام بعـد السـاعة السادسـة صـباحاً لأجـل الجراحـة التـي سـتجري لاحقـاً. أمّـا بالنسـبة إلى الطفـل المصـاب بهـذا الاضطراب، فإنّ ذلك يؤدّي إلى انخفاض نسـبة السـكّر في الـدّم - حلقـة محتملـة مـن نقص السكّر في الدّم. وبدلاً من ذلك، يعطى الطفل 10 في المئة من سـكّر العنـب قبـل الختان وبعده».

«لقد سحبتِ الدّم من ديفيس باور في أثناء إعلان الرمز، أليس كذلك؟»

«نعم».

«هل يمكنك إخبار هيئة المحلّفين عن نتائج السكّر في دمه في ذلك الوقت؟»

«عشرون.»

«عند أيّ مستوى يُعدُّ المولود الجديد مصاباً بنقص السكّر في الدّم؟»

«أربعون».

«إذاً، كان سكّر الدّم عند ديفيس باور منخفضاً إلى درجة خطِرة؟»

«نعم.»

«هل يكفي أن يصاب الطفل المصاب بهذا الاضطراب، الذي لم يُعالج، ولم يُشخص، بفشل في التنفُّس؟»

«لا يمكنني أن أؤكّد ذلك، لكن ذلك ممكن».

رفعت كينيدي ملفَّها وقالت: «أودُّ أن أُدرج هذه بحسبانها الوثيقة رقم 42»، وأضافت، «إنّها نتيجة اختبار ديفيس باور الذي طلبه الدفاع».

نهضت أوديت واقفة مثل طلقة، وقالت: «حضرة القاضي، ما هذه الحيلة؟ لم يُبلغ الدفاع الادّعاء بـ...»

فأجابتها كينيدي: «لأنَّني تلقّيت النتائج منذ بضعة أيام فقط. كانت مخفية من وقائع القضيّة منذ أشهر عدَّة، وهذا يجعلني أدَّعي بأنَّ ذلك بهدف إعاقة سير العدالة...»

«اقتربا»، دعا القاضي كلتا المحاميتين إلى أن تقتربا من منصَّته. شُغّل الجهاز كي لا أتمكّن من سماع ما يقولونه، وكذلك هيئة المحلَّفين. لَمَّا أنهوا مداولتهم، بعد كثير من التلويح باليد واحمرار وجه كينيدي، أُعطيت الوثيقة للكاتب ليضمَّها كدليل إثبات.

سألتها كينيدي: «دكتورة أتكينز، هل يمكنك أن تحدّثينا عمَّا ترينه؟»

فقالت طبيبة الأطفال وهي تدقّق في الصفحات: «إنَّها نتيجة اختبار فحص الطفل حديث الولادة»، ثمَّ توقّفت، وقالت: «يا إلهي!».

«هل هناك اهتمام خاص بالنتائج يا دكتورة أتكينز؟ النتائج التي لم تظهر لأنَّ مختبر الولاية كان مغلقاً طوال عطلة نهاية الأسبوع؟ لم يتمَّ الحصول على النتائج إلَّا بعد وفاة ديفيس باور؟»

رفعت الطبيبة عينيها وقالت: «نعم. تبيّن أنَّ ديفيس باور مصاب بذلك الاضطراب الأيضيّ».

شعرت كينيدي بالزهوّ عندما انتهت المحكمة في اليوم الأول. راحت تتحدَّث بسرعة، كما لو أنَّها تناولت أربعة أكواب قهوة كبيرة، وبدا أنَّه تملَّكها شعور بأنَّنا ربحنا القضيَّة، مع أنَّ الادّعاء كان قد بدأ توّاً، ولم يبدأ الدفاع بعد، وقالت لي إنَّني يجب أن أشرب كأساً كبيرةً من النبيذ هذا المساء لنحتفل بيوم الشهادة الرائع هذا، لكن صدقاً، كان كلّ ما أردت أن أفعله هو أن أعود إلى المنزل وأزحف إلى السرير.

كان رأسي يؤلمني بصور ديفيس باور، والنظرة على وجه الدكتورة أتكينز عندما أدركت ما الذي تورده نتائج الاختبار. صحيح أنّ كينيدي أطلعتني عليها قبل ليلتين، لكن ذلك كان أشدَّ تدميراً؛ أن ترى شخصاً آخرَ من المستشفى - شخصاً أحبّه وأثق به – قلت في نفسي، لو أنَّ ذلك يعيدني إلى توازني قليلاً.

نعم، هذه محاكمة ضدّي.

نعم، لقد أُدنت بشيء لم يكن ينبغي أن أُدان به. لكن، في نهاية الأمر، هناك طفل ميت. هناك أمّ لم تعد تستطيع أن تراه وهو يكبر. قد أحصل على البراءة، وقد أصبح ضوءاً ساطعاً لرسالة والاس ميرسي، وقد يكون في وسعي أن أرفع دعوى في محكمة مدنيّة وأحصل على تعويضات ومبلغ يهدِّئ أعصابي بشأن رسوم جامعة إديسون - ومع ذلك فإنّي أعرف أنّ أحداً لن يربح هذه القضيَّة.

لأنَّك لا تستطيعين أن تمحي الخسائر المأساوية الهائلة لروح لا تزال في بدايتها.

هذا ما كان يدور في رأسي وأنا أنتظر ريثما تفرغ القاعة بالكامل، ونستطيع أنا وإديسون أن نعود إلى المنزل دون أن نجذب الانتباه إلينا. كان ينتظرني على مقعد خارج غرفة الاجتماعات. سألته: «أين خالتك؟»

هزَّ كتفيه، وقال: «قالت إنّها تريد أن تعود إلى المنزل قبل أن يبدأ هطول الثلج».

ألقيت نظرة من النافذة، ورأيت ندف الثلج تتساقط. أصبحت أكثر انكفاء على نفسي إلى درجة أنني لم ألحظ أنَّ العاصفة قد بدأت. «دعني أذهب إلى دورة المياه»، قلت لإديسون، وسرت في الممرِّ الفارغ.

دخلت المقصورة وأفرغت مثانتي، ولَمَّا خرجت لأغسل يديَّ، رأيت أوديت لوتون واقفة أمام المغسلة. نظرت إليَّ في المرآة، ووضعت الغطاء على قلم أحمر الشفاه، وقالت: «لقد حظيت محاميتك بيوم جيّد».

لم أعرف كيف أجيبها، فتركت الماء الساخن ينساب على رسغي.

«لكن، لو كنت في مكانك، لما شعرت بالاطمئنان. قد تتمكَّنين من إقناع كينيدي ماكواري بأنَّك كلارا بارتون، لكنّي أعرف بمَ كنت تفكّرين عندما وضعك ذلك العنصريّ في مكانك. ولم تكن أفكاراً شافية».

هذا كثير جداً. ثمَّة شيء بدأ يغلي داخلي، نبع ماء حارّ، إدراك. أغلقت صنبور الماء وجفَّفت يديَّ، والتفتُّ إليها، وقلت: «كما تعرفين، أمضيت حياتي وأنا أفعل كلَّ شيء على نحو صحيح. اجتهدت في دراستي، وابتسمت كثيراً، ولعبت وفاقاً للقواعد حتّى تمكّنت من الوصول إلى ما وصلت إليه، وأعرف أنَّك فعلتِ ذلك أيضاً. لذلك، يصعب عليَّ حقاً أن أفهم لماذا تبذل امرأة أمريكيّة من أصل أفريقيّ ذكيّة ومهنيّة جهدها لتوقع امرأة ذكيّة ومهنيّة أمريكيّة من أصل أفريقيّ، أخرى!».

لمحتُ وميضاً في عينَيْ أوديت، مثل نَفَس في لهيب نار. لكنَّه اختفى بسرعة، وحلَّت محلّه نظرة فولاذيَّة، وقالت: «لا علاقة لهذا بلون البشرة. إنّي أؤدّي عملي فقط».

ألقيتُ المنشفة الورقيَّة في سلَّة المهملات، ووضعت يدي على مقبض الباب، وقلت: «ألستِ محظوظة؟ ألم يخبرك أحد بذلك».

في تلك الليلة، لَمَّا كنت جالسة إلى طاولة المطبخ، سارحة في أفكاري، أحضر لي إديسون كوباً من الشاي. «لماذا هذا يا حبيبي؟» سألته مبتسمة.

فقال: «ظننت أنّك تحتاجين إليه. يبدو أنَّك متعبة.

«نعم»، اعترفت، «إنّي متعبة جداً».

نعرف كلانا أنَّني لم أكن أتحدَّث عن أول يومين من الإدلاء بالشهادة أيضاً.

جلس إديسون إلى جانبي، وضغطت على يده، وقلت له: «إنَّك مرهق، أليس كذلك؟ إنَّك تحاول أن تثبت أنَّك أفضل ممَّا يتوقَّعون منك؟»

هزَّ رأسه، وعرفت أنَّه يفهم قصدي، ثمَّ قال: «تختلف المحكمة عمَّا كنت أظنّ، عمَّا شاهدته في التلفاز».

قلت: «أطول»، وقال في الوقت نفسه، «مملَّة».

ضحكنا كلانا.

«تحدَّثت قليلاً مع الشابّ هوارد في أثناء إحدى فترات الاستراحة»، قال إديسون، «إنَّ عمله رائع، وكينيدي كذلك. الفكرة أنّه يحقّ أن يكون لكلّ شخص محام جيّد، حتّى لو لم يكن في استطاعته أن يدفع أجور المحامي»، ثمَّ نظر إليَّ، وقد كلّلت ملامحه السؤال: «هل تظنّين أنّني سأكون محامياً جيّداً، يا ماما؟»

«حسناً، أنت أذكى منّي، والله يعلم أنّك تعرف كيف تجادل»، ثمّ أضفت، «لكنّك ستكون نجماً في كلّ ما تختار فعله».

فقـال: «إنَّـه أمـر مضـحك أن أريـد فعـل مـا يفعلونـه - العمـل مـع أشـخاص لا يستطيعون دفع تكاليف تمثيلهم قانونياً. لكنَّ الأمر كلّه يبدو كما لو أنَّ حياتي كلّها قـد هيَّأتني لأكون في الطرف الآخر، بدلاً من ذلك - الادّعاء».

«ماذا تقصد؟»

هزَّ إديسون كتفيه وقال: «تتحمَّل الولاية عبء الإثبات. إنّه يشـبه مـا نفعلـه كـلَّ يوم».

* * *

في تلك الليلة، هطل الـثلج بغـزارة وبسرعـة، ولم تسـتطع الجرَّافـات إزالتـه كـاملاً، فاكتسى العالم حلَّـة بيضـاء. انتعلـتُ حـذائي الشـتويّ، وارتـديت التنـورة نفسـها التـي ارتديتها طوال الأسبوع. كنت أغيّر البلـوزة فقـط. أعلـن المـذياع خـبر إغـلاق المـدارس، وتعطّلت الحافلة التي نستقلّها، أنا وإديسـون، فاضـطررنا إلى أن نأخـذ خطـاً مختلفـاً. كانت النتيجة أنَّنا وصلنا إلى قاعة المحكمـة متـأخّرين خمـس دقـائق. أرسـلتُ رسـالة نصـيَّة إلى كينيـدي، وكنـت أعـرف أنَّنـا لا نسـتطيع أن نتسـلَّل مـن البـاب الخلفـيّ، فاستقبلتنا كينيـدي عـلى درج المحكمـة حيـث دُفعـت الميكروفونـات في وجهـي عـلى الفور، ونعتني الناس بالقاتلة. لفَّ إديسون ذراعيه حولي فاستندت إلى صـدره، وشـكَّل حاجزاً حولي.

«سنكون محظوظين لو علقت سيّارة القاضي ثاندر في الثلج اليوم»، تمتمت قائلة.

«كانت المواصلات العامَّة...»

«لا يهمّني. يجب ألّا تعطي المحكمة أسباباً إضافيَّة كي تكرهك».

هرعنا إلى قاعة المحكمة حيث كانت أوديت جالسة بهدوء إلى طاولـة النيابة، وبدا كما لو أنَّها وصلت منذ السادسـة صـباحاً. ثـمَّ دخـل القـاضي ثاندر، منحنياً عند الخصر، ونهضنا جميعاً. قال: «صدم سيَّارتي أحمـق مـن

الخلف وأنا في طريقي إلى المحكمة، لذلك فإنَّ ظهري يؤلمني»، وأضاف، «أعتـذر عـلى التأخير».

«هل أنت بخير يا حضرة القاضي؟» سألته كينيدي، «هل تريد أن نطلب طبيباً؟»

«بقدر ما أقدّر إبداء تعاطفك، يا سـيّدة مـاكواري، أتخيَّـل أنَّـك كنـت تفضّـلين أن أكون عاجزاً في مكان ما في المستشفى. السيّدة لوتون، استدعي شاهدك قبل أن أتخـلّى عن هذه الشجاعة القضائيَّة وأتناول حبَّة فيكودين».

كان الشاهد الأول للنيابة العامّة اليوم المحقّق الذي استجوبني بعد اعتقالي.

بعد أن سألته عن اسمه وعنوانه، قالت أوديت: «المحقّق ماكدوغال أين تعمل؟»

«في بلدة إيست إند، كونيتيكت».

«كيف شاركت في القضيّة التي نحن في صددها اليوم؟»

مال إلى الخلف. بدا أنّه يفيض خـارج الكـرسيّ ويمـلأ منصّـة الشـهود كلّهـا، وقـال: «تلقّيت مكالمة من السيّد باور، وطلبت منه أن يأتي إلى مركز الشرطة لأسـجّل شـكواه. كان منفعلاً جداً حينذاك. كان يعتقد أنّ الممرّضة التـي كانـت تقـوم عـلى رعايـة ابنـه أحجمت عن رعايته عمداً ما أدَّى إلى وفاته. استجوبت الطاقم الطبيَّ المعنيّ بالقضيّة، وأجريت لقاءات عدَّة مع الطبيب الشرعيّ... ومعك يا سيّدتي».

«هل استجوبت المدَّعى عليها؟»

«نعم. بعد أن حصلت على مـذكرة توقيـف، ذهبنـا إلى منـزل السـيّدة جيفرسـون وطرقنا الباب - بصوت عال لكنَّها لم تفتح الباب».

في تلك اللحظة، كدت أنهض من على مقعدي، فوضع هوارد وكينيدي يديهما على كتفي لأبقى جالسة. كان ذلك في الساعة الثالثة صباحاً، ولم يقرعوا الباب، وإنّما راحوا يخبطون بقوة حتَّى كُسرت عضادة الباب، وأمسكوني تحت تهديد السلاح.

ملتُ نحو كينيدي، وقد انتفخت فتحتا أنفي، وهمست لها: «هذه كذبة. إنّه يكذب»، فقالت: «شش».

«ما الذي حدث بعد ذلك؟» سألته المدَّعية العامَّة.

«لم يفتح أحد الباب».

شدَّت كينيدي يدها على كتفي بقوة أكثر.

«خشينا أن تهرب من الباب الخلفيّ، فطلبت إلى زملائي استخدام المطرقة لكسر الباب، ودهم البيت».

«هل دخلتم واعتقلتم السيّدة جيفرسون؟»

فقال المحقّق: «نعم. لكن في البداية رأينا شيئاً كبيراً أسود...».

قلت تحت أنفاسي: «لا»، فلكزني هوارد من تحت الطاولة. «... ما تبينَّاه فيما بعد أنَّه ابن السيّدة جيفرسون. كنّا معنيين أيضاً بسلامة الضابط، ففتشنا غرفة النوم، في حين قيّدنا يدَي السيّدة جيفرسون».

ألقوا قطع الأثاث في أنحاء الغرفة. كسروا صحوني، ونزعوا ثيابي من المشاجب، ورموها على الأرض، ثمَّ هاجموا ابني.

تابع المحقّق ماكدوغال قائلاً: «أبلغتها بحقوقها، وقرأت عليها التهم الموجَّهة إليها».

«كيف كانت ردَّة فعلها؟»

تجهَّم وجهه، وقال: «لم تكن متعاونة».

«وماذا حدث بعد ذلك؟»

«أحضرناهـا إلى مركـز شرطـة إيسـت إنـد، وأخـذنا بصـمات أصـابعها وصـوّرناها ووضـعناها في زنزانـة. ثـمّ جلبتهـا أنـا وزميلتـي، المحقّقـة ليونـغ، إلى غرفـة التحقيـق، وأبلغتها مرّة أخرى أنَّه يحقّ لها أن يكون محاميها معها، وألّا تقول شيئاً، وأنَّهـا إذا مـا أرادت أن تتوقف عن الإجابة عن الأسئلة في أيّ وقت، فلها الحريَّة في ذلـك، وقلنـا لهـا إنَّ ردودها قد تُستخدم في المحكمة، ثمَّ سألتها إن كانت قد فهمت كلّ مـا قلنـاه لهـا، ووقّعت بالأحرف الأولى من اسمها على كلِّ فقرة قالت إنّها فهمتها».

«هل طلبت المدَّعى عليها محامياً؟»

«ليس في ذلك الوقت. كانت على استعداد تامّ لأن تحكي قصّتها من وجهة نظرهـا. أكّدت أنّها لم تلمس الرضيع حتّى بدأ يضيق تنفُّسه. واعترفت أيضاً أنّها والسيّد باور لم - كيف قالت ذلك؟ - ينظر أحدهما في وجه الآخر».

«ثمَّ ماذا حدث؟»

«حسناً، أردنا أن نعلمها بأنّنا كنّـا نبحـث عنهـا. قلنـا لهـا إنّ ذلـك مجـرّد حـادث، أخبرينا فقط، ويمكننا أن نسوّي الأمـر مـع القـاضي، ويمكننـا أن نصـحّح الفـوضى التـي حدثت، ويمكنها أن تواصل تربية ابنها. لكنَّها صمتت وقالت إنّها لم تعد تريد أن تقـول شيئاً». هزَّ كتفيه، وأضاف: «أظنُّ أنَّه لم يكن حادثاً».

«اعتراض»، قالت كينيدي.

أجفل القاضي ثاندر، محاولاً أن يستدير نحـو مراسـل المحكمـة، وقـال: «الاعـتراض مقبول. اشطب آخر تعليق للشاهد من السجلّ».

لكنَّها معلّقة في الفراغ بيننا، مثل وهج لافتة مضاءة بالنيون بعد سحب القابس.

شعرت بضغط سلبيّ على كتفي، وأدركت أنَّ كينيدي قد رفعت يدها عـن كتفـي، ووقفت أمام المحقَّق، وسألته: «هل كان لديك أمرٌ قضائيٌّ؟»

«نعم».

«هل اتّصلت بروث وأخبرتها أنَّك ستأتي؟ وهل طلبت إليها أن تأتي معك طوعاً إلى مركز الشرطة؟»

فقال ماكدوغال: «لا نفعل ذلك في الأوامر القضائيّة المتعلّقة بجرائم القتل».

«متى صدر أمر التوقيف؟»

«الساعة الخامسة مساء، أو قرابة ذلك».

«وفي أيّ وقت وصلت فعلاً إلى منزل روث؟»

«نحو الساعة الثالثة صباحاً».

نظرت كينيدي إلى هيئة المحلَّفين كما لو أنّها تريد أن تقول: هل يمكنكم أن تصدّقوا ذلك؟ ثمَّ سألته: «وهل كان هناك سبب محدَّد للتأخير؟»

«كان ذلك مقصوداً تماماً. فأحد مبادئ إنفاذ القانون الذهاب في الوقت الذي لا يتوقَّع شخص مجيئك فيه. وهذا ينزع سلاح المشتبه به، ويدفع العمليَّة قدماً».

«إذاً، لَمَّا قرعت باب منزل روث، ولم ترحّب بك على الفور بقطعة كيك وقهوة وعناق كبير، هل من الممكن أن يكون سبب ذلك لأنَّها كانت تغطّ في النوم عند الساعة الثالثة صباحاً؟»

«لا أستطيع أن أتحدَّث عن عادات نوم المتهمة».

«التفتيش العشوائيّ الذي أجريته... في الواقع، ألم تُفرغ الأدراج والخزائن وتحطّم الأثاث وتدمّر منزل السيّدة جيفرسون وهي مقيّدة اليدين غير قادرة على الوصول إلى أيّ سلاح؟»

«لا تعرفين متى يكون السلاح في متناول الشخص يا سيدتي».

«أليس صحيحاً أيضاً أنّك ألقيت بابنها أرضاً ووضعت ذراعيه خلف ظهره لإخضاعه؟»

«هذا إجراء عاديّ لأجل سلامة رجال الشرطة. لم نكن نعرف أنّه ابن السيّدة جيفرسون. رأينا شاباً أسود ضخماً وغاضباً. من الواضح أنّه كان منزعجاً».

«حقاً؟» قالت كينيدي، «ألم يكن يضع قلنسوة أيضاً؟»

شطب القاضي ثاندر هذا التعليق من السجلّ، ولَمّا جلست كينيدي، بدا أنّها فوجئت من حدّة غضبها مثلي. تمتمت: «آسفة. كانت زلّة لسان». لكنَّ القاضي بدا غاضباً، وطلب المحامية إلى اجتماع جانبيّ. شُغِّلت آلة الضوضاء مرّة أخرى حتّى لا أسمع ما يقوله، لكن من امتقاع لون وجهه، وغضبه وهو يكلّم محاميتي، عرفت أنّه لم يطلبها ليمتدحها ويثني عليها.

«لهذا السبب»، قالت لي كينيدي، وقد شحب لونها عندما عادت، «يجب ألّا تثيري مسألة العِرق في المحكمة».

قرَّر القاضي ثاندر رفع الجلسة بسبب ألم ظهره.

بسبب الثلج، استغرقت عودتنا إلى المنزل فترة أطول. لَمّا انعطفنا، أنا وإديسون، عند ناصية حيّنا، شعرنا بالبلل والإرهاق. كان هناك رجل يحاول أن يخرج سيّارته العالقة في الثلج بيديه المغلَّفتين بقفّازين، وصبيّان يلقي أحدهما كرات الثلج على الآخر، وقد أصابت إحداها ظهر إديسون.

كانت هناك سيّارة مركونة أمام منزلنا، سيّارة ليموزين سوداء داخلها سائق، وهو شيء لا تراه كثيراً هنا. لَمّا اقتربت من السيّارة، فُتح الباب الخلفيّ وترجَّلت امرأة في سترة تزلّج وحذاء طويل من الفرو دُفنت تحت طبقة من الصوف - قبّعة ووشاح. استغرقت بعض الوقت لأدرك أنَّها كريستينا.

«ماذا تفعلين هنا؟» سألتها، وقد فوجئت عندما رأيتها. لم تأتِ كريستينا لزيارتي في منزلي طوال السنوات التي أمضيتها في إيست إند، ولم أدعُها لزيارتي أيضاً طوال تلك السنوات.

لم يكن ذلك لأنّني أخجل من منزلي، فأنا أحبّ المكان الذي أعيش فيه والطريقة التي أعيش فيها. وإنّما لم أكن أتصوّر أنّني أستطيع أن أتحمَّل الطريقة المبالغ فيها، التي تعبّر فيها عن روعة المنزل، وكم أنَّه مريح، وكيف أبدو.

قالت: «كنت في المحكمة في اليومين الماضيين». صُدِمت. فقد مسحتُ بعينيَّ قاعة المحكمة، ولم أرَها، من الصعب ألّا أرى كريستينا إذا كانت موجودة.

لَمَّا خلعت معطفها، كشفت عن قميص من الفانيلا وبنطلون جينز فضفاض، أبعد ما يكون عن الأزياء الراقية التي ترتديها عادة، وقالت بابتسامة خجول: «ارتديت هذه الثياب كي لا يعرفني أحد». ثمَّ نظرت من فوق كتفي إلى إديسون، وقالت: «إديسون، يا بني. يا إلهي! لم أرك منذ أن كنت أقصر قامة من أمّك...»

ارتعشت ذقنه، ترحيب محرج.

قلت له: «إديسون، لماذا لا تدخل البيت؟» وعندما ذهب، نظرتُ في عينَي كريستينا، وقلت: «لا أفهم. ماذا لو اكتشفت الصحافة أنَّك هنا؟...»

فقالت بحزم: «عندها سأقول لهم أن يذهبوا إلى الجحيم. ليذهب الكونغرس إلى الجحيم. قلت للاري إنّني سآتي، وإنَّ هذا أمر غير قابل للجدال، وإذا ما سألني أحد من الصحافة، فسأقول له الحقيقة: إنَّنا صديقتان منذ زمن بعيد».

سألتها مرّة أخرى: «كريستينا، ماذا تفعلين هنا؟»

كان بإمكانها أن ترسل إليَّ رسالة نصيَّة. كان بإمكانها أن تتصل بي بالهاتف. كان بإمكانها ببساطة أن تجلس في قاعة المحكمة لترفع من معنوياتي. لكنّها بدلاً من ذلك، كانت تنتظرني أمام باب منزلي، لا يعرف إلّا الله منذ متى.

«أنا صديقتك»، قالت بهدوء، «صدّقي أو لا تصدّقي يا روث، هذا ما يفعله الأصدقاء». نظرت إليَّ، ورأيت الدموع تترقرق في عينيها: «إنّ ما قالوا إنّه حدث لك – اقتحام الشرطة المنزل، والأصفاد، والطريقة التي هاجموا بها إديسون. لم أتخيَّل قطّ...» تلعثمت، ثمَّ جمعت أعشاب أفكارها، وقدَّمت لي باقة أكثر حزناً وصدقاً، «لم أكن أعرف».

«ولماذا يجب أن تعرفي؟» أجبتها – لم أكن غاضبة، ولم تُجرح مشاعري، وإنّما أقول الحقيقة، «لن تضطرّي إلى ذلك أبداً».

جفَّفت كريستينا دموعها، وقد لطّخت المسكرا عينيها، وقالت: «لا أعرف إن كنت قد حكيت لك هذه القصّة من قبل. الأمر يتعلّق بوالدتك. حدث ذلك منذ زمن عندما كنتُ في الجامعة. كنت عائدة إلى المنزل بسيّارتي من فاسار لأمضي عطلة عيد الشكر، وكان يقف على جانب الطريق تاكونيك باركواي، رجل يريد توصيلة. كان رجلاً أسود يمشي على عكّازين، فتوقَّفت وسألته إن كان في حاجة إلى توصيلة. أوصلته إلى محطَّة «بنسلفانيا» ليستقلّ القطار ليزور أسرته في واشنطن العاصمة». شدَّت معطفها بإحكام حولها، وأضافت: «لَمَّا عدت إلى المنزل، دخلت أمّك غرفتي لتساعدني في إفراغ حقائبي، حكيت لها ما فعلته. ظننت أنَّها ستفتخر بي لأنّني ساعدته، لكنَّها استشاطت غضباً يا روث. أقسم إنَّني لم أرَها غاضبة هكذا من قبل. أمسكتني من ذراعي وراحت تهزّني. حتّى إنّها لم تستطع أن تتكلّم في البداية، ثمّ قالت لي: «لا تفعلي ذلك مرّة أخرى». صُدمت، ووعدتها ألّا أفعل ذلك». نظرت كريستينا إليَّ، وأضافت: «جلستُ

اليوم في قاعة المحكمة، واستمعت إلى حديث المحقّق كيف أنَّه حطّم باب منزلك في منتصف الليل، وألقاك أرضاً، واحتجز إديسون، فتردَّد صدى صوت أمّك في أذني بعد أن حكيت لها عن ذلك الشخص الأسود. كنت أعرف أنّ سبب ردّة فعلها هكذا لأنّها كانت خائفة عليَّ. لكن، طوال هذه السنوات، كنت أظنّ أنّها كانت تحاول الحفاظ على سلامتي، لكنّني عرفت الآن أنّها كانت تحاول أن تحمي ذاك الرجل».

أدركت أنّني كنت أظنّ منذ سنوات أنّ كريستينا تعدّني شخصاً من ماضيها يجب التسامح معه، شخصاً سيّئ الحظّ تجب مساعدته. لَمَّا كنّا فتاتين صغيرتين، كنت أشعر أنّنا متساويتان، لكن مع تقدّمنا في العمر، لَمَّا أصبحنا نعي أكثر الأشياء المختلفة بيننا، بدلاً من الأشياء المتشابهة بيننا، بدأت أشعر بحاجز يفصل إحدانا عن الأخرى. وبدأت أنتقدها سرّاً لأنّها تصدر أحكاماً عنّي وعن حياتي من دون أن تسألني مباشرة. كانت هي البطلة، وأنا التابعة في قصّتها، لكنَّني نسيت أن أذكّر نفسي بأنّني أنا التي أعطيتها هذا الدور. كنت ألوم كريستينا لأنّها أقامت ذلك الجدار غير المرئيّ فيما بيننا من دون أن أعترف بأنّني أضفت بعض اللبنات إلى هذا الجدار.

«تركت النقود تحت البساط أمام باب البيت»، قلت.

فقالت كريستينا: «أعرف. كان ينبغي لي أن ألصقها بغراء قويّ في راحة يدك». ثمَّة قدم من الفراغ وعالم من التباين بيني وبين كريستينا. لكن، أعرف أيضاً مدى صعوبة إزالة قشرة حياتنا والنظر إلى الواقع. يبدو الأمر كما لو أنّكِ تستيقظين في غرفة وتغادرين السرير وترين أنّه قد أُعيد ترتيب قطع الأثاث بأكملها، وسينتهي بك الأمر إلى أن تخرجي، لكنَّ ذلك سيكون بطيئاً، وستصابين ببعض الكدمات وأنتِ في طريقك إلى الخارج.

مددت يدي وضغطت على يد كريستينا، وقلت لها: «تفضَّلي».

كان اليوم التالي بارداً، والسماء صافية. جعلت ذكرى العاصفة الثلجيّة، التي هبّت البارحة، الطرق مقفرة، وأبقت درجات الحرارة المنخفضة جموع الناس بعيدين عن الدرجات الأماميَّة لمبنى المحكمة. حتّى القاضي ثاندر بدا مستقرّاً، وأصبح هادئاً إمّا من الحبوب المسكِّنة التي تناولها لعلاج آلام ظهره وإمَّا لأنّنا اقتربنا من نهاية إدلاء شهود الادّعاء بشهاداتهم. اليوم، كان الطبيب الشرعيّ أول شاهد دُعي للإدلاء بشهادته، الدكتور بيل بيني، الذي درس على يد هنري لي الشهير. كان أصغر سنّاً ممّا تخيّلته، يداه الرهيفتان تتحرّكان في أثناء إجابته، مثل طيور مُدرَّبة تقبع في حجره، قسماته تشبه قسمات نجم سينمائيّ، فراحت السيّدات في هيئة المحلّفين ينصتن باهتمام إلى ردوده، حتّى لو كانت مجرّد سلسلة مملّة من سرد جميع الإنجازات في سيرته الذاتيّة.

«متى سمعت أوّل مرّة عن ديفيس باور يا دكتور؟» سألته المدّعية العامة.

«تلقى مكتبي رسالة هاتفية من كورين ماكفوي، الممرّضة في مستشفى الرحمة - ويست هافن».

«هل استجبت؟»

«نعم. بعد وصول جثّة الرضيع، شرَّحنا الجثة».

«هل يمكنك أن تخبر المحكمة ماذا يعني ذلك؟»

«بالتأكيد»، قال والتفتَ نحو المحلّفين، «أُجري فحصاً خارجيّاً وآخر داخليّاً. في أثناء الفحص الخارجيّ، أبحث في الجسد عن كدمات، وأرى إن كانت هناك أيّ علامات، ثمّ آخذ قياسات للجسم ومحيط الرأس، وأصوّر الجسد. وآخذ عيّنات من الدّم والصفراء. ولإجراء الفحص الداخليّ، أُحدث شقّاً في الصدر في شكل حرف Y، وأسحب الجلد إلى الخلف، وأفحص الرئتين والقلب والكبد بالإضافة إلى الأعضاء الأخرى، وأتأكّد إن كان هناك تمزّق أو تشوّهات جسيمة، ثمّ نزن الأعضاء، ونقيسها، ونأخذ عيّنات من

الأنسجة، ثمّ نرسل تلك العيّنات إلى قسم السموم وننتظر النتائج حتّى نتوصّل إلى نتيجة معقولة وواقعيّة عن سبب الوفاة».

«ما النتائج التي توصَّلت إليها في أثناء تشريح الجثة؟» سألته أوديت.

«كان الكبد متضخّماً قليلاً، وكان هناك تضخّم طفيف في القلب والقناة الشريانيّة من الدرجة الأولى، لكن لم تكن هناك عيوب خلقيّة أخرى - لم تكن هناك عيوب في الصمّامات».

«ماذا يعني ذلك؟»

«كان العضو كبيراً بعض الشيء، وكان هناك ثقب صغير في القلب. لكن لم تكن هناك مشكلة في الأوعية ولم تكن هناك عيوب في الحجاب الحاجز».

«هل تشير أيّ من هذه النتائج إلى سبب الوفاة؟»

فقال الطبيب الشرعي: «ليس حقاً، لكن يوجد سبب وجيه لها. وفاقاً لسجلّات المريض الطبية، كانت الأمّ مصابة بسكّري الحمل في أثناء الحمل».

«ماذا يعني ذلك؟»

«حالة تؤدّي إلى ارتفاع نسبة السكّر في الدم لدى الأمّ في أثناء الحمل. لسوء الحظ، فإنّ لارتفاع نسبة السكّر في الدم لدى الأمّهات تأثيراً في أطفالهنَّ أيضاً».

«كيف ذلك؟»

«غالباً ما يكون الأطفال الذين يولدون لأمهات مصابات بداء السكري أكبر حجماً من الأطفال الآخرين. فقد تتضخم أكبادهم وقلوبهم وغددهم الكظرية. غالباً ما يعاني هؤلاء الأطفال من نقص السكر في الدم بعد الولادة بسبب ارتفاع مستويات الأنسولين في الدم. مرة أخرى، بناء على السجلات الطبية التي درستها، أظهر اختبار ما بعد الولادة للمريضة

انخفاض نسبة السكر في الدم. جميع نتائج تشريح الجثة وانخفاض نسبة السكر في الدم تتماشى مع رضيع ولد لأمّ مصابة بداء السكري».

«وماذا عن الثقب في قلب الطفل؟ يبدو ذلك خطِراً...»

«يبدو الأمر أسوأ ممّا هو. في معظم الحالات، تُغلق القناة الشريانيّة»، قال الدكتور بيني ونظر إلى هيئة المحلفين. بدأت المرأة التي تعمل معلّمة، المحلّف رقم 12، تهوّي نفسها.

«إذاً هل استطعت تحديد سبب وفاة الطفل؟»

فقال الطبيب الشرعي: «في الواقع، هذا الأمر معقد أكثر مما يعتقد معظم الناس. نحن الذين نعمل في الطبّ، نميّز بين الطريقة التي يموت بها الشخص والتغيير الفعلي الذي يطرأ على الجسم الذي يسبب نهاية الحياة. لنفترض مثلاً أنَّ هناك طلقة نارية ومات أحدهم، هنا يكون الجرح الناجم عن الطلق الناري سبب الوفاة، أمَّا آليَّة الموت - الحدث الجسديّ الفعليّ الذي أنهى حياته – فهي الاستنزاف - فقدان الدم».

ثمَّ حوّل انتباهه من أوديت إلى هيئة المحلّفين، وقال: «ثمّ هناك طريقة الموت - كيف حدثت. هل الجرح الناجم عن الطلقة كان حادثاً؟ أو انتحاراً؟ أو اعتداءً متعمداً؟ يصبح ذلك مهمّاً - حسناً - عندما نجلس في قاعة محكمة كهذه».

عرضت المدّعية العامّة وثيقة أخرى.

«قد يكون ما سترونه مزعجاً جداً»، قالت أوديت محذّرة هيئة المحلّفين، ووضعت على الحامل صورة جسد ديفيس باور.

شعرت أن أنفاسي علقت في حلقي. تلك الأصابع الصغيرة، وقوس الساقين، وحشفة قضيبه لا تزال ملطّخة بالدم من الختان إن لم يكن بسبب الكدمات، فبسبب اللون الأزرق على بشرته. قد يكون نائماً.

كنت قد أخذت هذه الجثة من المشرحة. حملته بين ذراعيَّ. هززته نحو السماء.

«دكتور»، قالت أوديت، «هل يمكنك أن تخبرنا...» لكن قبل أن تُنهي جملتها، سُمع صوت ارتطام في القاعة. استدرنا جميعاً ورأينا بريتاني باور واقفة وعيناها تلمعان. وقد وقف زوجها أمامها ممسكاً بكتفيها. لم أعرف إن كان يحاول أن يكبح جماحها أم أنّه يحاول أن يبقيها واقفة.

صرخت: «دعني... هذا ابني».

ضرب القاضي ثاندر مطرقته على الطاولة، وقال: «أريد نظاماً»، وقال بلطف: «سيّدتي، من فضلك اجلسي...»

لكنَّ بريتاني أشارت بإصبعها المرتعشة نحوي مباشرة. قد يكون ذلك صاعقاً كهربائياً للتيّار الذي يسري في عظامي، وقالت: «أيَّتها العاهرة، لقد قتلتِ طفلي»، وسارت تترنَّح في الممرِّ، تقترب منّي، ممتلئة بالكراهية، «سأجعلكِ تدفعين ثمن ذلك، إذا كان هذا آخر شيء سأفعله في حياتي».

نادت كينيدي القاضي الذي ضرب بمطرقته مرّة أخرى، وطلب الحارس. حاول والد بريتاني باور تهدئتها أيضاً، لكن عبثاً. حدث اهتزاز من الصدمة، وهمس في أثناء إخراجها من قاعة المحكمة. تسمَّر زوجها في مكانه، عالقاً بين مواساتها والبقاء في القاعة ليدلي بشهادته. بعد لحظة استدار وجرى خارج الأبواب المزدوجة.

لَمَّا أمر القاضي باستتباب النظام والهدوء، نظرنا جميعاً إلى الأمام مرّة أخرى، أعيننا على ذلك الملصق العملاق للرضيع المتوفَّى. انفجرت إحدى أعضاء هيئة المحلَّفين باكيةً، وراح شخصان آخران يهدِّئانها، ثمَّ دعا القاضي ثاندر إلى استراحة.

إلى جانبي، زفرت كينيدي، وقالت: «أوه، اللعنة».

بعد ربع ساعة، عاد الجميع إلى قاعة المحكمة ما عدا بريتاني وتورك باور، لكنَّ غيابهما بدا أكثر وضوحاً، كما لو أنَّ الفضاء السلبيّ تذكير دائم لسبب هذه الاستراحة. قادت أوديت الطبيب الشرعيّ عبر سلسلة من الصور لجسم الطفل، من كلّ زاوية ممكنة، وجعلته يشرح نتائج الاختبار المختلفة، وما هو المعيار، وما هو الشيء الذي حاد عن القاعدة، ثمّ سألته أخيراً: «هل استطعت أن تحدِّد سبب وفاة ديفيس باور؟»

هزَّ الدكتور بيني رأسه، وقال: «بالنسبة إلى ديفيس باور، كان سبب الوفاة نقص السكّر في الدّم الّذي أدّى إلى حدوث نوبة نقص السكّر في الدم، ما أدّى إلى توقّف التنفّس ثمّ إلى توقّف القلب. بعبارة أخرى، أدّى انخفاض السكّر في الدم إلى توقّف الرضيع عن التنفّس، وهذا بدوره أدّى إلى توقّف قلبه. إنّ الطريقة التي مات فيها الرضيع هي الاختناق، لكن لم تُحدّد الطريقة».

«لم تحدّد؟ هل هذا يعني أنّ تصرّف المدَّعى عليها لا علاقة له بوفاة الطفل؟» سألته أوديت.

«على العكس. هذا يعني فقط أنّه لم يكن من الواضح إن كان الموت قد نجم عن ممارسة عمل عنيف أم أنّه موت طبيعيّ».

«كيف أجريت بحوثك حول هذا الأمر؟»

«بالطبع قرأت السجلّات الطبيّة، بالإضافة إلى تقرير الشرطة الذي قدَّم معلومات».

«مثل؟»

«قال السيّد باور للشرطة إنّ روث جيفرسون كانت تضغط على صدر ابنه. الكدمات التي وجدناها على عظم القصّ قد تدعم هذا الادّعاء».

«هل كان هناك شيء آخر في تقرير الشرطة دفعك إلى ملء التقرير بالطريقة التي ملأته بها؟»

«استناداً إلى روايات عدَّة، كان هناك ما يشير إلى أنّ المدَّعى عليها لم تبذل أيّ جهود لإنعاش الرضيع إلّا بعد أن جاء آخرون من الطاقم الطبيّ إلى الغرفة».

«لماذا كان ذلك مهمّاً بالنسبة لنتائج التشريح؟»

فقال الدكتور بيني: «يتعلّق الأمر بطريقة الموت. لا أعرف الفترة التي عانى فيها هذا الرضيع من ضائقة تنفسيّة. فلو خُفّفت حدّة فشل الجهاز التنفّسي في وقت أقرب، لكان من الممكن ألّا تحدث السكتة القلبيَّة»، ثمّ نظر إلى هيئة المحلَّفين، وأضاف: «لو تصرَّفت المدَّعى عليها على نحو صحيح، لكان من الممكن ألّا يجلس أحد منّا هنا».

قالت أوديت: «الشاهد لكِ».

نهضت كينيدي، وقالت: «دكتور، هل كان هناك شيء في تقرير الشرطة يشير إلى وجود تصرُّف غير نظاميّ أو صدمة متعمَّدة لهذا الرضيع؟»

«ذكرتُ توّاً الكدمات في القصّ...»

«نعم ذكرت ذلك. لكن، أليس من الممكن أن تكون تلك الكدمات ناجمة أيضاً عن الإنعاش القلبيّ الرئويّ القويّ والضروريّ طبيّاً؟»

فقال معترفاً: «نعم».

«هل من الممكن أن تكون هناك سيناريوهات أخرى - غير تصرّف غير نظاميّ - قد تكون قد أدَّت إلى وفاة هذا الطفل؟»

«ممكن».

طلبت إليه كينيدي أن يراجع نتائج فحص الأطفال حديثي الولادة، التي أدخلتها في مجموعة الأدلَّة من قبل، وقالت: «دكتور، هل تمانع في أن تلقي نظرة على الوثيقة رقم 42؟»

تناول الملفَّ وراح يتصفّحه.

«هل يمكنك أن تخبر هيئة المحلَّفين ما الذي تنظر إليه؟»

رفع عينيه وقال: «نتائج فحص الرضيع ديفيس باور».

«هل تمكَّنت من الحصول على هذه المعلومات عندما كنت تُجري تشريح الجثَّة؟»

«لا»

«أنت تعمل في مختبر الولاية الذي أُجريت فيه هذه الاختبارات، أليس كذلك؟»

«نعم».

«هل يمكنك أن تشرح لنا القسم المؤشَّر عليه في الصفحة الأولى؟»

«إنّه اختبار اضطراب أكسدة الأحماض الدهنية الذي يسمّى «نقص نازعة هيدروجين الأسيل - الإنزيم المشترك A متوسّط السلسلة» (MCADD). كانت النتائج غير طبيعيَّة».

«ماذا تقصد؟»

«ستعيد الولاية هذه النتائج إلى حضانة المستشفى، وسيُبلغ الطبيب على الفور».

«هل تظهر الأعراض على الأطفال المصابين بهذا الاضطراب منذ الولادة؟»

فقال الطبيب الشرعيّ: «لا، لا. وهذا أحد الأسباب الذي يجعل ولاية كونيتيكت هي التي تُجري هذا الفحص».

«دكتور بيني»، قالت كينيدي، «كنت تعرف أنَّ أمَّ الرضيع مصابة بسكّري الحمل، وأنَّ الطفل يعاني من انخفاض في نسبة السكَّر في الدم، أليس كذلك؟»

«نعم».

«ذكرت سابقاً أنَّ مرض السكّري هو سبب نقص السكّر في الدم عند الوليد، أليس كذلك؟»

«نعم، كان هذا استنتاجي في أثناء تشريح الجثة».

«أليس من الممكن أن يكون أيضاً سبب نقص السكّر في الدم لأنّه مصاب بهذا الاضطراب؟»

هزَّ رأسه، وقال: «نعم».

سألته كينيدي: «أليس من الممكن أن يكون خمول الرضيع وضعف شهيته ناجماً عن هذا الاضطراب؟»

فقال موافقاً: «نعم».

«وتضخّم القلب - من المحتمل أن يكون عرضاً جانبياً ليس فقط لمرض سكّري الحمل... لكن أيضاً لهذا الاضطراب الأيضيّ المحدَّد؟»

«نعم.»

«دكتور بيني، هل عرفت من سجلّات المستشفى أنّ ديفيس باور مصاب بهذا الاضطراب الأيضيّ؟»

«لا».

«لو كانت هذه النتائج قد وصلت في الوقت المناسب، هل كنت ستستخدمها لتحديد سبب الوفاة وطريقة الوفاة في نتائج تشريح الجثة؟»

فقال: «طبعاً».

«ماذا يحدث لطفل مصاب بهذا الاضطراب ولم يُشخَّص بعد؟»

«لا تظهر أعراض سريريّة حتّى يحدث شيء يسبّب عدم المعاوضة الأيضيّة.»

«مثل ماذا؟»

«مرض، عدوى»، تنحنح وأضاف، «صيام».

«صيام؟» كرَّرت كينيدي، «مثل الصيام الذي يتمّ قبل ختان الطفل؟»

«نعم».

«ما الـذي يحـدث لطفـل لم يُشـخَّص بهـذا الاضـطراب، ويعـاني مـن إحـدى هـذه النوبات الحادّة؟»

فقال الطبيب: «قد ترين حدوث نوبات، قيء، خمول، نقص سكّر الدم... غيبوبة»، وأضاف، «في نحو عشرين في المئة من الحالات قد يموت الرضيع».

سارت كينيدي نحو مقصورة المحلَّفين واستدارت بحيث أصبح ظهرها نحوهم، تنظر إلى الشاهد معهم، ثمّ قالت: «دكتور، إذا كان ديفيس باور مصاباً بهذا الاضطراب، وإذا لم يعرف أحد في المستشفى ذلك، وإذا كان البروتوكول الطبيّ يفرض أن يصوم الطفل قبل ثلاث ساعات من ختانه مثل أيّ طفل آخر غير مصاب بهذا الاضطراب، وإذا حدثت نوبة أيضيّة حادّة في جسده الصغير - ألا توجد فرصة لوفاة ديفيس باور حتّى لو أجرت روث جيفرسون جميع التدخّلات الطبية التي يمكن تصوّرها؟»

نظر الطبيب الشرعيّ بعينيه الرماديتين الناعمتين نظرة تشي باعتذار، وقال: «نعم».

يا إلهي! يا إلهي! تغيّرت الطاقة في المحكمة. ساد هدوء مطبق في القاعة حتى إنَّني سمعت حفيف الملابس، وهمهمة الاحتماليَّة. ما زال تورك وبريتاني خارج القاعة، وفي غيابهما أزهر الأمل.

تنفَّس هوارد إلى جانبي بكلمة واحدة، وقال: «يا له من يوم!».

فقالت كينيدي: «لا شيء آخر، حضرة القاضي»، وعادت إلى طاولة الدفاع، وغمزتني في وجهي. قلت لكِ ذلك.

إنَّ ثقتي قصيرة الأجل. «أريد إعادة توجيه الأسئلة»، قالت أوديت، ونهضت واقفة قبل أن يُطلب إلى الدكتور بيني أن يغادر، وقالت: «دكتور، دعنا نقُل إنّ هذه النتيجة غير الطبيعية وصلت إلى الحضانة في الوقت المناسب. ماذا كان سيحدث؟»

فقال الطبيب: «هناك بعض النتائج غير الطبيعيّة التي تتطلّب إرسال رسالة إلى الأبوين في الوقت المناسب - تقترح عليهما إجراء استشارة وراثيّة، لكن هذه – علامة خطر يعدّها أيّ طبيب توليد خطراً ناشئاً، فتجري مراقبة الطفل عن كثب وإجراء فحوص عليه للتأكّد من صحّة التشخيص. في بعض الأحيان، نرسل الأسرة إلى مركز علاج أيضيّ».

«أليس صحيحاً يا دكتور أنّ العديد من الأطفال المصابين بهذا الاضطراب لا يتمّ تشخيصهم بصورة رسميّة لأسابيع؟ أو شهور؟»

فقال: «نعم. هذا يتوقّف على مدى السرعة التي يمكننا فيها استدعاء الأبوين للتأكيد».

فكرّرت قائلة: «تأكيد. إذاً، فإنّ النتيجة غير الطبيعيّة في فحص طفل حديث الولادة ليست تشخيصاً نهائيّاً».

«لا».

«هل جاء ديفيس باور لإجراء مزيد من الاختبارات؟»

فقال الدكتور بيني: «لا، لم تتح له الفرصة».

«لذلك لا يمكنك أن تقول، بإثبات طبيّ لا يدع مجالاً للشكّ الطبيّ، إنَّ ديفيس باور كان مصاباً بهذا الاضطراب».

فأجاب متردّداً: «لا».

«ولا يمكنك القول بما لا يدع مجالاً للشكّ الطبيّ المعقول إنَّ ديفيس باور مات بسبب اضطراب أيضيّ».

«ليس تماماً».

«وفي الواقع، ربّما كانت المدَّعى عليها وفريقها القانونيّ يتشبَّثون بقشّة في محاولتهم إلقاء ظلّ في اتّجاه آخر، في اتّجاه لا يشير إلى قيام روث جيفرسون بإيذاء مولود بريء عمداً، أولاً بمنع العلاج عنه ثمَّ الردّ بقوة بأنَّها تركت كدمات على جسده الصغير؟»

فهدرت كينيدي، وقالت: «اعتراض».

فقالت أوديت: «سأنسحب»، لكنَّها أحدثت ضرراً توّاً، لأنّ الكلمات الأخيرة التي سمعتها هيئة المحلّفين قد تكون بمنزلة رصاصات أيضاً بدَّدت تفاؤلي في السماء.

في تلك الليلة، لبث إديسون صامتاً في طريق عودتنا إلى المنزل. قال لي إنَّ صداعاً شديداً ألمَّ به، وما إن دخلنا البيت، بدأتُ أعدُّ العشاء، وعاد بعد قليل من غرفة الجلوس مرتدياً معطفه، وقال إنَّه سيخرج قليلاً ليعدّل مزاجه. لم أمنعه من الخروج. وكيف يمكنني أن أفعل ذلك؟ كيف يمكنني أن أقول شيئاً يمكن أن يمحو كلّ ما مرَّ به، يجلس خلفي كلّ يوم مثل ظلّي، ويستمع إلى شخص يحاول أن يصوّرني شخصاً لا يعتقد أبداً أنّني قد أكون ذلك الشخص؟

تناولت الطعام وحدي، لكن في الحقيقة، لم أتناول سوى لقيمات قليلة، وغطّيت ما تبقّى من الطعام بورق ألمنيوم، وجلست إلى طاولة المطبخ أنتظر إديسون، وقلت لنفسي سآكل عندما يعود.

لكن، مرَّت ساعة. ساعتان. لَمَّا انتصف الليل ولم يعد يردّ على رسائلي النصيّة، أسندتُ رأسي إلى وسادة ذراعيَّ.

رحت أفكّر في نفسي، في جناح الكنغارو في المستشفى. إنّها غرفة لها اسم غير رسميّ، على جانبها لوحة جداريّة لحيوان الكنغارو. وهو المكان الذي نضع فيه الأمَّهات اللاتي فقدن أطفالهنَّ.

صدقاً، كنت أكره كلمة «فقدن». لأنّ أولئك الأمَّهات يعرفن أين هم أطفالهنّ. في الواقع، كنّ مستعدّات لأن يفعلن أيَّ شيء، ويضحين بأيّ شيء، حتّى بحيواتهنّ، لاستعادة أطفالهنَّ.

في جناح الكنغارو، نسمح للوالدين أن يمضيا بعض الوقت مع رضيعهما الذي مات طوال الفترة التي يرغبان فيها. أنا متأكدة أنَّ تورك وبريتاني باور قد وُضعا هناك مع ديفيس. إنَّها غرفة تقع في الزاوية، إلى جوار مكتب

الممرّضة المسؤولة، فُصلت قصداً عن غرف الطلق والولادة الأخـرى، كـما لـو أنَّ الحـزن مرض مُعدٍ.

هذه العزلة تعني أنّ الأبوين لا يضطرّان إلى المرور من أمام جميع الغرف الأخـرى التي يوجد فيها أطفال وأمّهات أصحّاء، ولا يتعيّن عليهما أن يسـمعا صرخـات الأطفـال حديثي الولادة، الذين يأتون إلى العالم بعد أن غادره طفلهما.

كنّا نضع في جناح الكنغارو الأمّهات اللاتي يلدن وهنَّ يعرفن، بفضل الموجات فوق الصـوتيّة، أنّ أطفـالهنَّ سـيولدون بطريقـة لا تتوافـق مـع الحيـاة، أو الأمّهـات الـلاتي اضطررن إلى إنهاء حملهنّ في وقت متأخّر من الحمل بسبب حدوث شذوذ جسيم، أو اللاتي يلدنَ على نحـو طبيعـيّ، والـلاتي - لصـدمتهنّ الكبـيرة - عشـن أعظـم لحظـة في حيواتهنّ وأسوأها، لا تفصل الواحدة عن الأخرى سوى ساعات قليلة.

كممرّضة، أوكلت إليَّ مهمّة الإشراف عـلى مريضـة مـات طفلهـا، أعمـل عـلى أخـذ بصمات يد الطفل على الجبس، أو عيّنات من الشعر. ويوجد مصوّرون محترفون أتّصل بهم يعرفون طرائق التقاط الصورة للطفل المتوفَّى حتَّى تبدو كأنّها تنبض بالحياة. كنت قد أعددت صندوق ذاكرة، بحيث لا يكون فارغاً عندما يغادر الوالدان المستشفى.

كانت آخر مريضة استخدمت جناح الكنغارو، امرأة تـدعى جيـاو. كـان زوجها يدرس للحصول على درجة الماجستير في جامعة ييل، وهـي مهندسـة معماريّة، ظلّت تفرز طوال فترة حملها كميّـة كبـيرة مـن السـائل السـلويّ، تأتي كلّ أسبوع لفحص الطفل وسحب السـائل السـلويّ. في إحـدى الليـالي، سحبتُ منها أربعة ليترات من السائل، وبالطبع لم يكن ذلـك شـيئاً طبيعيّـاً. إنّه أمر غير صحيّ. سألت طبيبتها عن سـبب ذلـك - هـل مـن المحتمـل أن يكون الطفل قد فقد المريء؟ فعادة يبتلع الطفل الرضيع السـائل الأمينـيّ،

لكن إذا تجمّعت كلّ هذه الكميّة، فإنّ الطفل سيبتلعها، لكنّ الموجات فـوق الصـوتية كانت طبيعيّة، ولم يستطع أحد إقناع جياو بأنّه توجد مشكلة، وكانت متيقّنـة مـن أنّ الطفل سيكون سليماً.

في أحد الأيّام، جاءت وطفلها مصاب بالتميّه - تجمّعت سوائل تحت جلده. مكثت معنا لمدّة أسبوع، ثمّ حاولت طبيبتها توليدها بتحريض الطلق، لكنّ الطفل لم يتحمّل ذلك، فولدت جياو ولادة قيصريّة. كان الطفل يعاني من نقص تنسّج رئويّ – لم تكن الرئتان تعملان، ومات الجنين بين ذراعيها بسرعة بعد الولادة، متورّماً، منتفخاً، كما لو أنّه فُصل من مارشميلو.

وضعت جياو في جناح الكنغارو، ومثل العديد من الأمّهات اللاتي كان عليهنّ أن يقبلن الحقيقة بأنّ أطفالهنّ لم يعيشوا، كانت مثل إنسان آليّ، مخدَّرة. لكنّها، بعكس الأمّهات الأخريات، لم تبكِ، ورفضت أن ترى الطفل. كما لو كانت في ذهنها تلك الصورة عن طفل صغير كامل، ولم تستطع أن توفِّق بين أيّ شيء أقلّ من ذلك. حاول زوجها أن يقنعها بأن تحمل الطفل، وحاولت أمّها وطبيبتها كذلك. أخيراً، لَمّا أصبحت الساعة الثامنة، وهي لا تزال تشعر بالخدر، لففت الطفل ببطانيات دافئة، ووضعت قبّعة صغيرة على رأسه، وحملته إلى غرفة جياو، وقلت لها: «جياو، هل ترغبين في مساعدتي لغسله؟» عندما لم تردَّ جياو، نظرت إلى زوجها، زوجها المسكين الذي هزَّ رأسه مشجّعاً.

ملأتُ وعاء بالماء الدافئ وأخذت كومة من المناديل. عند أسفل سرير جياو، نزعت برفق القماط عن طفلها، وغمرت قطعة قماش في ماء دافئ، ورحت أمرّرها على ساقَي طفلها، اللتين تشبهان قطعتي سجق، وعلى ذراعيه الزرقاوين، ومسحت وجهه المنتفخ وأصابعه المتيبِّسة.

ثمَّ ناولت جياو قطعة قماش مبلّلة، وضغطتها في راحة يدها.

لا أعرف إن كان الماء قد أحدث صدمة في وعيها، أم الطفل، لكنّها مسحت كلّ ثنية ومنحنى في جسم طفلها بتوجيه من يدي، ثمّ لفّته في البطانيّة، ووضعته على صدرها. وأخيراً، بنشوة بدا أنّها تمزّق جزءاً منها، أعادت إليَّ جسد طفلها.

استطعتُ أن أجمعهما معاً وأنا أحمل رضيعها إلى جناح الكنغارو. ولَمَّا انهارت بين ذراعَي زوجها، فقدتها. لم أتمالك أعصابي، وبكيت على هذا الطفل وأنا في طريقي إلى المشرحة، ولَمَّا وصلت إلى هناك، لم أستطع أن أتركه بسهولة مثل أمّه.

في تلك اللحظة، سمعتُ صوت المفتاح يدور في القفل. انسلَّ إديسون إلى داخل البيت، يكيّف عينيه في العتمة. سار على أطراف أصابعه لأنّه كان يتوقّع أنّني نمت، لكن، بصوت واضح، ناديته من مكاني في المطبخ.

«لماذا لم تنامي؟» سألني.

«لماذا لم تكن في المنزل؟»

استطعت الآن أن أراه بوضوح، ظلّ بين الظلال.

قال: «كنت وحدي، كنت أتمشّى».

فقلت: «لمدّة ستّ ساعات؟»

«نعم، لمدّة ستّ ساعات»، قال إديسون متحدّياً، وأضاف: «لماذا لا تضعين شريحة (GPS) لتعرفي إلى أين أذهب إذا كنت لا تثقين بي؟»

فقلت بحرص: «إنّي أثق بك، لكنّي لست متأكّدة من بقيّة العالم».

نهضت ووقفت، وأصبحت على مسافة بضع بوصات منه. «كلُّ الأمّهات يقلقن على أبنائهنَّ، أمَّا نحن الأمّهات السوداوات، فعلينا أن نقلق أكثر قليلاً. حتّى التنزُّه يمكن أن يكون خطيراً. إنَّ مجرّد وجودك قد يكون خطيراً، إذا كنت في المكان الخطأ، في الوقت الخطأ».

فقال إديسون: «أنا لست غبيّاً».

«أعرف ذلك أكثر من أيّ شخص آخر. هنا تكمن المشكلة. أنت ذكيّ بما يكفي لتقدّم أعذاراً للأشخاص الذين ليسوا كذلك. إنّك تفترض حسن النية، في حين لا يفعل الآخرون ذلك. هذا ما يجعلك أنت، وهذا ما يجعلك شابّاً مميّزاً. لكن، يجب أن تكون حذراً أكثر، لأنّني قد لا أكون هنا لفترة أطول...» ثمّ خرجت جملتي من فمي بقوة، «قد أضطرّ إلى تركك وحدك».

سقطت حنجرته ثمّ عادت، وأعرف ما الذي كان يفكّر فيه طوال هذا الوقت. تخيّلته يسير في شوارع نيو هافن، محاولاً أن ينأى بنفسه عن حقيقة أنَّ هذه المحاكمة ستنتهي، وعندما يحدث ذلك، سيصبح كلّ شيء مختلفاً.

«ماما»، قال بصوت واهن، «ماذا عليَّ أن أفعل؟» للحظة، حاولت أن أقرّر كيف يمكنني أن ألخّص قيمة دروس الحياة في ردِّي، ثمَّ نظرت إليه وعيناي تلمعان، وقلت: «أن تنجح».

ابتعد عنّي إديسون. بعد لحظة، أغلق باب غرفة نومه بقوة، وغطّت الموسيقا على جميع الأصوات الأخرى التي حاولتُ أن أميّزها، لكن من دون جدوى.

أظنّ أنّني أصبحت أعرف الآن لماذا يطلقون عليه اسم «جناح الكنغارو». لأنّه حتّى عندما لا يعود لديكِ طفل، فإنّك تحملينه إلى الأبد.

يحدث الشيء نفسه عندما يُنتزع الطفل من أحد الأبوين، لكنَّ الجناح بحجم العالم. في جنازة أمّي، أخذتُ حفنة من التراب البارد من قبرها ووضعته في جيب معطفي. كنت أرتدي هذا المعطف أحياناً في المنزل، وأمسك التراب بقوة في قبضة يدي.

أتساءل ما الذي سيحتفظ به إديسون عنّي.

وضعت يـديَّ عـلى جـانبَيْ وجـه بريتـاني ولامسـت جبهتـي جبهتهـا، وقلـت لهـا: «تنفَّسي. فكّري في فيينا».

لم يسبق لأحدنا أن زار فيينا، لكنّ بريت وجدت صورة قديمة في متجر يبيع أشـياء قديمة وعلّقتها إلى جدار غرفة نومنا. تُظهـر الصـورة مبنـى دار بلديّـة المدينـة الفخـم، والساحة أمامه تعجّ بالناس والأمَّهات اللاتي يدفعن عربات أطفالهنَّ – وكلّهم من ذوي البشرة البيضاء. كنّا نقول دائماً إنّ بإمكاننا أن نوفّر مبلغاً من المال لقضاء إجازة هنـاك، ذات يوم. ولَمَّا كانت بريت تضع خطّـة الـولادة، كانـت فيينـا إحـدى الكلـمات التـي يُفترض أن أستخدمها لمساعدتها في التركيز.

لا يفوتني أنّني أهمس الكلمة نفسها التي كنت أستخدمها لتهدئتها عنـدما كانـت تلد ديفيس - لكنّي أكرّرها الآن لأساعدها في أن تكفَّ عن رؤية صورة ابننا المتوفَّى.

وفجأة، فُتح باب غرفة الاجتماعات ودخلت المدّعية العامّة، وقالت: «كانـت هـذه حركة لطيفة. يحبُّ المحلّفون أن يروا أمّاً غاضبة لم تتمكّن من السـيطرة عـلى نفسـها. لكنَّ التهديد في جلسة علنيَّة؟ ليست أكثر الخطوات حكمة».

تحرّكت بريت ودفعتني بعيداً عنها، ونهضت ووقفت أمـام المحاميـة، وقالـت لهـا بصوت خافت على نحو خطير: «أنا لا أمثّـل، ولا يمكنـك أن تقـولي لي مـا هـي الفكـرة الجيدة وما غير الجيّدة أيَّتها القحباء».

أمسكت بذراعها، وقلت لها: «حبيبتي، لماذا لا تذهبين وتغسلين وجهـك؟ سـأعتني بالأمر».

حتَّى إنَّ بريت لم يرفَّ لها جفن، وإنّما ظلّت واقفة مثل جدار أمام أوديت لوتـون، مثل كلب يقف فوق كلب مهجَّن، ثمَّ خرجت وأغلقت الباب وراءها.

أعرف أنَّ من المهمّ أن يُسمح لنا، أنا وبريـت، أن نـدخل قاعـة المحكمـة، مـع أنّنـا سنُدلي بشهادتنا. كانت هناك جلسة استماع حول ذلـك قبـل أن تبـدأ المحاكمـة. فقـد ظنّت تلك المدّعية العامة اللعينة أنّها تستطيع أن تبعدنا من خلال طلب عـزل جميـع الشهود، لكنَّ القاضي قال إنّنا نستحقّ أن نكون حاضرين لأنّنا والدا ديفيس. أنا متأكّـد أنَّ المدّعية العامّة لا تريد أن تعطيه أيّ سبب وجيه ليعيد التفكير في قراره.

«السيّد باور»، قالت المحامية، «يجب أن أكلّمك».

طويت ذراعيَّ، وقلت لها: «لماذا لا تفعلين ما يجب عليك فعله؟ أن تربحـي هـذه القضيَّة؟»

«مـن الصـعب أن تسـلك زوجتـك سـلوك بلطجـيّ مرعـب، ولا تـتصرَّف مثـل أمّ حزينة!»، قالت وهي تحدّق إلى وجهي، «لا يمكنني أن أطلبها كشاهدة».

قلت: «ماذا؟ لكنَّنا أجرينا كلَّ ذلك التدريب...»

«نعم، لكنّي لا أثق ببريتاني»، قالت بصراحة، «إنّ زوجتك بطاقـة لا يمكـن الوثـوق بها، ولا يمكنك أن تضع بطاقة مثلها في مقصورة الشهود».

«يجب على هيئة المحلّفين أن تستمع إلى أمّ ديفيس».

«ليس إذا لم أكن متأكّدة أنّها لن تبدأ بالصراخ وإطلاق شتائم عنصريّة على المدَّعى عليها»، وأضافت وهي تنظر إليَّ بهدوء: «قد تكرهني أنت وزوجتك وكلّ من يشـبهني يا سيّد بـاور. وبصراحـة لا يهمّنـي ذلـك. لكنّنـي أفضـل فرصـة - الفرصـة الوحيـدة – لتحقيق العدالة لابنك. لذلك، لن أقول لك ما الفكرة الجيّدة وما الفكرة السيّئة فقـط، وإنّما سأبذل جهدي، وهذا يعني أنّ زوجتك لا يمكن أن تُدلي بشهادتها».

«سيظنّ القاضي وهيئة المحلّفين أنّ هناك شيئاً ما إذا لم تدلِ بشاهدتها!».

«سيعتقد القاضي وهيئة المحلفين أنّها مضطربة، وستكون أنت شاهداً قوياً».

هل هذا يعني أنّني أحبّ ديفيس أقلّ؟ لأنّ حزني ليس كافياً مثل بريت؟

«لقد سمعتَ البارحة محامية الدفاع وهي تقدّم نظريّة تقول إنّ ابنك يعاني من اضطراب أيضيّ لم يُشخّص في حينه؟»

كان ذلك عندما كانت طبيبة الأطفال على المنصّة. ذُكرت مصطلحات طبية كثيرة لم أفهمها، لكنّي فهمت جوهرها. قلت: «نعم، نعم. فهمت، كان الحلّ اليائس».

«ليس تماماً. لَمَّا خرجتَ، تحقّق الطبيب الشرعيّ من النتائج، وتبيَّن من الاختبار أنّ ديفيس مصاب باضطراب أيضيّ يدعى MCADD. حاولت كثيراً أن أجعل المحلّفين يستبعدون شهادته، لكن النتيجة هي أنّ الدفاع بذر بذرة راسخة، وهي أنّ طفلك مصاب باضطراب مميت محتمل، وأنّ النتائج وصلت بعد فوات الأوان. وإذا لم يكن مصاباً بذلك، فربّما كان لا يزال في قيد الحياة».

شعرتُ بركبتيَّ تنحلّان، وجلستُ بصعوبة على سطح الطاولة. هل كان ابني مريضاً ولم نكن نعرف؟ كيف أمكن للمستشفى ألّا يعرف ذلك؟

إنّه... شيء عشوائيّ، لذلك لا جدوى من كلِّ ذلك.

لَمَّا لمست المدّعية العامّة ذراعي، أجفلتُ على الفور. قالت: «لا تفعل ذلك، لا تدع ذلك يشوّش تفكيرك. أقول لك ذلك حتّى لا تُفاجأ في أثناء الاستجواب. لكن، كلّ ما فعلته كينيدي ماكواري هو تشخيص محتمل. إنّه لم يؤكَّد بعد. ديفيس لم يُعالج، وبإمكانها أن تقول أيضاً إنّ ابنك سيصاب بمرض القلب عندما يكبر لأنّ لديه استعداداً وراثيّاً، مع أنَّ هذا لا يعني أنَّه سيحدث على الإطلاق».

تذكَّرت جدّي الذي سقط ميتاً بسبب نوبة قلبيَّة.

قالت أوديت: «إنّي أقول لك ذلك لأنّنا حينما نعود إلى القاعة، فسأدعوك إلى المنصَّة، وستجيب فقط بالطريقة التي تدرّبنا عليها في مكتبي. كلّ ما تحتاج إلى أن تتذكَّره هو أنّه لا يوجد مكان لكلمة ربَّما في هذه المحاكمة. لا يوجد مكان لعبارة ربَّما حدث ذلك. فقد حدث بالفعل. لقد مات ابنك».

هززت رأسي. هناك جثمان، وعلى أحدهم أن يدفع ثمن ذلك.

هل تُقسم بأن تقول الحقيقة؟

وضعت يدي على الكتاب المقدَّس ذي الغلاف الجلديّ الذي لم أعد أقرؤه كثيراً.

لكنَّ القسم عليه ذكّرني ببيغ آيك عندما كنت في السجن، وتوينكي.

صدقاً، أفكّر فيه كثيراً. أظنّ أنّه خرج من السجن الآن. ربّما يتناول الآن الطبق الذي يحبّه في مطعم الشيف بوياردي. ماذا سيحدث لو أنّني صادفته في الشارع؟ في مقهى ستاربكس؟ هل سيعانق أحدنا الآخر؟ أو أنّنا سنتظاهر بأنّ أحدنا لم يرَ الآخر؟ كان يعرف من أنا، من الخارج، كما أعرف من هو. لكن في السجن، كانت الأمور مختلفة، وما تعلّمت أن أؤمن به لم يكن صحيحاً. إذا التقينا في الطريق الآن، فهل سيظلّ توينكي بالنسبة إليَّ؟ أو أنّه سيكون مجرَّد زنجيّ آخر؟

عادت بريت أخيراً إلى قاعة المحكمة، وجلست إلى جانب فرانسيس. لَمَّا عادت من دورة المياه، كان وجهها لا يزال مبلّلاً مع أنّها جفّفته بمنديل معطّر. كان أنفها وخدّاها لا تزال متورّدة، قلت لها إنّني قلت للمدّعية العامّة إنّه لا يمكن لأحد أن يقول لزوجتي كيف تحزن، وقلت لها إنّني لم أستطع أن أتحمّل فكرة أن تتعرّض بريت لانهيار آخر، فقلت لأوديت لوتون ألّا تستدعي زوجتي إلى منصّة الشهود، وقلت لبريت إنّي أحبّها، ويؤلمني كثيراً أن أراها وهي تتألَّم.

صدَّقت كلَّ ما قلته لها.

هل تقسم بأن تقول الحقيقة؟

«السيّد باور»، سألتني المدّعية العامّة، «هل كان هذا أوّل طفل لك مع زوجتك بريتاني؟»

تفصَّد العرق في ظهري. شعرت أنَّ المحلَّفين يحدّقون إلى وشم الصليب المعقوف في فروة رأسي، حتّى الذين يتظاهرون بأنّهم لم ينظروا، كانوا يختلسون النظر. كوّرت يدي حول قاعدة الكرسيّ. كان ملمس الخشب ناعماً. صلباً. سلاحاً. «نعم، كنّا سعيدَين جداً».

«هل كنت تعرف أنّه سيكون صبياً؟»

أجبت: «لا. أردنا أن تكون مفاجأة».

«هل حدثت أيّ مضاعفات في أثناء الحمل؟»

«كانت زوجتي مصابة بسكّري الحمل. قالت لنا الطبيبة إنّ ذلك ليس خطِراً طالما أنّها تراقب نظامها الغذائيّ. وقد فعلت ذلك. كانت تريد طفلاً يتمتّع بصحّة جيّدة مثلي».

«وماذا عن الولادة يا سيد باور؟ هل كانت ولادة طبيعية؟»

فقلت: «سار كلّ شيء بسلاسة، لكن مرّة أخرى، لم أكن أمارس رفع الأثقال، تماماً». ابتسمت السيدات في هيئة المحلّفين، تماماً كما قالت المدّعية العامّة، إنّهنّ سيفعلن إذا ما جعلت نفسي أبدو مثل أيّ أب آخر.

«وأين أنجبت أنت وزوجتك الطفل؟»

«في مستشفى الرحمة - ويست هافن».

«وهل حملتَ ابنك ديفيس بعد ولادته، يا سيّد باور؟»

فقلت: «نعم». عندما تدرّبنا على ذلك في مكتب المدعية العامّة، كما لو كنّا ممثلين يحفظون أدوارهم، وقالت لي سيكون الأمر في غاية التأثير لو دمعت

عينايَ. قلت لها إنّني لا أستطيع أن أبكي عندما أريد، أمّا الآن، بعد أن تذكّرت اللحظة التي ولد فيها ديفيس، شعرت بالاختناق. أليس من الجنون أنّك تستطيع أن تُغرم بفتاة لتنجب منها إنساناً آخر؟ يبدو الأمر أشبه بفرك عودين معاً وتشعل ناراً - فجأة أصبح هناك شيء حيّ ومكثف لم يكن موجوداً قبل دقيقة. تذكّرت قدمَيْ ديفيس وهما تركلانني. رأسه في راحة يدي. تلكما العينان العاصفتان، غير المركّزتين، جعلتاني في حيرة. «لم ينتبني مثل هذا الشعور في حياتي». أعترف أنّني خرجت عن النصّ، ولم أكترث بذلك. «ظننت أنّها كذبة عندما يقول الناس إنّهم أحبّوا طفلاً من النظرة الأولى. لكن هذه هي الحقيقة. فقد كان بإمكاني أن أرى مستقبلي كلّه في وجهه».

«هل كنتَ تعرف أحداً من العاملين في المستشفى قبل أن تذهب إلى هذا المستشفى بالذات؟»

«لا، طبيبة بريت النسائيّة تعمل في هذا المستشفى، لذلك كان الأمر محسوماً».

«هل حظيت بتجربة جيّدة في هذا المستشفى يا سيد باور؟»

«لا»، قلت بحزم.

«هل كان الأمر كذلك منذ اللحظة التي دخلت فيها زوجتك المستشفى؟»

«لا، كان ذلك جيّداً. وكذلك المخاض والولادة».

سارت المدّعية العامّة نحو مقصورة المحلّفين، وقالت: «إذاً، متى تغيّرت الأمور؟»

«عندما تولَّت ممرّضة أخرى العمل بعد أن انتهت نوبة الممرّضة الأولى، وكانت سوداء».

تنحنحت المدّعية العامّة، وقالت: «لماذا كانت هذه مشكلة يا سيد باور؟»

دون وعي، مددت يدي وفركت الوشم على فروة رأسي، وقلت: «لأنَّني أؤمن بتفوّق العرق الأبيض».

حدَّق بعـض المحلّفـين إليَّ بقـوّة، بفضـول شـديد، وهـزَّ بعضـهم رؤوسـهم، ونظـر آخرون إلى أحضانهم.

«إذاً، أنت من العنصريين الذين يؤمنـون بتفـوق العـرق الأبـيض»، قالـت المدعيـة العامة، «تؤمن بأن السود مثلي يجب أن يكونوا تابعين».

فقلت لها: «أنا لست ضدَّ السود. أنا مع البيض».

«إنّك تدرك أنّ الكثير من الناس في العالم - في الواقع، الكثير من النـاس هنـا - ربّمـا يجدون أنّ معتقداتك مسيئة».

فقلـت: «لكـن يجـب أن تعـالج المستشـفيات جميـع المـرضى حتّـى الـذين قـد لا تعجبهم أفكاري. فإذا أصيب شخص أطلق النار في مدرسة عنـدما كـان رجـال الشرطـة يحاولون إطلاق النار عليه وأُحضر إلى غرفة الطوارئ، فـإنّ الأطبّـاء يجـرون لـه عمليّـة جراحيّة لإنقاذ حياته، حتّى لو قتل عشرات الأشخاص الآخرين. أعرف أنّ الطريقة التي نعيش فيها أنا وزوجتي ليست الطريقة التي يختارها الآخرون في حيواتهم. لكنَّ الشيء العظيم في هذا البلد هو أنّنا لدينا جميعاً الحقّ في أن نؤمن بما نريد».

«ماذا فعلت عندما اكتشفت أنَّ ممرّضة سوداء تعتني بابنك المولود حديثاً؟»

«تقدّمتُ بطلب. طلبت ألّا تلمس ابني».

«هل الممرّضة الأمريكيّة من أصل أفريقيّ التي تشير إليها موجودة هنا اليوم؟»

«نعم»، وأشرت إلى روث جيفرسون. خيّل إليَّ أنّها انكمشت في كرسيّها مرّة أخرى.

أردتُ أن أفكّر في ذلك، في كلِّ حال.

«ممَّن طلبتَ؟» قالت المدّعية العامّة.

فأجبت: «رئيسة الممرّضات، ماري مالون».

«ونتيجة تلك المحادثة، ماذا حدث؟»

«لا أعرف، لكنّها عادت مرّة أخرى».

«في مرحلة ما، هل تعاملت المدَّعى عليها مع ابنك مرّة أخرى؟»

هززت رأسي، وقلت: «كان يجري ختان ديفيس. لم يكن من المفترض أن يكون ذلك شيئاً خطِراً. كانوا سيأخذونه إلى غرفة الحضانة ويعيدونه حالما ينتهي ختانه. لكنَّ الشيء التالي الذي أعرفه أنَّ جميع أبواب الجحيم قد فُتحت؛ فقد بدأ الناس يصيحون، ينادون طلباً للمساعدة، ودُفعت عربات الإنعاش في الممرّ، ورأيت الجميع يركضون في اتّجاه غرفة الحضانة. كان طفلي هناك، وأنا فقط... وأظنّ أنا وبريت كنّا نعرف. وصلنا إلى غرفة الحضانة ورأينا جمهرة من الناس متحلّقين حول ابني، ورأيت تلك المرأة تضع يديها على ابني مرَّة أخرى»، ابتلعت ريقي، وأضفت: «كانت تؤذيه. كانت تضغط على صدره بقوّة إلى درجة أنّها كادت تقسمه إلى نصفين».

«اعتراض»، قالت المحامية الأخرى.

زمَّ القاضي شفتيه، وقال: «سأسمح بذلك».

«كيف كانت ردّة فعلك يا سيد باور؟»

«لم أقل شيئاً. صُدمنا أنا وبريت. أقصد، قالوا لنا إنّ هذا الإجراء ليس شيئاً خطِراً. كان من المفترض أن نعود إلى البيت بعد ظهر ذلك اليوم. بدا كما لو أنَّ عقلي لم يستطع أن يدرك ما الذي كنت أراه أمام عينيَّ مباشرة».

«ثمَّ، ماذا حدث؟»

لاحظتُ أنَّ المحلّفين أصبحوا يجلسون على حواف مقاعدهم، وأنّ جميع الوجوه اتّجهت نحوي. «الأطبّاء والممرّضات، كانوا يتحرّكون بسرعة كبيرة، وتشابكت أيديهم، فلم أعد أميّز يد أحدهم عن الآخر. ثمّ جاءت

طبيبة الأطفال - الدكتورة أتكينز، التي عملت قليلاً مع ابني، ثمّ... ثمّ قالت إنّه لا يوجد شيء آخر يمكنها فعله». أصبحت الكلمات ثلاثيّة الأبعاد، فيلم لم أعد أستطيع أن أبتعد عنه. نظرت طبيبة الأطفال إلى الساعة، وتراجع الآخرون جميعاً، أيديهم مرفوعة في الهواء كما لو أنّ أحداً يصوّب عليهم مسدّساً. كان ابني هامداً لا يتحرّك.

انبعثت من فمي شهقة. تشبّثت بالكرسيّ. فإذا ما تركته، فإنّ قبضتيَّ ستنطلقان. سأجد أحداً لأعاقبه. رفعتُ عينيَّ، ولثانية واحدة فقط، تركتهم يرون كم أنا خاوٍ في داخلي. «قالت إنّ ابني مات».

مشت أوديت لوتون نحوي وبيدها علبة مناديل كلينكس. وضعتها على الحاجز بيننا، لكنَّني لم أتحرّك لأتناول منديلاً من العلبة. كنت سعيداً الآن لأنّ بريت ليست مضطرَّة إلى أن تمرَّ بهذه التجربة. لا أريدها أن تستعيد تلك اللحظة.

«ماذا فعلت بعد ذلك؟»

«لم أستطع أن أدعها تتوقَّف». بدت الكلمات كأنّها زجاج على لساني، «إذا لن يفعلوا شيئاً لإنقاذه، فأنا سأفعل ذلك. فتوجَّهت إلى سلَّة المهملات وأخرجت الكيس الذي كانوا يستخدمونه لمساعدة ديفيس في التنفُّس. حاولت أن أعرف كيف يمكنني أن أوصله مرّة أخرى. لن أترك ابني».

سمعتُ صوتاً، حادّ النبرة، صوتاً أعرفه من الأسابيع التي لم تكن بريت تنهض فيها من الفراش، لكنَّها هزَّت منزلنا بقوة حزنها. كانت منحنية في مقعدها في القاعة، علامة استفهام بشريَّة، كما لو أنّ جسدها كلّه يسأل لماذا حدث لنا ذلك.

«سيّد باور»، قالت المدّعية العامّة بلطف، معيدة توجيه انتباهي، «يصفك بعض الناس هنا بأنّك من العنصريين الذين يؤمنون بتفوّق العرق الأبيض، ويقولون إنّك الشخص الذي بدأ في دحرجة هذه الكرة بطلبك

إبعاد الممرّضة الأمريكيّة من أصل أفريقيّ عن رعاية ابنك. حتّى إنَّهم قد يلومونك على سوء حظّك. كيف تردّ على ذلك؟»

أخذتُ نفساً عميقاً، وقلت: «كلّ ما كنت أحاول فعله هو أن أمنح ابني أفضل فرصة ممكنة في الحياة. هل هذا يجعلني متفوّقاً عنصرياً أبيض؟ أو أنّ هذا يجعلني أباً فقط؟»

في أثناء فترة الاستراحة، درَّبتني أوديت في غرفة الاجتماعات. «وظيفتها أن تبذل كلّ ما في وسعها لتجعل هيئة المحلّفين يكرهونك. لا بأس بقليل من ذلك لأنّه يُظهر لهيئة المحلّفين دافع الممرّضة، لكن ليس كثيراً. أمّا وظيفتك فهي أن تبذل كلّ ما في وسعك لتجعلهم يرون القواسم المشتركة بينك وبينهم، لا ما يميّزك عن غيرك. يُفترض أن تكون هذه القضيّة حول مدى حبّك لابنك. لا تُفسد الأمر بالتركيز على مَن تكرهه».

تركتنا أنا وبريت وحدنا لبضع دقائق، قبل أن نُستدعى إلى قاعة المحكمة مرة أخرى. «هي»، قالت بريت ما إن أُغلق الباب خلفها، «أكرهها».

التفتُّ إلى زوجتي، وسألتها: «هل تظنّين أنّها على صواب؟ هل تظنّين أنّنا جلبنا ذلك على أنفسنا؟»

رحت أفكّر في ما قالته أوديت لوتون: إذا لم أتحدّث ضدّ الممرّضة السوداء، فهل سينتهي الأمر على نحو مختلف؟ هل كانت تحاول إنقاذ ديفيس عندما أدركت أنَّه لا يتنفَّس؟ هل كانت ستعامله مثل أيِّ مريض آخر في مرحلة حرجة، بدلاً من أنَّها تريد أن تؤذيني كما آذيتها؟

سيكون ابني في الشهر الخامس من عمره الآن. هل كان سيتمكَّن من أن يجلس بمفرده؟ هل كان سيبتسم عندما يراني؟

إنّي أؤمن بالله. أؤمن بإله يدرك العمل الذي نقوم به لأجله على هذه الأرض. لكن، لماذا يعاقب المحاربين الذين يقاتلون في سبيله؟

نهضت بريت واقفة، ونظرة اشمئزاز تعلـو وجههـا، وقالـت: «منـذ متـى أصـبحت فرجاً هكذا؟» وابتعدت عنِّي.

* * *

في الأسابيع القليلة الماضية، في أثناء حمل بريت، أحضر جارانا – رجل وامـرأة مـن غواتيمالا يرجّح أنّهما قفزا من فوق سياج الأسلاك الشائكة ودخـلا هـذا البلـد - جـرواً جديداً، واحداً من تلك الأشياء الصغيرة المكسوّة بالزغب، التي تشبه كرة قطنيّة شرّيرة لها أسنان، ولم يكن يتوقّف عن النباح، اسمه فريدا، وكان يأتي إلى فناء منزلنا ويتغـوّط فوق عشب حديقتنا، ولَمَّا لم يكن يفعل ذلك، كان ينبح، وكلّما استلقت بريـت لتأخـذ قيلولـة، بـدأ رأس الممسـحة الغبـيّ ذاك ينـبح ويوقظهـا. كانـت تستشـيط غضـباً، ثـمَّ أستشيط غضباً، فأخرج وأطرق على بابهما وأقول لهما إنّهما إذا لم يكمِّما بوز حيـوانهما اللعين، فإنّي سأتخلَّص منه.

وفي أحد الأيام، عدتُ من عملي ورأيت ذلك الغواتيماليّ يحفر حفرة تحت شـجيرة أزاليا، وتحمل زوجته المجنونة في يدها صندوق أحذية. لَمّا دخلت منزلنا، رأيت بريت جالسة على الأريكة، وقالت: «أظنّ أنَّ كلبهما مات».

«فهمت».

مدَّت يدها إلى خلفها وتناولت قنينة من مادّة مانع التجمّد، وقالت: «كما تعـرف، طعمها حلو. قال لي أبي أن أبعدها عن كلبنا عندما كنت صغيرة».

حدَّقت إليها للحظة، وقلت: «هل سمَّمتِ فريدا؟»

حدَّقتني بريت بحدّة، وللحظة رأيت فرانسيس في عينيها، ثمَّ قالت: «لم أستطع أن أنام. إمّا طفلنا، وإمّا ذلك الكلب اللعين.»

ربّما كانت كينيدي ماكوري تشرب قهوة لاتيه بنكهة اليقطين. أراهـن أنّها صـوَّتت لأوباما، وتبرَّعت بعد أن شاهدت تلك الإعلانات عن الكلاب الحزينة، وتعتقد أنّ العالم سيكون مكاناً برّاقاً مشرقاً لو استطعنا أن نتعايش جميعنا.

إنّها من ذلك النوع الليبراليّ ذي القلب الدامي الذي لا أستطيع أن أتحمَّله.

أبقيت هذه المقدّمة في رأسي وهي تتّجه نحوي. «سمعت الدكتورة أتكينـز تشـهد بأنّ ابنك يعاني من اضطراب أيضيّ، أليس كذلك؟»

قلت: «حسناً. سمعتها تقول إنّ الفحص أظهر أنّه إيجابيّ». كانـت المدّعيـة العامّـة قد درّبَتني على أن أقول ذلك.

«هل تفهم يا سيّد باور أنّ الطفل الذي لم يُشخّص بهذا الاضطراب، والذي ينخفض السكّر في دمه قد يصاب بفشل تنفّسي؟»

«نعم.»

«وهل تفهم أنّ الطفل الذي يعاني من فشل في الجهاز التنفسيّ قـد يصـاب بفشـل قلبيّ؟»

«نعم».

«وأنّ ذلك الطفل قد يموت؟»

هززت رأسي وقلت: «نعم».

«هل تفهم أيضاً يا سيّد باور، أنّه في أيّ من هذه الحالات لن يتغـيّر أيّ شيء سـواء حاولت الممرّضة إجراء كلّ التدخّلات الطبية الممكنـة لإنقـاذ حيـاة هـذا الطفـل أم لا؟ وأنّ من الممكن أن يموت الطفل؟»

كرّرت: «ربّما».

«هل تدرك أنّه في هذه الحالـة، إذا كـان ابنـك هـو ذلـك الطفـل، فـإنّ الأمّ تيريـزا نفسها ما كان في استطاعتها إنقاذه؟»

طويت ذراعيَّ، وقلت: «لكنَّ ذلك لم يكن ابني».

رفعت رأسها، وقالت: «لقد سمعت الشهادة الطبية من الدكتورة أتكينز التي أكَّدها الدكتور بيني. ابنك مصاب بالفعل باضطراب أيضيّ، سيّد باور، أليس هذا صحيحاً؟»

«لا أعرف»، وأدرت وجهي نحو روث جيفرسون، وقلت: «لقد قتلته قبل أن يتمَّ فحصه».

فسألتني: «هل تعتقد ذلك حقاً أمام الأدلَّة العلميَّة؟»

قلت: «نعم».

انبعث من عينيها شرر، وكرّرت قائلة: «أنت تعتقد ذلك حقاً أم عليك أن تعتقد بذلك؟»

«ماذا؟»

«إنّك تؤمن بالله يا سيّد باور، أليس كذلك؟»

«نعم».

«وتؤمن بأنّ الأشياء تحدث لسبب ما؟»

«نعم».

«سيّد باور، هل تستخدم على تويتر حساب WhiteMight@؟»

قلت: «نعم»، لكنّي لم أعرف ما علاقة ذلك بأسئلتها التي بدت مثل رياح تهبّ من اتّجاه مختلف في كلّ مرة.

وضعت نسخة مطبوعة من الكمبيوتر في ملفّ الأدلة وقالت: «هل هذا المنشور من حسابك على تويتر كتبته في تموز (يوليه) الماضي؟»

هززت رأسي موافقاً.

«هل يمكنك أن تقرأه بصوت عالٍ؟»

فقلت: «يصيبنا كلُّ ما سيأتي إلينا».

«إذاً، أظنّ أنّ ابنك أصابه ما كان قادماً إليه، أليس كذلك؟»

تكوَّرت قبضتا يديَّ على حاجز منصّة الشاهد، وقلت: «ماذا قلتِ؟» كان صوتي منخفضاً، لاهباً.

كرّرت: «قلت لا بدَّ أنَّ ابنك قد أصابه ما يستحقّه».

«كان ابني بريئاً. محارباً آرياً».

تجاهلت ردّي، وقالت: «لنفكّر في الأمر، أظنّ أنّك حصلت على ما تستحقّه أيضاً...»

«اخرسي».

«لهذا السبب تتهم امرأة بريئة بوفاة اعتباطيّة تماماً، أليس كذلك؟ لأنّك إن كنت تؤمن بدلاً من ذلك، بما هو صحيح حقاً - أي أنّ ابنك يحمل مرضاً وراثيّاً...»

نهضتُ واقفاً، وصرختُ غاضباً: «اخرسي...»

كانت المدّعية العامّة تصرخ، وهذه المحامية القحباء تصرخ فيها. «لا يمكنك أن تقبل حقيقة أنَّ موت ابنك كانت بلا معنى وليست أكثر من حظّ سيئ، فأنحيتَ باللائمة على روث جيفرسون لأنّك إذا لم تفعل ذلك، فإنّك أنت المسؤول عن موته، لأنّك أنت وزوجتك خلقتما، بطريقة ما، طفلاً آرياً يوجد عيب في حمضه النوويّ. أليس هذا صحيحاً يا سيّد باور؟»

من زاوية عيني، رأيت أوديت لوتون تسير في اتّجاه القاضي. لكنّي كنت خارج مقعدي الآن، منحنياً فوق حاجز مقصورة الشهود. لقد استيقظ الوحش الذي كان هاجعاً داخلي فجأة وبدأ يتنفَّس. «أيَّتها القحباء»، قلت وأنا متّجه نحو حنجرة كينيدي ماكوري. كنت قد أصبحت في منتصف الطريق فوق الحاجز عندما هاجمني حارس المحكمة ذو الرأس الكبير: «أنتِ عاهرة خائنة للعرق الأبيض».

من بعيد، تناهى إليَّ صوت القاضي وهو يضرب بمطرقته، وطالب بإخراج الشاهد من قاعة المحكمة. شعرت أنَّني أُجرُّ إلى خارج القاعة وحذائي يمسح الأرض. سمعتُ بريت تنادي اسمي، وصيحة احتجاج فرانسيس، والتصفيق المدوّي لأتباع موقع *Lonewolf.org*.

لا أتذكَّر الكثير بعد ذلك سوى أنّني أرفُّ بعينيَّ، ورأيت فجأة أنَّني لم أعد في قاعة المحكمة، وإنّما في زنزانة في مكان ما، لها جدران إسمنتيَّة، وفيها سرير ومرحاض.

بدا لي كأنَّه إلى الأبد. لكن، بعد نصف ساعة فقط جاءت أوديت لوتون. كدت أضحك عندما فتح الحارس باب الزنزانة، ووقفت هناك. تصوَّروا أنّ التي ستنقذني امرأة سوداء.

قالت: «كان ذلك أكثر من حماقة. في مرّات كثيرة أردت أن أقتل محامية الدفاع، لكنّي لم أحاول ذلك قط».

«حتّى إنّني لم ألمسها»، قلت لها عابساً.

«لا يهمّ هيئة المحلّفين ذلك. يجب أن أخبرك يا سيّد باور أنّ غضبك هناك أضعف أيّ مزيّة كانت تتمتّع بها الولاية في هذه القضيّة. لم يعد هناك شيء يمكنني فعله لأجلك».

«ماذا تقصدين؟»

نظرت إليَّ، وقالت: «لقد توقَّفت النيابة العامّة عن متابعة قضيتك».

لكنّي لن أتوقَّف. أبداً.

لو كان بإمكاني أن أُدخل عربة يجرّها حصان إلى مكتب القاضي ثاندر، لفعلت ذلك.

تركت هوارد جالساً مع روث في إحدى غرف الاجتماعات. لديَّ فرصة ممتازة لإنهاء هذه القضيَّة. قدَّمت طلبي للحصول على حكم بالبراءة، ويمكنني القول إنّني عندما دخلت مكتب القاضي، عرفت أنَّ أوديت قد أدركت أنَّها غرقت. قلت: «حضرة القاضي، نعرف أنَّ هذا الطفل قد مات، وهو أمر مأساويّ، لكن لا يوجد أيّ دليل على الإطلاق يثبت وجود أيّ سلوك متعمّد أو متهوّر أو طائش من جانب روث جيفرسون. إنّ ادّعاء الولاية بأنّها ارتكبت جريمة قتل غير مدعوم بالإثباتات والبراهين، وبحكم القانون، يجب رفضه».

التفت القاضي إلى أوديت، وقال لها: «أيَّتها المستشارة؟ أين هو الدليل على وجود سبق إصرار وترصُّد؟ على وجود ضغينة؟»

رقصت أوديت حول ردّ، ثمّ قالت: «أرى أنَّ التعليق حول تعقيم الطفل يعدُّ مؤشّراً قويّاً».

فقلت: «حضرة القاضي، كان ذلك رداً جارحاً من امرأة تعرَّضت للتمييز»، وأضفت، «أصبح ذا صلة على نحو غير مريح في ضوء الأحداث اللاحقة، لكنَّه لا يزال لا يشير إلى خطّة لارتكاب جريمة قتل».

فقال القاضي ثاندر: «يجب أن أتفق مع السيّدة ماكواري. حاقدة، نعم؛ قاتلة، ليس بحرفيّة القانون. إذا حُمِّلت المحاميتان المسؤوليّة عن التعليقات الانتقاميّة التي تدليان بها حول القضاة في حال لم تسر القضيّة كما تشاءان، فسيتمّ توجيه الاتّهام إليكما بارتكاب جريمة القتل العمد.

رُفضت التهمة الأولى، وسيّدة ماكواري، قُبل طلبك بشأن الحكم بالبراءة من جريمة القتل العمد».

لَمَّا سرت في الردهة إلى غرفة الاجتماعات لأزفَّ إلى موكِّلتي هذا الخبر العظيم، نظرت خلفي لأتأكَّد أنَّ المكان خالٍ، ثمّ أسرعت الخطى قليلاً بحذائي ذي الكعب العالي. أقصد، لا يأتي تيّار محاكمة جريمة قتل في اتّجاهك كلّ يوم، وبالتأكيد لا يحدث ذلك في أوّل محاكمة قتل ترافعين فيها. تخيّلت كيف أنّ هاري سيناديني إلى مكتبه، ويقول لي بطريقته الفظّة إنّني فاجأته. تخيّلته وهو يسمح لي بأن أحظى بنصيبي، من الآن فصاعداً، من القضايا الكبيرة، وأُرقِّي هوارد ليغطّي واجباتي الحاليَّة.

دخلت غرفة الاجتماعات، والابتسامة تعلو وجهي. التفت هوارد وروث إليَّ، متفائلَين. قلتُ وأنا أبتسم: «أُسقطت تهمة القتل».

«ههههه»، صاح هوارد، ورفع قبضته في الهواء.

كانت روث أكثر حذراً، وقالت: «أعرف أنَّ هذا خبر جيّد... لكن، إلى أيِّ مدى؟»

فقلت: «ممتاز. إنَّ القتل الناجم عن الإهمال حيوان مختلف تماماً من الناحية القانونيَّة. أسوأ سيناريو - إدانة - لا توجد فيها أيّ فترة في السجن تقريباً، وبصراحة، فقد كانت أدلّتنا الطبية قويّة جداً إلى درجة كنت سأصُدم إذا لم تبرِّئ هيئة المحلّفين...»

ألقت روث ذراعيها حول رقبتي، وقالت: «شكراً لك».

قلتُ لها: «فكّري فقط. قد ينتهي كلّ هذا في نهاية هذا الأسبوع. سأذهب إلى المحكمة غداً وأقول إنّ الدفاع أنهى الدفاع عن قضيّته، وإنَّه مستعدّ لسماع قرار القاضي أو هيئة المحلَّفين، وإذا ما عادت هيئة المحلّفين بالحكم بالسرعة الذي أظنّ أنَّهم سيتخذونه...»

فقاطعتني روث وقالت: «انتظري. ماذا؟»

عدت خطوة إلى الوراء، وقلت: «لقد أحدثنا شـكّاً معقـولاً. هـذا كـلّ مـا علينـا أن نفعله كي نربح القضيّة».

فقالت روث: «لكنّي لم أقدِّم شهادتي».

«لا أظنُّ أنّه يجب أن تقفي أمام المنصَّة كشاهدة. تسـير الأمـور حاليـاً سـيراً جيّـداً بالنسبة إلينا. إذا كان آخـر شيء يـدور في رؤوس المحلّفـين هـو أنّ تـورك بـاور يحـاول ملاحقتي، فقد حظيتِ توّاً بدعمهم».

انتصبت في وقفتها وقالت: «لقد وعدتِني».

«وعدتك بأنّني سأبذل قصارى جهدي لتبرئتك، وقد فعلت ذلك».

هزَّت روث رأسها، وقالت: «وعدتِني أن أحكي قصَّتي».

فقلت: «لكنَّ الجميل في الأمر أنّك لست مضـطرَّة إلى أن تفعـلي ذلـك»، وأضـفت، «تسلّم هيئة المحلّفين الحكم، ثمّ تستعيدين وظيفتك. وعليـك أن تتظـاهري بـأنّ كـلَّ هذا لم يحدث».

كان صـوت روث نـاعماً، لكنَّـه صـلب، وسـألتني: «هـل تظنّـين أنّنـي أسـتطيع أن أتظاهر بأنَّ ذلك لم يحدث؟ إنّي أرى ذلك كلّ يوم، في كلّ مكان أذهب إليه. هل تظنّين أنّني سأذهب وأستعيد وظيفتي؟ هل تظنّين أنّني لن أكون دائماً تلك الممرّضة السوداء التي أحدثت تلك المتاعب؟»

فقلت بريبة: «روث، أنا متأكّدة بنسبة تسعة وتسعين في المئـة أنَّ هيئـة المحلّفـين ستحكم بأنَّك لست مذنبة. ما الذي تريدينه أكثر من ذلك؟»

أمالت رأسها، وقالت: «هل لا يزال عليكِ أن تسألي؟» أعرف ما الذي تقصده.

أي كلّ ما رفضت أن أتحدّث عنه في المحكمة: كيف يبدو الأمر عندما تعرفين أنّـك مستهدفة بسبب لون بشرتك. ماذا يعني أن تعملي بجـدّ، وأن تكـوني موظّفـة مثاليّـة، ولا يغيّر ذلك شيئاً في مواجهة التحيُّز.

صحيح، قلت لها إنّ لديها لحظة لتحكي لهيئة المحلّفين عن جانبها من القصّة. لكن، ما الفائدة الآن، إذا كنا قد أعطيناهم الآن مشجباً يعلّقون عليه حكمهم بالبراءة؟

قلت: «فكّري في إديسون».

فأجابت روث، بحماس: «إنّي أفكّر في ابني. أفكّر في ما سيكون رأيه في أمٍّ لم تتحدَّث عن نفسها». ضيّقت عينيها، وأضافت: «أعرف كيف يعمل القانون يا كينيدي. أعرف أنّ على الولاية عبء الإثبات. أعرف أيضاً أنّك يجب أن تدعينني كشاهدة إذا طلبت منك ذلك. لذلك، فإنّي أفترض أنّ السؤال هو: هل ستؤدّين عملك؟ أو ستكونين مجرّد شخص أبيض آخر كذب عليَّ؟»

التفتُّ إلى هوارد الذي يستمع إلى حديثنا المتبادل مثل كرة طائرة في نهائي فردي السيّدات في بطولة الولايات المتحدة المفتوحة، وقلت بصوت حياديّ: «هوارد، هل يمكنك أن تخرج للحظة كي أتحدَّث مع موكّلتنا على انفراد؟»

هزَّ رأسه وانسلَّ خارجاً. التفتُّ إلى روث، وقلت: «ماذا بحقّ الجحيم؟ إنَّ التمسُّك بالمبادئ ليس الوقت المناسب الآن. يجب أن تثقي بي. إذا جلست إلى منصّة الشهود وبدأتِ تتحدَّثين عن العِرق، فإنّك ستمحين السبق الذي أحرزناه الآن لصالح هيئة المحلّفين. ستتحدّثين عن قضايا تنفّرهم ولا تجعلهم يشعرون بالراحة. بالإضافة إلى ذلك، فإنّ حقيقة أنّك مستاءة وغاضبة ستظهر بصوت مرتفع وواضح وتنفي أيّ تعاطف يشعرون به نحوك الآن. لقد قلت حتّى الآن كلّ ما تحتاج هيئة المحلّفين إلى سماعه».

فقالت روث: «ما عدا الحقيقة».

«عمَّ تتحدَّثين؟»

«لقد حاولت أن أنعش ذلك الطفل. في البداية، قلت لكِ إنّني لم ألمسه. قلت للجميع ذلك. لكنّني لمسته».

شعرت بالغثيان وقلت لها: «لماذا لم تخبريني بذلك من قبل؟»

«في البداية، كذبت لأنّني ظننت أنّني سأفقد وظيفتي. ثمّ كذبت لأنّني لم أكن أعرف أنَّني أثق بك أم لا. ثمّ، كلَّما حاولت أن أقول لك، شعرت بالحرج لأنّني أخفيت عنك ذلك لفترة طويلة، وازداد الأمر صعوبة». ثمّ أخذت نفساً عميقاً، وقالت: «هذا ما كان يجب أن أخبرك به في أوّل يوم التقينا فيه: لم يكن من المفترض أن ألمس الطفل. كان ذلك مسجّلاً في الملفّ الطبيّ، لكن عندما ازرقَّ لونه، أزلت عنه القماط، وبدأت أحرّكه. نقرت على قدميه وقلبته على جانبه. فعلتُ كلَّ الأشياء التي يجب عملها عندما تحاولين أن تجعلي الطفل يستجيب مرّة أخرى. ولَمَّا سمعت وقع خطوات لفقته مرّة أخرى. لم أشأ أن يراني أحد أفعل ما لم يكن من المفترض أن أفعله».

«لماذا نعيد كتابة التاريخ يا روث؟» سألتها بعد لحظة، «إذ يمكن أن تسمع هيئة المحلّفين ذلك وتظنّ أنّك بذلت قصارى جهدك، لكنّهم قد يعتقدون أيضاً أنّك لم تُحسني التصرُّف، وفعلتِ شيئاً أدَّى إلى موته».

فقالت: «أريد أن يعرفوا أنّني أدّيت واجبي على أكمل وجه. إنّك لا تتوقَّفين عن القول لي إنّ ذلك لا علاقة له بلون بشرتي - إنّه يتعلّق بكفاءتي. حسناً، بالإضافة إلى كلّ شيء آخر، أريد أن يعرفوا أنَّني ممرّضة جيّدة، وأنَّني حاولت أن أنقذ ذلك الطفل».

«تظنّين أنّك إذا صعدت إلى منصّة الشهود، فإنّك ستتمكَّنين من سرد قصّتك وتسيطرين على الأمر – ليس الأمر هكذا. سوف تمزّقك أوديت. ستفعل كلَّ ما في وسعها لتشير إلى أنَّ هذا يعني أنَّك كاذبة».

نظرت روث إليَّ، وقالت: «أفضّل أن يظنّوا أنَّني كاذبة على أن أكون قاتلة».

أوضحت لها بعناية: «إذا وقفتِ هناك وقلتِ رواية مختلفة عن الرواية التي قدَّمناها توّاً فإنَّك ستفقدين مصداقيتك، وأفقد مصداقيّتي. أنا أعرف ما هو الأفضل لك. يوجد سبب أنّنا دُعينا للمشاورة - من المفترض أن تنصتي إليَّ».

«لقد سئمت اتّباع الأوامر. آخر مـرّة اتّبعـت فيهـا الأوامـر، تورّطـت في كـلّ هـذه الفوضى». طوت روث ذراعيها، وقالت على نحو قاطع: «ستضعينني على المنصّـة غـداً، أو أنَّني سأقول للقاضي إنّك لن تدعيني أدلي بشهادتي».

في تلك اللحظة، عرفت أنَّني سأخسر هذه القضيَّة.

ذات ليلة، لَمَّا كنت أنا وروث نـحضِّر للمحاكمـة، كنّـا نعمـل في مطبخـي، وكانـت فيوليت سعيدة جداً، تركض في دوائـر حـول المنـزل بملابسـها الداخليـة تتظـاهر بأنهـا وحيد القرن. كانت أصواتها تتخلل أحاديثنا، وفجأة لم يكن الصوت الذي سـمعناه يشي بالفرح، وإنَّما بالألم. بعد لحظة، بدأت فيوليت تبكي، فركضنا كلتانـا إلى غرفـة الجلـوس، ورأينا فيوليت مستلقية على الأرض يسيل الدم من صدغها بغزارة.

بدأت ركبتاي ترتعشان، لكن قبـل أن أتمكـن مـن الوصـول إلى ابنتـي، كانـت روث تحتضنها بين ذراعيها، وتضغط أسفل قميصها حتّى الجرح. «هيّـا الآن»، قالـت مهدّئـة إيّاها، «ماذا حدث؟»

«انزلقتُ ووقعت»، قالت فيوليت، وقد بلَّل دمها قميص روث.

فقالت لها روث بهدوء: «أرى أنّك جُرحتِ جرحـاً بسـيطاً هنـا، وسـأعتني بـه». وبـدأت تصـدر إليَّ أوامـر في منـزلي، وطلبـت إليَّ بكفـاءة أن أحضر منشـفة مبلّلـة، ومرهمَ مضادّ حيويّ، وضمادة من علبـة الإسـعافات الأوليّـة. لم تـترك فيوليـت مـن يديها، ولم تتوقَّف عن التحدُّث معهـا، حتّـى عنـدما اقترحـت أن نأخـذ فيوليـت إلى مستشفى ييل - نيو هافن لمعرفة إن كانـت في حاجـة إلى قطبـة أو لا. كانـت روث قويّة، متماسكة، في حين ظلَّ الخوف ينهشني وأنا أتسـاءل إن كانـت سـتبقى ندبـة على وجه فيوليت، وهل سأتعرَّض إلى توبيخ مـن جمعيّـة خـدمات حمايـة الطفـل لأنّني لم أراقب طفلتي جيّداً، أو لأنَّني تركتها تركض على أرضيّة خشبيّة زلقـة وهـي ترتدي جورباً. لَمَّا احتاجت فيوليت إلى قطبتين، لم أكن أنا التـي تشـبَّثت بهـا، وإنّمـا

روث التي وعدتها بأنّنا إذا غنّينا بصوت عال، فإنّها لن تشعر بأيٍّ ألم. وهكذا، رحنا نغنّي نحن الثلاثة أغنية «دعها تذهب» بأعلى أصواتنا، ولم تبكِ فيوليت قطّ. وفي وقت لاحق من تلك الليلة، لَمَّا وضعت ضمادة نظيفة على جبهتها وهي نائمة في سريرها، شكرتُ روث.

قلت لها: إنك تتقنين ما تفعلينه.

فقالت: أعرف.

هذا كلّ ما تريده. أن يعرف الناس أنَّها عوملت بطريقة غير منصفة بسبب عِرقها، وكي تُبقي سمعتها كمقدّمة رعاية سليمة، حتّى لو كان ذلك يعني إدانتها.

«أراكِ تشربين وحدك»، قال ميكا عندما عاد إلى المنزل من المستشفى ووجدني في العتمة في المطبخ مع زجاجة نبيذ شيراز، «هذه أوّل علامة، كما تعلمين».

رفعت الكأس ورشفت رشفة طويلة، وسألته: «ممَّ؟»

فقال: «سنّ البلوغ، ربّما».

«كان يوماً شاقاً في المكتب؟»

«بدأ عظيماً. أسطورياً، ثمّ انحدر إلى الجحيم بسرعة كبيرة».

جلس ميكا إلى جانبي وفكّ ربطة عنقه، وقال: «هل تريدين أن نتحدَّث عن ذلك؟ أو عليَّ أن أجلب قنينتي؟»

دفعت قنينة الشيراز نحوه، وقلت بتنهيدة: «ظننت أنّني وضعت حكم البراءة في حقيبتي، ثمّ ذهبت روث وقرّرت أن تفسد كلَّ شيء».

بينما كان يصبّ لنفسه كأساً من النبيذ، حكيت له كلَّ شيء، بدءاً من الطريقة التي ألقى فيها تورك باور خطاب الكراهية، إلى النظرة في عينيه عندما توجَّه نحوي، ومن اندفاع الأدرينالين الذي سرى في جسدي عندما

نال طلبي للحكم بالبراءة باعتراف روث حول إنعاش الطفل، إلى إصابتي بالدوار بـأنّني يجب أن أسمح لروث أن تدلي بشهادتها إذا طلبت ذلك، حتّى لو كان ذلـك سيضـعف من فرصتي في ربح أوّل قضيَّة جريمة قتل.

وسألته: «ماذا يجب أن أفعل غداً؟ فمهما سألت روث على المنصّـة، فإنّهـا سـتدين نفسها، ما عدا التفكير في ما ستفعله لها المدّعية العامّة في أثناء الاسـتجواب». اعترتنـي رجفة عندما فكّرت في أوديت الّتي لا تعرف أنّ هذه النعمة توشك أن تُمنح لهـا»، ثـمّ قلت بهدوء: «لا أصدّق أنَّني اقتربت من البراءة إلى هذه الدرجة. لا أستطيع أن أصدّق أنَّها ستدمّرها».

تنحنح ميكا وقال: «الفكـرة الراديكاليّـة رقـم واحـد: ربّمـا ينبغـي لـك أن تُخرجـي نفسك من هذه المعادلة».

كنت قد شربت حتّى بدا ميكا ضبابياً عند الحواف، لـذلك ربّمـا لم أسـمع مـا قالـه جيّداً، فقلت له: «عفواً؟»

«لم تقتربي كثيراً. روث هي التي اقتربت».

فقلت: «هذه دلالات لفظيّة. نربح كلتانا أو نخسر كلتانا».

فقال ميكا بلطف: «لكنّهـا عـلى المحـك أكـثر منـك. سـمعتُها، وظيفتهـا، وحياتهـا. صحيح أنَّ هذه أوّل محاكمة مهمّة لك يا كينيدي، لكنَّها المحاكمة الوحيدة التـي تهـمّ روث».

مرَّرت يدي عبر شعري، وسألته: «وما هي الفكرة الراديكاليّة الثانية؟»

«ماذا لو كان أفضل شيء بالنسـبة إلى روث لـيس ربـح هـذه القضـيَّة؟» ردَّ ميكـا، «ماذا لو كانت أهميّتها بالنسبة إليها ليس ما سـتقوله... وإنَّمـا الحقيقـة بأنّهـا مُنحـت أخيراً الفرصة لأن تقول ذلك؟»

هل يستحقّ الأمر أن تكون قادراً على أن تقول ما الذي تريـد قولـه إذا كـان ذلـك يعني أنّك ستصبح نزيلاً في السجن؟ إذا كان ذلك سيلصق التهمـة بـك؟ هـذا يتعـارض مع كلّ ما تعلّمته، كلّ ما أؤمن به.

لكنّني لست الشخص الذي يُحاكم.

ضغطت على صدغيَّ بأصابعي. بدأت كلمات ميكا تدور في رأسي.

أخذ كأسه وأفرغها في كأسي، وقال: «إنّك تحتاجين إليه أكثر منّي»، وقبّلني على جبيني، وأضاف: «لا تسهري حتّى وقت متأخّر».

في صباح يوم الجمعة، بينما كنت أغذُّ الخطى لألتقي روث عند ساحة وقوف السيّارات، مررت إلى جانب النصب التذكاريّ المنتصب على العشب، إلى جانب مجلس المدينة، الذي يُحيي ذكرى سينغبي بيه، الذي كان أحد العبيد المشاركين في التمرّد في أميستاد. ففي عام 1839، كانت ثمَّة سفينة تحمل مجموعة من الأفارقة الذين أُخذوا من بلدهم ليصبحوا عبيداً في منطقة البحر الكاريبيّ، فتمرّدوا وقتلوا قبطان السفينة والطبّاخ، وأرغموا البحَّارة الآخرين على العودة إلى أفريقيا، لكنَّ البحَّارة خدعوا الأفارقة واتّجهوا شمالاً، وصعدت السلطات الأمريكيّة إلى السفينة، وسُجن الأفارقة في مستودع في نيو هافن حتّى جرت محاكمتهم.

ثار الأفارقة لأنَّ طبّاخاً خلاسياً سمع طاقم السفينة من البيض أنهم يزمعون قتلهم وأكل لحمهم، لأنَّ البيض الذين كانوا على متن السفينة يعتقدون أنّ الأفارقة يأكلون لحوم البشر.

لم يكن أيّ من الجانبين على صواب.

لَمَّا وصلتُ إلى ساحة انتظار السيّارات، لم تنظر روث في عينيَّ، وسارت بسرعة نحو قاعة المحكمة، وإديسون يسير إلى جانبها. لحقت بها، وأمسكت بذراعها، وسألتها: «ألا تزالين مصرَّة على أن تفعلي ذلك؟»

فسألتني: «هل تظنّين أنّني لو نمت عليها فسأغيّر رأيي؟»

فقلت: «أتمنّى ذلك. أتوسَّل إليك يا روث».

«ماما؟» قال إديسون، ونظر إلى وجهها، ثمّ إلى وجهي مرتبكاً.

رفعتُ حاجبيَّ كما لو أنّني أقول: فكِّري في ما تفعلينه لأجله.

شبكت ذراعها في ذراع ابنها، وأجابت: «هيّا بنا»، وبدأت تمشي.

ازدادت أعداد المتجمهرين أمام المحكمة. الآن، بعد أن ذكرت وسائل الإعلام أنَّ جانب الادّعاء من القضيّة قد انتهى، بدأ طعم الدّم يزداد حدّةً. رأيت والاس ميرسي وطاقمه من زاوية عيني، متأهّبين. ربّما كان عليَّ أن أطلق والاس على روث، ربّما كان في استطاعته أن يقنعها بأن تحني رأسها وتدع العدالة تجري لصالحها. لكن، حسب معرفتي بوالاس، فإنّه لن يفوّت فرصة التعبير عن رأيه. فربّما عرض على روث أن يدرّبها على قول الحقيقة حول أيّ شيء تريد قوله.

كان هوارد ينتظر قلقاً أمام المحكمة، ثمَّ قال متوتّراً: «إذاً، هل سنتوقَّف؟ أو...»

فقلت مباشرة: «نعم، أو...»

«إذا أردتِ أن تعرفي، فقد عادت أسرة باور. إنَّهم في قاعة المحكمة».

«شكراً يا هوارد»، قلت ساخرة، «بدأت الآن أشعر بتحسّن أكثر».

كلّمتُ روث مرّة أخرى، قبل لحظات من أن يُطلب إلينا الوقوف عندما دخل القاضي. همست لها: «سأنصحك نصيحة واحدة: كوني هادئة، متماسكة، رابطة الجأش، قدر الإمكان. فإذا رفعتِ صوتك قليلاً، فستنقضّ عليك المدّعية العامّة. ويجب أن تجيبي عن أسئلتها بالطريقة عينها التي تجيبين فيها عن أسئلتي عندما تبدأ أوديت استجوابك».

نظرت إليَّ. مع أنَّ أعيننا التقت بسرعة، لكن كان ذلك كافياً لأرى الوميض فيهما، الخوف. فتحت فمي، مستشعرةً الضعف الذي يعتريها، عازمة على أن أثنيها مرّة أخرى، لكنّي تذكّرت ما قاله لي ميكا، فقلت لها: «حظّاً سعيداً».

نهضت واقفة، ودعوت روث جيفرسون إلى منصَّة الشهود.

بدت لي أصغر حجماً وهي جالسة إلى المنصَّة. كالعـادة، كـان شـعرها مسـحوباً إلى الوراء في شكل كعكة. هل لاحظت من قبل كم كانت تبدو قاسـية؟ يـداها مثنيتـان في حجرها بإحكام. أعرف أنّها تحاول ألّا ترتجف، لكـن الأمـر لم يكـن يبـدو كـذلك لهيئـة المحلّفين الذين بدت لهم امرأة رسميّة إلى درجة كبيرة. كرَّرت أداء اليمـين بهـدوء مـن دون أيّ مشاعر أو توتّر. أعرف أنّ ذلك بسبب شعورها بأنّهـا أصـبحت مكشـوفة أمـام الآخرين، لكن قد يفسَّر الخجل خطأً بأنّه غطرسة، وقد يشكِّل عيباً قاتلاً.

سألتها: «روث، كم عمرك؟»

فقالت: «أربع وأربعون».

«أين ولدت؟»

«في هارلم، في مدينة نيويورك».

«هل ذهبت إلى المدرسة هناك؟»

«لبضع سنوات فقط، ثمَّ انتقلت إلى دالتون في منحة دراسيَّة».

«هل أنهيت الجامعة؟»

«نعم، ذهبت إلى جامعة بلاتسبرغ، في ولاية نيويورك، كطالبة جامعيّة، ثمّ حصـلت على الإجازة في التمريض من جامعة ييل».

«هل يمكنكِ أن تخبرينا كم كانت مدّة هذه الدراسة؟»

«ثلاث سنوات».

«عندما تتخرَّجين ممرّضة، هل تؤدّين قسماً؟»

هزَّت روث رأسها وقالت: «إنَّه يدعى قسم فلورنس نايتنغيل».

وضعت قصاصة كإثبات، وأعطيتها لها، وسألتها: «هل هذا هو القسم؟»

«نعم».

«هل يمكنك قراءته بصوت عال؟»

«أمام الـلـه، وأمام المجتمعين هنا، أقطع على نفسي عهداً رسمياً بأن ألتزم بقواعـد أخلاقيّات وسلوك مهنة التمـريض؛ وأن أتعـاون بـإخلاص مـع أعضـاء فريـق التمـريض الآخرين، وأنفّذ تعليمات الطبيب أو الممرّضة المشرفة بأمانة وبكلّ ما أملك من قـدرة» - هنا تلعثمت - «الذين قد يُكلفون بالإشراف على عملي». أخذت روث نفسـاً عميقـاً، وتابعت، «وألّا أُقدم على أيّ عمل شرّير أو خبيث، وألّا أعطي عن قصد أيّ عقـار ضـارّ أو أساعد في ارتكاب أيّ خطأ طبيّ، وألّا أفصح عـن أيّ معلومـات سريّـة قـد تصـل إلى علمي في أثناء عملي. وأتعهّد بأن أبذل كلَّ ما في وسعي لرفع معايير ومكانة التمـريض العمليّة. وأتمنّى أن تكون حياتي مكرَّسة للخدمة وللمثـل العليـا لمهنـة التمـريض». ثـمّ رفعت عينيها ونظرت إليّ.

«هل هذا القسم أساسيّ لك كممرّضة؟»

فقالت روث مؤكّدة: «نعم، إنّنا نأخذه على محمل الجدّ. إنّه يشـبه قسـم أبقـراط للأطبّاء».

«منذ متى تعملين في مستشفى الرحمة - ويست هافن؟»

قالت روث: «منذ أكثر من عشرين سنة. حياتي المهنيَّة كلّها.»

«ما هي مسؤولياتك؟»

«أنا ممرِّضة في قسم الولادة. أساعد الأمَّهات في ولاداتهنَّ، وأعمـل كـذلك في غرفـة العمليَّات في أثناء الولادات القيصريّة، وأعتني بالأمَّهات، وبعد الولادة أعتنـي بالمواليـد الجدد».

«كم ساعة تعملين في الأسبوع؟»

أجابت روث: «أربعين ساعة وأكثر. غالباً ما يُطلب إلينا أن نعمل وقتاً إضافيّاً».

«روث، هل أنت متزوّجة؟»

فقالت: «أنا أرملة. كان زوجي عسكريّاً في الجيش، قُتل في أفغانستان. حدث ذلك منذ عشر سنوات تقريباً».

«هل لديك أطفال؟»

«نعم، ابني إديسون. إنّه في السابعة عشرة من عمره». لمعت عيناها، وراحتا تبحثان عن إديسون في القاعة.

«هل تتذكّرين قدومك إلى العمل صباح الأول من تشرين الأول 2015؟»

فقالت روث: «نعم، وصلت في السابعة صباحاً في ورديّة عمل لمدّة 12 ساعة».

«هل كُلّفت بالعناية بديفيس باور؟»

«نعم. كانت أمُّه قد ولدت في وقت مبكر من ذلك الصباح. كُلِّفت بإجراء رعاية أنموذجيَّة بعد الولادة لبريتاني باور، وبفحص المولود الذي تجريه الممرّضة عادةً».

وصفت الفحص وقالت إنَّها أجرته في غرفة المستشفى.

«إذاً، كانت بريتاني باور موجودة؟»

فقالت روث: «نعم، وزوجها أيضاً».

«هل وجدت شيئاً ملحوظاً في أثناء هذا الفحص؟»

«لاحظت في الملفّ وجود نفخة قلبيَّة. شعرت أنّها لم تكن شيئاً يجب أن نقلق بشأنها - فهي حالة شائعة جداً للأطفال حديثي الولادة، لكن من المؤكّد أنّه كان شيئاً يجب على طبيبة الأطفال أن تفحصه عندما تعود، وهذا ما دعاني إلى كتابة الملاحظة».

«هل تعرفين السيد والسيدة باور قبل ولادة ابنهما؟»

فأجابت روث: «لا. التقيتهما عندما دخلتُ الغرفة. هنَّأتهما على مولودهما الجميل، وقلت لهما إنّني هنا لأجري فحصاً روتينياً».

«ما الفترة التي بقيتِ فيها في الغرفة معهما؟»

«من عشر إلى خمس عشرة دقيقة».

«هل تبادلتِ أيّ حديث شفويّ مع الوالدين في ذلك الوقت؟»

«ذكرتُ لهما النفخة القلبيّة، وأن لا داعي للقلق. وأخبرتهما أنّ مستويات السكّر لديه تحسَّنت منذ ولادته. وبعد أن نظّفت الطفل، اقترحت أن نحاول دفعه ليرضع».

«وماذا كان ردّهما؟»

«قال لي السيّد باور أن أبتعد عن زوجته، ثمّ قال إنّه يريد أن يتحدّث إلى المشرفة المسؤولة».

«كيف كان شعورك يا روث؟»

فقالت: «صُدمت. لم أعرف ما الذي فعلته كي ينزعج».

«وماذا حدث بعد ذلك؟»

«وضعت رئيستي، ماري مالون، ملاحظة في ملفّ المولود تقول فيها لا يُسمح لأيّ عامل طبيّ أمريكيّ من أصل أفريقيّ أن يلمس الرضيع. سألتها لماذا، فقالت إنّ ذلك استجابة لطلب الوالدين، وأنّني سأُكلّف بمهمّة أخرى».

«متى رأيت الطفل بعد ذلك؟»

«صباح يوم السبت. كنت في غرفة الحضانة عندما أحضرته كورين - ممرّضة الطفل الجديدة - لختانه».

«ماذا كانت مسؤولياتك في ذلك الصباح؟»

عبست وقالت: «كانت لديَّ مريضتان - لا، بل ثلاث مريضات. كانت ليلة محمومة. كنت أعمل في ورديَّة لم يكن من المفترض أن أعمل فيها لأنَّ ممرّضة أخرى كانت مريضة. ذهبت إلى غرفة الحضانة لأجلب بياضات نظيفة، وأتناول لوح شكولاتة لأنّني لم أتناول أيَّ طعام في أثناء الورديَّة».

«ماذا حدث بعد ختان الطفل؟»

«لم أكن في الغرفة، لكنّي افترضت أنَّ كلَّ شيء سار سيراً طبيعيّاً، ثمّ طلبت إليَّ كورين أن أراقب الطفل لأنَّه كان يتعيّن نقل مريضة أخرى إلى غرفة العمليَّات، ويتطلَّب البروتوكول مراقبة الطفل بعد الختان».

«هل وافقت؟»

«لم يكن لديَّ خيار آخر. لم يكن هناك أحد غيري ليفعل ذلك. كنت أعرف أنَّ كورين أو ماري، المشرفة، ستعود بسرعة لتولّي هذه المهمّة».

«لَمَّا رأيتِ الطفل أوّل مرّة، كيف كان يبدو؟»

فقالت روث: «كان يبدو جميلاً. كان مقمَّطاً ويغطّ في النوم. لكن، بعد بضع لحظات نظرت إليه ورأيت أنَّ بشرته أصبحت شاحبة، وبدأ يصدر شخيراً. رأيت أنَّه كان يعاني من صعوبة في التنفُّس».

مشيتُ نحو منصَّة الشهود، ووضعت يدي على الحاجز، وسألتها: «ماذا فعلتِ في تلك اللحظة يا روث؟»

أخذت نفساً عميقاً وقالت: «حللتُ القماط. بدأت ألمس الطفل، وأنقر على قدميه، أحاول أن أحثّه كي يستجيب».

بدت الحيرة على وجوه المحلَّفين. وعادت أوديت وجلست في كرسيّها، شابكة ذراعيها، وارتسمت ابتسامة على وجهها.

«لماذا فعلتِ ذلك؟ في حين طلبت إليك المشرفة ألّا تلمسيه؟»

اعترفت روث: «كان عليَّ أن أفعل ذلك». يمكنني أن أرى الطريقة التي حرّرتها مثل فراشة تنبعث من شرنقة. أصبح صوتها أوضح، ولانت الخطوط حول فمها. «هذا ما ستفعله أيّ ممرّضة جيّدة في هذه الحالة».

«ثمَّ ماذا؟»

«كانت الخطوة التالية استدعاء الرمز لاستدعاء الفريق الكامل لإنعاش الوليد، لكنّي سمعت وقع خطوات. عرفت أنّ أحداً ما قادم، ولم أعرف ما

أفعل. قلت في نفسي إنّني سأقع في مشكلة لو رآني أحدهم أعالج الطفل في حين طلبوا إليَّ ألّا أفعل ذلك. فلففته مرّة أخرى، وتراجعت، ثمَّ دخلت ماري غرفة الحضانة». نظرت روث إلى حضنها، وأضافت، «سألتني ماذا أفعل».

«ماذا قلتِ لها يا روث؟»

لَمَّا نظرت إلى الأعلى، كانت عيناها واسعتين بشعور الخزي، «قلت لها لم أكن أفعل شيئاً»

«كذبتِ؟»

«نعم».

«من الواضح أنّك كذبتِ أكثر من مرّة، إذ لَمَّا استجوبتك الشرطة بعد ذلك، قلتِ إنّك لم تبذلي أيَّ جهد لإنعاش هذا الطفل. لماذا؟»

«كنت أخشى أن أفقد وظيفتي»، والتفتت إلى هيئة المحلّفين لتدافع عن نفسها، «كلّ نسيج في كياني قال لي إنّني يجب أن أساعد ذلك الرضيع... لكنّي كنت أعرف أيضاً أنّني سأتلقّى توبيخاً لو أنّني خالفت تعليمات المشرفة. وإذا فقدت وظيفتي، فمن سيهتمّ بابني؟»

«إذاً، واجهتِ أساساً إمّا المساعدة في الإهمال الطبيّ وإمَّا مخالفة تعليمات المشرفة؟»

هزّت رأسها، وقالت: «كانت المسألة خاسرة في جميع الأحوال».

«ماذا حدث بعد ذلك؟»

«استُدعي الفريق الطبيّ. كانت مهمّتي إجراء عمليّات الضغط. بذلت كلَّ ما في وسعي، بذلنا جميعنا قصارى جهدنا، لكن في النهاية لم يكن ذلك كافياً». رفعت عينيها، وأضافت: «لَمَّا أُعلن عن وقت الوفاة، ولَمَّا أخرج السيّد باور كيس الأنابيب من سلَّة المهملات، وحاول أن يواصل الجهود بنفسه، كدت أستطيع أن أدرك الأمر». ومثل سهم يبحث عن دريئته، شحذت عينيها ووجَّهتهما نحو تورك باور في القاعة، وقالت: «قلت لنفسي:

ماذا فاتني؟ هل كان بإمكاني أن أفعل شيئاً مختلفاً؟» تردَّدت، «ثمَّ قلت في نفسي: هل كان سيسمح لي؟»

قلت: «بعد أسبوعين تلقّيت رسالة، هل يمكنك أن تخبرينا عنها؟»

«كانت مرسلة من مجلس الصحَّة. تعليق رخصتي لممارسة مهنة التمريض».

«ما الذي دار في ذهنك عندما تلقيتِها؟»

«أدركتُ أنَّهم حمَّلوني المسؤوليّة عن وفاة ديفيس باور. كنت أعرف أنَّهم سيوقفونني عن وظيفتي، وهذا ما حدث».

«هل عملتِ منذ ذلك الحين؟»

فقالت روث: «سُجِّلت لفترة قصيرة في برنامج المعونة الحكوميّة، ثمّ عملت في ماكدونالدز».

«روث، كيف تغيّرت حياتك في أعقاب هذا الحادث؟»

أخذت نَفَساً عميقاً وقالت: «لم تعد لديّ مدَّخرات. نعيش الآن من أسبوع لأسبوع. أنا قلقة بشأن مستقبل ابني. لم أعد أستطيع أن أستخدم سيّارتي لأنّني لم أعد أستطيع تحمّل تكاليف تسجيلها».

أدرت ظهري، لكنَّ روث لم تنهِ كلامها.

تابعت تقول بهدوء: «من المضحك أنّك تظنّين أنّك شخص محترم في المستشفى الذي تعملين فيه، وفي المدينة التي تعيشين فيها. كان لديَّ عمل ممتاز. كانت لديَّ زميلات كنَّ صديقات. عشت في منزل كنت فخورة به على الدوام، لكن، لم يكن كلّ ذلك سوى خداع بصريّ، فلم أكن قطّ فرداً في أيّ من هذه المجتمعات. كانوا يتسامحون معي، لكنّهم لم يرحّبوا بي. كنت، وسأظلّ دائماً، مختلفة عنهم». رفعت بصرها، «وبسبب لون بشرتي، سأكون دائماً الشخص الذي يقع عليه اللوم».

يا إلهي! قلت في نفسي، يا إلهي! اسكتي يا روث. لا تذكري ذلك. ثمّ قلت: «لم تعد لديَّ أسئلة أخرى»، في محاولة لأن أقلّل من خسائرنا.

لم تعد روث شاهداً، وإنّما قنبلة موقوتة.

لَمَّا عدتُ وجلستُ إلى طاولة الدفاع، كان هوارد فاغراً فمه، ودفع لي قصاصة كتب عليها: ما الذي يجري؟

فكتبت له أسفل القصاصة: هذا مثال على ما لا تريد أن يفعله شاهد أبداً.

خطت أوديت نحو منصّة الشاهد، وقالت: «طُلب إليك ألّا تلمسي ذلك الطفل؟»

فقالت روث: «نعم».

«حتّى اليوم، كنت تقولين إنّك لم تلمسي هذا الطفل حتّى طلبت إليك صراحة الممرّضة المشرفة؟»

«نعم».

«لكنّكِ شهدت الآن في استجوابك المباشر أنّك لمستِ ذلك الطفل في الواقع عندما بدأ يتنفَّس بصعوبة؟»

هزّت روث رأسها، وقالت: «هذا صحيح».

فقالت أوديت: «إذاً، ماذا؟ هل لمستِ ديفيس باور أو لم تلمسيه عندما توقَّف عن التنفُّس في البداية؟»

«لمسته».

«إذاً، لنوضّح الأمر. هل كذبت على المشرفة؟»

«نعم».

«وكذبتِ على زميلتك كورين؟»

«نعم».

«كذبتِ على فريق إدارة المخاطر في مستشفى الرحمة - ويست هافن، أليس كذلك؟»

هزَّت رأسها، وقالت: «نعم».

«وكذبتِ على الشرطة؟»

«نعم».

«مع أنّك تدركين أنّ لديهم واجباً والتزاماً أخلاقيين لمعرفة ما الذي حدث لذلك الرضيع المتوفَّى؟»

«أعرف، لكن...»

صحَّحت أوديت قائلة: «كنتِ تفكّرين في إنقاذ عملك، لأنّكِ كنت تعرفين في أعماقك أنّك كنت تفعلين شيئاً مريباً. أليس هذا صحيحاً؟»

«حسناً...»

فقالت أوديت: «إذا كذبتِ على كلّ هؤلاء الأشخاص، فلماذا بحقّ السماء تصدّق هيئة المحلّفين أيّ شيء تقولينه الآن؟»

التفتت روث نحو الرجال والنساء المحشورين في مقصورة المحلّفين، وقالت: «لأنَّني أقول لهم الحقيقة».

فقالت أوديت: «صحيح، لكن هذا ليس اعترافك السرّي الوحيد، أليس كذلك؟»

إلى أين ستمضي في كلّ هذا؟

«في اللحظة التي مات فيها الطفل - عندما حدَّدت طبيبة الأطفال وقت إعلان الوفاة - في أعماقك، لم تهتمّي بكلّ ذلك، أليس كذلك يا روث؟»

«طبعاً، كنت أهتمّ»، قالت روث واعتدلت في جلستها على كرسيّها، «بذلنا كلَّ ما في وسعنا، كما نفعل مع أيٍّ مريض...»

«آه، لكن لم يكن هذا أيّ مريض. كان هذا ابن شخص من العنصريين البيض. طفل رجل رفض سنوات خبرتك في التمريض...»

«أنت مخطئة».

«رجل وضع قدرتك على أداء وظيفتك موضع شكّ وتساؤل بسبب لون بشرتك. لقد كرهتِ تورك باور، وكرهتِ طفله، أليس كذلك؟»

أصبحت أوديت على بعد قدم واحدة من روث الآن، تصرخ في وجهها. أغمضت روث عينيها مع كلّ انفجار كأنّها تواجه إعصاراً، وهمست: «لا. لم أفكّر في ذلك قطّ».

«ومع ذلك، فقد سمعتِ زميلتك كورين تقول إنّكِ كنتِ غاضبة بعد أن قالت لك إنّه لم يعد بإمكانك رعاية ديفيس باور، أليس كذلك؟»

«نعم».

«هل عملتِ لمدّة عشرين سنة في مستشفى الرحمة - ويست هافن؟»

«نعم».

«شهدتِ بأنّك ممرّضة ذات خبرة وكفاءة، وأنَّك تحبّين عملك، هل من الإنصاف قول ذلك؟»

فقالت روث: «نعم».

«ومع ذلك، لم يكن لدى المستشفى مشكلة في أن يأخذ رغبات المريض في الحسبان على حساب احترام العاملين فيه، وطردك من عملك المهنيّ الذي تمارسينه طوال تلك السنوات؟»

«يبدو ذلك».

«لا بدَّ أنَّ ذلك جعلك تغضبين، أليس كذلك؟»

فقالت روث: «كنت منزعجة».

اجمعيها معاً يا روث، قلت في نفسي.

«منزعجة؟ قلت، وأنا أقتبس من كلامك إنَّ هذا الطفل لا يعني لي شيئاً».

«كان ذلك شيئاً قلته في لحظة انفعال...»

لمعت عينا أوديت، وقالت: «في لحظة انفعال! هل هذا أيضاً ما حدث عندما قلت للدكتورة أتكينز أن تعقّم الطفل في أثناء ختانه؟»

فقالت روث: «كانت مزحة. ما كان ينبغي لي أن أقول ذلك. كان ذلك خطأ».

«وما هو خطأ أيضاً؟» سألتها أوديت، «حقيقة أنّك توقَّفت عن خدمة ذلك الطفل في حين كان يسعى إلى أن يتنفَّس، لمجرَّد أنَّك كنت تخشين كيف يمكن أن يؤثِّر ذلك عليك؟»

«طُلب إليَّ ألّا أفعل شيئاً».

«لذلك، اتّخذتِ القرار الواعي بالوقوف فوق ذلك الرضيع الصغير المسكين الذي بدأ لونه يزرقّ، في حين كنت تفكّرين، ماذا لو فقدتُ وظيفتي؟»

«لا...»

«أو ربّما كنتِ تقولين في نفسك: هذا الطفل لا يستحقّ مساعدتي. والداه لا يريدان أن ألمسه لأنّني سوداء، وستتحقّق رغبتهما».

«هذا غير صحيح...»

«فهمت. كنتِ تقولين في نفسك: إنِّي أكره والديه العنصريين؟»

«لا»، قالت روث، ووضعت يديها على رأسها محاولة ألّا تسمع صوت أوديت.

«أوه، ربّما كان الأمر كذلك: أنا أكره هذا الطفل لأنَّني أكره والديه العنصريين؟»

«لا»، انفجرت روث بصوت مرتفع اهتزَّت معه جدران قاعة المحكمة، «قلت لنفسي إنَّ من الأفضل أن يموت الطفل على أن يربِّياه والداه العنصريان».

وأشارت مباشرة إلى تورك باور، في حين هبطت ستارة من الصمت فوق هيئة المحلّفين والموجودين في القاعة، وفوقي أيضاً. وضعت روث يدها على فمها. قلت في نفسي بعد فوات الأوان.

«اعتراض»، صاح هوارد، «نطالب بشطب العبارة».

في تلك اللحظة، جرى إديسون إلى خارج قاعة المحكمة.

لَمَّا رُفعت الجلسة، أمسكت بمعصم روث وسحبتها إلى غرفة الاجتماعات. كان هوارد من الذكاء بأن عرف أنَّ عليه ألّا يدخل معنا. ما إن أُغلق الباب، حتّى استدرت إليها، وقلت: «تهانينا. لقد فعلتِ تماماً الشيء الذي لم يكن من المفترض أن تفعليه يا روث».

سارت إلى النافذة، مولية ظهرها لي.

«هل أوضحتِ وجهة نظرك؟ هل أنت سعيدة لأنَّك وقفت على المنصَّة للإدلاء بشهادتك؟ كلّ ما ستراه هيئة المحلّفين الآن امرأة سوداء غاضبة. امرأة غاضبة منتقمة، ولن أُفاجأ لو ندم القاضي على رفض تهمة القتل العمد. لقد أعطيتِ هؤلاء المحلّفين الأربعة عشر كلَّ الأسباب للاعتقاد بأنّك مجنونة إلى درجة جعلتك تتركين هذا الطفل يموت أمام عينيك».

استدارت روث ببطء، تحيط بها هالة أشعّة شمس بعد الظهر، من عالم آخر، وقالت: «لم أغضب. أنا غاضبة. أنا غاضبة منذ سنوات، لكنّي لم أُظهر غضبي. إنَّ الشيء الذي لا تفهمينه هو أنّه كان عليَّ أن أفكّر طوال ثلاثمئة وخمسة وستين يوماً في السنة في ألّا أبدو امرأة شديدة السواد، لذلك ألعب دوراً، أضع على وجهي قناعاً مثل طبقة من الجبس. إنّه عمل مرهق. مرهق للغاية، لكنّي فعلت ذلك لأنّني لا أملك نقوداً كافية لأدفع كفالة، وإنّما فعلت ذلك لأنّ لديَّ ابناً. وإذا لم أفعل، فقد أفقد وظيفتي وبيتي ونفسي. لذلك، فإنّي أعمل وأبتسم وأهزّ رأسي، وأدفع فواتيري، وأبقى صامتة وأتظاهر بأنّني راضية، لأنّ هذا ما يريده الناس - لا – ما

يحتاجون إلى أن أكون. والعار العظيم والمحزن هو أنّني طوال سنوات كثيرة من حياتي المؤسفة، رضيت بتلك المهزلة. كنت أظنّ أنّني لو فعلت كلّ هذه الأشياء، لأصبحت واحدة منكم».

سارت روث نحوي، وقالت ساخرة: «انظري إلى نفسك، فأنت تفخرين جدّاً بأنك محامية عامَّة وتعملين مع أشخاص ملوّنين يحتاجون إلى مساعدة، لكن هل فكّرتِ يوماً في أنَّ سوء حظنا مرتبط مباشرة بحظّك الجيّد؟ ربّما كان المنزل الذي اشتراه والداك متاحاً للبيع لأنَّ أصحابه لم يرغبوا في أن تسكن أمّي في ذلك الحيّ. ربّما كانت الدرجات الجيدة التي حصلتِ عليها، والتي قادتك في النهاية إلى كليّة الحقوق لأنّ أمّك لم تكن مضطرَّة إلى أن تعمل ثماني عشرة ساعة في اليوم، وكانت معك لتقرأ لك في الليل، أو لتتأكَّد أنّك أدّيت واجبك المدرسيّ. كم مرّة تذكّرين نفسك بأنّك محظوظة لأنّك تمتلكين منزلك، وأنّك استطعت أن تراكمي قيمة عقاريّة لمنزلك عبر الأجيال بحيث لا تستطيع الأُسر الملوّنة أن تفعل ذلك؟ كم مرّة فتحتِ فمك في العمل وقلتِ لنفسك كم هو رائع أن لا أحد يفكّر في أنّك تتحدّثين بالنيابة عن جميع الأشخاص الذين لديهم لون بشرتك نفسه؟ كم يصعب إيجاد بطاقة تهنئة بعيد ميلاد طفلك مرسوم عليها صورة طفل له لون بشرته نفسه؟ كم مرّة رأيت لوحة ليسوع تشبهك؟» توقَّفت وهي تتنفَّس بصعوبة، وقد احمرَّ خدَّاها، ثمَّ مضت تقول: «كما تعلمين، فإنَّ التحيُّز يسير في كلا الاتّجاهين، فهناك من يعاني منه، وهناك من يستفيد منه، الطفل الذي مات جعلك روبن هود؟ من قال إنّني في حاجة إلى إنقاذ؟ ها أنت ذي هنا تمتطين حصانك العالي، وتقولين لي إنَّني أفسدت هذه القضيّة التي عملتِ لأجلها كثيراً، تربّتين على ظهرك لأنّك تدافعين عن امرأة سوداء فقيرة تكافح مثلي... لكنّكِ جزء من السبب الذي جعلني أسقط على الأرض منذ البداية».

كانت على مسافة بضع بوصات منّي. شعرت بحرارة بشرتها. استطعت أن أرى نفسي منعكسة في حدقتَيْ عينيها عندما بدأت تكلّمني مرّة أخرى،

«قلتِ لي إنّ بإمكانك أن تمثّليني يا كينيدي. لا يمكنك أن تمثليني، لأنّك لا تعرفينني. حتّى إنّك لم تحاولي ذلك قطّ». ثبّتت روث عينيها في عينيَّ، وقالت: «إنّي أعفيك من مهمّة الدفاع عنّي»، وخرجت من الغرفة.

* * *

وقفت وحدي لبضع دقائق في غرفة الاجتماعات، أحارب جيشاً من المشاعر. إذاً لهذا السبب سُمِّيت محاكمة. لم أشعر قطّ بالغضب والخجل والمهانة كما شعرت الآن. طوال السنوات التي مارست فيها مهنة المحاماة، كرهني بعض الموكلين، لكن لم يطردني أحد.

هكذا تشعر روث.

حسناً، فهمت: لقد أخطأ كثير من البيض في حقّها. لكن هذا لا يعني أنها تستطيع أن تجمعني معهم بسهولة، وأن تحكم على شخص وتعمّمه على الآخرين.

هكذا تشعر روث.

كيف تجرؤ على اتهامي بأنني غير قادرة على تمثيلها فقط لأنني لست سوداء؟ كيف تجرؤ على القول إنَّني لم أحاول أن أعرفها؟ كيف تجرؤ على وضع كلمات في فمي؟ كيف تجرؤ على أن تقول لي كيف أفكّر؟

هكذا تشعر روث.

متأفِّفة، ألقيت بنفسي نحو الباب. كان القاضي ينتظرنا في مكتبه.

لَمَّا فتحت الباب كان هوارد واقفاً وراءه. يا إلهي! لقد نسيته. «لقد أعفتك من مهمَّة الدفاع عنها؟» قال ثمّ أضاف خجلاً، «كنت أتنصَّت».

بدأتُ أسير في البهو، وأنا أردِّد لنفسي: «لا يمكنها أن تعفيني من الدفاع عنها الآن، فلن يسمح لها القاضي بذلك في وقت متأخّر من المحاكمة». إنَّ الادّعاء القانونيّ الذي ستقدّمه روث بأنَّ المساعدة التي تقدّمها المحامية

غير فعَّالة، لكن لو كان ثمَّة أحد غير فعّال هنا، فهي موكّلتي، لقد ألقت حكمها بالبراءة بنفسها.

«إذاً، ماذا يحدث الآن؟»

توقَّفت عن السير، والتفتُّ إليه، وقلت له: «تخمينك صحيح مثل تخميني».

حينما تقترب القضيَّة من نهايتها، يقدِّم محامي الدفاع طلباً بالحكم بالبراءة، أمّا هذه المرّة، لمَّا وقفت أمام القاضي ثاندر مع أوديت، فنظر إليَّ كما لو أنَّني أمتلك الجرأة على إثارة ذلك. «لا يوجد دليل على أنَّ وفاة ديفيس باور نجمت عن تصرُّف روث، أو عن إهمال»، أضفتُ من دون حماس، لأنَّني أصبحت في هذه اللحظة، لست متأكّدة ممَّا قلته.

فقالت أوديت: «حضرة القاضي. من الواضح أنَّ هذه محاولة يائسة أخيرة للدفاع، بعد ما سمعناه خلال تلك الشهادة. في الواقع، أودُّ أن أطلب بكلّ تواضع من المحكمة أن تلغي قرارها بشأن اقتراحك السابق بإسقاط تهمة القتل العمد. من الواضح أنَّ روث جيفرسون قدَّمت توّاً دليلاً على وجود ضغينة».

تجمَّد دمي. كنت أعرف أنَّ أوديت ستخرج وهي تتبختر، لكنّي لم أتوقَّع ذلك. «حضرة القاضي، يجب أن يثبّت الحكم. لقد رفضتَ توّاً تهمة القتل، وهنا ينطبق مبدأ العقاب مرّتين. لا يمكن إدانة روث مرّتين بالجريمة عينها».

فقال القاضي ثاندر على مضض: «في هذه الحالة، السيّدة ماكواري على حقّ. لقد حصلت على حصّتك توّاً يا سيّدة لوتون، ورفضتِ توّاً تهمة القتل. لكنّي سأحتفظ بحقّي في الحكم على طلب الدفاع المتجدّد للحكم بالبراءة». ونظر إلينا، كلّ على حدة، وأضاف: «تبدأ المرافعات الختاميَّة صباح يوم الاثنين، أيّتها المستشارتان. دعونا نحاول ألّا نجعل ذلك أكثر من مجرّد عرض سخيف ممَّا هو عليه الآن؟»

طلبتُ إلى هوارد أن يأخذ بقيّة اليوم إجازة، وعدتُ إلى البيت. كان رأسي مشوَّشاً، وشعرت أنَّ دماغي محشور في جمجمتي، كما لو كنت أحارب نزلة برد دهمتني فجأة. لَمَّا وصلت إلى منزلي، استقبلتني رائحة فانيليا. دخلت المطبخ، ورأيت أمّي مرتدية مريلة «امرأة العجائب» في حين كانت فيوليت جاثية فوق أحد مقاعد المطبخ، يدها في وعاء عجينة البسكويت. لَمَّا رأتني صاحت: «ماما» ورفعت قبضتيها الملتصقتين، «نعدُّ لك مفاجأة لذلك تظاهري بأنّك لم تري شيئاً».

ثمَّة شيء في العبارة التي قالتها علقت في حلقي. تظاهري بأنَّك لم تريها.

من أفواه الأطفال.

نظرت أمّي إليَّ وعبست من فوق رأس فيوليت، وسألتني بصمت: «هل أنت على ما يرام؟»

ردّاً على سؤالها، جلست إلى جانب فيوليت، وغاصت أصابعي في عجينة البسكويت، وبدأت أتناولها.

ابنتي عسراء، مع أنَّنا، أنا وميكا، لسنا كذلك. حتّى إنَّه توجد لدينا صورة بالموجات فوق الصوتيَّة وهي تمصّ إبهامها الأيسر في رحمي. «ماذا لو كان الأمر بهذه البساطة؟» دمدمت.

«ماذا لو كان الأمر بهذه البساطة؟»

نظرتُ إلى أمّي وسألتها: «هل تظنّين أنَّ العالم متحيّز للذين يستخدمون أيديهم اليمنى؟»

«مممممم، لا يمكنني أن أقول إنّني فكّرت في هذا الأمر».

فقلت: «هذا لأنّكِ»، وأشرتُ، «تستخدمين اليد اليمنى. لكن فكّري في الأمر: فتّاحات العلب، المقصّات، حتّى المقاعد التي تطوى من الجانب، التي في الجامعة، كلّها مخصَّصة للأشخاص الذين يستخدمون أيديهم اليمنى».

رفعت فيوليت اليد التي تمسك بها ملعقتها، تنظر إليها بتجهّم. قالت لي أمّي: «حبيبتي، لماذا لا تذهبين وتستحمّين كي تتذوّقي أوّل وجبة تخرج من الفرن؟»

نزلتْ من على كرسيّها، ورفعت يديها كما يفعل ميكا قبل أن يدخل غرفة العمليّات.

«هل تريدين أن تجعلي الطفلة ترى كوابيس؟» أنّبتني أمّي، «بصراحة يا كينيدي، من أين تأتين بهذه الأفكار؟ هل لها علاقة بقضيّتك؟»

«قرأت إنَّ الذين يستخدمون أيديهم اليسرى يموتون صغاراً لأنَّهم أكثر عرضة للحوادث. لَمَّا كنت صغيرة، ألم تكن الراهبات يصفعن الأطفال الذين يكتبون بأيديهم اليسرى؟

أسندت أمّي يدها إلى وركها، وقالت: «مصائب قوم عند قوم فوائد، كما تعرفين. يُفترض أنَّ العُسر مبدعون أكثر من الآخرين. ألم يكن مايكل أنجلو ودافنشي وباخ عُسراً؟ وبالعودة إلى العصور الوسطى، كان المرء سيكون محظوظاً لو كان أعسر، لأنَّ معظم المحاربين يحملون السيوف بأيديهم اليمنى، ويحملون الدروع بأيديهم اليسرى، وهذا يعني أنّه بإمكان المقاتل الأعسر أن يشنَّ هجوماً مباغتاً»، ومدّت نحوي ملعقة مسطّحة، ونخزتني على الجانب الأيمن من صدري - «هكذا».

ضحكت، وسألتها: «وكيف عرفتِ ذلك؟»

فقالت: «كنت أقرأ روايات رومانسيّة، يا حبيبتي»، وأضافت، «لا تقلقي على فيوليت، فإذا أرادت، يمكنها أن تتعلّم دائماً كيف تتقن استخدام كلتا يديها. كان أبوك يجيد استخدام يده اليمنى ويده اليسرى في الكتابة واستخدام المطرقة»، ابتسمت وأضافت: «ما عدا استخدام المضرب».

فقلت لها: «أفّ، كفى». لكن، في هذه الأثناء، لم يتوقَّف عقلي عن الدوران: ماذا لو كانت أحجية العالم مكاناً لا تتمكَّنين من أن تتلاءمي فيه؟ والطريقة الوحيدة للعيش تكمن في أن تشوّهي نفسك، وتشذّبي زواياك، وتحفّي نفسك، وتعدّلي نفسك حتى تتلاءمي فيه.

لماذا لم نتمكّن من تغيير الأحجية بدلاً من ذلك؟

«ماما؟» سألتها، «هل يمكنكِ أن تبقي مع فيوليت لبضع ساعات أخرى؟»

* * *

أذكر أنَّني قرأت ذات مرَّة رواية تقول إنَّ سكَّان ألاسكا الأصليين الذين رأوا المبشّرين البيض، أوّل مرّة، اعتقدوا، في البداية، أنَّهم أشباح. ولماذا لا يظنون ذلك؟ لأنَّ البيض يتحرَّكون كالأشباح عبر الحدود. كالأشباح، يمكننا أن نكون في أيِّ مكان نريد أن نكون فيه.

قرَّرت أنّ الوقت قد حان لأشعر بالجدران المحيطة بي.

أوّل ما فعلته أنّني تركت سيّارتي أمام المنزل، ومشيت، واستقللت الحافلة إلى وسط المدينة، حيث رحت أتمشَّى، ثمَّ جلست على مقعد أنتظر حافلة أخرى، ورأيت متشرّدين يستجديان المارة، وكانا يطلبان على نحو أساسي نقوداً من الأشخاص البيض الذين يرتدون ثياباً رسمية أنيقة، أو من طلّاب الجامعة الذين يضعون في آذانهم سمَّاعات، وربّما كان واحد من بين ستة أو سبعة أشخاص يمدّ يده إلى جيبه ويعطيهما بضع قطع نقديّة. لكنَّ أحد هذين المشرَّدين كان يحصل على نقود أكثر من الآخر. كانا امرأة مسنَّة بيضاء، وشاباً أسود.

يُعدُّ حيّ هيل في نيو هافن من بين أكثر الأحياء شهرة في المدينة، ولديّ عشرات الموكّلين من هذا الحيّ، معظمهم متورّطون في بيع مخدّرات بالقرب من المساكن التي يقطنها ذوو الدخل المنخفض في شارع الكنيسة، الشارع الذي تقيم فيه أديسا، أخت روث.

بينما كنت أتجوّل في تلك الشوارع، رأيت أطفالاً يركضـون، يطـارد أحـدهم الآخـر، ومجموعة فتيات يتحدّثن اللغة الإسبانيّة، ورجالاً واقفين عند ناصية الشـارع، عاقـدين أيديهم إلى صدورهم. حرّاس صامتون. كنت الوجه الأبيض الوحيد في هذه المنطقة. لَمّا بدأ الظلام يهبط، دخلت محلَّ بقالـة. راحـت الفتـاة الجالسـة أمـام صـندوق الكاشـير تحدّق إليَّ وأنا أسير بين الممرَّات. أحسستُ بنظراتها مثل لهب نـار بـين لـوحَيْ كتفـيَّ، ولَمَّا سألتني أخيراً: «هل يمكنني أن أساعدك؟» هززت رأسي، وخرجت من المحلّ.

من المقلق أنّني لم أرَ أحداً يشبهني في هذا الحيّ. ولم يكن الأشخاص الـذين كنـت أمرُّ بهم يتواصلون معي بأعينهم. فأنا الغريبة وسطهم، الإبهام المتورّم، الشـخص الـذي لا يشبه الآخرين، وعلى الرَّغم مـن ذلـك، فقـد أصـبحت في اللحظـة عينهـا امـرأة غـير مرئيَّة.

لَمَّا وصلت إلى شارع الكنيسة الجنوبيّ، بدأت أسير حول البنايات. كنـت أعـرف أنّ العفن سيكسو بعض تلك الشقق، وستصاب بتلف هيكليّ. كانت أشبه بمدينـة أشـباح: الستائر المنسدلة بإحكام، الأهالي في بيوتهم. عنـد درج إحـدى البنايـات، رأيـت شـابّين يتبادلان نقـوداً، وسـيّدة عجـوزاً تحـاول أن تجـرَّ أسـطوانة أكسـجين عـلى الـدرج مـن فوقهما. قلت لها: «المعذرة، هل يمكنني أن أساعدك؟»

حدَّق الثلاثة إليَّ، وتسمَّروا في أماكنهم. نظـر الشـابّان إلى الأعـلى، ووضـع أحـدهما يده على حزام خصر بنطاله الجينز. خيّـل إليَّ أنّنـي رأيـت مقـبض مسـدّس يـبرز منـه. ارتخت ساقاي. قبل أن أتراجع، قالت المـرأة العجـوز بالإسـبانية: «*No hablo inglés*» (لا أتكلَّم الإنكليزية)، وصعدت الدرج بسرعة.

أردت أن أجرّب كيف تعيش روث، لفترة المساء القصيرة فقـط، لكنّـي لم أشأ أن أعرّض نفسي للخطر. لكنّ الخطـر نسـبيّ. لـدى زوجـي عمـل جيّـد، ولدينا منزل جيّد، ولا نشعر بالقلق من أنَّ شيئاً قد أقوله أو أفعلـه سـيهدّد

قدرتي على وضع الطعام على المائدة، أو تسديد فواتيري. بالنسبة إليَّ، يبدو الخطر مختلفاً: إنّه أيّ شيء يمكن أن يفصلني عن فيوليت، وعن ميكا، لكن مهما كان الوجه الذي تضعه على فزّاعتك الشخصيَّة، فإنّه سيجلب لك كوابيس. لديها القدرة على بثّ الرعب، وتجعلك تفعل أشياء لا تظنّ أنّك ستفعلها عادة، كلّ ذلك لأجل البقاء في أمان.

كان ذلك يعني بالنسبة إليَّ أنَّني أجري في ليلة يزداد فيها النفق من حولي ضيقاً كي أتأكَّد من أنَّ أحداً لا يتبعني حيث أسير. على مسافة بضع بنايات، بدأت أسير ببطء عند مفترق الطريق. لم يعد نبضي يخفق بسرعة الآن، وبرد العرق تحت إبطي. اقترب رجل في مثل عمري تقريباً، وضغط على زرّ المشاة لاجتياز الشارع، وانتظر. تتناثر على خدّيه الداكنين بثور، خريطة طريق حياته، يحمل في يده كتاباً سميكاً، لكنّي لم أستطع أن أرى عنوان الكتاب.

قرَّرت أن أحاول مرّة أخرى. أومأت نحو الكتاب، وسألته: «هل هو كتاب جيّد؟ إنّي أبحث عن شيء أقرؤه».

حدَّق إلى وجهي، وانزلق بصره بعيداً عنّي. لم يردَّ.

لَمَّا أضاءت إشارة عبور الشارع، أحسست بخدَّيَّ يلتهبان. عبرنا الشارع ونحن نسير جنباً إلى جنب في صمت، ثمَّ استدار وسار في أحد الشوارع.

تساءلت إن كان ينوي الذهاب في ذلك الشارع حقّاً، أم أنّه أراد أن يضع مسافة بيننا. بدأت قدمايَ تؤلماني، وبدأ جسدي كلّه يرتجف من شدّة البرد، واعتراني شعور بهزيمة تامَّة. أدركت أنّها تجربة قصيرة، لكنّي حاولت، في الأقلّ، أن أفهم ما قالته لي روث. حاولتُ.

لَمَّا سرت إلى المستشفى، حيث يعمل ميكا، فكّرت في هذا الضمير. فكّرت في مئات السنين التي كان من الممكن أن يواجهها رجل أسود لأنّه تحدَّث إلى امرأة بيضاء. في بعض الأماكن في هذا البلد، لا يزال الأمر كذلك، وتداعيات ذلك القصاص الفوريّ. بالنسبة إليَّ، كانت النتيجة الوخيمة

لذلك الحديث العابر الشعور بالزجر، أمّا بالنسبة إليه، فقد كانت شيئاً آخر تماماً، كانت قرنين من التاريخ.

يقع مكتب ميكا في الطابق الثالث من المستشفى. لَـمَّا عبرت أبواب ذلك المستشفى شعرت أنَّني عدت إلى جوهري. فأنا أعرف نظام الرعاية الصحيَّة. أعرف كيف سأُعامل. أعرف الطقوس والاستجابات. يمكنني أن أتجاوز مكتب الاستعلامات من دون أن يسألني أحد إلى أين ذاهبة، أو لماذا أنا هنا. أستطيع أن ألوّح للموظّف في قسم ميكا وأدخل إلى مكتبه.

يُجري ميكا اليوم عمليّاته الجراحيَّة. جلست على كرسيّ طاولة مكتبه، معطفي محلول الأزرار، وقد خلعت حذائي. رحت أحدّق إلى أنموذج العين البشريَّة على طاولة مكتبه، لغز ثلاثيّ الأبعاد، في حين أخذت أفكاري تتسارع مثل إعصار، وكنت كلَّما أغمضت عينيَّ، رأيت المرأة العجوز في شارع الكنيسة تنكمش وترفض المساعدة التي عرضتها عليها، وسمعت صوت روث يقول لي إنّها أعفتني من مهمَّة الدفاع عنها.

ربّما أستحقّ ذلك، ربّما كنت على خطأ.

أمضيت شهوراً وأنا أركّز على الطريقة التي تمكّنني من تبرئة روث، لكن لو كنت صادقة حقاً، فإنّ حكم البراءة هو لأجلي، لأنّها أوّل محاكمة جريمة قتل بالنسبة إليَّ.

أمضيت شهوراً وأنا أقول لروث إنّ الدعوى الجنائيّة ليست مكاناً لإثارة مسألة العنصريّة، وإنّك لو فعلتِ ذلك فقد تخسرين القضيَّة. لكن، إذا لم تفعلي ذلك، فهناك تكاليف - لأنّك تعملين على إدامة نظام ممتلئ بالعيوب، بدلاً من السعي إلى تغييره.

هذا ما تحاول روث أن تقوله، لكنّي لم أنصت إليها. إنَّها امرأة شجاعة إلى درجة أنَّها تجازف بفقدان وظيفتها ومصدر رزقها وحريتها كي تقول الحقيقة، وأنا الكاذبة. قلت لها إنّ إثارة مسألة العرق غير مرحَّب بها في

المحكمة، مع أنّني أعلم في أعماقي أنّها موجودة، وكانت هكذا دائماً، ولأنّني أغمض عينيَّ فإنّ ذلك لا يعني أنَّها اختفت.

يقسم الشهود في المحكمة على الكتاب المقدَّس لقول الحقيقة، كلّ الحقيقة، ولا شيء سوى الحقيقة، أمّا أكاذيب الإغفال فهي مطلوبة مثل أيّ كذبة أخرى. وبغية إنهاء قضيّة روث جيفرسون من دون التصريح، صراحة، بأنَّ ما حدث ناجم عن لون بشرتها، قد يكون خسارة أكبر من الإدانة، ربّما لو كان هناك محامون يتحلّون بشجاعة أكثر منّي، فلن نخاف أن نتحدَّث عن العِرق في الأماكن التي يكون فيها التحدُّث عنه شديد الأهميّة.

لو كان هناك محامون يتحلَّون بشجاعة أكثر منّي، لما كانت هناك روث أخرى في مكان ما، تُتَّهم بحادثة أخرى ذات دوافع عنصريّة لا يريد أحد أن يعترف بأنّها حادثة ذات دوافع عنصريّة.

لو كان هناك محامون أكثر شجاعة منّي، لكان إصلاح النظام مهمّاً بأهمية تبرئة موكّلتي.

ربّما يجب أن أكون أكثر شجاعة.

اتَّهمتني روث بأنّني أريد أن أنقذها، وربّما كان ذلك تقييماً منصفاً. لكنّها ليست في حاجة إلى إنقاذ. إنّها ليست في حاجة إلى مشورتي، فمَن أنا حقاً لأنصحها وأقدّم لها المشورة، بما أنّني لم أعش الحياة التي عاشتها؟ إنّها لا تحتاج إلّا إلى فرصة لأن تتكلّم، أن يُسمع صوتها.

لست متأكّدة تماماً كم مرَّ من الوقت عندما دخل ميكا مكتبه. كان لا يزال يرتدي بدلة الجراحة التي أراها دائماً مثيرة. لَمَّا رآني أضاء وجهه، وقال: «هذه مفاجأة جميلة.»

قلت له: «كنت في الحيّ، هل يمكنك أن توصلني إلى البيت؟»

«أين سيّارتك؟»

هززت رأسي، وقلت: «إنّها قصّة طويلة».

جمع بعض الملفَّات، وألقى نظرة سريعة على كومة من الرسائل، ثمّ مدّ يده وتناول معطفه، وسألني: «هل كلّ شيء على ما يرام؟ كنتِ على مسافة مليون ميل عندما دخلت».

رفعت أنموذج العين من على طاولة مكتبه، ورحت أقلّبه في يدي، وقلت: «أشعر كما لو أنَّني أقف تحت نافذة مفتوحة أُلقي منها بطفل، وأمسكت الطفل، فمن منا لن يفعل ذلك؟ ثمّ أُلقي بطفل آخر، فأعطيت الطفل إلى شخص بجانبي، وأمسكت الطفل الثاني، ولم يتوقَّف ذلك. وبعد قليل، أصبحت هناك مجموعة كاملة من الأشخاص الذين يجيدون تمرير الأطفال من أحدهم إلى الآخر، كما أجيد الإمساك بهم، لكن لم يسأل أحد مَن الذي يلقي بالأطفال من النافذة».

«مممم»، مال ميكا برأسه، «مَن هو الطفل الذي نتحدَّث عنه؟»

«إنّه ليس طفلاً، إنّها استعارة»، قلت غاضبة، «فأنا أؤدّي عملي، لكن من يهتمّ إذا ظلَّ النظام يخلق مواقف تجعل من عملي ضرورياً؟ ألا ينبغي أن نركّز على الصورة الكبيرة، بدلاً من أن نلتقط فقط كلَّ ما يُرمى من النافذة في أيّ لحظة؟»

حدَّق ميكا إلى وجهي كما لو أنّني فقدت صوابي. خلف كتفه عُلِّق على الحائط ملصق تشريح العين البشريّة، فيها العصب البصريّ، والأخلاط المائيَّة، والملتحمة، والجسم الهدبيّ، والشبكيّة، ومشيمة العين. وتمتمت: «لأجل لقمة العيش، فإنّك تجعل الناس يبصرون».

فقال: «حسناً. نعم».

نظرت إليه مباشرة، وقلت: «هذا ما يجب أن أفعله أنا أيضاً».

لم يكن إديسون في المنزل، وسيارتي اختفت.

انتظرته، أرسلت إليه رسائل نصيّة، اتصلت بـه، صلّيت، لكنـي لم أسـمع منـه رداً. تخيّلته يهيم في الشوارع، يسمع صوتي يرنُّ في أذنيه. يتساءل عمّا إذا كانت لديـه أيضـاً القدرة على الغضب، وإن كانـت الطبيعـة أو التنشـئة أهـمّ، أو إن كـان ملعونـاً لعنـة مضاعفة.

نعم، كرهتُ ذلك الأب العنصريّ لأنّه قلَّل من شأني. نعم، كرهت المستشـفى لأنّـه وقف إلى جانبه. لا أعرف إن كان ذلك قد استنزف مـن قـدرتي عـلى رعايـة مـريض. لا أستطيع أن أقول لك للحظة إنّ ذلك لم يخطر في بالي. بـأنَّني لم أنظـر إلى ذلـك الطفـل البريء، وإنّما فكّرت في الوحش الذي سيكبر ويصبح عليه.

هل يجعلني ذلك الشرّيرة هنا؟ أو يجعلني إنساناً؟

وكينيدي. ما قلته لم يكن في عقلي وإنّما في قلبي، وأنا لسـت نادمـة عـلى أيّ كلمـة قلتها. كلّما فكّرت كيف كنت أشعر، أنا التي خرجـت مـن تلـك الغرفـة - التـي كنـت أتمتع بذلك الامتياز، لمرّة واحدة - ينتابني شعور بالدوار، كما لو أنني أطير.

لَمَّا سمعت وقع خطوات في الخارج، هرعت إلى الباب وفتحته، لكنه لم يكن ابنـي، وإنَّما أختي. كانـت أديسـا واقفـة شـابكة ذراعيهـا، «قلـت في نـفسي إنّـك سـتكونين في البيت»، قالت وهي تشقّ طريقها إلى غرفة الجلوس، «ولم أتخيَّل أنّك ستظلّين ملتصقة بقاعة المحكمة طوال الوقت».

وضـعت معطفهـا عـلى كـرسيّ المطـبخ، واسـترخت عـلى الأريكـة، ومـدَّت قـدميها فأسندتهما إلى الطرابيزة. سألتها: «هل رأيتِ إديسون؟ هل هو مع تباري؟»

هزّت رأسها، وقالت: «تباري في البيت».

«إنّي قلقة...»

«على إديسون؟»

«من بين أشياء أخرى».

ربَّتت أديسا على الأريكة إلى جانبها. جلستُ. مدَّت يدها ووضعتها على يدي وضغطت عليها، وقالت: «إديسون فتى ذكيّ. سينتهي به الأمر واقفاً على قدميه».

ابتلعتُ ريقي وقلت لها: «هل يمكنك أن تعتني به لأجلي؟ تأكّدي أنّه لن يستسلم أبداً».

«إن كنتِ تكتبين وصيّتك، فقد أحببت دائماً حذاءك الجلديّ الأسود»، هزّت رأسها، وأضافت، «روث، استرخي قليلاً».

«لا يمكنني أن أسترخي. لا أستطيع أن أجلس هنا وأفكّر في أنَّ ابني سيتخلّى عن مستقبله كلّه وأنا السبب في ذلك».

نظرت في عينيَّ، وقالت: «إذاً، أنت هنا فقط لتراقبيه».

لكنّنا نعرف أنَّ ذلك ليس بيدي. سرعان ما انحنيت عند خصري، واعتصرتني حقيقة قاسية ومخيفة حتّى إنّني لم أعد أستطيع أن أتنفَّس: لقد فقدت السيطرة على مستقبلي. إنَّه خطئي اللعين.

لم ألعب بحسب القواعد. فعلت ما قالت كينيدي ألّا أفعله، والآن أدفع ثمن استخدام صوتي.

لفَّت أديسا ذراعها حولي وضغطت وجهي على كتفها. لم أدرك أنَّني أبكي. قلت لها وأنا أشهق: «إنّي خائفة».

«أعرف. لكنّي معك دائماً. سأخبز لك قالب كيك داخله ملفّ».

أضحكتني، وقلت: «لا، لا تفعلي ذلك».

فقالت مستدركة: «صحيح، فأنا لا أعرف كيف أخبز أيَّ شيء». ثمّ دفعت الأريكة فجأة ومدَّت يدها إلى جيب معطفها، وقالت: «أظنّ أنَّ عليك أن تأخذي هذا».

عرفته من رائحته - رائحة عطر خفيفة ممزوجة برائحة صابون غسيل - ما الذي تعطيني إيّاه. ألقت أديسا الوشاح الذي يجلب الحظّ، والذي كانت أمّي تحتفظ به، في حضني، وانفتح مثل وردة، وقالت: «خذيه. بحثت عنه في كلّ مكان».

«نعم، لأنَّني ظننت إمّا أنّك أخذتِه لنفسك وإمَّا أنّك وضعتِه في التابوت مع ماما لأنّها لم تعد في حاجة إلى الحظّ، لكنَّ اللـه أعلم كم أنَّني في حاجة إليه».

هزَّت أديسا كتفيها، وقالت: «نعم».

عادت وجلست إلى جانبي. كانت قد طلت أظافرها هذا الأسبوع بلون أصفر برَّاق. أمّا أظافري فقد قُضمت حتّى اللحم. أخذتُ الوشاح ولففته حول رقبتي، ودسست أطرافه كما كنت أفعل مع إديسون، واسترخت يداها على كتفي، وقالت، كما لو كنت أتهيّأ لأخرج إلى مواجهة عاصفة.

عاد إديسون بعد منتصف الليل، هائجاً، مضطرباً، ملابسه مبلَّلة بالعرق. سألته: «أين كنت؟»

«كنت أركض». لكن مَن يركض وهو يحمل حقيبة ظهر على ظهره؟

«يجب أن نتحدّث».

فقال لي: «لا يوجد لديَّ شيء أقوله لك»، وأغلق باب غرفة نومه.

أعرف أنّه لا بدَّ يشعر بالاشمئزاز ممَّا رآه فيَّ اليوم: غضبي، واعترافي بأنّني كذبت. سرت إلى باب غرفته، وضغطت بيدي على لوح الخشب المضغوط، وكوّرت يدي لأقرع باب غرفته لنتحدّث، لكنّي لم أستطع، فلم يبقَ شيء داخلي.

لم أكن قد رتَّبت سريري، فنمت نوماً متقطعاً على الأريكة. حلمتُ بجنازة أمّي مرّة أخرى. هذه المرّة، تجلس إلى جانبي في الكنيسة، ونحن الوحيدتان فيها، ويقبع على المذبح تابوت. إنّه شيء مخجل، أليس كذلك؟ قالت أمّي.

نظرتُ إليها، ثمّ نظرتُ إلى التابوت. لم أستطع أن أرى شيئاً فوق الشفة. نهضت بتثاقل، لكنّي أدركت أنَّهما راسختان في أرضيّة الكنيسة، وقد نمت أوراق الكرمة حول الكاحلين وبين شقوق الألواح الخشبية في الأرض. حاولت أن أتحرّك، لكنّي كنتُ مقيّدة.

انتعلتُ حذائي بصعوبة، واستطعتُ أن أنظر إلى حافة التابوت المفتوح لأتمكّن من رؤية الشخص المسجّى فيه.

من العنق إلى الأسفل، كان هيكلاً عظميّاً، وقد ذاب اللحم عن العظام.

ومن الرقبة إلى الأعلى، وجهي.

لَمَّا استيقظتُ، كان قلبي يخفق بقوَّة، لكنّي سرعان ما أدركت أنَّ الضربات منبعثة من مكان آخر. إنَّها رؤيا سابقة، قلت في نفسي، واتَّجهت نحو الباب، أرتجف من قوَّة الطرْقات. قفزت وأمسكت المقبض، ولَمَّا فعلت ذلك، طار الباب من مفصّلاته، وكدت أقع على الأرض، لكنَّ رجال الشرطة أغرقوا بيتي، ودفعوني بعيداً عن طريقهم. أفرغوا الأدراج وقلبوا الكراسي. «إديسون جيفرسون؟» صاح أحدهم، فخرج ابني، نعساً أشعثَ.

أمسكوه على الفور، وقيّدوا يديه، وجرّوه نحو الباب. ثمَّ قال الشرطيّ: «إنَّك معتقل بسبب جريمة كراهية من الدرجة جيم».

«ماذا؟»

«إديسون»، صحتُ، «انتظر. لا بدَّ أنَّ هناك خطأ».

خرج ضابط آخر من غرفة نوم إديسون يحمل حقيبته الظهريَّة، مفتوحة، في يد، وعلبة رذاذ طلاء أحمر في اليد الأخرى. وقال: «بينغو».

التفت إديسون نحوي بقدر ما يستطيع، وقال: «أنـا آسـف يـا أمّـي، كـان عـليَّ أن أفعل ذلك»، ودُفع خارج الباب.

«لديك الحـقّ في التـزام الصـمت...» سـمعتُ، وبالسرعـة التـي دخـل فيهـا رجـال الشرطة، ذهبوا.

شلَّني السكون، وراح يضغط على صـدغي، عـلى حلقـي. إنّي أختنـق، إنّي محطَّمـة. تمكَّنت من أن أمدَّ يدي فوق الطاولة الصغيرة، وإلى هاتفي الخلويّ الذي كـان يُشـحن ساعتها. سحبته من القابس في الحائط، واتّصلت، مع أنَّ الوقـت كـان منتصـف الليـل. «أنا في حاجة إلى مساعدتك».

كان صوت كينيدي ثابتاً وقوياً، كما لو أنَّها تتوقّعني. وسألتني: «ما المشكلة؟»

كينيدي

لَمَّا رنَّ هاتفي الخلوي، بعد الساعة الثانية صباحاً، ورأيت اسم روث على الشاشة الصغيرة، استيقظت على الفور. اعتدل ميكا في جلسته، متيقّظاً كما يفعل الأطبَّاء عادة، وهززت رأسي نحوه. إنَّها لي.

بعد خمس عشرة دقيقة، وصلت إلى مركز شرطة إيست إند. توجَّهت نحو مكتب السرجنت كما لو كان لي كلّ الحقّ في أن أكون هناك، وسألته: «هل أحضرتم فتى اسمه إديسون جيفرسون؟ ما تهمته؟»

«مَن أنتِ؟»

«محامية الأسرة».

التي أُعفيت من مهمتها منذ ساعات، قلت لنفسي. ضيَّق الضابط عينيه، وقال: «لم يقل الفتى شيئاً عن أنَّ لديه محامياً».

فقلت له: «إنّه في السابعة عشرة من عمره. ربّما كان مرعوباً، حتَّى إنَّه لم يتذكَّر اسمه. انظر، لا داعي لأن نزيد الأمر صعوبة، حسناً؟»

«رأيناه عبر الكاميرات الأمنيَّة في المستشفى يبخُّ على الجدران».

إديسون؟ تخريب ممتلكات عامّة؟ «هل أنت متأكّد أنَّكم قبضتم على الفتى الصحيح؟ إنَّه طالب متفوّق، سيلتحق بالجامعة!».

«تمكَّن حرَّاس الأمن من تعرُّف هويّته. وتابعناه وهو يقود سيّارة عليها لوحات قديمة مسجّلة باسم روث جيفرسون حتّى باب منزله».

أوه. اللعنة.

«كان يرسم شارة الصليب المعقوف، ويكتب تحتها «الموت للزنوج».

«ماذا؟» قلت مذهولة.

هذا لا يعني أنَّه تخريب ممتلكات عامَّة فقط، وإنّما جريمة بثّ كراهية. لكن، هل لكلّ ما فعلته أيّ معنى؟ فتحت محفظتي، ونظرتُ كم يتوافر لديَّ من نقود. «حسناً، استمع. هل يمكنك أن توجّه اتّهاماً خاصّاً؟ سأدفع مقابل مجيء القاضي كي يتمكّن من الخروج من هنا الليلة».

أُخذت إلى الزنزانة التي يقبع فيها إديسون. كان جالساً على الأرض، مولياً ظهره إلى الحائط، وركبتاه مرفوعتان حتّى ذقنه، وآثار الدموع بادية على خدّيه. ما إن رآني، نهض واقفاً وسار نحو القضبان. سألته: «بمَ كنت تفكّر؟»

مسح أنفه بكمّه، وقال: «أردت أن أساعد أمّي».

«هل إلقاء مؤخّرتك في السجن سيساعد أمَّك الآن؟»

«أردت أن أوقع تورك باور في ورطة. لولاه لما حدث لنا شيء من كلّ هذا. وبعد اليوم، سيلومها الجميع في حين يجب أن يلوموه هو...» نظر إليَّ وعيناه محمرَّتان، «إنّها الضحيّة هنا. كيف لا يرى أحد ذلك؟»

«سأساعدك»، قلت له، «لكن ما نتحدَّث عنه الآن معلومات مهمَّة، وهذا يعني أنّك يجب ألّا تقول أيّ شيء عنها لأمّك. أظنّ أنّ روث ستفقد صوابها عندما تقرأ الصفحة الأولى من الجريدة اللعينة. هذا كثير: تمَّ القبض على ابن الممرضة القاتلة بتهمة جريمة بثّ الكراهية. وبحقّ الله، لا تقل كلمة واحدة أمام القاضي».

بعد خمس عشرة دقيقة، جاء القاضي إلى الزنزانة. إنّ التهم الخاصّة تشبه الخدع السحريّة. إذ يمكن ثني كلّ أنواع القواعد عندما تكون مستعدّاً لدفع مبلغ أكبر. فهناك الضابط الذي يعمل بمنزلة مدّعٍ عامّ وأنا وإديسون والقاضي، مقابل مبلغ من المال. تُليت تهمة إديسون، وحقوقه القانونيّة. سأل القاضي: «ما الذي يجري هنا؟»

قفـزتُ وقلـت: «حضرة القـاضي، هـذا ظـرف فريـد في نوعـه، حادثـة منعزلـة. إنَّ إديسون رياضيّ جامعيّ وطالب شرف لم يتعرَّض لأيّ مشـكلة قبـل الآن، وأمّـه تُحـاكم حالياً بتهمة القتل بسبب الإهمال، وهو محـبط. إنّ العواطـف جيَّاشـة لديـه، وكانـت هذه محاولة مضلّلة جداً ليدعم أمَّه».

نظر القاضي إلى إديسون، وقال: «هل هذا صحيح أيُّها الشابّ؟»

نظر إديسون إليَّ، غير متأكّد إن كان عليه أن يجيب أو لا. لَـمَّا أومـأت لـه بـرأسي، قال بصوت خفيض: «نعم يا سيّدي».

فقال القاضي: «إديسون جيفرسون. إنّـك مـتَّهم بارتكـاب جريمـة كراهيـة بـدوافع عنصريّة. هذه جناية، وستوجّه إليك التهمة يوم الاثنـين. لسـتَ مضـطرّاً إلى أن تجيـب عن أيِّ سؤال، ولك الحقّ في الاستعانة بمحـام. وإذا لم يكـن في مقـدورك تحمّـل تكلفـة المحامي، فسيُعيَّن لك محام عامّ. أرى أنّ السيدة مـاكواري تـدافع عنـك الآن، وسـتحال القضيّة إلى مكتب المحامي العـامّ رسـمياً في المحكمـة العليـا. لا يمكنـك مغـادرة ولايـة كونيتيكت، ولديَّ الالتزام بإبلاغك بأنّه إذا قُبض عليك بسبب أيّ جريمة أخرى في أثنـاء البتِّ في هذه القضيّة، فقد تُسجن في سجن الولايـة»، ثـمّ نظـر إلى إديسـون، وأضـاف: «ابقَ بعيداً عن المشاكل يا فتى».

استغرق كلّ ذلك ساعة واحدة. كنّا كلانا صاحيَين تماماً عندما ركبنـا سـيّارتي لأعيـد إديسون إلى المنزل. بينما كنت أنظر إليـه في المقعـد الخلفـيّ لمعـت المـرآة الخلفيّـة في عيني. كان يحمل إحدى لُعب فيوليـت - جنيَّـة صـغيرة لهـا جناحـان ورديّـان. كانـت صغيرة في يديه الكبيرتين. قلت له بهدوء: «ماذا دهاك يا إديسون. الأشخاص من أمثـال تورك باور فظيعون. لماذا تهبط إلى ذلك المستوى؟»

«لماذا؟» سألني ملتفتاً نحوي، «تتظاهرين بأنّ ما يفعلونه ليس مهمّاً. لقد جلسـت طوال فترة المحاكمة. لم يكد الموضوع يُذكر».

«ما هو؟»

فقال: «العنصرية».

أخذتُ نَفَساً عميقاً، وقلت: «ربّما لم يُناقش الموضوع صراحةً في أثناء المحاكمة، لكنَّ تورك باور كان معروضاً في الواجهة – وثيقة بجودة متحف».

نظر إليَّ، مقوّساً أحد حاجبيه: «هل تظنّين حقّاً أنّ تورك باور هو الشخص الوحيد العنصريّ الذي كان موجوداً في قاعة المحكمة تلك؟»

توقّفنا أمام منزل روث. كان الضوء مضاءً في الداخل، انسيابياً ودافئاً. فتحت روث الباب بقوّة وخرجت ووقفت على الدرج، وشدّت كنزتها الصوف حول جسدها بإحكام. «أشكرك يا ربّي»، تمتمت، وضمّت إديسون بين ذراعيها. «ماذا جرى؟»

نظر إديسون إليَّ، وقال: «قالت لي ألّا أخبرك».

شخرت روث، وقالت: «نعم، إنّها تجيد ذلك».

«رسمتُ ببخّاخ التلوين صليباً معقوفاً على حائط المستشفى، و... أشياء أخرى».

أبعدته عنها على مسافة ذراع وانتظرت.

«كتبتُ، الموت للزنوج»، همهم إديسون.

صفعته روث على وجهه. اندفع الصبيّ إلى الخلف واضعاً يده على خدّه، ثمّ قالت: «أيُّها الأحمق، لماذا فعلت ذلك؟»

«ظننت أنّ اللوم سيوجّه إلى تورك باور. أردت أن يتوقّف الناس عن قول أشياء فظيعة عنك».

أغمضت روث عينيها للحظة كما لو أنّها تبذل جهدها لتسيطر على نفسها كأنّها تقاتل، وأضافت، «وماذا حدث الآن؟»

قلت لها: «سيمثل أمـام المحكمـة يـوم الاثنـين. مـن المحتمـل أن تكـون الصـحافة حاضرة».

«ماذا سأفعل الآن؟» سألت.

فقلت لها: «لا تفعلي شيئاً. سأعالج الأمر».

رأيتها تقاتل لقبول هذه الهديَّة، ثمَّ قالت: «حسناً».

لاحظت ذلك طوال الوقت، فقد ظلَّت في تواصل مع ابنها. حتّـى بعـد أن ضربتـه، فقد ظلّت يدها على ذراعه وعلى كتفه وظهره. لَـمَّا ابتعـدتُ بسـيّارتي، كانـا لا يـزالان واقفين أمام باب البيت، يضمّ أحدهما الآخر في حسرتهما.

لَمَّا وصلتُ إلى المنـزل، كانـت السـاعة الرابعـة صـباحاً. مـن الغبـاء أن أزحـف إلى السرير. اعتراني شعور شديد بالتوتّر، فقرّرت أن أنظّف قلـيلاً، ثـمّ أعـدّ فطـيرة للفطـور ريثما تستيقظ فيوليت وميكا. في أثناء فترة المحاكمة كان من المحتَّم أن يـزداد مكتبـي في المنزل فوضى، وتتراكم عليه الأوراق، لكنَّ قضيّة روث باتت في حكم المنتهية. دخلت على أطراف أصابعي إلى غرفـة النـوم الإضـافيَّة التـي أسـتخدمها مكتبـاً، وبـدأت أعيـد الوثائق إلى صناديقها، فجمعت الملفّات والمجلّدات والملاحظات التي كنت قـد دوّنتهـا حول الأدلَّة، في محاولة منّي لأن أجد «نقطة الصفر».

بالمصادفة البحتة، اصطدمت يدي بكومة من الأوراق المكدَّسة على طاولة المكتـب وتناثرت إلى الأرض. لَمَّا التقطتُ الصفحات التي سـقطت ونظـرت فيهـا، وجـدت أنّهـا إفادة بريتاني باور التي لم تُعرض في أثناء المحاكمـة بـالطبع، والنتـائج المستنسـخة مـن مختـبر الولايـة، الـذي حـدّد أنّ ديفـيس بـاور مصـاب باضـطراب أيضيّ. قائمـة طويلـة ومجمّعة من الاضطرابات، معظمها مفهوم على نحـو طبيعـيّ، مـا عـدا السـطر الـذي يصف بدقّة هذا الاضطراب الأيضيّ.

ألقيت نظرة على الجزء المتبقّي من القائمة التي لم أولِها اهتماماً من قبل لأنّني أمسكت بالخاتم النحاسيّ وركضت به؛ فقد كان ديفيس باور يبدو رضيعاً عادياً من جميع النواحي الأخرى، وكانت نتائج فحصه عاديّة، لكن لَـمَّا قلبت الصفحة، رأيت فقرة مطبوعة على الجانب الآخر من نتيجة الاختبار أيضاً.

في بحر العبارات المألوفة تلك، عادت عبارة «غير طبيعيّ» الواردة في أسفل قائمة النتائج المجمّعة - ربّما كانت أقلّ أهميّة، وأقلّ تهديداً؟ قارنت نتيجة الاختبار مع اختبارات المختبر التي أُدرجت في أمر الاستدعاء، قوائم عدَّة من البروتينات التي لا أستطيع أن ألفظها، ورسوم بيانيّة لقياس الطيف لم أعرف تفسيرها.

توقَّفت عند صفحة تشبه ألواناً متداخلة. قرأت عبارة الرَّحَلان الكهربائيّ (*Electrophoresis*)، ثمَّ قرأت، اعتلال هيموغلوبيني (*Hemoglobinopathy*)، وفي أسفل الصفحة، النتيجة: *HbAS/heterozygous*.

جلستُ أمام شاشة الكمبيوتر، وأدخلتُ النتيجة في غوغل. إذا كان هذا خطأً طبيّاً آخر أصاب ديفيس باور، يمكنني أن أعرضه على المحكمة الآن. يمكنني أن أطالب بمحاكمة جديدة بسبب ظهور الأدلَّة الجديدة.

يمكنني أن أبدأ من جديد بهيئة محلَّفين جديدة.

لَمَّا قرأت: حالة ناقل حميدة بصورة عامة، تراجعت آمالي. إنَّه سبب محتمل آخر لوفاة طبيعيَّة.

يجب فحص/استشارة الأسرة.

أدرج الهيموغلوبين بترتيب الهيموغلوبين الموجود (F>A>S). FA = normal. FAS = حامل سمة الخلايا المنجلية الحاملة. FSA = الثلاسيميا المنجلية بيتا زائد.

ثمَّ تذكّرت شيئاً كان قد قاله إيفان.

جلست على الأرض، وتناولت كومة الإفادات، ورحت أقرأ.

مع أنَّ الساعة كانت الرابعة والنصف صباحاً، أمسكت هاتفي ورحت أبحث في سجلّ المكالمات الواردة حتّى وجدت المكالمة التي أبحث عنها. «أنا كينيدي ماكوري»، قلتُ، أجاب والاس ميرسي، صوته ممتلئ بالأحلام، «وأنا في حاجة إليك».

في صباح يوم الاثنين، كان درج المحكمة يعجُّ بالكاميرات والمراسلين، وقد جاء كثير منهم من خارج الولاية، الذين سمعوا بقصَّة الفتى الأسود الذي كتب العبارة العنصريّة ضدّ جنسه، وهو ابن ممرّضة تجري محاكمتها حالياً بتهمة قتل ابن شخص عنصريّ أبيض. ومع أنّني كنت قد حضّرت أغنية ورقصة لهوارد في حال عدم السماح بإسقاط القضيّة، صدمني القاضي ثاندر مرّة أخرى بموافقته على تأجيل المرافعات الختاميّة حتّى الساعة العاشرة صباحاً، الأمر الذي مكّنني من أن أكون محامية إديسون قبل أن أعود وأصبح محامية روث - حتّى لو أُعفيت من الدفاع عنها رسميّاً. تبعتنا الكاميرات في الردهة، مع أنّني حميت روث بذراعي، وطلبت من هاورد أن يحمي إديسون. استغرق توجيه التهمة أقلّ من خمس دقائق، وأُطلق سراح إديسون بناءً على اعتراف شخصيّ وحُدّد موعد لعقد اجتماع ما قبل المحاكمة، ثمّ تحاشينا جموع الصحافيين في طريق عودتنا إلى قاعة المحكمة.

شعرت بسعادة كبيرة عندما لم يسمح القاضي ثاندر بدخول الكاميرات أو الصحافة إلى قاعة المحكمة.

دخلنا قاعة المحكمة، وسرنا نحو طاولة الدفاع، وانسلَّ إديسون بهدوء إلى الصفّ الخلفيّ. لكن، ما إن جلسنا في أماكننا، نظرت إليَّ روث عابسة، وقالت: «ماذا تفعلين؟»

رفَّت عيني، وقلت: «ماذا؟»

فأجابت: «لمجرّد أنّك تمثّلين إديسون لا يعني أنَّ شيئاً قد تغيَّر».

قبل أن أتمكّن من الردّ عليها، كان القاضي قد جلس إلى المنصَّة. نقَّل نظره منّي – وأنا وسط حديث متوتّر مع موكّلتي - إلى أوديت، إلى القاعة كلّها، وسأل: «هل الأطراف مستعدَّة لمتابعة القضيَّة؟»

«حضرة القاضي؟» قالت روث، «أودُّ أن أُعفيَ محاميتي».

كنت متأكّدة أنَّ القاضي ثاندر لم يخطر له أن يسمع شيئاً كهذا حتّى هذه اللحظة، وقال: «السيّدة جيفرسون؟ لماذا بحقّ السماء تريدين إعفاء محاميتك عندما انتهى الدفاع وحان الوقت لإصدار الحكم؟ كلّ ما تبقّى هو المرافعة الختاميّة».

تحرّك فكُّ روث، وقالت: «إنّه أمر شخصيّ يا حضرة القاضي».

فقال لها: «أُوصي بقوة ألّا تفعلي ذلك يا سيّدة جيفرسون، فهي تعرف القضيّة جيّداً، وبعكس كلّ التوقّعات، كانت مستعدّة لها تماماً. لقد وضعت أفضل مصلحتك في الحسبان. إنَّ وظيفتي تتمثّل في إدارة هذه المحكمة، والحرص على ألّا تتأخّر أكثر من ذلك. وقد سمع أعضاء هيئة المحلّفين كلَّ الأدلَّة، ولا يوجد لدينا وقت لننقل القضيّة إلى محام آخر، وأنت لست مؤهَّلة لأن تمثّلي نفسك»، ثمَّ التفتَ إليَّ، وقال، على نحو لا يصدّق، «سأمنحك فترة استراحة أخرى لمدّة نصف ساعة يا سيّدة ماكوري كي تتمكَّني أنت وموكّلتك من التوافق معاً».

طلبتُ إلى هوارد أن يبقى مع إديسون كي لا يقترب منه الصحافيّون، وكي نصل إلى الغرفة التي نجتمع فيها عادة، يجب أن نمرَّ من أمام الصحافيين أيضاً، فأخرجتُ روث من المدخل الخلفيّ إلى دورة مياه السيدات. «آسفة»، قلت لامرأة تتبعنا، وأغلقت الباب وراءنا. انحنت روث إلى حوض المغسلة، وثنت ذراعيها.

قلت لها: «أعرف أنّك تظنّين أنَّ شيئاً لم يتغيَّر، وربَّما لم يتغيَّر بالنسبة إليك، أمَّا بالنسبة إليَّ فقد تغيَّر. إنّي أسمعك بصوت عالٍ وواضح. قد لا أستحقّ ذلك، لكنّي أتوسَّل إليك أن تعطيني فرصة أخيرة».

«لماذا يجب عليَّ ذلك؟» سألتني روث بتحدٍّ.

«لأنّني قلت لك ذات يوم إنّني لا أرى اللون... أمّا الآن فإنّه كلّ ما أراه». بدأت تسير نحو الباب، وقالت: «لست في حاجة إلى شفقتك».

«الحقّ معك»، قلت موافقة، «إنّك تحتاجين إلى الإنصاف».

توقَّفت روث وهي لا تزال تشيح بوجهها عنّي، وقالت مصحِّحة، «تقصدين المساواة».

«لا، أعني الإنصاف. المساواة هي معاملة الجميع على قدم المساواة، أمّا الإنصاف فهو أخذ الفروق بين الناس في الحسبان، كي تتاح لكلّ شخص الفرصة للنجاح». نظرت إليها، وتابعت: «تبدو الأولى نزيهة، والثانية نزيهة. من المساواة أن تقدّمي ورقة اختبار مطبوعة لطفلين، لكن إذا كان أحدهما أعمى والآخر مبصراً، فهذا لا يعدُّ مساواة. يجب أن تُجري لأحدهما اختبار برايل، وللآخر اختباراً على ورقة مطبوعة عن الموضوع نفسه. كنت أعطي طوال هذا الوقت هيئة المحلّفين ورقة اختبار مطبوعة لأنّني لم أدرك أنّهم عميان، وأنَّني كنت عمياء. أرجوك يا روث. أظنّ أنّك ستحبّين أن تسمعي ما الذي يجب أن أقوله».

ببطء، استدارت روث، وقالت موافقة: «فرصة أخيرة».

* * *

لَمَّا نهضتُ واقفة، لم أكن وحدي.

نعم، هناك قاعة محكمة في انتظار مرافعتي الختاميَّة، لكنّني محاطة بالقصص التي انتشرت عبر وسائل الإعلام، التي يجري تجاهلها وإهمالها في

المحاكم. قصص تـامير رايـس ومايكـل بـراون وتريفـون مـارتن، وقصـص إريـك غـارنر ووالتر سكوت وفريدي غراي، وساندرا بلاند وجون كروفورد الثالث. وقصص مجنّـدات أمريكيّات من أصـل أفريقـيّ أردن أن يحـافظن عـلى شـعرهنّ الطبيعـيّ، والطـلاب في إحدى المدارس في سياتل، الذين قالت لهـم المحكمـة العليـا إنّ اختيـار الطـلاب لأجـل الحفاظ على التنوّع العرقيّ غير دستوريّ. وقصص الأقليّـات في الجنـوب، الـذين تُركـوا من دون حماية فيدراليّة عندما وضعت تلـك الولايـات قـوانين تحـدُّ مـن حقـوقهم في التصـويت. وقصـص ملايـين الأمـريكيين الأفارقـة الـذين تعرَّضـوا للتمييـز في المسـكن، والتمييز في العمل، وقصّة الفتى الأسود المتشرّد في شارع تشابل، الذي لن يمتلـئ كوبـه كما سيمتلئ كوب المتشرّدة البيضاء.

التفتُّ نحو هيئة المحلَّفين، وقلـت: «مـاذا لـو أخـبرتكم، أيّهـا السـيّدات والسـادة، اليوم، أنَّ الأشخاص الموجودين هنـا، الـذين ولـدوا أيّـام الاثنـين أو الثلاثـاء أو الأربعـاء يتمتَّعون بحريّة المغادرة الآن؟ وسـيُمنحون أيضـاً معظـم الأمـاكن في سـاحات وقـوف السيّارات المركزيّة في المدينة، وأكبر المنازل. وسيحصلون على مقابلات عمل قبل الـذين ولدوا في الأيام الأخرى من الأسبوع، وستكون لهم الأولويـة في دخـول عيـادة الطبيـب، مهما بلغ عدد المرضى الذين ينتظرون دورهم. فإذا ولدت مـن يـوم الخمـيس إلى يـوم الأحد، فقد تحاول أن تدرك من سبقوك - لكن بما أنّك تتعثّر في الخلف، فـإنّ الصـحافة ستشير دائماً إلى عـدم كفاءتـك، وإذا تـذمَّرت، فإنّـك سـتُطرد لأنّـك لعبـت ورقـة عيـد الميلاد». هززت كتفيَّ، وتابعت: «يبدو ذلك سخيفاً، أليس كذلك؟ لكن، ماذا لو استمرَّ، بالإضافة إلى هذه الأنظمة التعسفيّة التي حالت دون فرصك في النجاح، الجميـعُ في أن يردّدوا على مسامعك إنّ الجميع يعاملون على قدم المساواة؟»

اتّجهت نحوهم، وتابعت: «لَمَّا بدأنا هذه القضـيَّة، أخـبرتكم إنَّ الأمـر يتعلَّق بخيار مستحيل أمام روث جيفرسون: أن تؤدّي عملها كممرّضـة، أم تتحدَّى أوامر المشرفة عليها؟ أخبرتكم أنَّ الأدلَّـة سـتُظهر أنَّ ديفـيس بـاور

يعاني من ظروف صحيّة أساسيّة أدّت إلى وفاته. وهذا صحيح، أيّها السيدات والسادة. لكن، هذه القضيَّة تتعلّق بأمور أكثر ممّا ذكرته لكم.

«من بين كلّ الأشخاص الذين تفاعلوا مع ديفيس باور في مستشفى الرحمة - ويست هافن خلال حياته القصيرة، واحدة منهم فقط تجلس في قاعة المحكمة هذه إلى منصّة الدفاع: روث جيفرسون. شخص واحد فقط اتُّهم بارتكاب جريمة: روث جيفرسون. أمضيت فترة المحاكمة كلّها وأنا أتفادى سؤالاً شديد الأهميّة: لماذا؟

ثمَّ قلت بصراحة تامّة: «لأنّ روث سوداء، هذا جعل تورك باور، وهو من العنصريين البيض، يتصرَّف بطريقة خطأ، فهو لا يستطيع أن يتحمَّل رؤية السود، أو الآسيويين، أو المثليين، أو أيّ شخص آخر لا يشبهه، ونتيجة لذلك، شرع في سلسلة من الأحداث التي أدَّت إلى أن تصبح روث كبش فداء لموت ابنه المأساويّ. لكن، ليس من المفترض أن نتحدَّث عن العِرق في نظام العدالة الجنائيَّة. يُفترض أن نتظاهر بأنّه مجرّد طبقة من الجليد فوق قالب كيك أيّ تهمة، أُحضر إلى المائدة - وليس جوهرها. يُفترض أن نكون الأوصياء القانونيين على مجتمع ما بعد العنصريَّة. لكنَّكم تعرفون أنّه توجد لكلمة الجهل أهميّة أكبر في جوهرها: التجاهل. ولا أظنّ أنَّ من الصواب تجاهل الحقيقة بعد الآن».

نظرت مباشرة إلى المحلَّفة رقم 12، المعلّمة، وقلت: «أرجو أن تُنهي هذه الجملة، أنا...؟» توقّفت عند الفراغ، ثمّ أضفت، «قد تجيبين: خجولة، شقراء، ودود، عصبية، ذكيّة، إيرلنديّة، لكنّ معظمكم لن يقول أنا أبيض البشرة. ولم لا؟ لأنّه أمر مسلَّم به. إنّها هويّة تُعدُّ بديهيّة. إنّ الذين كانوا محظوظين منّا لأنّهم ولدوا ببشرة بيضاء لا يدركون هذا الحظّ السعيد. كلّنا لا ننتبه إلى أشياء كثيرة. لعلّك لم تقل شكراً لأنك استحممت هذا الصباح، أو لأنّك نمت الليلة الماضية وفوق رأسك سقف، أو لأنّك تناولت

الفطور وارتديت ملابس داخليّة نظيفة، لأنَّ كلَّ هذه الامتيازات غير المرئيّة قد تمـرّ ولا نعيرها اهتماماً.

«بالتأكيد، تسهل كثيراً رؤية رياح العنصريّة المعاكسـة، والسـبل التـي يجـري فيهـا التمييز ضدّ الملوّنين. نراها الآن عندما يطلق رجال الشرطة النار على رجل أسود عرضاً، وتتعرَّض فتاة ذات بشرة بنيّة للتنمُّر من قبل زميلاتها في الفصل لأنّها ترتدي الحجـاب. ويصعب قليلاً أن نرى - وأن نتحمّل - الرياح المواتية للعنصريّة، والطرائق التي استفاد بها الذين ليسوا من أصحاب البشرة الملوّنة فقط لأنّ بشرتنا بيضـاء. يمكننـا أن نـذهب إلى السينما ونحن متيقنون من أنَّ معظم الشخصيّات الرئيسة ستشبهنا، قد نتأخّر عـن اجتماع ولا نلقي اللوم لتأخّرنا على عرقنا. يمكنني أن أذهب إلى غرفـة مكتـب القـاضي ثاندر وأقدّم اعتراضاً ولا يقال لي إنّني ألعب ورقة العِرق». توقَّفتُ قلـيلاً، ثـمّ أضـفت: «معظمنا لا يعود إلى المنزل من العمـل ويقـول: الحمـد لله لم يـوقفني أحـد ليفتّشـني اليوم. معظمنا قال لنفسه لقـد التحقـت بالكليّـة التـي اخترتهـا لأنّ النظـام التعليمـيّ يعمل في مصلحتي. إنّنا لا نفكّر في هذه الأشياء، لأنّنا لسنا مضطرّين إلى التفكير فيها».

بدأ يظهر تململ بين المحلَّفين، وأخذوا يتحرَّكون في مقاعـدهم، ورأيـت مـن طـرف عيني القاضي ثاندر يحدِّق، مع أنّ المرافعة الختاميّـة مـن حقّـي فقـط، ومـن الناحيـة النظريّة، إذا أردت أن اقرأ رواية (آمال عظيمة) بصوت عـالٍ، لكـان بإمكـاني أن أفعـل ذلك.

«أعرف أنّكم تقولون لأنفسكم: أنا لست عنصريّاً. لماذا، حتّى إنّه يوجد لدينا مثال عمّا نفكّر في كيف تبـدو العنصريّـة الحقيقيّـة، في شـكل تـورك باور. أشكّ في أنّه يوجد عدد منكم في هيئة المحلّفين يؤمنون، مثـل تـورك، بأنّ أطفالكم محاربون آريّون أو أنّ السود أناس أقلّ شأناً بكثير إلى درجـة أنّه يجب ألّا يلمسوا طفلاً أبيض. لكن، حتّى لو أخذنا كلَّ متعصّب أبـيض عـلى هـذا الكوكـب وشـحنّاهم إلى المـريخ، فسـتظلّ هنـاك عنصريّـة. لأنّ

العنصريّة لا تتعلّق بالكراهية فقط. لدينا جميعاً تحيّزات، حتّى لو كنّا نعتقد بأنّه لا توجد لدينا، لأنّ العنصرية ترتبط أيضاً بمن يمتلك القوة... ومن يمكنه الحصول عليها.

«لَمَّا بدأت العمل في هذه القضيّة، سيّداتي وسادتي، لم أكن أرى نفسي عنصريّة، أمّا الآن، فقد أدركت أنّني كذلك، لا لأنّني أكره الناس الذين ينتمون إلى أعراق مختلفة، وإنّما لأنّني - عن قصد أو عن غير قصد - حصلت على جرعة تقوية بسبب لون بشرتي، تماماً كما تعرَّضت روث جيفرسون إلى مشكلة بسبب لون بشرتها».

كانت أوديت جالسة ورأسها محنيّ فوق طاولة النيابة العامّة. لم أعرف إن كانت مسرورة لأنّني أصنع نعشي من كلمات أم أنّها مذهولة لأنّني أمتلك الشجاعة لإثارة عداء هيئة المحلّفين في هذه المرحلة المتأخّرة من اللعبة. ثمّ مضيت أقول: «يوجد فرق بين العنصريّة الإيجابيّة والعنصريّة السلبيّة، كما لو أنّك تسير فوق ممرّ متحرّك في المطار. فإذا مشيت عليه، فإنّك ستصل إلى الطرف الآخر بأسرع ممّا لو كنت واقفاً في مكانك لا تتحرّك، لكنّك ستصل في النهاية إلى المكان نفسه. إنّ العنصريّة الإيجابيّة هي وجود وشم صليب معقوف على فروة رأسك. إنّ العنصريّة الإيجابيَّة هي أن تقول للممرّضة المشرفة إنّه لا يمكن لممرّضة أمريكيّة من أصل أفريقيّ أن تلمس طفلك. إنّها ضحكة مكتومة على نكتة سوداء. لكن، ما هي العنصريّة السلبيّة؟ إنّها أن تلاحظ أنَّ هناك شخصاً ملوّناً في مكتبك ولا تسأل مديرك عن السبب. إنّها أن تقرأ منهاج الصفّ الرابع لطفلك وترى أنّ التاريخ الأسود الوحيد الذي يُحكى عنه هو العبوديّة، وليس التساؤل لماذا؟ إنّها أن تدافع عن امرأة في المحكمة اتّهمت بسبب عرقها... وتمويه هذه الحقيقة، كما لو أنَّها ليست مهمَّة.

«أراهن أنّكم تشعرون بعدم الارتياح الآن. كما تعرفون، وأنا كذلك. فمن الصعب التحدّث عن هذه الأشياء من دون الإساءة إلى أشخاص. لذلك، ليس

من المفترض أن يقول محامون مثلي هـذه الأشـياء إلى هيئـة محلّفـين مـثلكم، لكـن في أعماقكم، إذا سألتم أنفسكم لماذا تُجرى هذه المحاكمة، فإنّكم تعلمون أنّهـا أكـثر مـن مجرّد إن كان لروث علاقة بوفاة أحد مرضاها. في الواقع، لها علاقة ضعيفة بروث. إنّها تتعلّق بالأنظمة السارية منـذ نحـو أربعمئـة سـنة، أنظمـة تهـدف إلى التأكّـد مـن أنّ شخصاً مثل تورك يستطيع أن يطلب طلباً شنيعاً كمريض ويُمنح الموافقة على طلبه. إنّ هذه الأنظمة تهدف إلى التأكّد من بقاء أشخاص مثل روث في مكانهم».

استدرتُ إلى هيئة المحلَّفين، وقلت: «إذا كنتم لا تريدون أن تفكّروا في هذا، فلـيس عليكم أن تفعلوا ذلك، ويمكنكم تبرئة روث. لقد قدّمت لكـم أدلّـة طبيّـة كافيـة تثـير شكوكاً كثيرة حول سبب وفاة هذا الطفل. لقد سمعتم الطبيب الشرعـيّ نفسـه يقـول إنّه لو عادت نتائج فحص الطفل في الوقت المناسب فربّما كان ديفيس باور حيّاً يـرزق الآن. نعم، وسمعتم أيضاً أنّ روث قد غضبت وهي على المنصّـة - لأنّـه عنـدما تنتظـر أربعاً وأربعين سنة لتحصل على فرصة للتحدّث، فإنّ الأشياء لا تأتي دائماً كما تريد. لقد أرادت روث جيفرسون أن تحصل على فرصة لتؤدّي عملها كما يجب، أن تعتنـي بهـذا الرضيع على النحو الذي تدرَّبت عليه».

استدرتُ أخيراً نحو روث. كانت تتنفَّس بعمق، وشعرت بذلك في صدري، «ماذا لـو كان الأشخاص الـذين ولـدوا يـوم الاثنـين أو الثلاثـاء أو الأربعـاء لا يخضـعون لتـدقيق ائتمانيّ واسع عندما يتقدّمون بطلب للحصول على قروض؟ ماذا لـو كـان بإمكـانهم أن يشتروا احتياجاتهم من دون أن يخشوا أن يتبعهم رجل الأمن؟» صمتُّ قليلاً، ثمّ قلت: «ماذا لو عادت نتـائج اختبـار فحـص الطفـل إلى طبيبـة الأطفـال في الوقـت المناسـب وأُجري له تدخّل طبيّ مناسب حال دون وفاته؟ فجأة، لن يبدو هذا النوع من التمييز التعسفيّ سخيفاً إلى هذه الدرجة، أليس كذلك؟»

بعد كلِّ هذا.

بعـد شـهور مـن الترديـد عـلى مسـمعيَّ بضرورة عـدم إثـارة موضـوع العِـرق في المحكمة، نقلت كينيـدي مـاكواري الفيـل إلى قاعـة المحكمـة وعرضـته أمـام القـاضي، وضغطته في مقصورة هيئة المحلَّفين، حتّى شعر هؤلاء الرجال والنساء بألم ذلك.

رحت أحدّق إلى هيئة المحلَّفين الذين كـانوا غـارقين في التفكـير وقـد خـيَّم علـيهم صمت مطبق. جاءت كينيدي وجلست إلى جانبي، ولم أفعل شـيئاً سـوى أنّنـي نظـرت إليها. كانت حنجرتي تعمل وأنا أحاول أن أضع مـا يخـتلج في نـفسي في كلـمات. إنّ مـا قالته كينيدي لكلّ هؤلاء الغرباء، هـو قصّـة حيـاتي، الخطـوط العريضـة التـي عشـت داخلها. لكن، كان بإمكاني أن أصرخ بهـا مـن فـوق أسـطح المنـازل، ولم تكـن سـتُجدي نفعاً. وكي يستمع إليها المحلّفون، يستمعون إليها حقّاً، يجب على أحدهم أن يقولها.

التفتت إليَّ قبل أن أفتح فمي وقالت: «شكراً»، كما لو أنَّني أنا التـي أسـدت إليهـا معروفاً.

لنفكّر في الأمر، ربّما كنت أنا التي أسديت إليها معروفاً.

تنحنح القاضي، ولَمَّا رفعنا أعيننا إليه، رأيناه يحدّق. نهضت أوديت لوتون ووقفت في المكان الذي أخلته كينيدي منـذ قليـل. لففـتُ وشـاح أمّـي الـذي يجلب الحظّ حول رقبتـي عنـدما بـدأت تـتكلَّم. «كـما تعلمـون، أنـا معجبـة بالسيدة ماكواري وصيحتها الحماسيّة لتحقيق العدالة الاجتماعيّة، لكنّنا لسنا موجودين هنا اليوم لأجل ذلك. إنّنا موجودون هنـا لأنّ المـدَّعى عليهـا، روث

جيفرسون، تخلّت عن قانون مهنتها الأخلاقيّ كممرّضة مخاض وولادة، ولم تستجب على نحو كافٍ للأزمة الطبيّة التي تعرَّض لها الرضيع».

اقتربت المدّعية العامّة من هيئة المحلّفين، ومضت تقول: «ماذا قالت السيدة ماكواري... صحيح. فلدى الناس أحكام مسبقة، ويتَّخذون أحياناً قرارات لا معنى لها بالنسبة إلينا. لَمَّا كنت في المدرسة الثانويّة، عملت في ماكدونالدز».

فاجأني قولها هذا. حاولت أن أتخيّل أوديت وهي تعيّر جهاز توقيت مقلاة البطاطا المقليّة، لكنّني لم أستطع.

«كنت الفتاة السوداء الوحيدة التي تعمل هناك. لَمَّا كنت أعمل «كاشيرة» أحياناً، وأرى أحد الزبن يدخل وينظر إليَّ ثمّ ينتقل ويقف في طابور صندوق «كاشير» آخر ليقدّم طلبه، كيف كان ذلك يجعلني أشعر؟» هزَّت كتفيها، «لم يكن شعوراً عظيماً. لكن، هل بصقتُ في طعامهم؟ لا. هل أسقطت قطعة البرغر على الأرض ثمّ وضعتها في السندويشة؟ لا، كنت أقوم بعملي فقط. كنت أفعل ما كان يفترض بي أن أفعله.

دعونا ننظر الآن إلى روث جيفرسون، أليس كذلك؟ كان لديها زبون اختار طابوراً آخر، إذا جاز التعبير، لكن هل استمرَّت تعمل ما كان من المفترض أن تعمله؟ لا. فلم تأخذ التعليمات التي أُعطيت لها بعدم رعاية ديفيس باور بحسبانه طلب مريض بسيط – وإنّما فجّرت الأمر في حادثة عنصريّة، ولم تحترم قسم نايتنغيل الذي يقضي بأن تساعد مرضاها - مهما كانوا. وإنّما، تصرَّفت بتجاهل تامّ لصالح الرضيع لأنّها كانت غاضبة، وصبّت جام غضبها على هذا الطفل المسكين».

«صحيح، سيداتي وسادتي، أنَّ تعليمات ماري مالون بإعفاء روث من دورها في رعاية ديفيس باور كان قراراً عنصريّاً، لكنَّ ماري لا تُحاكم هنا بسبب أفعالها. إنّها روث، لأنّها لم تلتزم بالعهد الذي قطعته على نفسها

كممرّضـة. صـحيح أيضـاً أنّ الكثـيرين مـنكم شـعروا بعـدم الارتيـاح إلى السـيّد بـاور ومعتقداته لأنّها متطرّفة. ففي هذا البلد، يُسمح له بالتعبير عن هذه الآراء، حتّـى لـو جعل الآخرين يشعرون بالاستياء وعدم الارتياح. أمّا إذا كنتم سـتقولون إنّكـم شـعرتم بالانزعاج من الطريقة التي يمتلئ بها تـورك بـاور بالكراهيـة، فيجـب أن تعترفـوا بـأنّ روث أيضاً ممتلئة بالكراهية. لقد سمعتموها عندما قالـت إنَّ مـن الأفضـل أن يمـوت هذا الطفل على أن يكبر ويصبح مثل أبيه. ربّما كانت تلك اللحظة الوحيدة التي كانت فيها صريحة معنا. في الأقلّ، كان تورك باور صادقاً بشأن معتقداته - بقدر ما قد تبـدو غير مستحبَّة ومستساغة، لأنَّنا نعرف أنَّ روث كاذبة. باعترافها هي نفسـها قالـت إنّهـا تدخَّلت ولمست الرضيع في غرفة الحضانة، مـع أنّهـا قالـت للمشرفـة ولإدارة المخـاطر والشرطة بأنّها لم تفعل ذلك. بدأت روث جيفرسون في إنقاذ ذلك الطفـل - ومـا الـذي جعلها تتوقَّف؟ الخوف، كي لا تفقد عملها. لقد وضعت مصلحتها الخاصَّة قبل مصلحة المريض... وهذا ما لا يجب أن يفعله أيّ عامل مهنيّ في مجال الطبّ».

صمتت المدَّعية العامَّة قليلاً، ثـمَّ تابعـت: «تسـتطيع روث جيفرسـون ومحاميتهـا تقديم عرض مسرحيّ حول نتائج المختبر، الّتي وصـلت في وقـت متـأخّر، أو عـن حالـة العلاقات العرقيّة في هذا البلد، أو أيّ شيء آخر، لكنَّ ذلك لا يغيّر حقائق هذه القضيّة، ولن يعيد ذلك الطفل إلى الحياة».

لَمَّا أعطى القاضي تعليماته لهيئة المحلَّفين، خرجوا مـن قاعـة المحكمـة، ثـمَّ غـادر القاضي ثاندر القاعة أيضاً. قفز هوارد، وقال: «لم أرَ شيئاً كهذا في حياتي».

فتمتمت كينيدي: «نعم، وقد لا تراه مرّة أخرى».

«أقصد، كان ذلك أشبه بمشاهدة توم كروز - لا يمكنك تناول الحقيقة مثل...»

فأنهت كينيدي الجملة: «مثل أن أُطلق النار على قدمي عن قصد».

وضعت يدي على ذراعها، وقلت: «أعرف أنَّ ما قلته هناك سيكلّفك».

نظرت كينيدي إليَّ، وقالت: «روث، من المرجَّح أنَّ ذلك سيكلّفك أكثر».

أوضحت لي أنَّه بما أنَّ تهمة القتل قد أُسقطت قبل أن أُدلي بشهادتي، فلم يعد لدى هيئة المحلّفين سوى النظر في تهمة القتل الناجم عن الإهمال، ومع أنّ أدلّتنا الطبيّة تثير شكوكاً معقولة، فإنّ فورة الغضب تشبه لعبة بوكر محترقة في أذهان المحلّفين، وأنه، حتّى لو لم يتّخذوا قراراً بشأن تهمة القتل العمد مع سبق الإصرار الآن، فربّما لا يزالون يشعرون بأنّني لم أهتمَّ برعاية الطفل بقدر ما أستطيع. وما إذا كان ذلك ممكناً، في ظلّ هذه الظروف، لم أعد أعرف.

تذكّرت الليلة التي أمضيتها في السجن. تخيّلت أنّها أصبحت ليالي عدَّة. أسابيع. شهوراً. تذكّرت ليزا لوت وكيف أنّ الأحاديث التي دارت بيننا ستختلف الآن تماماً عن الأحاديث التي دارت بيننا حينذاك. سأبدأ بالقول إنّني لم أعد ساذجة. لقد صنعت في بوتقة مثل الفولاذ. ومعجزة الفولاذ أنّك تستطيع أن تطرقه ويصبح رقيقاً جداً، وتشدّه إلى أقصى حدّ ممكن، لكن هذا لا يعني أنّه لن يُكسر. فقلت لكينيدي: «كان ذلك جديراً بالاستماع إليه».

ابتسمت قليلاً، وقالت: «كان الأمر جديراً بقول ذلك».

فجأة، جاءت أوديت لوتون ووقفت أمامنا. أُصبت بالذعر قليلاً، فقد قالت كينيدي أيضاً إنَّ هناك بديلاً آخر قد تلجأ إليه المدّعية العامَّة - وهي إسقاط جميع التهم الموجَّهة إليَّ، وبدء المحاكمة من جديد بهيئة محلّفين كبرى، واستخدام شهادتي لإثبات الضغينة في لحظة انفعال، وبتهمة جديدة بالقتل من الدرجة الثانية.

قالت أوديت بسرعة: «لقد أُسقطت القضيّة ضدّ إديسون جيفرسون»، وأضافت، «ظننت أنّك تريدين أن تعرفي ذلك».

سقط فكّي في فمي. من بين كلّ الأشياء التي كنت أظنّ أنّها قد تقولها، ليس ما قالته.

للمرَّة الأولى، طوال فترة هذه المحاكمة، وقفت أمامي والتقت عيناها عينيَّ. ما عدا لقائنا في دورة المياه، لم تنظر في عينيَّ مباشرة طوال الوقت عندما كنتُ جالسة إلى طاولة الدفاع، وإنّما كانت تنظر إلى جانبي أو من فوق رأسي. قالت لي كينيدي إنّ هذا هو الأسلوب المعتاد، وهم يذكّرون من خلاله المدَّعى عليهم بأنَّهم ليسوا بشراً.

وينجحون في ذلك.

«لديَّ ابنة في الخامسة عشرة من عمرها»، قالت أوديت، ثمَّ التفتت إلى كينيدي، وقالت: «مرافعة ختاميّة جميلة أيّتها المستشارة»، وابتعدت.

«وماذا الآن؟» سألتها.

أخذت كينيدي نَفَساً عميقاً، وقالت: «الآن، علينا أن ننتظر».

لكن، علينا أولاً أن نتعامل مع الصحافة. وضع هوارد وكينيدي خطّة لإخراجي من قاعة المحكمة دون أن ألتقي وسائل الإعلام. قالت موضّحة: «إذا لم نتمكّن من تجنّبها تماماً، فإنّ الإجابة الصحيحة هي أنّه لا يوجد تعليق، فنحن ننتظر قرار هيئة المحلّفين. وانتهى».

هززت لها رأسي.

«لا أظنّ أنّك فهمت يا روث. إنّهم غاضبون، وسوف يستثيرونك حتّى تنفجري ليتمكّنوا من تسجيل ذلك على شريط. في الدقائق الخمس التالية، إلى أن تغادري هذا المبنى، يجب أن تكوني عمياء صمَّاء خرساء. فهمتِ؟

قلت لها: «نعم».

بدأ قلبي يقرع مثل طبل عندما اندفعنا عبر الأبواب المزدوجة لقاعة المحكمة. على الفور، ظهرت ومضات أضواء، وأُلقيت ميكروفونات أمام

وجهي. أخذ هوارد يُبعد الصحافيين، في حين تمكَّنت كينيدي من إخراجنا من هذا السيرك: مراسلون يؤدّون ألعاباً بهلوانيَّة، يحاولون الوصول من فوق رؤوس الآخرين ليحصلوا على تصريح. مهرِّجون يؤدّون أدوارهم - أسرة باور تُجري مقابلة حماسيّة مع إحدى المحطّات الإخباريَّة المحافظة - وأنا أحاول السير بينهم على حبل مشدود دون أن أقع.

من الاتّجاه الآخر، اقترب منّا والاس ميرسي، الذي شكّل هو وأنصاره طوقاً بشريّاً، مرافقهم متشابكة معاً. وقف والاس، وإلى جانبه امرأة، وسط ذلك الطوق البشريّ. بينما وقفت أراقبهم، سارا إلى الأمام، وقادا الآخرين. كانت المرأة ترتدي بدلة صوفيَّة ورديَّة اللون، وشعرها القصير كان مصبوغاً بلون أحمر فاقع. انتصبت واقفة مثل سهم، شابكة ذراعها بقوّة بذراع والاس.

نظرت إلى كينيدي أسألها بصمت: ماذا نفعل هنا؟

لكنَّ الجواب جاء من تلقاء نفسه، إذ لم يتَّجه والاس والمرأة نحونا، وإنَّما اتَّجها نحو المكان حيث كان تورك باور لا يزال يجري حديثاً مع أحد المراسلين، وزوجته ووالد زوجته يقفان إلى جانبه.

«بريتاني»، قالت المرأة، عيناها مغرورقتان بالدموع، «يا إلهي! انظري كم أنتِ جميلة!».

اقتربت من بريتاني باور، في حين كانت الكاميرات تصوّر. لكنَّنا لسنا في محكمة القاضي ثاندر، ويمكنها أن تقول أو تفعل أيَّ شيء تريده. ثمّ رأيت يد المرأة تتَّجه نحوها كما لو كانت في حركة بطيئة، وكنت أعرف حتّى قبل أن يحدث ذلك أنَّ بريتاني باور ستدفعها بعيداً عنها، فقالت لها: «ابتعدي عنّي بحقّ الجحيم».

خطا والاس ميرسي بضع خطوات إلى الأمام، وقال: «أظنّ أنَّ هذه هي المرأة التي تريدين أن تلتقيها يا سيّدة باور».

«إنّها ليست في حاجة إلى ذلك يا والاس»، دمدمت المرأة، «فقد التقينا قبل ستّ وعشرين سنة، عندما أنجبتها. بريت، حبيبتي، ألا تذكرينني؟

تورَّد وجه بريتاني باور خجلاً، أو غضباً، أو من كليهما.

«كذَّابة. أيَّتها الكاذبة المقرفة»، واندفعت نحو المرأة المسنَّة التي سقطت على الأرض بسهولة.

تدافع الناس لإبعاد بريتاني عنها، ونهضوا بالمرأة.

ثمَّ سُمع أحدهم يصرخ: «ساعدوها. هل تصوّرون ذلك؟»

ثمَّ سمعت أحدهم يصيح: «توقَّفي». كان الصوت عميقاً وقوياً وآمراً، فتراجعت بريت.

التفتت، عيناها متوحِّشتان، تحدّق إلى أبيها، وصاحت: «هل تدع تلك الزنجيَّة تقول تلك الأشياء عنِّي؟ عنّا؟»

لكنَّ والدها لم يعد ينظر إلى ابنته. بدا شاحب الوجه وهو يحدِّق إلى المرأة الواقفة الآن مع مجموعة والاس ميرسي، ومنديل والاس يضغط على شفتها التي تنزف دماً، وقال: «مرحباً أديل».

«لم أكن أتوقَّع هذا»، همستُ، ونظرت إلى كينيدي. وهكذا أدركت أنَّها هي التي فعلت ذلك.

كانت الكاميرات تدور عندما انفجر كلُّ ذلك الجحيم. بعد دقيقة، كانت بريت وفرانسيس يقفان إلى جانبي، يستمعان إليَّ وأنا أخبر بعض الشخصيّات اليمينيّة في الإذاعة أنّنا بدأنا نظهر توّاً، ثمّ أصبح بياناً حرفيّاً. سارت امرأة سوداء في اتّجاه بريت، ولمست ذراعها. بطبيعة الحال، تراجعت بريت، ثمَّ أعلنت المرأة كذبة صارخة بأنَّ بريتاني باور، أميرة حركة القوّة البيضاء، هي في الواقع نصف سوداء.

نظرتُ إلى فرانسيس، كما كنت أنظر إليه منذ سنوات، فهو الذي علّمني كلّ ما أعرفه عن الكراهية. كنت مستعدّاً لخوض الحرب معه، وفي الواقع فعلت ذلك. خطوت إلى الخلف في انتظار أن يصدَّها فرانسيس ببلاغته الشهيرة، ويضع هذه العاهرة في حجمها كامرأة انتهازيّة تريد خمس عشرة دقيقة من الشهرة - لكنَّه لم يفعل ذلك.

ذكر اسم والدة بريتاني.

لا أعرف أشياء كثيرة عن أديل لأنّ بريت لا تعرف أيضاً. اسمها فقط، والحقيقة أنَّها خانت فرانسيس مع رجل أسود، وقد استشاط غضباً فأنذرها إمّا أن تترك الطفلة له وتختفي من حياتيهما إلى الأبد، وإمّا أن تموت وهي نائمة. بحكمة، اختارت الخيار الأول، وكان هذا كلّ ما تحتاج إليه بريت لتعرفه عنها.

لكنّي نظرت إلى شعر بريت الطويل الغامق. إنّنا نرى ما قيل لنا أن نراه.

نظرت إلى فرانسيس أيضاً.

«بابا؟»

فجأة، لم أعد أستطيع أن أتنفَّس. لم أعد أعرف من هي زوجتي. لم أعد أعـرف مـن أنا. لسنوات عدَّة، كنت أقول بسهولة إنّني سأطعن بسـكين أيّ شـخص أسـود قبـل أن أجلس معه لاحتساء القهوة، وطوال هذا الوقت، كنت أعيش مع واحدة منهنَّ.

لقد أنجبتُ طفلاً من واحدة منهنَّ.

هذا يعني أنَّ ابني كان أسود أيضاً.

أسمع طنيناً في أذني، وأشعر كما لو أنّني أسقط سقوطاً حرّاً مـن الطـائرة مـن دون مظلَّة، والأرض تندفع نحوي بسرعة.

وقفت بريتاني على قدميها، وراحت تدور في دائرة، وجهها منقـبض. لقـد حطّمـت قلبي. «حبيبتي»، قال لها فرانسيس، وانبعث من حلقها صوت خفيض عميق.

قالت: «لا، لا».

ثمَّ جرت.

كانت بريت صغيرة الحجـم وسريعـة، تسـتطيع أن تـدخل في الظـلّ وتخـرج منـه بسهولة وبسرعة، فلِمَ لا يمكنها أن تفعل ذلك؟ أقصد أنّها تعلّمـت، مـثلي، مـن أفضـل الأشخاص.

حاول فرانسيس أن يجمع أعضاء موقع *Lonewolf.org* الذين جـاؤوا إلى المحكمـة للتضامن معنا، لمساعدتنا في البحث عن بريت، لكن أصبح هنـاك جـدار يفصـل بيننـا الآن، وقد اختفى بعضهم توّاً. لا شكَّ في أنّهم سـيلغون حسـاباتهم عـلى الموقـع، إلّا إذا استطاع فرانسيس أن يفعل شيئاً ليصلح الضرر الذي وقع.

لست متأكّداً إن كنت أكترث لكلِّ ذلك، فلم أكن أريد شيئاً إلّا زوجتي.

بحثنا في كلّ مكان. لم تعد شبكتنا غير المرئيّة الواسعة موجودة. أصـبحنا وحـدنا في هذا، منعزلين تماماً.

كن حذراً فيما تتمنّاه، قلت في نفسي.

بينما كنت أقود السيّارة، أبحث في الزوايا البعيدة في هذه المدينة، استدرت ونظرت إلى فرانسيس، وقلت له: «هل تريد أن تقول لي الحقيقة؟»

فقال بهدوء: «حدث ذلك منذ زمن طويل»، وأضاف، «قبل أن أنضمَّ إلى الحركة، التقيت أديل في أحد المطاعم. قدَّمت لي فطيرة. كتبت اسمها ورقم هاتفها على الفاتورة. اتّصلت بها»، هزَّ كتفيه، «بعد ثلاثة أشهر كانت حاملاً».

«كنت أشعر بألم في معدتي عندما أفكّر في أن أنام مع واحدة منهنَّ، لكن في نهاية الأمر، فعلت ذلك».

«ليساعدني الربّ يا تورك، فقد أحببتها. لم يكن يهمّ إن كنّا نرقص حتّى منتصف الليل، أو نجلس في البيت نشاهد التلفاز – حتّى وصلتُ إلى مرحلة لم أعد أشعر فيها بالسعادة عندما لا تكون إلى جانبي. ثمَّ أنجبنا بريت، وبدأت أشعر بالخوف. بدا أنَّ الأمور بلغت درجة الكمال، لكن كما تعرف، عندما تبلغ الأمور درجة الكمال فهذا يعني أنّه لا بدَّ أن تُمنى بالإخفاق».

فرك جبينه، ومضى يقول: «كانت تذهب إلى الكنيسة يوم الأحد، الكنيسة نفسها التي كانت تذهب إليها منذ أن كانت طفلة. كنيسة يؤمّها السود، مع كلّ ذلك الغناء وترانيم الشكر - لم أستطع تحمّلها، فبدأت أذهب وأصطاد السمك، وقلت لها إنّ هذا هو مكاني المقدَّس. لكنَّ رئيس الجوقة بدأ يبدي اهتماماً بأديل، وقال لها إنّ لديها صوتَ ملاك، وبدأا يمضيان أوقات طويلة معاً، يتدرَّبان على الغناء كلّ ساعات النهار أو الليل». هزَّ رأسه، وأضاف، «لا أعرف، ربَّما أصابني مسّ من الجنون، فاتَّهمتها بأنّها تخونني. ربّما فعلت ذلك، وربّما لم تفعل. أربكتُ حياتها قليلاً، وكان ذلك خطأ منّي، أعرف ذلك. لكنّي لم أتحمّل. كانت تمزِّقني، وكان عليَّ أن أفعل شيئاً إزاء كلّ هذا الأذى. إنَّك تعرف كيف يبدو الأمر، أليس كذلك؟

هززت رأسي.

«لجأت إلى ذلك الرجل لتجد الراحة معه، وضمّها إليه. يا إلهي يا تورك! لقد أخذتها بيديَّ إليه، ثمَّ قالت إنّها تريد أن تتركني، فقلت لها إنّها إذا ذهبت فإنّها ستذهب خالية الوفاض، وإنَّني لن أدعها تأخذ ابنتي بعيداً عنّي. وقلت لها إنّها إذا حاولت، فإنّ ذلك سيكون آخر شيء تفعله في حياتها». نظر إليَّ بعينين كئيبتين وأضاف، «لم أرَها بعد ذلك».

«ولم تخبر بريت بذلك قطّ؟»

هزَّ رأسه، وقال: «ماذا سأقول لها؟ إنَّني هدَّدت أمّها بأن أقتلها؟ لا، فبدأت آخذ بريت إلى الحانات، وأتركها نائمة في مقعدها في السيّارة، وأذهب وأشرب حتّى أسكر، حيث قابلت توم ميتزجر».

«وجدت صعوبة في أن أتخيّل قائد جيش تحالف البيض وهو يتجرَّع البيرة بكميّات كبيرة، لكنَّ أشياء أكثر غرابة حدثت».

«كان مع عدد من رفاقه. رآني أركب سيّارتي، فلم يدعني أقود سيارتي وأعود إلى البيت عندما رأى بريت نائمة في المقعد الخلفيّ. قادنا إلى بيتي، وقال إنّني يجب أن أحسن التصرّف لأجل طفلتي. كنت حينذاك في حالة سكر شديد. حكيتُ له كيف أنّ أديل تركتني لأجل زنجيّ، وأظنّ أنّني لم أذكر له أنّها كانت زنجيّة أيضاً. ثمّ أعطاني توم شيئاً لأقرأه. كتيب». زمَّ فرانسيس شفتيه، وأضاف: «كانت تلك هي البداية. أن أكرههم كان أسهل من أن أكره نفسي بكثير».

غمر ضوء السيّارة مسار قطار، المكان الذي اعتاد فريق فرانسيس التجمّع فيه عندما كانوا نشطين. قال فرانسيس: «سأفقدها الآن أيضاً، فهي تعرف كيف تغطي آثارها، وكيف تختفي، لقد علّمتها ذلك».

لقد صعد إلى حافة خشنة من الألم والصدمة، وبصراحة لا يوجد لديَّ وقت لأداري انهيار فرانسيس، فلديَّ أشياء أهمّ يجب أن أفعلها، مثل أن أعثر على زوجتي.

ولديَّ فكرة أخرى.

يجب أن ندخل المقبرة. كان الظلام قد هبط على المكان وأُقفلت بوَّابة المقبرة. تسلَّقت السور، وكسرت القفل بمطرقة ثقيلة أحضرتها من صندوق العدّة الذي أضعه في السيارة، ليتمكّن فرانسيس من الدخول أيضاً. انتظرنا قليلاً حتّى تكيَّفت أعيننا مع الظلام، لأنّنا نعرف أنَّ بريت تركض بسرعة البرق.

في البداية، لم أرَ أثراً لها. كان الظلام حالكاً، وهي ترتدي فستاناً كحليّاً غامقاً. لَـمَّا اقتربتُ من قبر ديفيس سمعت حفيفاً. لوهلة، غطَّت الغيوم جزءاً من القمر، ولمعت شاهدة القبر، وظهر بريق من المعدن أيضاً.

«لا تقترب أكثر»، صاحت بريت.

رفعتُ راحتَيْ يديَّ. راية بيضاء. ببطء شديد، خطوت خطوة أخرى. سمعت صوت ضربة سكين. السكين الذي تضعه في حقيبتها. أتذكّر اليوم الذي فيه اشترته في أحد تجمّعات القوة البيضاء. كانت قد تفحَّصت أنواعاً مختلفة، ذوات قبضات من العقيق وعرق اللؤلؤ. مشدوهاً، ضغطت بإحدى يديها على حنجرتي في هجوم وهميّ.

«هاي، حبيبتي»، قلت برقّة، «يجب أن نعود إلى المنزل».

فتمتمت قائلة: «لا أستطيع. أنا مضطربة».

«حسناً»، أقعيت، ورحت أتحرَّك كما أفعل عندما أقترب من كلب بريّ. مددت يدي إليها، لكنَّ راحة يدي انزلقت من يديها.

نظرتُ إلى الأسفل فرأيت راحة يدي ممتلئة بالدم.

«يا إلهي!»، صحتُ في اللحظة التي أضاء فيها فرانسيس مصباح هاتفه الخلويّ ووجَّهه نحو بريت من خلفي، وأطلق صرخة. كانت جالسة مسندة ظهرها إلى شاهدة قبر ديفيس، عيناها مفتوحتان على وسعيهما،

جامحتان، زجاجيتان، على ذراعها اليسرى سبعة أو ثمانية جروح عميقة، وقالت: «لا أستطيع أن أجدها. ما زلت أحاول إخراجها».

«تُخرجين ماذا يا حبيبتي؟» قلت، ومددت يدي لآخذ السكين.

لكنَّها أبعدتها عنّي، وقالت: «دمها». بينما كنت أنظر إليها، التقطت السكين وجرحت رسغها.

سقط السكّين من يد بريت، وبينما كانت عيناها تزوغان في رأسها، رفعتها بين ذراعيَّ، وجريت بها إلى سيّارتي.

مرَّت فترة من الزمن قبل أن تستقرَّ حالة بريت، وهذا مصطلح سخيّ. فها نحن أولاء في مستشفى ييل نيو هافن، غير المستشفى الذي أنجبت فيه دايفيس، خاطوا جروحها، وضمَّدوا رسغها، وغسلوا الدم من على جسمها، وأدخلوها القسم النفسيَّ في المستشفى. قلت في نفسي، كم إنَّني ممتنّ لذلك، لأنّني لم أستطع أن أحلَّ العقد المتشابكة في دماغها.

أكاد أستطيع أن أحلَّ العقد التي تملأ دماغي.

طلبتُ إلى فرانسيس أن يعود إلى البيت ويرتاح قليلاً، وقرَّرت أن أمضي الليلة في قاعة الزوّار في حال احتاجت بريت إليَّ عندما تفيق، فتعرف أنّه يوجد أحد هنا لمساعدتها، لكنّها كانت فاقدة الوعي من أثر المهدئات والمسكّنات التي حقنوها بها.

بعد منتصف الليل يبدو المستشفى شبحيّاً، إذ تخفت الأضواء، وتصبح الأصوات مخيفة - حفيف حذاء ممرّضة، أنين مريض، صفير جهاز قياس ضغط الدم. اشتريت قبَّعة من متجر الهدايا، قبَّعة صُنعت للمرضى الذين يخضعون للعلاج الكيميائيِّ، لكنّي لم أُعر ذلك أيَّ اهتمام، فقد غطّت الوشم على فروة رأسي، وأردت أن أندمج الآن مع الآخرين.

جلستُ في الكافتيريا، ورحت أتناول فنجاناً من القهوة، أحاول أن أفكّك أفكاري المتشابكة. هناك أشياء كثيرة يمكنك أن تكرهها. هناك الكثير من

الأشخاص الذين تريد أن توسعهم ضرباً، وهناك ليال كثيرة يمكنك أن تشرب فيها حتّى الثمالة، وفي أحيان كثيرة يمكنك أن تلوم الآخرين على الخراء الذي أحدثته. إنّه مخـدّر، ومثل أيّ مخدّر، يتوقّف مفعوله. ثمّ ماذا؟

في الواقع، يؤلمني رأسي لوجود ثلاث حقائق متناقضة فيه: *1*- إنَّ السود أنـاس أقـلّ شأناً. *2*- إنَّ بريت نصف سوداء. *3*- أحبّ بريت من كلِّ قلبي.

ألا ينبغي أن يجعل الرقمان واحد واثنان الرقم ثلاثة مستحيلاً؟ أم أنّها استثناء مـن القاعدة؟ هل أديل واحدة أيضاً؟

تذكَّرت نفسي أنا وتوينكي عندما حلمنا بالطعام الذي نتوق إلى تناوله عندما نخرج من السجن.

كم استثناء يجب أن يكون هناك قبل أن تبدأ تدرك أنّه قـد تكـون الحقـائق التـي قيلت لك غير صحيحة في الواقع؟

لَمَّا أنهيت قهوتي، رحت أسير في ممرَّات المستشفى. قـرأت جريـدة مرميَّـة في بهـو الفندق. راقبت أضواء سيارة الإسـعاف التـي تـومض مـن وراء أبـواب غرفـة الطـوارئ الزجاجيَّة.

مصادفةً، لقيت غرفة حضانة الأطفال في المستشفى. صـدّقوني، لم أشـأ أن أكـون في أيّ مكان قريب من جناح الولادة لأنَّ هذه الندوب لا تزال طازجة لديَّ، حتّى لو كـان هذا مستشفى آخر. لكنَّني وقفت عند النافذة إلى جانب رجل آخر. قال: «إنّها ابنتي»، وأشار إلى رضيعة صـغيرة إلى درجـة مؤلمـة ملفوفـة في بطانيّـة ورديّـة اللـون، «اسـمها كورا».

تملَّكني الذعر قليلاً. من هو ذلك الشخص الذي يقف أمـام حضـانة إذا لم يكـن ذا صلة قرابة مع أحد الأطفال؟ فأشرتُ إلى طفل ملفوف في بطانية زرقـاء، ينبعـث وهـج ضعيف في حاضنته، لكن حتّى من هنا استطعت أن أرى لون بشرتـه السـمراء، وقلـت كاذباً: «هذا ديفيس».

كان ابني أبيض مثلي، في الأقلّ من الخارج. لكنّه لا يشبه هذا المولود، حتّى لو كان يشبهه، أدركت الآن أنّني كنت سأحبّه. لو كان هذا الطفل هو ديفيس حقاً، لما اكترثت إن كانت بشرته داكنة أكثر من بشرتي.

المهمّ فقط أن يكون في قيد الحياة.

وضعت يديَّ في جيبَي معطفي، وفكّرت في فرانسيس وبريت. ربّما كان مقدار حبّك لأحد، هو مقدار ما يمكن أن تكرهه. إنّه مثل جيب قُلب من الداخل إلى الخارج.

من المنطقيّ أن يكون العكس هو الصحيح أيضاً.

إبَّان الفترة التي استغرقتها هيئة المحلّفين لإصدار حكم، رافعت في أربعين دعوى قضائيّة أخرى، ثمان وثلاثون منها تشمل رجالاً من ذوي البشرة السوداء، وأجرى ميكا ستّ عمليّات جراحيّة، وذهبت فيوليت إلى حفل عيد ميلاد، وقرأت مقالاً على الصفحة الأولى من الصحيفة عن مسيرة في جامعة ييل قادها طلاب ملوّنون يريدون - من بين أشياء أخرى - إعادة تسمية كليّة سكنيّة اسمها حالياً جون كالدويل كالهون، وهو نائب رئيس أمريكيّ دعم العبوديَّة والانفصال.

جلسنا، أنا وروث، في المحكمة مدَّة يومين ننتظر. عاد إديسون إلى المدرسة وقد تملَّكته حماسة متجدّدة – من المدهش ما الذي يمكن أن تفعله مسحة صغيرة من القانون لفتى أراد أن يجرّب الجنوح! وظهرت روث أيضاً - بمباركتي، جنباً إلى جنب - في برنامج والاس ميرسي المتلفز عبر كاميرا عن بُعد، وأثنى على شجاعتها، وقدّم لها شيكاً لتسدّد بعض الأموال التي خسرتها لأنّها لم تعد تعمل منذ أشهر عدَّة - تبرّعات من أشخاص من إيست إند حتّى جوهانسبرغ. ثمَّ قرأنا رسائل مرفقة مع بعض الإسهامات:

أفكّر فيكِ وفي ابنك.

لا يوجد لديَّ الكثير، لكني أريد أن تعرفي أنكِ لست وحدك.

شكراً لأجل شجاعتك لأنَّك صمدتِ، أمَّا أنا فلم أصمد.

سمعنا عن بريتاني باور التي تعاني ممَّا أسماه الادّعاء إجهاداً وتوتراً، ووصفتها روث بأنّها مجنونة تماماً. ولم يرَ أحد أثراً لتورك باور أو فرانسيس ميتشوم بعد الآن.

«كيف عرفتِ؟» سألتني روث بعد ما حدث، عندما أحضر والاس أديل آدمز إلى مبنى المحكمة لتلتقي «عَرَضاً» فرانسيس وابنته. قلت لها: «كان لديَّ حدس. إذ لَمَّا كنت أدقّق في نتيجة اختبار الأطفال حديثي الولادة رأيت شيئاً لم يلحظه أحد من قبل، لأنّنا ركّزنا كلّ اهتمامنا على إصابته بذلك الاضطراب الأيضيّ، وهو: فقر الدم المنجليّ. تذكّرت ما قالته طبيبة الأطفال عن كيف يؤثّر هذا المرض بالتحديد في الأمريكيين من أصل أفريقيّ أكثر من غيرهم بكثير، وتذكّرت أيضاً أنَّ بريت قالت في إفادتها إنّها لم تكن تعرف أمَّها».

فقالت روث: «كان رهاناً ينطوي على مجازفة».

«نعم، لذلك أجريت قليلاً من الأبحاث. إذ يحمل واحد من كلّ اثني عشر أميركياً من أصل أفريقيّ سمة الخليّة المنجليّة. ويحملها واحد من كلّ عشرة آلاف شخص أبيض. فجأة، بدا لي أن تكون تلك ورقة رابحة. فاتصلت بوالاس. وتكفّل هو بالباقي. فاكتشف اسم الأمّ من شهادة ميلاد بريت، وتتبَّعها».

نظرت روث إليَّ وقالت: «لكن، لم يكن لذلك علاقة بقضيّتك».

فقلت: «لا، كانت هذه هديّة منّي لك. قلت في نفسي إنّه لا يوجد شيء آخر يمكن أن يبرز كلّ ذلك النفاق».

مع اقتراب نهاية اليوم الثاني من دون أن نسمع كلمة واحدة من هيئة المحلّفين، كدنا نفقد جميعنا صوابنا قليلاً. «ماذا تفعل؟» سألت هوارد الذي كان ينتظر معنا. كان يكتب شيئاً بعنف على هاتفه، «موعد عاطفيّ؟»

فقال: «إنّي أبحث عن الفرق في الحكم لحيازة مخدّر (الكراك) إزاء الكوكايين. فحتّى عام 2010، كان الشخص المدان بالحيازة بنيّة توزيع خمسين غراماً أو أكثر من مخدّر الكراك يُحكم عليه بالسجن لمدّة لا تقلّ عن عشر سنوات، وكي تحصلي على الحكم نفسه بتهمة توزيع الكوكايين،

عليك توزيع خمسة آلاف غرام. حتّى الآن، فإنّ معدّل التفاوت في الأحكام يبلغ ثمانية عشر إلى واحد».

هززت رأسي، وسألته: «لماذا تريد أن تعرف ذلك؟»

فقال: «أفكّر في الاستئناف. من الواضح أنّها سابقة للتحيّز في إصدار الأحكام، بما أنَّ 84 في المئة من المدانين بجرائم حيازة الكراك هم من السود، وأنَّ مرتكبي جرائم المخدّرات السود عرضة للسجن أكثر بنسبة عشرين في المئة من مرتكبي جرائم المخدّرات البيض».

«هوارد»، قلت وأنا أفرك صدغي، «أطفئ هاتفك اللعين».

«أليس هذا شيئاً سيّئاً؟» قالت روث وهي تفرك ذراعيها مع أنّ جهاز التدفئة يشيع في الغرفة حرارة. «أراهن أنّه لو كانوا سيقرّرون البراءة لقرَّروا ذلك بسرعة».

فقلت أكذب عليها: «إذا لم تكن هناك أخبار فهذا يعني أنَّها أخبار جيّدة».

في نهاية اليوم، دعا القاضي هيئة المحلّفين إلى قاعة المحكمة، وسألهم: «هل توصَّلتم إلى حكم؟»

نهضت رئيسة المحلَّفين وقالت: «لا، يا حضرة القاضي. إنّنا منقسمون».

أعرف أنَّ القاضي سيطلب إليهم أن يسرعوا في التوصّل إلى اتّفاق على الحكم. ثمّ التفت إلى هيئة المحلّفين بمهابة لإضفاء الحزم، وقال: «كما تعرفون، فقد أنفقت الولاية مبلغاً كبيراً من المال لإجراء هذه المحاكمة، ولا يعرف أحد الحقائق والوقائع كما تعرفونها أنتم. اذهبوا وناقشوا الأمر. اسمعوا وجهات نظر بعضكم بعضاً. إنّي أشجِّعكم على أن تتوصّلوا إلى حكم كي لا نضطرّ إلى إعادة المحاكمة مرَّة أخرى».

لَمَّا أُخرج المحلَّفون من قاعة المحكمة، نظرت إلى روث، وقلت لها: «ربّما يجب أن تعودي إلى البيت».

نظرت إلى ساعتها، وقالت: «لديَّ بعض الوقت».

سرنا وسط المدينة، كتفاً إلى كتف، لنشرب فنجان قهوة في هذا الجوِّ البارد. هرباً من الريح الباردة لجأنا إلى مقهى قريب. «بعد أن أدركتُ أنّني لا أستطيع أن أصبح طاهية معجَّنات، كنت أحلم أن أفتح مقهى»، قلت لها، «وأردت أن أسمّيه «حيثيات ردّ الدعوى»».

لَمَّا جاء دورنا لنسجّل طلبنا، سألتُ روث كيف تتناول قهوتها، فقالت: «سوداء». فضحكنا فجأة. نظرت النادلة إلينا كما لو أنّنا فقدنا صوابنا، وكما لو كنّا نتحدّث لغة لا تستطيع أن تفهمها.

ولا أظنّ أنَّ كلَّ ذلك كان بعيداً عن الحقيقة.

في صباح اليوم التالي، استدعانا القاضي ثاندر، أنا وأوديت، إلى غرفة مكتبه، وقال: «تلقّيتُ ملاحظة من رئيسة المحلّفين. لدينا هيئة محلّفين منقسمة. أحد عشر محلّفاً مقابل محلّف واحد». هزَّ رأسه وأضاف: «أنا آسف جدّاً، سيّدتيَّ».

بعد أن خرجنا من مكتبه، رحنا نذرع الممرَّ أنا وهوارد خارج مكتب القاضي. «حسناً؟»

«محاكمة فاشلة. لقد وصلوا إلى طريق مسدود، أحد عشر مقابل واحد».

«من هو المحلّف الرافض؟» سأل هوارد. كان سؤالاً بلاغياً لأنّه يعرف أنّني لا أعرف.

توقّفنا فجأة عن المشي، ونظر أحدنا إلى الآخر، وقلنا معاً: «المحلّفة رقم 12».

«عشر دولارات؟» سأل هوارد.

قلت له: «ربحت».

«كنت أعرف أنّه كان ينبغي لنا أن نستبعدها من هيئة المحلَّفين منذ البداية».

«لم تربح الرهان بعد»، قلت له، لكن في أعماقي، أتخيّل أنَّه على حقّ. المعلّمة التي لم تستطع أن تقرَّ بوجود عنصريّة ضمنيّة، وربّما شعرت بإهانة مـن المرافعـة الختاميّـة التي ألقيتها.

كانت روث تنتظرني في غرفة الاجتماعات. رفعت عينيها، متفائلة. «لم يتمكّنوا مـن الوصول إلى حكم»، قلت لها.

«إذاً، ماذا الآن؟»

فقلت: «قد يعاد النظـر في القضـيّة بهيئـة محلّفـين جديـدة، أو تستسـلم أوديـت وتسقط القضيَّة».

«هل تظنين أنَّها...؟»

فقلت: «تعلّمت منذ زمن ألّا أتظاهر بأنّني أسـتطيع أن أفكّـر كـما يفكّـر الادّعـاء العامّ. يجب أن ننتظر ونرى».

دخل أعضاء هيئة المحلّفـين قاعـة المحكمـة، تبـدو علـيهم أمـارات التعـب. وقـال القاضي: «سيّدتي رئيسة هيئة المحلفين، فهمت أنّ هيئة المحلّفين لم تتمكَّن من التوصّل إلى حكم. هل هذا صحيح؟»

وقفت رئيسة هيئة المحلّفين، وقالت: «نعم، يا حضرة القاضي».

«هل تشعرين أنَّ منحكم مزيداً من الوقت سيمكّنكم من حلّ هذه القضيّة أخـيراً بين الولاية والسيّدة جيفرسون؟»

«للأسف يا حضرة القاضي، يرفض بعض منّا رؤية الآخرين وجهاً لوجه».

فقال القاضي ثاندر: «شكراً لخدمتكم. إنّي أُعفي هيئة المحلّفين هذه من عملها».

خرج الرجال والنساء. سمعت في القاعة همسات صامتة عندما حاول النـاس فهـم ما الذي يعنيه ذلك. حاولـت أن أقلّـب في رأسي احـتمالات أن تلجـأ أوديـت إلى هيئـة محلّفين كبرى بتهمة القتل غير العمد.

«لا يزال هناك شيء واحد أخير يجب عمله في هذه المحاكمة»، تابع القاضي ثاندر، «أنا مستعدّ للبتّ في طلب الدفاع المتجدّد للحكم بالبراءة».

نظر هوارد إليَّ من فوق رأس روث. ماذا؟

يا إلهي! سيستخدم القاضي ثاندر منفذ النجاة الذي قدّمته له كمسألة روتينيّة. حبستُ أنفاسي.

«لقد بحثتُ في القانون، وراجعت الأدلَّة في هذه القضيَّة بعناية شديدة. لا يوجد دليل موثوق يشير إلى أنَّ لوفاة هذا الطفل أيّ علاقة سببية بأيّ عمل أو تقاعس من جانب المدَّعى عليها»، ثمّ التفت إلى روث وقال: «أنا آسف جداً لأنّك عانيت من نتيجة ما فعلته في مكان عملك يا سيّدتي»، وضرب بمطرقته، وقال: «أوافق على اقتراح الدفاع».

في هذه اللحظة، أدركتُ أنّه لا يمكنني أن أفكّر كما يفكّر المدّعي العامّ فحسب، وإنّما كنت مخطئة تماماً بشأن المكائد العقليّة للقاضي. استدرتُ، وثمَّة ضحكة ذاهلة تكاد تنفجر داخلي. كانت روث لا تزال عابسة، وقالت: «لم أفهم».

لم يعلن أنَّ المحاكمة أخفقت، وقد منح البراءة بحسن النيَّة.

«روث»، قلت، وقد ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهي، «أصبحتِ حرَّة الآن».

الحريَّة هي عنق زهرة النرجس البريَّة الهشَّة، بعد أطول فصول شتاء. إنّها صوتك من دون أن يطغى أحد على صوتك. إنّها نعمة أن تقول نعم، والأهمّ من كلّ ذلك، الحقّ في أن تقول لا. في قلب الحريَّة، يخفق الأمل: نبض الإمكان.

أنا المرأة نفسها التي كنت قبل خمس دقائق. أغوص في الكرسيّ نفسه، يداي منبسطتان فوق الطاولة نفسها الممتلئة بالندوب. شكرني المحاميان اللذان دافعا عنّي. ضوء النيون هذا لا يزال يبصق مثل صرصور. لم يتغيَّر شيء، وكلّ شيء أصبح مختلفاً.

خرجتُ من قاعة المحكمة وأنا في حالة ذهول. على الفور، امتدَّت أمامي ميكروفونات كثيرة. قالت كينيدي للجميع إنّه على الرّغم من أنّ موكّلتها سعيدة بالحكم الذي صدر، فلن نُدلي بأيّ تصريحات حتّى نعقد مؤتمراً صحفيّاً رسميّاً غداً.

وأنّ على موكلتها أن تعود إلى بيتها، وإلى ابنها.

كانت هناك حفنة من المتطرّفين الذين كانوا يأملون في أن يقولوا شيئاً، لكنّهم ابتعدوا أخيراً. وُجِّهت إلى بروفسيور في قاعة المحكمة تهمة حيازة مواد إباحيَّة عن الأطفال.

العالم يدور، وهناك ضحيَّة أخرى، ومتنمّر آخر. إنّها قصّة شخص آخر الآن.

أرسلتُ رسالة نصيّة إلى إديسون، الذي اتصل بي مع أنّه اضطرَّ إلى أن يغادر قاعة الدرس ليتصل بي، وسمعت تنهيدة الارتياح من خلال كلماته. ثمّ اتصلتُ بأديسا في مكان عملها، وكان عليّ أن أبعد الهاتف عن أذني عندما بدأت تصرخ

فرحة، ووصلتني رسالة نصيّة من كريستينا: صفّ كامل من الأيقونات المبتسمة ثمّ صورة همبرغر وكأس نبيذ وعلامة استفهام.

دعوة مؤجَّلة؟ كتبت لها.

«روث»، قالت كينيدي عندما وجدتني واقفة وهاتفي في يدي أحدّق إلى الفضاء، «هل أنتِ على ما يرام؟»

فأجبتها بصدق: «لا أعرف. هل حقّاً انتهى كلّ شيء؟»

ابتسم هوارد، وقال: «نعم، انتهى كلّ شيء».

ثمَّ قال هوارد، وقد علت وجهه ابتسامة: «لقد انتهى كلّ شيء على نحو لا لبس فيه».

«شكراً»، قلت له وعانقته، ثمّ التفتُّ إلى كينيدي، وقلت وأنا أهزّ رأسي: «وأنت... لا أعرف ماذا أقول».

فقالت كينيدي وهي تعانقني: «فكّري في الأمر. يمكنك أن تقولي لي ذلك الأسبوع المقبل عندما نتناول الغداء معاً».

رجعتُ خطوة إلى الوراء لتقابل عيناي عينيها، وقلت: «أودُّ ذلك». لقد تحوّل شيء ما بيننا. أدركت أنّها قوّة، وأنّنا أصبحنا متعادلتين.

فجأة، أدركت أنَّني في أثناء دهشتي، عندما سمعتُ الحكم، تركت وشاح أمّي الذي يجلب الحظّ في قاعة المحكمة. «لقد نسيت شيئاً. سأراك في الطابق الأرضيّ».

لَمَّا وصلتُ إلى الباب المزدوج، رأيت الحارس واقفاً في الخارج. «سيّدتي؟»

«أنا آسفة - هناك وشاح...؟ هل أستطيع...»

فقال: «بالتأكيد»، ولوَّح لي بيده كي أدخل.

وقفت وحدي في قاعة المحكمة. سرتُ في الممرِّ بين المقاعد إلى حيث كنت جالسة. كان وشاح أمّي لا يزال على المقعد. التقطته ورحت أتلمّسه

براحة يدي. نظرت حولي في القاعة الفارغة. في أحد الأيّام، ربّما يرافع إديسون في قضيّة في هذه القاعة، بدلاً من أن يكون جالساً إلى جانب محامية كما كنت أفعل، وقد يأتي يوم يجلس فيه إلى منصَّة القاضي.

أغمضتُ عينيَّ لأحتفظ بهذه اللحظة. أنصت إلى الصمت.

بدا كأنَّ سنوات ضوئيَّة قد مرَّت منذ أن جُلبت إلى قاعة محكمة أخرى أسفل القاعة لتوجيه التهمة إليَّ، مكبَّلة بالأصفاد وأنا في ثوب نومي، ولم يُسمح لي أن أقول شيئاً أدافع فيه عن نفسي. بدا كأنَّ دهراً قد انقضى منذ أن قيل لي ما لا أستطيع فعله.

«نعم»، قلت بهدوء، لأنَّه عكس ضبط النفس. لأنَّه يكسر السلاسل، لأنَّني أستطيع.

كوّرت يديّ وملت برأسي إلى الوراء، وتركت الكلمة تنفجر من حنجرتي. نعم

نعم.

نعم.

المرحلة الثالثة

بعد الولادة

بعد ستّ سنوات

يجب أن يتعلَّم الناس كيف يكرهون، وإذا استطاعوا أن يتعلَّموا ذلك، فإنَّ بإمكانهم أن يتعلَّموا كيف يحبُّون.

نيلسون مانديلا،

(مسيرة طويلة إلى الحريَّة)

في غرفة الفحص في العيادة، أخرجتُ قفّازاً مطاطيّاً من العلبة ونفخته، ثـمّ ربطتـه من الأسفل، وأخذت قلماً ورسمت عينين ومنقاراً. فقالـت ابنتـي: «بابـا، لقـد جعلتنـي دجاجة».

«دجاجة؟» قلت، «لا أصدّق أنّك ترين هذه دجاجة. من الواضح أنَّه ديك».

عبست وسألتني: «وما الفرق؟»

حسناً، ألم أفعل ذلك حقاً؟ لكـن لا توجـد طريقـة أسـتطيع بهـا أن أصـف الطيـور والنحل لطفلتي ذات السنوات الثلاث ونحن جالسين في انتظار ظهـور نتيجـة الاختبـار الذي أجرته للتأكّد من عدم وجود بكتيريا. سأترك ديبورا تفعل ذلـك عنـدما تعـود إلى المنزل من العمل.

تعمل زوجتي ديبورا سمسار أسهم في البورصة، وقـد أخـذتُ اسـم أسرتهـا عنـدما تزوّجنا على أمل أن أبدأ لأكون شخصاً جديداً، شخصاً أفضل. إنّهـا تعمـل مـن السـاعة التاسعة حتّى الخامسة، في حين أبقى في المنزل مع كاريس، فآخذها لتعلب مع أقرانها، وإلى مدرسة الحضانة. أعمل في الفرع المحليّ «لرابطـة مكافحـة التشـهير». أذهـب إلى المدارس الثانويّة والسجون والمعابد والكنائس وأتحدَّث فيها عن الكراهية.

حكيت لهذه المجموعـات كيـف كنـت أضرب النـاس لأنَّنـي كنـت أتـألَّم بشدَّة، وأنّه إمّا أن أؤذيهـم وإمَّـا أؤذي نـفسي، وشرحـت لهـم إنَّ ذلـك كـان يجعلني أشعر بأنَّ لديَّ هدفاً، وكنـت أحـدّثهم عـن المهرجانـات التـي كنـت أذهب إليها حيث يغني الموسيقيون أغاني تشـيد بتفـوّق العـرق الأبـيض، في حين يلعب الأطفال ألعاباً عنصريَّة، وبألعاب عنصريّة. حكيت لهم عن الفترة

التي أمضيتها في السجن، وعن عملي كمسؤول لموقع يحرّض على الكراهية عبر الإنترنت. حدَّثتهم عن زوجتي الأولى، وقلت لهم إنّ الكراهية نهشتها من الداخل والخارج، لكن ما حدث بالفعل كان أكثر بساطة: قنينة ممتلئة بالحبوب ابتلعتها مع زجاجة فودكا، وكيف أنّها لم تستطع أن ترى العالم على حقيقته، حتّى وجدت في النهاية طريقة لإبقاء عينيها مغمضتين إلى الأبد.

قلت لهم إنَّه لا يوجد شيء أنانيّ أكثر من محاولة تغيير رأي شخص لأنّه لا يفكّر مثلك. فقط لأنّ شيئاً مختلفاً لا يعني أنّك يجب ألّا تحترمه.

هذا ما كنت أقوله لهم: من الناحية الفسيولوجيّة، فإنّ الجزء في الدماغ الذي يتيح لنا أن نلوم الأشخاص الذين لا نعرفهم على كلّ شيء، هو الجزء نفسه من الدماغ الذي يسمح لنا بالتعاطف مع الغرباء. نعم، فقد جعل النازيون اليهود كبش فداء إلى حدٍّ الانقراض تقريباً. لكنَّ تلك الأنسجة عينها، التي في العقل، هي التي تدفع الآخرين إلى إرسال أموال وإمدادات وإغاثة، حتّى عندما يكونون على مسافة نصف العالم.

وفي أثناء تلك الأحاديث، كنت أصف لهم الطريق الطويل حتّى مغادرتي التي بدأت بزيارة في منتصف الليل - أفراد مقنَّعون ومجهولون أرسلهم آخرون أقوياء حطّموا باب بيتنا وأوسعونا ضرباً، وألقوا بفرانسيس من أعلى الدرج: كُسرت ثلاثة أضلع في جسمي. أظنَّ أنّه كان حفل وداع، فأغلقت موقع *Lonewolf.org* في اليوم التالي، واستخرجت أوراق الطلاق عندما انتحرت بريت.

حتّى الآن، لا أزال أرتكب أخطاء. لا أزال أشعر بالحاجة إلى أن أضرب شيئاً أو شخصاً من حين إلى آخر، لكنِّي أفعل ذلك في ساحة تزلّج الهوكي. لعلّي أصبحت أشدَّ حذراً عندما أصادف رجالاً من ذوي البشرة السوداء. لكنّي أصبحت أكثر حذراً مع الأشخاص البيض الذين يركبون شاحنات صغيرة تتدلّى من نوافذها الخلفية أعلام الكونفدراليّة، لأنّني كنت واحداً

منهم، وأعرف ما يمكنهم أن يفعلوا. التقيت الكثيرين منهم، الذين لم يصدّقوا أنّني استطعت أن أتغيَّر هكذا عندما أحكي لهم عن زوجتي ديبورا التي تعرف كلّ شيء عنّي، وعن ماضيَّ، وقد سامحتني. وإذا ما استطاعت أن تسامحني، فكيف لا أحاول أن أسامح نفسي؟

أكفّر عن ذنوبي. من ثلاث إلى أربع مرّات في الأسبوع، أذكر الأخطاء التي ارتكبتها أمام الجمهور. أشعر بأنّهم يكرهونني. أظنّ أنَّني أستحقّ ذلك.

قالت كاريس: «بابا، حلقي يؤلمني».

فقلت لها: «أعرف يا حبيبتي»، وأجلستها في حضني عندما فُتح الباب.

دخلت الممرِّضة وهي تنظر في استمارة المعلومات المتعلّقة بكاريس في عيادة الرعاية المستعجلة هذه، وقالت: «مرحباً، اسمي روث ووكر».

رفعت عينيها، ولاحت على وجهها ابتسامة، وقالت: «ووكر»، كرَّرت اسمها وهي تصافحني.

«نعم، إنّي أمتلك هذه العيادة وأعمل فيها أيضاً»، قالت وابتسامة ترفرف على شفتيها، «لا تقلق، فأنا ممرّضة مؤهَّلة أفضل بكثير من أن أكون محاسبة».

لم تعرفني. في الأقلّ لا أظنّ أنَّها عرفتني.

كي نكون منصفين، فإنَّ الاسم المذكور في الاستمارة هو اسم كنية ديبورا، فضلاً عن أنَّني أصبحت الآن أبدو مختلفاً تماماً، فقد أزلتُ كلَّ الوشوم ما عدا وشماً واحداً. فقد نما شعري وقصصته بتحفّظ. فقدت نحو ثلاثين رطلاً من العضلات والقوة الجسديّة، منذ أن بدأت أمارس رياضة الجري، ولعلّ كلَّ شيء في داخلي أصبح يبدو مختلفاً من الخارج.

التفتت إلى كاريس، وقالت: «إذاً هناك شيء ليس على ما يرام، أليس كذلك؟ هل يمكنني أن ألقي نظرة؟»

تركتُ كاريس جالسة على ركبتي وراحت تمرّر يـديها اللطيفتـين عـلى غـدد ابنتـي المتورِّمة، وقاسـت حرارتهـا، وفحصـت فمهـا بعنايـة. جالـت عينـاي في أرجـاء الغرفـة، ولاحظت أشياء لم أرَها من قبل - شـهادة عـلى الحـائط عليهـا اسـم روث جيفرسـون، مكتوب بخطّ جميل. صورة مؤطّرة لرجل أسود وسيم على رأسه قبَّعة وروب تخرُّج في حرم جامعة ييل.

لفتت انتباهي عندما خلعت قفَّازيها. لاحظتُ أنَّها تضـع خاتمـاً صـغيراً مـن المـاس وخاتم زواج في يدها اليسرى.

قالت لي: «أنا متأكّدة بنسبة تسعة وتسعين في المئة أنَّها بكتيريا. هل لدى كـاريس حساسية تجاه أيِّ دواء؟»

هززت رأسي. لم أستطع أن أجد صوتي.

ثمَّ قالت: «يمكنني أن آخذ مسحة من حلقها وأجري زراعة بكتيريّة سريعة، وبنـاء على النتائج، ستبدأ جرعة من المضادات الحيويّة». أمسـكت بضـفيرة كـاريس وشـدَّتها برفق، وقالت لها: «ستصبحين في حالة ممتازة بسرعة».

ثمَّ استأذنتنا وسارت نحو الباب لتُحضر الأشياء التي تحتاج إليهـا لإجـراء الاختبـار. لَمَّا وضعت يدها على أكرة الباب، ناديت: «روث».

استدارت. للحظة، ضيّقت عينيها قليلاً، وتساءلت، لكنَّها لم تسأل إن كنّا قد التقينـا قبل الآن. لم تتذكّر تاريخنا. كانت تنتظر أن أقول أيّ شيء أريد قوله.

قلت لها: «شكراً».

هزّت رأسها وخرجت من الغرفة. استدارت كاريس فوق حضني، وقالت: «بابا، إنّه لا يزال يؤلمني.»

«ستشفيه الممرِّضة الآن».

راضية عن ذلك، أشارت كاريس إلى مفاصل يدي اليسرى، الوشم الوحيد الذي بقي على جسمي، وسألتني: «هل هذا اسمي؟»

فأجبتها: «نوعاً ما. اسمك يعني الشيء نفسه بلغة سكّان ويلز».

لقد بدأت تتعلّم الأحرف منذ فترة قصيرة. فراحت تشير إلى كلّ مفصل وقرأت: ح. ب.»

فقلت مفتخراً: «صحيح». انتظرنا حتّى عادت روث. أمسكت بيد ابنتي، أو ربّما هي التي أمسكت بيدي، كما لو كنّا عند تقاطع طرق، وكانت مهمّتي أن أوصلها إلى برِّ الأمان على الجانب الآخر.

كلمة المؤلِّفة

بعد قرابة أربع سنوات من مسيرتي في الكتابة، أردتُ أن أكتب كتاباً عن العنصريَّة في الولايات المتحدة. جذبني حادث جرى في الحياة الواقعيَّة في مدينة نيويورك، عندما أُطلقت النار على شرطيّ سرّيّ أسود في ظهره لمرَّات عدَّة، أطلقها عليه زملاؤه البيض - مع أنّ الشرطيَّ السرّيَّ كان يضع ما يُسمّى «لون اليوم» - سوار معصم يمكّن رجال الشرطة الآخرين من تعرُّف رفاقهم من عناصر الشرطة الذين يتخفّون في ثياب مدنيّة. بدأت أكتب الرواية، لكنّي أخفقت تماماً، وتوقّفت عن كتابتها لأنَّني لم أستطع أن أفي الموضوع حقَّه، بطريقة أو بأخرى، فلم أكن أعرف كيف تشعر عندما تنشأ شخصاً أسود في هذا البلد، وواجهت مشكلة كبيرة في خلق شخصية خيالية تبدو حقيقية.

بعد مضيّ عشرين سنة، تملَّكتني مرّة أخرى رغبة شديدة في أن أكتب عن العنصريَّة. كنت أدرك على نحو غير مريح أنّه عندما يتحدّث المؤلّفون من ذوي البشرة البيضاء عن العنصريّة في رواية، فإنّها تكون عادة رواية تاريخيّة. ومرّة أخرى، بأيّ حقّ ينبغي لي أن أكتب عن تجربة لم أعشها؟ وإذا كتبتُ ما أعرفه فقط، فإنّ مسيرتي المهنية ستصبح قصيرة ومملّة. فقد نشأتُ بيضاء أتمتَّع بامتياز طبقيّ. ولسنوات عدَّة، أجريت أبحاثاً، وأجريت مقابلات شخصيّة مكثفة كي أتمكّن من التعبير عن أصوات الأشخاص الذين لست مثلهم: رجال، مراهقون، أشخاص ذوو ميول انتحاريّة، زوجات معنّفات تعرَّضن لسوء المعاملة، وضحايا اغتصاب. إنَّ ما دفعني إلى كتابة هذه القصص شعوري بالغضب، ورغبتي في منح تلك الروايات صوتاً ليزداد وعي الذين لم يعيشوا هذه الأشياء. لماذا تعدُّ الكتابة عن شخص ملوَّن مختلفة؟

لأنَّ العرق مختلـف. العنصريّـة مختلفـة. إنّهـا أمـر محفـوف بالمخـاطر، وتصـعب مناقشتها، لذلك فإنّنا لا نفعل ذلك في معظم الأحيان.

ثمَّ قرأتُ خبراً عن ممرضة أمريكية من أصل أفريقي في فلينـت بولايـة ميشـيغان، عملت في قسم المخاض والولادة لمدّة تزيد على عشرين عاماً، وفي أحد الأيام أراد والـد الطفل الذي تقوم على رعايته أن يرى الممرضة المشرفة، وطلب إليهـا ألّا تلمـس هـذه الممرّضـة أو مــن يشـبهها رضـيعه، واتّضـح أنّـه ينتمـي إلى جماعـة المتفـوّقين البـيض العنصريّة. وضعت الممرّضة المشرفة طلب المـريض في ملـفّ الطفـل، ورفـع عـدد مـن الأمريكيين من أصل أفريقيّ دعوى قضائيّة بشأن التمييز العـنصريّ وربحـت الـدعوى. هذا الخبر جعلني أفكّر، وبدأت أنسج قصّة.

كنت أعرف أنّني أريد أن أكتب رواية من وجهة نظر ممرضة سوداء، وأب ينتمـي إلى جماعة الرؤوس الحليقة، ومحامية عامة - امـرأة، مـثلي ومثـل كثـيرات مـن قـرّائي، سيّدة بيضاء حسنة النية، لا ترى نفسها عنصريَّة. وفجأة، أدركت أنّنـي أسـتطيع كتابـة هذه الرواية حتى النهاية. وبخلاف محاولاتي الأولى المجهضـة، لم أكـن أنـوي أن أكتبهـا لأقول للأشخاص الملوّنين كيف تبدو حيواتهم، وإنَّما كنـت أنـوي أن أكتبهـا لمجتمعـي - البيض - الذين يمكـنهم بسـهولة أن يشـيروا إلى حليقـي الـرؤوس مـن النـازيين الجـدد ويقولوا هذا عنصريّ... لكن من لا يستطيع أن يدرك أنَّ العنصريَّة تعشش داخله.

في الحقيقة، ربّما كنت أصف نفسي منذ وقت ليس ببعيد. ففي أحيان كثيرة يخبرني القرّاء عمّا تعلّموه من كتبي - لكن عندما أكتب رواية، فإنّي أتعلّم أشـياء كثـيرة أيضـاً، لكن هذه المرّة، بدأت أعرف أشياء عن نـفسي، فقـد بـدأت أستكشـف مـاضيَّ ونشـأتي وتحيّزاتي، وأكتشف أنني بريئة تماماً وتقدميّة كما كان يخيّل إلي.

يظنّ معظمنا أنَّ كلمة عنصريَّة مرادفة لكلمة تحيّز. لكنّ العنصريّة أكثر من مجرّد تمييز على أساس لون البشرة. إنّها تتعلّق أيضاً بمن يمتلك سلطة مؤسسيّة، وكما تلحق العنصرية أضراراً وإساءات للأشخاص الملونين، وهي التي تصعّب عليهم تحقيق النجاح، فإنّها تمنح أيضاً مزايا للأشخاص البيض تجعل تحقيق النجاح بالنسبة إليهم أكثر سهولة. تصعب رؤية تلك المزايا، ناهيك عن امتلاكهم لها.

لذلك، أدركت السبب الذي جعلني أشعر بأنَّني يجب أن أكتب هذه الرواية. فحينما يتعلَّق الأمر بالعدالة الاجتماعيَّة، فإنَّ دور الحليف الأبيض يجب ألّا يكون منقذاً أو وسيطاً، وإنّما يجب أن يكون موجّهاً إلى الأشخاص البيض الآخرين، والتحدّث إليهم كي يروا أنّ كثيراً من المزايا التي ينعمون بها في الحياة هي نتائج مباشرة لحقيقة أنَّ شخصاً آخر لا يملك تلك المزايا نفسها.

بدأت أُجري بحثي بالجلوس مع نساء ملونات. ومع أنَّني كنت أعرف أنَّ إمطار الأشخاص الملوّنين بالأسئلة ليست الطريقة الفضلى لتثقيف الذات، أملت في أن أدعو أولئك النسوة للمشاركة بطريقة ما، يقدِّمن لي في المقابل هدية: فقد شاطرنَني تجاربهنّ حول كيف يشعر الشخص الأسود في حياته، ولا أزال أشعر بالامتنان لأولئك النسوة - لا لتحمّلهنَّ جهلي فقط، وإنّما لأنّني كنت عازمة على أن أتعلَّم منهنَّ. ثمَّ، كان من دواعي سروري أن أتحدَّث إلى بيفرلي دانيال تاتوم، الرئيس السابق لكليّة سبيلمان، والمعلّم الشهير عن العنصريّة. وقرأت كتباً للدكتور تاتوم وديبي إيرفينغ، وميشيل ألكسندر، وديفيد شيبلر. والتحقت بورشة عمل حول العدالة الاجتماعية تدعى «إلغاء العنصريَّة»، وكنت أنهي قراءتي بالبكاء كلّ ليلة، وبدأت أزيل القشرة التي كانت تغطّي «مَن أكون أنا حقّاً؟».

ثمَّ، تعرّفُت إلى شخصين كانا ينتميان إلى جماعة حليقي الرؤوس، كي أستحدث مفردات الكراهية لشخصيتي العنصريّة المتعصّبة للعرق الأبيض.

كانت ابنتي سامي هي التي وجدت تيم زال - من حليقي الرؤوس السابقين، الذي كان يدرس معها في الفصل عبر السكايب في المدرسة الثانوية. فقد ضرب تيم منذ سنوات شاباً مثليّاً ضرباً مبرحاً فكاد يموت. وبعد أن ترك الحركة، بدأ يعمل في مركز سيمون ويزنتال، ويتحدَّث عن جرائم الكراهية، وأدرك ذات يوم أنّ الشابّ الذي كاد يقتله يعمل في المركز أيضاً. تبادلا الاعتذار والمغفرة، وهما الآن صديقان يتحدَّثان عن تجربتيهما الفريدتين إلى المجموعات كلّ أسبوع. وقد تزوَّج امرأة يهوديّة، ويعيش حالياً حياة سعيدة. وفرانكي مينك، الذي كان ينتمي إلى جماعة حليقي الرؤوس، ويعمل حالياً في رابطة مكافحة التشهير. ومع أنّه كان يدير مجموعات الكراهية في فيلي، أصبح يدير حالياً الآن برنامج (الانسجام من خلال الهوكي)، وهو برنامج يهدف إلى تعزيز التنوّع العرقيّ بين الأطفال.

علَّمني ذان الرجلان أنَّ «جماعات القوة البيضاء» تؤمن بفصل الأعراق، وتعتقد أنَّ أعضاءها جنود في حرب عنصريّة مقدَّسة، وأوضحا لي كيف أنَّ الذين يُجنَّدون في جماعات الكراهية يستهدفون الأطفال الذين تعرَّضوا للتنمّر أو التهميش، أو الأطفال الذين يأتون من منازل معنّفة، ويوزّعون منشورات مناهضة للبيض في حيّ يسكنه البيض، ويرون من الذي يستجيب بالقول إنّ البيض يتعرَّضون للهجوم، فيأتون إليهم ويقولون لهم إنّكم لستم وحدكم. وكان الهدف من ذلك، إعادة توجيه غضب الشخص الذي يجنّدونه إلى العنصريّة، فأصبح العنف متنفَّساً لهم. وعلَّماني أيضاً أنَّ معظم جماعات حليقي الرؤوس لم تعد تسعى الآن إلى ممارسة العنف، وإنّما أصبح أفرادها يتواصلون سرّاً، وأصبح أنصار المتفوّقين البيض يرتدون ثياباً عادية مثل الناس العاديين الآخرين، وبدؤوا يندمجون، ليبثّوا نوعاً مختلفاً تماماً من الرعب.

لَمَّا جاء الوقت لأضع عنواناً لهذه الرواية، وجدت نفسي أعـاني مـن جديـد. يعـرف عدد كبير منكم من المعجبين بي منذ زمن بعيد أنَّ هذا العنوان لم يكن العنوان الأصلي للرواية. إنَّ عبارة (أشـياء صـغيرة عظيمـة) تشـير إلى اقتبـاس يُنسـب غالبـاً إلى القـسّ الدكتور مارتن لوثر كينـغ الابـن: «إذا لم أسـتطع أن أفعـل أشـياء عظيمـة، يمكننـي أن أصنع أشياء صغيرة بطريقة عظيمة». لكن، بما أنَّني امرأة بيضاء، فهل يحقّ لي أن أعيد صياغة هذه المشاعر؟ إذ يشعر كثير من الأمريكيين من أصل أفريقـيّ بحساسـية تجـاه الأشخاص البـيض الـذين يسـتخدمون العبـارات التـي قالهـا مـارتن لـوثر كينـغ الابـن، لتعكس تجربتهم الخاصَّة، وقد يكونـون محقّـين في ذلـك. علمـت أيضـاً أنَّ لـدى روث وكينيدي لحظات في هذه الرواية تفعـلان فيهـا أشـياء صـغيرة تنطـوي عـلى تـداعيات عظيمة ودائمة على الآخرين. بالإضافة إلى ذلـك، بالنسـبة إلى عـدد مـن البـيض الـذين بدؤوا توّاً يسيرون في طريق الوعي الذاتيّ العرقيّ، فإنّ كلمات الدكتور كينـغ تشـكّل في معظم الأحيان الخطوة الأولى في رحلتهم. إنَّ فصاحته حول موضوع ما يجعل معظمنا يشعرون بأنَّ بضع كلـمات تصـبح مصـدر إلهـام وتواضـع. بالإضـافة إلى ذلـك، مـع أنَّ التغييرات الفرديّة لا يمكن أن تقضي تماماً على العنصريَّة - فهناك أنظمة ومؤسَّسات في حاجة إلى الإصلاح أيضاً - فمن خلال الأعمال الصغيرة تُكرّس العنصريَّة، وتُفكَّك جزئيّـاً. لكلّ هذه الأسباب - ولأنّني آمل في أنَّها ستشجّع الناس على معرفة المزيد عن الـدكتور كينغ – فقد اخترت هذا العنوان.

من بين جميع رواياتي، ستبرز هذه الرواية بالنسبة إليَّ بسبب تغيـير الاتجـاه الـذي ألهمني بالطريقة التي أفكّر فيها في نفسي، ولأنّها جعلتني أدرك المسـافة التـي لا يـزال يتعيّن عليَّ أن أقطعها عندما يتعلَّق الأمر بالوعي العرقيِّ. ففي أمريكا، نحبّ أن نعتقد أنَّ سبب نجاحنا يكمن في أنّنا عملنا بجدّ، أو لأنّنا أذكياء. إنَّ الاعـتراف بـأنَّ العنصريَّـة أدَّت دوراً في نجاحنا يعني الاعتراف بأنَّ الحلم الأمريكيّ ليس في متناول الجميـع. وقـد

أشارت معلّمة العدالة الاجتماعيّة بيغي ماكينتوش إلى بعض هذه المزايا من قبيل الحصول على الوظائف والمسكن، دخول صالون لتصفيف الشعر عرضاً وإيجاد شخص يمكنه أن يصفِّف شعرك، شراء دمى ولُعب وكتب أطفال يظهر فيها أفراد من عِرقك، والحصول على ترقية من دون أن يشكَّ أحد في أنَّ ذلك يُعزى إلى لون بشرتك، وطلب التحدُّث إلى شخص مسؤول، وتوجيهك إلى شخص من عرقك.

لَمَّا كنت أُجري أبحاثي لكتابة هذه الرواية، سألتُ أمَّهات من ذوات البشرة البيضاء، كم مرّة تحدَّثن إلى أطفالهنَّ عن العنصريَّة. قالت بعضهنَّ: بين الحين والآخر، واعترف بعضهنّ أنهنَّ لم يناقشن ذلك مع أطفالهنَّ قطّ. ولَمَّا طرحت السؤال نفسه على الأمَّهات من ذوات البشرة السوداء، قلن جميعهنَّ: كلّ يوم.

بدأت أرى أنَّ الجهل امتياز أيضاً.

إذاً، ما الذي تعلَّمت أنَّه مفيد؟ حسناً، إذا كنت أبيض مثلي، فلا تستطيع أن تتخلّص من الامتياز الذي لديك، وإنّما يمكنك أن تستخدمه إلى الأبد. لا تقل إنّني لا ألحظ أنّ العِرق شيء إيجابيّ. وإنّما أدرك أنّ الفروق بين الأشخاص تجعل من الصعب على البعض الوصول إلى خطّ النهاية، وإنشاء مسارات عادلة للنجاح لكلّ شخص يستوعب هذه الفروق. ثقّف نفسك. إذا كنت تظنّ أنّه جرى تجاهل صوت أحدهم، فاطلب إلى الآخرين أن يستمعوا إليه. وإذا قال صديقك نكتة عنصرية، فوجّه اهتمامه إلى ذلك بدلاً من مجاراته. لو كان بإمكان هذين الشخصين اللذين كانا من جماعة حليقي الرؤوس، اللذين قابلتهما، إجراء هذا التغيير الكامل في القلب، فإنّي واثقة بأنَّ الناس العاديين يمكنهم أن يفعلوا ذلك أيضاً.

أتوقَّع أن أواجه معارضة لهذا الكتاب. سيكون هناك أشخاص ملوَّنون يتحدَّونني لأنَّني اخترت موضوعاً لا يخصّني. وسيكون هناك أشخاص بيض

يتحدَّونني لأنَّني جاهرت بعنصريتهم. صدّقوني، لم أكتب هذه الرواية لأنّني أرى أنّها ستكون ماتعة أو سهلة. لقد كتبتها لأنَّني أعتقد أنّها الشيء الصحيح الذي يجب أن أفعله، وبما أنَّ الأشياء التي تجعلنا لا نشعر بالراحة هي الأشياء التي تعلّمنا ما نحتاج جميعاً إلى معرفته. وكما قالت روكسانا روبنسون: «يشبه الكاتب شوكة التنغيم والدوزنة: نستجيب عندما يصدمنا شيء... وإذا كنّا محظوظين، فلأنّنا سنرسل لحناً قوياً نقياً، لحناً ليس لحننا، لكنَّه يمرُّ من خلالنا». إلى القرَّاء السود، الذين يقرؤون (أشياء صغيرة عظيمة) – إنّي آمل أن أستمع جيّداً إلى أولئك الموجودين في مجتمعكم، الذين فتحوا لي قلوبهم لأتمكَّن من تمثيل تجاربكم بدقَّة، أمَّا بالنسبة إلى الأشخاص البيض الذين يقرؤون الرواية – فإنَّنا نعمل جميعاً لنتطوَّر. أنا شخصيّاً لا أملك الإجابات، ولا أزال أتطوَّر كلَّ يوم.

جودي بيكو

آذار / مارس 2016م

شكر وتقدير

لولا مجموعة من الأشخاص والموارد، لما رأى هذا الكتاب النور.

أشكر بيغي ماكينتوش على مفهوم حقيبة الظهر غير المرئيَّة، والدكتورة بيفرلي دانيال تاتوم التي تحدَّت حرفياً العاصفة الجليديّة في أتلانتا كي تلتقيني، وهي إحدى بطلاتي – وأرجو ألّا تمانع لأنّني استعرت التفسير الذي قدَّمته لابنها بأنّ لون بشرته شيء أكثر، وليس شيئاً أقلّ. ويجب أن أشكر أيضاً ديبي إيرفينغ على خبرتها كمعلّمة للعدالة الاجتماعيّة، على وجودها طوال ساعات النهار والليل لتتفحّص كلماتي، وللسماح لي، بكلّ كرم وعطف، أن أسرق استعاراتها وأفضل عباراتها، بما فيها مفاهيم امتياز الرياح غير المواتية والرياح المواتية. (كما وصفته ببراعة فيرنا مايرز) ووجود كلمة التجاهل في كلمة الجهل. وأشكر أيضاً مالكولم غلادويل الذي استخدم في برنامج سؤال وجواب على محطّة C-SPAN في 8 كانون الأول (ديسمبر) 2009، مثالاً من كتابه (المتطرفون والناشزون)، الذي يفحص تاريخ ميلاد لاعبي الهوكي الكنديين الشبّان وكيف يُترجم ذلك إلى نجاح دور الهوكي الوطنيّ - الفرضيّة التي استخدمتها في مرافعة كينيدي الختاميَّة. وأشكر (معهد الشعب للبقاء وما بعده)، الذي أدار الحلقة الدراسيّة بعنوان (إلغاء العنصريَّة) برعاية صندوق هايماركت الشعبيّ في بوسطن، التي شجَّعتني على ملاحظة الامتياز الذي أتمتع به – ولهم الفضل الكامل في استعارة كينيدي المتعلّقة برمي الأطفال من النافذة.

وأشعر بالامتنان للبروفسورة أبيغيل بيارد للبحث الذي قدّمته عن التحيّز (بالإضافة إلى مقدّمة عن سيينا براون الرائعة)؛ وبيتي مارتن، المرأة التي كنت أتصل بها دائماً، أولاً إذا أردت أن أقتل مولوداً خياليّاً؛ وجينيفر

تويتشل من (رابطة مناهضة التشهير)، وسيندي رافيل، وهوب موريس، وريبيكا طومسون، وكارين برادلي، وروث جوشين. وأشكر بيل بيني لاسمه وتبرّعه للأسر التي تمرُّ في مرحلة تحوّل، وقد وفَّر مسكناً آمناً وبأسعار معقولة وخدمات اجتماعيّة شاملة للأفراد الذين لا مأوى لهم أو الأشخاص المعرَّضين لخطر التشرّد في جنوب نيو هامبشاير. ولنصائح ماكدونالدز: ناتالي هول، وراشيل دالينغ، وراشيل باتريك، وأوتمن كوبر، وكايلا أيلينغ، وبيلي شورت، وجيسيكا هوليس، وم. م، ونعومي داوسون، وجوي كلينك، وكيمبرلي رايت، وإميلي برادت، وسكينة الحساني.

وأشكر العديد من الأطبَّاء والممرّضات الذين شاركوني تجربتهم ولغتهم وأفضل قصصهم: مورين ليتلفيلد، وشونا بيرس، وإليزابيث جوزيف، وميندي دوبي، وسيسيليا بريلسفورد، وميغان سميث، والدكتور جوان بارتولد، إيريت ليبروت، والدكتور دان كيلي.

وأشكر الفريق القانونيّ البارع الذي أقسم بأنّ مسألة العِرق لا تُثار في قاعة المحكمة أبداً – وأرجو أن أكون قد غيَّرت رأيكم: ليز إيون، وليز جيشيدت، ومورين ماكبراين-بنجامين، وجانيت جيليجان – الذين كنتم أكثر من رائعين. وأشكر جينيفر سارجنت، لحضورها عند الساعة الحادية عشرة، وتأكّدت من مشاهد المحكمة لتوخّي الدقَّة.

وأشكر جين بيكو ولورا غروس على غضبهما وتأثرهما وتواضعهما في جميع الأماكن المناسبة عندما كانتا تقرأان المسوَّدات المبكرة. ويعود فضل اختيار العنوان لأوريول بيشوب. وأشكر أفضل فريق للنشر في هذا الكوكب: جينا سنتريلو، وكارا ويلش، وكيم هوفي، وديبي آروف، وسانيو ديلون، وراشيل كايند، ودينيس كرونين، وسكوت شانون، وماثيو شوارتز، وآن شباير، وبورش بورك، وتيريزا زورو، وباولو بيبي، وكاثرين ميكولا، وكريستين ميكيتشين، وكالي بارون. وأتوجَّه بشكر خاصّ للمحرّرة التي لا تُضاهى، جينيفر هيرشي التي تتحدَّاني حتّى تصبح كلّ كلمة في هذه

الصفحات ذات معنى وصحيحة. وأنا مدينة أيضاً إلى رئيسة فريق المشجّعين سوزان كوركوران التي أصبح لا غنى عنها إلى درجة أنّني لا أعرف كيف نجوت طوال هذه الفترة من دونها.

وإلى فرانك مينك وتيم زال – كانت شجاعتكما وتعاطفكما الأكثر إلهاماً لمدى مساهمتكما. أشكركما على دخولي في عالم الكراهية، ولإظهار كثيرين آخرين كيف يتخلّون عنها.

وإلى إيفلين كارينغتون، أختي وصديقتي، وشاينا – وإلى سيينا براون - كانت إحدى أعظم متع كتابة هذا الكتاب هي التعرُّف إليك. شكراً لك صدقك وشجاعتك وقلبك المفتوح. وإلى نيك ستون الذي عرف عندما كنتُ محاصرة في أتلانتا أنَّني سأكون صديقة مدى الحياة؟ لم يكن في وسعي أن أكتب هذه الرواية لولا أن تمسكي بيدي وتطلبي منّي ألّا أشكَّ في نفسي، فقد أدّت كلّ تلك النصوص المحمومة في وقت متأخّر من الليل إلى صدور هذه الرواية. شكراً لمنحي الثقة، ولتصحيح أخطاء فتاتي البيضاء، ولإيماني بأنّني أستطيع، ويجب أن أكتب هذه الرواية. لا أقوى على الانتظار حتّى تصل روايتك إلى الرفوف.

إلى كايل وكيفين فيريرا فان لير - أنتما الاثنتان اللتان أريد أن أكبر وأكون: أنموذجان للعدالة الاجتماعيَّة. شكراً لأنَّكما فتحتما عينيَّ على تلك الرياح المواتية. إلى سامي: شكراً لعودتك إلى المنزل من المدرسة وقولك: «كما تعلمين، أظنّ أنَّني أعرف شخصاً يجب أن تتحدَّثي إليه بشأن روايتك». وإلى جيك: شكراً لمعرفتك عن مكان ساحة وقوف السيّارات خلف محكمة مقاطعة نيو هافن، ولشرح قرارات المحكمة العليا لي. أعرف أنّك ستكون ذات يوم ذلك المحامي الذي سيغيّر العالم. وأشكر تيم الذي قدَّم لي كوب القهوة في هارفارد، «كوب امتياز البيض». أحبّك لأجل ذلك، ولأجل أيّ شيء آخر.

جودي بيكو

أشياء صغيرة عظيمة

في نهاية روايتها «أشياء صغيرة عظيمة» تقول المؤلفة جودي بيكو: إنها طالما أرادت أن تكتب رواية عن العنصرية في الولايات المتحدة، ومنذ البداية، أكدت على أنها «نشأت امرأة بيضاء تتمتع بامتياز طبقي في المجتمع»، وأجرت لسنوات عديدة أبحاثاً، ومقابلات شخصية كثيرة لكي تتمكن من التعبير عن أصوات الأشخاص الذين ليست مثلهم: رجال، ومراهقون، وأشخاص ذوي ميول انتحارية، وزوجات معنفات يتعرضن لسوء المعاملة، وضحايا اغتصاب. وتقول إنَّ ما دفعها إلى كتابة تلك القصص شعورها بالغضب، ورغبتها في منحها صوتاً ليزداد وعي أولئك الناس بالعنصرية.

حبكة الرواية مشوّقة، وبنيتها قوية، تمضي في وتيرة جيّدة وأسلوب سلس. لقد استفادت جودي بيكو من جميع الصور النمطية للسود: فهنا الأم السوداء الأرملة، والمرأة السوداء الغاضبة، والأَمَ، والخادمة، والمراهق، والواعظ المتميّز. إنَّ التناوب في فصول الرواية يظهر بوضوح الاختلاف في وجهات نظر روث، الأب الأبيض العنصري، تورك باور، ومحامية روث، كينيدي ماكواري. وقد نجحت الكاتبة عندما تركت الرواية تزداد رسوخاً في سرد كينيدي، حكاية امرأة بيضاء تظن أنها ليبرالية أكثر مما هي في الواقع. إنها رحلة كينيدي للتصالح مع أقاربها العنصريين والامتياز الذي يتمتّع به البيض، عندما تُدرك لأول مرة، انتشار العنصرية الأمريكية. هذه هي القصة الحقيقية هنا.





للدراسات والنشر والتوزيع


ISBN 978-9922-8599-8-9
9 789922 859989

Designed by: Maher Adnan